صحيح محمد بن إسماعيل

الجزء الثامن

منحة الملك الجليل

شرح

صحيح محمد بن إسماعيل

الجزء الثامن

مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (١٢)

منحة الملك الجليل

شرح

صحيح محمد بن إسماعيل

تأليف

عَبْدالعزيز بنِ عبْدالله الرَّاجحي

المجلد الثامن

كتاب تفسير القرآن - كتاب فضائل القرآن

الأحاديث من ٤٤٧٤ إلى ٥٠٦٢

الطبعة الثانية

١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م

تم الصف والإخراج

بمركز عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي

للاستشارات والدراسات التربوية والتعليمية

بسم الله الرحمن الرحيم

(٦٥)
كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بَابُ مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ

وَسُمِّيَتْ أُمَّ الكِتَابِ؛ لأنه يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي المَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ. وَ﴿ٱلدِّينِ﴾ الجَزَاءُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلدِّينِ﴾ الْحِسَاب ﴿مَدِينِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦] مُحَاسَبِينَ.

{٤٤٧٤} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي خُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّىٰ، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قَالَ لِي: لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟. قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة] هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالْقُرْآنُ العَظِيمُ الذِي أُوتِيتُهُ».

الشَّرْح

التفسير من أهم العلوم التي ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها؛ لأنه من أشرف العلوم؛ ولهذا قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول العلم: حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه»[(١)]. وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الإتقان»: «إن علم تفسير القرآن من فروض الكفايات، وهي أجل العلوم الثلاثة الشرعية»[(٢)] التي هي: علم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه. والصحابة - كما

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٢٩).
(٢) «الإتقان» (٢/ ٤٦٥).

هو معلوم - كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا معانيها ويعملوا بها.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا معانيها ويعملوا بها[(١)].

فطالب العلم بحاجة إلى أن يقرأ تفسير القرآن، ونحن في حاجة إلى مراعاة التفسير.

وقد شرع المؤلف ﵀ في تفسير الآيات القرآنية بما ثبت عنده على شرطه في تفسير الآيات من أول سورة الفاتحة إلى نهاية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [النَّاس: ١].

ويضم إلى ذلك أيضا تفسير الكلمات الغريبة؛ لأنه ﵀ حريص على الفائدة العلمية، فجعل كتابه جامعاً للتفسير والحديث والأسانيد والفقه واللغة؛ فهذا «الجامع» ضرب في كل علم من العلوم وكل فن من الفنون بسهم.

○ قوله: **«اسمان من الرحمة، الرحيم والراحم بمعنى واحد كالعليم والعالم»** وهذا في تفسير قول الله ﷿: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: ١]. والبسملة آية من أول كل سورة على الصحيح ما عدا سورة براءة، وأسماء الله ﷿ قسمان:

الأول: قسم خاص لا يسمى به إلا هو، مثل لفظ الجلالة الله، وهو أعرف المعارف؛ تقول: الإله هو الله، أصله الإله، وهو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وتعظيماً، وإله فعال بمعنى مفعول أي: مألوه، وأسماء الله تأتي بعده وصف له، والرحمن اسم خاص بالله؛ ولهذا لما تسمى مسيلمة بالرحمن»[(٢)].

ومن تلك الأسماء أيضا: رب العالمين، وخالق الخلق، ومالك الملك، والنافع الضار، والمعطي المانع، وذو الجلال والإكرام.

---

(١) أحمد (٥/ ٤١٠).

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (١/ ٨٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٤٣٩)، و«الأوسط» (٥/ ٨٩)) لصق به اسم الكذب، فلا يذكر مسيلمة إلا ويقال: مسيلمة الكذاب قبحه الله.

الثاني: أسماء مشتركة مثل: الرحيم والسميع والبصير والعزيز والعليم والقدير؛ يسمى بها الخالق ويسمى بها المخلوق، فالخالق له ما يخصه، والمخلوق له ما يخصه، فالرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة مصدر رحم، والرحيم والراحم بمعنى واحد.

وكلا اسمي الله الرحمن والرحيم صيغة مبالغة، وهما أبلغ من الراحم؛ لأن فعلان وفعيل صيغتا مبالغة؛ - رحمان على وزن فعلان، ورحيم على وزن فعيل - قال بعضهم: الرحمن عام للمؤمنين والكافرين، والرحيم خاص بالمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: الرحمن الرحيم «اسمان من الرحمة»، أي: مشتقان من الرحمة، والرحمة لغة: الرقة والانعطاف؛ وعلى هذا فوصفه به تعالى مجاز عن إنعامه على عباده»[(١)].

وهذا تأويل، والصواب إثبات صفة الرحمة لله على ما يليق به، فهي على حقيقتها وليست مجازاً، وهذا التأويل طريقة الأشاعرة؛ فالأشاعرة يقولون: الرحمة معناها الإنعام. لكن الصواب أن الرحمة غير الإنعام، وإنما الإنعام أثر الرحمة.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهي صفة فعل لا صفة ذات، وقيل: ليس الرحمن مشتقاً؛ لقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفُرقان: ٦٠]. وأجيب بأنهم جهلوا الصفة والموصوف؛ ولهذا لم يقولوا: ومن الرحمن، وقيل: هو علم بالغلبة؛ لأنه جاء غير تابع لموصوف في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، وفي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفُرقان: ٦٠]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥]، وغير ذلك»؛ وتعقب بأنه لا يلزم من مجيئه غير تابع أن لا يكون صفة؛ لأن الموصوف إذا علم جاز حذفه وإبقاء صفته.

○ قوله: «**الرحيم والراحم بمعنى واحد كالعليم والعالم**»، هذا بالنظر إلى أصل المعنى، وإلا فصيغة فعيل من صيغ المبالغة، فمعناها زائد على معنى

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٥٥).

الفاعل، وقد ترد صيغة فعيل بمعنى الصفة المشبهة، وفيها أيضًا زيادة؛ لدلالتها على الثبوت، بخلاف مجرد الفاعل فإنه يدل على الحدوث، ويحتمل أن يكون المراد: أن فعيلًا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول؛ لأنه قد يرد بمعنى مفعول فاحترز عنه، واختُلف: هل الرحمن والرحيم بمعنى واحد كالندمان والنديم؛ فجمع بينهما تأكيدًا، أو بينهما مغايرة؟ بحسب المتعلق فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة؛ لأن رحمته في الدنيا تعم المؤمن والكافر، وفي الآخرة تخص المؤمن، أو التغاير بجهة أخرى فالرحمن أبلغ؛ لأنه يتناول جلائل النعم وأصولها، تقول: فلان غضبان إذا امتلأ غضبًا، وأردف بالرحيم؛ ليكون كالتتمة ليتناول ما دق، وقيل: الرحيم أبلغ لما يقتضيه صيغة فعيل، والتحقيق أن جهة المبالغة فيهما مختلفة. وروى ابن جرير ﵀ من طريق عطاء الخرساني أن غير الله لما تسمى بالرحمن - كمسيلمة - جيء بلفظ الرحيم لقطع التوهم؛ فإنه لم يوصف بهما أحد إلا الله. وعن ابن المبارك ﵀: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، ومن الشاذ ما روي عن المبرد وثعلب: أن الرحمن عبراني والرحيم عربي، وقد ضعفه ابن الأنباري والزجاج وغيرهما، وقد وجد في اللسان العبراني لكن بالخاء المعجمة» والصواب: أنه عربي لا كما قال المبرد وابن الأنباري.

○ قوله: «**مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الكِتَابِ**» بين المؤلف ﵀ أن الفاتحة فاتحة الكتاب سميت بذلك لأمرين:

الأمر الأول: أنه يبدأ بكتابتها في المصحف.

الأمر الثاني: أنه يبدأ بقراءتها في الصلاة.

وهناك **أمر ثالث** - مهم - كان سببًا في تسميتها بأم الكتاب لم يذكره الشارح، وهو أن معاني القرآن كلها ترجع إليها؛ وذلك لأن فيها إثبات الربوبية والإلهية والمعاد وقصر الألوهية على الله فلا يستحق العبادة غيره، وسؤال الله الهداية: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٦-٧]، وفي الآية: بيان أقسام الناس:

الأول: المنعم عليهم.

الثاني: المغضوب عليهم.

الثالث: الضالون.

وفي السورة أيضا: بيان الصراط المستقيم وأهله، وأنهم هم المنعم عليهم الذين جمعوا بين العلم والعمل.

وفي السورة: بيان وجوب إفراد الله بالعبادة والتوكل عليه والاستعانة به وحده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

وفي السورة: إثبات فعل العبد وكسبه، ففيه: رد على الجبرية الذين يقولون: ليس للعبد فعل ولا كسب. فهذه المعاني العظيمة كلها أصول. وهي مجموعة في أم الكتاب؛ ومعاني القرآن كلها ترجع إليها؛ ولهذا سميت بأم الكتاب.

وفسر المؤلف رحمه الله الدين بالجزاء؛ فقال: «**وَ﴿الدِّينَ﴾ الجَزَاءُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ**»، وسمي يوم الدين؛ لأنه يوم الجزاء حيث يجازى الناس بأعمالهم؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، كما قال الله تعالى في سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزَلة: ٧-٨] «**كَمَا تَدِينُ تُدَانُ**».

○ قوله: «**وَقَالَ مُجَاهِدٌ**: ﴿بِالدِّينِ ۝٩﴾ [الانفطار: ٩] **الْحِسَاب**، ﴿مَدِينِينَ ۝٨٦﴾ [الواقِعَة: ٨٦] **مُحَاسَبِينَ**» الدين كلمة مشتركة لها معان متعددة؛ فتطلق على العبادة، وتطلق على الحساب، والجزاء بحسب السياق.

فمن إطلاقها على العبادة قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غَافر: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البيّنَة: ٥]، أي: مخلصين له العبادة.

ومن إطلاقها على الحساب والجزاء قوله تعالى في الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤]، يعني: يوم الجزاء والحساب.

وقد ذكر الشارح رحمه الله أن الفاتحة لها أسماء ومعان متعددة؛ فمن أسمائها: الكنز، والوافية، والشافية، والكافية، وسورة الحمد، والحمد لله، وسورة

الصلاة، وسورة الشفاء، والأساس، وسورة الشكر، وسورة الدعاء؛ وكذلك أيضا ذكر أسباب تسميتها أم الكتاب؛ لأن أم الشيء ابتداؤه وأصله؛ ومنه سميت مكة أم القرى؛ لأن الأرض دحيت من تحتها.

وكذلك الدين يطلق على العمل، وعلى الحكم، وعلى الحال، وعلى الخلق، وعلى الطاعة، وعلى القهر، وعلى الملة، وعلى الشريعة، وعلى الورع، وعلى السياسة.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قوله: «**وَسُمِّيَتْ أُمَّ الكِتَابِ؛ لأنه**» بفتح الهمزة «**يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي المَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ**» هو كلام أبي عبيدة ﵀ في أول «مجاز القرآن»، لكن لفظه: ولسور القرآن أسماء منها: أن الحمد لله تسمى أم الكتاب؛ لأنه يبدأ بها في أول القرآن وتعاد قراءتها فيقرأ بها في كل ركعة قبل السورة، ويقال لها: فاتحة الكتاب؛ لأنه يفتتح بها في المصاحف فتكتب قبل الجميع. اهـ.

وبهذا تبين المراد مما اختصره المصنف، وقال غيره: سميت أم الكتاب؛ لأن أم الشيء ابتداؤه وأصله، ومنه سميت مكة أم القرى؛ لأن الأرض دحيت من تحتها، وقال بعض الشراح: التعليل بأنها يبدأ بها يناسب تسميتها فاتحة الكتاب لا أم الكتاب، والجواب: أنه يتجه ما قال بالنظر إلى أن الأم مبدأ الولد، وقد سميت أم القرآن؛ لاشتمالها على المعاني التي في القرآن؛ من الثناء على الله تعالى والتعبد بالأمر والنهي والوعد والوعيد وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والفعل واشتمالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش؛ ونقل السهيلي عن الحسن وابن سيرين - ووافقهما بقي بن مخلد - كراهية تسمية الفاتحة أم الكتاب، وتعقبه السهيلي.

قلت ابن حجر: وسيأتي في حديث الباب تسميتها بذلك، ويأتي في تفسير الحجر حديث أبي هريرة ﵁ مرفوعًا: «**أم القرآن هي السبع المثاني**»[(١)]، ولا فرق بين تسميتها بأم القرآن وأم الكتاب، ولعل الذي كره ذلك وقف عند لفظ

(١) أحمد (٢/ ٤٤٨)، والبخاري (٤٧٠٤).

الأم، وإذا ثبت النص سقط ما دونه، وللفاتحة أسماء أخرى جمعت من آثار أخرى: الكنز والوافية والشافية والكافية وسورة الحمد والحمد لله وسورة الصلاة»[(١)].

ويدل على أن من أسمائها الصلاة ما جاء في الحديث القدسي: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، إذا قال العبد** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢]»[(٢)] يعني: الفاتحة.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسورة الشفاء، والأساس، وسورة الشكر، وسورة الدعاء».

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ «قوله: «**وَ**﴿ٱلدِّينَ﴾ **الجَزَاءُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ**» هو كلام أبي عبيدة أيضًا قال: الدين الحساب والجزاء».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**وَقَالَ مُجَاهِدٌ:** ﴿بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ [الانفِطار: ٩] **الْحِسَاب،** ﴿مَدِينِينَ ۝٨٦﴾ [الواقِعَة: ٨٦] **مُحَاسَبِينَ**» وصله عبد بن حميد في التفسير من طريق منصور عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ [الانفِطار: ٩] قال: بالحساب، ومن طريق ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦﴾ [الواقِعَة: ٨٦] غير محاسبين، والأثر الأول جاء موقوفًا عن ناس من الصحابة؛ أخرجه الحاكم من طريق السدي عن مرة الهمداني عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] قال: هو يوم الحساب ويوم الجزاء، وللدين معان أخرى منها: العادة والعمل والحكم والحال والخلق والطاعة والقهر والملة والشريعة والورع والسياسة، وشواهد ذلك يطول ذكرها».

{٤٤٧٤} قوله: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ**»؛ لأن معاني القرآن كلها ترجع إليها كما سبق؛ معاني الربوبية والإلهية والمعاد، وقصر الألوهية على الله، وسؤال الله الهدية إلى الصراط المستقيم، وبيان الصراط المستقيم

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٥٦).
(٢) أحمد (٢/ ٢٤١)، ومسلم (٣٩٥).

وأهله، وبيان وجوب إفراد الله بالعبادة والتوكل عليه والاستعانة به؛ وإثبات فعل العبد وكسبه؛ فهذه كلها ترجع إليها؛ ولهذا سميت أم القرآن، ولهذا كانت أعظم سورة في القرآن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه النبي ﷺ.

○ قوله: «السَّبْعُ المَثَانِي وَالْقُرْآنُ العَظِيمُ» الواو ليست عاطفة، وقيل: السبع المثاني مستقلة والقرآن العظيم مستقل، فالسبع المثاني هي الفاتحة، والقرآن العظيم الذي أوتيه النبي ﷺ بعد ذلك، وسميت بالمثاني؛ لأنها تثنى في كل ركعة؛ أي: تعاد، وقيل: إنه يثنى بها على الله، وقيل: إنها استثنيت لهذه الأمة؛ لأنها لم تنزل على من قبلها، وقيل: السبع المثاني هي السبع الطوال، وهو مردود؛ لما جاء في الحديث أنها هي الفاتحة(١).

وهذا الحديث فيه: فضل الفاتحة، وأنها أعظم سورة في القرآن، كما أن أعظم آية في القرآن هي آية الكرسي(٢).

○ قوله: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]» فيه: دليل على أن النبي ﷺ يجب إجابته في حياته ولو كان الإنسان في الصلاة؛ ولهذا أنكر النبي ﷺ على أبي سعيد بن المعلى لما دعاه وهو في الصلاة فلم يجبه، وأما الأب فإنه يجاب في النافلة دون الفريضة، وذلك إذا كان يعلم أنه يشق عليه، أما إذا كان يعلم أنه لا يشق عليه فيشير إليه ويسبح إذا كان يعلم أنه يسمح، وإذا كان يعلم أنه لا يسمح فيجيبه كما في قصة جريج الراهب: فإنه كان يصلي فدعته أمه فقال: ربي، أمي وصلاتي، فلم يجبها، وكررتها ثلاثًا؛ فدعت عليه وقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات(٣).

واستنبط بعضهم من الحديث أن إجابة المصلي دعاء النبي ﷺ لا تبطل الصلاة، وأن هذا من خصائصه، لكن هذا فيه بحث.

وفيه: دليل على أن الفاتحة سبع آيات؛ لقوله: «هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي»، وهذا

---

(١) أحمد (٢/٣٥٧)، والبخاري (٤٧٠٤).
(٢) الترمذي (٢٨٨٤).
(٣) البخاري (١٢٠٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

هو الصواب، وهذا نقل فيه الإجماع، وإن كان جاء عن الحسين بن علي أنها ست آيات؛ فلم يعد البسملة آية.

وروي عن عمرو بن عبيد أنها ثمان آيات؛ لأنه عَدَّ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وقيل: لم يعدها، وهذا غريب، والصواب أنها سبع آيات، وليست منها البسملة؛ فالفاتحة سبع آيات أولها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢]، والآية الثانية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفَاتِحَة: ٣]، والآية الثالثة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤]، والآية الرابعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، والآية الخامسة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: ٦]، والآية السادسة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والآية السابعة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٧]. والقول الثاني: أن البسملة هي الآية الأولى؛ وعلى هذا القول يكون: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٧] آية واحدة، لكن الصواب أن البسملة ليست من الفاتحة؛ والدليل على هذا الحديث القدسي: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين - فالصلاة: الفاتحة -. فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] **قال الله: حمدني عبدي**»[(١)]، ولو كانت البسملة آية من الفاتحة لقال الرب: فإذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم، «**ثم إذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، **قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، **قال: مجدني عبدي، فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ **قال: هذا بيني وبين عبدي، فإذا قال:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ **قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**».

هذا هو الصواب، ء العلماء يعد البسملة من الفاتحة، وهو الموجود في المصاحف الآن، فإذا فتحت المصحف تجد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ وكتب بعدها رقم واحد فعدوها آية، وجعلوا الآية السادسة والسابعة آية واحدة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٦-٧] وعلى هذا القول فإن بعض الأئمة

(١) أحمد (٢/ ٢٤١)، ومسلم (٣٩٥).

يسقط آية؛ لأنهم لا يقرءون البسملة، فإذا قام من الركعة الثانية يقول: الله أكبر، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] فتكون قراءته وصلاته باطلة؛ لأنه ترك آية، وهذا خطأ، والصواب فيها أنها سنة وليست آية، فلا تبطل صلاته؛ لأنه إن لم يبسمل فقد ترك سنة؛ فنقول على الإمام ألا يبادر هذه المبادرة الشديدة، فعندما يقوم لا يصل التكبير بالقراءة، بل يقوم ويكبر ويفصل التكبير عن القراءة بأن يتنفس فيقول: الله أكبر، ثم يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ويبسمل سرًا قبل القراءة، أما هذه المبادرة التي يفعلها بعض الأئمة بأن يصل التكبير بالقراءة مباشرة دون نفس؛ فهذا غلط، وكذلك أيضًا عند الركوع يقول مثلًا: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [النَّاس: ٦] فيقول: الله أكبر، ولا يسكت بينهما قليلًا، فينبغي للإنسان أن يسكت سكتة لطيفة، وهذه السكتة مشروعة؛ فهناك سكتتان مشروعتان: السكتة الأولى بعد تكبيرة الإحرام[(١)] للاستفتاح، والسكتة الثانية بعد الانتهاء من القراءة؛ حتى يرد إليه نفسه ثم يكبر.

وما يفعله بعض الأئمة لأحد أمرين:

الأول: الجهل.

الثاني: العجلة.

وهناك سكتة ثالثة مختلف فيها، وهي بعد الفاتحة؛ فمن العلماء من أثبتها، ومنهم من لم يثبتها.

وهذه السكتات ليس فيها دعاء يذكر؛ بل هي سكتات لطيفة يتنفس فيها الإمام ليفصل القراءة عن التكبير.

ومن أدلة من يقول: إن البسملة ليست من الفاتحة؛ أنه حصل اختلاف فيها، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩]، فلو كانت البسملة من الفاتحة ما حدث فيها خلاف.

---

(١) أحمد (٢/ ٤٩٤)، والبخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

بَابُ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]

{٤٤٧٥} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ سُمَيٍّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] فَقُولُوا: آمِينَ. فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلَائِكَةِ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

الشَّرْح

○ قوله: «باب ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]» «لا» هنا زائدة؛ لتأكيد النفي المستفاد من «غير».

{٤٤٧٥} هذا الحديث يدل على أن المأموم يقول: آمين، بعد قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٧] سواء سبق الإمام أو سبقه الإمام أو وافقه في قولها؛ فهي سنة مستحبة، وجاء في الحديث الآخر: «**إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له**»[(١)]، وقد فهم بعض العلماء من هذا الحديث - كالشيخ ناصر الدين الألباني ﷺ - أن المأموم لا يؤمن حتى يؤمن الإمام، وهذا ليس بجيد؛ فهذا الحديث: «إِذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ»، يلغي هذا الفهم؛ فإن هذا الحديث فيه أن المأموم يقولها بعد قول الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وليس مرتبطًا بقول الإمام: آمين. وقد جاء في الحديث الآخر: «**أن اليهود حسدونا على ثلاث؛ ومنها قولنا خلف الإمام: آمين**»[(٢)].

وظهرت بعض البدع في ذلك كما عند الرافضة وغيرهم؛ فهم لا يؤمِّنون بعد قراءة الإمام الفاتحة، فتكون بدعتهم هذه موافقة لليهود، والسنة أن الإمام في الصلاة الجهرية يجهر بها وكذلك المأموم جميعًا حتى يرتج المسجد.

(١) أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠).
(٢) ابن ماجه (٨٥٧).

٢- باب سُورَةُ البَقَرَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

بَابُ (١) قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]

{٤٤٧٦} حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ لِي خَلِيفَةُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوِ ٱسْتَشْفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ: أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هٰذا. فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ -وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ، فَيَسْتَحِي- ٱئْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ. فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ -وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ؛ فَيَسْتَحِي- فَيَقُولُ: ٱئْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ٱئْتُوا مُوسَىٰ: عَبْدًا كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ. فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ -وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ؛ فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ- فَيَقُولُ: ٱئْتُوا عِيسَىٰ: عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَةَ اللهِ وَرُوحَهُ. فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ٱئْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ: عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. فَيَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ حَتَّىٰ أَسْتَأْذِنَ عَلَىٰ رَبِّي؛ فَيُؤْذَنُ لِي فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُقَالُ: ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي -مِثْلَهُ- ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: «إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ». يَعْنِي: قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾

الشَّرْح

انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى تفسير سورة البقرة بعد أن انتهى من تفسير سورة الفاتحة وإنما يذكر من الأحاديث في تفسير الآيات ما كان على شرطه.

○ قوله: «باب قَوْلِه تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: ٣١]» يعني: ما جاء في تفسير هذه الآية من الأحاديث التي على شرطه، ذكر فيه حديث الشفاعة العظمى، وهي لإخراج عصاة المؤمنين من النار، فذكر في أول الحديث الشفاعة العظمى التي تكون في موقف القيامة التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل، فيشفع الله فيها نبينا محمدًا ﷺ، وهي عامة في أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، وهذا هو المقام المحمود الذي يسبق النبي ﷺ فيه الأولين والآخرين؛ قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

{٤٤٧٦} قوله: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوِ ٱسْتَشْفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ: أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ» هذا هو الشاهد لإتيان المؤلف بهذا الحديث في هذه الترجمة؛ حيث جاء به لتفسير قول الله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

○ وقوله: «وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ» قيل: المراد بالأسماء أسماء الذرية، وقيل: أسماء الملائكة، وقيل: أسماء الأجناس دون أنواعها، وقيل: أسماء كل ما في الأرض، وقيل: أسماء كل شيء، والراجح الأخير العام على أصل الحديث، وهذه الأمور ذكرها الناس في آدم؛ ليجدوا وسيلة يتوسلون بها إليه ليقبل أن يشفع، وهذه مزايا عظيمة وفضائل لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

○ قوله: «فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هٰذَا»، وهو موقف القيامة، فيعتذر آدم «فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ -وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ، فَيَسْتَحِي» يعني: حينما أكل من الشجرة، فعلى الرغم من أنه تاب منه إلا أنه مع ذلك يذكر ذنبه فيستحي منه.

○ قوله: «ٱئْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ» فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول رسول بعثه الله إلى أرضه وذلك بعد وقوع الشرك وحدوثه؛ فأرسل إلى

بنيه وغير بنيه، وإن كان قبله نبيان؛ هما: شيث وآدم، ولكن لم يقع الشرك في ذلك الوقت؛ لأن آدم ما أرسل إلا إلى ذريته فقط وكذلك شيث، فما وقع شيء من الشرك، ولكن وقعت معصية قتل قابيل لأخيه هابيل.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البَقَرَة: ٢١٣] قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام والتوحيد»[(١)]، ثم وقع الشرك فأرسل الله نوحًا أول رسول إلى أهل الأرض، وإن كان سبقه آدم وشيث إلا أنه أرسل إلى بنيه وغيرهم.

فيأتي الناس نوحًا فيعتذر «وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ؛ فَيَسْتَحِي» وذلك في قول الله تعالى له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هُود: ٤٦-٤٧].

وفي الرواية الأخرى: «**أنه اعتذر أنه دعا على أهل الأرض دعوة أغرقتهم**»[(٢)].

○ قوله: «أْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ»، يعني: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيعتذر الخليل ويقول: «لَسْتُ هُنَاكُمْ».

○ قوله: «أْتُوا مُوسَىٰ: عَبْدًا كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ» فهذه من الخصائص التي تميز بها نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله كلمه بدون واسطة وأعطاه التوراة - وإن كان شاركه في التكليم آدم ومحمد عليهما الصلاة والسلام -.

○ قوله: «فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ -وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ»، يعني: لما خرج فوجد الإسرائيلي والقبطي يقتتلان فاستغاثه الإسرائيلي على القبطي، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ﴾ [القَصَص: ١٥] وهذا قبل النبوة، ومع ذلك يعتذر استحياء من ربه.

○ قوله: «أْتُوا عِيسَىٰ: عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَةَ اللهِ وَرُوحَهُ. فَيَقُولُ: لَسْتُ

---

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٧٧) والطبراني في الكبير (٧٥٤٥). قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٦) ثابت.

(٢) الترمذي (٣١٤٨).

هُنَاكُمْ» كَلِمَتُه يعني أنه مخلوق بكلمة الله «كن»، وليس المراد أنه نفس الكلمة؛ بل هو مخلوق بالكلمة، فسمي كلمة الله؛ لأنه مخلوق بها، وذلك خلاف قول النصارى: إنه نفس الكلمة، فيقولون: إنه جزء من الله - والعياذ بالله - ويقولون: إنه ابن الله؛ وهذا كفر وضلال، و«روحه»، يعني: روح من الأرواح التي خلقها الله، أضيفت إلى الله للتشريف، كما يقال: عبد الله، ورسول الله، وناقة الله، وبيت الله؛ كذلك عيسى روح الله؛ فإضافة المخلوق إلى خالقه تشريف للمخلوق، ومع ذلك يعتذر عيسى عليه السلام.

○ قوله: «ٱئْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ: عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ» فيقول النبي ﷺ: «فَيَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ حَتَّىٰ أَسْتَأْذِنَ عَلَىٰ رَبِّي؛ فَيُؤْذَنُ لِي فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُقَالُ: ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» وهذا فيه أن النبي ﷺ لا يبدأ بالشفاعة أولًا، وإنما لابد من الإذن، فالنبي ﷺ لا يستطيع أن يشفع عند الله إلا بعد الإذن منه ﷻ، وكذلك غيره؛ قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]. فالنبي محمد ﷺ وهو أعظم الناس وجاهة عند الله تعالى لا يستطيع أن يشفع حتى يأتيه الإذن بذلك، وإنما يبدأ أولًا بالسجود فيسجد.

○ قوله: «فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ»، يعني: يحمد الله ويمجده ما شاء الله، بعد أن يأتيه الإذن من الله ﷻ في قول الله سبحانه له: «ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» هذا هو الإذن، فيقول: «فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ» والحديث فيه اختصار فهو ﷺ في الشفاعة العظمى يَشفع فيقول: يا رب شفعني في أن تقضي بين عبادك، رب أسألك أن تقضي بين عبادك، فيقضي الله بين عباده، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الشفاعة لإخراج العصاة من النار، وكأن الحكمة في كونه لم يذكر الشفاعة العظمى أن الشفاعة العظمى لا خلاف فيها؛ فكل يوافق عليها حتى أهل البدع من الخوارج والمعتزلة، أما الشفاعة في إخراج عصاة الموحدين فهذه خالف فيها الخوارج والمعتزلة وأهل البدع وأنكروها، مع أن الأحاديث متواترة في إخراج العصاة من الموحدين؛ لأن الخوارج والمعتزلة يرون تخليد العصاة في النار،

ويرون أنه لا شفاعة لهم؛ ولهذا أنكر عليهم أهل السنة وبدعوهم وضللوهم.

○ قوله: «فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ»، يعني: يحد الله له حدًا بالعلامة في النار فيقول أخرج منها من وصفه كذا وكذا، فيخرجهم من النار، قال: «ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي -مِثْلَهُ- ثُمَّ أَشْفَعُ»، يعني: يسجد ويشفع ويحمد الله ثم يأذن الله له بالشفاعة فيشفع، «فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ» هذه المرة الثانية، ثم يعود الثالثة فيسجد ويحمد الله، ثم يأتيه الإذن فيحد له حدًا فيدخلهم الجنة، ثم يعود الرابعة.

○ قوله: «مَا بَقِي فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ» يعني: هم الكفار؛ ولهذا قال أبو عبد الله البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «حبسه القرآن؛ يعني: قول الله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ [البَقَرَة: ١٦٢]» وهم الكفار المخلدون فيها المؤبدون، وهم الذين أخبر الله عنهم في القرآن أنهم مخلدون في النار؛ قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المَائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النَّبَإِ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسرَاء: ٩٧]، فهؤلاء هم الكفرة الذين حبسهم القرآن في النار فلا يخرجون منها أبد الآباد، وهذا ما قاله النبي ﷺ على حسب علمه؛ فقد ظن النبي ﷺ أنه لم يبق أحد من العصاة في النار، لكن جاء في الحديث الآخر: «**أنه يبقى بقية من العصاة لا تنالهم الشفاعة فيخرجهم رب العالمين برحمته فيقول الرب سبحانه: شفعت الملائكة وشفع النبيون ولم يبق إلا رحمتي، وأنا أرحم الراحمين. فيخرج قومًا من النار لم يعملوا خيرًا قط**»(١)؛ يعني: زيادة على التوحيد، فإذا تكامل خروج العصاة، ولم يبق في النار منهم أحد؛ أطبقت النار على الكفرة بجميع أصنافهم فلا يخرجون منها أبد الآباد، فهم الذين حبسهم القرآن كما قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾، وكما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البَقَرَة: ١٦٧].

(١) أحمد (٣/ ٩٤)، ومسلم (١٨٣).

بَابٌ

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤]: أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ. ﴿مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] اللهُ جَامِعُهُمْ. ﴿صِبْغَةَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٨] دين. ﴿عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] يَعْمَلُ بِمَا فِيهِ. وقال أبو العالية: ﴿مَّرَضٌ﴾ [البَقَرَة: ١٠]: شك. وقال غيره: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٩]: يلونكم، الولاية مفتوحة: مصدر الولاء، وهي الربوبية، إذا كُسِرت الواو فهي الإمارة، وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم. وقال قتادة: ﴿فَبَآءُو﴾ [البَقَرَة: ٩٠]: فانقلبوا. وقال غيره: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ [البَقَرَة: ٨٩]: يستنصرون، ﴿شَرَوْاْ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]: باعوا. ﴿رَٰعِنَا﴾ [البَقَرَة: ١٠٤]: من الرعونة، إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانا قالوا: راعنا. ﴿خُطُوَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٨]: من الخطوة، والمعنى: آثار.

الشَّرْح

هذا الباب في تفسير كلمات من القرآن الكريم نقلها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عن مجاهد، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ ينقل أحيانًا عن أبي عبيدة معمر بن المثنى وأحيانًا عن مجاهد، وهنا نقل عن مجاهد، ومجاهد أخذ التفسير عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ فقد قال رَحِمَهُ اللهُ: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها.

○ قوله: «قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ» هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤﴾ [البَقَرَة: ١٤].

○ قوله: «﴿مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾: اللهُ جَامِعُهُمْ»، هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البَقَرَة: ١٩].

○ قوله: «﴿صِبْغَةَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٨]: **دين**» قال العيني: أشار بهذا إلى الصبغة التي في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٨] مفسرة بالدين[١].

○ وقوله: «﴿عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٥]: **على المؤمنين حقًّا**»، أي: الصلاة؛ فالصلاة شاقة وصعبة إلا على المؤمنين المتقين.

○ وقوله: «﴿بِقُوَّةٍ﴾»، فسرها بقوله: «**يعمل بما فيه**»، وهذا في تفسير قوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البَقَرَة: ٦٣].

○ قوله: «**وقال أبو العالية: ﴿مَّرَضٌ﴾: شك**» يعني: في تفسير قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البَقَرَة: ١٠].

○ قوله: «**وقال غيره: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يلونكم**» يعني: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البَقَرَة: ٤٩].

○ وقوله: «**الولاية مفتوحة: مصدر الولاء، وهي الربوبية، إذا كسرت الواو فهي الإمارة**» قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وذكر البخاري هذه الكلمة - أي الولاية - وإن كانت في الكهف لا في البقرة؛ ليقوي تفسير ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يلونكم»[٢].

○ قوله: «**وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم**»، يعني: في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾ [البَقَرَة: ٦١].

○ قوله: «**وقال قتادة: ﴿فَبَآءُو﴾: فانقلبوا**» أي: في تفسير قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البَقَرَة: ٩٠].

○ قوله: «**وقال غيره: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: يستنصرون**» هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البَقَرَة: ٨٩].

---

(١) «عمدة القاري» (١٨/ ٨٤).
(٢) «فتح الباري» (٨/ ١٦٢).

○ قوله: «﴿شَرَوْاْ﴾: **باعوا**» هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]، والشراء يأتي بمعنى البيع.

○ قوله: «﴿رَٰعِنَا﴾: **من الرعونة، إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانًا قالوا: راعنا**»؛ فنهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا للنبي ﷺ: راعنا، وكانوا يقولونها بمعنى: انتبه لنا، واعتن بنا، أما اليهود فكانوا يستغلونها ويقولون: راعنا، من الرعونة، وهي: الضعف؛ فنهاهم الله تعالى عن هذه الكلمة التي هي مدخل لليهود، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البَقَرَة: ١٠٤].

○ قوله: «﴿خُطُوَٰتِ﴾: **من الخطوة والمعنى: آثار**» يعني: لا تتبعوا آثار الشيطان، وهذا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البَقَرَة: ١٦٨].

بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

{٤٤٧٧} حَدَّثَنِي عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ».

الشَّرْح

○ قوله: «﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]» الأنداد: جمع ند وهو الشبيه والنظير، وقيل: العِدل، يعني: لا تجعلوا لله أشباهًا ونظراء.

والند نوعان:

الأول: أكبر: وهو الشرك، بأن يجعل لله نِداً أكبر يدعوه كما يدعو الله أو يذبح له أو ينذر له؛ فهذا شرك أكبر.

الثاني: أصغر: كالحلف بغير الله، فيجعل المحلوف به ندًّا لله؛ لأن الله هو الذي يُحلف به، أو يقول: ما شاء الله وشئت، أو يقول: لولا الله وأنت، فيجعله لله ندًّا؛ حيث عطف بالواو مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق، فهذا من التنديد.

{٤٤٧٧} جاء هذا الحديث موافقًا لآية الترجمة، وهي قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وفسر ابن عباس في هذه الآية الند بالشرك الأصغر؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: الأنداد أخفى من دبيب النمل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كلبك هذا لأتى اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، ولولا الله وفلان،

فلا يجوز أن تجعل فيها فلانًا؛ لأن هذا كله شرك[١]. فجعل الحلف بغير الله والتشريك بين الخالق والمخلوق من التنديد الأصغر.

○ قوله: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» فقتل الولد وقتل النفس من أعظم الذنب.

○ قوله: «أَنْ تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ» فالزنا جرم عظيم، والزنا بحليلة الجار أعظم وأشد؛ لأن الجار له حق عظيم، وقد أنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفُرقان: ٦٨-٧٠].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٩).

بَابٌ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْمَنَّ﴾ صَمْغَةٌ. ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طائر.

{٤٤٧٨} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ».

الشَّرْح

هذه الآية نزلت في بني إسرائيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، وقد أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يفتحوا بيت المقدس فرفضوا وامتنعوا فعاقبهم الله بالتيه كما في الآية: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المَائدة: ٢٦] حتى مات هذا الجيل وجاء جيل جديد تربوا على الجهاد، فعند ذلك فتح بهم بيت المقدس، ولما كانوا في التيه هذه المدة امتن الله تعالى عليهم بنعم عظيمة منها أنه ظلل عليهم الغمام والسحاب من شدة الحر.

○ قوله: «﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾»، هي من النعم كذلك التي جعلها الله لبني إسرائيل في هذا التيه أن أنزل عليهم المن والسلوى؛ والمن شيء مثل العسل ينزل عليهم من السماء على منبت الشجر، والسلوى طير يأكلونه.

ومن النعم التي جعلها الله لهم أيضًا أن جعل لنبيه موسى عليه السلام حجرًا يأخذونه أينما ذهبوا، فإذا نزلوا وضعوه فيضربه موسى بعصاه، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [البَقَرَة: ٦٠] فيخرج منه اثنتا عشرة عينًا؛ لكل سبط - وهي القبيلة - عين؛ حتى لا يتنازعوا، وعلى الرغم من كل هذه النعم إلا أنهم عتوا وتعنتوا كثيرًا.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْمَنَّ﴾ [البَقَرَة: ٥٧]: صَمْغَةٌ، ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٥٧]: طَائِر» هذا تفسير مجاهد ﵀ للمن والسلوى، وإن كان هناك تفسيرات أخرى.

{٤٤٧٨} قوله: «الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ» هي نبتة معروفة تسمى الآن (الفقع)، يعني: أنه من المن الذي أنزل على بني إسرائيل.

○ قوله: «وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» يعني: ماء الكمأة شفاء للعين، وقد ذكر الحافظ ابن حجر ﵀ عن مجاهد أثرًا عن ابن عباس ﵄ قال: «كان المن ينزل على الشجر فيأكلون منه ما شاءوا. ورواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة، ومن طريق عكرمة قال: كان مثل الرُّب الغليظ. وذكر أيضًا من طريق وهب أن الطير يسمى السماني هو طير سمين مثل الحمام»(١).

○ وقوله: «الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» مطلق، وجاء في رواية ابن عيينة: «**الكمأة من المن الذي أنزل على بني إسرائيل**»(٢)، وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة.

وهذه الرواية ترد قول الخطابي ﵀: «لا وجه لإدخال هذا الحديث في الترجمة؛ لأنه ليس المراد في الحديث أنها نوع من المن المنزل على بني إسرائيل؛ فإن ذاك شيء كان يسقط عليهم كالترنجبيل».

والكمأة شفاء للعين بنص حديث الرسول ﷺ، لكن تحتاج إلى معرفة أهل الخبرة بالطريقة التي يعملونها، هل تشوى ثم تعصر؟ أو غير ذلك؛ فلابد من مراجعة أهل الخبرة، وكذلك ينظر الداء التي تكون له شفاء.

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٦٤) - باختصار -.
(٢) مسلم (٢٠٤٩).

بَابٌ

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾

الآية [البقرة: ٥٨]

﴿رَغَدًا﴾: واسِعاً كَثِيراً.

{٤٤٧٩} حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِي، عَنِ ابن المُبَارَكِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَىٰ أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِطَّةٌ، حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ».

الشَّرح

جاءت هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿رَغَدًا﴾، فسر المؤلف رحمه الله الرغد: بالواسع الكثير، وقيل: الهنيء.

{٤٤٧٩} قوله: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾» يعني: باب بيت المقدس.

○ قوله: «﴿سُجَّدًا﴾» يعني: شكرًا لله؛ أي: يدخلونه وهم راكعون، والراكع يسمى ساجدًا.

○ قوله: «﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾»، يعني: سلوا ربكم أن يحط عنكم خطاياكم؛ أي قولوا: يا الله حط عنا خطايانا واغفر لنا، ولكنهم غيروا بالقول وبالفعل، وذلك من عتوهم وعنادهم؛ غيروا بالفعل حينما أمرهم الله ﷻ أن ادخلوا الباب وأنتم راكعون خضوعًا لي، فدخلوا يزحفون على أدبارهم، فغيروا ما أمروا به،

وغيروا بالقول حينما أمرهم الله أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ فقالوا: «حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ» يعني: في شعيرة، أو حبة شعيرة، وفي رواية: «**حنطة**»[(١)]، فغيروا بالقول وبالفعل.

فاليهود - لعنهم الله - أمروا أن يقولوا: حطة، فقالوا: حنطة، فزادوا نونًا؛ سخرية واستهزاء، وكذلك الجهمية الذين أنكروا صفات الله وأنكروا الاستواء زادوا لامًا فقالوا في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]: استولى؛ ولهذا يقول العلماء: لامُ الجهمية في [استولى] كنون اليهود في [حنطة] - نسأل الله العافية من العتو والاستكبار -.

(١) أحمد (٢/ ٣١٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٨٦).

بَابُ قَوْلُهُ:

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: جَبْرَ، وَمِيكَ، وَسَرَافِ: عَبْدٌ. إِيلْ: اللهُ.

{٤٤٨٠} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُنِيرٍ، سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَىٰ أَبِيهِ أَوْ إِلَىٰ أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا». قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلَائِكَةِ. فَقَرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ: فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ نَزَعَتْ». قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتُونِي. فَجَاءَتِ اليَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللهِ فِيكُمْ». قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا. قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ». فَقَالُوا أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذٰلِكَ. فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا. وَانْتَقَصُوهُ. قَالَ فَهٰذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللهِ.

الشَّرْح

○ قوله: «باب ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ [البَقَرَة: ٩٧]» وهم اليهود، وسبب عداوتهم لجبريل عليه السلام أنه هو الذي ينزل عليهم بالعذاب والعقاب، وقيل غير ذلك.

○ قوله: «وَقَالَ عِكْرِمَةُ: جَبْرَ، وَمِيكَ، وَسَرَافِ»، يعني: جبريل وميكائيل وإسرافيل كلمة مكونة من كلمتين مزجتا، والكلمة الأولى «جبر» ومعناها: عبد، والثانية: «إيل» ومعناها: «الله»، فجبريل معناها عبد الله، وكذلك ميكائيل مكونة من كلمتين الأولى: «ميك» ومعناها أيضًا: عبد، والثانية: «إيل»، يعني: «الله»، وكذلك إسرافيل، مكونة من كلمتين الأولى: «سراف»، يعني: عبد، والثانية: «إيل»، وذلك في غير اللغة العربية.

{٤٤٨٠} جاء هذا الحديث على هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البَقَرَة: ٩٧] وفيه: قصة إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه حبر اليهود، وهو من الأفراد القلة الذين أسلموا، فاليهود لم يسلم منهم إلا قلة قليلة؛ لأن اليهود عندهم عناد واستكبار، على الرغم من أن معهم علمًا ولكنهم لم يعملوا به، بخلاف النصارى فإنه أسلم منهم الجم الغفير كما حدث ذلك في المملكة؛ وذلك بسبب توعية الجاليات في أنحاء المملكة، ولم نسمع أن يهوديًا واحدًا أسلم أبدًا، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لو أسلم عشرة من اليهود لأسلم بقيتهم**» أو «**لكان غيرهم تبعًا لهم**»[(١)].

وهذا عبد الله بن سلام رضي الله عنه منّ الله عليه بالإسلام وشهد له أيضًا بالجنة.

○ قوله: «سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ»، يعني: يجني الثمر.

○ قوله: «فَأَتَى النَّبِي صلى الله عليه وسلم» يريد أن يختبره ويعلم صدقه حتى يتيقن أنه نبي الله، فلما أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِي»، علم هذا من الكتب السابقة؛ لأنه كان يقرأ التوارة وكان من علماء بني إسرائيل.

○ قوله: «فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَىٰ أَبِيهِ أَوْ إِلَىٰ أُمِّهِ؟»، يعني: ما السبب الذي يجعل الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا»، يعني: قريبًا.

(١) البخاري (٣٩٤١)، ومسلم (٢٧٩٣).

○ قوله: «قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلَائِكَةِ»، يقصد جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد جاء في الحديث الآخر: «**أنه قال لجبريل - كذا قالوا: جبريل الذي يأتي بالعذاب والهلاك، لو قلت: ميكائيل الذي يأتي بالخير والمطر لاتبعناك**»[١].

○ قوله: «فَقَرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٩٧]».

ثم أجابه النبي ﷺ عن الأسئلة فقال: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ» وهذه النار ليست النار التي تخرج من قعر عدن في الجنوب من اليمن إلى المحشر الذي في آخر أشراط الساعة الكبار، بل هذه نار أخرى؛ وأول الأشراط قبل الأشراط الكبار المهدي ثم الدجال، فهما ناران؛ نار من المشرق ونار من الجنوب، وقال بعض العلماء: بل هي نار واحدة تخرج أولا من المشرق ثم تعدل إلى الجنوب، ولكن القول الأول أرجح.

○ قوله: «وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ: فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ» يعني: القطعة الزائدة في الكبد، وهي ألذ ما في الكبد؛ فكبد الحوت فيه قطعة زائدة صغيرة متدلدلة تسمى زيادة كبد الحوت فهذا هو أول طعام أهل الجنة، وهذا الحوت ضخم، فهذه الزيادة تكفي أهل الجنة، وقد جاء أيضًا في الحديث الآخر: «**أن هناك ثورًا ينحر لأهل الجنة فيأكلون من زائدة كبده**»[٢].

○ قوله: «وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ المَرْأَةِ نَزَعَ الوَلَدَ»، يعني: نزع إلى أبيه.

○ قوله: «وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ المَرْأَةِ نَزَعَتْ»، يعني: نزعت المرأة، وفي اللفظ الآخر يقول: «**إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة كان الشبه له، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل كان الشبه لها**»[٣].

---

(١) «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٤١-٢٤٢).
(٢) أحمد (٣/١٠٨)، والبخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢).
(٣) أحمد (٣/١٠٨)، والبخاري (٣٣٢٩).

فعرف عبد الله ﷺ صدق النبي ﷺ فقال: «قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ».

○ قوله: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ»، يعني: أن اليهود يخفون الحقائق ويجحدون الحق.

○ قوله: «وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتُونِي. فَجَاءَتِ اليَهُودُ»، أي: واختفى عبد الله رضي الله عنه داخل البيت، وفي الحديث الآخر: «**فأخبئني عندك وابعث إليهم فتسألهم عني**»[1]، فقال النبي ﷺ يسأل اليهود لما جاءوا إليه: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللهِ فِيكُمْ. قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا»، يعني: أنه من رؤسائهم، فقال لهم النبي ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ. فَقَالُوا أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ» وهذا من شدة بغضهم للإسلام، يسألون الله أن يعيذه من الإسلام؛ «فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ»، يعني: من المكان الذي اختفى فيه وأعلن إسلامه قائلًا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا. وَانْتَقَصُوهُ»، وذلك من شدة خبثهم؛ فقال عبد الله بن سلام: «فَهٰذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللهِ».

---

(١) أحمد (٣/ ٢٧١).

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]

{٤٤٨١} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ حَبِيبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﷺ: أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ؛ وَذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ لَا أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

الشَّرْح

{٤٤٨١} قوله: «أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ»؛ لأنه ﷺ كان يسمع القراءة من النبي ﷺ ويقول: «لَا أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ» وقد تكون هذه الآية منسوخة.

وقد تكلم الحافظ ابن حجر ﷺ على هذا فقال: «في رواية صدقة: «**من لحن أُبيٍّ**»[(١)]، ثم قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وفي رواية ابن خلاد: «**وإنا لنترك كثيرًا من قراءة أُبيٍّ**»[(٢)]؛ ذلك لأن أبيًّا يقول: «لَا أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ» فبسماعه من رسول الله ﷺ يحصل له العلم القطعي به، فإذا أخبره غيره عنه بخلافه فإنه لا ينتهض معارضًا له حتى يصل إلى درجة العلم القطعي؛ ولهذا قال عمر ﷺ: «وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ»؛ لأنه قد يكون نسخ فيكون متمسكًا بمنسوخ.

وهذا الحديث على هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، والآية فيها قراءتان:

الأولى: ﴿نُنسِهَا﴾ من النسيان؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: ٦].

---

(١) أحمد (٥/ ١١٣)، والبخاري (٥٠٠٥).
(٢) «فتح الباري» (٨/ ١٦٧).

الثانية: ﴿ننسئها﴾، أي: نؤخرها.

والحديث فيه: إثبات النسخ في القرآن الكريم.

وفيه: الرد على اليهود الذين أنكروا النسخ في كتاب الله؛ ولهذا ذكر الشارح رَحِمَهُ اللهُ قال: «واستدل بالآية المذكورة على وقوع النسخ خلافا لمن شذ»[(١)]، فاليهود أنكروا النسخ وقالوا: إنه يلزم منه البداء على الله، يعني: أنه بدا له شيء لم يكن عالمًا به، وهذا من جهلهم وضلالهم، فالله تعالى بين الحكمة ولا يلزم منه بداء، فالنسخ له حكم.

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٦٧).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]

{٤٤٨٢} حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابن آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ: فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا».

الشَّرْح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البَقَرَة: ١١٦]».

{٤٤٨٢} هذا الحديث القدسي على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾، والحديث القدسي من كلام الله لفظًا ومعنًى؛ بخلاف الحديث غير القدسي، فإنه من الله معنى ومن النبي ﷺ لفظًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النّجم: ٣-٤]، إلا أن للحديث القدسي أحكامًا تختلف عن القرآن؛ فالقرآن لا يمسه إلا المتوضئ، والحديث القدسي يمسه غير المتوضئ، والقرآن معجِز، والحديث القدسي غير معجِز، والقرآن يقرأ به في الصلاة، والحديث القدسي لا يقرأ به في الصلاة.

○ قوله: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابن آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ. فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ: فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ»، يعني: تكذيب الله ﷻ في قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يُونس: ٣٤].

○ قوله: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ: فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا» الشتم أوسع من اللعن، فكل ذم أو تنقص يسمى شتمًا، والذم يسمى لعنًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يعني: المذمومة، وذلك

فـي قـولـه تـعـالـى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝٦٥﴾ [الصَّافات: ٦٤-٦٥] فهذا ذم لها وسماه الله لعنًا.

وفيه: أن من قال: إن لله ولدًا، فهو كافر؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَـٰنَهُۥۖ﴾ [البَقَرَة: ١١٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التّوبَة: ٣١].

إذن فقد ذكر الحديث نوعين من الكفر:

النوع الأول: تكذيب الله بإنكار البعث، وقد قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ [يُونس: ٣٤].

النوع الثاني: نسبة الولد إلى الله، وهذا كفر أيضًا؛ لأنه تنقص لله ﷻ، وشتم له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بَابُ قَوْلُهُ:

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]

﴿مَثَابَةً﴾ [البقرة: ١٢٥] يَثُوبُونَ إليه أي: يرجعون.

{٤٤٨٣} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: وَافَقْتُ اللهَ فِي ثَلَاثٍ -أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ- قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ ٱتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّى؟ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ البَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الحِجَابِ. قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ: إِنِ ٱنْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ خَيْرًا مِنْكُنَّ. حَتَّىٰ أَتَيْتُ إِحْدىٰ نِسَائِهِ، قَالَتْ يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ الآية [التحريم: ٥].

وَقَالَ ابن أَبِي مَرْيَمَ: أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ، حَدَّثَنِي حُمَيْدٌ، سَمِعْتُ أَنَسًا، عَنْ عُمَرَ.

الشَّرْح

قوله: «﴿مَثَابَةً﴾ يَثُوبُونَ إليه أي: يرجعون» هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] وكان ينبغي أن يكون هذا التفسير في الباب الذي بعد هذا.

❖ ❖ ❖

{٤٤٨٣} هذا الحديث على قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

○ قوله: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ ٱتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّى؟» هذا هو الشاهد لإتيان المؤلف بهذا الحديث.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قال ابن الجوزي: إنما طلب عمر الاستنان

بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع النهي عن النظر في كتاب التوراة؛ لأنه سمع قول الله تعالى في حق إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [النّحل: ١٢٣] فعلم أن الائتمام بإبراهيم من هذه الشريعة، ولكون البيت مضافًا إليه، وأن أثر قدميه في المقام كرقْم الباني في البناء؛ ليذكر به بعد موته، فرأى الصلاة عند المقام كقراءة الطائف بالبيت اسم من بناه». انتهى. وهي مناسبة لطيفة.

ثم قال: ولم تزل آثار قدمي إبراهيم حاضرة في المقام معروفة عند أهل الحرم حتى قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

فأقسم أبو طالب بموطئ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان المقام من عهد إبراهيم لزق البيت إلى أن أخره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المكان الذي هو فيه الآن؛ أخرجه عبد الرزاق في مصنفه بسند صحيح عن عطاء وغيره، وعن مجاهد أيضًا[(١)]، وأخرج البيهقي عن عائشة مثله بسند قوي، ولفظه: أن المقام كان في زمن النبي ﷺ وفي زمن أبي بكر ملتصقًا بالبيت ثم أخره عمر[(٢)]، وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن مجاهد أن النبي ﷺ هو الذي حوله، والأول أصح، وقد أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عيينة قال: كان المقام في سقع البيت في عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر فجاء سيل فذهب به فرده عمر إليه. قال سفيان: لا أدري أكان لاصقًا بالبيت أم لا؟[(٣)] انتهى. ولم تنكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم؛ فصار إجماعًا، وكان عمر رأى أن إبقاءه يلزم منه التضييق على الطائفين أو على المصلين فوضعه في مكان يرتفع به الحرج، وتهيأ له ذلك؛ لأنه الذي كان أشار باتخاذه مصلى» ولكنه أبعد الآن وصارت بينه وبين البيت مسافة.

(١) عبدالرزاق في «المصنف» (٥/ ٤٧، ٤٨).
(٢) البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٤٤٠).
(٣) ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٢٦).

○ قوله: «وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ البَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الحِجَابِ» فيه: غيرة عمر ﵁ الشديدة على زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين.

○ قوله: «وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ: إِنِ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ خَيْرًا مِنْكُنَّ. حَتَّىٰ أَتَيْتُ إِحْدىٰ نِسَائِهِ، قَالَتْ يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّىٰ تَعِظَهُنَّ أَنْتَ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]» قد عاتب النبي ﷺ بعض نسائه؛ لأنهن اجتمعن عليه وطلبن منه النفقة فاعتزلهن، فجعل عمر ﵁ يدخل على نساء النبي ﷺ يعظهن حتى أتى إحدى نسائه؛ وذكر في حديث آخر أنها أم سلمة، قالت: «**يا عمر، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟**»(١) يعني: ألا يكفي النبي ﷺ واعظا لزوجاته فتأتي أنت تتدخل بينه وبين أزواجه؟! وفي الحديث الآخر قال: «**فكسرت ما في نفسي بعض الشيء**»(٢).

○ قوله: «وَقَالَ ابن أَبِي مَرْيَمَ: أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ، حَدَّثَنِي حُمَيْدٌ، سَمِعْتُ أَنَسًا، عَنْ عُمَرَ» قال الحافظ ابن حجر ﵀: «مراده بذلك أن عنعنة حميد في هذا الحديث غير مؤثرة؛ لأنه ورد عنه التصريح بالسماع».

---

(١) أحمد (١/ ٢٤)، والبخاري (٤٤٨٣).
(٢) البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ الآية [البقرة: ١٢٧]

القواعِدُ: أساسُهُ. واحدتُها: قاعِدَةٌ.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ واحدتهنَّ قاعدٌ.

{٤٤٨٤} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنِ ابنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ أَخْبَرَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ بَنَوُا الكَعْبَةَ وَاقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَرُدُّهَا عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ». فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: لَئِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هٰذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أُرَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَرَكَ ٱسْتِلَامَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الحِجْرَ، إِلَّا أَنَّ البَيْتَ لَمْ يُتَمَّمْ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ.

الشَّرح

○ قوله: «باب قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٢٧]» فسر المؤلف رحمه الله «القواعِدُ» بأنها الأساس الذي يكون عليه البناء، فقواعد البيت أساسه و«واحدتها قاعِدَةٌ»، وفي قول الله تعالى: «﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النُّور: ٦٠] واحدتهنَّ قاعدٌ» أوضح المؤلف بذلك أن القواعد جمع لشيئين هما: أساس البناء، والقواعد من النساء، فالجمع واحد لكن المفرد مختلف، فالقواعد: بمعنى أساس البناء مفرده قاعدة، وأما القواعد بمعنى: النساء القواعد عن الحيض والاستمتاع فمفردها قاعد، وأما القواعد التي هي ضد الواقفات فمفردها قاعدة.

{٤٤٨٤} قوله: «أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ بَنَوُا الكَعْبَةَ وَاقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟» اقتصروا عن قواعد إبراهيم؛ لأنهم أخرجوا الحجر وهو سبعة أذرع

ونصف أو ستة أذرع ونصف من الكعبة، وكان إبراهيم عليه السلام قد أدخلها، وكان السبب في إخراجها أن النفقة قد قصرت بهم؛ لأنه لما تصدع البيت هدموه وأرادوا أن يبنوه من جديد قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنين، فقالوا: لا نبني الكعبة إلا بمال حلال. فجمعوا المال الحلال فلم يجدوا ما يكفي منه لبناء الكعبة، فالحرام كثير والحلال قليل، فلما لم يجدوا ما يكفي فبنوا الكعبة بما استطاعوا، وأخرجوا الباقي وهو الحجر، وهذا معنى قول النبي ﷺ «أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ بَنَوُا الكَعْبَةَ وَاقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟».

○ قوله: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَرُدُّهَا عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟» يعني: ترجعها كما كانت، فبين النبي ﷺ المانع من ذلك فقال: «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ»، فإن قلوبهم لا تتحمل هذا؛ لأنهم أسلموا قريباً، فقد تنكر قلوبهم هذا، فخشي النبي ﷺ أن يرتد بعضهم؛ فمن أجل ذلك لم يبن النبي ﷺ الكعبة على قواعد إبراهيم؛ دفعاً للمفسدة التي هي مفسدة الكفر، وأخذ العلماء من ترك النبي ﷺ رد الكعبة إلى قواعد إبراهيم - خوفًا من أن تنكره قلوب قريش لقرب عهدهم بالكفر - بعض القواعد:

القاعدة الأولى: أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة؛ حيث درأ النبي ﷺ المفسدة وهي الكفر المترتب على المصلحة وهي بناء الكعبة على قواعد إبراهيم.

القاعدة الثانية: أنه إذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن درؤهما معًا فإنه تُدرأ المفسدة الكبرى وتُرتكب الصغرى، وهذه قاعدة شرعية أخذت من هذا الحديث وغيره، فعندنا الآن مفسدتان؛ مفسدة بقاء البيت على غير قواعد إبراهيم، ومفسدة إنكار قلوب الناس وخشية الكفر عليهم، فمفسدة الكفر أعظم من مفسدة ترك الكعبة على غير قواعد إبراهيم، فدرأها النبي ﷺ وترك المفسدة الصغرى وهي كون البيت على غير قواعد إبراهيم.

القاعدة الثالثة: أنه إذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن فعلهما معاً فإنه تفعل الكبرى منهما وإن فاتت الصغرى، فالمصلحة الكبرى هنا المحافظة على قلوب الناس حتى لا يرتدوا، والمصلحة الصغرى أن يكون البيت على قواعد إبراهيم.

○ قوله: «**فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: لَئِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هٰذا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أُرىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَرَكَ ٱسْتِلَامَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الحِجْرَ، إِلَّا أَنَّ البَيْتَ لَمْ يُتَمَّمْ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ**»، يعني: أن ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ كان إذا طاف استلم الركن اليماني والركن الأسود يمسحهما بيده، أما الركن العراقي والشامي فكان لا يستلمهما؛ لأن اليماني والأسود كانا على قواعد إبراهيم، والعراقي والشامي ليسا على قواعد إبراهيم؛ ولهذا لما طاف معاوية رضي الله عنه بالبيت فجعل يستلم الأركان الأربعة كلها: الركن اليماني والأسود والشامي والعراقي، أنكر عليه ابن عباس وقال: لا تستلم الركنين اللذين يليان الحجر. فقال معاوية: يا ابن عباس، أفي البيت شيء مهجور؟ فقال له ابن عباس: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولم أر النبي ﷺ يستلم إلا الركنين اليمانيين. قال: صدقت، ورجع إلى قوله[١].

ولما بنى عبد الله بن الزبير الكعبة عندما تولى الخلافة في الحجاز روت له عائشة الحديث فقال: الآن زالت المفسدة وأسلم الناس ولا يخشى عليهم من الردة، فهدم الكعبة وأدخل الحجر وبناها على قواعد إبراهيم وفتح بابًا غربيًا؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لولا أن قومك حديث عهد بكفر لنقضت الكعبة وأدخلت الحجر وجعلت لها بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا**»[٢] يعني: بابًا يدخل الناس منه وبابًا يخرجون منه، فابن الزبير عمل بالحديث وجعل يستلم الأركان الأربعة كلها؛ وذلك لأنه بناها على قواعد إبراهيم، لكن بعد ذلك قاتله عبد الملك بن مروان ووكل المهمة إلى الحجاج بن يوسف أمير العراق، وفي النهاية كانت الغلبة للحجاج بن يوسف فقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وصلبه على خشبة وهدمت الكعبة؛ لأن الحجاج قد رماها بالمنجنيق، وعندما بناها أخرج الحجر وسد الباب الغربي ورفع الباب الشرقي، وجعلها على ما كانت عليه في الجاهلية.

ويقال: إن أبا جعفر المنصور سأل الإمام مالك: هل يعيدها كما فعل

(١) الطبراني في «الأوسط» (٣/ ١٧).
(٢) أحمد (٦/ ١٧٩)، والبخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣).

ابن الزبير ويعمل بالحديث؟ فأشار عليه الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ بألا يفعل؛ خشية أن تكون الكعبة ملعبة للملوك، فكان رأي الإمام مالك سديدًا، وبقيت على بناء الحجاج إلى اليوم.

وعندما هدمت قريش الكعبة وجدوا الأساس حجارة خضرًا هي قواعد إبراهيم، فلما حركها رجل ارتجت مكة كلها وأصابها زلزال، فتركها ولم يحرك منها شيئًا.

والثابت في القرآن أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي بنى الكعبة، أما من يقول: إن آدم أو الملائكة هم الذين بنوها؛ فهذه كلها أخبار تحتاج إلى ثبوت.

بَابُ قولِهِ:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]

{٤٤٨٥} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ المُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآيَةَ.

الشَّرْح

{٤٤٨٥} قوله: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»، يعني: فيما لم يأت شرعنا بتصديقه أو تكذيبه؛ وفي الحديث الآخر: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، إنهم قوم قد كانت فيهم الأعاجيب**»(١)؛ لأن ما جاء عن أهل الكتاب ثلاثة أقسام كما نبه على ذلك أهل العلم كشيخ الإسلام وابن القيم والحافظ ابن كثير وغيرهم:

القسم الأول: ما جاء شرعنا بموافقته وتصديقه، فهذا حق يصدق.

القسم الثاني: ما جاء شرعنا بتكذيبه ورده، فهذا باطل يرد.

القسم الثالث: ما لم يأت شرعنا بتصديقه ولا تكذيبه، فهذا لا يصدق ولا يكذب كما جاء في هذا الحديث.

ويؤخذ من هذا الحديث كما ذكر الحافظ ابن حجر ﷺ: التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها لما يقع في الظن.

(١) أحمد (٣/ ١٢).

بَابُ قولِهِ

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ الآية [البقرة: ١٤٢]

{٤٤٨٦} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، سَمِعَ زُهَيْرًا، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ رضيٰ الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّىٰ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا -أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا- وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَإِنَّهُ صَلَّىٰ -أَوْ صَلَّاهَا- صَلَاةَ العَصْرِ، وَصَلَّىٰ مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّىٰ مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَىٰ أَهْلِ المَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ قَالَ: أَشْهَدُ باللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ. فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَ الذِي مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ البَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا، لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

الشَّرْح

{٤٤٨٦} هذا الحديث على هذه الآية الكريمة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ١٤٢] والسفهاء جمع سفيه وهو خفيف العقل، وأصله من قولهم: ثوب سفيه؛ أي: خفيف النسج.

وقد اختلف العلماء في المراد بالسفهاء، فقيل: هم اليهود، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هم الكفار المشركون؛ والآية تشمل مواصفات الكفار والمنافقين واليهود.

أما الكفار - وهم كفار قريش - فقالوا لما حولت القبلة: رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا؛ فإنه علم أنا على الحق.

وأما أهل النفاق فقالوا: إن كان أولاً على الحق فالذي انتقل إليه باطل وكذلك العكس.

وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء ولو كان نبيًّا لما خالف.

فلما كثرت أقاويل هؤلاء السفهاء أنزل الله هذه الآية ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٤٢﴾ [البَقَرَة: ١٤٢].

وفي هذا الحديث: أنه صلى قوم مع النبي ﷺ فرجع رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم ركوع فقال: «**أَشْهَدُ باللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ. فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ**» واستُدل به على أن من صلى لغير القبلة باجتهاد في السفر ثم تبين له في أثناء الصلاة أو أخبره ثقة أن القبلة غير ما توجه إليه فإنه يستدير إلى القبلة ويبني على صلاته ولا يعيد.

واستُدل به على قبول خبر الواحد، وسيعيد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نفس الحديث؛ ليدل به على قبول خبر الواحد؛ لأن هؤلاء قبلوا خبره وهو واحد؛ حيث جاء إليهم وهم ركوع فقبلوا خبره واستداروا ولم يقولوا: إنه واحد لا نقبل قوله، وأقرهم النبي ﷺ على ذلك.

أما الذي يصلي في السفر لغير القبلة دون اجتهاد فيجب عليه أن يعيد صلاته.

بَابُ قَوْلِه:
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية [البقرة: ١٤٣]

{٤٤٨٧} حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ رَاشِدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ وَأَبُو أُسَامَةَ -وَاللَّفْظُ لِجَرِيرٍ- عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُدْعَىٰ نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بلغ» ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط: العدل.

الشَّرْح

هذا الباب على قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وفي هذه الآية فضل هذه الأمة على سائر الأمم؛ فإن الله ﷻ جعلها وسطًا، والوسط هو الخيار العدل فهذه الأمة عدل، والعدل هو الذي تقبل شهادته بخلاف الجائر والظالم والفاسق والمتهم فإنه لا تقبل شهادته، فلما كانت هذه الأمة موصوفة بالعدل صارت لها فضيلة ومزية على غيرها من الأمم فصارت تشهد على الأمم أن رسلهم وأنبياءهم بلغوهم رسالات ربهم، وعلى من كفر بالله منهم، ثم يشهد الرسول ﷺ على هذه الأمة؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يعني: خياراً عدولاً ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فهذا من فضل الله تعالى وإحسانه لهذه الأمة أن جعلها بهذا الوصف العظيم؛ حيث وصفت بهذا الوصف ﴿وَسَطًا﴾، والوسط يطلق على ما بين

الشيئين، ويطلق على الخيار والعدل، ومنه حديث: «**الصلاة الوسطى صلاة العصر**»[(١)]، يعني: الصلاة الفاضلة في أحد القولين.

{٤٤٨٧} قوله: «**يُدْعَىٰ نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ**» المنادي والداعي هو الرب ﷻ، وإجابة نوح ﵇ بقوله: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ**»، لا شك أن هذه الإجابة لله ﷻ فلا يمكن أن يقال لأحد: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ**» إلا لله ﷻ، وقد أنكر قومُ نوحٍ نوحًا ﵇ وجحدوا أنه قد بلغهم رسالة الله ﷻ، وذلك بكفرهم وضلالهم فلم يؤمن منهم مع نوح ﵇ إلا القليل مع أنه لبث في قومه مدة طويلة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العَنكبوت: ١٤] يدعوهم إلى الله ﷻ ولم يقصِّر ﵇، فكان يدعو قومه كما أخبر الله عنه ليلًا ونهارًا، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نُوح: ٥-٩]، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا القليل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هُود: ٤٠]، وهم الذين ركبوا في السفينة ولكنه لم يضره ﵇، فقد بلغ رسالة ربه وأدى ما عليه والهداية بيد الله، فإذا كان يوم القيامة سئلت أمة نوح: «**هَلْ بَلَّغَكُمْ؟**» فيكفرون ويجحدون ويقولون: لم يأتنا بشير ولم نبلَّغ، فيقال لنوح ﵇: «**مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بلغ**»، وجاء في حديث آخر: «**أنهم يقولون لهذه الأمة: ما الذي أعلمكم؟ يقولون: أرسل الله إلينا نبيًّا محمدًا ﷺ وأنزل عليه الكتاب القرآن العظيم وأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه**»[(٢)]، ثم يشهد نبينا ﷺ على هذه الأمة.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «زاد أبو معاوية «**فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه**» وفي حديث جابر عن النبي ﷺ:

(١) أحمد (١/ ١١٣)، ومسلم (٦٢٧).
(٢) ابن ماجه (٤٢٨٤).

«ما من رجل من الأمم إلا ود أنه منا، أيتها الأمة ما من نبي كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة أن قد بلغ رسالة الله ونصح لهم؛ فذلك قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]»[(١)].

❍ قوله: **«والوسط العدل»** يعني: فسر الوسط بأنه العدل، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قال الطبري: الوسط في كلام العرب الخيار، يقولون: فلان وسط في قومه وواسط إذا أرادوا الرفع في حسبه، قال: والذي أرى أن معنى الوسط في الآية الجزء الذي بين الطرفين، والمعنى أنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلم يغلوا كغلو النصارى ولم يقصروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسط واعتدال.

قلت: لا يلزم من كون الوسط في الآية صالحًا لمعنى التوسط ألا يكون أريد به معناه الآخر كما نص عليه الحديث؛ فلا مغايرة بين الحديث وبين ما دل عليه معنى الآية. والله أعلم».

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ١٧٢).

بَابُ قَوْلِهِ تعالىٰ:
﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ الآية [البقرة: ١٤٣]

{٤٤٨٨} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيىٰ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما بَيْنَا النَّاسُ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ إِذْ جَاءَ جَاءٍ فَقَالَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قُرْآنًا أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا. فَتَوَجَّهُوا إِلَى الكَعْبَةِ.

الشَّرْح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾» نزلت هذه الآية بعد أن حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وذلك لأن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وجهه الله إلى بيت المقدس في الصلاة، فتوجه المسلمون يصلون إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، ثم حول الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة حدث عظيم، حيث ارتد بعض الناس بسببه، وتكلم اليهود في ذلك بأنه خالف الأنبياء قبله، وقيل: إن المنافقين قالوا: ما له؟ إن كان على حق فكيف ينتقل من الحق، وإن كان انتقل إلى الحق فيكون انتقل من الباطل إلى الحق؛ فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ١٤٢]. ثم رد الله عليهم فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٤٢]. ثم أنزل الله ﷻ بعدها هذه الآية؛ ليبين الحكمة من تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فقال الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ فالحكمة هي أن يُظهر الله ﷻ المتبع المستجيب لأمر الله ورسوله، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ يعني: علم ظهور، وإلا فالله تعالى عالم بالأشياء قبل كونها، فالحكمة إذن إظهار المتبع من المرتد، فالمؤمنون أسلموا لله ﷻ ولرسوله ﷺ وقالوا: نحن عبيد مأمورن، وإذا أمرنا الله أن نتجه نحو بيت المقدس اتجهنا، وإذا أمرنا أن نتجه نحو الكعبة

اتجهنا، فنحن عبيده نستجيب لأمره ونوحده ونطيعه ونطيع نبيه ﷺ، وأما من في قلبه مرض من المنافقين واليهود فإنهم اعترضوا على أمر الله وأمر رسوله ﷺ وانقلبوا وارتدوا على أعقابهم؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] يعني: شاقة وصعبة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ فهكذا كان تحول القبلة حدث عظيم كبير وصعب فلا يتحمله ولا يستجيب لأوامر الله وأوامر رسوله إلا من هداه الله، وأما من لم يوفق للهداية فإنه يعترض على أمر الله ورسوله كاليهود والمنافقين وأشباههم، ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]. والمراد بقوله: ﴿إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ صلاتكم؛ لأنه بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة قال بعض الصحابة: ما مصير صلاتنا سابقًا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ يعني: وما كان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس، فسمى الله الصلاة إلى بيت المقدس إيمانًا.

وهذه الآية من أدلة أهل السنة والجماعة على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وفيها الرد على المرجئة الذين يقولون: الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان؛ والعمل غير داخل في مسمى الإيمان، فهذه الصلاة سماها الله إيمانًا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ بل ثوابها مدخر عند الله؛ لأنكم حين اتجهتم إلى بيت المقدس اتجهتم بأمر الله، وأنتم تتعبدون لله، فلن يضيع الله ثواب صلاتكم.

{٤٤٨٨} ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا على هذه الآية.

وفيه: قوله: «بَيْنَا النَّاسُ» يقال: بينا وبينما، ظرفا زمان.

○ قوله: «يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ» جاء في لفظ آخر: «**أنها كانت صلاة العصر**»[1].

(١) أحمد (٤/ ٢٨٣)، والبخاري (٤١).

○ قوله: «إِذْ جَاءَ جَاءٍ»، أي: رجل من المسلمين، وفي لفظ آخر: «أن هذا الرجل كان قد صلى مع النبي ﷺ، ثم ذهب إلى قباء فوجدهم يصلون»[(١)].

○ قوله: «فَقَالَ»، أي: بصوت عال؛ ليسمع الناس.

○ قوله: «أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قُرْآنًا أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا» هذا أمر؛ أي: استقبلوها أيها المصلون.

○ قوله: «فَتَوَجَّهُوا إِلَى الكَعْبَةِ» أي: استداروا إلى الكعبة وهم في الصلاة، فكان أول الصلاة إلى بيت المقدس، وآخرها إلى الكعبة؛ فاجتمع فيها التوجه إلى القبلتين؛ وذلك لأنهم لم يعلموا بتحويل القبلة، ثم علموا به.

وفيه: دليل على أن الإنسان لا يكلف إلا بعد العلم.

وفيه: دليل على أن المجتهد في معرفة القبلة إذا تحرى بحسب ما يظهر له من العلامات واتجه وصلى ثم تبين له في أثناء الصلاة أو أخبره أحد أن القبلة غير ما توجه إليه وأن اجتهاده خطأ فإنه يستدير نحو القبلة في أثناء الصلاة، ويبني على صلاته، وصلاته صحيحة - كما فعل أهل قباء - سواء كان ذلك على الأرض أو في طائرة أو سيارة أو سفينة.

والأَولى أن يصلى قبل الصعود أو بعد الهبوط إذا أمكن، أو كانت الصلاة تجمع إلى الأخرى كالظهرين أو العشاءين، وإذا لم يمكن فلابد من الاتجاه إلى القبلة، والآن توجد علامات لجهة القبلة؛ فعليه أن يتجه مع العلامة.

وفي الحديث: دليل على قبول خبر الواحد؛ لأن هذا رجل واحد أخبرهم فقبلوا خبره، والروايات التي فيها خبر الواحد كثيرة، ففيه: الرد على المعتزلة والأشاعرة وغيرهم من أهل البدع الذين يقولون: لا يقبل خبر الواحد وبعضهم يقول: لا يقبل خبر الواحد في العقائد. والصواب أنه يقبل خبر الواحد في العقائد وفي الأعمال وفي كل شيء؛ إذا كان المخبر عدلًا ثقة.

(١) أحمد (٤/ ٢٨٣)، والبخاري (٤١).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٥]

{٤٤٨٩} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: لَمْ يَبْقَ مِمَّنْ صَلَّى القِبْلَتَيْنِ غَيْرِي.

الشَّرْح

{٤٤٨٩} هذا حديث أنس بن مالك، وأنس ﵁ طالت حياته ومات سنة إحدى وتسعين، أو ثنتين وتسعين، أو ثلاث وتسعين من الهجرة، وكان عمره حين قدم النبي ﷺ المدينة تسع سنين أو عشر سنين؛ فيكون قد تجاوز المائة بسنة أو سنتين أو ثلاث.

وقد تحققت فيه دعوة النبي ﷺ؛ حيث قالت أمه أم سليم: يا رسول الله، أنس خويدمك؛ ادع له، فدعا له وقال: «**اللهم أطل عمره وأكثر ولده وأدخله الجنة**»(١) وقد قال ﵁: رأيت اثنتين وأنا أنتظر الثالثة؛ وهي دخول الجنة: فطال عمره، وكثر ولده حتى إنه رأى من ولده وولد ولده ما يزيدون على المائة في حياته، وهذا فيه علم من أعلام النبوة.

○ قوله: «لَمْ يَبْقَ مِمَّنْ صَلَّى القِبْلَتَيْنِ غَيْرِي» هذا على حسب علم أنس، وقد يكون بقي أحد غيره ممن صلى إلى القبلتين.

والمراد بالقبلتين: بيت المقدس، والكعبة، والذين صلوا إليهما هم الذين أسلموا قديمًا.

وقد اختلف في المراد بالسابقين الأولين على قولين

القول الأول: الذين صلوا إلى بيت المقدس، وهذا قول ضعيف ومرجوح.

(١) أحمد (٣/ ١٩٣) نحوه، والبخاري (١٩٨٢)، ومسلم (٦٦٠).

القول الثاني: أنهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح، صلح الحديبية، وهذا هو الصواب، فصلح الحديبية هو الحد الفاصل، فمن أسلم قبل صلح الحديبية فهو من السابقين الأولين، ومن أسلم بعده فليس من السابقين الأولين، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] والمراد بالفتح: صلح الحديبية؛ لأن الله تعالى سماه فتحًا وأنزل فيه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]؛ لما ترتب عليه من الآثار والفوائد العظيمة للإسلام والمسلمين؛ فإن الحرب وضعت أوزارها، واختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا دعوة الله وسمعوا القرآن، وأسلم جم غفير، وتفرغ النبي ﷺ لفتح خيبر، ثم أعقبه بعد ذلك فتح مكة.

والسابقون الأولون لهم فضل على من سواهم من الصحابة، ودليل ذلك أنه حدث بين عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه - وكان من السابقين الأولين - وخالد بن الوليد رضي الله عنه - وكان أسلم بعد صلح الحديبية وليس من السابقين الأولين - سوء تفاهم في بعض الكلام، كما يحصل عادة بين البشر، وكأن خالدًا كان قد تكلم في عبد الرحمن؛ فقال النبي ﷺ مخاطبًا خالدًا ومبينًا فضل عبد الرحمن بن عوف: «**لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(١) وخالد من الصحابة، ولكن صحبته متأخرة، وعبد الرحمن بن عوف له صحبة متقدمة، فلو أنفق خالد بن الوليد مثل جبل أُحد ذهبًا، وأنفق عبد الرحمن مدًّا - وهو ملء الكف - أو نصف مد؛ ما لحقه خالد، فهذا تفاوت ما بين الصحابة، فكيف التفاوت فيما بين الصحابة ومن بعدهم؟!

والشاهد من هذا: أن السابقين الأولين هم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، لا من صلى إلى القبلتين.

---

(١) أحمد (٣/ ١١)، والبخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾
إِلَى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]

{٤٤٩٠} حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ دِينَارٍ، عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما بَيْنَمَا النَّاسُ فِي الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ جَاءَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، وَأُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، أَلَا فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَكَانَ وَجْهُ النَّاسِ إِلَى الشَّأْمِ، فَاسْتَدَارُوا بِوُجُوهِهِمِ إِلَى الكَعْبَةِ.

الشَّرح

{٤٤٩٠} هذا الحديث على هذه الآية: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾؛ وذلك لكفرهم وضلالهم وعنادهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ وهذا تيئيس لهم، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٤٥] فيه: التحذير من اتباع الهوى، وأن من اتبع هواه بعد العلم وانحرف ففيه شبه باليهود، وهو من الظالمين، والظلم يطلق على الشرك، ويطلق على المعاصي؛ فقد يكون مشركًا، وقد يكون دون ذلك، فإن كان اتبع الهوى في أصل الدين بأن صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله أو فعل ناقضًا من نواقض الإسلام فهذا الظلم شرك، وإن كان دون ذلك فهو معصية، وهذا تحذير لأمته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ﷺ معصوم.

وهذه الآية دليل على عتو اليهود وعنادهم وكفرهم وضلالهم، وقد قص الله علينا ما فعلوا مع أنبيائهم، وما فعلوا مع نبي الله موسى عليه السلام من تعنت حينما عبدوا العجل، ثم امتناعهم من دخول بيت المقدس، ثم لما أمروا بأن يدخلوا الباب سجدًا دخلوا زاحفين على أستاههم؛ ولهذا أخبر الله عنهم أنهم لا يزالون

على عتوهم وعنادهم. نسأل الله السلامة والعافية.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفيه: «بَيْنَمَا النَّاسُ فِي الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ جَاءَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، وَأُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، أَلَا فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَكَانَ وَجْهُ النَّاسِ إِلَى الشَّأْمِ، فَاسْتَدَارُوا بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الكَعْبَةِ» وهذا فيه: دليل على قبول خبر الواحد، وفيه: دليل على أن المجتهد إذا كان يصلي ثم تبين له أن اجتهاده خطأ فإنه يتجه إلى القبلة الصحيحة التي تبينت له، ولو كان في الصلاة، ويبني على ما صلى، ويكمل صلاته وصلاته صحيحة، وليس عليه إعادة.

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾
الآية [البقرة: ١٤٦]

{٤٤٩١} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ قَزَعَةَ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابن عُمَرَ قَالَ بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّأْمِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الكَعْبَةِ.

الشَّرْح

{٤٤٩١} وهذا هو الحديث السابق أعاده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ؛ لدخوله تحت آية الترجمة؛ فإنه بوب بهذه الآية قال: «﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ إلى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٦- ١٤٧]». والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، وسموا أهل الكتاب؛ لأن الله أنزل عليهم الكتاب، فإن الله أنزل التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليهود حرفوا وبدلوا، وأنزل الإنجيل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنصارى - أيضًا - حرفوا وبدلوا.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾، يعني: يعرفون محمدًا ﷺ، وأنه حق، وأن رسالته حق.

قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، أي: كما يعرف الواحد منهم أن هذا ابنه ولا يخفى عليه، يعرف أن محمدًا ﷺ حق؛ من الكتب التي أنزلها الله عليهم؛ التوراة والإنجيل.

وفيها صفة النبي ﷺ وصفة أمته، كما ثبت في الحديث الذي قاله عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في أوصاف النبي ﷺ في التوراة[1].

(١) أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (٢١٢٥).

قال ابن بطال: «فيه: عطاء بن يسار: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة النبي ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ [الأحزَاب: ٤٥]، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة...»(١)، إلى آخر الحديث؛ فلهذا يعرفه اليهود ويعرفون صدقه، بل قال بعض اليهود: إنا نتيقن صدق النبي ﷺ وأنه رسول الله حقًّا أكثر من معرفتنا لأبنائنا؛ لأن أبناءنا قد يتطرق فيهم الشك أنهم أبناؤنا، وأما محمد ﷺ فلا يتطرق إلينا شك أنه رسول الله، ومع ذلك كتموا الحق؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤٦﴾ [البَقَرَة: ١٤٦]. نسأل الله السلامة والعافية.

وهذا فيه: التحذير الشديد لهذه الأمة، فالله تعالى ذكر أوصاف اليهود؛ ليحذرنا لا للتسلي؛ فإن هذه الأمة إن فعلت مثل فعلهم أصابها ما أصابهم.

وفيه: دلالة على أن اليهود خالفوا الحق عن علم وعن بصيرة لا عن جهل؛ فهم غاوون - والعياذ بالله - وهم مغضوب عليهم؛ فهم الأمة الغضبية كما سماهم ابن القيم وغيره، وهم يدخلون دخولًا أوليًّا في قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفَاتِحَة: ٧]. ففي كل ركعة من ركعات الصلاة يسأل المسلم ربه أن يجنبه طريق المغضوب عليهم، وهم: الذين معهم علم ولم يعملوا به كاليهود وأشباههم، ويسأل الله أن يجنبه طريق الضالين: وهم: الذين يعبدون الله على جهل وضلال كالنصارى، ويسأل الله أن يهديه صراطه المستقيم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٦-٧].

وفيه: دليل على أن كتمان العلم محرم؛ فلا يجوز للإنسان أن يكتم العلم إذا احتاج الناس إليه، أما إذا كان غير محتاج إليه ولم يسأل فإنه لا يأثم.

(١) «شرح البخاري» لابن بطال (٦/ ٢٥٣).

وفيه: التحذير من اتباع الهوى وأنه يجب على الإنسان أن يقبل الحق، وأن يحذر من مخالفته.

وفيه: دليل على أن الكفر يكون بعدم الانقياد والاتباع، وأن من صدق ولم ينقد يكون كافرًا.

وفيه: الرد على المرجئة الذين يقولون: الإيمان هو التصديق والمعرفة بالقلب، فاليهود مصدقون بقلوبهم، ولكن كفرهم بالإباء والاستكبار؛ فلم ينقادوا لشرع الله ودينه، وهذا يدل على فساد مذهب المرجئة.

وكفرهم مثل كفر إبليس، فكفره بالإباء والاستكبار؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤] فقابل أمر الله بالرد والاعتراض والإباء والاستكبار - نعوذ بالله -.

وفيه: دليل على أن الإنسان إذا عرف الحق ولم يتبعه ولم ينقد له فإنه يكون كافرًا، ولا تفيده هذه المعرفة، بل هذه المعرفة تكون زيادة في عذابه - والعياذ بالله -.

ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما السابق في قصة هذا الرجل الذي جاء إلى أهل قباء وهم يصلون الصبح فأمرهم أن يستقبلوا الكعبة؛ لأن النبي ﷺ استقبلها.

وفيه: العمل بخبر الواحد؛ كما سبق.

وفيه: الرد على من رد خبر الواحد، وأدلته كثيرة لا حصر لها.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ إِلَىٰ ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]

{٤٤٩٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ، حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ البَرَاءَ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ - أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ - شَهْرًا، ثُمَّ صَرَفَهُ نَحْوَ القِبْلَةِ.

الشَّرح

{٤٤٩٢} هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨]، يعني: بادروا إليها، ومن استباق الخيرات امتثال أمر الله في التوجه إلى القبلة، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)﴾ [البَقَرَة: ١٤٨]. وذكر المؤلف رحمه الله حديث البراء رضي الله عنه، وفيه: أن مدة توجه المسلمين إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان النبي ﷺ يحب قبلة إبراهيم، ويقلب وجهه في السماء؛ محبة لاستقبال الكعبة؛ فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤].

بَابٌ قولِهِ:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية [البقرة: ١٤٩]

شَطْرُهُ: تِلْقَاءَهُ.

{٤٤٩٣} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ بَيْنَا النَّاسُ فِي الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ رَجُلٌ فَقَالَ: أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ، فَأُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَاسْتَدَارُوا كَهَيْئَتِهِمْ، فَتَوَجَّهُوا إِلَى الكَعْبَةِ وَكَانَ وَجْهُ النَّاسِ إِلَى الشَّأْمِ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فسر المؤلف رحمه الله كلمة ﴿شَطْرَهُۥ﴾ فقال: «تِلْقَاءَهُ»؛ أي تلقاء المسجد الحرام.

{٤٤٩٣} كرر المؤلف رحمه الله هذا الحديث؛ من أجل تكرار الآيات ومناسبة الحديث لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٠].

والمعنى: أنه يجب على الإنسان أن يتجه إلى الكعبة في أي مكان من الدنيا.

وقوله عز وجل: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٠] أي: يجب على الإنسان أن يتجه إلى القبلة في أي مكان من الأرض؛ سواء كان في الجو أو في البر أو في البحر، وفي هذه الحال يكفي الاتجاه إلى الجهة فقط، وهذا عام؛ لأن «حيث» ظرف مكان.

أما إذا كان الإنسان قريبًا من الكعبة بأن كان داخل المسجد الحرام وهو يشاهد الكعبة فيجب عليه أن يصيب عينها بحيث لو خط خطًّا يصل إليها.

ومن هنا يغلط بعض الناس وهو في المسجد الحرام فتجده إذا سجد يكون مائلًا عن الكعبة لا سيما مع الزحام وهذا لا تصح صلاته؛ إذ لابد أن يصيب عينها، أما إذا كان خارج المسجد فيكفي الاتجاه إلى الجهة؛ أخذًا من هذه الآية.

والأَولى لمن يصلي تلقاء الكعبة أن ينظر إلى موضع سجوده، وبعضهم يرى أن ينظر للكعبة.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ﴾
الآية [البقرة: ١٥٠]

{٤٤٩٤} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابن عُمَرَ قَالَ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّأْمِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى القِبْلَةِ.

الشَّرح

{٤٤٩٤} كرر المؤلف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما على هذه الترجمة، وهي على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ظرف مكان يعني: في أي مكان ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ يعني: في أي مكان ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. هذه الآية فيها زيادة بيان غير الآيات السابقة؛ ففيها بيان الحكمة في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فقد بين الله ثلاث حكم في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة:

أولها: قطع الحجة: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، يعني: لئلا يحتج عليكم الناس؛ وذلك أنه مكتوب في الكتب السابقة أن نبينا محمدًا ﷺ قبلته الكعبة؛ فلو لم يوجه إلى الكعبة لاحتج اليهود، وقالوا: كيف لا يتجه إلى القبلة وهو مكتوب أنه يتجه إلى القبلة؟

وقال الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ فالظالم الذي يتبع الهوى ويكتم الحق لا حيلة فيه، لكن من يريد الحق تنقطع حجته.

ثانيها: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ يعني: أن يتم الله النعمة على عباده المؤمنين من هذه الأمة؛ لأن تحويل القبلة من أسباب الهداية، فهدى الله عباده للحق فانقطعت الحجة وأتم النعمة.

ثانيها: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [البَقَرَة: ١٥٠]. ولعل هنا ليست للترجي، وإنما هي للتعليل؛ لأن الله لا يرجو أحدًا ولا يخاف أحدًا.

وفي الآية: الرد على اليهود والمعاندين؛ فقد ذكر الله ردًّا على اليهود لما قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، فرد الله عليهم قولهم بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البَقَرَة: ١٤٢].

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٨]

شَعَائِرُ: عَلَامَاتٌ، وَاحِدَتُهَا: شَعِيرَةٌ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: الصَّفْوَانُ: الحَجَر. وَيُقَالُ: الحِجَارَةُ الْمُلْسُ التِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا، وَالْوَاحِدَةُ: صَفْوَانَةٌ بِمَعْنَى الصَّفَا، وَالصَّفَا لِلْجَمِيعِ.

{٤٤٩٥} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السِّنِّ: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] فَمَا أُرَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ شَيْئًا أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَلَّا لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ كَانَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْدٍ، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

{٤٤٩٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَقَالَ: كُنَّا نَرَىٰ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

الشَّرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨]. فسر البخاري رحمه الله الكلمات على عادته، إذا جاءت كلمات يفسرها؛ حتى يفيد طالب العلم فقال: «شَعَائِرُ: عَلَامَاتٌ، وَاحِدَتُهَا: شَعِيرَةٌ».

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: الصَّفْوَانُ: الحَجَر. وَيُقَالُ: الحِجَارَةُ الْمُلْسُ التِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا، وَالْوَاحِدَةُ: صَفْوَانَةٌ بِمَعْنَى الصَّفَا، وَالصَّفَا لِلْجَمِيعِ»، يعني: إذا أريد التفريق بينهما يقال: للحجر صفوان، ويقال للواحدة: صفوانة، وإذا أريد الجميع قيل: صفا.

{٤٤٩٥} ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سؤال ابن أختها عروة بن الزبير لها عن معنى آية الطواف بين الصفا والمروة.

○ قوله: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ» يخاطب خالته؛ فعروة هو ابن الزبير وأمه أسماء بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا زوج الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

○ قوله: «وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السِّنِّ»، يعتذر أنه ما فهم الآية؛ لأنه صغير السن.

○ قوله: «أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، فَمَا أُرَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ شَيْئًا أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا»، يعني: فهم عروة من الآية أن من حج أو اعتمر فلا إثم عليه أن يترك الطواف بين الصفا والمروة، فلا يسعى بينهما؛ لأن الله قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾، يعني: لا إثم عليه في ترك الطواف، فهذا فهم عروة؛ لأنه صغير السن.

فردت عليه عائشة قالت: «كَلَّا»، وهو حرف زجر، «لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ كَانَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا» أي: لو كان فهمك صحيحًا لجاءت لا النافية ولكانت الآية: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكن الآية ليست كذلك إنما هي: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ثم بينت سبب النزول.

وفيه: دليل على أن سبب النزول قد يتوقف عليه فهم معنى الآية.

قالت: «إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هٰذِه الآيَةُ فِي الأَنْصَارِ»: الأوس والخزرج، وكانت الأنصار في الجاهلية يعبدون مناة، ومناة بَنِيَّة في الساحل على طريقهم، «كَانُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ» يعني: يذبحون لها، والإهلال رفع الصوت بالذبح حينما يذبحون لمناة؛ لأنهم مشركون، «وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْدٍ» في الساحل»، «وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ

أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ»، فكانوا إذا أهلوا لمناة جاءوا وطافوا وحجوا وهم على شركهم»، ثم طافوا بالصفا والمروة، **«فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ»**، فأنزل الله هذه الآية؛ أي لما جاء الإسلام تحرجوا فقالوا: يا رسول الله، كيف نطوف بين الصفا والمروة والمشركون كانوا يطوفون بها؟! فأنزل الله تعالى رفع الحرج عنهم فقال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾، أي: لا جناح على من حج أن يطوف بهما، وليس هذا من أمر الجاهلية؛ فأمر الجاهلية الذبح للصنم مناة، وأما الطواف بين الصفا والمروة فقد أضحى من شعائر الإسلام.

❖ ❖ ❖

{٤٤٩٦} الحديث الثاني في هذا الباب حديث أنس رضي الله عنه.

وفيه: قوله: **«سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَقَالَ: كُنَّا نَرىٰ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ»**، يعني: كان الصحابة رضي الله عنهم يرون أن الطواف بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية، وفي لفظ: **«كنا نُرى أنهما»**[(١)] ولفظ: **«نرى»** يجوز أن يكون بالضم هكذا: نُرى يعني: نظن، ويجوز أن يكون نَرى بالفتح يعني: نعلم، وبالفتح أولى.

○ قوله: **«فَلَمَّا كَانَ الإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا»**، يعني: توقفنا عن السعي بين الصفا والمروة؛ لأن المشركين كانوا يذبحون للأصنام ثم يطوفون بين الصفا والمروة، فربطوا هذا بذاك؛ ربطوا الطواف بين الصفا والمروة بالذبح للأصنام، وظنوا أن هذا من أمر الجاهلية، فأمسكوا عن الطواف بهما لما جاء الإسلام؛ فأنزل الله هذه الآية لترفع الجناح وترفع هذا التوهم: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البَقَرَة: ١٥٨]، أي: ليس هذا من أمر الجاهلية، فلا إثم على المسلمين أن يطوفوا بين الصفا والمروة؛ لأن هذا من شعائر الإسلام.

---

(١) البخاري (٤٤٩٦).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]

أَضْدَادًا، وَاحِدُهَا نِدٌّ.

{٤٤٩٧} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرىٰ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخلَ النَّارَ». وَقُلْتُ أَنَا: مَنْ مَاتَ وَهْوَ لَا يَدْعُو لله نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ.

الشَّرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]. فسر المؤلف الأنداد بالأضداد، واحدها ند وضد، ويُفسر الأنداد بالأمثال والنظراء، قيل: أندادًا أمثالًا ونظراء أو أضدادًا، والمعنى: يسوونهم بالله في المحبة والتعظيم.

وفيه: دليل على أن محبة غير الله شرك، والمراد المحبة الخاصة، وهي محبة العبادة، وهي المحبة التي تقتضي الخضوع والذل والطاعة.

أما المحبة التي ليس فيها خضوع ولا ذل ولا طاعة فهذه محبة طبيعية مثل محبة المال ومحبة الصديق ومحبة الولد ومحبة الوالد.

لكن محبة العبادة التي تقتضي الخضوع والذل لابد فيها من أمرين؛ غاية المحبة مع غاية الذل، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان[(١)]

(١) «متن القصيدة النونية» لابن القيم (١/ ٣٥).

أما إذا ذل وخضع لشيء ولكنه لم يحبه لا يكون عبادة، أو أحب شيئًا ولم يذل له ولم يخضع فلا يكون عبادة، فلا تكون عبادة حتى يوجد غاية الذل مع غاية المحبة.

وهذه المحبة هي التي تقتضي تسوية آلهة المشركين برب العالمين، وفي الآية أخبر الله أنهم تساقطوا في النار؛ حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨)﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٤-٩٨] سووهم بالله في المحبة والتعظيم ولم يسووهم بالله في الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلم يقولوا: هم يخلقون أو يرزقون، ثم ندموا: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٩-١٠١]، ولكنه ندم بعد فوات الأوان، ثم تمنوا الرجوع إلى الدنيا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾، يعني: رجعة في الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٢] نسأل الله السلامة والعافية.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]. وفي معناها قولان لأهل العلم:

القول الأول: أن حب المؤمنين لله أشد من محبة المشركين لله؛ لأنها محبة خالصة خاصة بالله، وأما محبة المشركين فهي مشتركة يحبون الله ويحبون الأنداد.

القول الثاني: أن حب المؤمنين لله أشد من محبة المشركين لأندادهم.

{٤٤٩٧} ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على هذه الآية.

وفيه: قال ابن مسعود: «**قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرىٰ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**» هذه تسمى كلمة.

وفيه: إطلاق الكلمة على الكلام، وقد تطلق على الخطبة الطويلة التي تكون ساعة أو ساعتين، فيقال: فلان ألقى كلمة، يعني: ألقى خطبة.

وقوله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**» هو الشاهد للآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]؛ لأنه صرف نوعًا من

أنواع العبادة لغير الله فإذا دعا غير الله فقد جعله ندًّا لله فكان مشركًا، فالله هو المعبود وحده؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢]. والتنديد نوعان:

النوع الأول: تنديد أكبر. **النوع الثاني:** تنديد أصغر.

فالتنديد الأكبر مثل ما جاء في هذا الحديث وهو أن يدعو من دون الله ندًّا يدعوه أو يذبح له أو ينذر له أو شيء من ذلك، والأصغر كالحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، وما لي إلا الله وأنت لكذا، ولولا كذا لما كان يحصل كذا، كما فسر ابن عباس هذه الآية بالتنديد الأصغر؛ فقد ثبت عنه رضي الله عنهما أنه قال في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢]، قال: الأنداد الشرك، وهو أخفى من دبيب النمل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كلبة هذا لأتى اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، ولولا الله وكذا، ولولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانًا؛ هذا كله به شرك، فهذا كلام ابن عباس، أما التنديد هنا فهذا التنديد الأكبر، وهذا مخرج من الملة.

قال ابن مسعود: «**وَقُلْتُ أَنَا: مَنْ مَاتَ وَهْوَ لَا يَدْعُو لله نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ**» هذه الكلمة التي قالها عبد الله بن مسعود أخذها من النصوص الأخرى كحديث معاذ رضي الله عنه: «**حق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»[(١)]. وكحديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: ««**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيته يشرك به شيئاً دخل النار**»[(٢)].

وأخذها أيضًا من الضد؛ لأن الند يطلق على شيئين؛ يطلق على المثل وعلى الضد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ يعني: أمثالًا وأضدادًا، والمعنى أنهم جعلوهم أمثالًا ونظراء لله في العبادة، أو جعلوهم أضدادًا لله؛ حيث عبدوهم من دون الله.

---

(١) أحمد (٣/ ٢٦٠)، والبخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).
(٢) (أحمد (٣/ ٣٤٤)، ومسلم (٩٣).

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]

﴿عُفِيَ﴾ [البقرة: ١٧٨]: تُرِكَ.

{٤٤٩٨} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرٌو، قَالَ: سَمِعْتُ مُجَاهِدًا، قَالَ: سَمِعْتُ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقُولُ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ القِصَاصُ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَةُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِهَٰذِهِ الأُمَّةِ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] فَالْعَفْوُ: أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي العَمْدِ ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ١٧٨] يَتَّبِعُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُؤَدِّي بِإِحْسَانٍ، ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ [البقرة: ١٧٨] مِمَّا كُتِبَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة: ١٧٨] قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ.

{٤٤٩٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، أَنَّ أَنَسًا حَدَّثَهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ».

{٤٥٠٠} حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُنِيرٍ، سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ بَكْرٍ السَّهْمِيَّ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الأَرْشَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلاَّ الْقِصَاصَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ». فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ».

الشَّرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الله تعالى يخاطب المؤمنين باسم الإيمان؛ لأنهم هم الذين يقبلون الأوامر والنواهي ويمتثلون الأوامر والنواهي، وناداهم باسم الإيمان؛ لأنه أخص أوصاف المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ يعني: فُرِض، والقصاص هو قتل القاتل بمثل ما قتل به، وهذا فيه مصلحة عظيمة؛ فإن القاتل إذا علم أنه سيقتل امتنع عن القتل فسلمت نفسه، وسلم من يريد قتله.

وهذه الكلمة: «القصاص حياة»، التي جاءت في الآية التي بعد آية الترجمة، في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩] أبلغ من الكلمة المشهورة عند العرب حيث يقولون: «القتل أنفى للقتل»، يعني: إذا قتل القاتل فإن قتله يمنع القتل؛ فهي أقل حروفًا وأبلغ وأوقع في الزجر؛ لأن القصاص قتل القاتل بمثل ما قتل به، بخلاف القتل أنفى للقتل؛ فإنها لا تفيد هذا القتل، فليس فيه بيان أنه قصاص، وقد يكون أنفى للقتل، وقد لا يكون، وقد يزيد القتل.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]، استدل بهذه الآية الجمهور على أن الحر لا يقتل بالعبد؛ خلافًا للأحناف[(١)] الذين ذهبوا إلى أن الحر يقتل بالعبد، وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المَائدة: ٤٥] ناسخ لهذه الآية، والراجح مذهب الجمهور.

وأما الأنثى فالصواب أنها تقتل بالرجل، والرجل يقتل بها.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخر الآية قال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]. فسر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا العفو فقال: «**أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي العَمْدِ**»، أو يعفو مجانًا، فإذا عفا عن العمد إلى الدية فعلى من عفي له أن يسلم الدية بالمعروف، وعلى من له الحق أن يطالبه بالمعروف؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]، فإذا سمح بالدية ثم قتل بعد ذلك فله عذاب أليم؛ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]، أي: «**قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ**».

---

(١) انظر: «بدائع الصنائع» (٧/٢٣٨).

وكونه يقتل أو لا يقتل فيه كلام لأهل العلم، والظاهر أنه يقتل في هذه الحالة.

وجاء في الحديث الآخر: «**كان في اليهود القصاص وكان في النصارى العفو مجانًا**»[١] فالنصارى عندهم العفو؛ فقد جاء في الإنجيل: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر.

وفي شريعة التوراة وجوب القصاص، فلا يوجد دية ولا عفو.

وفي شريعتنا - الشريعة الكاملة - يخير بين أحد ثلاثة أمور: بين القتل قصاصًا، أو العفو إلى الدية، أو العفو مجانًا؛ فهذه الشريعة أكمل الشرائع.

{٤٤٩٨} ذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفيه: قوله: «**كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ القِصَاصُ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَةُ**»، أي: لم يكن عندهم الدية، وليس عندهم إلا القصاص.

○ قوله: «**فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِهٰذِهِ الأُمَّةِ**: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]. **فَالْعَفْوُ: أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي العَمْدِ**، ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]، **يَتَّبِعُ بِالْمَعْرُوفِ**»، يعني: الذي عفا عن الدية.

○ قوله: «**وَيُؤَدِّي**»، يعني: الذي سمح له عن القصاص يؤدي «**بِإِحْسَانٍ**، ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]، **مِمَّا كُتِبَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»؛ لأن الذي كتب على من قبلنا القصاص، «﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]»، يعني: قبل الدية، ثم «**قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ**» «﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]» قيل: المراد بالعذاب هنا القتل.

❖ ❖ ❖

{٤٤٩٩} ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أنس رضي الله عنه.

وفيه: قوله ﷺ: «**كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ**»، وهذا هو الشاهد للآية؛ لأن الله تعالى أمر بالقصاص في كتابه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ

(١) البخاري (٤٤٩٨، ٦٨٨١) بنحوه.

إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: ١٧٨]. فالنبي ﷺ يشير إلى هذه الآية.

❖ ❖ ❖

{٤٥٠٠} ثم ذكر قصة الربيع رضي الله عنها في حديث أنس رضي الله عنه وفيه قوله: «عبد الله بن منير» بالتخفيف، شيخ البخاري، أما ابن المُنَيِّر - بتشديد الياء - فله حاشية على البخاري رحمه الله، ذكرهما الحافظ ابن حجر رحمه الله في المقدمة.

○ قوله: «أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ» الربيع: بتشديد الراء وضمها وفتح الباء وتشديد التحتانية وآخرها عين مهملة، وهي عمة أنس رضي الله عنه.

○ قوله: «كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ» الثنية: الأسنان الأمامية في وسط الفم، يقال لها: ثنايا، ثم يليها الرباعية، ثم يليها النواجذ، ثم الأضراس.

○ قوله: «فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا» يعني: طلب أهلها القصاص يريدون أن يكسروا سنها؛ لأنها جانية معتدية متعمدة.

○ قوله: «فَعَرَضُوا الأَرْشَ فَأَبَوْا»، أي: رفضوا الدية في السن «فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلاَّ الْقِصَاصَ» أي: طلبوا من النبي ﷺ أن يقتص لهم، «فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ»، أي: أمر رسول الله أن تكسر ثنيتها قصاصًا كما كسرت ثنية الجارية.

○ قوله: «فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ» وهو أخوها «يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟ لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا» لم يقل أنس رضي الله عنه ذلك من باب الاعتراض على حكم الله وحكم رسوله ﷺ، ولكن من باب حسن الظن بالله، وأنه سيبذل الأسباب التي يجعلهم الله بها يرضون بالدية ويقبلونها، فأبر الله قسمه، وكان عند حسن ظنه به؛ فأوقع الله في قلوبهم قبول الدية فقبلوا الدية ولم تكسر ثنية الربيع.

وفيه: حسن الظن بالله.

وفيه: حسن خلق النبي ﷺ؛ فإنه لم يعنف أنسًا، وإنما قال: «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ» فهذا من حسن خلقه عليه الصلاة والسلام، «فَرَضِيَ الْقَوْمُ

فَعَفَوْا»؛ إذ ألقى الله في قلوبهم قبول الدية «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ» فهو أقسم على الله فأبر الله قسمه.

وفيه: الفرق بين حسن الظن بالله، وبين التألي على الله، وهو الحلف والحجر على الله ألا يفعل شيئًا، وهذا من كبائر الذنوب العظيمة كما جاء في الحديث في قصة الرجلين العابد والعاصي أنه «**كان في بني إسرائيل رجلان؛ عابد وعاص، وكان العابد يأتي إلى العاصي فينصحه ويقول: اتق الله ودع ما كنت فيه، فجاءه يومًا وقال: اتق الله ودع، فغضب العاصي وقال: خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيبًا؟ فغضب العابد، وقال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة، فاجتمعا عند رب العالمين بعد قبض أرواحهما، فقال الله لهذا العابد: أكنت بي عالمًا أو على ما في يدي قادرًا؟ قال للعاصي: ادخل الجنة برحمتي، وقال للعابد: اذهبوا به إلى النار**»(١) قال أبو هريرة ﷺ: تكلم بكلمة - يعني: العابد - أوبقت دنياه وآخرته؛ يعني: أذهبت دنياه وآخرته - والعياذ بالله - فهذا من باب التألي على الله، وفي الحديث: قال الله: «**من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك**»(٢).

ففرق بين التألي على الله وبين الإقسام على الله، فالإقسام على الله من باب حسن الظن بالله، فهذا الذي حصل لأنس بن النضر ليس من باب التألي.

ومن ذلك ما كان من سعد بن أبي وقاص ﷺ فإنه كان مستجاب الدعوة، وكانت إذا تلاقت الخصوم وتواجهت جيوش المسلمين والكفار قالوا: يا سعد، أقسم على ربك، فيقسم على ربه فيبر الله قسمه، ويهزم الله الكفرة، فحسن الظن بالله شيء، والتألي والحجر على الله شيء آخر؛ فالثاني فيه الاعتراض على الله وإساءة الظن به ﷻ وتحجر رحمته ﷺ، والأول فيه حسن الظن بالله.

ولا ينبغي للإنسان أن يقسم إلا بعد التروي في القسم على الله والتأني؛ فالمقام مقامٌ خطير.

---

(١) أحمد (٢/ ٣٢٣)، وأبو داود (٤٩٠١).
(٢) مسلم (٢٦٢١).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ **الآية** [البقرة: ١٨٣]

{٤٥٠١} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ قَالَ: أَخْبَرَنِي نَافِعٌ، عَنِ ابن عُمَرَ ﷺ قَالَ: كَانَ عَاشُورَاءُ يَصُومُهُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ قَالَ: «مَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ لَمْ يَصُمْهُ».

{٤٥٠٢} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ: كَانَ عَاشُورَاءُ يُصَامُ قَبْلَ رَمَضَانَ، فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ قَالَ: «مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ».

{٤٥٠٣} حَدَّثَنِي مَحْمُودٌ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: دَخَلَ عَلَيْهِ الأَشْعَثُ وَهْوَ يَطْعَمُ فَقَالَ: اليَوْمُ عَاشُورَاءُ! فَقَالَ: كَانَ يُصَامُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ رَمَضَانُ، فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ تُرِكَ، فَادْنُ فَكُلْ.

{٤٥٠٤} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ كَانَ رَمَضَانُ الفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ عَاشُورَاءُ، فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ لَمْ يَصُمْهُ.

الشَّرْح

في هذه الترجمة ذكر الإمام البخاري ﷺ هذه الأحاديث الأربعة على آية الصيام، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البَقَرَة: ١٨٣].

والله تعالى صدر هذه الآية بخطاب المؤمنين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، يعني: فرض ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾. ولعل هنا للتعليل وليست للترجي يعني: لكي تتقوا.

والصيام وسيلة عظمى من أسباب التقوى، فالصيام له حكم وأسرار من أعظمها أنه وسيلة لتقوى الله ﷻ.

والله تعالى في هذه الآية الكريمة أخبر أنه فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه على الأمم السابقة، فشبه صيام هذه الأمة بصيام الأمم السابقة، واختلف العلماء في التشبيه الذي دلت عليه الكاف في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ هل هو على الحقيقة فيكون صيام رمضان مكتوبًا على الأمم السابقة، أو أن المراد التشبيه في مطلق الصيام؟

على قولين لأهل العلم:

القول الأول: أن صيام رمضان مكتوب على الأمم السابقة، وورد في هذا حديث مرفوع عن ابن عمر إلا أن في إسناده مجهولاً، ولفظه: «**صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم**»(١) وذهب إلى هذا الحسن البصري والسدي وجماعة.

القول الثاني: أن التشبيه واقع على نفس الصوم، وأن الصيام الذي كتب على الأمم السابقة مطلق الصيام، ولا يلزم من ذلك أن يكون صيام رمضان، ولا أن يكون عدد الأيام الواجبة عليهم كعدد الأيام التي أوجبها الله علينا، وهذا هو قول الجمهور، وهو الصواب؛ ولهذا صام موسى عليه السلام يوم عاشوراء الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه؛ شكراً لله ﷻ.

{٤٥٠١} ذكر المؤلف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيه: قوله: «كَانَ عَاشُورَاءُ يَصُومُهُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ» سيأتي أن يوم عاشوراء كانت تصومه قريش في الجاهلية، وذلك أن صيام يوم عاشوراء كان يصومه اليهود في المدينة، واليهود أهل كتاب؛ ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون اليوم العاشر فسألهم عن ذلك فقالوا: هذا يومٌ صالحٌ نجَّى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه؛ فصامه موسى شكرًا لله؛ فنحن نصومه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**نحن أحق بموسى منكم**»(٢) فصامه وأمر بصيامه، وقال:

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣٠٤).
(٢) أحمد (١/ ٢٩١)، والبخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠).

«**صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود؛ صوموا قبله يوماً أو بعده يوماً**»[(١)]، وانتقل هذا إلى قريش في مكة وهم أهل أوثان وليسوا أهل كتاب، ولكنه انتقل إليهم من اليهود، فكانوا يصومونه كما كانت اليهود تصومه في المدينة، وكان النبي ﷺ يصومه معهم قبل البعثة[(٢)].

○ قوله: «**فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ قَالَ: مَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ لَمْ يَصُمْهُ**» وهذا مصداقًا لقول النبي ﷺ في يوم عاشوراء: «**من شاء صامه ومن شاء لم يصمه**»[(٣)] وهذا فيه: دليل على أن صيام يوم عاشوراء كان واجبًا قبل رمضان، وقيل: كان مستحبًا متأكدًا، ولكن ظاهر الحديث أنه كان واجبًا، ثم لما فرض الله صيام رمضان نسخ وجوب صوم يوم عاشوراء وبقي الاستحباب، وهذا هو ظاهر الحديث الذي يدل على التخيير؛ فدل على أنه قبل نزول رمضان ليس فيه التخيير، وإنما كان فرضاً.

❖ ❖ ❖

{٤٥٠٢} ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث عائشة رضي الله عنها وفيه قولها: «**كَانَ عَاشُورَاءُ يُصَامُ قَبْلَ رَمَضَانَ**» يعني: في الجاهلية، كما سيأتي أن قريشًا كانت تصومه في الجاهلية.

○ قولها: «**فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ قَالَ: مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ**»، أي: أن النبي ﷺ كان يأمر صحابته بصيامه قبل نزول رمضان، فلما أنزل عليه فرض رمضان خيرهم بين صيام عاشوراء وبين تركه، فتخيير الناس بعد نزول رمضان بين الصيام وترك الصيام دليل على أن صوم رمضان ليس فيه خيار وإنما هو واجب، وأن صوم عاشوراء أصبح سنة.

❖ ❖ ❖

{٤٥٠٣} ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «**دَخَلَ عَلَيْهِ**

(١) أحمد (١/٢٤١).
(٢) أحمد (٢/١٤٣)، والبخاري (٢٠٠٢)، ومسلم (١١٢٥).
(٣) أحمد (٢/١٤٣)، والبخاري (٢٠٠٢)، ومسلم (١١٢٥).

«الأَشْعَثُ» - وهو الأشعث بن قيس صحابي جليل - «وَهْوَ يَطْعَمُ»، يعني: يأكل «فَقَالَ» يعني: الأشعث لعبد الله بن مسعود: «اليَوْمُ عَاشُورَاءُ!»، يعني: كيف تأكل واليوم عاشوراء ولم تصم؟! «فَقَالَ» يعني: عبد الله بن مسعود: «كَانَ يُصَامُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ رَمَضَانُ، فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ تُرِكَ»، والظاهر ترك الوجوب هو الأقرب، ثم قال عبد الله بن مسعود للأشعث: «فَادْنُ فَكُلْ» أي: تعال كل معي.

❖ ❖ ❖

{٤٥٠٤} ثم ذكر حديثًا آخر لعائشة ﵂.

وفيه: قولها: «كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ رَمَضَانُ كَانَ رَمَضَانُ الفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ عَاشُورَاءُ، فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ لَمْ يَصُمْهُ» ظاهر الحديث أنه كان قبل فرض رمضان واجباً، وقال بعض العلماء: كان مستحبًا، والأقرب أنه كان واجبًا؛ لأن هذا ظاهر الأحاديث.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ إِلَىٰ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]

وَقَالَ عَطَاءٌ: يُفْطِرُ مِنَ المَرَضِ كُلِّهِ كَمَا قَالَ اللهُ. وَقَالَ الحَسَنُ وَإِبْرَاهِيمُ: فِي المُرْضِعِ وَالْحَامِلِ إِذَا خَافَتَا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمَا أَوْ وَلَدِهِمَا؛ تُفْطِرَانِ ثُمَّ تَقْضِيَانِ. وَأَمَّا الشَّيْخُ الكَبِيرُ إِذَا لَمْ يُطِقِ الصِّيَامَ؛ فَقَدْ أَطْعَمَ أَنَسٌ بَعْدَ مَا كَبِرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِينًا خُبْزًا وَلَحْمًا وَأَفْطَرَ. قِرَاءَةُ العَامَّةِ ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤] وَهْوَ أَكْثَرُ.

{٤٥٠٥} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، عَنْ عَطَاءٍ، سَمِعَ ابن عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: (وَعَلَى الذِينَ يُطَوَّقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ). قَالَ ابن عَبَّاسٍ: لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ، هُوَ الشَّيْخُ الكَبِيرُ وَالْمَرْأَةُ الكَبِيرَةُ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا، فَلْيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا.

الشَّرْح

هذه الترجمة على هذه الآية حيث قال: «بابُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾». بعد أن بين الله ﷻ وجوب الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣] قال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ يعني: كتب الصيام أيامًا معدودات، وهي أيام الشهر، وهي ثلاثون يومًا أو تسعة وعشرون يومًا، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، يعني: فأفطر، فهذه عدة من أيام أخر.

والآية فيها دليل على أنه يجوز للمريض أن يفطر ويقضي أيامًا مكانها، وكذلك المسافر.

○ قوله: «وَقَالَ عَطَاءٌ: يُفْطِرُ مِنَ المَرَضِ كُلِّهِ كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ» اختلف العلماء في المرض الذي يبيح الفطر: فمن العلماء من قال: المريض يجوز له الفطر من كل مرض كما قال عطاء: «يُفْطِرُ مِنَ المَرَضِ كُلِّهِ»، يعني: مطلق المرض.

ومنهم من قال: المريض الذي يتيمم للصلاة ولا يستطيع استعمال الماء هو الذي يفطر.

ومنهم من قال: المريض الذي يفطر هو الذي لا يستطيع القيام، كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله.

والأقرب أن المراد بالمرض الذي يبيح الفطر هو المرض الذي يشق معه الصوم.

والمرض ثلاثة أنواع:

الأول: مرض خفيف مثل وجع الضرس، ووجع العين، ووجع خفيف لا يشق معه الصوم؛ فهذا يجب عليه أن يصوم.

الثاني: مرض يشق معه الصوم؛ فالمريض به يستحب في حقه الفطر، ويكره في حقه الصوم.

الثالث: مرض يزيد مع الصوم أو يؤخر الشفاء أو يؤدي إلى الهلاك والموت؛ فالمريض به لا يجوز له الصوم بل يحرم عليه الصوم في هذه الحالة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقد اختلف السلف في الحد الذي إذا وجده المكلف جاز له الفطر، والذي عليه الجمهور أنه المرض الذي يبيح له التيمم مع وجود الماء، وهو ما إذا خاف على نفسه لو تمادى على الصوم أو على عضو من أعضائه أو زيادة في المرض الذي بدأ به أو تمادى به.

وعن ابن سيرين: متى حصل للإنسان حال يستحق بها اسم المرض فله الفطر، وهو نحو قول عطاء، وعن الحسن والنخعي: إذا لم يقدر على الصلاة قائماً يفطر».

○ قوله: «وَقَالَ الحَسَنُ وَإِبْرَاهِيمُ: فِي المُرْضِعِ وَالْحَامِلِ إِذَا خَافَتَا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمَا أَوْ وَلَدِهِمَا؛ تُفْطِرَانِ ثُمَّ تَقْضِيَانِ» الحامل والمرضع فيهما أقوال لأهل العلم:

القول الأول: المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو خافتا على الولد تفطران، ثم تقضيان فقط، ويكون حكمهما حكم المريض.

القول الثاني: تطعمان ولا تقضيان، وليس عليهما إلا الإطعام.

القول الثالث: التفصيل في الأمر؛ فإذا خافت الحامل والمرضع على أنفسهما لا على الولد فتفطران وتقضيان ولا تطعمان؛ لأنهما بمنزلة المريض، وإذا خافتا على الولد أو على أنفسهما وعلى الولد فتفطران وتطعمان.

والأرجح أن حكمهما حكم المريض فتفطران وتقضيان فقط كالمريض.

○ قوله: «وَأَمَّا الشَّيْخُ الكَبِيرُ إِذَا لَمْ يُطِقِ الصِّيَامَ؛ فَقَدْ أَطْعَمَ أَنَسٌ بَعْدَ مَا كَبِرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِينًا خُبْزًا وَلَحْمًا وَأَفْطَرَ» فالعاجز الذي لا يستطيع الصيام يطعم، والكبير أيضًا إذا كان عقله معه فهذا يصلي على حسب قدرته قائمًا أو قاعدًا أو على جنب ويطعم عن كل يوم يفطره، كما جاء عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما إذا لم يكن معه عقل وبلغ سن التخريف فليس عليه صلاة ولا صيام ولا إطعام؛ لأنه غير مكلف.

{٤٥٠٥} خير الله تعالى المسلم في أول الإسلام بين أن يصوم وبين أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا، والصوم أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ [البَقَرَة: ١٨٤] ثم أوجب الله الصوم حتمًا على المقيم الصحيح فنسخت هذه الآية بالآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]. وهذا هو الصواب، وهو مذهب الجمهور؛ ولهذا الجمهور يقرءون هذه الآية هكذا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، «قِرَاءَةُ العَامَّةِ» بالتخفيف في ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ من أطاق يطيق، بمعنى: قدر؛ أي: وعلى الذين يقدرون على الصيام إما أن يدفع فدية طعام مسكين أو يصوم؛ تخيير ثم نسخ.

وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن هذه الآية ليست منسوخة، وإنما باقية في حق العاجز والشيخ الكبير والمرأة الكبيرة الذين يشق عليهم الصيام؛ فإنهم يفطرون ويطعمون عن كل يوم مسكينًا.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ قوله تعالى: ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾: ﴿يُطَوَّقُونَهُ﴾ من طوق يطوق أي: يكلفون إطاقته ويشق عليهم؛ فهؤلاء لهم رخصة، «قَالَ ابن عَبَّاسٍ: لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ، هُوَ الشَّيْخُ الكَبِيرُ وَالْمَرْأَةُ الكَبِيرَةُ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا، فَلْيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا».

بَابُ قوله:
﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥]

{٤٥٠٦} حَدَّثَنَا عَيَّاشُ بْنُ الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الأَعْلَىٰ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ: فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ. قَالَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ.

{٤٥٠٧} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ مُضَرَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ، عَنْ بُكَيْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ يَزِيدَ مَوْلَىٰ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ، عَنْ سَلَمَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ﴾ [البقرة: ١٨٥] كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ الآيَةُ التِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا.

قال أبو عبد الله: مَاتَ بُكَيْرٌ قَبْلَ يَزِيدَ.

الشَّرح

هذه الأحاديث على قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾.

{٤٥٠٦} في الآية ثلاث قراءات:

١- فديةٌ - بالضم بدون تنوين - طعامِ - بالجر على الإضافة - مساكين - بالجمع -: وهي قراءة نافع وابن ذكوان.

٢- فديةٌ - بالضم والتنوين - طعامُ - بالرفع بدل من فدية - مساكين - بالجمع -: وهي قراءة هشام عن ابن عامر.

٣- فديةٌ - بالضم والتنوين - طعامُ - بالرفع بدل من فدية - مسكين - بالإفراد -: وهي قراءة الباقين من السبعة: ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي(١).

قال الحافظ ابن حجر ﷺ توجيهًا فقال: «ومن جمع «مَسَاكِينَ» فلمقابلة

(١) انظر: كتاب الهادي شرح طيبة النشر (٢/ ٧٠).

الجمع بالجمع، ومن أفرد فمعناه: فعلى كل واحد ممن يطيق الصوم».

قال ابن عمر: «هِيَ مَنْسُوخَةٌ»، فهذه الآية منسوخة بآية الترجمة؛ أي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؛ فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣-١٨٤]، ثم قال بعدها: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فجعله مخيرًا، ثم أمر من شهد الشهر بالصوم فقال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]؛ فهذه الآية نسخت الآية السابقة التي فيها التخيير.

❖ ❖ ❖

{٤٥٠٧} قوله في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ»، يعني: دل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٨٤] على أنه كان مخيرًا في أول الإسلام بين أن يصوم رمضان وبين أن يفطر ويخرج الفدية، إلا أن الصيام خير وأفضل.

فقال رضي الله عنه: «حَتَّىٰ نَزَلَتِ الآيَةُ التِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا»، وهي آية الترجمة: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

- قوله: «قال أبو عبد الله»: هو البخاري رحمه الله.
- قوله: «مَاتَ بُكَيْرٌ قَبْلَ يَزِيدَ»، يعني: مات بكير بن عبد الله قبل يزيد مولى سلمة بن الأكوع، وبكير هو التلميذ، ويزيد هو الشيخ.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «مات بكير بن عبد الله قبل شيخه يزيد، وكانت وفاته سنة عشرين ومائة، ومات يزيد سنة ست أو سبع وأربعين ومائة»، يعني: تأخرت وفاة الشيخ بعد وفاة التلميذ بمدة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]

{٤٥٠٨} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ. وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا شُرَيْحُ بْنُ مَسْلَمَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ البَرَاءَ ﷺ. لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «**باب قَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾**»، كذا لأبي ذر، وساق في رواية كريمة الآية كلها».

{٤٥٠٨} قوله في حديث البراء رضي الله عنه: «**لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية**»، وذلك أن فرض الصيام كان له أطوار:

الطور الأول: وجوب صوم يوم عاشوراء حيث أوجب الله صومه، وكان النبي ﷺ يصوم يوم عاشوراء وكان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر(١)، ثم نسخ وجوب صوم يوم عاشوراء لما فرض الله صوم رمضان.

---

(١) أحمد (٥/ ٢٧١)، والنسائي (٢٣٧٢).

الطور الثاني: لما فرض رمضان كان الناس مخيرين بين الصوم وبين إطعام مسكين عن كل يوم يفطرونه.

الطور الثالث: فرض الله الصوم حتمًا على المقيم، إلا أنهم لا يأكلون إلا أن يفطر الإنسان بالليل فله الأكل ما لم ينم، فإذا نام فإنه يحرم عليه الأكل إلى الليلة القابلة، وفي بعض الآثار: ما لم ينم أو يصل العشاء، فإذا نام أو صلى العشاء حرم عليه الأكل والشرب وحرمت عليه زوجته كذلك إلى الليلة القابلة. فوجدوا من ذلك مشقة عظيمة، وكان أناس يخونون أنفسهم أي: حصل من بعضهم جماع لزوجته، وبعضهم حصل له مشقة، مثل أحد رجال الأنصار الذي كان يعمل في بستان له، فجاء مجهدًا، وكان صائمًا، فلما أفطر قال لزوجته: هل عندك شيء من طعام؟ قالت: سوف أطلبه لك، فاتكأ ونام - وكان متعبًا - فإذا نام حرم عليه الأكل إلى الليلة القابلة، فلما جاءت قالت: خيبة لك. ولم يأكل وأصبح صائمًا في اليوم التالي، فلما انتصف النهار غشي عليه وسقط[(١)]. فخفف الله عنهم بإباحة الأكل والشرب ومباشرة الرجل زوجته من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا لما أنزل الله هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ والرفث: الجماع ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾، أي: بسبب المباشرة بين الرجل وبين زوجته، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، حيث كان منهم رجال يتخونون أنفسهم، ثم قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾. فأمر الله بالمباشرة وهي الجماع، وأباح للرجل التمتع بزوجته، ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾، قال بعض المفسرين: يعني: الولد، ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ﴾، فأباح الله الأكل والشرب والمباشرة إلى طلوع الفجر، ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ**» قد تقدم في كتاب الصيام من حديث البراء أيضًا أنهم كانوا لا يأكلون ولا يشربون إذا ناموا، وأن الآية نزلت في ذلك، وبينت هناك أن الآية نزلت

(١) أحمد (٤/ ٢٩٥)، والبخاري (١٩١٥).

في الأمرين معًا».

يعني: أن الأكل والشرب هو الأمر الأول، وأن الأمر الثاني هو الجماع.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وظاهر سياق حديث الباب أن الجماع كان ممنوعًا في جميع الليل والنهار، بخلاف الأكل والشرب فكان مأذونًا فيه ليلًا ما لم يحصل النوم».

يعني: حديث الباب - وهو حديث البراء - ظاهره أن الجماع كان ممنوعًا في الليل والنهار، أما الأكل والشرب فإنه كان مأذونًا فيه ما لم ينم أو يصل العشاء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكن بقية الأحاديث الواردة في هذا المعنى تدل على عدم الفرق كما سأذكرها بعد؛ فيحمل قوله: «كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ» على الغالب؛ جمعًا بين الأخبار.

○ قوله: «وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ»، سمي من هؤلاء عمر وكعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فروى أحمد وأبو داود والحاكم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل قال: أحيل الصيام ثلاثة أحوال، فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء[(١)]، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]».

وهذا هو الطور الأول كما سبق.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذكر الحديث إلى أن قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلًا من الأنصار صلى العشاء ثم نام فأصبح مجهودًا، وكان عمر أصاب من النساء بعدما نام؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] وهذا الحديث مشهور عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، لكنه لم يسمع من معاذ، وقد جاء عنه فيه: حدثنا أصحاب محمد، كما تقدم

(١) أحمد (٥/ ٢٤٦)، وأبو داود (٥٠٧)، والحاكم (٢/ ٣٠١).

التنبيه عليه قريبًا، فكأنه سمعه من غير معاذ أيضًا، وله شواهد: منها ما أخرجه ابن مردويه من طريق كريب عن ابن عباس قال: بلغنا. ومن طريق عطاء عن أبي هريرة نحوه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، فرجع عمر من عند النبي ﷺ وقد سمر عنده، فأراد امرأته، فقالت: إني قد نمت، قال: ما نمت، ووقع عليها. وصنع كعب بن مالك مثل ذلك، فنزلت[١]. وروى ابن جرير من طريق ابن عباس نحوه[٢]، ومن طريق أصحاب مجاهد وعطاء وعكرمة وغير واحد من غيرهم كالسدي وقتادة وثابت نحو هذا الحديث[٣]، لكن لم يزد واحد منهم في القصة على تسمية عمر، إلا في حديث كعب بن مالك، والله أعلم».

---

(١) أحمد (٣/ ٤٦٠)، والطبري في «التفسير» (٣/ ٤٩٦).
(٢) الطبري في «التفسير» (٣/ ٤٩٨).
(٣) الطبري في «التفسير» (٣/ ٤٩٨).

بَابُ قَوْلِهِ تعالىٰ:
﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾
إلىٰ قوله: ﴿عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]

الْعَاكِفُ: المُقِيمُ.

{٤٥٠٩} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيٍّ قَالَ: أَخَذَ عَدِيٌّ عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ، حَتَّىٰ كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَبِينَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلْتُ تَحْتَ وِسَادِي. قَالَ: «إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ أَنْ كَانَ الخَيْطُ الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ».

{٤٥١٠} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ؟ أَهُمَا الخَيْطَانِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ القَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الخَيْطَيْنِ». ثُمَّ قَالَ: «لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ».

{٤٥١١} حَدَّثَنَا ابن أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ مُطَرِّفٍ، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: وَأُنْزِلَتْ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وَلَمْ يُنْزَلْ ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالخَيْطَ الأَسْوَدَ، وَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ بَعْدَهُ ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي: اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ.

الشَّرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، وبعدها: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والمراد بالخيط الأبيض النهار وبالخيط الأسود الليل.

وقد أشكل هذا على بعض الصحابة؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ لم ينزل إلا متأخرًا، فظن بعض الصحابة أن المراد به الخيط الأبيض أو الأسود على ظاهره، وحصل هذا لعدي رضي الله عنه وجماعة.

قال الحافظ ابن حجر: «﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾: المُقِيمُ» ثبت هذا التفسير في رواية المستملي وحده، وهو تفسير أبي عبيدة قال في قوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الحَجّ: ٢٥] أي: المقيم والذي لا يقيم».

{٤٥٠٩} هذا الحديث جاء به البخاري رحمه الله لمناسبة الترجمة، وهو حديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: «أَخَذَ عَدِيٌّ عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ، حَتَّىٰ كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَبِينَا»، وذلك لما نزلت الآية؛ وهي قول الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] الآية، فكان عدي رضي الله عنه ينظر إليهما في الليل فإذا تبين له الأسود من الأبيض أمسك الأكل والشرب عن نفسه.

○ قوله: «فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلْتُ تَحْتَ وِسَادِي»، وفي رواية: «**جعلت تحت وسادتي عقالين**»[(١)] يعني: الخيط الأبيض والخيط الأسود.

○ قوله: «إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ»، وفي لفظ آخر بعده: قال له رسول الله ﷺ: «**إنك لعريض القفا**» وقد استدل أهل البلاغة بهذا الحديث على أنه كناية عن غباوة عدي، وقالوا: فيه دليل على أن عديًّا رضي الله عنه كان غبيًّا. وهذا باطل؛ فكيف يليق بالنبي ﷺ أن يكني ويعرض بغباوة عدي؟! فهذا ليس من خلق النبي ﷺ، ثم إن عديًّا رضي الله عنه لم يكن غبيًّا بل هو من أذكى الناس، ثم إن هذا الظن ليس خاصًّا بعدي؛ لأن هذا أشكل - أيضًا - على بعض الصحابة غير عدي - كما يفيده آخر أحاديث الباب - حتى فسره لهم النبي ﷺ بأن المقصود منه سواد الليل وبياض النهار؛ أي: حتى يتبين لكم بياض النهار من سواد الليل.

❖ ❖ ❖

(١) أحمد (٤/٣٧٧)، والبخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠).

{٤٥١٠} قوله: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ القَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الخَيْطَيْنِ. ثُمَّ قَالَ: لَا» يعني: ليس كما توهمت أن الخيط الأبيض والخيط الأسود هما خيطان مما ينسج؛ «بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ».

❖ ❖ ❖

{٤٥١١} قوله في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: «وَأُنْزِلَتْ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَلَمْ يُنْزَلْ: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الأَسْوَدَ» هذا يدل على أن هذا الأمر ليس خاصًّا بعدي رضي الله عنه، بل حصل هذا لجماعة غيره.

○ قوله: «وَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ بَعْدَهُ ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي: اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ»، في الحديث: دليل على أن الإنسان إذا اجتهد في فهم الحكم الشرعي فأخطأ في فهمه فإنه لا يؤاخذ، فلا يؤمر بالقضاء إذا أكل أو شرب مجتهدًا مخطئًا؛ ولهذا لم يأمر النبي ﷺ عدي بن حاتم ولا هؤلاء الرجال بقضاء الأيام التي ربطوا فيها الخيوط بأرجلهم وجعلوا يأكلون ويشربون.

وهذا بخلاف من أكل أو شرب ظانًّا أن الفجر لم يطلع، ثم تبين له أنه طلع؛ فإن عليه قضاء ذلك اليوم عند جمهور العلماء، وهو الصواب.

وقال آخرون من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية(١): لا يقضي.

ولا يجتهد إلا من كان عنده أهلية للاجتهاد، أما الذي ليست عنده أهلية لذلك فلا يقال: اجتهد، بل يقال: فعل خبط عشواء، وفعله اتفاقًا.

---

(١) انظر: «الفتاوى الكبرى» (٢/ ٤٧٣).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]

{٤٥١٢} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ قَالَ كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَتَوُا البَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: ١٨٩].

الشَّرْح

{٤٥١٢} قوله: «كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَتَوُا البَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ» هذا من تعنت أهل الجاهلية؛ كان الواحد منهم إذا أحرم بحج أو عمرة ثم أراد أن يأتي البيت يتسلق الجدار ولا يفتح الباب ويدخل؛ لئلا يغطي رأسه الجدار أو الباب، فإذا أراد أن يدخل صعد من فوق الجدار؛ فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ ومثله تعنت الرافضة إذا أحرموا؛ حيث يحرمون في سيارات مكشوفة حتى لا تغطي رؤوسهم، مع أن النبي ﷺ لما رمى جمرة العقبة كان يظلله أسامة وبلال بثوب ﷺ من الحر في الشمس وهو محرم[1]، فلا حرج من كون الإنسان يستظل وهو محرم، ولا حرج أن يجيء في سقف البيت أو سقف السيارة أو الشجرة أو الخيمة.

(١) أحمد (٦/٤٠٢)، ومسلم (١٢٩٨).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]

{٤٥١٣} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَتَاهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَةِ ابن الزُّبَيْرِ فَقَالَا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ ضُيِّعُوا، وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ: يَمْنَعُنِي أَنَّ اللهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي. فَقَالَا: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] فَقَالَ: قَاتَلْنَا حَتَّىٰ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ، وَكَانَ الدِّينُ لله، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّىٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللهِ.

{٤٥١٤} وَزَادَ عُثْمَانُ بْنُ صَالِحٍ، عَنِ ابن وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي فُلَانٌ وَحَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَمْرٍو المَعَافِرِيِّ أَنَّ بُكَيْرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ حَدَّثَهُ، عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى ابن عُمَرَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ تَحُجَّ عَامًا وَتَعْتَمِرَ عَامًا، وَتَتْرُكَ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا رَغَّبَ اللهُ فِيهِ؟ قَالَ: يَا ابن أَخِي بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: إِيمَانٍ باللهِ وَرَسُولِهِ، وَالصَّلَوَات الخَمْسِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ. قَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ إِلَىٰ ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:٩] ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟! [البقرة: ١٩٣] قَالَ: فَعَلْنَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ الإِسْلَامُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ إِمَّا قَتَلُوهُ، وَإِمَّا يُعَذِّبُوهُ، حَتَّىٰ كَثُرَ الإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ.

{٤٥١٥} قَالَ فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ قَالَ: أَمَّا عُثْمَانُ فَكَأَنَّ اللهَ عَفَا عَنْهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَكَرِهْتُمْ أَنْ تَعْفُوا عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَتَنُهُ. وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَقَالَ: هٰذَا بَيْتُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ.

الشَّرْح

○ قوله: «باب قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾» هذه الآية في قتال المشركين، وفيها يقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾، يعني: المشركين ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: الشرك؛ يعني: حتى يتوبوا من شركهم، فينتهي الشرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ ويكون الدين ظاهرًا ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الشرك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٣]، يعني: فكفوا عنهم ولا تعتدوا عليهم.

والمشرك ظالم؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، فالعبادة حق الله ﷻ والمشرك عبد غير الله، وهو من أظلم الناس، فالشرك أظلم الظلم.

{٤٥١٣} أتى المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على هذه الآية وفيه أنه «أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير»، يعني: في القتال بينه وبين الحجاج بن يوسف أمير عبد الملك بن مروان؛ وذلك أنه بعد موت يزيد بن معاوية بايع الناس عبد الله بن الزبير بالخلافة، وكان خليفة على مكة والمدينة والطائف وعقدت له البيعة في الشام ولم يبق إلا قليل من بعض بلاد الشام فقام مروان بن الحكم ودعا لنفسه بالخلافة، ثم توفي فقام بعده عبد الملك بن مروان وأخذ الشام من ابن الزبير شيئاً فشيئاً حتى أخذ العراق، ثم جعل يقاتل عبد الله بن الزبير، ووكل المهمة إلى الحجاج بن يوسف، وكان أميرًا على العراق، فجعل الحجاج يرسل الجيوش إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير لإخضاعه حتى يستنقذ منه الحجاز لعبد الملك بن مروان، فصار يقاتل عبد الله بن الزبير حتى انتصر عليه، وأتى بجيشه ورمى الكعبة بالمنجنيق حتى هدمها، ثم قتل عبد الله بن الزبير وصلبه على خشبة ثلاثة أيام، وانتهت خلافة عبد الله بن الزبير، واستتب الأمر لعبد الملك بن مروان، وبويع بالخلافة، وبايعه أهل الحل والعقد.

فقوله: «أَتَاهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَةِ ابن الزُّبَيْرِ»، يعني: في أثناء القتال، وكان عبد الله بن عمر يعتزل الناس في الفتنة ولا يشارك، وعبد الله بن الزبير هو الخليفة، وهو صحابي، وهو الذي تمت له البيعة، وهو الذي عمل بالحديث

لما بلغه أن النبي ﷺ قال: «**لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لنقضت الكعبة وأدخلت الحجر وجعلت لها بابين**»[(١)]، فأدخل الحجر، وصار يستلم الأركان الأربعة كلها، وفتح بابا غربيًا، وأنزل الباب الشرقي، وكان مرتفعًا، وصار الناس يدخلون من باب، ويخرجون من باب؛ فلما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير أعاد بناء الكعبة على ما كانت عليه في الجاهلية، فأخرج الحجر وسد الباب الغربي ورفع الباب الشرقي.

ويقال: إن عبد الملك بن مروان لما جاء يطوف بالبيت وقال: إن ابن الزبير يكذب على رسول الله ﷺ ويقول كذا وكذا، فسمعه بعضهم، فقال: لا تقل هكذا يا أمير المؤمنين؛ فإني سمعت عائشة تقول كذا وكذا، فأطرق وقال: ليتنا تركناه وما أراد[(٢)]. والله ﷻ يحكم بينهما بحكمه العدل.

فعبد الله بن عمر يعتزل الناس في وقت القتال ولا يبايع واحدًا منهما حتى يستتب الأمر لواحد كما فعل في القتال بين علي ومعاوية؛ حيث اعتزل حتى بويع لمعاوية لما قتل علي رضي الله عنه. وتنازل الحسن لمعاوية وتمت البيعة فبايعه، وكذلك لما تمت البيعة لعبد الملك بن مروان بايعه عملًا بالأحاديث في اعتزال الفتنة.

○ قوله: «فَقَالَا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ ضُيِّعُوا، وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟» يعني: قال هذان الرجلان: إن عبد الله بن الزبير خرج على الخليفة، فهو معتد ولابد من قتاله فاخرج وجاهد في سبيل الله. فجعلوه جهادًا!

○ قوله: «يَمْنَعُنِي أَنَّ اللهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي» ابن الزبير.

فقالا له - كأنه جدال -: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾»، وهذه الآية في المشركين فجعلاها في عبد الله بن الزبير.

فقال عبد الله بن عمر: «قَاتَلْنَا حَتَّىٰ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ، وَكَانَ الدِّينُ للهِ»، يعني: على عهد النبي ﷺ قاتلوا المشركين حتى زال الشرك وكان الدين لله.

(١) أحمد (٦/ ١٣٦)، والبخاري (١٢٦)، ومسلم (١٣٣٣)، واللفظ له.
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١١/ ٦٩٣).

ثم قال: «وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّىٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللهِ»، يعني: قتالكم ليس بجهاد في سبيل الله حتى أشارككم، هذا قتال فتنة؛ نحن قاتلنا مع النبي ﷺ حتى زال الشرك وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن نقاتل حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

{٤٥١٤} قوله: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى ابن عُمَرَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنْ تَحُجَّ عَامًا وَتَعْتَمِرَ عَامًا، وَتَتْرُكَ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ»؛ فقد كان ابن عمر يكثر الحج فيحج كل سنة ويعتمر، يعني: فلتقاتل ابن الزبير، فسماه جهادًا في سبيل الله بحسب اعتقاده؛ لأنه يزعم أن عبد الله بن الزبير خرج عن طاعة الإمام، وهو عبد الملك بن مروان، وإن كان الصواب عند غيره خلافه.

○ قوله: «وَقَدْ عَلِمْتَ مَا رَغَّبَ اللهُ فِيهِ؟»، يعني: الجهاد، فكيف تحج وتعتمر وتترك الجهاد ولا تقاتل ابن الزبير؟

فأجاب عبد الله بن عمر قال: «يَا ابن أَخِي بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: إِيمَانٍ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ»، يعني: ما تذكره ليس من الأركان.

○ قوله: «قَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]؟» يعني: مقصوده أن ابن الزبير طائفة تقاتل، وعبد الملك بن مروان طائفة تقاتل وأن عبد الله بن الزبير من البغاة والله يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي﴾؛ فلماذا لا تقاتل ابن الزبير مع أنه فئة باغية؟ وكذلك قال الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

فأجاب عبد الله بن عمر «قَالَ: فَعَلْنَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ الإِسْلَامُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ إِمَّا قَتَلُوهُ، وَإِمَّا يُعَذِّبُوهُ، حَتَّىٰ كَثُرَ الإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ».

{٤٥١٥} قوله: «قَالَ فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟» يحتمل أن السائل من الخوارج أو من غيرهم.

فأجابه ابن عمر رضي الله عنهما «قَالَ: أَمَّا عُثْمَانُ فَكَأَنَّ اللهَ عَفَا عَنْهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَكَرِهْتُمْ أَنْ تَعْفُوا عَنْهُ»، يعني: عفا عنه في تخلفه عن بدر؛ قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥٢﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢]، وكذلك في الفرار يوم أحد؛ قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، ذكره الله في غزوة أحد لما فروا في أول الغزوة بعد أن كان النصر للمسلمين، ثم بعد ذلك لما أخل الرماة حصلت النكسة ففر كثير من الصحابة، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، أي: الفرار، وهو ممن عفا عنه.

○ قوله: «وَأَمَّا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَتَنُهُ»؛ لأنه زوج ابنة النبي ﷺ، إذ الختن: القريب من جهة الزوجة، فالأقارب من جهة الزوجة يقال لهم: أختان، والأقارب من جهة الزوج يقال لهم: أحماء، والصهر يطلق على هؤلاء وهؤلاء.

○ قوله: «وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَقَالَ: هٰذا بَيْتُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ»، أي: بيت علي رضي الله عنه.

وكأنه خفي على ابن عمر كما خفي على جماعة من الصحابة في فهم الآية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجرَات: ٩]، وإلا فالصواب أن هذه الآية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ عامة، وأنه يجب قتال الباغي.

وفي قتال علي مع معاوية كان الحق مع علي رضي الله عنه، ومع ابن الزبير في قتال عبد الملك بن مروان، فيجب القتال معهما على الباغي، فابن الزبير تمت له البيعة من أهل الحل والعقد بعد موت يزيد بن معاوية، ولكن ابن عمر وجماعة من الصحابة خفي عليهم الأمر فتوقفوا، كأبي بكرة وأسامة بن زيد وسلمة بن الأكوع وجماعة، كما أن عائشة وطلحة والزبير خفي عليهم الأمر فجاءوا في وقعة الجمل يطالبون بدم عثمان عن اجتهاد فوقعت فتنة الجمل، فالصحابة رضي الله عنهم ما بين مجتهد مصيب له أجران: أجر الاجتهاد وأجر الصواب، وما بين مجتهد مخطئ فاته أجر الصواب، وحصل على أجر الاجتهاد رضي الله عنهم؛ فقتالهم ليس قتالاً عن هوى وبغي، فالقتال الذي يكون عن هوى أو بغي هو الذي ورد فيه الوعيد الشديد كقوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»[(١)]،

(١) أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

وقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(١)]، أما إذا كان القتال عن اجتهاد وتأويل فلا يدخل في هذا، فالصحابة ﷺ قاتلوا عن تأويل؛ فعلي رضي الله عنه تمت له البيعة من أكثر أهل الحل والعقد، أما أهل الشام ومعاوية امتنعوا؛ فعلي رضي الله عنه رأى أنه يجب إخضاعهم ويجب عليهم أن يبايعوه، ومعاوية رضي الله عنه اجتهد ومن معه وهم يطالبون بدم عثمان وأنهم أولى الناس به، وأنه إذا ترك دم عثمان فإنه يتجاوز طغيان قاتليه على غيره، وعلي رضي الله عنه لا يمانع ولكنه لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يأخذ القتلة وهم لا يُعرفون بأعيانهم، وهناك من تنتصر له قبيلته، فعليٌّ رضي الله عنه يقول: إذا هدأت الأمور وعرفوا أخذناهم، ولكن معاوية رضي الله عنه لم يوافق على هذا فحصل قتال، والصواب مع علي رضي الله عنه كما أخبر النبي ﷺ قال: «**عمار تقتله الفئة الباغية**»[(٢)] فهم بغاة ولكن لا يعلمون أنهم بغاة.

فأخذ الصحابة رضي الله عنهم الذين امتنعوا عن القتال بالأحاديث التي فيها القعود عن القتال في وقت الفتنة كحديث: «**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم، خير من الماشي من استشرف لها تستشرفه**»[(٣)] وفي بعض الأحاديث في الفتنة الأمر بكسر جفون السيوف[(٤)]، فهم خافوا ولم يتبين لهم الأمر فاعتزلوا الفريقين رضي الله عنهم.

---

(١) أحمد (١/ ٢٣٠)، والبخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).
(٢) أحمد (٢/ ٢٠٦)، والبخاري (٤٤٧)، ومسلم (٢٩١٥).
(٣) أحمد (١/ ١٦٨)، والبخاري (٣٦٠٢)، ومسلم (٢٨٨٦).
(٤) أحمد (٤/ ٤١٦)، ومسلم (٢٨٨٧).

بَابُ قَوْلِهِ تعالىٰ:

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]

التَّهْلُكَةُ وَالْهَلَاكُ وَاحِدٌ.

{٤٥١٦} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٥].

{٤٥١٦} ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الترجمة حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه: قوله في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ «قَالَ: نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ»، يعني: ترك النفقة في سبيل الله هلاك، كما جاء مفسرًا في حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا بالقسطنطينية، فخرج صف عظيم من الروم، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم رجع مقبلاً. فصاح الناس: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: أيها الناس، إنكم تؤلون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار؛ إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا بيننا سرًّا: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها؛ فأنزل الله هذه الآية، فكانت التهلكة الإقامة التي أردناها. وصح عن ابن عباس وجماعة من التابعين نحو ذلك في تأويل الآية[1]، فالتهلكة هي: الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله، وكذلك

(١) أبو دواد (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٩٩)، والحاكم (٢/ ٣٠٢).

يشمل الهلاك إنفاق الأموال في غير وجوهها المشروعة.

وأما كون الواحد يحمل على العدد الكثير من العدو فهذا يؤخذ من نصوص أخرى، وأنه لا ينبغي لإنسان أن يحمل على العدد الكثير، لكن إذا رأى أن في ذلك قوة ومصلحة للمسلمين وأنه يؤثر فلا بأس.

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قوله: «**التَّهْلُكَةُ وَالْهَلَاكُ وَاحِدٌ**» هو تفسير أبي عبيدة، وزاد: والهلاك والهلك يعني: بفتح الهاء وبضمها واللام ساكنة فيهما، وكل هذه مصادر هلك بلفظ الفعل الماضي، وقيل: التهلكة ما أمكن التحرز منه، والهلاك بخلافه. وقيل: التهلكة نفس الشيء المهلك. وقيل: ما تضر عاقبته، والمشهور الأول.

ثم ذكر المصنف حديث حذيفة في هذه الآية «**قَالَ: نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ**»، أي: في ترك النفقة في سبيل الله ﷻ، وهذا الذي قاله حذيفة جاء مفسرًا في حديث أبي أيوب.

وروى ابن أبي حاتم من طريق زيد بن أسلم أنها كانت نزلت في ناس كانوا يغزون بغير نفقة، فيلزم على قوله اختلاف المأمورين؛ فالذين قيل لهم: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]: أصحاب الأموال، والذين قيل لهم: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]: الغزاة بغير نفقة، ولا يخفى ما فيه. ومن طريق الضحاك بن أبي جبيرة: كان الأنصار يتصدقون، فأصابتهم سنة فأمسكوا؛ فنزلت.

وروى ابن جرير وابن المنذر بإسناد صحيح عن مدرك بن عوف قال: إني لعند عمر، فقلت: إن لي جارًا رمى بنفسه في الحرب فقتل، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال عمر: كذبوا، لكنه اشترى الآخرة بالدنيا.

وجاء عن البراء بن عازب في الآية تأويل آخر أخرجه ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عنه بإسناد صحيح عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: أرأيت قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، هو الرجل يحمل على الكتيبة فيها ألف؟ قال: لا، ولكنه الرجل يذنب فيلقي بيده فيقول: لا توبة لي. وعن النعمان بن بشير نحوه، والأول أظهر؛ لتصدير الآية بذكر النفقة، فهو المعتمد في نزولها».

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قصرها عليه ففيه نظر؛ لأن العبرة بعموم اللفظ، على أن أحمد أخرج الحديث المذكور من طريق أبي بكر - وهو ابن عياش - عن أبي إسحاق بلفظ آخر قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى قد بعث محمدًا فقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النِّسَاء: ٨٤]، فإنما ذلك في النفقة. فإن كان محفوظًا فلعل للبراء فيه جوابين».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [البقرة: ١٩٦]

{٤٥١٧} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الأَصْبَهَانِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَعْقِلٍ قَالَ: قَعَدْتُ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ فِي هٰذا المَسْجِدِ -يَعْنِي: مَسْجِدَ الكُوفَةِ- فَسَأَلْتُهُ عَنْ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾. فَقَالَ حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَىٰ وَجْهِي. فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أُرىٰ أَنَّ الجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هٰذا، أَمَا تَجِدُ شَاةً». قُلْتُ لَا. قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ». فَنَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةً.

الشَّرْح

هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦]، بين الله تعالى فيها أن المريض أو الذي به أذى من رأسه إذا فعل محظورًا من محظورات الإحرام؛ كأن يحلق رأسه وهو محرم، فإنه يخير بين واحدة من ثلاثة أمور؛ هي: الصدقة أو الصيام أو النسك. والنسك: أن يذبح شاة.

{٤٥١٧} ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موضحًا ومفسرًا ما جاء في الآية الكريمة، ففسر الصيام بأنه: صيام ثلاثة أيام، وفسر الصدقة بأنها: إطعام ستة مساكين، وفسر النسك بأنه: ذبح شاة؛ فإذا فعل محظورًا من محظورات الإحرام يخير بين واحد من ثلاثة أمور: إما أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين؛ لكل مسكين نصف صاع، أو يذبح شاة، فإذا حلق رأسه وهو محرم ليداوي جروحًا أو يزيل أذًى في رأسه، أو غطى رأسه، أو لبس مخيطًا لأجل البرد، وما أشبه ذلك فإنه يؤدي الفدية ولا شيء عليه، أما إذا فعل محظورًا من دون سبب أو حاجة فإنه يأثم وعليه الفدية.

○ قوله: «قَعَدْتُ إِلَىٰ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ فِي هٰذا المَسْجِدِ -يَعْنِي: مَسْجِدَ الكُوفَةِ- فَسَأَلْتُهُ عَنْ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾. فَقَالَ حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَىٰ وَجْهِي. فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أُرىٰ أَنَّ الجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هٰذا»، يعني: المشقة.

○ قوله: «أَمَا تَجِدُ شَاةً؟» يحتمل أنه من تصرف بعض الرواة، والظاهر أنها من قول الرسول ﷺ فهي تدل على أن الشاة مقدمة على الصيام والإطعام، وأنها أولى وأفضل وليست واجبة وحدها، بل هو مخير بين واحد من هذه الثلاثة للأحاديث الكثيرة التي ذكر فيها التخيير.

وأمره أن يحلق رأسه لأنه إذا حلق رأسه زال القمل، وهي حشرات تكون في الشعر إذا كان هناك وسخ هي تؤذي، وتذهب مع النظافة.

فأمره النبي ﷺ أن يذبح شاة أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين؛ لكل مسكين نصف صاع.

○ وقوله: «لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ» هذا هو مقدار ما يعطاه المسكين فدية للأذى، وأخذ منه العلماء مقدار ما يعطاه في كفارة اليمين، وأنها نصف صاع، أما قول الفقهاء: نصف صاع أو مُدّ بُرٍّ، فهو اجتهاد من الفقهاء، قالوا: البر ربع صاع وغير البر نصف صاع، والصاع أربع حفنات من كفي الرجل المتوسط؛ يملأ يديه المتوسطتين أربع مرات، ونصف الصاع مرتين، وربع الصاع مرة واحدة، وهذا اجتهاد من الفقهاء، والأصل في ذلك أنه اجتهاد من معاوية رضي الله عنه حينما جاء بُرٌّ سامراء في الشام قال: أرى أن المد من هذه الثمرة يعدل مدين، فأخذ الناس بذلك، فكان يرى أنه في زكاة الفطر يكفي نصف صاع من البر، لكن هذا ليس مستمراً؛ فقد يكون التمر أغلى من البر في بعض الأحيان؛ فيرجع إلى الأصل في الكفارة، وهو نصف صاع، والصواب أنه نصف صاع من البر ومن غيره ولم يوافق بعض الصحابة معاوية؛ ولهذا قال أبو سعيد: أما أنا فلا أزال أخرجه صاعًا كما كنت في عهد النبي ﷺ[(١)].

---

(١) مسلم (٩٨٥).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٦]

{٤٥١٨} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ عِمْرَانَ أَبِي بَكْرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﵄ قَالَ: أُنْزِلَتْ آيَةُ الْمُتْعَةِ فِي كِتَابِ اللهِ فَفَعَلْنَاهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يُنْزَلْ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهُ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا حَتَّىٰ مَاتَ، قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ.

الشَّرْح

{٤٥١٨} قوله: «أُنْزِلَتْ آيَةُ الْمُتْعَةِ فِي كِتَابِ اللهِ»، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

○ قوله: «فَفَعَلْنَاهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يُنْزَلْ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهُ»، أي: التمتع، وهو أن يحرم الإنسان بالعمرة ثم يطوف ويسعى ويقصر ويتحلل ثم يحرم بالحج من عامه، وكانوا قبل الإسلام لا يرون المتعة في وقت الحج، بل يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، ويرون أن المتعة لا تكون إلا إذا انتهى الحج، ورجع الحجاج، ويقولون: إذا برأ الدبر وعفا الأثر وانسلخ شهر صفر حلت العمرة لمن اعتمر. وقد خالفهم النبي ﷺ، وأمر الناس وألزمهم أن يتمتعوا إلا من ساق الهدي.

ثم بعد ذلك اجتهد الخلفاء الثلاثة: الصديق وعمر وعثمان ﵃ وصاروا يأمرون الناس بالإفراد، ولا يأمرونهم بالمتعة؛ ويقولون: زال اعتقاد أهل الجاهلية ونحن نعلم أن الرسول أمر بالمتعة، لكن نحن نأمر الناس بالإفراد حتى يأتوا بالعمرة في وقت آخر، فلا يزال هذا البيت يحج ويعتمر، وهذا اجتهاد منهم، ولكن الصواب أن المتعة أفضل.

ولهذا كان ابن عباس وعمران بن حصين وعليٌّ وأبو موسى الأشعري ﵃ يفتون بالمتعة، ولما ناظر بعض الناس ابن عباس وقالوا له: أنت تأمر بالمتعة

وأبو بكر وعمر يأمران بالإفراد قال: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله وتقولون: قال أبو بكر وعمر. يعني: أنتم تعارضون السنة بقول أبي بكر وعمر، فإذا كان الذي يعارض السنة بقول أبي بكر وعمر يُخشى أن تنزل عليه حجارة من السماء فكيف بمن عارض السنة بقول بعيد؟!

❍ قوله: «وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا حَتَّىٰ مَاتَ»، أي: الرسول ﷺ.

❍ قوله: «قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ» يشير إلى اجتهاد عمر، وأبي بكر وعثمان في نهيهم عن المتعة، والصواب مع علي بن أبي طالب وعمران وأبي موسى وابن عباس، وهو مشروعية المتعة، وأنها أفضل من القران والإفراد؛ وقد أمر بها النبي ﷺ.

ولا يؤخذ بقول الصحابي ولا بقول الخلفاء الراشدين إذا خالفوا السنة، بل السنة حاكمة ومقدمة على الجميع، ولكن يؤخذ بقولهم إذا لم توجد السنة.

ومع ذلك لما قيل لأبي موسى - وكان يفتي الناس بالمتعة -: إن الخليفة عمر يأمر الناس بالإفراد. قال: يا أيها الناس اتئدوا، فإن الخليفة قادم عليكم وأتموا به؛ من أجل ألا يخالف ولي الأمر.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]

{٤٥١٩} حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَتَأَثَّمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي الْمَوَاسِمِ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ.

الشَّرْح

{٤٥١٩} قوله: «كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو المَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الجَاهِلِيَّةِ»، أي: كانوا في الجاهلية يتجرون في هذه الأسواق وفيها معايشهم؛ لأنهم كانوا يعيشون على التجارة.

○ قوله: «فَتَأَثَّمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي المَوَاسِمِ»، أي: في مواسم الحج؛ يعني لما جاء الله بالإسلام خافوا من الإثم، قالوا: سنبيع ونشتري في موسم الحج؟! فأنزل الله: «﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨] فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ» فرفع الله الحرج.

فلا بأس أن يبيع الإنسان ويشتري وهو في أثناء الحج، ما دام يؤدي مناسك الحج.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ الآية [البقرة: ١٩٩]

{٤٥٢٠} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَازِمٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

{٤٥٢١} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، حَدَّثَنَا فُضَيْلُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ أَخْبَرَنِي كُرَيْبٌ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: تَطَوَّفُ الرَّجُلُ بِالْبَيْتِ مَا كَانَ حَلَالًا حَتَّىٰ يُهِلَّ بِالْحَجِّ، فَإِذَا رَكِبَ إِلَىٰ عَرَفَةَ فَمَنْ تَيَسَّرَ لَهُ هَدِيَّةٌ مِنَ الإِبِلِ أَوِ البَقَرِ أَوِ الغَنَمِ، مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَيَّ ذَلِكَ شَاءَ، غَيْرَ إِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ؛ فَعَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ، وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَإِنْ كَانَ آخِرُ يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ يَوْمَ عَرَفَةَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَنْطَلِقْ حَتَّىٰ يَقِفَ بِعَرَفَاتٍ مِنْ صَلَاةِ العَصْرِ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ الظَّلَامُ، ثُمَّ لِيَدْفَعُوا مِنْ عَرَفَاتٍ إِذَا أَفَاضُوا مِنْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغُوا جَمْعًا الذِي يُتَبَرَّرُ فِيهِ، ثُمَّ لِيَذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا، أَوْ أَكْثِرُوا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا ثُمَّ أَفِيضُوا، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يُفِيضُونَ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩] حَتَّىٰ تَرْمُوا الجَمْرَةَ.

الشَّرح

ذكر المؤلف رحمه الله هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البَقَرَة: ١٩٩] والإفاضة تكون من عرفات.

{٤٥٢٠} قوله في حديث عائشة رضي الله عنها: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا»، يعني: ومن كان معهم على رأيهم، «يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ»، أي: كانوا يفعلون ذلك

من جهلهم، وكانت قريش يحجون في الجاهلية وهم على شركهم على ما توارثوه من دين أبيهم إبراهيم، وكانت قريش تقف بمزدلفة، وهذه من الأشياء التي غيروها من دين إبراهيم، فإذا قيل لهم: لماذا؟ قالوا: ما نتعدى حدود الحرم وحدود الحرم مزدلفة، وعرفة ليست من الحرم، «وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ»، من تحمسهم وتشددهم، «وَكَانَ سَائِرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ» على ما توارثوه من دين أبيهم إبراهيم عليه السلام ولم يتغير لديهم.

فلما جاء الإسلام أنكر الله على قريش وقوفهم بمزدلفة، وأمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ويخالف قريشًا، ثم يفيض من عرفات؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البَقَرَة: ١٩٩] والإفاضة تكون بعد الوقوف بعرفة.

❖ ❖ ❖

{٤٥٢١} ثم ذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفيه: قوله: «تَطَوَّفُ الرَّجُلُ بِالْبَيْتِ مَا كَانَ حَلَالًا حَتَّىٰ يُهِلَّ بِالْحَجِّ» يعني: إذا اعتمر يطوف ويسعى ويقصر ويتحلل، فإذا أهل بالحج ركب إلى عرفة.

○ وقوله: «فَمَنْ تَيَسَّرَ لَهُ هَدِيَّةٌ مِنَ الإِبِلِ أَوِ البَقَرِ أَوِ الغَنَمِ، مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ أَيَّ ذَلِكَ شَاءَ» يعني: يذبح ما شاء من ذلك.

○ قوله: «غَيْرَ إِنْ» - وفي لفظ: «غير أنه إن» - «لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ؛ فَعَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ، وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ»، يعني: إذا كان متمتعًا فأحرم بالعمرة، ثم أحرم بالحج من عامه، فعليه أن يذبح ما تيسر من الإبل أو البقر أو الغنم، والواجب شاة، أو سبع بدنة، أو سبع بقرة، فإن لم يتيسر له شيء لفقره أو لم يجد فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع كما قال الله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦].

○ قوله: «فَإِنْ كَانَ آخِرُ يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ يَوْمَ عَرَفَةَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ»، أي: يجوز أن يصوم السابع والثامن والتاسع ولكن الأفضل أن تكون قبل يوم عرفة يعني: يكون مفطراً يوم عرفة.

❍ قوله: «ثُمَّ لِيَنْطَلِقْ حَتَّىٰ يَقِفَ بِعَرَفَاتٍ مِنْ صَلَاةِ العَصْرِ»، لأنها مجموعة مع الظهر في وقت الظهر فيصلي الظهر والعصر ثم يقف «إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ الظَّلَامُ»، يعني: إلى غروب الشمس «ثُمَّ لِيَدْفَعُوا مِنْ عَرَفَاتٍ إِذَا أَفَاضُوا مِنْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغُوا»، بالمثناة الفوقية - وفي لفظ: «تَبْلُغُوا» - «جَمْعًا» وجمع: هي المزدلفة؛ سميت جمعًا لاجتماع الناس.

❍ قوله: «الذِي يُتَبَرَّرُ فِيهِ» وفي اللفظ الآخر: «**الذي يتبرر فيه**» يعني: يطلب فيه البر؛ لأن الناس تقف في المزدلفة ويذكرون الله ﷻ عند المشعر الحرام، «ثُمَّ لِيَذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا» كما قال الله: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٨]، «أَوْ أَكْثِرُوا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا»، وفي لفظ: «**وأكثروا**»، ويكون الإكثار من الذكر بعد صلاة الفجر قبل الإسفار؛ لأن الوقوف بالمشعر الحرام يكون بعد صلاة الفجر، ويحتمل أن الإكثار من الذكر يكون في الليل، «ثُمَّ أَفِيضُوا، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا يُفِيضُونَ»، ثم ذكر الآية: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ [البَقَرَة: ١٩٩]، «حَتَّىٰ تَرْمُوا الجَمْرَةَ»، أي: جمرة العقبة، وهي الكبرىٰ، والجمرات ثلاث: الصغرى، والوسطى، والكبرى.

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١]

{٤٥٢٢} حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

الشَّرْح

{٤٥٢٢} فيه: مشروعية هذا الدعاء وهو من أجمع الدعاء وكان النبي ﷺ يختتم به الدعاء في الطواف(١) وهو أكثر دعائه ﷺ(٢)، يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠] فبعض الناس يطلب الدنيا فقط، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢] وحسنة الدنيا: الزوجة الصالحة، والرزق الهنيء، والبيت الفسيح، وأما حسنة الآخرة فهي: النجاة من النار، ودخول الجنة.

(١) أحمد (٣/ ٤١١)، وأبو داود (١٨٩٢).
(٢) أحمد (٣/ ١٠١)، والبخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]

وَقَالَ عَطَاءٌ: النَّسْلُ: الحَيَوَانُ.

{٤٥٢٣} حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ تَرْفَعُهُ قَالَ: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ».

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنِي ابن جُرَيْجٍ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ والخصام جمع خصم والألد: هو شديد المخاصمة، وهذا في وصف المنافق، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠٥-٢٠٦].

{٤٥٢٣} ذكر المؤلف رحمه الله حديث عائشة رضي الله عنها.

وفيه: قوله: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ» يعني: شديد الخصومة؛ ففيه التحذير من الخصومة، والخصومة من شدة الجدال.

وفيه: إثبات البغض لله عز وجل، والرد على من أنكره، وأن كثير الخصومة يبغضه الله عز وجل؛ ففيه التحذير من الخصومة واللدد وشدة الخصومة وأنه ينبغي للإنسان أن يكون سهلًا بعيدًا عن الخصومة والجدال والنزاع والشقاق وأن يسلك الطريق الأيسر والأسهل؛ «**يسروا ولا تعسروا**»(١) ولما بعث النبي ﷺ معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما قال: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا**»(٢).

○ قوله: «وَقَالَ عَطَاءٌ: النَّسْلُ: الحَيَوَانُ»، يريد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ

---

(١) أحمد (٣/ ١٣١)، والبخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).
(٢) أحمد (٤/ ٤١٧)، والبخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ فالمراد بالنسل - كما فسرها عطاء: الحيوان، والنسل يكون من الناس ومن الأنعام. والحرث: الزرع.

وإهلاك الحرث والنسل بأن يتولى إفساده في الأرض فيكون سببًا في هلاك الحرث والنسل.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**باب: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾**».

﴿أَلَدُّ﴾: أفعل تفضيل من اللدد وهو من شدة الخصومة.

و﴿ٱلْخِصَامِ﴾: جمع خصم، وزن كلب وكلاب، والمعنى: وهو أشد المخاصمين مخاصمة، ويحتمل أن يكون مصدرًا تقول: خاصم خصامًا كقاتل قتالًا، والتقدير: وخاصمه أشد الخصام مخاصمة، وقيل: أفعل هنا ليست للتفضيل بل بمعنى الفاعل أي: وهو لديد الخصام أي: شدة المخاصمة فيكون من إضافة الصفة المشبهة».

وهذا للتحذير من شدة الخصومة واللدد، والإسلام حث على السماحة في البيع والشراء وغيرهما وحذر من الخصومة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]

{٤٥٢٤} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ قَالَ ابن عَبَّاسٍ ﵄: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ [يوسف: ١١٠] خَفِيفَةً، ذَهَبَ بِهَا هُنَاكَ، وَتَلَا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فَلَقِيتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ.

{٤٥٢٥} فَقَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: مَعَاذَ اللهِ، واللهِ مَا وَعَدَ اللهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، ولٰكن لَمْ يَزَلِ البَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّىٰ خَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُونَهُمْ، فَكَانَتْ تَقْرَؤُهَا (وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا۟) مُثَقَّلَةً.

الشَّرْح

{٤٥٢٤} هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ بتخفيف الذال، وهناك قراءة ثانية: «قَدْ كُذِّبُوا» مثقلة، ولكل منهما معنى.

أما قراءة التثقيل - كما قالت عائشة ﵂ - فمعناها: أنه «لَمْ يَزَلِ البَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّىٰ خَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُونَهُمْ، فَكَانَتْ تَقْرَؤُهَا ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ مُثَقَّلَةً».

وأما القراءة الثانية - وهي قراءة ابن عباس ﵄ - وهي المخففة الذال، فأنكرتها عائشة ﵂، ولعلها لم يبلغها ثبوتها؛ «قَالَتْ عَائِشَةُ: مَعَاذَ اللهِ» يعني: أن يكون الرسل يقع في نفوسهم أنهم كذبوا من قبل الله ﷻ، فلا يمكن أن يظن الرسل بالله هذا الظن، ثم قالت: «واللهِ مَا وَعَدَ اللهُ رَسُولَهُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا عَلِمَ

أَنَّهُ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، ولكن لَمْ يَزَلِ البَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّىٰ خَافُوا أَنْ يَكُونَ مَنْ مَعَهُمْ يُكَذِّبُونَهُمْ» هذا ما فهمته عائشة رضي الله عنها من قراءة التخفيف، والصواب أنها قراءة ثابتة فلا يمكن إنكارها، وقولها رضي الله عنها محمول على أن هذا لم يبلغها، فقراءة التخفيف ثابتة ولها معنى صحيح، وهو: أنهم قد كذبوا من قبل أنفسهم من شدة البلاء.

وكانت عائشة رضي الله عنها فقيهة وعالمة، بل كانت من أفقه النساء اللائي يرجع إليهن الصحابة، لكنها ليست بمعصومة، فلها أغلاط كغيرها، فليس هناك أحد معصوم عن الغلط إلا الرسل، فهم معصومون فيما يبلغون عن الله ومعصومون عن الشرك والكبائر، أما غيرهم - ولو كان كبيرًا - فلا بد أن يغلط، ولا يضره هذا الغلط؛ لأنه اجتهاد؛ فيقال: يؤجر على اجتهاده لكن لا يلزم من ذلك الأخذ بقوله.

وهذه الآية في سورة يوسف جاء بها المؤلف رحمه الله؛ لأنها في معنى آية الترجمة التي من سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٤]. فالله تعالى يخاطب هذه الأمة يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ بدون اختبار أو امتحان؟ لابد من الابتلاء والامتحان ولابد من الصبر ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾، يعني: ابتلوا بالبأساء من الشدة في الحروب والقتال ومنازلة الأعداء وتسليطهم عليهم ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ من الأمراض والأسقام والمصائب والنكبات ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾، أي: أصابهم الرعب والخوف ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، أي: اشتد بهم البلاء حتى إن الرسل وأتباعهم استبطئوا النصر من شدة البلاء وظنوا أنهم لم يوعدوا بالنصر وقالوا: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ قال الله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾، يعني: هذا من قول الله.

وهذه الآية معناها نفس معنى آية يوسف؛ ولهذا أتى بآية يوسف، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ من شدة البلاء والمصائب والنكبات وتسليط الأعداء

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يُوسُف: ١١٠]، فالنصر يأتي بعد الشدائد، وقال الله تعالى في الآيات الأخرى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العَنكبوت: ١-٣]. وفي الحديث الآخر: لما أصاب الصحابة في أول الإسلام في مكة شدة جاؤوا، وقالوا: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ألا تستنصر لنا؟! فقال النبي ﷺ: «**إن من كان قبلكم كان يؤتى به فينشر بالمنشار ما بين لحمه وعظمه ويفرق بالمنشار ما بين عظمه ولحمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت أو من صنعاء إلى مكة لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**»[١] هذا مما أصاب من قبلنا، وكذلك قصة أصحاب الأخدود الذين حفروا أخدودًا في الأرض وأضرموا بها نارًا ثم فتنوا المؤمنين وألقوهم فيها.

قال العلماء: إذا اشتدت البلايا بالمؤمن وكان متقيًا؛ فرج الله كربته، وهذا المعنى جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾ [الطَّلَاق: ٢].

---

(١) أحمد (٥/ ١١١)، والبخاري (٣٦١٢).

بَابُ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ إلىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

{٤٥٢٦} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ، أَخْبَرَنَا ابن عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ قَالَ كَانَ ابن عُمَرَ ﷺ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّىٰ يَفْرُغَ مِنْهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى ٱنْتَهَىٰ إِلَىٰ مَكَانٍ، قَالَ: تَدْرِي فِيمَا أُنْزِلَتْ؟. قُلْتُ: لَا. قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا. ثُمَّ مَضَىٰ.

{٤٥٢٧} وَعَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ حَدَّثَنِي أَبِي حَدَّثَنِي أَيُّوبُ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] قَالَ: يَأْتِيهَا فِي. رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ.

{٤٥٢٨} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابن الْمُنْكَدِرِ، سَمِعْتُ جَابِرًا رضي الله عنه قَالَ: كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ؛ فَنَزَلَتْ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ١٢٣].

الشرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣].

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ يعني: من حيث شئتم؛ مقبلة مدبرة أو مضجعة أو على حرف، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة شرع للرجل أن يأتي زوجته حيث شاء من أي جهة بشرط أن يكون في الفرج.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يعني: للولد، فالمرأة كالحرث أي: مكان الزرع، والولد كالبذر، يعني: أن طلب الولد إنما يكون في الفرج، وهو محل الحرث في الإنسان، كما أن البذر وطلب الزرع إنما يكون في الأرض.

وروي عن بعض السلف قوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أن هذا هو الإتيان في الدبر،

وهذا قول ضعيف روي عن المالكية[١] ورجعوا عنه.

وروي عن ابن عمر أيضًا، ولكنها أقوال شاذة لا يعول عليها، والصواب: أن المراد الإتيان في الفرج سواء كان من الأمام أو من الخلف.

وأما الإتيان في الدبر فهذا من الكبائر؛ فيحرم على الرجل أن يأتي امرأته في دبرها؛ أي: محل الحش والنجاسات، وجاء في بعض الأحاديث تسميته بـ «اللوطية الصغرى»[٢].

وجاء عن بعض السلف أنه قال: إذا أتى الرجل امرأته في دبرها فلها أن تطلب الطلاق منه.

{٤٥٢٦} ذكر المؤلف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وفيه: قوله: «**عَنْ نَافِعٍ**» وهو مولى ابن عمر رضي الله عنهما.

○ قوله: «**كَانَ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّىٰ يَفْرُغَ مِنْهُ، فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَقَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ حَتَّى انْتَهَىٰ إِلَىٰ مَكَانٍ**» أبهم المكان.

وبين الحافظ ابن حجر رحمه الله أن إسحاق بن راهويه أخرجه في مسنده وفي تفسيره حيث قال: «حتى انتهى إلى قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣]» «**قَالَ**» يعني: ابن عمر لمولاه نافع: «**تَدْرِي فِيمَا أُنْزِلَتْ؟**» استفهام، فيه أن العالم يلقي المسألة على التلاميذ عن طريق السؤال حتى يكون أوقع لهم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أتدرون ماذا قال ربكم الليلة**» لما صلى بهم في الحديبية ومطروا من الليل، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»[٣].

○ وقوله: «**قُلْتُ: لَا. قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا**» أيضا أبهم هنا، وبين الحافظ ابن حجر رحمه الله أنه في مسند إسحاق قال: «**نزلت في إتيان النساء في أدبارهن**»[٤] وهذا - كما سبق - قول شاذ رجع عنه.

---

(١) انظر: «التاج والإكليل» (٥/ ٢٤).

(٢) أحمد (٢/ ١٨٢).

(٣) أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٣٥)، وعزاه لابن راهويه في «مسنده» و«تفسيره».

○ قوله: «ثُمَّ مَضَىٰ» أي: استمر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قراءته لسورة البقرة.

❖ ❖ ❖

{٤٥٢٧} قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣] قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَأْتِيهَا فِي» أبهم.

وبين الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المسألة مشهورة صُنف فيها، وأن حديث ابن عمر هذا في إتيان المرأة في دبرها؛ ولكن هذا تفسير ضعيف رجع عنه ولا يعول عليه.

○ قوله: «مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ» هو القطان، أدركه البخاري.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «**المقدمة**» الاختلاف في هذه الصيغة هل تكون تعليقاً أو حديثاً مسنداً؟

والراجح أنه تعليق إلا إذا صرح بالسماع بأن قال: حدثنا، فإنه يكون حديثاً مسنداً؛ فهذا الحديث روي معلقاً عن ابن عمر، وهو إتيان النساء في أدبارهن، وهذا يكفي في ضعفه.

❖ ❖ ❖

{٤٥٢٨} قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «كَانَتِ اليَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الوَلَدُ أَحْوَلَ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣]» هذا السياق قد يوهم أنه مطابق لحديث ابن عمر وليس كذلك؛ فقد أخرجه الإسماعيلي من طريق يحيى بن أبي زائدة عن سفيان الثوري بلفظ: «**باركة مدبرة في فرجها من ورائها**»[(١)]، وكذا أخرجه مسلم من طريق سفيان بن عيينة عن ابن المنكدر بلفظ: «**إذا أتيت امرأة من دبرها في قبلها**»[(٢)] ومن طريق أبي حازم عن ابن المنكدر بلفظ: «**إذا أتيت المرأة من دبرها فحملت**»[(٣)]، وقوله:

(١) أبو القاسم الجرجاني في «تاريخ جرجان» (١/ ٤٨٣).
(٢) مسلم (١٤٣٥).
(٣) مسلم (١٤٣٥).

«**فحملت**» يدل على أن مراده أن الإتيان في الفرج لا في الدبر، وهذا كله يؤيد تأويل ابن عباس الذي رد به على ابن عمر، وقد أكذب الله اليهود في زعمهم وأباح للرجال أن يتمتعوا بنسائهم كيف شاءوا، وإذا تعارض المجمل والمفسر قدم المفسر، وحديث جابر مفسر؛ فهو أولى أن يعمل به من حديث ابن عمر والله أعلم».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ الآية [البقرة: ٢٣٢]

{٤٥٢٩} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ العَقَدِيُّ، حَدَّثَنَا عَبَّادُ بْنُ رَاشِدٍ، حَدَّثَنَا الحَسَنُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ قَالَ: كَانَتْ لِي أُخْتٌ تُخْطَبُ إِلَيَّ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: عَنْ يُونُسَ، عَنِ الحَسَنِ حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنِ الحَسَنِ أَنَّ أُخْتَ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا، فَتَرَكَهَا حَتَّى ٱنْقَضَتْ عِدَّتُهَا، فَخَطَبَهَا فَأَبَىٰ مَعْقِلٌ، فَنَزَلَتْ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

الشَّرح

هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣٢] خطاب لأولياء النساء.

فإذا طلق الرجل امرأته الطلقة الأولى أو الثانية ومضى عليها ثلاث حيضات إذا كانت تحيض - أي: ثلاثة أشهر - أو بوضع الحمل - إن كانت حاملًا - خرجت من العدة، وإذا خرجت من العدة انتهت من زوجها السابق لكن يجوز له أن يتزوجها بعقد جديد ومهر إذا رضيت المرأة ورضي وليها فيكون خاطبًا من الخطاب إن شاءوا زوجوه وإن شاءوا زوجوا غيره.

أما إذا كانت في العدة فهي زوجة له، وله أن يراجعها، بل إنها لا تخرج من البيت حتى تنتهي عدتها إلا إذا كانت مؤذية أو ترتكب فاحشة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾ [الطَّلَاق: ١] فما دامت في العدة

فهي زوجة إلا إذا كانت الطلقة الثالثة فتكون قد انتهت.

{٤٥٢٩} وهذه الآية نزلت في أخت معقل بن يسار، طلقها زوجها وتركها حتى انتهت العدة، ثم لما انتهت العدة صارت تخطب من عدد من الناس، ومن ضمنهم زوجها السابق فرغبت المرأة في زوجها السابق، ورغب هو فيها، لكن معقلاً غضب على زوجها السابق ولم يوافق وقال: يا لكع أكرمتك بها ثم طلقتها ثم تريد أن تتزوج، لا أزوجك؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٢] فقال: سمعًا لربي وطاعة، فزوجه.

فالآية خطاب للأولياء، فلا يمنع الولي المرأة من الزواج من زوجها السابق إذا رغبت في ذلك ويكون من باب أولى إذا لم تخرج من العدة فلا يمنعها وليها من الزواج، وهذا معلوم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**باب ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾**» اتفق أهل التفسير على أن المخاطب بذلك الأولياء، ذكره ابن جرير وغيره. وروى ابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي في الرجل يطلق امرأته فتقضي عدتها فيبدو له أن يراجعها وتريد المرأة ذلك فيمنعه وليها».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الآية [البقرة: ٢٣٤]

﴿يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٤]: يَهَبْنَ.

{٤٥٣٠} حَدَّثَنِي أُمَيَّةُ بْنُ بِسْطَام، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، عَنْ حَبِيبٍ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ ابن الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] قَالَ: قَدْ نَسَخَتْهَا الآيَةُ الأُخْرىٰ، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟! أَوْ تَدَعُهَا قَالَ: يَا ابن أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ.

{٤٥٣١} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا شِبْلٌ، عَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] قَالَ: كَانَتْ هٰذِه العِدَّةُ تَعْتَدُّ عِنْدَ أَهْلِ زَوْجِهَا وَاجِبٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ﴾ [البقرة: ٢٤٠] قَالَ: جَعَلَ اللهُ لَهَا تَمَامَ السَّنَةِ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً وَصِيَّةً، إِنْ شَاءَتْ سَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ، وَهْوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٠] فَالْعِدَّةُ كَمَا هِيَ وَاجِبٌ عَلَيْهَا. زَعَمَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: قَالَ ابن عَبَّاسٍ: نَسَخَتْ هٰذِه الآيَةُ عِدَّتَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَهْوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. قَالَ عَطَاءٌ: إِنْ شَاءَتِ اعْتَدَّتْ عِنْدَ أَهْلِهِ وَسَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ﴾ [البقرة: ٢٤٠]. قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ جَاءَ المِيرَاثُ فَنَسَخَ السُّكْنَىٰ فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَلَا سُكْنَىٰ لَهَا.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ بِهٰذَا. وَعَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: نَسَخَتْ هٰذِهِ الآيَةُ عِدَّتَهَا فِي أَهْلِهَا، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ لِقَوْلِ اللهِ ﴿غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ [البقرة: ٢٤٠] نَحْوَهُ.

{٤٥٣٢} حَدَّثَنَا حِبَّانُ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَوْنٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَىٰ مَجْلِسٍ فِيهِ عُظْمٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَفِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَىٰ، فَذَكَرْتُ حَدِيثَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ فِي شَأْنِ سُبَيْعَةَ بِنْتِ الحَارِثِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: ولٰكن عَمَّهُ كَانَ لَا يَقُولُ ذَلِكَ. فَقُلْتُ: إِنِّي لَجَرِيءٌ إِنْ كَذَبْتُ عَلَىٰ رَجُلٍ فِي جَانِبِ الكُوفَةِ. وَرَفَعَ صَوْتَهُ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ فَلَقِيتُ مَالِكَ بْنَ عَامِرٍ أَوْ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ، قُلْتُ: كَيْفَ كَانَ قَوْلُ ابن مَسْعُودٍ فِي المُتَوَفَّىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهْيَ حَامِلٌ؟ فَقَالَ: قَالَ ابن مَسْعُودٍ: أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ، وَلَا تَجْعَلُونَ لَهَا الرُّخْصَةَ؟ لَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ القُصْرىٰ بَعْدَ الطُّولَىٰ. وَقَالَ أَيُّوبُ: عَنْ مُحَمَّدٍ: لَقِيتُ أَبَا عَطِيَّةَ مَالِكَ بْنَ عَامِرٍ.

الشَّرْح

هذه الآثار والأحاديث على قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾.

وهذه الآية في عدة المتوفى عنها زوجها؛ فالزوجة إذا توفي عنها زوجها تمكث أربعة أشهر وعشرة أيام إلا إذا كانت حاملا فإن عدتها أن تضع الحمل لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطّلَاق: ٤] فهذه الآية عامة في المطلقة أو المتوفى عنها إذا كانت حاملا فإن عدتها أن تضع الحمل وتخرج من العدة يوم وضع الحمل ولو للحظة؛ لحديث سبيعة بنت الحارث أنها مات عنها زوجها وهي حامل ثم وضعت بعده بليال فخرجت من العدة.

فالمطلقة طلقة واحدة أو اثنتان أو ثلاث أو متوفى عنها؛ إذا كانت حاملًا فعدتها أن تضع الحمل، أما إذا لم تكن حاملاً فإن المطلقة تعتد ثلاث حيضات إذا كانت تحيض، فإن كانت آيسة فإنها تعتد ثلاثة أشهر، أما المتوفى عنها

زوجها؛ فإن كانت حاملًا فبوضع الحمل، وإن لم تكن حاملًا تمكث أربعة أشهر وعشرة أيام.

وكانت المرأة في الجاهلية إذا مات عنها زوجها تعتد سنة، وكذلك في أول الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٤٠]، هذه الآية فيها أن المرأة المتوفى عنها زوجها تعتد سنة، ثم نسختها هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤]؛ وهذا هو الذي عليه جمهور العلماء أن آية العدة بحول نسختها آية العدة بأربعة أشهر وعشرة أيام، وإن كانت آية المتوفى عنها زوجها العدة بأربعة أشهر وعشرًا متقدمة في التلاوة على آية العدة بحول؛ فتكون منسوخة التلاوة، وحكمها باق.

والنسخ من أنواعه: نسخ الحكم والتلاوة جميعًا.

ومنه: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، فهذه الآية باقية، وهي منسوخة حكماً؛ العدة بحول كامل.

ومنه: نسخ اللفظ ويبقى الحكم مثل آية سورة المؤمنون: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم**»، هذه كانت آية فنسخ اللفظ وبقي الحكم.

{٤٥٣٠} ثم ذكر حديث ابن الزبير رضي الله عنهما.

وفيه: قوله: «**قَالَ ابن الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾**»، يعني: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ «**قَالَ: قَدْ نَسَخَتْهَا الآيَةُ الأُخْرىٰ**»، وهي آية الترجمة ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

يقول ابن الزبير رضي الله عنهما: «**فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟!**»، يعني: لم تكتبها وقد عرفت أنها

منسوخة؟ يقول ذلك لعثمان؛ لأن عثمان هو الذي أمر بنسخ القرآن، ثم أرسله إلى الأمصار وأبقى لنفسه نسخة عرفت بالمصحف الإمام.

○ قوله: «**أَوْ تَدَعُهَا**»، أي: لم تتركها مكتوبة؟ شك من الراوي لا يدري أي اللفظين قال عبد الله بن الزبير.

فأجاب عثمان قال: «**يَا ابن أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ**»، هذا القرآن نزل هكذا، ولا يغير منه شيء. ومن العلماء من قال: إن هذا ليس نسخًا؛ وإنما هو تخصيص، لكن المشهور عند الجمهور أنه نسخ.

❖ ❖ ❖

{٤٥٣١} قوله: «**عَنْ مُجَاهِدٍ، ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، قَالَ: كَانَتْ هَذِهِ العِدَّةُ تَعْتَدُّ عِنْدَ أَهْلِ زَوْجِهَا وَاجِبٌ**»، أي: أربعة أشهر وعشرة أيام، «**فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾. قَالَ: جَعَلَ اللهُ لَهَا تَمَامَ السَّنَةِ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً وَصِيَّةً، إِنْ شَاءَتْ سَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ**» فهذا قول مجاهد يرى أنه ليس ثمة نسخ.

فالآية الأولى توجب عليها أن تعتد أربعة أشهر وعشرة أيام عند أهلها، فما زاد على أربعة أشهر وعشرة أيام إلى تمام السنة فهي مخيرة إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، «**وَهْوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فَالْعِدَّةُ كَمَا هِيَ وَاجِبٌ عَلَيْهَا. زَعَمَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ**» هذا قول.

وكانت المرأة في الجاهلية تعتد سنة، ولكن كان أهل الجاهلية يشددون على المرأة المتوفى عنها زوجها، وهذا من الآصار والأغلال، فكانت المرأة إذا مات زوجها انعزلت في غرفة مظلمة، ولبست ثوبًا من شر ثيابها، ولا تمس ماء ولا طيبًا، ولا تمس شيئاً ولا تخالط الناس، ولا يأكل معها أحد، ولا يشاربها حتى يمضي عليها سنة على هذه الحالة السيئة، وتتراكم عليها الأوساخ والروائح

الكريهة، فإذا تمت السنة خرجت، فإذا خرجت ألقت هذا الثوب إما على دابة أو طير فيموت هذا الطير من شدة الرائحة، وترمي بالبعرة إيذانًا بأنها خرجت من العدة.

فلما جاء الإسلام خفف الله تعالى عن المرأة، وأزال الآصار والأغلال وشرع للمرأة أن تغتسل وتتنظف وتباشر وتطبخ وتعجن وتكنس وتغير ثيابها وتفعل كل شيء إلا أنها تتجنب الطيب وتتجنب الثياب التي تلفت نظر الرجال إليها.

وخفف عنها العدة فصارت أربعة أشهر بدلًا من سنة؛ ولهذا لما جاءت النساء قلن: يا رسول الله هل أربعة أشهر؟ قال: «**أما كانت إحداكن في الجاهلية تجلس سنة وتلبس شر ثيابها وتسكن في حش ثم تخرج وتفتض**»[(١)] يعني: أن الله تعالى خفف عنها.

❖ ❖ ❖

○ قوله: «وَقَالَ عَطَاءٌ: قَالَ ابن عَبَّاسٍ: نَسَخَتْ هٰذِهِ الآيَةُ عِدَّتَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَهْوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾» هذا رأي ابن عباس رضي الله عنهما.

○ قوله: «قَالَ عَطَاءٌ: إِنْ شَاءَتِ ٱعْتَدَّتْ عِنْدَ أَهْلِهَا» وفي لفظ: «**أهله**»[(٢)] «سَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ»، يعني: فيما زاد على أربعة أشهر وعشرة أيام؛ «لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ﴾».

○ قوله: «قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ جَاءَ المِيرَاثُ فَنَسَخَ السُّكْنَىٰ فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَلَا سُكْنَىٰ لَهَا» فالمتوفى عنها زوجها ليس لها سكنى، وكذلك المطلقة ثلاثًا ليس لها سكنى ولا نفقة، وإنما هذا للمطلقة الرجعية، والصواب - كما سبق - أن آية التربص سنة منسوخة.

---

(١) البخاري (٥٣٣٧)، ومسلم (١٤٨٨).
(٢) البخاري (٤٥٣١).

○ قوله: «وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ بهٰذا»، يعني: نحو الحديث السابق.

○ قوله: «وَعَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: نَسَخَتْ هٰذِه الآيَةُ عِدَّتَهَا فِي أَهْلِهَا، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ لِقَوْلِ اللهِ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ نَحْوَهُ» أيضا كالحديث السابق.

❖ ❖ ❖

{٤٥٣٢} قوله: «جَلَسْتُ إِلَىٰ مَجْلِسٍ فِيهِ عُظْمٌ مِنَ الأَنْصَارِ»، يعني: جماعة من الأنصار.

○ قوله: «وَفِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَىٰ، فَذَكَرْتُ حَدِيثَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ فِي شَأْنِ سُبَيْعَةَ بِنْتِ الحَارِثِ»، وكان قد مات عنها زوجها وهي حامل، فلبثت ليالي ثم وضعت حملها فأخبرها النبي ﷺ أنها حلت[١]، وأنها خرجت من العدة وأن لها أن تتزوج إن أرادت بعد النفاس.

○ قوله: «فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: ولكن عَمَّهُ كَانَ لَا يَقُولُ ذَلِكَ»، يعني: ما قيل في شأن سبيعة الأسلمية، وعمه هو ابن مسعود «فَقُلْتُ: إِنِّي لَجَرِيءٌ إِنْ كَذَبْتُ عَلَىٰ رَجُلٍ فِي جَانِبِ الكُوفَةِ. وَرَفَعَ صَوْتَهُ».

○ قوله: «ثُمَّ خَرَجْتُ فَلَقِيتُ مَالِكَ بْنَ عَامِرٍ أَوْ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ»، شك من الراوي.

○ قوله: «قُلْتُ: كَيْفَ كَانَ قَوْلُ ابن مَسْعُودٍ فِي المُتَوَفَّىٰ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهْيَ حَامِلٌ؟» كان هذا في أول الإسلام.

وفيه: خلاف عن بعض السلف: أنها تعتد بأطول الأجلين إذا كانت متوفى عنها وهي حامل، وإن وضعت الحمل أقل من أربعة أشهر وعشرة أيام فلابد أن تعتد أربعة أشهر وعشرة أيام، ثم اتفقوا بعد ذلك على أن الحامل عدتها بوضع الحمل.

○ قوله: «قَالَ ابن مَسْعُودٍ: أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ» التغليظ يعني: تجعلونها

---

(١) أحمد (٦/ ٤٣٢)، والبخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤).

تعتد لأطول الأجلين، فإذا كان أطول الأجلين أربعة أشهر وعشرة أيام تعتد، وإذا كان أطول الأجلين بوضع الحمل تعتد.

○ وقوله: «وَلَا تَجْعَلُونَ لَهَا الرُّخْصَةَ؟» هي أنها تعتد بوضع الحمل.

○ قوله: «لَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ القُصْرىٰ بَعْدَ الطُّولَىٰ» سورة النساء القصرى هي سورة الطلاق؛ وفيها: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطّلَاق: ٤]، وسورة النساء الطولى هي سورة البقرة؛ وفيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤]. ومراد ابن مسعود أن المتوفى عنها إذا كانت حاملًا تأخذ بالرخصة؛ وهي أنها تعتد بوضع الحمل كما في سورة الطلاق، ولا يجعل عليها التغليظ وهي العدة أربعة أشهر وعشرة أيام كما في سورة البقرة.

○ قوله: «وَقَالَ أَيُّوبُ: عَنْ مُحَمَّدٍ: لَقِيتُ أَبَا عَطِيَّةَ مَالِكَ بْنَ عَامِرٍ» يبين أنه لقيه وأنه سمع منه، واستظهر الحافظ أن البخاري أراد التصريح باسم أبي عطية بدون شك، وأنه مالك بن عامر.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]

{٤٥٣٣} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ. وحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ الخَنْدَقِ: «حَبَسُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَىٰ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ -شَكَّ يَحْيَىٰ- نَارًا».

الشَّرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

{٤٥٣٣} ذكر المؤلف ﷺ حديث علي ﷺ في غزوة الأحزاب.

○ قوله: «عَنْ عَبِيدَةَ»، بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة، هو عَبِيدة ابن عمرو السلماني.

○ قوله: «عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ الخَنْدَقِ» وهي غزوة الأحزاب، تسمى غزوة الخندق، وتسمى غزوة الأحزاب في بعض أيامها؛ لأنها كانت أيامًا، وشغل النبي ﷺ في بعض أيامها بالحرب عن الصلاة حتى أخر صلاة العصر ولم يصلها إلا بعد المغرب[(١)].

○ قوله: «حَبَسُونَا عَنْ صَلَاةِ الوُسْطَىٰ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ أَوْ أَجْوَافَهُمْ - شَكَّ يَحْيَىٰ - نَارًا» يحيى: هو ابن سعيد القطان.

قال بعضهم: الصلاة الوسطى الظهر، وقال بعضهم: صلاة المغرب؛ لأنها صلاة قبلها صلاتان سريتان وهما الظهر والعصر وبعدها صلاتان جهريتان وهما العشاء والفجر، وقيل: إنها الفجر.

---

(١) النسائي (٦٦٢، ٦٦٣).

والصواب أنها العصر؛ لما جاء في صحيح مسلم: «**حبسونا عن صلاة الوسطى صلاة العصر**»[(١)]، وهذا صريح في أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

(١) مسلم (٦٢٨).

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]

أي: مُطِيعِينَ.

{٤٥٣٤} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الحَارِثِ بْنِ شُبَيْلٍ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ يُكَلِّمُ أَحَدُنَا أَخَاهُ فِي حَاجَتِهِ حَتَّىٰ نَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨] فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ.

الشَّرْح

هذه الآية وهي قول الله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ لها عدة أقوال في تفسيرها، ومعناها: ساكتين، والمراد السكوت عن كلام الناس لا مطلق الصمت؛ لأن الصلاة لا صمت فيها فجميعها قرآن وذكر، وهذا أصح ما فسر به لفظ القنوت في الآية كما جاء في حديث زيد بن أرقم.

وكان في أول الإسلام إذا جاء الرجل والناس يصلون يتكلم وهو في الصلاة قال: كم فاتني من ركعة؟ فيقال: فاتتك ركعة أو ركعتان؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية، فنسخ ذلك ونهى الله عن الكلام في الصلاة.

وقد اختار المؤلف ﵀ أحد هذه الأقوال، ففسر به القنوت هنا؛ قال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ قال: «أي: مُطِيعِينَ» والصواب أن المعنى: قوموا لله ساكتين عن الكلام.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «عن ابن عباس قال: قانتين: أي مصلين. وعن مجاهد قال: من القنوت الركوع والخشوع وطول القيام وغض البصر وخفض الجناح والرهبة لله».

{٤٥٣٤} ذكر المؤلف ﵀ حديث زيد بن أرقم؛ لمناسبته للترجمة.

○ قوله: «**كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ يُكَلِّمُ أَحَدُنَا أَخَاهُ فِي حَاجَتِهِ حَتَّىٰ نَزَلَتْ هَٰذِهِ الآيَةُ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨] فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ**».

أما اختيار البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير ﴿قَانِتِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨] قال: «**مُطِيعِينَ**» فهو عام؛ يعني: مطيعين لله فيما أمركم به، ومن ذلك السكوت عن الكلام في أثناء الصلاة، لكن الحديث صريح أن معنى القنوت: السكوت؛ يعني: قوموا لله ساكنين ساكتين عن كلام الناس.

وكما جاء في «صحيح مسلم» في قصة معاوية بن الحكم الذي جاء والناس يصلون فدخل في الصلاة ولم يعلم أن الكلام في الصلاة قد نسخ عطس رجل بين القوم فقلت: رحمك الله، فأُشير إليه أن اسكت قال: واثكل أمياه، فجعل الصحابة يضربون أفخاذهم يسكتونه، فلما سلم قال النبي ﷺ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس**»[(١)] وقال: ما رأيت معلمًا أحسن منه عليه الصلاة والسلام، والله ما نهرني ولا كهرني، ولم يأمره بإعادة الصلاة؛ لأنه جاهل ولم يعلم بالنسخ.

(١) أحمد (٥/٤٤٧)، ومسلم (٥٣٧).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩]

وَقَالَ ابن جُبَيْرٍ: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] عِلْمُهُ، يُقَالُ: ﴿بَسْطَةً﴾ [البقرة: ٢٤٧]: زِيَادَةً وَفَضْلًا ﴿أَفْرِغْ﴾ [البقرة: ٢٥٠]: أَنْزِلْ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: لَا يُثْقِلُهُ. آدَنِي: أَثْقَلَنِي. وَالآدُ وَالأَيْدُ: القُوَّةُ، السِّنَةُ: نُعَاسٌ. ﴿يَتَسَنَّهْ﴾: يَتَغَيَّرْ. ﴿فَبُهِتَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]: ذَهَبَتْ حُجَّتُهُ. ﴿خَاوِيَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]: لَا أَنِيسَ فِيهَا. ﴿عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]: أَبْنِيَتُهَا. ﴿نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] نُخْرِجُهَا ﴿إِعْصَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦] رِيحٌ عَاصِفٌ تَهُبُّ مِنَ الأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ كَعَمُودٍ فِيهِ نَارٌ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤]: لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤، ٢٦٥]: مَطَرٌ شَدِيدٌ. الطَّلُّ: النَّدَىٰ، وهٰذا مَثَلُ عَمَلِ المُؤْمِنِ. ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]: يَتَغَيَّرْ.

{٤٥٣٥} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الخَوْفِ قَالَ: يَتَقَدَّمُ الإِمَامُ وَطَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ فَيُصَلِّي بِهِمِ الإِمَامُ رَكْعَةً، وَتَكُونُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ العَدُوِّ لَمْ يُصَلُّوا، فَإِذَا صَلَّوُا الذِينَ مَعَهُ رَكْعَةً ٱسْتَأْخَرُوا مَكَانَ الذِينَ لَمْ يُصَلُّوا وَلَا يُسَلِّمُونَ، وَيَتَقَدَّمُ الذِينَ لَمْ يُصَلُّوا فَيُصَلُّونَ مَعَهُ رَكْعَةً، ثُمَّ يَنْصَرِفُ الإِمَامُ وَقَدْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ فَيُصَلُّونَ لأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً بَعْدَ أَنْ يَنْصَرِفَ الإِمَامُ، فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ قَدْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ هُوَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِك صَلَّوْا رِجَالًا، قِيَامًا عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا، مُسْتَقْبِلِي القِبْلَةِ أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا. قَالَ مَالِكٌ: قَالَ نَافِعٌ: لَا أُرَىٰ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِك إِلَّا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ بعد قول الله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى

ﵟٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ﵞ [البَقَرَة: ٢٣٨]، يعني: إذا كان عندكم خوف فإنكم تصلون الصلاة رجالًا أي: على أرجلكم.

○ وقوله: ﵟأَوۡ رُكۡبَانٗاۖﵞ يعني: إذا اشتد الخوف جاز للإنسان أن يصلي وهو يمشي يركع ويمشي، ويومئ، ويجوز أن يصلي وهو راكب على الدابة.

○ وقوله: ﵟفَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩ﵞ [البَقَرَة: ٢٣٩]، يعني: عودوا إلى سابق عهدكم في صلاتكم بعد الأمن فصلوا كما أمركم الرسول ﷺ أن تصلوا.

وقبله قوله تعالى: ﵟحَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰﵞ، يعني: في الحضر وفي السفر في الخوف وفي الأمن، لكن إذا كنتم في البلد وفي الأمن: ﵟوَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ﵞ [البَقَرَة: ٢٣٨] أي: ساكتين، فإن أصابكم خوف، ﵟفَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖﵞ يعني: مشاة وركبانًا، ﵟفَإِذَآ أَمِنتُمۡﵞ، أي: زال الخوف ﵟفَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَﵞ، أي: كما علمكم النبي ﷺ من قبل.

○ قوله: «**وَقَالَ ابن جُبَيْرٍ**»، يعني: عن ابن عباس ﵄.

○ قوله: «**ﵟكُرۡسِيُّهُﵞ**» فسرها قال: «**عِلْمُهُ**» وذلك في قول الله تعالى: ﵟوَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖﵞ [البَقَرَة: ٢٥٥]، ومن وجه آخر أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وهذه هي إحدى الروايات عن ابن عباس في تفسير هذا اللفظ.

وهذه الرواية ضعيفة السند، وهذا القول مرجوح بل باطل؛ فلا يفسر الكرسي بالعلم؛ إذ لو فسر الكرسي بالعلم لكان معناه غير صحيح: ﵟوَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖﵞ يعني: وسع علمه السموات والأرض، هذا غلط يفسد المعنى؛ لأن علم الله وسع كل شيء، فالله يعلم نفسه ويعلم ما كان ويعلم ما يكون ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون قال تعالى: ﵟرَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗاﵞ [غَافِر: ٧]، وهذا أحد الأقوال عن ابن عباس.

القول الثاني: عنه ﵄ في قوله: ﵟوَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖﵞ قال:

الكرسي هو العرش. وهذا قول أيضًا مرجوح وضعيف السند.

القول الثالث: أن الكرسي موضع القدمين، وهذا هو الصواب، والصحيح الذي روي عن ابن عباس في تفسير الكرسي، ويدل على ذلك أن هناك حديثًا آخر عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله.

وفي رواية أخرى للصحيح في قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] في قصة طالوت، فسرها البخاري ﵀ فقال: «زِيَادَةً وَفَضْلًا».

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٥٠] فسرها قال: «أَنْزِلْ».

○ قوله: «﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾» في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] وهذه آية الكرسي فسرها المؤلف ﵀ قال: «لَا يُثْقِلُهُ»، أي: لا يشق عليه حفظ السموات والأرض ﷻ؛ لأنه كامل بخلاف المخلوق الضعيف.

○ قوله: «آدَنِي: أَثْقَلَنِي» يعني: اشتقاق كلمة يئود من آد، «وَالآدُ وَالأَيْدُ: القُوَّةُ».

○ وقوله: «السِّنَةُ» في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، فسرها قال: «السِّنَةُ: نُعَاسٌ».

وقوله تعالى: «﴿يَتَسَنَّهْ﴾» هذا اللفظ من قول الله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٩]. وهذا في قصة عزير لما أحياه الله بعدما أماته وعنده طعام وفاكهة، فسرها المؤلف ﵀ فقال: «يَتَغَيَّرْ».

○ وقوله: «﴿فَبُهِتَ﴾» في قول الله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨] في قصة النمرود فسرها المؤلف فقال: «ذَهَبَتْ حُجَّتُهُ».

○ قوله: «﴿خَاوِيَةٌ﴾» في قوله تعالى: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٥٩] يعني: القرية التي أتاها عزير - وهي ببيت المقدس - فسرها المؤلف فقال: «لَا أَنِيسَ

فِيهَا».

وقوله: ﴿عُرُوشِهَا﴾ فسرها المؤلف رحمه الله في رواية أخرى للصحيح فقال: «أَبْنِيَتُهَا».

وجاء في نسخة أخرى قوله: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٥٩] هذه القراءة المشهورة، وفي قراءة: «﴿نُنشِرُهَا﴾» **فسرها المؤلف** رحمه الله **في رواية أخرى فقال**: «نُخْرِجُهَا».

○ قوله: «﴿إِعْصَارٌ﴾» في قول الله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٦]. فسرها المؤلف رحمه الله فقال: «رِيحٌ عَاصِفٌ تَهُبُّ مِنَ الأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ كَعَمُودٍ فِيهِ نَارٌ».

ثم في رواية أخرى للصحيح قال البخاري رحمه الله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿صَلۡدًا﴾: لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ» وهذا مثال في عمل الكافر مثله الله عز وجل فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤] أي: مثل الحجر الأملس إذا تراكم عليه تراب فجاء المطر فأزاله، كذلك عمل الكافر ضائع.

وفيها - أيضًا - قوله: «وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَابِلٌ﴾: مَطَرٌ شَدِيدٌ» أي: في قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٥].

وكذلك قوله: «الطَّلُّ: النَّدىٰ، وهٰذا مَثَلُ عَمَلِ المُؤْمِنِ»؛ أي في قول الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٥]. وهذا مثال ضربه الله مثلًا لعمل المؤمن، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ مرتفعة إما يصيبها مطر شديد وإن لم يصبها مطر شديد يكفيها الطل ينزل عليها باستمرار فهي دائما قائمة حية.

والمعلقات التي أوردها البخاري رحمه الله في الصحيح غالبًا ما تكون ضعيفة إلا ما جزم به فيكون خبرًا صحيحًا كما جزم بهذا الخبر الذي علقه إلى ابن جبير عن ابن عباس أن كرسيه هو علمه.

{٤٥٣٥} قوله: «كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الخَوْفِ قَالَ: يَتَقَدَّمُ الإِمَامُ وَطَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ فَيُصَلِّي بِهِمِ الإِمَامُ رَكْعَةً»، يعني: في وقت الخوف والقتال والجهاد إذا كان العدو أمامهم وحان وقت الصلاة يتقدم الإمام وطائفة من الناس فيصلي بهم الإمام ركعة، «وَتَكُونُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ العَدُوِّ لَمْ يُصَلُّوا» يحرسونهم حتى لا يهجم عليهم العدو، «فَإِذَا صَلَّوُا الذِينَ مَعَهُ رَكْعَةً ٱسْتَأْخَرُوا مَكَانَ الذِينَ لَمْ يُصَلُّوا وَلَا يُسَلِّمُونَ، وَيَتَقَدَّمُ الذِينَ لَمْ يُصَلُّوا فَيُصَلُّونَ مَعَهُ رَكْعَةً»، يعني: يصلي بهم الإمام ركعتين فيقسمهم طائفتين كل طائفة يصلي بهم ركعة، ففي الأول طائفة تكون أمام العدو تحرس المصلين، وطائفة يصلي بهم ركعة، فإذا صلى بهم ركعة انصرفوا وهم في الصلاة لا يسلمون ويجلسون مكان الطائفة الأولى يحرسون، وتأتي الطائفة الثانية وتكون خلف الإمام فيصلي بهم الركعة التي بقيت له ثم يسلم الإمام وقد صلى ركعتين.

○ قوله: «فَيَقُومُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ فَيُصَلُّونَ لِأَنْفُسِهِمْ رَكْعَةً بَعْدَ أَنْ يَنْصَرِفَ الإِمَامُ، فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ قَدْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ» يعني: أن الإمام صلى بكل واحد ركعة ثم يسلم، ثم تقوم الطائقة الأولى فتصلي لنفسها ركعة ثم تسلم، وتقوم الطائفة الثانية وتصلي لنفسها ركعة وتسلم بعد أن يسلم الإمام.

هذه صفة من إحدى صفات صلاة الخوف وقد سبق من صفات صلاة الخوف أنواع أخرى:

منها: أن يصلي الإمام بكل طائفة ركعتين فتكون الصلاة الأولى له فريضة والثانية له نافلة.

ومنها: أن يصفهم صفين فيكبر ويكبرون جميعًا، ثم يركع ويركعون جميعًا، ثم يسجد ويسجد الصف الذي يليه ويبقى الصف الثاني، فإذا قام إلى الركعة الثانية تقدم الصف الثاني مكان الصف الأول، وتأخر الصف الأول مكان الصف الثاني، فإذا ركع ركعوا جميعًا، فإذا سجد سجد وسجد الصف الذي يليه، وبقي الثاني يحرس، ثم إذا سلم قامت كل واحدة من الطائفتين وأتت بالركعة التي بقيت لها.

○ قوله: «فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ هُوَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ صَلَّوْا رِجَالًا، قِيَامًا عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا»، وهذا هو معنى الآية، والشاهد من الحديث للآية: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] يعني: إذا اشتد الخوف، وصاروا لا يستطيعون أن يصلوا خلف الإمام، ولا يستطيع الإمام أن يصفهم ركعتين سقطت الجماعة في هذه الحالة، وكل يصلي على حسب استطاعته: الراكب يصلي وهو راكب، والماشي يصلي وهو ماشي، والواقف يصلي وهو واقف.

○ قوله: «مُسْتَقْبِلِي القِبْلَةِ أَوْ غَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا»، أي: من استطاع أن يستقبل القبلة يستقبلها وإن لم يستطع صلى إلى جهة العدو؛ جهة الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب مستقبلا القبلة، أو غير مستقبلها.

○ قوله: «قَالَ مَالِكٌ: قَالَ نَافِعٌ: لَا أُرىٰ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، ولفظ: «لَا أُرىٰ» يحتمل أن يكون بمعنى: لا أظن؛ أي: على سبيل الظن، ويحتمل أن يكون بمعنى: لا أعلم، يعني: لا أعلم ذلك رواه إلا عن النبي ﷺ على سبيل الجزم.

وهنا في هذه الحالة يكون حكم الفريضة كالنافلة في عدم وجوب الجماعة وفي عدم وجوب استقبال القبلة، فمن لم يستطع واشتد الخوف عليه سقط عنه وجوب استقبال القبلة ووجوب الجماعة، كل يصلي وحده يصلي للقبلة وغير القبلة كما هو الحكم للمسافر الراكب، فيجوز أن يصلي على الدابة، أو في السيارة ولو لغير القبلة يصلي جهة سيره، كما ثبت أن النبي ﷺ كان يصلي جهة سيره[(١)]، لكن الأفضل أن يكبر تكبيرة الإحرام إلى القبلة ثم يتجه جهة سيره.

والصحيح أيضا أنه إذا اشتد الخوف ولم يكن للقلوب قرار وسكون من شدته جاز لهم أن يصلوا رجالًا وركبانًا بل جاز لهم أيضا تأخير الصلاة عن وقتها ولو بعد خروج الوقت، ولو كانت غير مجموعة كالعصر تؤخر إلى المغرب كما

(١) أحمد (٢/٧)، والبخاري (٤٠٠)، ومسلم (٧٠١).

أخر النبي ﷺ الصلاة يوم الخندق بعد غروب الشمس[١] والصحيح أن ذلك غير منسوخ.

وجمهور العلماء يرون أن تأخير الصلاة عن وقتها كما حدث في غزوة الخندق كان قبل شرعية صلاة الخوف، فلما نزلت صلاة الخوف صار لا يجوز للإنسان أن يؤخر الصلاة عن وقتها، بل يصليها في الوقت على حسب استطاعته ولا يؤخر الصلاة عن وقتها.

القول الثاني: وهو اختيار جماعة من المحققين منهم الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يجوز تأخير الصلاة عن وقتها وأنه ليس بمنسوخ، والدليل على ذلك أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما فتحوا تستر أخروا صلاة الفجر بعد ارتفاع الشمس؛ لأنه لما حان وقت صلاة الفجر كان الصحابة متفرقين؛ منهم من هو على الأسوار، ومنهم من هو على الأبواب، ولا يستطيعون أن يصلوا الفجر في وقتها، فلو صلوا الفجر في وقتها لهجم عليهم العدو؛ فأخروا الصلاة حتى فتحوا الأبواب والأسوار وتم الفتح وارتفع الضحى فصلوا صلاة الفجر وقت الضحى، فالصحابة أخروها لله وفي الله؛ قال أنس: ما أحب أن لي بها كذا وكذا، ويكون هذا من باب تداخل العبادات فيقدم ما دعت الضرورة إلى تقديمه.

(١) أحمد (٤/١٠٦)، والبخاري (٥٩٦)، ومسلم (٦٣١).

بَابُ

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٤٠]

{٤٥٣٦} حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ الأَسْوَدِ، وَيَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا حَبِيبُ بْنُ الشَّهِيدِ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: قَالَ ابن الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: هٰذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي البَقَرَةِ ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٤٠] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] قَدْ نَسَخَتْهَا الأُخْرىٰ، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ قَالَ: تَدَعُهَا يَا ابن أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ. قَالَ حُمَيْدٌ: أَوْ نَحْوَ هٰذَا.

الشَّرْح

{٤٥٣٦} هذا الحديث أعاده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لاختلاف السند في هذه الترجمة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٠]

ففي الحديث السابق قال: «**حدثني أمية بن بسطام، حدثنا يزيد بن زريع، عن حبيب، عن ابن أبي مليكة**»[1]، وهنا قال: «حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ الأَسْوَدِ، وَيَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا حَبِيبُ بْنُ الشَّهِيدِ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ»، فباختلاف السند يتقوى الحديث، وإلا فالحديث هو هو.

وفيه: أن آية الوصية التربص بالحول منسوخة بآية التربص بأربعة أشهر وعشرة أيام.

وابن الزبير سأله قال: «فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ قَالَ: تَدَعُهَا يَا ابن أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ» يعني: القرآن هكذا نزل ولا يغير.

---

(١) البخاري (٤٥٣٠).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]

﴿فَصُرْهُنَّ﴾: قطعهن.

{٤٥٣٧} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابن وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَسَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] ما شك إبراهيم ﵇ في قدرة الله فعنده يقين قوي أن الله يحيي الموتى، ولكنه يريد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ثم إلى حق اليقين.

❁ فاليقين له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: علم اليقين، وهذا يحصل بالخبر الصادق.

المرتبة الثانية: عين اليقين، وهو أن ترى بعينك الشيء الذي أخبرت به.

المرتبة الثالثة: حق اليقين، وهو أن تباشر بنفسك ذلك الشيء وتتعايش معه.

فإذا حصل عندك خبر صادق فإنه يحصل عندك اليقين لكن إذا شاهدت يكون عندك يقين أقوى، فإذا باشرت يكون عندك يقين أقوى.

فمثلًا إذا أخبرك إنسان ثقة لا تشك في صدقه بأن الوادي سال لما جاء المطر فإنك تصدق، ثم لقيك عشرة فقالوا: سال الوادي، ثم لقيك مائة فقالوا: سال الوادي، ثم لقيك ألف فقالوا: سال الوادي فأصبح عندك علم اليقين.

ثم بعد أن حصل لك هذا العلم اليقيني مشيت بنفسك ووقفت على الوادي وشاهدته بعينيك وهو يسيل، فصار عندك يقين أقوى فانتقلت من علم اليقين إلى عين اليقين، ثم بعد ذلك نزلت أنت في الوادي وشربت منه وباشرته فصار عندك يقين أقوى وهذا هو حق اليقين؛ لأن العين قد تخطئ لكن إذا نزلت وباشرته انتقلت إلى الحق الواقع.

وقد أخبرنا الله تعالى بالحساب والجزاء والجنة والنار، والمؤمن عنده علم اليقين بوجود كل ذلك، فإذا كان يوم القيامة وشاهد الإنسان الجنة ورآها من بعد صار عنده عين اليقين، فإذا دخل وباشرها صار عنده حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]: فسر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَصُرْهُنَّ﴾» قال: «**قطعهن**» أمر الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن يأخذ أربعة من الطير ويذبحها ويقطعها فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾. وبعد أن قطع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الطيور الأربعة صعد على أربعة جبال، ووضع أجزاء من كل طير على كل جبل من الجبال، وأخذ رؤوسها الأربع فجعلها بيده ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: يسرن مسرعات، فجعل يناديهن، فأعاد الله أجسامها والريش الذي فيها وجاء الجسم يريد أن يأخذ الرأس الذي في يده، فإذا أراد أن يركب الرأس على الجسم الذي ليس له امتنع حتى يأتي بالرأس الذي له فيركب عليه، ثم الطير الثاني والثالث والرابع؛ فشاهد بعينه إحياء الله الموتى، ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾ [البقرة: ٢٦٠].

{٤٥٣٧} قوله: «**نحن أحق من إبراهيم**»، وفي رواية أخرى للبخاري: «**بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**»[(١)]، وفي رواية أخرى: «**من إبراهيم بالشك**»، وهذا ليس شكًّا وإنما هو من باب التواضع وحسن الأدب من النبي ﷺ مع أبيه إبراهيم، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يشك ونبينا ﷺ لم يشك ولكن سماه شكًّا؛ لأنه من باب الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين، وإن كان علم اليقين كاف في الإيمان والعمل الصالح والترقي والثواب.

(١) البخاري (٣٣٧٢).

○ قــولـــه: «**إِذْ قَـــالَ:** ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾» فشاهد إبراهيم عليه السلام إحياء الطيور عياناً فصار عين يقين.

بَابُ قَوْله:
﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾
إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تَتَفَكَّرُونَ ۝٢٦٦﴾ [البقرة: ٢٦٦]

{٤٥٣٨} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ يُحَدِّثُ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ. قَالَ: وَسَمِعْتُ أَخَاهُ أَبَا بَكْرِ بْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ يُحَدِّثُ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﵁ يَوْمًا لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَ تَرَوْنَ هٰذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ. فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابن أَخِي قُلْ، وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابن عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ ﷿، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّىٰ أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ.

الشَّرْح

○ قوله: «باب قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾» هذا مثل ضربه الله للإنسان الذي عمل بطاعة الله ثم عمل بالمعاصي فأفسد أعماله وأضاعها.

○ قوله: ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي: بستان، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: عنده رزقه كله أكله وشربه، والأمن والأمان، ولا يحتاج إلى أحد، ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ ثم لما كبرت سنه وله أولاد ضعفاء صغار وليس عنده أولاد كبار أصيبت جنته ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، أي: تغيرت حاله، فبعد أن كانت حاله حسنة أصبحت حاله سيئة، فأصبح كبير السن لا يستطيع أن يكسب وليس عنده أولاد كبار، وإنما أولاده كلهم ضعفاء،

وهذا البستان الذي كان موردًا لرزقه وله فيه من كل الثمرات فجاءه إعصار فيه نار فاحترق البستان فاستحالت حاله إلى السوء والعياذ بالله، ولو كان وحده لكانت المسألة أخف، ولكن عنده أطفال، والأطفال يزيدونه عذابًا؛ فيأكلونه ويمزقون شعره ولحمه ويضربونه ويبكون أمامه؛ إذا جاءه كل واحد يقول: أعطني أعطني، هذا يأتي عن يمينه وهذا عن شماله، ويتألم ألمًا شديدًا وهو لا يستطيع أن يجيب طلباتهم، كذلك عمل الإنسان الذي يعمل بطاعة الله ثم يفسده فيضيع عليه فيود أن لو كان ظل على حاله الأول. نسأل الله السلامة.

{٤٥٣٨} قوله: «قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه يَوْمًا لأَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم»، وكان ذلك في خلافته رضي الله عنه.

○ قوله: «فِيمَ تَرَوْنَ هٰذِه الآيَةَ نَزَلَتْ؟» تُرون بضم النون بمعنى: الظن، وفي لفظ: «تَرون» بفتح النون بمعنى: العلم. والآية هي قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٦].

○ وقوله: «قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ» وهذا يقال في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد مماته صلى الله عليه وسلم، أما قول: الله ورسوله أعلم؛ فهذا كان يقال في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فقط؛ لأن الله كان يُنزل عليه الوحي. أما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فلا يقال: الله ورسوله أعلم؛ فالرسول لا يعلم أعمال أمته. ولكن يكتفى بقول: الله أعلم.

○ قوله: «فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ» يعني: تكلموا فيما لا تعلمون من أجل أن تتأملوا وتنظروا ولا تسكتوا، وعمر رضي الله عنه لا ينكر هذه الكلمة، فما أنكر عليهم إلا الخمول والسكوت، وكان مقصوده هنا أن ينشطهم كي يتفكروا ويشحذوا الذهن.

○ قوله: «فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ» وكان ابن عباس رضي الله عنهما ما زال صغيرًا في ذلك الوقت، وكان عمر رضي الله عنه يُجِلُّه ويجلسه مع كبار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

○ قوله: «قَالَ عُمَرُ: يَا ابن أَخِي قُلْ، وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابن عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ:

لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّىٰ أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»، يعني: فأفسد أعماله. نسأل الله السلامة والعافية.

وهذه الأمثال فيها فوائد ينتقل فيها الإنسان من المثل المعقول إلى المثل المحسوس، فالآية ضربت مثلاً للإنسان الذي يعمل بالإيمان ثم يعمل بعد ذلك بالمعاصي حتى تأتي معاصيه على أعماله الصالحة فيؤول به الأمر إلى الغرق في الذنوب وتحصيل غضب الله عليه في الآخرة، فهذا أمر معنوي ضرب له هذا المثل الحسي.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الحديث: قوة فهم ابن عباس، وقرب منزلته من عمر، وتقديمه له مع صغره، وتحريض العالم تلميذه على القول بحضرة من هو أسن منه إذا عرف فيه الأهلية؛ لما فيه من تنشيطه وبسط نفسه وترغيبه في العلم».

بَابٌ قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]

يُقَالُ: أَلْحَفَ عَلَيَّ، وَأَلَحَّ، وَأَحْفَانِي بِالْمَسْأَلَةِ، ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]: يُجْهِدْكُمْ.

{٤٥٣٩} حَدَّثَنَا ابن أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي شَرِيكُ بْنُ أَبِي نَمِرٍ، أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي عَمْرَةَ الأَنْصَارِيَّ قَالَا: سَمِعْنَا أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَا اللُّقْمَةُ وَلَا اللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا المِسْكِينُ الذِي يَتَعَفَّفُ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» يَعْنِي: قَوْلَهُ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾. [البقرة: ٢٧٣].

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أثنى الله تعالى على المؤمنين الذين يعطفون على الفقراء المتعففين الذين لا يسألون الناس إلحافًا أي: لا يلحُّون في المسألة؛ فبعض السائلين من الفقراء يلح في المسألة ويشدد عليك ويلحف ويجهدك فيؤذيك ويأتيك عن يمينك وعن شمالك وكذا، وإذا رددته بالمعروف ذهب خلفك ولحقك وأتعبك، وشدد عليك وهذا هو الملحف، وبعض الفقراء يسأل مرة واحدة، فإذا رددته بقول معروف رجع فهذا هو الذي ينبغي أن يُعطى.

قال: «باب ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾» يعني: إلحاحًا، يلح في المسألة. هذه أوصاف المؤمن المتعفف فمظهره مظهر الغني، فلا يظن الناس أنه فقير، ولا يسأل، هذا هو الذي قد يموت في البيت ولا يعلم الناس عنه شيئًا، وهو الذي ينبغي للإنسان أن يتطلبه.

○ قوله: «يُقَالُ: أَلْحَفَ عَلَيَّ، وَأَلَحَّ، وَأَحْفَانِي بِالْمَسْأَلَةِ» وفي لفظ: «**وألح علي**» فالإلحاف هو الإلحاح.

○ قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ فسرها قال: «يُجْهِدْكُمْ».

{٤٥٣٩} قوله: «شَرِيكُ بْنُ أَبِي نَمِرٍ» معروف أن له أوهامًا وعنده ضعف في حفظه، ومثال ذلك ما له من أغلاط وأوهام في أحاديث الإسراء والمعراج، والذي قال مسلم عنها بعدما روى الحديث: قدم وأخر وزاد ونقص.

لكن البخاري ما روى عنه إلا ما ثبت سماعه عنه، فالإمام البخاري ينتقي عن بعض الضعفاء من سيئي الحفظ ما ثبت سماعه عنهم؛ لأنه إمام، وكذلك الإمام مسلم؛ لأن هؤلاء أصحاب الصحيح، لكن إذا روى عن بعض هؤلاء غيرهما - يعني: غير البخاري ومسلم - نقول: فيه ضعف.

○ قوله: «لَيْسَ المِسْكِينُ الذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَا اللُّقْمَةُ وَلَا اللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا المِسْكِينُ الذِي يَتَعَفَّفُ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» يَعْنِي: قَوْلَهُ تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾».

وفي اللفظ الآخر: «**ليس المسكين الذي ترده اللقمة ولا اللقمتان ولا الأكلة والأكلتان إنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يقوم فيسأل الناس، ولا يفطن له فيتُصَدَّقُ عليه**»[(١)].

وهذا من باب نفي الكمال؛ لأن النبي ﷺ نفى المسكنة عن المسكين ليثبتها لمن هو أشد منه وأكمل.

فالطوَّاف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان مسكين، لكن أشد منه مسكنة وأشد منه حاجة الذي يتعفف فلا يسأل، ولا يفطن له فيتُصَدَّقُ عليه، ولا يقوم فيسأل الناس، فلا يدري عنه أحد، وليس عليه علامة الفقر، بل عليه علامة الغنى؛ فهذا ربما يموت في بيته ولا يعلم عنه أحد، هذا هو الذي ينبغي للإنسان أن يتفطن له ويسأل عنه؛ لأن هذا هو المسكين الحقيقي بخلاف المسكين السائل الذي يشحذ ويمد يده؛ فإنه يعطى ما يكفيه.

---

(١) أحمد (٢/٣١٦)، والبخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

ويشبه هذا قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(١)] فالذي يصرع الناس هو شديد وقوي، لكن أشد منه قوة الذي يملك نفسه عند الغضب.

ومثله الحديث الآخر: «**ليس الرقوب الذي لا يولد له إنما الرقوب الذي لم يخلف أمامه**»[(٢)] الرقوب؛ يعني: العقيم الذي ليس له ولد، فالأشد منه الذي لم يمت له ولد يقدمه أمامه.

والإلحاح في السؤال مذموم؛ فلا ينبغي للمسكين الإلحاح ولو كان محتاجًا، وإنما يكفي أن يبين حالته، أما إذا كان يسأل وهو غير محتاج فهذا الذي عليه الوعيد الشديد في قول النبي ﷺ: «**لا يزال الرجل يسأل حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم**»[(٣)]. وفي الحديث الآخر: «**إن السائل تأتي مسألته كدوشًا أو خدوشًا في وجهه يوم القيامة**»[(٤)]. وكما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحَجّ: ٣٦]، فالقانع: الذي يقنع، والمعتر: الذي يعترض ويسأل.

---

(١) أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).
(٢) أحمد (١/ ٣٨٢)، ومسلم (٢٦٠٨).
(٣) أحمد (٢/ ١٥)، والبخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠).
(٤) أحمد (١/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠).

بَابٌ ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]

﴿ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]: الْجُنُونُ.

{٤٥٤٠} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتِ الآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا قَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ حَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسِّ﴾ فسر المؤلف ﵀ المس بالجنون، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

وفيه: عظم إثم المرابي، وأنه يبعث يوم القيامة مجنونًا يتساقط لا يكاد يثبت. نسأل الله السلامة والعافية.

{٤٥٤٠} قوله: «لَمَّا نَزَلَتِ الآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا»، يعني: من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥- ٢٨١].

○ قوله: «قَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ حَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ» المراد هنا أن النبي ﷺ قرأ هذه الآيات وهي الآيات الدالة على تحريم الربا، فحرم الربا ثم حرم التجارة في الخمر، أي البيع والشراء، فبين للناس أن الخمر أيضًا محرم، وكرر تحريمها لزيادة التأكيد، وإلا فإن تحريم الخمر كان قبل ذلك.

وليس جمعهما في حديث واحد يعني أن تحريمهما جاء في وقت واحد؛ وإنما لأن تحريم التجارة في الربا وقع بعد تحريم الخمر وبينهما مدة؛ لأن آيات الربا من آخر ما نزل من القرآن، فأراد النبي ﷺ أن يشدد على تحريم الاثنين معًا؛ ليكون أبلغ وأقوى في النهي. وسيعيد المؤلف ﵀ هذ الحديث مرات لمناسبة الآية.

بَابٌ قوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٦]

: يُذْهِبُهُ.

{٤٥٤١} حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ: سَمِعْتُ أَبَا الضُّحَىٰ يُحَدِّثُ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا أُنْزِلَتِ الآيَاتُ الأَوَاخِرُ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَلَاهُنَّ فِي المَسْجِدِ، فَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الخَمْرِ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾»: فسره بقوله: «يُذْهِبُهُ» يعني: يذهبه بالكلية أو تذهب بركته؛ وذلك لما بين الربا والخمر من التشابه؛ فهذا يضر بالأموال، وهذا يضر بالعقول، والذي يظهر أن الخمر أشد؛ لما فيها من إفساد العقول.

{٤٥٤١} قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر المصنف حديث عائشة المذكور قبله من وجه آخر عن الأعمش، ومراده الإشارة إلى أن هذه الآية من جملة الآيات التي ذكرتها عائشة».

بَابٌ قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩] : فَاعْلَمُوا.

{٤٥٤٢} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا أُنْزِلَتِ الآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ قَرَأَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي المَسْجِدِ، وَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الخَمْرِ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾» على القراءة المشهورة فسرها قال: «فَاعْلَمُوا» أو: أيقنوا.

وفي قراءة: «فآذنوا بحرب» بالمد، أي: آذنوا غيركم وأعلموهم.

{٤٥٤٢} كرر البخاري ﷺ هذا الحديث في أكثر من موضع من أجل مناسبته للآيات.

بَابٌ قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٠]

{٤٥٤٣} وَقَالَ لَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ وَالأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا أُنْزِلَتِ الآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهُنَّ عَلَيْنَا، ثُمَّ حَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الخَمْرِ.

الشَّرْح

○ قوله: «باب ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٠]» نظرة: خبر بمعنى الأمر، والمعنى: أنظروه إلى وقت اليسار والاستطاعة، وهذا فرض واجب، يعني: المدين إن كان معسرًا فيجب إنظاره إلى ميسرة، هذا أمر من الله تعالى لصاحب الدين وهو الدائن، فإذا كان هناك وسيلة فلا يؤذيه ولا يطالبه لكن يمكنه من العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٨٠﴾ [البَقَرَة: ٢٨٠]. إذا أسقطت بعض الدين أو أسقطت الدين كله فهذا أفضل وفيه خير، وهذا فيه دليل على أن النافلة قد تكون أفضل من الفريضة، والقاعدة أن الفريضة أفضل من النافلة، لكن في هذا الموضع النافلة تكون أفضل، فإنظار المعسر واجب؛ لأنه ليس عنده مورد ليؤدي دينه، فلا تحبسه أو تسجنه أو تضربه؛ لأن هذا لا ينفع إنما تمكنه من العمل.

{٤٥٤٣} هذا الموضع الرابع من سياق المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الحديث، ولا شك أن النبي ﷺ حرم الربا؛ وذلك لأن أهل الجاهلية كانوا إذا حل الدين على أحدهم وليس عنده شيء، قال له الدائن: أعطني، فيقول المدين: ما عندي شيء، فيقول الدائن: أزيدك في الأجل وتزيدني في الدين، فيتراضيان على ذلك.

فإذا كان الدين ألفًا - مثلًا - يصبح ألفًا ومائتين أو ألفًا وخمسين ويصبر عليه سنة، فإذا جاءت السنة الثانية قال: أعطني، قال: ما عندي شيء، قال: أزيدك، أجعلها ألفين وأعطيك سنة ثالثة، وهكذا، وكلما حل الدين زاد هذا في الأجل وزاد هذا في الدين حتى يكون الربا أضعافًا مضاعفة؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. ولهذا ذكر في هذا الحديث أنه يجب إنظاره ولا يجوز الربا، وذكر معه تحريم الخمر لمناسبة ما بينهما من الفساد.

بَابٌ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٨١]

{٤٥٤٤} حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الرِّبَا.

الشَّرْح

{٤٥٤٤} قوله: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الرِّبَا» هذا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا على حسب علمه، وقيل: آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المَائدة: ٣]. وقيل غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةُ الرِّبَا» كذا ترجم المصنف بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وأخرج هذا الحديث بهذا اللفظ، ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس؛ فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾. وأخرجه الطبري من طرق عنه، وكذا أخرجه من طرق عن جماعة من التابعين وزاد: عن ابن جريج قال: يقولون: إنه مكث بعدها تسع ليال. ونحوه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير. وروي عن غيره أقل من ذلك وأكثر؛ فقيل: إحدى وعشرين، وقيل: سبعًا. وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن».

يعني: أن هذا يحمل على أنها آخر آية نزلت فيما يتعلق بالربا فهي تابعة للربا والأرجح أن هذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن، وأما قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ فلم يمكث بعدها ﷺ إلا ثمانين يوما؛ حيث نزلت في يوم عرفة، وتلك على ما تقدم أنه مكث بعدها ﷺ سبع ليال أو تسع او إحدى وعشرين، والله أعلم، والعجب أن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ لم يذكرها.

بَابٌ قوله:

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ الآية [البقرة: ٢٨]

{٤٥٤٥} حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا النُّفَيْلِيُّ، حَدَّثَنَا مِسْكِينٌ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ خَالِدٍ الحَذَّاءِ، عَنْ مَرْوَانَ الأَصْفَرِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ -وَهُوَ ابن عُمَرَ- أَنَّهَا قَدْ نُسِخَتْ ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] الآيَةَ.

الشَّرْح

{٤٥٤٥} قوله: «**قَدْ نُسِخَتْ**: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] **الآية**»، أي: نسختها الآية التي بعدها؛ وهي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦].

بَابُ قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿إِصۡرًا﴾ [البقرة: ٢٨٦]: عَهْدًا. وَيُقَالُ: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] مَغْفِرَتَكَ، ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

{٤٥٤٦} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا رَوْحٌ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خَالِدٍ الحذَّاءِ، عَنْ مَرْوَانَ الأَصْفَرِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ -قَالَ: أَحْسِبُهُ ابن عُمَرَ- ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ قَالَ: نَسَخَتْهَا الآيَةُ التِي بَعْدَهَا.

الشَّرْح

○ قوله: «**وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿إِصۡرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]: عَهْدًا**» الإصر هو الشيء الثقيل الشديد، وفسره ابن عباس بالعهد؛ لأن الوفاء بالعهد شديد.

○ قوله: «**وَيُقَالُ: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]: مَغْفِرَتَك، ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾**».

{٤٥٤٦} هذا هو الحديث السابق، وقد دل على أن الآية الأولى منسوخة وهي قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤]. ومعنى الآية أن الله يحاسب بالوساوس التي في النفس وأن الإنسان مسؤول عما في نفسه؛ سواء أبداه أو أخفاه، وهذا فيه مشقة عظيمة، فمن الذي يستطيع أن يزيل الوساوس؟!

ولهذا شق ذلك على الصحابة - كما في «صحيح مسلم» - وجاءوا إلى النبي ﷺ وجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله، كُلفنا من العمل ما نطيق؛ الصلاة والصيام والزكاة نطيقها، وأنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها؛ فلا نطيق أن نزيل الوساوس التي في أنفسنا. فقال النبي ﷺ: «**أتقولون كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا**»[(١)] فقالوا: سمعنا وأطعنا.

(١) مسلم (١٢٥).

فلما زلت بها ألسنتهم نسخها الله تعالى وأنزل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥-٢٨٦]. فهذه الآية نسخت ما تقدمها وأثبتت أن الوساوس التي في النفوس لا يحاسب الله بها؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يمنعها، والنفس لا تكلف إلا بوسعها.

والآية التي بعدها هي قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]. جاء في الحديث: «**قال الله: قد فعلت**» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ .«**قال الله: قد فعلت**» ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] «**قال الله: قد فعلت**»[1].

فهذه الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ ناسخة لآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وهذا من فضل الله تعالى على عباده.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**نَسَخَتْهَا الآيَةُ التِي بَعْدَهَا**» قد عرف بيانه من حديثي ابن عباس وأبي هريرة والمراد بقوله: «**نَسَخَتْهَا**»، أي: أزالت ما تضمنته من الشدة وبينت أنه وإن وقعت المحاسبة به لكنها لا تقع المؤاخذة به، أشار إلى ذلك الطبري؛ فرارًا من إثبات دخول النسخ في الأخبار، وأجيب بأنه وإن كان خبرًا لكنه يتضمن حكمًا ومهما كان من الأخبار يتضمن الأحكام أمكن دخول النسخ فيه كسائر الأحكام وإنما الذي لا يدخله النسخ من الأخبار ما كان خبرًا محضًا لا يتضمن حكمًا كالأخبار عما مضى من أحاديث الأمم ونحو ذلك ويحتمل أن يكون المراد بالنسخ في الحديث التخصيص؛ فإن المتقدمين يطلقون لفظ النسخ عليه كثيرًا، والمراد بالمحاسبة بما يخفي الإنسان ما يصمم عليه ويشرع فيه دون ما يخطر له ولا يستمر عليه والله أعلم».

---

(١) أحمد (٢/ ٣١٤)، ومسلم (١٢٦).

٣- ومن تفسير سورة آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تُقَىٰةً﴾: وَتَقِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، ﴿صِرٌّ﴾: بَرْدٌ، ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾: مِثْلُ شَفَا الرَّكِيَّةِ. وَهْوَ حَرْفُهَا ﴿تُبَوِّئُ﴾: تَتَّخِذُ مُعَسْكَرًا. الْمُسَوَّمُ: الذِي لَهُ سِيمَاءٌ بِعَلَامَةٍ أَوْ بِصُوفَةٍ أَوْ بِمَا كَانَ ﴿رِبِّيُّونَ﴾: الْجَمِيعُ، وَالْوَاحِدُ رِبِّيٌّ.

﴿تَحُسُّونَهُم﴾: تَسْتَأْصِلُونَهُمْ قَتْلًا. ﴿غُزًّى﴾: وَاحِدُهَا غَازٍ. ﴿سَنَكْتُبُ﴾: سَنَحْفَظُ. ﴿نُزُلًا﴾ ثَوَابًا. وَيَجُوزُ: وَمُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، كَقَوْلِكَ: أَنْزَلْتُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ الْمُطَهَّمَةُ الحِسَانُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزى الرَّاعِيَةُ الْمُسَوَّمَةُ. وَقَالَ ابن جُبَيْرٍ: ﴿وَحَصُورًا﴾: لَا يَأْتِي النِّسَاءَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾: مِنْ غَضَبِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ﴾: النُّطْفَةُ تَخْرُجُ مَيِّتَةً، وَيُخْرِجُ مِنْهَا الحَيَّ. ﴿وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾: أَوَّلُ الفَجْرِ ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾: مَيْلُ الشَّمْسِ -أُرَاهُ- إِلَىٰ أَنْ تَغْرُبَ.

الشَّرْح

بعد أن انتهى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من تفسير سورة البقرة انتقل إلى تفسير سورة آل عمران، وهو رَحِمَهُ اللَّهُ حريص على إفادة طالب العلم فهو يفسر الكلمات التي تحتاج إلى تفسير وينقلها عن أهل اللغة مثل معمر بن المثنى وغيره، ويذكر من الأحاديث على الآيات ما كان على شرطه، وإذا لم يجد حديثًا على شرطه انتقل إلى الآية الأخرى. وهكذا ينتقل من سورة إلى سورة.

وهنا في سورة آل عمران فسر الكلمات التي تحتاج إلى بيان معنى.

{٤٥٤٧} قال في رواية أخرى للصحيح: «**تقاة وتقية واحد**» هذا القول على قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨]، الآية. وهذه الآية في شأن الكفار، وفيها التحذير من اتخاذ الكفار أولياء إلا من باب

التقية؛ أي: لا يجوز للمسلم موالاتهم إلا إذا خاف من شرهم.

وقال أيضا: «﴿صِرٌّ﴾: بَرْدٌ» هذا مثل ضربه الله في ذهاب أعمال الكفار وضياعها فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عِمرَان: ١١٧] وهذا الصر برد الرياح؛ فإنها إذا كان فيها برد تهلك الحرث.

○ قوله: «﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾»، فسرها بقوله: «مِثْلُ شَفَا الرَّكِيَّةِ. وَهْوَ حَرْفُهَا».

○ وقوله: «الْمُسَوَّمُ» يعني: في قوله: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عِمرَان: ١٤] فسرها فقال: «الذِي لَهُ سِيمَاءٌ بِعَلَامَةٍ أَوْ بِصُوفَةٍ أَوْ بِمَا كَانَ».

○ وقوله: «﴿رِبِّيُّونَ﴾»، فسرها بقوله: «الْجَمِيعُ، وَالْوَاحِدُ رِبِّيٌّ»، وهم العلماء، والربي: هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره.

○ وقوله: «﴿تُبَوِّئُ﴾»، فسرها بقوله: «تَتَّخِذُ مُعَسْكَرًا».

○ وقوله: «﴿سَنَكْتُبُ﴾»، فسرها بقوله: «سَنَحْفَظُ».

وجاء في رواية أخرى للصحيح قال: ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢]: «تَسْتَأْصِلُونَهُمْ قَتْلًا» أي: في غزوة أحد، وهذا كان في أول المعركة، فقد كانت للمؤمنين، ثم بعد ذلك أخل الرماة بالموقف فدخل عليهم الكفار فحصلت النكسة.

وقال أيضا: ﴿غُزًّى﴾: «وَاحِدُهَا: غَازٍ».

○ قوله: ﴿نُزُلًا﴾ [آل عِمرَان: ١٩٨]، فسرها بقوله: «ثَوَابًا»، ثم قال: «وَيَجُوزُ: وَمُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، كَقَوْلِكَ: أَنْزَلْتُهُ».

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾»، فسرها بقوله: «الْمُطَهَّمَةُ الحِسَانُ».

○ قوله: «قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزى الرَّاعِيَةُ الْمُسَوَّمَةُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٤]، ففسر الخيل المسومة قال: الراعية.

وجاء في رواية أخرى للصحيح قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَقَالَ ابن جُبَيْرٍ**: ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٩]»، في قصة يحيى، فسرها فقال: «**لَا يَأْتِي النِّسَاءَ**» على أحد الأقوال، وكذا: «**وَقَالَ عِكْرِمَةُ**: ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٥]» قال: «**مِنْ غَضَبِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ**»، والفور: الغضب؛ ومنه: فارت القدر.

○ قوله: «**وَقَالَ مُجَاهِدٌ**: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعَام: ٩٥]»، فسرها فقال: «**النُّطْفَةُ تَخْرُجُ مَيِّتَةً، وَيُخْرِجُ مِنْهَا الحَي**».

وجاء في رواية أخرى للصحيح قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عِمرَان: ٤١]، فسرها فقال: «﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: **أَوَّلُ الفَجْرِ** ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾: **مَيْلُ الشَّمْسِ - أُرَاهُ - إِلَىٰ أَنْ تَغْرُبَ**».

بَابٌ قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الحَلَالُ وَالْحَرَامُ. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]: يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: ١٧] ﴿زَيۡغٌ﴾ [آل عمران: ٧]: شَكٌّ ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]: المُشْتَبِهَاتِ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] يَعْلَمُونَ ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

{٤٥٤٧} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ التُّسْتَرِيُّ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ القَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَٰذِهِ الآيَةَ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الذِينَ سَمَّىٰ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ».

الشَّرْح

هذا الباب على قول الله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾.

{٤٥٤٧} قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عِمرَان: ٧]. فسر المؤلف رحمه الله الآيات المحكمات نقلًا عن مجاهد فقال: «الحَلَالُ وَالْحَرَامُ».

○ قوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ فسرها المصنف رحمه الله فقال: «يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا» هكذا فسر المؤلف؛ أخذًا من قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزُّمَر: ٢٣]، يعني: يصدق بعضه بعضاً، ولكن المعنى في هذه الآية غير المعنى الذي في آية الزمر، فالمعنى هنا: ما يشتبه على بعض الناس، والحديث الذي ذكره المؤلف يؤيد هذا المعنى؛ أن المراد بالمتشابهات في الآية غير المتشابه

في آية الزمر، فالمتشابه في آية الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾، يعني: القرآن متشابه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا ويؤيد بعضه بعضاً؛ فما جاء في موضع يأتي في موضع آخر يصدقه ويوافقه، فالقصص في القرآن تجدها متشابهة مثل قصة قوم نوح في عدد من السور يصدق بعضها بعضًا وليس فيها اختلاف.

والمعنى الثاني للمتشابه: الذي يشتبه معناه على بعض الناس كما في هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عِمرَان: ٧]، يعني: واضحات المعنى كالحلال والحرام، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، يعني: تشتبه على بعض الناس دون البعض، والحديث الذي ذكره المؤلف يؤيد معنى الآية.

فهذا النقل للمؤلف عن معنى المتشابه انتقال نظر من معنى إلى معنى؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [البَقَرَة: ٢٦]، وكقوله جل ذكره: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾ [يُونس: ١٠٠]، وكقوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محَمَّد: ١٧].

- وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ فسر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الزيغ فقال: «**شَكٌّ**».
- وقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ قال: «**الْمُشْتَبِهَاتِ**»، فسر الفتنة بالمشتبهات.
- وقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ قال: «**يَعْلَمُونَ**»، أي: يعملون بالمحكم ويؤمنون بالمتشابه و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث عائشة على تفسير الآية، وأحسن ما يفسر به القرآن أن يفسر بالآيات الأخرى ثم بأحاديث النبي ﷺ، والنبي ﷺ فسر هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ إلى آخر الآية.

- قوله: «**قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِذَا رَأَيْتَ الذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الذِينَ سَمَّىٰ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**» فيه: دليل على أن الذين يتركون الواضح من الأحكام ويأخذون بما فيه اشتباه أن هذا أمارة على الزيغ في قلوبهم.

وقوله في الحديث: «**فإذا رأيت**» قد يكون الخطاب لعائشة فيكون بكسر التاء، وقد يكون الخطاب عام لكل مسلم فيكون «**رأيتَ**» بفتح التاء، يعني إذا رأيت أيها المخاطب.

بَابُ قوله:

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]

{٤٥٤٨} حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

الشَّرح

○ قوله: «**باب:** ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾».

{٤٥٤٨} قوله: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا**» هذه منقبة لمريم وابنها عليهم الصلاة والسلام أن الشيطان لم يمسهما.

وفيه: دليل على أن الشيطان يمس كل مولود؛ ولهذا يستهل صارخًا من مسه وطعنه. وفي الحديث الآخر: «**غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب**»[1] والحجاب هو الحاجز بينه وبين الولد.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقد طعن صاحب «الكشاف» في معنى هذا الحديث وتوقف في صحته فقال: إن صح هذا الحديث فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها؛ فإنهما كانا معصومين، وكذلك من كان في صفتهما».

وصاحب «الكشاف» هو الزمخشري وهو معتزلي على طريقة المعتزلة، وهناك فرقة من فرق المعتزلة تسمى الزمخشرية تنسب إليه.

(١) أحمد (٢/ ٥٢٣)، والبخاري (٣٢٨٦).

ولا شك أن هذا غلط واضح، كيف يطعن في صحة حديث وهو ثابت في الصحيحين وفي غيرهما، وهما أصح كتابين بعد كتاب الله ﷻ، وقد تلقتهما الأمة بالقبول، لكن عادة أهل البدع أن يطعنوا في الأحاديث ولا يقبلوها.

وقد أخطأ خطأين:

الخطأ الأول: طعنه في الصحيحين.

الخطأ الثاني: تأويل الحديث تأويلًا يخالف الظاهر.

ومعنى كلام الزمخشري: إن صح الحديث فليس الطعن المذكور فيه طعنًا حقيقيًّا أو حسيًّا، بل هو طعن معنوي، ومعناه أنه يطمع، ففسر الطعن بالطمع، وهذا على طريقة أهل البدع، والحديث صحيح والطعن طعن حسي حقيقي، وما المانع من ذلك؟ إذا كان النبي ﷺ يقول: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[(١)] فإذا كان يجري مجرى الدم أفلا يطعن في الحجاب؟! فهل لا يستطيع الطعن الحقيقي؟

وفي الآية الثانية يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥]. إذا كان الشيطان يتخبط ويمس، أفلا يطعن في الحجاب طعنًا حسيًّا؟!

ثم قال الحافظ نقلاً عن الزمخشري: «وكذلك من كان في صفتهما لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحِجر: ٤٠] قال: واستهلال الصبي صارخًا من مس الشيطان تخييل لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول: هذا ممن أغويه».

هذا أيضا تأويل ثان؛ فصراخ الصبي ليس من أجل الطعن، إنما هو من أجل التخييل؛ أي: خيل له فصاح الصبي، وهذا تأويل المعتزلة والأشاعرة، والصواب أنه طعن حسي حقيقي، وأن الصبي يستهل صارخًا من أثر الطعن الحسي.

---

(١) أحمد (٣/١٥٦)، والبخاري (٣٢٨١)، ومسلم (٢١٧٤).

ثم قال الحافظ نقلًا عن الزمخشري: «وأما صفة النخس كما يتوهمه أهل الحشو فلا».

أهل الحشو هم أهل السنة، يسميهم المعتزلة وأهل البدع حشوية؛ لأنهم يثبتون الصفات، ويسمونهم نوابت يلمزونهم، فهو يعيب على أهل السنة قولهم: هذا طعن حسي وينكر عليهم ويرد عليهم يقول: «أما أن يكون طعنًا حسيًّا كما يزعمه أهل السنة من الحشوية فلا، وإنما هو تخييل أمر معنوي».

ثم قال الحافظ نقلًا عن الزمخشري: «ولو ملك إبليس على الناس نخسهم لامتلأت الدنيا صراخًا.انتهى» وهكذا نجد المعتزلة يعتمدون على عقولهم في معارضة الأحاديث والسنن.

وقد تعقبه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «وكلامه متعقب من وجوه، والذي يقتضيه لفظ الحديث لا إشكال في معناه ولا مخالفة لما ثبت من عصمة الأنبياء، بل ظاهر الخبر أن إبليس ممكن من مس كل مولود عند ولادته» وهذا هو الصواب أنه ممكن وهو حقيقة.

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لكن من كان من عباد الله المخلصين لم يضره ذلك المس أصلًا، واستثني من المخلصين مريم وابنها؛ فإنه ذهب يمس على عادته فحيل بينه وبين ذلك، فهذا وجه الاختصاص، ولا يلزم منه تسلطه على غيرهما من المخلصين، وأما قوله: لو ملك إبليس إلخ فلا يلزم من كونه جعل له ذلك عند ابتداء الوضع أن يستمر ذلك في حق كل أحد، وقد أورد الفخر الرازي هذا الإشكال وبالغ في تقريره على عادته وأجمل الجواب فما زاد على تقريره أن الحديث خبر واحد ورد على خلاف الدليل؛ لأن الشيطان إنما يغوي من يعرف الخير والشر، والمولود بخلاف ذلك».

وهو قد نقل هنا عن الفخر الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب»، وفي الأول نقل عن الزمخشري في تفسيره «الكشاف»، ومقتضى النقل أن الفخر الرازي رد الحديث برد معروف عند أهل البدع وهو كونه خبر آحاد، والخبر الواحد إذا ورد على خلاف الدليل لا يقبل ولا تقوم به الحجة، وكيف يغويه وهو لا يعرف الخير والشر، فوضح بعقله مثلما فعل الزمخشري لكن بطريق آخر.

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنه لو مُكِّن من هذا القدر لفعل أكثر من ذلك من إهلاك وإفساد، وأنه لا اختصاص لمريم وعيسى بذلك دون غيرهما إلى آخر كلام «الكشاف»، ثم أجاب بأن هذه الوجوه محتملة».

كيف يقول: إلى آخر كلام «الكشاف»، بما يقتضي أن يكون «الكشاف» متأخرًا عن «مفاتيح الغيب»، فيكون قد أخذ عن الرازي! ويحتمل أن يكون قوله: إلى آخر كلام «الكشاف» خطأ. والصواب: إلى آخر كلام الفخر الرازي، أو: إلى آخر كلام «مفاتيح الغيب».

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم أجاب بأن هذه الوجوه محتملة، ومع الاحتمال لا يجوز دفع الخبر انتهى.

وقد فتح الله تعالى بالجواب كما تقدم، والجواب عن إشكال الإغواء يعرف مما تقدم أيضا وحاصله أن ذلك جعل علامة في الابتداء على من يتمكن من إغوائه والله أعلم».

ولا يلزم من هذه المسَّة الضرر، فهي مثل الضمة التي في القبر، وهذه المسَّة قدرها الله لكل أحد إلا لمريم وابنها.

بَابُ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]

: لَا خَيْرَ. ﴿أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]: مُؤْلِمٌ موجع مِنَ الأَلَمِ، وَهْوَ فِي مَوْضِعِ مُفْعِلٍ.

{٤٥٤٩} حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ يَمِينَ صَبْرٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ ٱمْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهْوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ». فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ.

{٤٥٥٠} قَالَ: فَدَخَلَ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ: مَا يُحَدِّثُكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قُلْنَا: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فِيَّ أُنْزِلَتْ، كَانَتْ لِي بِئْرٌ فِي أَرْضِ ابن عَمٍّ لِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيِّنَتُكَ أَوْ يَمِينُهُ» فَقُلْتُ: إِذًا يَحْلِفَ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينِ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ ٱمْرِئٍ مُسْلِمٍ وَهْوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللهَ وَهْوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ».

{٤٥٥١} حَدَّثَنَا عَلِيٌّ -هُوَ ابن أَبِي هَاشِمٍ- سَمِعَ هُشَيْمًا، أَخْبَرَنَا العَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ فَحَلَفَ فِيهَا: لَقَدْ أَعْطَىٰ بِهَا مَا لَمْ يُعْطَهُ، لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ.

{٤٥٥٢} حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ نَصْرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ دَاوُدَ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ ٱمْرَأَتَيْنِ كَانَتَا تَخْرِزَانِ فِي بَيْتٍ -أَوْ فِي الحُجْرَةِ- فَخَرَجَتْ إِحْدَاهُمَا وَقَدْ أُنْفِذَ بِإِشْفًى فِي كَفِّهَا، فَادَّعَتْ عَلَى الأُخْرَىٰ، فَرُفِعَ إِلَى ابن عَبَّاسٍ، فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ؛

لَذَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالُهُمْ». ذَكِّرُوهَا باللهِ وَاقْرَءُوا عَلَيْهَا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٧]. فَذَكَّرُوهَا فَاعْتَرَفَتْ، فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَىٰ عَلَيْهِ».

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عِمرَان: ٧٧]. وفيها الوعيد الشديد على من يحلف بالله كذبًا ليعتاض به شيئًا من الدنيا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ يعني: يعتاضون واشترى ماذا؟ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾، فالدنيا كلها ثمن قليل، فالذي يعطى الدنيا كلها مقابل أن يحلف كاذبًا أعطي ثمنًا قليلًا، كأن يكون عليه - مثلًا - لشخص دين عشرة آلاف فيحلف بالله أنه ليس له حق عنده وليس له دين عنده، فنقول: هذا اعتاض بيمينه ثمنًا قليلًا، حتى لو كان الذي اعتاضه الدنيا كلها؛ فهو ثمن قليل، وهذا هو الذي عليه الوعيد.

○ قوله: ﴿لَا خَلَٰقَ﴾. في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فسرها المؤلف رحمه الله قال: «لَا خَيْرَ»، والمعنى ليس له حظ ولا نصيب في الآخرة.

○ قوله: ﴿أَلِيمٞ ١٧٤﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البَقَرَة: ١٧٤]، فسرها المؤلف رحمه الله فقال: «مُؤْلِمٌ موجع مِنَ الأَلَمِ، وَهْوَ فِي مَوْضِعِ مُفْعِلٍ» مؤلم على وزن مُفعل، وهذا فيه الوعيد الشديد على أن من اعتاض بيمينه شيئاً من الدنيا، فهو من كبائر الذنوب، ثم ذكر المؤلف رحمه الله ثلاثة أحاديث في سبب نزول هذه الآية:

{٤٥٤٩} حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ يَمِينَ صَبْرٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ ٱمْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهْوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» أصل الصبر الحبس، يقال: فلان قتل صبرًا؛ يعني: قتل محبوسًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وهذا الذي حلف على يمين صبر كأنه حلف ليذهب مال أخيه، وأخوه ليس عنده بينة وليس له حيلة كأنه مصبور يعني مقطوع محبوس، كأن يكون

لشخص على شخص عشرة آلاف مثلًا، وليس له بينة، فحلف الذي عليه الحق أن ليس له؛ فهذا اقتطع مال أخيه بيمين صبر؛ يعني: فكأنه حبسه واقتطع ماله؛ لأن خصمه لا يملك الدفاع عن نفسه وهو قد أخذ ماله بهذه اليمين.

○ قوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾» يعني: هذه الآية أنزلت موافقة لقول النبي ﷺ.

○ قوله: «فَدَخَلَ الأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَقَالَ: مَا يُحَدِّثُكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قُلْنَا: كَذَا وَكَذَا» أبو عبد الرحمن كنية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

○ قوله: «فِيَّ أُنْزِلَتْ» يقول الأشعث بن قيس: إن هذه الآية أنزلت فيه؛ أي بسببه.

○ قوله: «كَانَتْ لِي بِئْرٌ فِي أَرْضِ ابنِ عَمٍّ لِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَيِّنَتُكَ أَوْ يَمِينُهُ» لفظ: بينتك، يجوز فيه الرفع والنصب على حسب الرواية؛ فالرفع على أنه مبتدأ لخبر محذوف يعني: بينتك عليك، والنصب على تقدير مفعول فعله محذوف؛ أي: أحضر أو هات بينتك أو يمينك.

○ قوله: «فَقُلْتُ: إِذًا يَحْلِفَ يَا رَسُولَ اللهِ» يقول الأشعث: ما عندي بينة.

فقال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينِ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ ٱمْرِئٍ مُسْلِمٍ وَهْوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللهَ وَهْوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» وهذا يدل على أن هذا من كبائر الذنوب وعليه الوعيد الشديد.

❖ ❖ ❖

{٤٥٥٠} حديث عبد الله بن أبي أوفى.

وفيه: قوله: «أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ فَحَلَفَ بها» - وفي لفظ: «فَحَلَفَ فِيهَا»[(١)] «لقد أُعطي بها ما لم يعطه» يعني: حلف لقد دفع فيها من الثمن

(١) البخاري (٤٥٥١).

قيمة أكثر مما سامها هذا الذي يريد أن يشتريها، فإذا قال المشتري: أنا أشتريها بثمانين، حلف قائلا: أنا أعطيت بها أكثر مما تعطيني؛ فكيف أبيعكها بثمانين وأنا اشتريتها بمائة؟ وهكذا.

○ قوله: «لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فإذا حلف أنه اشتراها بمائة وهو كاذب، وما اشتراها إلا بثمانين وأقره المشتري فقال: أنت اشتريتها بمائة، وأنا أشتريها بمائة وعشرين، فيكون أكل أربعين؛ فهذا سحت وضرر للمسلمين؛ لذا استحق هذا المقت والغضب من الله.

○ قوله: «فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ» أي: وهذا سبب نزول هذه الآية.

❖ ❖ ❖

{٤٥٥١} حديث ابن أبي مليكة وفيه قوله: «أَنَّ ٱمْرَأَتَيْنِ كَانَتَا تَخْرِزَانِ فِي بَيْتٍ -أَوْ فِي الحُجْرَةِ- فَخَرَجَتْ إِحْدَاهُمَا وَقَدْ أُنْفِذَ بِإِشْفًى فِي كَفِّهَا» الإشفى - بكسر الهمزة وسكون الشين وفاء مفتوحة وألف مقصورة: المخراز - وهي الإبرة التي تخرز بها.

○ قوله: «فَادَّعَتْ عَلَى الأُخْرىٰ، فَرُفِعَ إِلَى ابن عَبَّاسٍ» يعني: أمرهما، فالتي دخل المخراز في كفها ادعت أن الأخرى هي التي اعتدت عليها وضربتها بالمخراز، وجاءت تشتكي تقول: هذه المرأة ضربتني بالمخراز. والحقيقة أنها هي التي أصابت نفسها.

❖ ❖ ❖

{٤٥٥٢} فقال ابن عباس: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ؛ لَذَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالُهُمْ. ذَكِّرُوهَا باللهِ وَاقْرَءُوا عَلَيْهَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا﴾ فَذَكَّرُوهَا فَاعْتَرَفَتْ» أنها هي التي أصابت نفسها.

وفيه: إشارة إلى أن العمل بما دل عليه عموم الآية لا بخصوص السبب.

○ قوله: «فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ ﵄: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَىٰ

عَلَيْهِ»، يعني: بعد أن يكون المدعي ليس له بينة فإنه يوجه اليمين على المدعى عليه، وفي الحديث الآخر: «**البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه**»(١)، ولا مانع أن تكون هذه الأسباب كلها أو عدد من الأسباب سببًا لنزول هذه الآية، كحديث الأشعث بن قيس وقصته مع صاحبه، وكذلك حديث عبد الله بن أبي أوفى الصريح في أن الآية نزلت بسبب الرجل الذي أقام سلعة في السوق.

---

(١) الترمذي (١٣٤١).

بَابُ قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

﴿سَوَآءٍ﴾: قَصْدًا.

{٤٥٥٣} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ مَعْمَرٍ. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي ابن عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سُفْيَانَ مِنْ فِيهِ إِلَىٰ فِي قَالَ: ٱنْطَلَقْتُ فِي المُدَّةِ التِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ هِرَقْلَ، قَالَ: وَكَانَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ بُصْرَىٰ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَىٰ إِلَىٰ هِرَقْلَ، قَالَ: فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَا هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هٰذَا الرَّجُلِ الذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَدَخَلْنَا عَلَىٰ هِرَقْلَ، فَأُجْلِسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هٰذَا الرَّجُلِ الذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا. فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتُرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هٰذَا عَنْ هٰذَا الرَّجُلِ الذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي؛ فَكَذِّبُوهُ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللهِ، لَوْلَا أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الكَذِبَ لَكَذَبْتُ. ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: سَلْهُ: كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ تَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالًا، يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هٰذِهِ المُدَّةِ لَا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا. قَالَ:

واللهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هٰذِه. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هٰذا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا.

ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؛ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ. وَسَأَلْتُكَ: عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتَ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّىٰ يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا، يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَىٰ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ هٰذا القَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ قَالَ هٰذا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؛ قُلْتُ: رَجُلٌ ٱئْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّلَةِ، وَالْعَفَافِ. قَالَ: إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ. قَالَ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ الهُدَىٰ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ ٱرْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ، وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا. قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابن أَبِي كَبْشَةَ، أَنَّهُ

لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّىٰ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الفَلَاحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ الأَبَدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ قَالَ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِقَتْ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِهِمْ. فَدَعَا بِهِمْ فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا اخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ عَلَىٰ دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمُ الذِي أَحْبَبْتُ. فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ.

الشَّرْح

هذه الآية آية عظيمة تدل على معنى التوحيد، وفيها إثبات توحيد الألوهية، وقد سن النبي ﷺ للمسلم أن يقرأ هذه الآية بعد الفاتحة في الركعة الثانية من ركعتي الفجر وذلك بعد أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البَقَرَة: ١٣٦](١)، أو يقرأ في الأولى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافِرون: ١] بعد الفاتحة والثانية: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: ١] بعد الفاتحة(٢).

○ قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ فسر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿سَوَآءِۭ﴾ قال: «قَصْدًا» يعني: نَصفًا وعدلًا.

○ قوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عِمران: ٦٤]. هذا هو التوحيد، وهو معنى كلمة: لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق سواه، وهو معنى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافِرون: ١-٦].

○ قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عِمرَان: ٦٤] الربوبية لا تكون إلا لله؛ فلا يتخذ بعضنا رباً من دون الله؛ هذا عبد وهذا رب؛ هذا يعبد هذا، وهذا يستعبد هذا.

(١) أحمد (١/ ٢٣١)، ومسلم (٧٢٧).
(٢) مسلم (٧٢٦).

○ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، يعني: إذا تولوا وأعرضوا ولم يقبلوا فأعلنوا إسلامكم.

{٤٥٥٣} هذا الحديث يرويه ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان فقال: «حَدَّثَنِي أَبُو سُفْيَانَ مِنْ فِيهِ إِلَىٰ فِي»، يعني: من فمه إلى فمي، أي: ليس هناك واسطة.

○ قوله: «انْطَلَقْتُ فِي المُدَّةِ التِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، أي: المدة التي بين النبي ﷺ وبين المشركين وهي مدة الصلح، فإن النبي ﷺ صالح كفار قريش يوم الحديبية عشر سنين؛ حتى تضع الحرب أوزارها، ولكنها لم تستمر إلا سنتين؛ لأنهم نقضوا العهد؛ فغزاهم النبي ﷺ في عقر دارهم وفتح مكة، فحصلت هذه القصة لأبي سفيان في هذه المدة التي فيها الصلح؛ لأن أبا سفيان تأخر إسلامه، فما أسلم إلا يوم الفتح.

○ قوله: «فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ هِرَقْلَ، قَالَ: وَكَانَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ بُصْرىٰ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرىٰ إِلَىٰ هِرَقْلَ، قَالَ: فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَا هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هٰذا الرَّجُلِ الذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟» أي: فلما قرأه هرقل سأل فقال: هل هنا أحد من العرب؟ يعني: ليسألهم عن النبي ﷺ، «فَقَالُوا: نَعَمْ» فإذا فيهم أبو سفيان ومن معه.

○ وقوله: «فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَدَخَلْنَا عَلَىٰ هِرَقْلَ، فَأُجْلِسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ» أي: أمامه «فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هٰذا الرَّجُلِ الذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا. فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتُرْجُمَانِهِ» الترجمان: هو الذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة؛ وفيه لغات: ترجمان بضم التاء والجيم، وترجمان بفتح التاء والجيم، وترجمان بفتح التاء وضم الجيم؛ هذه ثلاث لغات، وقال بعضهم: فيه لغة رابعة أيضًا. وذلك لأن هرقل ليس عربيًّا فجعل أبا سفيان أمامه وجعل أصحاب أبي سفيان خلفه.

○ قوله: «فَإِنْ كَذَبَنِي» مخففة؛ يعني: إن أخبرني بخبر كذب «فَكَذِّبُوهُ»، وكانت العرب تستعظم الكذب؛ ولهذا تحاشاه أبو سفيان.

○ وقوله: «لَوْلَا أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الكَذِبَ لَكَذَبْتُ»، مع أنه كان كافرًا في ذلك الوقت، وما استطاع أن يكذب؛ لأن أصحابه خلفه.

○ قوله: «ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ: سَلْهُ: كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ» فالأنبياء يبعثون في أحساب قومهم، وهم أعلى وأرقى الناس حسبًا ونسبًا، فلا يكونون وضيعين؛ حتى لا يكون لأحد من الناس مغمز فيهم، وقد كان هرقل يقرأ صفة النبي ﷺ في الإنجيل والتوراة.

○ قوله: «فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا» يعني: لو كان من آبائه ملك لقيل: يطلب ملك أبيه.

○ قوله: «فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟»؛ لأن الضعفاء هم الذي يتبعون الأنبياء في الغالب؛ لأنه ليس هناك مانع يمنعهم، بخلاف الأشراف والكبراء والأمراء؛ فغالبًا ما يمنعهم ما هم فيه من النعيم من اتباع الأنبياء، وقد يستثنى من ذلك؛ فأبو بكر الصديق ﷺ ليس من الضعفاء ومع ذلك كان أول من آمن؛ ولهذا قال قوم نوح: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ١١١﴾ [الشُّعَرَاء: ١١١] وقال كفار قريش: اطرد عنا هؤلاء الضعفاء.

○ قوله: «قَالَ: يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قَالَ: قُلْتُ تَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالًا، يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا» هذه صفات رسل الله، لا يغدرون ولا يكذبون ولا يخونون العهد.

ثم قال أبوسفيان: «وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هٰذِهِ المُدَّةِ لَا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا. قَالَ: واللهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هٰذِهِ»، أي: يقول: لم أستطع إلا هذه، فقال: ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما يصنع، فلا ندري هل يصدق أو يكذب؟ هل يغدر أو لا؟

○ قوله: «قَالَ: فَهَلْ قَالَ هٰذَا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا. ثُمَّ قَالَ

لِتُرْجُمَانِهِ»، أي: قال مجيبًا له عن الأسئلة: «قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا» وقد عرف ذلك؛ لأنه يقرأ التوراة والإنجيل.

○ قوله: «وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؛ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ»، ولكن هذا ليس من آبائه ملك.

○ قوله: «وَسَأَلْتُكَ: عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتَ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ» النبي ﷺ كان يلقب بالصادق الأمين، فكيف يتورع من الكذب على الناس ثم يكذب على الله؟! وهذا الاستدلال يدل على أن هرقل رجل عاقل.

○ قوله: «وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ»، أي: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب فلا يرتد أحد ولا يكرهه أحد، وهرقل يعرف هذا ومع ذلك لم يؤمن؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المَائدة: ٤١].

○ قوله: «وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّىٰ يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا، يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ»، يعني: مرة هكذا ومرة هكذا، فمرة في بدر كانت للمسلمين، ومرة في أحد كانت عليهم.

○ قوله: «وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَىٰ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ» وهذا الكلام مأخوذ من كتب الأنبياء السابقة، فالرسل تبتلى في أول الأمر ثم تكون لهم العاقبة.

○ قوله: «وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ» فهرقل رجل كتابي يقرأ الكتب وليس بوثني من المشركين؛ ولهذا صار هناك فرق بين أهل الكتاب وبين الوثنيين، فأهل الكتاب لما خف كفرهم صارت

لهم أحكام خاصة؛ حيث أباح الله نساءهم وذبائحهم، لكن الوثني شركه أغلظ وأشد فلا تحل نساؤهم ولا ذبائحهم، وأهل الكتاب عندهم شيء من العلم، ولما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: «**إنك تقدم قوما أهل كتاب**»[١] يعني: على علم فاستعد لمناظرتهم فهم ليسوا جهالًا.

○ قوله: «وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ هٰذا القَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ قَالَ هٰذا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؛ قُلْتُ: رَجُلٌ ٱئْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّلَةِ، وَالْعَفَافِ»، ولا يستطيع أبو سفيان أن يكذب؛ لأن خلفه أصحابه، ويخشى أن يأثروا عنه الكذب.

ثم قال هرقل: «إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ» جزم بأنه نبي بهذه الأسئلة التي سألها.

○ وقوله: «وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ»، يعني: ما ظننت أن نبي هذا الزمان من العرب.

○ وقوله: «وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ» وهذا لا يناسب الكفرة، فهم لا يريدون هذا.

○ وقوله: «وليبلغن ملكه ما تحت قدمي» يعني: أن هذا مكتوب في التوراة والإنجيل، «**وليفتحن الله به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا**»[٢].

○ قوله: «قَالَ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ الهُدىٰ، أَمَّا بَعْدُ» فيه: أن النبي ﷺ يفتتح كتبه ببسم الله الرحمن الرحيم، وكذلك الأنبياء كسليمان عليه الصلاة والسلام لما كتب إلى بلقيس قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل: ٣٠-٣١]؛ ولهذا يقول العلماء: إن «بسم الله الرحمن الرحيم» تكتب في الرسائل. وقال

(١) أحمد (١/ ٢٣٣)، والبخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).
(٢) أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (٢١٢٥).

الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالة «آداب المشي إلى الصلاة»: «يفتتح بها الكتب ولا تكتب في الشعر ولا معه»[١].

○ وقوله: «سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ الهُدىٰ» فيه: أنه لا يقال للكافر: السلام عليكم، وإنما يقال له: سلام على من اتبع الهدى. أما إذا كان مسلمًا فإنه يقال له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وهذا غير مسلم.

وفيه: استعمال «أَمَّا بَعْدُ» في الخطب والرسائل، واختلف في أول من قال: أما بعد، فقيل: داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: قس بن ساعدة الإيادي، وقيل غير ذلك.

وبعض الناس يقول: وبعد أكثر منها، لكن الأُولى هي التي حافظ عليها النبي ﷺ وهي أحسن من: وبعد.

○ قوله: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ» هذه كلمات معدودة لها معان غزيرة، فالرسول ﷺ أوتي جوامع الكلم، واختصرت له الحكمة، فتجد البليغ الفصيح يأتي بكلمات معدودة تحتها معان كثيرة، بخلاف غير الفصيح الثرثار يأتي بكلام طويل ليس فيه معان؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه[٢]، فقوله: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»؛ لأنك من أهل الكتاب، فالأجر الأول؛ لأنك آمنت بنبيك السابق، والأجر الثاني؛ لأنك آمنت بالنبي محمد ﷺ، ففي آخر سورة الحديد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

○ قوله: «فَإِنْ تَوَلَّيْتَ» يعني: أعرضت، «فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ» قيل: هم الحراثون والزراعون؛ لأن قومه أهل فلاحة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ»، تقدم ضبطه وشرحه في «بدء الوحي»، ووجدته هناك في أصل معتمد بتشديد الراء، وحكى هذه

---

(١) «آداب المشي إلى الصلاة» مع شرحه للشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ (ص٥).
(٢) البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

الرواية أيضًا صاحب «المشارق» وغيره، وفي أخرى: «**الأرسين**» بتحتانية واحدة، قال ابن الأعرابي: أرس يأرس بالتخفيف فهو أريس، وأرَّس بالتشديد يؤرس فهو إريس، وقال الأزهري: بالتخفيف وبالتشديد: الأكار، لغة شامية» والأكار: الفلاح.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان أهل السواد أهل فلاحة، وكانوا مجوسًا، وأهل الروم أهل صناعة، فأعلموا بأنهم وإن كانوا أهل كتاب فإن عليهم إن لم يؤمنوا من الإثم إثم المجوس». انتهى.

وهذا توجيه آخر لم يتقدم ذكره، وحكى غيره أن الأريسيين ينسبون إلى عبد الله بن أريس؛ رجل كان تعظمه النصارى ابتدع في دينهم أشياء مخالفة لدين عيسى، وقيل: إنه من قوم بعث إليهم نبي فقتلوه؛ فالتقدير على هذا: فإن عليك مثل إثم الأريسيين، وذكر ابن حزم أن أتباع عبد الله بن أريس كانوا أهل مملكة هرقل، ورده بعضهم بأن الأريسيين كانوا قليلًا».

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال ابن سيده في «المحكم»: الأريس الأكار عند ثعلب، والأمين عند كراع؛ فكأنه من الأضداد أي: يقال للتابع والمتبوع، والمعنى في الحديث صالح على الرأيين؛ فإن كان المراد التابع فالمعنى: إن عليك مثل إثم التابع لك على ترك الدخول في الإسلام، وإن كان المراد المتبوع فكأنه قال: فإن عليك إثم المتبوعين، وإثم المتبوعين يضاعف باعتبار ما وقع لهم من عدم الإذعان إلى الحق».

والمقصود أن المعنى: فإن توليت فعليك إثم أتباعك وعليك إثم الرعية كلها؛ لأنك أنت السبب في ضلالهم، ثم ذكر الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

○ قوله: «**فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ ٱرْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ، وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا**»، أي: فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات؛ لأنه اعترف بنبوة النبي ﷺ.

وقول أبي سفيان: «فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ خَرَجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابن أَبِي كَبْشَةَ» أَمِرَ الأولى بفتح الهمزة وكسر الميم؛ أي: عظم وكثر، وأمر الثانية بفتح الهمزة وسكون الميم؛ أي: الشأن؛ أي: لقد عظم شأن ابن أبي كبشة، وأبو كبشة جد النبي ﷺ لأمه من الرضاع، نسبوه إليه لما أرادوا لمزه وعيبه، فعنوا بابن أبي كبشة النبي ﷺ؛ لغيظهم منه وشدة عداوتهم وكراهيتهم له، فنسبوه إلى جد غامض؛ فما قال: محمد بن عبد الله، ولا: محمد بن عبد المطلب، وكان أبو سفيان في ذلك الوقت قائد المشركين، وكان عدوًّا لدودًا للنبي ﷺ، لكن هداه الله وأسلم.

ولا يزال الأعداء هكذا على طريقة سلفهم، فتجد أهل البدع الذين يكرهون أهل السنة ينسبونهم كذلك إلى جد غامض؛ فتجد السبكي وغيره من الذين يعادون أهل السنة يسمون ابن القيم: ابن زفيل؛ لكراهيتهم له، فينسبونه إلى جدٍّ غامض اقتداء بالمشركين حينما نسبوا النبي ﷺ.

○ وقوله: «إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ» أي: ملك الروم.

قال أبوسفيان: «فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّىٰ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ»، أي: بعد هذه القصة تيقنت أن أمر النبي ﷺ سيظهر والإسلام كذلك، وفي لفظ: «**حتى أدخل الله علي الإسلام وأنا كاره**»[(١)] يعني: بعد فتح مكة.

وهذا الحديث عظيم **وفيه من الفوائد العامة ما يلي**:

أولًا: أن دلائل النبوة كثيرة وليست خاصة بالمعجزات كما يقوله الأشاعرة وغيرهم من أهل الكلام، فإنهم يقولون: الأدلة على نبوة الأنبياء خاصة بالمعجزات الحسية، وهذا باطل.

فهذا هرقل استدل على نبوة النبي ﷺ بعشرة أسئلة قال: «**كيف حسبه فيكم؟**» وقال: «**فهل كان من آبائه ملك؟**»، و«**هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟**» ... إلى آخر الأسئلة، ثم قال: «**إن يك كما تقول فيه حقًّا**

(١) أحمد (١/ ٢٦٢)، والبخاري (٢٩٤١).

فهو نبي» فاستدل بما سبق على صدقه ﷺ، والدليل على صدق الأنبياء ليس خاصًّا بالمعجزات الحسية كما يقوله أهل البدع من الأشاعرة.

وكذلك أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها استدلت في أول البعثة على صدق النبي ﷺ بقولها: «**والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق**»(١) والناس يعرفون الصادق من الكاذب بأمور كثيرة في أحوالهم وفي أمور دنياهم.

ثانيًا: فيه من الفوائد الحديثية أن الإنسان إذا تحمل حديثًا في حال كفره ثم رواه بعد الإسلام فإنه يقبل؛ فهذا أبو سفيان كان كافرًا في ذلك الوقت، وروى هذه القصة بعد إسلامه فدل على قبول رواية المسلم إذا روى في حال إسلامه ما تحمله حال كفره.

ثالثًا: فيه من الفوائد العامة أن هرقل رجل عاقل، لكنه شح بملكه وآثر الدنيا على الآخرة بعد أن عرف الحق فأراد أن يتبع النبي ﷺ لكن قومه ما أطاعوه، وحاصوا حيصة الحمر، ولكنه عظم كتاب النبي ﷺ وقرأه؛ فلذلك بقي ملكه وتماسك بعض الشيء، بخلاف كسرى فإنه لما جاءه كتاب النبي ﷺ مزقه؛ فدعا عليه النبي ﷺ أن يمزق الله ملكه(٢) فمُزِّقُوا كل ممزق.

ثم قال الزهري في آخر الحديث: «**فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمَعَهُمْ فِي دَارٍ لَهُ**» أي: دعا كبراءهم ورؤساءهم مثل الوزراء والأمراء، وفي لفظ آخر: «**أن هرقل أذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص وأمر بالأبواب فغلقت ثم اطلع عليهم**»(٣)، وهذه عادة الملوك الظلمة وأشباههم في كبريائهم، فلما اجتمعوا كلهم في أسفل أشرف عليهم من الدور الأعلى.

○ قوله: «**فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الفَلَاحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ الأَبَدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ؟!**» يعني: بأن تؤمنوا بهذا الرسول محمد ﷺ وتطيعوه

---

(١) أحمد (٦/ ٢٢٣)، والبخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).
(٢) أحمد (٣/ ٤٤١)، والبخاري (٢٩٣٩).
(٣) البخاري (٧).

وتتابعوه... إلى آخر الكلام، لكنهم ما أعجبهم هذا، «فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ» وحمر: جمع حمار، يعني الحمار الوحشي.

○ قوله: «فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِقَتْ»؛ لأنه احتاط لنفسه فلو كانت مفتوحة لخرجوا وانقلبوا عليه، وهو يريد أن يختبرهم فإن استجابوا آمن بالرسول ﷺ، وإن لم يستجيبوا شح بملكه، فلما أيس منهم قال: «عَلَيَّ بِهِمْ» أي: ردوهم مرة ثانية، «فَدَعَا بِهِمْ» فجلسوا في أماكنهم فأطل عليهم من أعلى، «فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا ٱخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ عَلَىٰ دِينِكُمْ» أي: إني قلت لكم هذا الكلام؛ لأنظر هل تحبون دينكم، وهل عندكم ثبات وصلابة على دينكم أم لا؟ فتبين لي الآن أن عندكم صلابة وأنكم لا تفرطون في دينكم فقال: «فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكُمُ الذِي أَحْبَبْتُ»، قال: «فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ».

وفي حديث آخر أنه لما بلغ النبي ﷺ خبر المقوقس قال: «**ضن الخبيث بملكه**»[1] أي: آثر ملكه على الآخرة.

رابعًا: فيه الرد على المرجئة الذين يقولون: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، والصواب الإيمان تصديق واتباع، وأن من لم يتبع لا يكون مؤمنًا ولو كان مصدقًا ولو كان عارفًا، فهرقل عارف لكن سبب كفره هو وقومه الاستكبار والإباء، ككفر إبليس وفرعون واليهود وأبي طالب.

فمذهب المرجئة الباطل أن الإيمان هو مجرد التصديق، ومذهب الجهمية أن الإيمان مجرد المعرفة بالقلب، ومذهب الكرامية أن الإيمان مجرد القول باللسان، وكلها أقوال باطلة وفاسدة، بل الإيمان: تصديق باللسان وإقرار بالقلب وعمل بالجوارح، فمن عمل ولم يؤمن صار عمله كعمل المنافقين الذين يعملون وليس عندهم إيمان يصحح أعمالهم، فالعمل لابد له من إيمان يصححه، والتصديق لابد له من عمل يتحقق به، وإلا صار كإيمان إبليس وفرعون واليهود وهرقل وسائر المشركين.

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ١١٦).

خامسًا: قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: في هذه القصة فوائد؛ منها: جواز مكاتبة الكفار، ودعاؤهم إلى الإسلام قبل القتال.

وفيه: تفصيل فمن بلغته الدعوة وجب إنذارهم قبل قتالهم وإلا استحب».

سادسًا: فيه قبول خبر الواحد.

وفيه: الرد على الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم من أهل البدع الذين يقولون: لا يقبل خبر الواحد ولا يعمل به. وهذا باطل، لكن بعض محدثي الأشاعرة كالنووي رَحِمَهُ اللَّهُ والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ لا يلتزمون بكل ما يقوله الأشاعرة.

سابعًا: قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنها وجوب العمل بالخط إذا قامت القرائن بصدقه»؛ لأن هرقل عمل بخط النبي ﷺ، وجاء في الحديث الآخر أنه ختمه، وأنه قيل له: إن أهل الكتاب لا يقرءون الكتاب إلا إذا كان مختومًا؛ فاتخذ خاتمًا نقشه: محمد رسول الله فكان يختم به[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**فَإِذَا فِيهِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» قال النووي: فيه استحباب تصدير الكتب ببسم الله الرحمن الرحيم وإن كان المبعوث إليه كافرًا، ويحمل قوله في حديث أبي هريرة: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع**»[(٢)] أي: بذكر الله كما جاء في رواية أخرى، فإنه روي على أوجه: «**بذكر الله**»[(٣)] و«**ببسم الله**»[(٤)] و«**بحمد الله**»[(٥)] قال: وهذا الكتاب كان ذا بال من المهمات العظام ولم يبدأ فيه بلفظ الحمد بل بالبسملة. انتهى».

ثامنًا: قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديث: من الفوائد غير ما تقدم البداءة باسم الكاتب قبل المكتوب إليه. وقد أخرج أحمد وأبو داود عن العلاء بن الحضرمي أنه كتب إلى النبي ﷺ - وكان عامله على البحرين - فبدأ بنفسه: من

---

(١) أحمد (٣/ ١٦٨)، والبخاري (٦٥)، ومسلم (٢٠٩٢).
(٢) أحمد (٢/ ٣٥٩)، وأبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤).
(٣) أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٩).
(٤) ذكره السيوطي في «تدريب الراوي» (١/ ٥٥)، وعزاه إلى الرهاوي في «الأربعين».
(٥) أبو داود (٤٨٤٠).

العلاء إلى محمد رسول الله[١]. وقال ميمون: كانت عادة ملوك العجم إذا كتبوا إلى ملوكهم بدءوا باسم ملوكهم فتبعتهم بنو أمية، قلت: وسيأتي في الأحكام أن ابن عمر كتب إلى معاوية فبدأ باسم معاوية وإلى عبد الملك كذلك وكذا جاء عن زيد بن ثابت إلى معاوية، وعند البزار بسند ضعيف عن حنظلة الكاتب أن النبي ﷺ وجه عليًّا وخالد بن الوليد؛ فكتب إليه خالد فبدأ بنفسه، وكتب إليه علي فبدأ برسول الله ﷺ؛ فلم يعب على واحد منهما[٢].

فدل هذا على أن الأمر واسع؛ فإذا بدأ بنفسه أو بدأ بالمكتوب إليه فلا حرج.

---

(١) أحمد (٤/ ٣٣٩)، وأبو داود (٥١٣٤).

(٢) الطبراني في «الكبير» (٤/ ١٢).

بَابٌ قوله:
﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]

{٤٥٥٤} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ نَخْلًا، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءٍ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءٍ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَايِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَايِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ». قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، وَرَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ: «ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ». حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ بْنُ يَحْيَىٰ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَىٰ مَالِكٍ: «مَالٌ رَايِحٌ».

{٤٥٥٥} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ ثُمَامَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ فَجَعَلَهَا لِحَسَّانَ وَأُبَيٍّ، وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِي مِنْهَا شَيْئًا.

الشَّرْح

بوب بهذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ٩٢]. فبين الله سبحانه وتعالى أن الإنسان لا ينال البر حتى ينفق من الشيء الذي يحبه وتتعلق به نفسه.

{٤٥٥٤}، {٤٥٥٥} ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي طلحة في صدقته بالبستان، واسم أبي طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة، بفتح الميم وتخفيف النون.

۞ ومن فوائد الحديث:

أولًا: فيه فضل الصحابة رضوان الله عليهم، وأنهم أسرع الناس إلى الامتثال، فأبو طلحة لما قرأ هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ طبقها على نفسه.

قال أنس: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ نَخْلًا، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءٍ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ» وقال أبو طلحة: «وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءٍ» فهي حديقة قريبة من مسجد النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ كثيرًا ما يدخل فيها، ويتوضأ ويشرب من ماء فيها طيب.

○ وقوله: «وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَايِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَايِحٌ» ففي ثلاثة مواضع أنه قال: «ذَلِكَ مَالٌ رَايِحٌ» ومنها قوله: «قَرَأْتُ عَلَىٰ مَالِكٍ: مَالٌ رَايِحٌ» ففي المواضع الثلاثة بالياء التحتانية، والمعنى أنه رائح ثوابه على صاحبه، أو المعنى أن المال ذاهب وضائع إن لم يستفد منه صاحبه في إنفاقه في وجوه الخير.

○ قوله: «قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، وَرَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ: ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ» بالباء الموحدة من الربح أي: رابح صاحبه.

ثانيًا: فيه فضل النفقة والصدقة على الأقارب وأنهم أولى ببره من الأباعد؛ لقوله ﷺ: «وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ».

وبعده في نسخة أخرى للبخاري: «**حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثني أبي، عن ثمامة، عن أنس قال: فجعلها لحسان وأبي بن كعب، وأنا أقرب إليه منهما، ولم يجعل لي منها شيئًا**»[(١)].

○ قوله: «فَجَعَلَهَا لِحَسَّانَ وَأُبَيٍّ»؛ لأنهم أقاربه فهم بنو عمه، فإذا كان

---

(١) البخاري (٤٥٥٥).

أقارب المرء محتاجين كانوا مقدمين على الأباعد، وإذا كانوا غير محتاجين فصلة الأقارب مطلوبة، فيهديهم، ويتصدق على الأباعد.

قال أنس: «**وأنا أقرب إليه منهما، ولم يجعل لي منها شيئاً**»، أي: يقول: ما أعطاني شيئًا وأنا أقرب إلى أبي طلحة.

تقدم هذا الحديث في «**الوصايا**» وأن أنسًا قال: «**فجعلها لحسان وأبي بن كعب وكانا أقرب إليه مني**»[(١)]، وهو مخالف لما في الزيادة التي في بعض النسخ لهذا الحديث، ففي هذه الزيادة: «**وأنا أقرب إليه منهما، ولم يجعل لي منها شيئًا**».

والجمع بينهما: أنه لم يعط أنسًا؛ لأنه ربيبه، فأبو طلحة هذا زوج أم أنس، وليس من أقاربه نسبًا وليس من العصبة، وقد تكون هناك قرابة من جهة النسب فهذا ليس ببعيد، أو لأنه مستغن بالنفقة عليه.

وممن سارع للعمل بهذه الآية عبد الله بن عمر ﵄؛ فقد روى البزار من طريقه أن ابن عمر ﵄ لما قرأ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢] قال: فلم أجد شيئًا أحب إلي من مرجانة - وهذا اسم جارية رومية - فقلت: هي حرة لوجه الله، فأعتقها ولم يتزوجها أيضًا؛ خشية أن يرجع في شيء تركه لله. قال: فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لتزوجتها؛ **لأن النبي ﷺ أعتق صفية وجعل عتقها صداقها وتزوجها**[(٢)].

---

(١) البخاري في الوصايا، باب: إذا وقف أو أوصى لأقاربه.
(٢) أحمد (٣/ ٩٩)، والبخاري (٥٠٨٦)، ومسلم (١٣٦٥).

بَابٌ قوله:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]

{٤٥٥٦} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا أَبُو ضَمْرَةَ، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ: «كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَىٰ مِنْكُمْ؟». قَالُوا: نُحَمِّمُهُمَا وَنَضْرِبُهُمَا. فَقَالَ: «لَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ؟». فَقَالُوا: لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا. فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] فَوَضَعَ مِدْرَاسُهَا الَّذِي يُدَرِّسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَىٰ آيَةِ الرَّجْمِ، فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا، وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَنَزَعَ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ فَقَالَ: مَا هٰذِهِ؟ فَلَمَّا رَأَوْا ذٰلِكَ قَالُوا: هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا، فَرُجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الْجَنَائِزِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ، فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَجْنَأُ عَلَيْهَا يَقِيهَا الْحِجَارَةَ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ٩٣]. وهذه الآية خطاب لليهود أهل الكتاب، وتمام الآية: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ٩٣].

{٤٥٥٦} ذكر المؤلف رحمه الله حديث عبد الله بن عمر: «أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ قَدْ زَنَيَا»، جاءوا يسألونه عن الحكم، وجاء في الحديث الآخر أنهم قالوا: «**نأتي بهما إلى هذا النبي فإن ترك الرجم ولم يرجمهما صار حجة لنا عند الله قلنا: هذا حكم نبي**»[(١)].

(١) أبو داود (٤٤٥٠).

○ وقوله: «فَقَالَ لَهُمْ»، أي: النبي ﷺ «كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَىٰ مِنْكُمْ؟» كأنهم قالوا: يا رسول الله، ماذا نعمل بهما؟ فهذا رجل وامرأة زنيا فاحكم عليهما، فقال لهم النبي ﷺ ذلك.

○ وقوله: «قَالُوا: نُحَمِّمُهُمَا وَنَضْرِبُهُمَا» قيل: نحممهما أي: نسكب عليهما الماء الحميم؛ أي الحار، وقيل: نجعل في وجوههما الحممة، ويؤيد المعنى الثاني ما جاء في الحديث أنهم قالوا: «**نسودهما**»[(١)] يعني: نطمس وجوههما بالسواد، وننكسهما فنركبهما على حمار فنجعل وجوههما من خلف من جهة ظهر الدابة، ويمشى بهما في الأسواق؛ خزيًا لهما، ويكفي هذا للشريف والوضيع، فقد جاء في اللفظ الآخر أنهم قالوا: إنه كثر الزنا في أشرافنا وكانوا في الأول إذا زنى الشريف تركوه وإذا زنى الضعيف أقاموا عليه الحد؛ فلما كثر الزنا في الأشراف قالوا: نريد أن نجعل عقوبة ننفذها على الضعيف والشريف فتركوا حكم الله وهو الرجم[(٢)].

○ وقوله: «فَقَالَ: «لَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ؟». فَقَالُوا: لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا»، أي: قال النبي ﷺ يسألهم: ما تجدون في التوراة؟ هل تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها الرجم.

○ وقوله: «فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾» في اللفظ الآخر: «**فأتوا بالتوراة فنشروها**»[(٣)].

○ وقوله: «فَوَضَعَ مِدْرَاسُهَا»، وفي لفظ: «**مدارسها**»[(٤)] والمدراس هو الذي يدرسهم التوراة؛ أي عالمهم.

○ وقوله: «الَّذِي يُدَرِّسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَىٰ آيَةِ الرَّجْمِ، فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا، وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ»، وفي اللفظ الآخر: «**أنه وضع يده على آية**

---

(١) مسلم (١٦٩٩).
(٢) أحمد (٤/٢٨٦)، ومسلم (١٧٠٠).
(٣) البخاري (٣٦٣٥).
(٤) «سنن الدارمي» (٢/٢٣٣).

الرجم وقرأ ما قبلها وقرأ ما بعدها ووضع كفه على آية الرجم فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك»[١]. قال: «**فَنَزَعَ يَدَهُ عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ**»، زاد كما في الحديث الآخر: «**فإذا آية الرجم تلوح**»[٢].

○ وقوله: «**فَقَالَ: مَا هٰذِهِ؟ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا: هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ. فَأَمَرَ بِهِمَا، فَرُجِمَا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الجَنَائِزِ عِنْدَ المَسْجِدِ**» وموضع الجنائز موضع قرب المسجد يصلى فيه على الجنائز في الغالب، وقد يصلى على الجنائز في المسجد كما في حديث عائشة: «**ما صلي على ابن بيضاء إلا في المسجد**»[٣].

وفي اللفظ الآخر أن النبي ﷺ قال: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه**»[٤].

○ وقوله: «**فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَجْنَأُ عَلَيْهَا يَقِيهَا الحِجَارَةَ**»، وفي رواية: «**يجنأ**»[٥] ويجنأ أي: يحني عليها؛ فلا يترك الحجارة تضربها؛ من محبته لها. حتى في وقت الموت، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) البخاري (٣٦٣٥).
(٢) أحمد (٢/ ٥)، والبخاري (٧٥٤٣).
(٣) أحمد (٦/ ٧٩)، ومسلم (٩٧٣).
(٤) أحمد (٤/ ٢٨٦)، ومسلم (١٧٠٠).
(٥) أحمد (٢/ ٥)، والبخاري (٣٦٣٥).

بَابُ قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

{٤٥٥٧} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَيْسَرَةَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ.

الشَّرح

{٤٥٥٧} هذا الحديث على قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

○ قوله: «قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ» هذه الأمة خير الناس للناس يجاهدون في سبيل الله ويقاتلون الكفار ويقاتلهم الكفار، فإذا انتصروا عليهم أسروهم، وأتوا بهم في السلاسل ثم يمن الله عليهم بالإسلام، فيسلمون فيدخلون الجنة.

وقد قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وجاء في سبب هذا الحديث ما أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق عكرمة قال: كان من قبلكم لا يأمن هذا في بلاد هذا ولا هذا في بلاد هذا فلما كنتم أنتم أمن فيكم الأحمر والأسود»، وذكر الحافظ أن هذا يقتضي حمله على عموم الأمة، ونقله عن الفراء.

ثم قال الحافظ ﵀: «وقال غيره: المراد بقوله: ﴿كُنتُمْ﴾ في اللوح المحفوظ، أو في علم الله» ثم ذكر الحافظ حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «**أنتم متمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(١).

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وهو حديث حسن صحيح».

(١) أحمد (٣/ ٦١)، والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨).

بَابُ قوله:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]

{٤٥٥٨} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: قَالَ عَمْرٌو: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يَقُولُ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ: بَنُو حَارِثَةَ، وَبَنُو سَلِمَةَ، وَمَا نُحِبُّ -وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسُرُّنِي- أَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ لِقَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]

الشَّرح

{٤٥٥٨} هذا الحديث متعلق بقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾.

○ قوله: «قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ: بَنُو حَارِثَةَ، وَبَنُو سَلِمَةَ، وَمَا نُحِبُّ -وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسُرُّنِي- أَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ» أي: وإن كان في قوله: ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ غضاضة عليهم إلا أنه قال: ما أحب أنها لم تنزل؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] وهذه منقبة لهما؛ أي: يكفينا أن الله ولينا.

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٨]

{٤٥٥٩} حَدَّثَنَا حِبَّانُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي سَالِمٌ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا». بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ». فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاشِدٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ.

{٤٥٦٠} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، حَدَّثَنَا ابن شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَىٰ أَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ؛ قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرُبَّمَا قَالَ إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ: اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ ٱشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ». يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا». لِأَحْيَاءٍ مِنَ العَرَبِ، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الآيَةَ.

الشَّرح

هذه الترجمة: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وتمام الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عِمـــــرَان: ١٢٨] وفيه: دليل على أن الرسول ﷺ ليس له شيء من الأمر، وإنما الأمر كله لله، فالنبي ﷺ بشر، وهو وإن كان أفضل الناس وأشرف الناس إلا أنه ليس له شيء من التدبير، بل التدبير لله، ولا يستحق شيئًا من العبادة، فالعبادة حق الله ﷻ،

والنبي عليه الصلاة والسلام نبي كريم يطاع ويتبع وتصدق أخباره، ويتعبد لله بشريعته، لكنه لا يعبد وليس له من تصريف الأمور ولا من تدبير هذا الكون شيء.

{٤٥٥٩} ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الفَجْرِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا»، بعدما يقول: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ». فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]».

○ قوله: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» جاء في الحديث الآخر تسميتهم، قال: «**اللهم العن صفوان بن أمية، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن الحارث بن هشام**»(١).

وكلهم تاب الله عليهم، وأسلموا، فكان يدعو عليهم في الركعة الأخيرة من الفجر، ويؤمن عليه أصحابه وهم خير الناس بعد الرسل؛ فدل ذلك على أن الأمر لله وأن القلوب بيد الله.

وفيه: مشروعية القنوت في النوازل.

وفيه: جواز تسمية من يدعى له أو يدعى عليه في القنوت.

وفيه: أن القنوت يكون بعد الركوع في الركعة الأخيرة من صلاة الفجر.

وجاء في الحديث الآخر أيضًا أنه ﷺ قنت حين قتل القراء شهرًا(٢)، والقنوت يكون في جميع الصلوات إذا اشتد الأمر.

❖ ❖ ❖

{٤٥٦٠} في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَىٰ أَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ لأَحَدٍ؛ قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ» فهذا هو الغالب أن يكون بعد الركوع.

---

(١) أحمد (٢/ ٩٣).
(٢) أحمد (٣/ ١٠٩)، والبخاري (١٣٠٠)، ومسلم (٦٧٧).

○ وقوله: «فَرُبَّمَا قَالَ إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ»، يعني: بعدما يقول الذكر: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ ٱشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ»، يعني: على قبيلة مضر؛ لكفرهم وعنادهم وإيذائهم للنبي ﷺ ولأصحابه.

○ وقوله: «وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ» دعا عليهم وكان يجهر بذلك، والناس يؤمِّنون، وكان يقول ذلك في صلاة الفجر، وسني يوسف يعني سني قحط وجدب؛ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٨] فالسنين الأولى خصب، والثانية جدب؛ ولهذا دعا عليهم النبي ﷺ أن تصيبهم سنين جدب كسني يوسف فأصابت قريش سنة حصدت كل شيء حتى أكلوا العظام والجلود.

○ وقوله: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا. لِأَحْيَاءٍ مِنَ العَرَبِ»، وهم الذين قتلوا القراء؛ فدل على مشروعية القنوت في النوازل، ولا يستمر بل يدعو وقتًا ثم يمسك؛ لأن النبي ﷺ دعا على رعل وذكوان وعصية أربعين صباحًا ثم ترك[(١)]؛ وذهب بعض العلماء كالشافعي[(٢)] إلى أن الإمام يقنت في الفجر دائمًا باستمرار؛ واستدلوا بحديث أنس: «**ما زال النبي ﷺ يقنت في الفجر حتى فارق الدنيا**»[(٣)].

وهذا خلاف الصواب؛ فقوله: «ما زال النبي ﷺ يقنت» المراد بالقنوت طول القيام، فالصواب أن القنوت لا يستمر، لكن إذا صلى خلف من يقنت يؤمن عليه كما فعل الإمام أحمد[(٤)] وغيره ولا يخالف؛ لأن الخلاف شر.

(١) البخاري (٢٨٠١).
(٢) انظر: «تحفة المحتاج» (٢/ ٦٤).
(٣) أحمد (٣/ ١٦٢).
(٤) انظر: «شرح المنتهى» (١/ ٢٤٢).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٣]

وَهْوَ تَأْنِيثُ آخِرِكُمْ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التوبة: ٥٢] فَتْحًا أَوْ شَهَادَةً.

{٤٥٦١} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ ﵄ قَالَ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ، وَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا.

الشَّرْح

هذه الآية في غزوة أحد وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عِمرَان: ١٥٣] فقوله: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾، يعني: في الجبل، وهذا في وقت الفرار ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾. قال المؤلف: ﴿أُخۡرَىٰكُمۡ﴾: «تَأْنِيثُ آخِرِكُمْ»، يعني: أن المذكر: آخَر، والأنثى أخرى؛ أما الآخِر فيقابل الأول؛ يقال: الأول والآخر.

قال: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾» يعني: قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التوبَة: ٥٢] وهذه الآية في سورة براءة وليست في سورة آل عمران.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «لعله أورده هنا للإشارة إلى أن إحدى الحسنيين وقعت في أحد».

ونقل المؤلف ﵀ تفسيرها عن ابن عباس ﵄ قال: «﴿إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾: فَتْحًا أَوْ شَهَادَةً»، يعني: إما الفتح وإما الشهادة، فالله تعالى يخاطبهم بقوله:

﴿قُلْ﴾ أي: للكفار ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، يعني: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحسنيين؛ إما الشهادة وإما النصر والفتح؟ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]، فأنتم تنتظرون لنا شيئين، ونحن ننتظر شيئين: أنتم تنتظرون لنا إما الشهادة أو النصر والفتح، ونحن ننتظر أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو يعذبكم بأيدينا.

{٤٥٦١} ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفيه: قوله: «جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ»، فكانوا خمسين رجلًا على الجبل الصغير وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم كما في الحديث الآخر: «**لا تبرحوا مكانكم ولو تخطفنا الطير**»[1].

فلما كان النصر للمؤمنين في أول الأمر قال الرماة: نريد أن نشارك المسلمين في جمع الغنائم، فنصحهم عبد الله بن جبير وذكرهم بعهد النبي ﷺ لهم، لكنهم أخلوا المكان، فجاءتهم خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد - ولم يكن أسلم في ذلك الوقت - فبغتوهم وحصلت النكسة والهزيمة بعد ذلك، قال: «وَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا».

(١) أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٣٠٣٩).

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤]

{٤٥٦٢} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو يَعْقُوبَ، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسٌ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ.

الشَّرح

{٤٥٦٢} قوله: «غَشِيَنَا النُّعَاسُ» يدل على أمنة وثبات قلوب المؤمنين فهم مطمئنون يقولون: إن قتلنا فنحن شهداء، وإن بقينا فنحن على خير؛ فإما النصر وإما الشهادة، بخلاف المنافقين فالنعاس لا يأتيهم؛ بسبب الرعب والخوف والهلع، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].

وأما في سورة آل عمران فقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم المؤمنون، ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، وهم المنافقون، لا يأتيهم نعاس، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]. فالمنافق ليس عنده إيمان فمنتهاه هذه الحياة الدنيا؛ فلهذا لا يصيبه النعاس، نسأل الله العافية.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٢]

﴿ٱلْقَرْحُ﴾ الجِرَاحُ. ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ أَجَابُوا. يَسْتَجِيبُ يُجِيبُ.

الشَّرْح

هذا الباب على قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٢].

○ قوله: «﴿ٱلْقَرْحُ﴾: الجِرَاحُ» يقال: القُرح والقَرح بالضم وبالفتح، فمنهم من رجح الفتح، ومنهم من رجح الضم ويقال: إنهما لغتان كالضَّعف والضُّعف.

○ وقوله: «﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾: أَجَابُوا»، وهذا بعد غزوة أحد، وذلك أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قالوا: لو رجعنا عليهم، وقضينا على البقية الباقية، فحث النبي ﷺ الناس على الخروج في طلب قريش، وندب الناس فانتدبوا فخرج ومن معه إلى حمراء الأسد(١)، فأثنى الله تعالى عليهم وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي: لما ندبهم النبي ﷺ استجابوا من بعد الجراح والهزيمة يوم أحد فأثابهم الله تعالى فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾، وهذا يدل على قوة إيمانهم وثباتهم واستجابتهم لله ولرسوله ﷺ.

ولم يذكر المؤلف حديثًا على هذه الترجمة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «كأنه بيض له، واللائق به حديث عائشة أنها قالت لعروة في هذه الآية: يا ابن أختي كان أبواك منهم؛ الزبير وأبو بكر»، واللائق به كذلك حديث ابن عيينة يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وروى ابن عيينة

---

(١) النسائي في الكبرى (٦/ ٣١٧).

عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما رجع المشركون من أحد قالوا: لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب ردفتم بئسما صنعتم فرجعوا، فندب رسول الله ﷺ الناس فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد فبلغ المشركين فقالوا: نرجع من قابل فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية. أخرجه النسائي وابن مردويه[1] ورجاله رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس».

(١) النسائي في «الكبرى» (٦/ ٣١٧)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٤٧).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

{٤٥٦٣} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ- أُرَاهُ قَالَ- حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

{٤٥٦٤} حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

الشَّرْح

{٤٥٦٣}، {٤٥٦٤} هذان الحديثان على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣] وسبب نزولها أن أبا سفيان قائد الكفار لما التقى بالمشركين بعد غزوة أحد قالوا له: إن محمدًا ومن معه حصل لهم جراحات ونكبة فلو رجعنا عليهم وقضينا على البقية الباقية منهم، فلما بلغ النبي ﷺ مقالتهم قال هذا الكلام العظيم قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»[1] أي: يكفينا الله، وهو نعم الوكيل، وتوكلوا على الله واعتمدوا عليه؛ فكفاهم الله شرهم.

وهذا الحديث فيه فوائد:

أولًا: فيه فضل هذه الكلمة: حسبنا الله ونعم الوكيل، وأنها من أقوى ما يعين على العدو.

(١) البخاري (٤٥٦٣).

ثانيًا: فيه التوكل على الله وتفويض الأمر إليه.

ثالثًا: فيه أن الحسب خاص بالله تعالى، فلا يقال: حسبي الله وفلان، وتوكلت على الله وفلان، فهذا شرك، فلا ينبغي هذا إلا لله.

رابعًا: من فضل هذه الكلمة أنها مقالة الخليلين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فقد قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقي في النار فقال: «حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ» فجاءه الفرج، ويقال: إن جبريل عرض لإبراهيم وهو يطير في الهواء عندما ألقوه ليسقط في النار فقال: هل لك حاجة يا إبراهيم، فقال إبراهيم: «أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى» فجاء الفرج وأسرع قال الله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩] فلما وصل إلى النار صارت النار بردًا وسلامًا، وصار الجو معتدلًا، فلو لم يقل الله: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ لأحرقته النار في الحال، ولو قال الله: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ لمات من شدة البرد، فهذه الكفاية كانت أسرع من كل شيء حتى من مساعدة جبرائيل، وهو ملك كريم أعطاه الله القوة، وقوله: إنه عرض له وقال له تحتاج إلى ثبوت، فإن فيها نظرًا، وقد ذكرها الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستفاد منها[(١)] بقطع النظر عن صحتها للعبرة.

○ وقوله: «وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا» حين قالوا له بعد غزوة أحد: «﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾» أي: يريدون أن يستأصلوا البقية الباقية منكم، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ فكفاهم الله شر الأعداء، وقذف في قلوبهم الرعب.

خامسًا: أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] هذا عام لكن مراده به الخصوص أي: خصوص كفار قريش؛ فإن أبا سفيان لقي ركبًا قدم من المدينة قال: هل أنت مبلغ محمدًا عني مقالة؟ قال: نعم، قال: بلغه أنا أعددنا جمعًا كبيرًا لنستأصل بقيتهم.

---

(١) «كشف الشبهات» (ص٤٩).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق مطولًا في هذه القصة، وأن أبا سفيان رجع بقريش بعد أن توجه من أحد فلقيه معبد الخزاعي، فأخبره أنه رأى النبي ﷺ في جمع كثير، وقد اجتمع معه من كان تخلف عن أحد، وندموا فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه فرجعوا، وأرسل أبو سفيان ناسًا، فأخبروا النبي ﷺ أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم فقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»[1].

وهناك آثار أخرى ذكرها الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) البخاري (٤٥٦٣).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ الآيَةَ [آل عمران: ١٨٠]

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٠] كَقَوْلِكَ: طَوَّقْتُهُ بِطَوْقٍ.

{٤٥٦٥} حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُنِيرٍ، سَمِعَ أَبَا النَّضْرِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ - هُوَ ابن عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ- عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٨٠] إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

الشَّرح

هذا الباب على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨٠] وفيها الوعيد الشديد على الذين يبخلون بالواجب في المال وهو الزكاة، وقد يكون في المال حق آخر سوى الزكاة، كأن يكون هناك جائع يجب إنقاذه، فلو أدى الإنسان الزكاة فلا يجوز أن يترك الجائع يموت، وكذلك أيضًا إذا كان عنده إبل أو غنم ووردت على الماء، فيجب عليه أن يحلبها يوم وردها ويعطي الفقراء.

وقال المؤلف مفسرًا: «﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ كَقَوْلِكَ: طَوَّقْتُهُ بِطَوْقٍ»، يعني: يجعل هذا المال الذي بخل به طوقًا في عنقه يعذب به.

{٤٥٦٥} فسر آية الترجمة حديث أبي هريرة «قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ

«**الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ**»؛ وفي بعض النسخ: «**مثل له ماله شجاعا**»[(١)]، والشجاع: هو الذكر من الحيات، والأقرع: الذي سقط شعر رأسه من كثرة السم، والعياذ بالله، فإذا لم يؤد الزكاة يمثل هذا المال ذكرًا من الحيات أقرع ممتلئًا سمًّا ويصير طوقًا على عنقه، ثم تأخذ هذه الحية بلهزمتيه، يعني: بشدقيه فتعذبه.

○ قوله: «**يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ**» والعياذ بالله «**ثُمَّ تَلَا هٰذِه الآيَةَ: ﴿«لا تحسبن» ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾**» وهي قراءة حمزة من السبعة[(٢)] وفي النسخة الأخرى وهي القراءة المشهورة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٠] وهذا في موقف القيامة قبل دخول النار.

وله - كذلك - عذاب آخر - كما في الحديث الآخر - وذلك أنه إذا كان ذهبًا وفضة، «**يصفح له صفائح من نار ويحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت عليه**» - وكذلك الأوراق النقدية فهي قائمة مقام الذهب والفضة - «**وإن كان إبلًا أو بقرًا أو غنمًا بطح لها بقاع قرقر تطؤه بأظلافها وخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أخراها رد عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**»[(٣)]، فيعذب بنوعين من العذاب والعياذ بالله.

في الحديث: وجوب الحذر من اكتناز المال، وأنه يجب على الإنسان أن يؤدي زكاة ماله طهرة للمال وليسلم بها من شرور هذا المال.

وفيه: أنه ينبغي أداء الزكاة عن طيب نفس.

قول آخر في سبب نزول الآية: وهو أنه قد قيل في الآية السابقة: إنها نزلت في اليهود الذين استكبروا أن يخبروا بصفة النبي ﷺ فبخلوا وكتموا، ومعنى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بإثمه، لكن القول الأول هو المعتمد.

---

(١) أحمد (٢/ ٩٨)، والبخاري (١٤٠٣).
(٢) انظر: الهادي شرح طيبة النشر (٢/ ١٢٧).
(٣) أحمد (٢/ ٢٦٢)، ومسلم (٩٨٧).

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٦]

{٤٥٦٦} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَكِبَ عَلَىٰ حِمَارٍ عَلَىٰ قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، قَالَ: حَتَّىٰ مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَإِذَا فِي المَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا. فَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابن سَلُولَ: أَيُّهَا المَرْءُ، إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّىٰ كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّىٰ سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟ -يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ ابْنَ أُبَيٍّ- قَالَ: كَذَا وَكَذَا». قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ٱعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ، لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْحَقِّ الذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، لَقَدِ ٱصْطَلَحَ أَهْلُ هٰذِهِ البُحَيْرَةِ عَلَىٰ أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُونَهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَىٰ اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الذِي أَعْطَاكَ اللهُ؛ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ. فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ المُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذىٰ، قَالَ اللهُ عز وجل:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾ [آل عمران: ١٨٦] الآيَةَ، وَقَالَ اللهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، حَتَّىٰ أَذِنَ اللهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هٰذا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ. فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا.

الشَّرْح

○ قوله: «باب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ﴾» فيه: أن المشركين واليهود يؤذون المؤمنين بالكلام السيئ، والله تعالى يأمرهم بالصبر فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عِمرَان: ١٨٦].

ثم بعد ذلك شرع الله جهاد المشركين، ووادع النبي ﷺ اليهود وصالحهم، ومن أظهر شيئًا من كفره فإنه يعامل بما ظهر منه.

{٤٥٦٦} ذكر المؤلف رحمه الله حديث أسامة بن زيد في قصة مجيء النبي ﷺ لزيارة سعد بن عبادة عندما كان مريضًا.

○ قوله: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَكِبَ عَلَىٰ حِمَارٍ عَلَىٰ قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ» والقطيفة الفدكية كساء غليظ منسوب إلى فدك، وهي بلدة مشهورة على مرحلتين من المدينة.

○ وقوله: «وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ» أي: هذه الواقعة كانت قبل وقعة بدر.

○ وقوله: «حَتَّىٰ مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابن سَلُولَ» وهو رئيس المنافقين، «وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ»، يعني: قبل أن يظهر الإسلام، وقد مات على نفاقه وكفره والعياذ بالله.

○ وقوله: «فَإِذَا فِي المَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ» فعبدة الأوثان بدل من المشركين.

○ وقوله: «وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ» أي: معهم «فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ» يعني: غطى أنفه بردائه، وقوله: «ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا. فَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمْ» أي: إن النبي ﷺ وقف وسلم عليهم مع أن المجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود وعبدة الأوثان.

○ وقوله: «ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ» أي: إن النبي ﷺ انتهز الفرصة، فنزل فدعاهم إلى الله ﷻ، وقرأ عليهم القرآن.

○ وقوله: «فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابن سَلُولَ: أيه المرء» وفي نسخة أخرى: «أَيُّهَا المَرْءُ»[(١)] وهو يخاطب النبي ﷺ.

○ وقوله: «إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِينَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا» فالأصل أن يقول: فلا تؤذنا به؛ لأن «لا» إذا كانت ناهية فإن المضارع يجزم بحذف حرف العلة، ولكنها قد لا تحذف وهذا قليل، وإن كانت نافية فلا إشكال في ذلك؛ لأنه قال: فلا تؤذينا به. والمقصود أن صاحب النفاق لا يستريح حتى يظهر شره.

○ وقوله: «ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّىٰ كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ» أي: حتى كادوا يتقاتلون.

○ وقوله: «فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّىٰ سَكَنُوا» بالنون أي: جعل النبي ﷺ يهدئهم؛ لئلا يحصل شر حتى سكنوا، وروي: «**حتى سكتوا**»[(٢)] بالتاء.

○ وقوله: «ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ» وهو رئيس الخزرج وسيدهم.

---

(١) أحمد (٥/ ٢٠٣)، والبخاري (٥٦٦٣)، ومسلم (١٧٩٨).
(٢) البخاري (٥٦٦٣).

○ وقوله: «فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟ -يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ ابْنَ أُبَيٍّ- قَالَ: كَذَا وَكَذَا» فأبو حباب كنية عبد الله بن أبي، وهذا من حسن خلق النبي ﷺ فإنه كناه فقال: أبو حباب، وهذه الكنية أحب إليه من اسمه لو سمعه، وهذا من تأليفه عليه الصلاة والسلام، فإن ابن أُبَيٍّ كان رئيسًا معظمًا في الخزرج.

○ وقوله: «قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اُعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ، لَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْحَقِّ الذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، لَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هٰذِهِ البحرة» وفي رواية: «البُحَيْرَةِ»[1] والمراد: البلدة، وهي المدينة النبوية، وقال بعضهم: البحيرة من أسماء المدينة.

○ وقوله: «عَلَىٰ أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُونَهُ بِالْعِصَابَةِ» أي: أن يجعلوه رئيسًا، والرئيس يجعل على رأسه عصابة أي: علامة أو شعار على أنه رئيس، لكنه فاته ذلك بهجرة النبي ﷺ.

○ وقوله: «فَلَمَّا أَبَىٰ اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الذِي أَعْطَاكَ اللهُ؛ شَرِقَ بِذَلِكَ» أي: غص بالإسلام ولم يقبله؛ لأنه فاتته الرئاسة.

○ وقوله: «فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ ما رَأَيْتَ. فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذىٰ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ الآيَةَ»، ومن الأذى الذي سمعه النبي ﷺ قول ابن سلول: «أَيُّهَا المَرْءُ، إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِينَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، ارْجِعْ إِلَىٰ رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ»، قال: «وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾». والشاهد من هذه الآية قوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٠٩] ففيها الأمر بالعفو والصفح.

(١) أحمد (٥/٢٠٣)، والبخاري (٤٥٦٦).

○ وقوله: «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، حَتَّىٰ أَذِنَ اللهُ فِيهِمْ»، يعني: حتى شرع الله الجهاد وأمر بالقتال.

○ وقوله: «فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ»، يعني: رؤساءهم وكبراءهم، والمقصود أنه بعد بدر قوي المسلمون؛ ولهذا سميت غزوة بدر: يوم الفرقان، فقد فرق الله به بين الحق والباطل، فقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون، وخاف اليهود والمنافقون.

○ وقوله: «قَالَ ابن أُبَيٍّ ابن سَلُولَ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ»، يعني: ممن لم يسلم من الأوس والخزرج؛ لأنهم لم يسلموا كلهم، «هٰذا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ» يعني: بالأمر: الإسلام، «فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا» وفي نسخة: «**فبايعوا رسول الله ﷺ**»[1] بلفظ الماضي، ويحتمل: فبايعوا أنتم، بلفظ الأمر.

○ وقوله: «فَأَسْلَمُوا»، أي: أسلموا في الظاهر نفاقًا، وأخفوا الكفر خوفًا على أنفسهم من القتل وعلى أموالهم من السبي، وكان هذا بعد غزوة بدر، أما قبل غزوة بدر فكانوا يظهرون شركهم.

۞ **وفي هذا الحديث فوائد كثيرة:**

أولاً: فيه مشروعية زيارة المريض.

ثانياً: فيه جواز ركوب الدابة وركوب السيارة لزيارة المريض.

ثالثاً: فيه مشروعية زيارة الرئيس أو الأمير أو العالم وأن يكون معه أصحابه.

رابعاً: فيه تواضع النبي ﷺ وركوبه على الدابة، أو على الحمار؛ على خلاف عادة أهل الكبر والأنفة الذين يأنفون من ركوب الحمار.

خامساً: فيه حسن خلقه ﷺ وتواضعه حيث أردف أسامة بن زيد، فإن الكبراء والأشراف يأنفون أن يكون معهم غيرهم.

---

(١) البخاري (٤٥٦٦).

سادساً: فيه جواز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق.

سابعاً: فيه مشروعية السلام على الأخلاط من المسلمين والكفار، فيسلم عليهم وينوي بالسلام المسلمين.

ثامناً: فيه أنه ينبغي للداعية أن ينتهز الفرصة وأن يستغل الأوقات المناسبة للدعوة إلى الله.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ [آل عمران: ١٨٨]

{٤٥٦٧} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ: أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ٱعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٨] الآيَةَ.

{٤٥٦٨} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ: ٱذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابن عَبَّاسٍ، فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ ٱمْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ، إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ ٱسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ ابن عَبَّاسٍ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] كَذَلِكَ حَتَّىٰ قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٧٧٨]. تَابَعَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ.

حَدَّثَنَا ابن مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا الحَجَّاجُ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ مَرْوَانَ بِهٰذَا.

الشَّرْح

بوب المؤلف ﷺ على قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ وهذه الآية فيها الوعيد الشديد على الذي يفرح بما أتى ويعجب بعمله ويحب أن يحمد بشيء

لم يفعله، فقد قال الله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فتوعدهم بالعذاب الأليم.

وذكر المؤلف في سبب نزولها سببين:

السبب الأول: أنها نزلت في المنافقين.

السبب الثاني: أنها نزلت في اليهود.

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فعمومها يتناول كل من أتى بحسنة ففرح بها فرح إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه، ويدخل سبب النزول دخولًا أوليًّا.

{٤٥٦٧} ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الترجمة حديثين:

الحديث الأول في هذه الترجمة هو حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في سبب نزول آية الترجمة وأنها نزلت في رجال من المنافقين.

○ قوله: «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ٱعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا» فالمنافقون يتخلفون عن النبي ﷺ فإذا قدم اعتذروا إليه، فإما أن يعتذر بالمرض أو يعتذر بأنه ليس عنده ما يجاهد به، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت هذه الآية.

❖ ❖ ❖

{٤٥٦٨} الحديث الثاني حديث ابن عباس في قصة مروان بن الحكم وكان أمير المدينة.

○ قوله: «أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ» يعني: بواب مروان، وكان بواب مروان بن الحكم اسمه رافع.

○ وقوله: «ٱذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابنِ عَبَّاسٍ»، أي: فاسأله عن هذه الآية ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

○ وقوله: «فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ ٱمْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ»، يعني: إن كانت الآية على ظاهرها فسنعذب كلنا؛ لأن كلنا ينطبق عليه وصف الآية.

○ وقوله: «فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ، إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ» فهذه الآية نزلت في اليهود «فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ ٱسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ»، فنزلت، قال: «ثُمَّ قَرَأَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾»، كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ ولا مانع من أن تكون الآية نزلت في المنافقين وفي اليهود جميعًا، ثم إن الآية عامة تشملهم وتشمل غيرهم؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن كان خصوص السبب يدخل في الآية دخولًا أوليًّا.

وفيه: أن الإنسان يجب أن يحرص ألا يحمد بما لم يفعل نحو ما ثبت في قصة سعيد بن جبير: لما سأله سائل فقال له: أيكم رأى النجم الذي انقض البارحة؟ فقال سعيد: أنا، ثم خشي أن يظن الناس أنه يصلي في الليل فقال: أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت؛ أي: إني رأيت النجم الذي انقض؛ لأني سهرت بسبب لدغة العقرب، ولم أكن في صلاة، فلا تظنوا أني أصلي حتى تحمدوني بشيء لم أفعله.

ولكن إذا فعل المرء الصالحات ثم اطلع الناس وأثنوا عليه فلا يضره ذلك فقد سئل النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[(١)].

«حَدَّثَنَا ابن مُقَاتِلٍ» هذا الحديث هو الحديث السابق كرره المؤلف رحمه الله لفائدة حديثية وهي إثبات طرق أخرى مما يقوي الحديث، وفيها تصريح ابن جريج بالإخبار.

---

(١) أحمد (٥/١٥٦)، ومسلم (٢٦٤٢).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]

{٤٥٦٩} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، عَنْ كُرَيْبٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩]، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، فَصَلَّىٰ إِحْدىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ.

الشَّرح

○ قوله: «بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾» بين الله تعالى في هذه الآية وصف أولي الألباب - وهم أصحاب العقول - فأخبر عنهم أنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، وفي اختلاف الليل والنهار، وأنهم يستدلون بهذا التفكر على قدرة الله ووحدانيته واستحقاقه للعبادة، فيذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

{٤٥٦٩} قوله: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ» المراد بالساعة هنا جزء من الزمان، وليس المراد منها مقدار الساعة المعروف الآن.

○ قوله: «فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾» هذا هو الشاهد من الحديث.

○ قوله: «ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ» الاستنان هو استعمال السواك.

○ قوله: «فَصَلَّىٰ إِحْدىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ» يعني: لصلاة الفجر.

○ وقوله: «فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ» فيه مشروعية صلاة ركعتي سنة الصبح في البيت.

وهذا الحديث فيه أن النبي ﷺ صلى إحدى عشرة ركعة، وهو حديث مختصر، فقد جاء في الحديث الآخر: «**أنه ﷺ صلى ثلاث عشرة ركعة**»[1] وهذا يدل على أن هذه القصة قد تعددت، وأن ابن عباس رضي الله عنهما بات عند خالته ميمونة زوج النبي ﷺ عدة مرات؛ لأنه كان صغيراً.

وفي الحديث: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان حريصًا على الاستفادة من النبي ﷺ، والتعلم منه رغم صغر سنه، وقد جاء في بعض الروايات أن أباه العباس رضي الله عنه أمره أن يبيت عند النبي ﷺ حتى يعلم صلاته.

وفيه: أنه ﷺ قرأ العشر الآيات من آخر سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات.

وفيه: دليل على مشروعية قيام الليل واستحبابه وفضله والحث عليه، وأدلة فضل قيام الليل كثيرة، وهو دأب الصالحين، فالله تعالى قد أثنى في مواضع كثيرة من كتابه على المؤمنين الذين يداومون على صلاة الليل فقال سبحانه وتعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦] وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] وقال سبحانه: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

وكذلك ورد في السنة النبوية الشريفة ما يدل على فضل قيام الليل؛ منه ما ثبت في الحديث الصحيح: «**والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل**»[2] وكذلك ثبت عنه ﷺ أنه كان إذا انتصف الليل

---

(١) أحمد (١/ ٢٥٢)، والبخاري (٦٩٨)، ومسلم (٧٦٣).

(٢) أحمد (٥/ ٢٤٨)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

أو قبله بقليل أو بعده بقليل قام يصلي[١]، وكان يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة[٢]، وقد يصلي ثلاث عشرة ركعة[٣]، وربما صلى تسعًا[٤]، وربما صلى سبعًا[٥]. وثبت عنه أيضًا أنه كان إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة[٦]، وكانت صلاته طويلة، فكان يصلي ثنتي عشرة ركعة من نصف الليل إلى قرب الفجر، وكان في آخر حياته يقرأ قراءة طويلة وهو جالس، فإذا بقي عليه مقدار ثلاثين آية قام فقرأها ثم ركع»[٧]؛ وهذا دليل على أنه كان يقرأ قراءة طويلة، وكانت السجدة كما تقول عائشة رضي الله عنها: قدر ما يقرأ الرجل خمسين آية[٨].

وأقل مقدار الوتر أن يوتر بركعة واحدة، وأدنى الكمال ثلاث ركعات.

---

(١) أحمد (١/ ٢٤٢)، والبخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).
(٢) أحمد (٦/ ٣٥)، والبخاري (٦٣١٠)، ومسلم (٧٣٦).
(٣) أحمد (١/ ٣٢٤)، والبخاري (١١٣٨)، ومسلم (٧٦٤).
(٤) أحمد (٦/ ١٠٠)، ومسلم (٧٣٠).
(٥) أحمد (٦/ ٣٢٢)، والترمذي (٤٥٧)، والنسائي (١٧٢٧)، وابن ماجه (١١٩٢).
(٦) أحمد (٦/ ٥٣)، ومسلم (٧٤٦).
(٧) أحمد (٦/ ١٢٧)، والبخاري (١٨٣، ١١١٩، ٢٠١٣)، ومسلم (٧٣١، ٧٣٨، ٧٤٦، ٧٦٣).
(٨) أحمد (٦/ ٨٨)، والبخاري (٩٩٤).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

{٤٥٧٠} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ مَخْرَمَةَ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ كُرَيْبٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَقُلْتُ: لَأَنْظُرَنَّ إِلَىٰ صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَطُرِحَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وِسَادَةٌ، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طُولِهَا، فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الآيَاتِ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ حَتَّىٰ خَتَمَ، ثُمَّ أَتَىٰ شَنًّا مُعَلَّقًا، فَأَخَذَهُ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ إِلَىٰ جَنْبِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِي، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِي، فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ.

الشَّرْح

{٤٥٧٠} قوله: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَقُلْتُ: لَأَنْظُرَنَّ إِلَىٰ صَلَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» هذه القصة غير القصة السابقة؛ لأن القصة السابقة فيها أنه قام في ثلث الليل وهنا لم يذكر متى قام، وسبق في الحديث الذي قبله أنه قال: «﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠]» ولم يذكر العشر الآيات، وهنا ذكرها، وفي الحديث: السابق قال: «فصلى إحدى عشرة ركعة» وهنا قال: أنه صلى ثلاث عشرة ركعة، فهذا دليل على اختلاف القصتين.

وفي الحديث: مشروعية صلاة ثلاث عشرة ركعة، وأن الأفضل أن يوتر بثلاثة عشرة ركعة، أو إحدى عشرة ركعة إذا كان يطيل القراءة والقيام والركوع، فإن كان يخفف فيزيد؛ ولهذا فإن الصحابة رضي الله عنهم صلوا التراويح في رمضان إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة، وصلوا ثلاثاً وعشرين ركعة أيضًا.

وفيه: مشروعية قراءة العشر الأواخر من سورة آل عمران بعد الاستيقاظ من النوم وبعد الذكر المشروع الذي ثبت عنه ﷺ وهو قوله: «**الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور**»[(١)].

وفيه: مشروعية مسح الوجه بعد النوم.

وفيه: مشروعية السواك بعد النوم.

وفيه: جواز نوم الطفل الصغير في عرض الوسادة، والرجل وأهله في طولها - كما في الحديث الذي بعده - وذلك إذا كان دون البلوغ وهو مَحْرَمٌ للمرأة، فابن عباس رضي الله عنهما محرم؛ لأن ميمونة رضي الله عنها خالته فلا مانع إذن.

وورد في الحديث أنه: «**من تعار من الليل**»، يعني: استيقظ «**فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[(٢)] وفي بعض روايات الحديث: «**ثم دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته**»[(٣)] وهذا يشمل القيام من الليل، ويشمل أيضًا الانتباه في أثنائه.

(١) أحمد (٤/ ٢٩٤)، والبخاري (٦٣١٢)، ومسلم (٢٧١١).
(٢) أحمد (٥/ ٣١٣)، والبخاري (١١٥٤).
(٣) أحمد (٥/ ٣١٣)، والبخاري (١١٥٤).

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾ [آل عمران: ١٩٢]

{٤٥٧١} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مَعْنُ بْنُ عِيسَىٰ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ مَخْرَمَةَ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ كُرَيْبٍ -مَوْلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ- أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَهْيَ خَالَتُهُ قَالَ: فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الوِسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى ٱنْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، ثُمَّ ٱسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ، عَنْ وَجْهِهِ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ العَشْرَ الآيَاتِ الخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُمْتُ إِلَىٰ جَنْبِهِ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ اليُمْنَىٰ عَلَىٰ رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي بِيَدِهِ اليُمْنَىٰ يَفْتِلُهَا، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ ٱضْطَجَعَ حَتَّىٰ جَاءَهُ المُؤَذِّنُ، فَقَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ.

الشَّرْح

{٤٥٧١} قوله: «حَتَّى ٱنْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، ثُمَّ ٱسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ، عَنْ وَجْهِهِ بِيَدَيْهِ» فيه همة ابن عباس رضي الله عنهما وحرصه على العلم مع صغر سنه وهو دون البلوغ؛ فقد كان يرقب النبي ﷺ إلى نصف الليل، مع أن عادة الصغير حب النوم وتفضيله على ما سواه والاستيقاظ منه بصعوبة، لكن ابن عباس رضي الله عنهما كان ذكيًّا وكانت عنده همة عالية؛ ولهذا دعا له النبي ﷺ فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[1] فكان موَّفقًا مُتَبَصِّرًا من أول عمره.

---

(١) أحمد (١/٢٦٦).

○ وقوله: «ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ» الشن: القربة بها ماء.

○ قوله: «فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ» لما انتهى النبي ﷺ قام ابن عباس وصب من القربة ماء وتوضأ وجاء يصلي بجواره ﷺ، ووقف يصلي التهجد.

○ قوله: «ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُمْتُ إِلَىٰ جَنْبِهِ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ اليُمْنَىٰ عَلَىٰ رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي بِيَدِهِ اليُمْنَىٰ يَفْتِلُهَا» فيه: أن ابن عباس رضي الله عنهما صلى عن يسار النبي ﷺ فأداره النبي ﷺ من خلفه وصفه عن يمينه؛ فدل ذلك على أن موقف المأموم الواحد إنما يكون عن يمين الإمام ولا يكون عن يساره.

وفيه: أن صلاته كانت صحيحة ولم تبطل.

وفيه: أن المأموم إذا وقف عن يسار الإمام فإن الإمام يديره عن يمينه من ورائه وتكون صلاته صحيحة ولا يعيد أولها؛ لأن النبي ﷺ أدار ابن عباس رضي الله عنهما عن يمينه وأقره على صلاته.

○ قوله: «فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ» فيه: مشروعية الوتر بثلاث عشرة ركعة، وأما ما ورد في الحديث الأول: «**أنه أوتر بإحدى عشرة ركعة**»[(١)]. وكذلك ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها: «**أنه ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة**»[(٢)]. فهذا محمول على الأغلب، وإلا فإنه ﷺ أوتر بثلاث عشرة ركعة كما في هذا الحديث، ولكن الأغلب من فعله ﷺ ما قالته عائشة رضي الله عنها.

○ قوله: «ثُمَّ ٱضْطَجَعَ حَتَّىٰ جَاءَهُ المُؤَذِّنُ» فيه: أن النبي ﷺ اضطجع بعد صلاة الليل حتى جاءه مؤذنه بلال يؤذنه بوقت صلاة الفجر؛ ففيه إعلام الإمام بمجيء وقت الصلاة المعتاد، وإن كان الإمام عظيمًا أو فاضلًا فيستحب ذلك.

○ قوله: «فَقَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ» فيه: أن النبي ﷺ صلى ركعتي الفجر في بيته، ثم خرج فصلى صلاة الصبح.

---

(١) أحمد (٦/ ٣٥)، والبخاري (٩٩٤)، ومسلم (٧٣٦).

(٢) أحمد (٦/ ٣٦)، والبخاري (٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٨).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٣] الآيَةَ

{٤٥٧٢} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ مَخْرَمَةَ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابن عَبَّاسٍ أَنَّ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ- وَهِيَ خَالَتُهُ- قَالَ فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الوِسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، ٱسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ العَشْرَ الآيَاتِ الخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُمْتُ إِلَىٰ جَنْبِهِ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ اليُمْنَىٰ عَلَىٰ رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي اليُمْنَىٰ يَفْتِلُهَا، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ ٱضْطَجَعَ حَتَّىٰ جَاءَهُ المُؤَذِّنُ، فَقَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ.

الشَّرْح

{٤٥٧٢} هذا الحديث أعاده المصنف رحمه الله أربع مرات من أجل الآيات، فأتى بالحديث الأول على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠] ثم أعاده على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] ثم أعاده على قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٩٢] ثم أعاده على قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٣] .وهذه الآيات كلها في العشر الأخيرة التي كان يقرؤها النبي ﷺ عند الاستيقاظ من النوم، وأعاد المصنف هذه الأحاديث؛ لأن النبي ﷺ قرأ هذه الآيات العشر كلها ومنها الآيات الأربعة التي ذكرت في الترجمة.

وفي المواضع الثلاثة الأخيرة ورد أنه ﷺ صلى ثلاث عشرة ركعة، وفي الموضع الأول ورد أنه ﷺ صلى إحدى عشرة ركعة، فهذا يدل على أن القصة تعددت وأن مبيت ابن عباس رضي الله عنهما عند النبي ﷺ كان عدة مرات.

○ قوله: «فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ اليُمْنَىٰ عَلَىٰ رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي اليُمْنَىٰ يَفْتِلُهَا» يعني: أخذ بيده اليمنى بأذنه ثم أداره من ورائه عن يمينه، وفي اللفظ الآخر: «**أقامني عن يمينه وقال بيده من ورائي**»[١] دل ذلك على أن موقف الإمام من المأموم الواحد عن يمين الإمام، وأنه إذا وقف المأموم عن يساره أداره الإمام عن يمينه ويبني على صلاته ولا تفسد.

وفيه: صحة مصافة الصبي مع الكبير وتصح الجماعة، وذهب الحنابلة[٢] وجماعة إلى أن هذا خاص بالنافلة، أما الفريضة فلا تصح فيها مصافة الصبي حتى يبلغ.

وقال آخرون من أهل العلم: الأصل أن حكم النافلة والفريضة واحد إلا أن يأتي دليل يخص أحدهما عن الآخر، وعليه فتصح مصافة الصبي في الفريضة والنافلة إذا كان صبياً عاقلاً فاهماً يحسن الوضوء والصلاة ولا يعبث.

وفيه: أن المصلي منفرداً إذا جاءه إنسان وصلى بجواره فإنه ينوي الإمامة، وتصح منه وتكون جماعة ويكون إمامًا، أي: ينتقل من كونه منفرداً إلى كونه إمامًا، والنبي ﷺ لم يأمر ابن عباس بإعادة التكبير ولم يقل له بعد الصلاة: إن صلاتك باطلة، بل أقره على صلاته؛ فدل إقراره ﷺ على أن المأموم إذا وقف عن يسار الإمام لا تبطل صلاته ولكنه ينتقل إلى يمينه ويبني على صلاته.

(١) أحمد (١/ ٢٦٨)، والبخاري (٧٢٨).
(٢) انظر: «الإنصاف» (٢/ ٢٨٧).

٤- ومن سورة النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ يَسْتَكْبِرُ. (قِوامًا): قِوامُكُمْ مِنْ مَعَايِشِكُمْ. ﴿لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ يَعْنِي: الرَّجْمَ لِلثَّيِّبِ، وَالْجَلْدَ لِلْبِكْرِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾ يَعْنِي: اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثًا وَأَرْبَعًا، وَلَا تُجَاوِزُ العَرَبُ رُبَاعَ.

الشَّرْح

فسر الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كلمات الآيات على عادته حتى يستفيد طالب العلم.

○ قوله: «قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يَسْتَنكِفَ﴾: يَسْتَكْبِرُ»، يعني: من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾. قال: «يَسْتَكْبِرُ»، قال: وهو عجيب؛ فإن في الآية عطف الاستكبار على الاستنكاف فالظاهر أنه غيره»، يعني: الاستنكاف غير الاستكبار.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويمكن أن يحمل على التوكيد. وقال الطبري: معنى يستنكف: يأنف».

○ قوله: «قِوَامًا: قِوامُكُمْ مِنْ مَعَايِشِكُمْ» يعني: من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النِّساء: ٥]، أي: «قِوَامُكُم مِنْ مَعَايِشِكُمْ»، وقيامًا أصلها قواماً فقلبت الواو ياء، والمعنى: لا تعمد إلى مالك الذي جعله الله لك معيشة فتعطيه امرأتك ونحوها؛ لأن المال قوام وعصب الحياة.

○ قوله: «﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾» يقول: مثنى: يعني اثنتين، وثُلاث: يعني ثلاثًا، ورُباع: يعني أربعًا، وهي ألفاظ معدولة؛ مثنى معدول عن اثنين، يعني: اثنتين اثنتين، وثُلاث معدول عن ثلاثة، ورُباع معدول عن أربعة، والمعنى: انكحوا ما طاب لكم اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا.

○ قوله: «وَلَا تُجَاوِزُ العَرَبُ رُبَاعَ» هذا الكلام فيه نظر، فقال بعضهم: بل تجاوز، فتقول: خماس وسداس، وهذا على أحد الأقوال، وقال بعضهم: يجوز إلى سداس وإلى عشار.

○ قوله: «﴿لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: الرَّجْمَ لِلثَّيِّبِ، وَالْجَلْدَ لِلْبِكْرِ» يعني: من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النِّسَاء: ١٥]. جعل الله السبيل الرجم للثيب، والجلد للبكر كما ورد في حديث عبادة أن النبي ﷺ قال: «**خذوا عني خذوا عني، جعل الله لهن سبيلًا؛ الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة**»[1].

---

(١) أحمد (٥/ ٣١٣)، ومسلم (١٦٩٠).

بَابُ قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]

{٤٥٧٣} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنِ ابن جُرَيْج قَالَ: أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَذْقٌ، وَكَانَ يُمْسِكُهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَنَزَلَتْ فِيهِ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣] أَحْسِبُهُ قَالَ: كَانَتْ شَرِيكَتَهُ فِي ذَلِكَ العَذْقِ وَفِي مَالِهِ.

{٤٥٧٤} حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: ٣]. فَقَالَتْ: يَا ابن أُخْتِي، هٰذِهِ اليَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا، تَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَنُهُوا عَنْ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا لَهُنَّ أَعْلَىٰ سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ، فَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هٰذِهِ الآيَةِ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ المَالِ وَالْجَمَالِ، قَالَتْ: فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا عَنْ مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ، إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ المَالِ وَالْجَمَالِ.

الشَّرح

{٤٥٧٣} قولها: «أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَذْقٌ» العذق بفتح العين المهملة هي النخلة، وأما العذق بكسرها فهي القنو، والمراد هنا المعنى الأول وهي النخلة.

وفي هذا الحديث أن رجلًا كانت له يتيمة فتزوجها؛ وكان لهذه اليتيمة نخلات وكان هذا الرجل يمسكها عليه من أجل هذه النخلات؛ ليرثها إذا ماتت.

❍ قوله: «وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ» يعني: ليس له رغبة فيها إلا أنه يريد المال من أجل النخلات التي لها.

❍ قوله: «فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾»، يعني: تعدلوا «﴿فِي الْيَتَامَىٰ﴾» اليتامى: جمع يتيمة.

❍ قوله: «أَحْسِبُهُ قَالَ: كَانَتْ شَرِيكَتَهُ فِي ذَلِكَ العَذْقِ وَفِي مَالِهِ» وهذا كأن تكون ابنة عمه وهو وليها وليس لها ولي أقرب منه فيتزوجها وهو وليها وتكون شريكته في الميراث، أي: تكون هذه النخلات شركًا بينه وبينها، ولا يحب أن يزوجها رجلًا آخر لئلا يشاركه في المال؛ لأنه لو زوجها رجلًا آخر وهي شريكته في النخلات لصار هذا الرجل الآخر شريكه فيها ونازعه بعد ذلك، وهو لا يريد أن ينازعه أحد فيتزوجها ولو كانت دميمة الخلقة، ولو كان يريدها من أجل مالها، فنهاهم الله تعالى أن يتزوجوا اليتيمات إلا إذا أعطوها حقها كاملًا من المهر، وإلا زوجها غيره - كما في الحديث الذي بعده -.

❖ ❖ ❖

{٤٥٧٤} قوله: «أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾» فيه: أن عروة بن الزبير سأل عائشة رضي الله عنها وهي خالته؛ أخت أمه أسماء رضي الله عنها.

والفعل ﴿تُقْسِطُوا﴾» من الفعل الرباعي أقسط يقسط بمعنى عدل، ومنه قوله ﷺ: «**المقسطون على منابر من نور؛ الذين يعدلون في حكمهم وفي أهليهم وما ولوا**»(١)، أما الفعل الثلاثيّ قَسَطَ يقسط فهو بمعنى: جار وظلم، والفرق بينهما حرف الهمزة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥]. والمعنى إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى، وألا تعطوهن مهرهن كاملًا، وألا تعاشروهن بالمعروف فاتركوهن لغيركم ليتزوجها.

(١) أحمد (٢/ ١٦٠)، ومسلم (١٨٢٧).

○ قوله: «فَقَالَتْ: يَا ابن أُخْتِي، هٰذِه اليَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا» مثل أن تكون ابنة عمه وهو أقرب ولي لها.

○ قوله: «تَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ»، أي: يكون المال واحدًا؛ لأن جدهم واحد والميراث واحد.

○ قوله: «وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا» يعني: تجمع بين الأمرين الجمال والمال.

○ قوله: «فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا»، يعني: بغير أن يعدل؛ فلا يعطيها مثل غيرها؛ فإذا كان الناس يدفعون - مثلًا - عشرة آلاف يعطيها هو خمسة آلاف؛ لأنها مسكينة وليس لها أحد يدافع عنها.

○ قوله: «فَنُهُوا عَنْ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ، وَيَبْلُغُوا لَهُنَّ أَعْلَىٰ سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ» يعني: يجب عليه أن يعطيها من المهر مثل ما يعطيه غيرها.

○ قوله: «فَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَإِنَّ النَّاسَ ٱسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هٰذِه الآيَةِ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي آيَةٍ أُخْرىٰ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ المَالِ وَالْجَمَالِ، قَالَتْ: فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا عَنْ مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ، إِلَّا بِالْقِسْطِ» يعني: بالعدل «مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ المَالِ وَالْجَمَالِ» يعني: إذا كانت قليلة المال والجمال وأنت لا تريدها فاتركها، فكما أنك لا تريدها إذا كانت قليلة المال والجمال فإنك إذا رغبت فيها وكانت ذات مال وجمال فعليك أن تعطيها مهرها كاملًا.

وأما قول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه: جواز تزويج اليتامى قبل البلوغ؛ لأنهن بعد البلوغ لا يقال لهن: يتيمات» ففيه نظر؛ لأن اليتيمة هي التي مات أبوها قبل البلوغ وصارت في حجر وليها الذي يلي مالها، وتزويج اليتامى قبل البلوغ لا يكون إلا للأب خاصة، وهذا معروف من النصوص، فلا يجوز لولي

من الأولياء - الأخ أو العم أو غيرهما - أن يزوجها قبل البلوغ حتى تبلغ فهذا خاص بالأب؛ لأنه كامل الشفقة، فإذا خاف الأب فوات الكفء فإنه يزوجها، كما زوج أبو بكر ابنته عائشة ﵂ النبي ﷺ قبل البلوغ.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وفي الحديث: اعتبار مهر المثل في المحجورات، وأن غيرهن يجوز نكاحها بدون ذلك.

وفيه: أن للولي أن يتزوج من هي تحت حجره، لكن يكون العاقد غيره، وسيأتي البحث فيه في النكاح».

قلت: لا يلزم أن يكون العاقد غيره، فقد يكون العاقد هو نفسه فيأتي بشاهدين مثلًا إذا كانت راضية ويقول: تزوجتك ويكون هو الولي، أو يقول: زوجتُ فلانة من نفسي فيجمع بين طرفي العقد فيكون هو الولي وهو قابل النكاح.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وفيه: جواز تزويج اليتامى قبل البلوغ؛ لأنهن بعد البلوغ لا يقال لهن: يتيمات إلا أن يكون أطلق استصحابًا لحالهن».

المراد: استصحابًا لحالهن سماهنّ يتيمات؛ لأنهن قبل البلوغ يتيمات، أما بعد البلوغ زال اليتم، وقد دلت السنة على أنه لا يجوز أن يزوج اليتيمة غير الأب إلا أن يكون أطلق عليها يتيمة استصحابًا لحالها قبل البلوغ فهذا الجواز ليس بصحيح.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الآيَة [النساء: ٦]

﴿وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦]: مُبَادَرَةً. ﴿أَعْتَدْنَا﴾: أَعْدَدْنَا، أَفْعَلْنَا مِنَ العَتَادِ.

{٤٥٧٥} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦]: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَالِ اليَتِيمِ إِذَا كَانَ فَقِيرًا، أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ مَكَانَ قِيَامِهِ عَلَيْهِ، بِمَعْرُوفٍ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦]

قوله: ﴿وَبِدَارًا﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾، يعني: «مُبَادَرَةً» فكأن ولي اليتيم إذا أخذ ماله كأنه يبادر ويسارع قبل أن يكبر اليتيم فيطالب بحقه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾، ثم قال الله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾، أي: من كان من الأولياء غنيًّا فليستعفف ولا يأخذ بسبب حفظه لماله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

{٤٥٧٥} قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «نَزَلَتْ فِي مَالِ اليَتِيمِ إِذَا كَانَ فَقِيرًا، أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ مَكَانَ قِيَامِهِ عَلَيْهِ، بِمَعْرُوفٍ» ففي الآية جواز أكل الولي الفقير من مال اليتيم بالمعروف مقابل قيامه عليه، وإن كان غنيًّا حرم عليه الأكل ووجب عليه الاستعفاف، أما إذا عمل بماله فإنه يأخذ ما يأخذ غيره فإذا كان مثلًا يضارب بالمال فإنه يأخذ ما يأخذ

غيره، والأولى أن يرجع في ذلك إلى الحاكم الشرعي؛ ليجعل له نسبة معلومة مقابل عمله.

○ قوله: «﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ أَعْدَدْنَا، أَفْعَلْنَا مِنَ العَتَادِ» يعني: من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ [النِّسَاء: ١٨]؛ لأن العتيد هو الشيء المُعَدُّ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «إِذَا كَانَ فَقِيرًا» مصير منه إلى أن الذي يباح له الأجرة من مال اليتيم من اتصف بالفقر، وقد قدمت البحث في ذلك في كتاب الوصايا، وذكر الطبري من طريق السدي أخبرني من سمع ابن عباس يقول في قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النِّسَاء: ٦] قال: بأطراف أصابعه، ومن طريق عكرمة: يأكل ولا يكتسي. ومن طريق إبراهيم النخعي: يأكل ما سد الجوعة ووارى العورة. وقد مضى بقية نقل الخلاف فيه في الوصايا. وقال الحسن بن حي: يأكل وصي الأب بالمعروف، وأما قيم الحاكم فله أجرة فلا يأكل شيئًا، وأغرب ربيعة فقال: المراد خطاب الولي بما يصنع باليتيم إن كان غنيًّا وسع عليه، وإن كان فقيرًا أنفق عليه بقدره، وهذا أبعد الأقوال كلها».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ الآية [النساء: ٨]

{٤٥٧٦} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حُمَيْدٍ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللهِ الأَشْجَعِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ [النساء: ٨] قَالَ: هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ. تَابَعَهُ سَعِيدٌ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ.

الشَّرْح

تتحدث هذه الآية الكريمة عن إعطاء اليتامى والفقراء والمساكين شيئاً من مال التركة الذي يقسم، فإذا حضروها فإنهم يعطون شيئًا منه؛ لأن نفوسهم تتطلع إلى الذي يقسم فيشاهدون هذا يُعطى وهذا يعطى فتتطلع نفوسهم إليه قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ يعني أعطوهم شيئا ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال بعضهم: إذا كان المال قليلًا يقولون لهم قولا معروفًا، وإن كان كثيرًا يعطوا.

{٤٥٧٦} قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ قَالَ: هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ»، وذلك بأن يعطوا ما تيسر وجوبًا إذا حضروا القسمة، وقيل: إن الآية منسوخة بآية المواريث، وهذا الوجوب كان قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية المواريث نُسخت، والمسألة فيها خلاف.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وجاءت عنه روايات من أوجه ضعيفة عند ابن أبي حاتم وابن مردويه أنها منسوخة، نسختها آية الميراث، وصح ذلك عن سعيد بن المسيب، وهو قول القاسم بن محمد وعكرمة وغير واحد، وبه قال الأئمة الأربعة وأصحابهم، وجاء عن ابن عباس قول آخر أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن القاسم بن محمد أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن في حياة عائشة، فلم يدع في الدار ذا قرابة ولا مسكينًا

إلا أعطاه من ميراث أبيه وتلا الآية، قال القاسم: فذكرته لابن عباس فقال: ما أصاب، ليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصي، وإنما ذلك في العصبة أي ندب للميت أن يوصي لهم.

قلت: وهذا لا ينافي حديث الباب، وهو أن الآية محكمة وليست بمنسوخة. وقيل معنى الآية: وإذا حضر قسمة الميراث قرابة الميت ممن لا يرث واليتامى والمساكين فإن نفوسهم تتشوف إلى أخذ شيء منه، ولا سيما إن كان جزيلًا، فأمر الله سبحانه أن يرضخ لهم بشيء على سبيل البر والإحسان.

واختلف من قال بذلك: هل الأمر فيه على الندب أو الوجوب؟

فقال مجاهد وطائفة: هي على الوجوب وهو قول ابن حزم؛ أن على الوارث أن يعطي هذه الأصناف ما طابت به نفسه. ونقل ابن الجوزي عن أكثر أهل العلم أن المراد بأولي القرابة من لا يرث، وأن معنى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾: أعطوهم من المال. وقال آخرون: أطعموهم، وأن ذلك على سبيل الاستحباب، وهو المعتمد؛ لأنه لو كان على الوجوب لاقتضى استحقاقًا في التركة ومشاركة في الميراث بجهة مجهولة فيفضي إلى التنازع والتقاطع، وعلى القول بالندب فقد قيل: يفعل ذلك ولي المحجور، وقيل: لا، بل يقول: ليس المال لي وإنما هو لليتيم، وأن هذا هو المراد بقوله: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨﴾ [النِّسَاء: ٨] وعلى هذا فتكون الواو في قوله: ﴿وَقُولُواْ﴾ للتقسيم. وعن ابن سيرين وطائفة، المراد بقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ اصنعوا لهم طعامًا يأكلونه، وأنها على العموم في مال المحجور وغيره، والله أعلم».

قلت: الاستحباب باق بعد ذلك إذا حضروا قسمة التركة ولا سيما إذا كان مالًا جزيلًا، فإنه يستحب لهم أن يرضخ لهم.

وعلى قول ابن عباس أنها محكمة يجب إعطاء اليتامى والمساكين، وإذا لم يعطوا أثموا؛ لأن الآية غير منسوخة، بل باقية، وعلى قول الجمهور يستحب إعطاؤهم ولا يجب، وإن تركوهم فلا حرج، والمستحب هو ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه.

○ قوله: «تَابَعَهُ سَعِيدٌ» هو ابن جبير «عَنِ ابن عَبَّاسٍ».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ الآية [النساء: ١١]

{٤٥٧٧} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن مُنْكَدِرٍ، عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ، فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لَا أَعْقِلُ شَيْئًا، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَنَزَلَتْ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١].

الشَّرح

○ قوله: «﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النِّسَاء: ١١]» هذه وصية من الله تعالى في الأولاد، وقال العلماء: هذه الآية تدل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين؛ لأن الله تعالى أوصى الوالدين بالأولاد.

{٤٥٧٧} قوله: «عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ» فيه: أن النبي ﷺ زار جابرًا وهو مريض.

○ قوله: «فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لَا أَعْقِلُ شَيْئًا» بسبب شدة المرض حيث أغمي عليه من شدة المرض.

○ قوله: «فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ» أي: لما رش عليه من الماء أفاق.

فسأل جابر النبي ﷺ فقال: «مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللهِ؟»؛ لأنه خشي أن يموت.

○ قوله: «فَنَزَلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾» فيه: دليل على أن سؤال جابر للنبي ﷺ هو سبب نزول هذه الآية.

❁ **والحديث فيه فوائد:**

١- مشروعية زيارة المريض ومشروعية الزيارة ماشيًا.

٢- تواضع النبي ﷺ.

٣- أن النبي ﷺ مبارك.

٤- رش الماء على المريض المحموم وأن ذلك مفيد له؛ ولهذا أفاق جابر، وأما توضؤ النبي ﷺ فهذا خاص به لما جعل الله فيه من البركة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النِّسَاء: ١١]؛ هكذا وقع في رواية ابن جريج، وقيل: إنه وهم في ذلك رحمه الله وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء، وهي ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٧٦]؛ لأن جابرًا يومئذ لم يكن له ولد ولا والد، والكلالة من لا ولد له ولا والد، وقد أخرجه مسلم عن عمرو الناقد، والنسائي عن محمد بن منصور كلاهما عن ابن عيينة عن ابن المنكدر، فقال في هذا الحديث: حتى نزلت عليه آية الميراث: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ ولمسلم أيضًا من طريق شعبة عن ابن المنكدر قال في آخر هذا الحديث: فنزلت آية الميراث، فقلت لمحمد بن المنكدر: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾؟ قال: هكذا أنزلت. وقد تفطن البخاري لذلك فترجم في أول الفرائض قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾ [النِّسَاء: ١١-١٢] ثم ساق حديث جابر المذكور عن قتيبة عن ابن عيينة وفي آخره: حتى نزلت آية الميراث ولم يذكر ما زاده الناقد، فأشعر بأن الزيادة عنده مدرجة من كلام ابن عيينة. وقد أخرجه أحمد عن ابن عيينة مثل رواية الناقد وزاد في آخره: كان ليس له ولد وله أخوات، وهذا من كلام ابن عيينة أيضًا، وقد اضطرب فيه فأخرجه ابن خزيمة عن عبد الجبار بن العلاء عنه بلفظ: حتى نزلت آية الميراث: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النِّسَاء: ١٧٦]، وقال مرة: حتى نزلت آية الكلالة، وأخرجه عبد بن حميد، والترمذي عنه عن يحيى بن آدم عن ابن عيينة بلفظ: حتى نزلت ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ وأخرجه الإسماعيلي من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل عنه فقال في آخره: حتى نزلت آية الميراث:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ فمراد البخاري بقوله في الترجمة إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾ [النِّسَاء: ١١-١٢] الإشارة إلى أن مراد جابر من آية الميراث قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النِّسَاء: ١٢]. وأما الآية الأخرى وهي قوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٧٦]، فسيأتي في آخر تفسير هذه السورة أنها من آخر ما نزل، فكأن الكلالة لما كانت مجملة في آية المواريث استفتوا عنها فنزلت الآية الأخيرة. ولم ينفرد ابن جريج بتعيين الآية المذكورة، فقد ذكرها ابن عيينة أيضا على الاختلاف عنه، وكذا أخرجه الترمذي والحاكم من طريق عمرو بن أبي قيس عن ابن المنكدر، وفيه نزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾».

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويحتمل أن يكون نزول أولها في قصة البنتين وآخرها وهي قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ في قصة جابر، ويكون مراد جابر فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ أي: ذكر الكلالة المتصل بهذه الآية».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٢]

{٤٥٧٨} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ وَرْقَاءَ، عَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ المَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، فَنَسَخَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ وَالثُّلُثَ، وَجَعَلَ لِلْمَرْأَةِ الثُّمُنَ وَالرُّبُعَ، وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ وَالرُّبُعَ.

الشَّرْح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾».

{٤٥٧٨} قوله: «كَانَ المَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ» يعني: كان في أول الإسلام الميراث للأولاد وهم الفروع، أما الأصول وهم الوالدان فلهم الوصية أوصاهم الله وصية.

○ وقوله: «فَنَسَخَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ» فيه: دليل على جواز وقوع النسخ والرد على من أنكره من اليهود وغيرهم؛ لأنه بزعمهم يلزم منه البداءة على الله، وأما العلماء المسلمون فإنهم يرون أن النسخ ثابت لقول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البَقَرَة: ١٠٦].

قال الحافظ رحمه الله: «هذا يدل على أن الأمر الأول استمر إلى نزول الآية.

وفيه: رد على من أنكر النسخ، ولم ينقل ذلك عن أحد من المسلمين إلا عن أبي مسلم الأصبهاني صاحب التفسير فإنه أنكر النسخ مطلقًا، ورد عليه بالإجماع على أن شريعة الإسلام ناسخة لجميع الشرائع، أجيب عنه بأنه يرى أن الشرائع الماضية مستقرة الحكم إلى ظهور هذه الشريعة، قال: فسمي ذلك تخصيصًا لا نسخًا؛ ولهذا قال ابن السمعاني: إن كان أبو مسلم لا يعترف بوقوع

الأشياء التي نسخت في هذه الشريعة فهو مكابر، وإن قال: لا أسميه نسخًا كان الخلاف لفظيًّا».

❍ قوله: «فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ وَالثُّلُثَ، وَجَعَلَ لِلْمَرْأَةِ الثُّمُنَ وَالرُّبُعَ»، يعني: لها الثمن إن كان لزوجها ولد ولها الربع إن لم يكن له ولد.

❍ وقوله: «وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ وَالرُّبُعَ» الشطر يعني: النصف؛ فللزوج النصف إن لم يكن لزوجته ولد، والربع إن كان لها ولد.

وهذا الحديث فيه: بيان أنه في أول الإسلام لم يكن هناك ميراث للوالدين كما صرح به ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ثم نسخ ذلك فجعل الله الميراث للوالدين وللأولاد جميعًا.

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ الآية [النساء: ١٩]

وَيُذْكَرُ عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]: لَا تَقْهَرُوهُنَّ. ﴿حُوبًا﴾ [النساء: ٢]: إِثْمًا. ﴿تَعُولُوا﴾ [النساء: ٤] تَمِيلُوا. ﴿نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] النِّحْلَةُ: المَهْرُ.

{٤٥٧٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، حَدَّثَنَا أَسْبَاطُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ. قَالَ الشَّيْبَانِيُّ: وَذَكَرَهُ أَبُو الحَسَنِ السُّوَائِيُّ وَلَا أَظُنُّهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩] قَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ فِي ذَلِكَ.

الشَّرْح

○ قوله: «باب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النِّسَاء: ١٩] الآية» الخطاب هنا للمؤمنين وفيه النهي عن إرث النساء كرهًا كما كان يفعله أهل الجاهلية، فكانوا إذا مات الرجل عن المرأة فإن أولياءه يكونون أحق بها؛ إن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا تركوها؛ ومن أفعال أهل الجاهلية أيضا أنهم كانوا إذا مات الرجل عن المرأة جاء أحد أوليائه ووضع عليها خباء ليحميها عن غيره ليكون أحق بها، وهذا امتهان من الجاهلية للمرأة، أما الإسلام فقد كرم المرأة وصانها وحفظها وأعطاها حقها كاملا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾. يعضلها يعني يؤذيها ويضايقها حتى تدفع إليه شيئًا من المهر أو بعضه؛ ولهذا قال الله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، فإن أتت بفاحشة مبينة كأن تكون سليطة اللسان، أو تكون غير عفيفة، فلا بأس أن يعضلها حتى تفتدي منه؛ لأن الفراق جاء من قبلها، أما أن يعضلها بدون سبب فهذا من الظلم، ثم قال الله سبحانه:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ هذا أمر من الله للأزواج أن يعاشروا زوجاتهم بالمعروف قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النِّسَاء: ١٩] قيل: المعنى أنه إن كرهها يصبر عليها عسى أن يرزق منها ولدًا صالحًا يجعل الله فيه خيرًا.

○ قوله: «وَيُذْكَرُ عَنِ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: لَا تَقْهَرُوهُنَّ» يقهرها يعني يضايقها ويؤذيها حتى تفتدي منه، ونقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن مجاهد أن المخاطب بذلك أولياء المرأة.

○ وقوله: «﴿حُوبًا﴾: إِثْمًا»، يعني: من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٢].

○ وقوله: «﴿تَعُولُوا۟﴾: تَمِيلُوا»، يعني: من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [النِّسَاء: ٣] المشهور عند العلماء أن معنى تعولوا تميلوا وتجوروا كما ذكر الله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾. فالله تعالى أمر في النكاح بالتعدد مثنىٰ وثلاث وأربع إلا إذا خاف الجور وعدم العدل فيقتصر على واحدة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ﴾، يعني: أو يتسرى بملك اليمين؛ لأن الإماء لا يجب العدل بينهن، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾، يعني: الاقتصار على واحدة عند خوف العدل أقرب ألا تجوروا.

وروي عن الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾، يعني: ألا يكثر عيالكم؛ فإذا كانت واحدة فإنه لا يكثر العيال، وإذا كانت اثنتين أو ثلاث أو أربع فإنه يكثر العيال، وأنكر المبرد وابن داود والثعلبي هذا التفسير وردوه بأن الله أباح له أن يتسرى ما شاء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «واحتج من رده أيضًا من حيث المعنى بأنه أحل من ملك اليمين ما شاء الرجل بلا عدد، ومن لازم ذلك كثرة العيال وإنما ذكر النساء وما يحل منهن؛ لأن الجور والعدل يتعلق بهن؛ وأيضًا لو كان المراد كثرة العيال لكان أعال يعيل من الرباعي وأما تعولوا فمن الثلاثي».

○ وقوله: «﴿نِحۡلَةٗ﴾، النِّحْلَةُ: المَهْرُ».

{٤٥٧٩} ذكر المصنف رحمه الله حديث ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية وما كانوا عليه في الجاهلية فقال: «**كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ فِي ذَلِكَ**» وهذا من امتهان أهل الجاهلية للمرأة. فقد كانت المرأة عندهم لا قيمة لها، أو مثلها مثل المتاع، إذا مات الرجل عنها صار أولياؤه يتصرفون فيها؛ إن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا تركوها، حتى جاء الإسلام فكرمها وأعطاها حقها وجعلها حرة ترجع إلى أهلها، وليس لأولياء زوجها حق فيها بل لها ولوليها الحرية والاختيار؛ فلها أن تتزوج من تشاء وأولياء الزوج ليس لهم علاقة بها بعد وفاته.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الآية [النساء: ٣٣]

وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿مَوَالِيَ﴾ أَوْلِيَاءَ وَرَثَةً. (عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) [النساء: ٣٣] هُوَ مَوْلَى الْيَمِينِ، وَهْوَ الحَلِيفُ، وَالْمَوْلَىٰ أَيْضًا: ابن العَمِّ. وَالْمَوْلَى: الْمُنْعِمُ المُعْتِقُ. وَالْمَوْلَى: المُعْتَقُ. وَالْمَوْلَى: المَلِيكُ. وَالْمَوْلَىٰ: مَوْلًى فِي الدِّينِ.

{٤٥٨٠} حَدَّثَنِي الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ إِدْرِيسَ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء: ٣٣] قَالَ: وَرَثَةً. ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣] كَانَ المُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ يَرِثُ المُهَاجِرُ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ؛ لِلأُخُوَّةِ التِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء: ٣٣] نُسِخَتْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣] مِنَ النَّصْرِ، وَالرِّفَادَةِ، وَالنَّصِيحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ المِيرَاثُ، وَيُوصِي لَهُ. سَمِعَ أَبُو أُسَامَةَ إِدْرِيسَ، وَسَمِعَ إِدْرِيسُ طَلْحَةَ.

الشَّرح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾» هذه الترجمة على هذه الآية الكريمة.

○ قوله: «وَقَالَ مَعْمَرٌ: أولياء: ﴿مَوْلًى﴾ وأَوْلِيَاءَ وَرَثَةً»، يعني: من قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ فالموالي هم الورثة، يرثون: ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، يعني: من المال والتركة؛ وهذا تفسير من المؤلف رحمه الله لبعض الكلمات عن بعض السلف.

○ قوله: «﴿«عاقدت» أَيْمَانُكُمْ﴾: هُوَ مَوْلَى اليَمِينِ، وَهْوَ الحَلِيفُ، وَالْمَوْلَىٰ أَيْضًا: ابن العَمِّ. وَالْمَوْلَى: الْمُنْعِمُ المُعْتِقُ. وَالْمَوْلَى: المُعْتَقُ. وَالْمَوْلَى: المَلِيكُ. وَالْمَوْلَىٰ: مَوْلًى فِي الدِّينِ» يعني أن لفظ: المولى له عدة

معان: فيطلق المولى على ابن العم، ويطلق المولى على المعتِق والسيد، ويطلق المولى على المعتَق وهو العبد أيضًا، ويطلق المولى على المليك - لغة في الملك - ويطلق المولى على المولى في الدين، ويطلق في اللغة على معان أخر لم يذكرها المؤلف؛ فيطلق على المحب وعلى الجار وعلى الناصر وعلى الصهر وعلى التابع وعلى القرابة وعلى الولي وعلى الموازي وعلى ابن الأخ وعلى الشريك وعلى النديم، فكل هذه معان يطلق عليها المولى، والمولى: الله سبحانه وتعالى - أيضًا الموالى بالألف - ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٥٠] فهو من الأسماء المشتركة، فحينما يدعو الإنسان ربه يقول: يا سيدي ومولاي؛ فالله هو المولى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفَال: ٤٠].

○ وقوله: «﴿«عاقدت» أَيْمَـٰنُكُمْ﴾»، قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿عَقَدَتْ﴾ وقرأ الباقون ﴿عاقدت﴾[1] يعني الذين كان بينكم وبينهم حلف وأيمان، ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ﴾ [النِّسَاء: ٣٣]، أي: من الميراث؛ وكان هذا في أول الإسلام، وأما في الجاهلية فكانوا يرثون بالحلف.

{٤٥٨٠} قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ قَالَ: وَرَثَةً» ثم قال: «﴿وَٱلَّذِينَ «عاقدت» أَيْمَـٰنُكُمْ﴾» هذه الجملة مستأنفة.

○ وقوله: «كَانَ المُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا المَدِينَةَ يَرِثُ المُهَاجِرُ الأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ؛ لِلأُخُوَّةِ التِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ» المهاجرون هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة؛ تركوا ديارهم وأموالهم وأولادهم فآخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار، بمعنى أنه ربط بين كل مهاجري وأنصاري وقال: هذا أخوك، فصاروا يتوارثون بينهم حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزَاب: ٦] فصار الميراث لذوي القرابة.

○ قوله: «فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ نُسِخَتْ» يعني: نسخ التوارث بالمؤاخاة بهذه الآية؛ والموالي هم الأولياء الورثة؛ وهذا الذي ذهب إليه

(١) انظر: الهادي شرح طيبة النشر (٢/ ١٥٠).

ابن عباس غير المشهور؛ بل المشهور أن نسخ توارث المهاجري والأنصاري بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

○ قوله: «ثُمَّ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ «عاقدت» أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له» يعني: الذين بينهم معاقدة حلف على النصرة والرفادة والنصيحة يبقى النصر والرفادة، أما الميراث فقد انتهى.

○ قوله: «سَمِعَ أَبُو أُسَامَةَ إِدْرِيسَ، وَسَمِعَ إِدْرِيسُ طَلْحَةَ» فيه: بيان السماع؛ لأنه ذكره بالعنعنة في الحديث قال: «حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ إِدْرِيسَ، عَنْ طَلْحَةَ» فأراد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن يبين أنه ثبت سماعهما.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ قَالَ: وَرَثَةً» هذا متفق عليه بين أهل التفسير من السلف. أسنده الطبري عن مجاهد وقتادة والسدي وغيرهم ثم قال: وتأويل الكلام: ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والده وأقربوه من ميراثهم له، وذكر غيره للآية تقديرًا غير ذلك فقيل: التقدير: جعلنا لكل ميت ورثة ترث مما ترك الوالدان والأقربون، وقيل: التقدير: ولكل مال مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا ورثة يحوزونه، فعلى هذا «كل» متعلقة بِـ«جعل»، و«مما ترك» صفة «لكل»، والوالدان فاعل «ترك»، ويلزم عليه الفصل بين الموصوف وصفته وقد سمع كثيرًا» يعني: الفصل بين الموصوف والصفة.

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ «وفي القرآن: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ فإن فاطر صفة الله اتفاقًا؛ وقيل: التقدير: ولكل قوم جعلناهم موالي أي ورثة نصيب مما ترك والداهم وأقربوهم، وهذا يقتضي أن ﴿لِكُلٍ﴾ خبر مقدم، و﴿نصيب﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿جعلناهم» صفة لقوم، و﴿مما ترك﴾ صفة للمبتدأ الذي حذف، و﴿نصيب﴾ صفته، وكذا حذف ما أضيفت إليه ﴿كل﴾ وبقيت صفته، وكذا حذف العائد على الموصوف، هذا حاصل ما ذكره المعربون وذكروا غير ذلك مما ظاهره التكلف».

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ نُسِخَتْ»

هكذا وقع في هذه الرواية أن ناسخ ميراث الحليف هذه الآية، وروى الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الرجل يعاقد الرجل فإذا مات ورثه الآخر، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]».

ويعاقد الآخر يعني: يكتب له عقدًا وحلفًا ويتعاقدان على النصرة والأخوة والرفادة؛ فيرث أحدهما الآخر.

ثم قال الحافظ رحمه الله: «﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾ [الأحزاب: ٦] يقول: إلا أن توصوا لأوليائكم الذين عاقدتم، ومن طريق قتادة كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية فيقول: دمي دمك وترثني وأرثك، فلما جاء الإسلام أمروا أن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس، ثم نسخ بالميراث فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ومن طرق شتى عن جماعة من العلماء كذلك، وهذا هو المعتمد» يعني: المعتمد أن الناسخ هو قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، لا كما قال ابن عباس أن الناسخ قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ [النِّسَاء: ٣٣].

ثم قال الحافظ رحمه الله: «ويحتمل أن يكون النسخ وقع مرتين الأولى حيث كان المعاقد يرث وحده دون العصبة فنزلت: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ - وهي آية الباب - فصاروا جميعا يرثون، وعلى هذا يتنزل حديث ابن عباس، ثم نسخ ذلك آية الأحزاب وخص الميراث بالعصبة وبقي للمعاقد النصر والإرفاد ونحوهما»، والإرفاد: الإعانة.

والمعاقدة على النصرة أمر مطلوب شرعًا؛ لأن النبي ﷺ قال: «**أيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا قوة وشدة**»(١) يعني: إذا كان تحالفًا على نصرة المظلوم وإعطاء الحقوق فهذا موافق للشرع.

(١) أحمد (١/ ٣١٧)، ومسلم (٢٥٣٠).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]

يَعْنِي: زِنَةَ ذَرَّةٍ.

{٤٥٨١} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ حَفْصُ بْنُ مَيْسَرَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ أُنَاسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ، هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا: لَا. قَالَ: «وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا: لَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ ﷻ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ وَغُبَّرَاتُ أَهْلِ الكِتَابِ، فَيُدْعَى اليَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا ٱتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ أَلَا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارىٰ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا ٱتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الأَوَّلِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، فَيُقَالُ: مَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا: فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ. فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا. مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا».

الشَّرح

○ قوله: «زِنَةَ ذَرَّةٍ» هذا تفسير أبي عبيدة معمر بن المثنى لقوله تعالى: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ فالمثقال الزنة، والذرة هي النملة أو الذرة الصغيرة وقيل هي واحدة الهباء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «والذرة يقال: زنتها ربع ورقة نخالة» والنخالة الآن هي القشر الذي يكون على حبة البر إذا أخذت القشر من على حبة البر فهذه النخالة، وهذه زنة الذرة. ويقال: زنة ربع ورقة نخالة، وورقة النخالة وزن ربع خردلة، وزنة الخردلة ربع سمسمة، وقيل: الذرة لا وزن لها، يقال: لو أن شخصًا ترك رغيفا حتى علاه الذر فوزنوه لم يزد شيئًا؛ فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النِّسَاء: ٤٠] المعنى: أن الله لا يظلم شيئًا أبدًا؛ لأن مثقال الذرة لا يزن شيئًا.

{٤٥٨١} ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ حديث أبي سعيد الخدري وفيه قوله: «أَنَّ أُنَاسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: نَعَمْ، هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ ﷻ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا» فيه: إثبات رؤية الله ﷻ يوم القيامة، والرد على منكري الرؤية من الجهمية والمعتزلة.

وفيه: أن الرؤية تكون بالعين المجردة؛ خلافًا للمعتزلة الذين قالوا: إن المراد بالرؤية العلم، أي أنكم تعلمون ربكم كما تعلمون أن القمر قمر، وكما لا تشكون في أن القمر قمر، وهذا في غاية الفساد؛ فالحديث صريح في أن المراد الرؤية بالعين المجردة - وهذا يوم القيامة - أما في الدنيا فإن الله تعالى لا يراه أحد؛ ولهذا لما سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الرؤية قال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعرَاف: ١٤٣] يعني في الدنيا؛ فإنه لا يستطيع ببشريته الضعيفة ولا يتحمل رؤية الله ولكن في يوم القيامة ينشئون تنشئة قوية يتحملون رؤيته ﷻ؛ ولهذا قال الله:

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] تدكدك الجبل وانساخ ولم يثبت عند رؤية الله.

○ قوله: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ» فيه: أن من يعبد الله على قسمين:

القسم الأول: البر، وهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات.

القسم الثاني: الفاجر، وهو الذي فعل بعض المعاصي والكبائر ولكنه وحد الله وليس عنده شرك.

○ قوله: «وَغُبَّرَاتُ أَهْلِ الكِتَابِ»، يعني: بقايا أهل الكتاب؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء: ١٧١] يعني: في الباقين.

○ قوله: «فَيُدْعَى اليَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ أَلَا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارىٰ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابنَ اللهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ. فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الأَوَّلِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ فِي أَدْنَىٰ صُورَةٍ مِنَ التِي رَأَوْهُ فِيهَا» قال العيني: المعنى في أقرب صورة، ولكن هذا ليس بصحيح، والصواب أن المعنى في غير الصورة التي رأوه فيها كما في الحديث الطويل(١): أنهم رأوه في صورة غير الصورة التي رأوه فيها في أول مرة فقد ثبت أن المؤمنين يرون ربهم في موقف القيامة أربع مرات يرونه في المرة الأولى ثم يرونه الثانية في غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة فيقولون: نعوذ بالله منك هذا

(١) أحمد (٢/ ٢٧٥)، والبخاري (٦٥٧٤)، ومسلم (١٨٢).

مكاننا فيتجلى لهم في الصورة التي رأوه فيها، فهذه المرة الثالثة فيسجدون، فإذا رفعوا رؤوسهم رأوه فهذه المرة الرابعة، والحكمة والله أعلم أن هذا اختبار وامتحان، والامتحان باق حتى في موقف القيامة وليس هناك سلامة كاملة إلا بعد دخول الجنة.

○ قوله: «فَيُقَالُ: مَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. قَالُوا: فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ»؛ وذلك لأنهم موحدون حتى الفجار منهم والعصاة.

○ قوله: «وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الذِي كُنَّا نَعْبُدُ. فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا. مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا» هذا هو الفوز العظيم للمؤمنين، فالمؤمنون جنوا ثمرة إيمانهم، فارقوا الناس في الدنيا، ووحدوا الله وأخلصوا له العبادة، وانفصلوا عن الناس في الآخرة، وبقوا ينتظرون ربهم الذي يعبدونه في الآخرة، فيقول الله: أنا ربكم، فيقولون: لا نشرك بالله شيئًا، فينطلقون إلى الجنة. نسأل الله الكريم من فضله.

والشاهد: أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، فكل امرئ جزي بعمله؛ الكفار جزوا بأعمالهم، والمؤمنون جزوا بأعمالهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزّلزَلة: ٧-٨].

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]

الْمُخْتَالُ وَالْخَتَّالُ وَاحِدٌ، ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧]: نُسَوِّيَهَا حَتَّىٰ تَعُودَ كَأَقْفَائِهِمْ. طَمَسَ الكِتَابَ: مَحَاهُ ﴿سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥]: وُقُودًا.

{٤٥٨٢} حَدَّثَنَا صَدَقَةُ، أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ -قَالَ يَحْيَىٰ: بَعْضُ الحَدِيثِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ- قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] قَالَ: «أَمْسِكْ». فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.

الشَّرْح

○ قوله: «بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾» في هذه الآية أنه يؤتى من كل أمة بشهيد يشهد عليها.

○ وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ المراد على هذه الأمة.

○ قوله: «الْمُخْتَالُ وَالْخَتَّالُ وَاحِدٌ» فسر المؤلف ﵀ الكلمات التي جاءت في الآيات، فالمختال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النِّسَاء: ٣٦] - هو صاحب الخيلاء -، وفي الحديث: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه**»[(١)] فالله تعالى لا يحب المختال.

وفيه: إثبات المحبة لله ﷻ، وأن الخيلاء من كبائر الذنوب.

---

(١) أحمد (٢/ ٦٧)، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥).

○ قوله: «﴿نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾: نُسَوِّيَهَا حَتَّىٰ تَعُودَ كَأَقْفَائِهِمْ»، يعني: تفسير قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ [النِّسَاء: ٤٧]. والمعنى: حتى تدار وجوههم، فيقلب الوجه ويكون من الخلف.

○ قوله: «طَمَسَ الكِتَابَ: مَحَاهُ»، أي: يطلق الطمس على المحو ويطلق كذلك على القلب.

○ قوله: «﴿بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النِّسَاء: ٥٥]: وُقُودًا»، يعني: وقودًا لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البَقَرَة: ٢٤].

{٤٥٨٢} قوله: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ»، يعني: اقرأ علي القرآن.

○ وقوله: «آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟!» أي: استفهم عبد الله بن مسعود.

○ وقوله: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ»، يعني: من أولها.

○ وقوله: «حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١﴾ [النِّسَاء: ٤١]، قَالَ» - أي: النبي ﷺ -: «أَمْسِكْ» يعني: كف عن القراءة.

○ قوله: «فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ» وفي لفظ: «**فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان**»(١) تذكر النبي ﷺ هذا الموقف وهذا المشهد العظيم فذرفت عيناه بالدموع ﷺ، وفي الحديث الآخر أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزير المرجل من البكاء في الصلاة(٢)، وهو سيد الخلق ﷺ.

---

(١) أحمد (١/ ٤٣٢)، والبخاري (٥٠٥٠).
(٢) أحمد (٤/ ٢٥)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ الآية [النساء: ٤٣]

﴿صَعِيدًا﴾ [النساء: ٤٣]: وَجْهَ الأَرْضِ. وَقَالَ جَابِرٌ: كَانَتِ الطَّوَاغِيتُ التِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا: فِي جُهَيْنَةَ وَاحِدٌ، وَفِي أَسْلَمَ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ، كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ. وَقَالَ عُمَرُ: الجِبْتُ: السِّحْرُ. ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]: الشَّيْطَانُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الجِبْتُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ: شَيْطَانٌ، ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]: الكَاهِنُ.

{٤٥٨٣} حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: هَلَكَتْ قِلَادَةٌ لِأَسْمَاءَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهَا رِجَالًا، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَلَيْسُوا عَلَىٰ وُضُوءٍ، وَلَمْ يَجِدُوا مَاءً، فَصَلَّوْا وَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ وُضُوءٍ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ. يَعْنِي: آيَةَ التَّيَمُّمِ.

الشَّرْح

○ قوله: «بَابُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾» هذه الآية تسمى آية التيمم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾ [المائدة: ٦]، فدلت الآية على أن المريض والمسافر ومن جاء من الغائط ومن عليه جنابة إذا فقد الماء فإنه يتيمم، بل إن المريض إذا كان عاجزًا عن استعمال الماء - بأن كان يزيد مرضه أو يتأخر برؤه - فإنه يتيمم ولو مع وجود الماء.

وقد بين النبي ﷺ أن التيمم ضربة واحدة؛ ففي حديث عمار أنه لما أصابته

الجنابة نزع ثوبه وتمرغ مثلما تمرغ الدابة؛ فقال له النبي ﷺ: «**إنما يكفيك أن تقول هكذا**»[(١)] وضرب بيديه الأرض ضربة واحدة مسح بهما وجهه وكفيه.

○ قوله: «﴿صَعِيدًا﴾: وَجْهَ الأَرْضِ» استُدل به على أنه يتيمم من كل ما على وجه الأرض من بساط أو فراش أو رمل، لكن إذا وجد التراب فلا يجزئ غيره؛ لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ [المَائدة: ٦]، فهو دليل أن هناك شيئًا يعلق باليد منه؛ لأن من للتبعيض، فأما إذا لم يجد ترابًا فإنه يتيمم بما صعد على وجه الأرض؛ لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التّغَابُن: ١٦]، والمراد بالتراب: تراب الحرث والزرع؛ لأن فيه غبارًا، أما الرمل الأحمر فليس فيه غبار.

○ قوله: «وَقَالَ جَابِرٌ: كَانَتِ الطَّوَاغِيتُ التِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا: فِي جُهَيْنَةَ وَاحِدٌ، وَفِي أَسْلَمَ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ، كُهَّانٌ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ» فالمعنى أن الكهان كانوا منتشرين في جزيرة العرب، فكان لكل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه؛ قال الله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّسَاء: ٥١].

○ قوله: «وَقَالَ عُمَرُ: ﴿ٱلۡجِبۡتِ﴾: السِّحْرُ، و﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: الشيطان» أي: فسر عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وهذا تفسير ببعض المعنى، وإلا فالجبت هو كل ما لا خير فيه ويدخل فيه السحر وغيره، والطاغوت أعم من الشيطان؛ فهو يشمل من دعا إلى عبادة نفسه، ومن دعا غير الله، ومن عبد غير الله، ومن رضي أن يعبد من دون الله، فهؤلاء كلهم طواغيت، والشيطان طاغوت منهم.

○ قوله: «وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿ٱلۡجِبۡتِ﴾ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ: شَيْطَانٌ و﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: الكَاهِنُ» هذا تفسير عكرمة.

{٤٥٨٣} قوله: «هَلَكَتْ قِلَادَةٌ لأَسْمَاءَ» يعني: ضاعت، وجاء في الحديث الآخر أن هذه القصة حصلت مع عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأن القلادة كانت لها وأنها

---

(١) أحمد (٤/ ٢٦٤)، والبخاري (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨).

استعارتها من أختها أسماء رضي الله عنها[١]، فيحتمل أنها نفس القصة، ويحتمل أنها قصة أخرى، وهي قصة التماس عقد عائشة رضي الله عنها.

○ وقوله: «فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهَا رِجَالًا» يعني: يطلبون القلادة.

وفيه: دليل على أن المال لا يُضيَّع، وأنه يعتنى به، وأن ولي الأمر يعتني بأموال رعيته، فالنبي ﷺ أوقف الجيش وتأخر حتى تطلب القلادة، فالمال له شأن عظيم، وهو عصب الحياة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النِّسَاء: ٥].

○ وقوله: «فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ» أي: إن رجالًا ذهبوا يلتمسون القلادة فأدركتهم الصلاة وهم يبحثون عنها.

○ وقوله: «وَلَيْسُوا عَلَىٰ وُضُوءٍ، وَلَمْ يَجِدُوا مَاءً»، أي: ليسوا على ماء، ولم يشرع التيمم.

○ قوله: «فَصَلَّوْا وَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ وُضُوءٍ»، أي: صلوا بغير وضوء بالماء أو تيمم بالتراب؛ فدل على أن الإنسان إذا فقد الماء والتراب صلى على حسب حاله ولا يعيد، وقال بعض أهل العلم: إنه يعيد الصلاة، والصواب أنه لا يعيد.

واستُدل به كذلك على أن من عجز عن استعمال الماء والتراب فإنه يصلي على حسب حاله ولو بغير وضوء أو تيمم، كالمربوط بخشبة والمصلوب والمريض مثلًا في المستشفى على سريره، وليس عنده أحد فإنه يصلي على حسب حاله، والله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغَابُن: ١٦].

○ وقوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ التَّيَمُّمَ»، وفي لفظ آخر: «آيَةَ التَّيَمُّمِ»[٢].

---

(١) أحمد (٦/ ٥٧)، والبخاري (٣٣٦)، ومسلم (٣٦٧).
(٢) أحمد (٦/ ١٧٩)، والبخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]

أي: ذَوِي الأَمْرِ منكم.

{٤٥٨٤} حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الفَضْلِ، أَخْبَرَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ، عَنْ يَعْلَىٰ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﷺ ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]. قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ، إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ.

الشَّرْح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾: ذَوِي الأَمْرِ منكم» هذه الآية فيها الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وطاعة أولي الأمر، وفسر المصنف رحمه الله أولي الأمر بالأمراء، وتفسر كذلك بالعلماء.

ولم يُعد الله تعالى الفعل في أولي الأمر فقال: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر؛ للدلالة على أن طاعة أولي الأمر تابعة لله والرسول ﷺ.

قال العلماء:

والحكمة في ذلك أن طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة؛ لأن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بطاعة الله، والله تعالى يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النِّسَاء: ٨٠] وأما أولي الأمر فإن طاعتهم مقيدة بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فقد يأمرون بغير طاعة الله، فلا يطاعون إلا في طاعة الله.

{٤٥٨٤} قوله: «عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ، إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ» هذا ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أنها نزلت في عبد الله بن حذافة، قيل: إنه هو الذي غضب عليهم وأمرهم أن يجمعوا حطبًا ويأججوها نارًا وأن

يدخلوا فيها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ فرقًا من النار؛ فتركوه حتى سكن غضبه، فلما جاءوا إلى النبي ﷺ أخبروه فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها؛ إنما الطاعة في المعروف**»[(١)] وهذه الآية عامة.

(١) أحمد (١/ ١٢٤)، والبخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]

{٤٥٨٥} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فِي شَرِيجٍ مِنَ الحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَىٰ جَارِكَ». فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْ كَانَ ابن عَمَّتِكَ؟ فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ ٱحْبِسِ المَاءَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَىٰ جَارِكَ». وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصَارِيُّ، كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ. قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسِبُ هٰذِهِ الآيَاتِ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

الشَّرْح

○ قوله: «بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٦٥]» هذه الآية أقسم الله تعالى فيها بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا الرسول ﷺ في موارد النزاع، ولا يكفي هذا بل مع ذلك عليهم أن لا يجدوا في أنفسهم حرجًا من قضائه، ولا يكفي هذا أيضًا بل مع ذلك لابد أن يسلموا أي: يطمئنوا، وأكد الله تعالى الفعل بالمصدر فقال: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

{٤٥٨٥} قوله: «خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فِي شَرِيجٍ مِنَ الحَرَّةِ» الشريج: هو مسيل الوادي، وإذا سال الوادي نزل الماء من الجبل المرتفع فيمر على المزارع التي يسمونها بعولًا؛ سواء كانت حبوبًا أو خضراوات أو أشجارًا غرست أو غيرها، فيسقي الأول ويأخذ منه حاجته ثم يرسله إلى المزارع الثاني ثم الثالث وهكذا، فإذا نزل الماء فإن صاحب البستان الأول يعدله على محله حتى ترتوي الأرض ثم يرسل الماء إلى جاره وهكذا، فحصلت مخاصمة بين الزبير

وجار له من الأنصار؛ لأن الزبير أعلى فيمر به الماء أولًا والأنصاري بعده، فاختصما إلى النبي ﷺ.

○ قوله: «فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَىٰ جَارِكَ»، أي: اسق أرضك، ولم يبين له النبي ﷺ مقدار ما يسقي؛ فلم يقل مثلًا: احبس الماء مقدار شبر أو شبرين؛ بل قال: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَىٰ جَارِكَ» فالأمر فيه سعة.

○ وقوله: «فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْ كَانَ ابن عَمَّتِكَ؟»؛ لأن الزبير ابن صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، وقيل: إن هذا الرجل كان منافقًا، وقيل: ليس منافقًا، ولكنه قال ذلك بسبب الغضب.

○ قوله: «فَتَلَوَّنَ وَجْهُهُ»، أي: تغير وجه النبي ﷺ من هذه المقالة ومن هذا الكلام؛ إذ كيف يقال للنبي ﷺ هذا الكلام؟! وهو أفضل الخلق ﷺ ومعصوم من الخطأ فيما يبلغ عن الله من الشريعة ويحكم بشرع الله ويأتيه خبر السماء صباحًا ومساء.

○ وقوله: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ ٱحْبِسِ المَاءَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَىٰ جَارِكَ»، أي: لما قال له الأنصاري هذا الكلام وأغضبه أعطى النبي ﷺ الزبير الحكم بأن يأخذ حقه كاملًا، فلم يقل احبس الماء واتركه ينصرف لكن قال: «ٱحْبِسِ المَاءَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ»، وعرف الجدر فقيل: مقدار ما يغطي الكعب؛ فكأن النبي ﷺ قال له: احبس الماء حتى يغطي كعبي رجلك، ثم أرسله إلى جارك.

○ وقوله: «وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصَارِيُّ» استوعى يعني: استوفى وزنًا ومعنًى أي: استوفى النبي ﷺ للزبير حقه كاملًا، ومعنى «أَحْفَظَهُ»: أغضبه.

○ وقوله: «كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ» يعني: في أول الأمر أشار النبي ﷺ بأمر لهما فيه سعة بأن يسقي الزبير ثم يرسل الماء إلى جاره، لكن لما أغضب الأنصاري النبي ﷺ استوفى النبي ﷺ الحق كاملًا للزبير.

○ وقوله: «قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسِبُ هَٰذِهِ الآيَاتِ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾» وتمامها: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: ٦٥].

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية [النساء: ٦٩]

{٤٥٨٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوْشَبٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ». وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الذِي قُبِضَ فِيهِ أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ.

الشَّرْح

{٤٥٨٦} قولها: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» مرض يمرض من باب: فرح يفرح، أما يُمرض فهو مبني للمجهول.

○ وقولها: «وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الذِي قُبِضَ فِيهِ أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ» تعني أن الله خيره بين الدنيا والآخرة وأنه اختار الآخرة واختار ما عند الله، ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ طلب عند موته أن يكون معهم، وفي اللفظ الآخر أنها قالت: «**قلت: إذن لا يختارنا**»(١).

(١) أحمد (٦/ ٧٤)، والبخاري (٤٤٦٣)، (٢٤٤٤).

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ٧٥]

{٤٥٨٧} حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عُبَيْدِ الله، قَالَ: سَمِعْتُ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ.

{٤٥٨٨} حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ: أَنَّ ابن عَبَّاسٍ تَلَا ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء: ٩٨] قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ.

وَيُذْكَرُ عَنِ ابن عَبَّاسٍ: ﴿حَصِرَتْ﴾ [النساء: ٩٠]: ضَاقَتْ. ﴿تَلْوُۥٓا۟﴾ [النساء: ١٣٥]: أَلْسِنَتَكُمْ بِالشَّهَادَةِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: المُرَاغَمُ: المُهَاجَرُ. رَاغَمْتُ: هَاجَرْتُ قَوْمِي. ﴿مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]: مُوَقَّتًا وَقْتَهُ عَلَيْهِمْ.

الشَّرْح

خاطب الله تعالى المؤمنين في هذه الآية فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما الذي يمنعكم أن لا تقاتلوا في سبيل الله؟ ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النِّسَاء: ٧٥] فحثهم الله تعالى على القتال والجهاد في سبيله والدفاع عن المستضعفين المظلومين.

{٤٥٨٧} قوله عن ابن عباس: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ» قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

❖ ❖ ❖

{٤٥٨٨} قوله: «عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ: أَنَّ ابن عَبَّاسٍ تَلَا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ» يعني: في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النِّسَاء: ٩٧] ففيه وجوب الهجرة وأنه يجب على المسلم أن يهاجر من بلد الشرك الذي لا يقيم فيها دينه؛ فقد توعد الله تعالى بالنار من لم يهاجر، ثم استثنى العاجز فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء: ٩٨] فاستثنى الله من الوعيد المستضعف الذي لا يستطيع، وقد يكون المستضعف رجلًا أو امرأة أو صبيًّا، وكان ابن عباس وأمه ممن عذر الله.

○ قوله: «**وَيُذْكَرُ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿حَصِرَتْ﴾: ضَاقَتْ**» يعني: من قوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٩٠].

○ قوله: «**﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ [النساء: ١٣٥]: أَلْسِنَتَكُمْ بِالشَّهَادَةِ**» يعني: من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٣٥].

○ قوله: «**وَقَالَ غَيْرُهُ: المُرَاغَمُ: المُهَاجَرُ**» يعني: من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾ [النِّسَاء: ١٠٠].

○ قوله: «**رَاغَمْتُ: هَاجَرْتُ قَوْمِي**»، فالشاهد أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر الكلمات التي وردت في الآيات.

وبعده في بعض النسخ: «**﴿مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾: مُوَقَّتًا وَقْتَهُ عَلَيْهِمْ**»[1] يعني: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١٠٣] أي: مؤقتة وقتها الله عليهم، وروي عن ابن عباس: ﴿مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾: مفروضًا.

(١) البخاري (٤٥٨٨).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية [النساء: ٨٨]

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَرْكَسَهُم﴾: بَدَّدَهُمْ. فِئَةٌ: جَمَاعَةٌ.

{٤٥٨٩} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَا: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَدِيٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨]: رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ النَّاسُ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فَرِيقٌ يَقُولُ: اقْتُلْهُمْ، وَفَرِيقٌ يَقُولُ: لَا. فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨] وَقَالَ: «إِنَّهَا طَيْبَةُ، تَنْفِي الخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ».

الشَّرْح

○ قوله: «بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النِّساء: ٨٨]» هذه الآية نزلت في غزوة أحد لما انخذل عبد الله بن أبي ورجع بثلث الجيش، وقال: يأخذ برأيهم ولا يأخذ برأيي، فلحقهم بعض المسلمين وقالوا ينصحونهم: اتقوا الله كيف تتركون النبي ﷺ؟ فذكر الله جوابهم: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٧]، أي: ليس هناك قتال؛ فاختلف الناس فيهم: فمنهم من قال: يا رسول الله، اقتلهم، ومنهم من قال: لا تقتلهم؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؛ فئة تقول: اقتلهم، وفئة أخرى تقول: لا تقتلهم، ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: «بَدَّدَهُمْ» كما فسرها ابن عباس، وقيل: أوقعهم.

فسر المؤلف رحمه الله الفئة بالجماعة.

{٤٥٨٩} قوله: «رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ النَّاسُ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فَرِيقٌ يَقُولُ: اقْتُلْهُمْ، وَفَرِيقٌ يَقُولُ: لَا. فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، وَقَالَ: إِنَّهَا طَيْبَةُ، تَنْفِي الخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ» قال هذا عن المدينة.

وهذا قاله النبي ﷺ لما جاءه أعرابي وأسلم ثم أصابته وعكة فطلب من النبي ﷺ بعدما عاهده على الإسلام أن يرد إليه عهده فأبى، فخرج الأعرابي فقال النبي ﷺ: «**إنها طيبة**»، أي: المدينة «**كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها**»[(١)].

(١) البخاري (٧٢١١)، ومسلم (١٣٨٣).

بَابُ
﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣]

أي: أَفْشَوْهُ.

﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء: ٨٣]: يَسْتَخْرِجُونَهُ. ﴿حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]: كَافِيًا ﴿إِنَٰثًا إِلَّآ﴾ [النساء: ١١٧] الْمَوَاتَ حَجَرًا أَوْ مَدَرًا وَمَا أَشْبَهَهُ. ﴿مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧]: مُتَمَرِّدًا. ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ [النساء: ١١٩] بَتَّكَهُ قَطَّعَهُ. ﴿قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وَقَوْلًا وَاحِدٌ ﴿طَبَعَ﴾ خُتِمَ.

الشَّرح

○ قوله: «باب ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ٨٣]»، فيكون بابًا مستقلًّا، وفي بعض النسخ بدون ذكر: «باب» فيحتمل أنه من النساخ فهم يأتون بالآثار أو بتفسير لبعض الكلمات مع حذف لفظ: «باب».

وفسر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الكلمات التي في الآيات فقال: «﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾: أي: أَفْشَوْهُ»، يعني: في هذه الآية السابقة.

○ قوله: «﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: يَسْتَخْرِجُونَهُ» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٨٣].

يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر في هذا الباب آثارًا ولم يذكر فيه حديثًا، وقد وقع عند مسلم من حديث عمر في سبب نزولها أن النبي ﷺ لما هجر نساءه وشاع أنه طلقهن، وأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاءه فقال: أطلقت نساءك؟ قال: «لا»[(١)]، قال: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه؛ فنزلت هذه الآية، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر».

(١) مسلم (١٤٧٩).

وبعده في بعض النسخ: «﴿حَسِيبًا ۝٨٦﴾: كَافِيًا»[(١)] أي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ [النِّسَاء: ٨٦]، يعني: كافيًا، فالحسب الكفاية.

○ قوله: «﴿إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾» يعني: «المَوَاتَ حَجَرًا أَوْ مَدَرًا وَمَا أَشْبَهَهُ»، أي: في قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ [النِّسَاء: ١١٧]، يعني: المشركين، والمراد بالموات ضد الحيوان أي الذي ليس له نفس، فإن يدعون من دونه إلا أمواتًا.

○ قوله تعالى: «﴿مَّرِيدًا ۝١١٧﴾ [النِّسَاء: ١١٧]»، فسره فقال: «متمردًا».

○ قوله: «﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ بَتَّكَهُ قَطَّعَهُ»، يعني: قوله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [النِّسَاء: ١١٩] أي: الشيطان يأمرهم أن يقطعوا آذان الأنعام.

○ قوله: «﴿قِيلًا ۝١٢٢﴾، وَقَوْلًا وَاحِدٌ»، يعني: من حيث المعنى، والمراد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النِّسَاء: ١٢٢].

○ قوله: «﴿طَبَعَ﴾ [النِّسَاء: ١٥٥]: خُتِمَ» فالطبع الختم.

(١) البخاري (٥/ ٣٩٢ - فتح).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾

الآية [النساء: ٩٣]

{٤٥٩٠} حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا مُغِيرَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ قَالَ: آيَةٌ ٱخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الكُوفَةِ، فَرَحَلْتُ فِيهَا إِلَى ابن عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ.

الشَّرح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾» هذا وعيد شديد على قاتل المؤمن متعمدًا، وتمام الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٣]، فإنه يعاقب بخمس عقوبات وردت في الآية الكريمة:

الأولىٰ: جزاؤه جهنم.

الثانية: الخلود فيها.

الثالثة: الغضب عليه.

الرابعة: اللعن والطرد من رحمة الله.

الخامسة: إعداد العذاب العظيم له.

{٤٥٩٠} قوله: «آيَةٌ ٱخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الكُوفَةِ» يعني: هل القاتل له توبة أو ليس له توبة؟

○ وقوله: «فَرَحَلْتُ فِيهَا إِلَى ابن عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: نَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾. هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا

نَسَخَهَا شَيْءٌ» ظاهره أن ابن عباس يرى أن القاتل لا توبة له، وقيل: إنه رجع عن ذلك، وقيل: إن مقصوده التنفير، فقيل: إن ابن عباس جاءه رجل يسأله فقال: يا ابن عباس هل للقاتل توبة؟ فقال: لا. ثم جاءه رجل آخر فسأله: هل للقاتل توبة؟ فقال: نعم. فالأول سأل وهو يريد القتل فأفتاه ابن عباس بأنه ليس له توبة زجرًا له، والثاني جاءه نادمًا فأجابه ابن عباس بأن له توبة.

وجماهير العلماء بل كالإجماع منهم على أن القاتل له توبة إذا تاب؛ لأنه من تاب تاب الله عليه، ولكن **يتعلق بالقاتل ثلاثة حقوق**:

الأول: حق لله، فإذا تاب توبة نصوحًا فيما بينه وبين الله؛ بأن ندم على ما مضى، وأقلع عن المعصية، وعزم على ألا يعود إليها - سقط حق الله.

الثاني: حق أولياء القتيل، فإذا سلم نفسه لأولياء القتيل وتصالح معهم على أن يقتلوه قصاصًا أو يصفحوا عنه بالدية أو يصفحوا مجانًا - سقط حقهم.

الثالث: حق المقتول، فإذا أدى حق الله وحق أولياء القتيل فالله تعالى يرضي القتيل يوم القيامة بما يعطيه له من الثواب والمنازل في الجنة فيسامحه ويعفو عليه.

والدليل على أن القاتل له توبة عموم قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣] بل حتى المشرك له توبة، فقد أجمع العلماء على أن هذه الآية للتائبين؛ لأن الله عمم وأطلق، فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨] فهذه في غير التائبين؛ لأن الله خص وعلق، فخص الشرك بأنه لا يغفر، وعلق ما دونه بالمشيئة؛ فدل على أنه في غير التائبين.

ومما يدل أيضًا على أن القاتل له توبة حديث الرجل الذي قتل مائة نفس وأنه لما مات في أثناء الطريق اختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب[(١)].

---

(١) أحمد (٣/ ٢٠)، والبخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النِّسَاء: ٩٣] عند أهل العلم أن المراد إن جازاه الله ولم يعف عنه ولم يتب فهذا هو الجزاء وهو الخلود في جهنم لكن بثلاثة شروط:

الأول: أن يجزيه الله.

الثاني: ألا يعفو عنه.

الثالث: ألا يتوب منه.

ثم المراد بالخلود في الآية هو المكث الطويل وله نهاية؛ فهذا حال العصاة فهم يتفاوت بقاؤهم في النار على حسب جرائمهم كما ورد في النصوص.

أما خلود الكفرة فهو خلود مؤبد لا نهاية له، وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٧] وقال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المَائدة: ٣٧]، وقد دلت النصوص على أن الجنة والنار دائمتان لا تفنيان، والجهمية هم الذين يقولون بفناء الجنة والنار جميعًا، وهو قول فاسد، وربما نسب إلى بعض العلماء مثل شيخ الإسلام القول بفناء النار وليس هذا بصحيح، ونسب إلى كتابي «الروح» و«شفاء العليل» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، والأقرب أن ابن القيم له قولان في ذلك، وقد رجع عن أحدهما، والآثار التي رويت في ذلك أكثرها آثار ضعيفة لا تثبت، ومن العلماء من قال: الذين قالوا بفناء النار محمول على فناء نار العصاة أما نار الكفرة فلا تفنى.

هذا وإن المشركين الذين يدخلون النار يحمدون الله على حكمه وأنهم أهل لذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [المُلك: ١٠-١١].

ومِنْ شُبَهِ الجهمية التي جعلتهم يقولون بفناء الجنة والنار الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا

دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هُـود: ١٠٦-١٠٨] وهاتان الآيتان قال بعض العلماء فيهما: هو استثناء الرب ولا يفعله، وقال بعضهم: يرجع إلى قبل دخولهم الجنة مدة لبثهم في القبر أو في الدنيا، وعلى كل حال فقد جاء ما يدل على أن الجنة مستمرة وأن النار مستمرة ودائمة، وأن هذا الاستثناء ليس المراد منه أنها تفنى قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المَائدة: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٧]، وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسرَاء: ٩٧] فدل على أن قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هُود: ١٠٧] لا يدل على فنائها.

بَابٌ قوله:
﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾

[النساء: ٩٤]

السِّلْمُ، وَالسَّلَمُ، وَالسَّلَامُ وَاحِدٌ.

{٤٥٩١} حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]. قَالَ: قَالَ ابن عَبَّاسٍ: كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٣] تِلْكَ الْغُنَيْمَةُ. قَالَ: قَرَأَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾.

الشَّرْح

○ قوله: «باب قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ «ٱلسَّلَٰمَ» لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾» وتمام الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ٩٤] يعني إذا سافرتم للجهاد في سبيل الله ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من التبين أي: لا تتسرعوا، قرأ حمزة والكسائي: «فتثبتوا» من التثبيت[1]، ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ من أجل الدنيا ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فقبل أن يمن الله عليكم بالإسلام كنتم مثله، ﴿فَتَبَيَّنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٤] يعني: فتثبتوا.

{٤٥٩١} قوله: «كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ» يعني: ظنوا أنه قالها تعوذًا.

○ وقوله: «وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾».

---

(١) انظر: الهادي شرح طيبة النشر (٢/١٥٦).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ» في رواية سماك: «وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت»[(١)] وروى البزار من طريق حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية قصة أخرى قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال له النبي ﷺ: «كيف لك بلا إله إلا الله غدًا»[(٢)] وأنزل الله هذه الآية، وهذه القصة يمكن الجمع بينها وبين التي قبلها ويستفاد منها تسمية القاتل، وأما المقتول فروى الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس؛ وأخرجه عبد بن حميد من طريق قتادة نحوه - واللفظ للكلبي - أن اسم المقتول مرداس بن نهيك من أهل فدك، وأن اسم القاتل أسامة بن زيد، وأن اسم أمير السرية غالب بن فضالة الليثي، وأن قوم مرداس لما انهزموا بقي هو وحده، وكان ألجأ غنمه بجبل فلما لحقوه قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد، فلما رجعوا نزلت الآية، وكذا أخرج الطبري من طريق السدي نحوه، وفي آخر رواية قتادة: لأن تحية المسلمين السلام بها يتعارفون، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة عن أبي الزبير عن جابر قال: أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ [النِّسَاء: ٩٤] في مرداس، وهذا شاهد حسن».

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الآية دليل على أن من أظهر شيئًا من علامات الإسلام لم يحل دمه حتى يختبر أمره؛ لأن السلام تحية المسلمين، وكانت تحيتهم في الجاهلية بخلاف ذلك، فكانت هذه علامة، وأما على قراءة: «السَّلَم» على اختلاف ضبطه» يعني: قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ ففي قراءة: ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾ وفي قراءة: ﴿السِّلْم﴾[(٣)].

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمراد به الانقياد وهو علامة الإسلام؛ لأن معنى الإسلام في اللغة الانقياد، ولا يلزم من الذي ذكرته الحكم بإسلام من اقتصر

(١) أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٩).
(٢) البزار (٢/ ١٩٦).
(٣) انظر: الهادي شرح طيبة النشر (٢/ ١٥٧).

على ذلك وإجراء أحكام المسلمين عليه بل لابد من التلفظ بالشهادتين على تفاصيل في ذلك بين أهل الكتاب وغيرهم، والله أعلم».

قلت: لا شك أن من أظهر الإسلام فلا يجوز قتله كأن تلفظ بالإسلام أو قال: أسلمت، بل يجب الكف عنه ثم بعد ذلك ينظر إن التزم بالإسلام فالحمد لله، وإن لم يلتزم وارتد قُتل بعد ذلك؛ ولهذا أنكر النبي ﷺ على أسامة لما قتل الرجل الذي قال: لا إله إلا الله وشدد عليه حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا يومئذ[(١)]، وكذلك أنكر على خالد رضي الله عنه لما قتل بني جذيمة بعدما قالوا: صبأنا صبأنا، يريدون أن يقولوا: أسلمنا، فجعل خالد يقتلهم فلما جاء النبي ﷺ رفع ﷺ يديه مرتين أو ثلاثة، وقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»[(٢)] ووداهم من عند نفسه حتى دفع ميلغة الكلب[(٣)] أي: أنه أعطاهم ﷺ قيمة كل ما ذهب لهم حتى قيمة ميلغة الكلب - أي: الإناء الذي يلغ فيه إذا شرب -[(٤)].

فالذي أظهر الإسلام أو نطق بالشهادتين أو قال: السلام عليكم أو قال: أسلمت أو قال: صبأت - وهو لا يعرف - لا يجوز قتله بل يكف عنه.

---

(١) أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).
(٢) أحمد (٢/ ١٥٠)، والبخاري (٤٣٣٩).
(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٩٦)، و«دلائل النبوة»، للبيهقي (٥/ ١١٤-١١٥)، و«البداية والنهاية»، لابن كثير (٤/ ٣١٣) و(٦/ ٣٢٣).
(٤) انظر: «غريب الحديث»، لابن قتيبة (٢/ ١٤٢)، و«النهاية في غريب الحديث والأثر»، لابن الأثير (٥/ ٢٢٥).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

{٤٥٩٢} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنِ ابنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ أَنَّهُ رَأَىٰ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ فِي المَسْجِدِ، فَأَقْبَلْتُ حَتَّىٰ جَلَسْتُ إِلَىٰ جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنَا، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] فَجَاءَهُ ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهْوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، واللهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهَادَ لَجَاهَدْتُ -وَكَانَ أَعْمَىٰ- فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّىٰ خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

{٤٥٩٣} حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا، فَجَاءَ ابنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَشَكَا ضَرَارَتَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

{٤٥٩٤} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ادْعُوا فُلَانًا». فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللَّوْحُ أَوِ الكَتِفُ فَقَالَ: «اكْتُبْ: لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ». وَخَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا ضَرِيرٌ. فَنَزَلَتْ مَكَانَهَا ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

{٤٥٩٥} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، أَنَّ ابنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ ح. وَحَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا ابنُ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَنِي

عَبْدُ الكَرِيمِ، أَنَّ مِقْسَمًا مَوْلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ ابن عَبَّاسٍ ﵄ أَخْبَرَهُ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] عَنْ بَدْرٍ وَالْخَارِجُونَ إِلَىٰ بَدْرٍ.

الشَّرْح

{٤٥٩٢} هذا الحديث من رواية سهل بن سعد - وهو صحابي - عن مروان بن الحكم - وهو تابعي - عن زيد بن ثابت - وهو صحابي - وهذا من النادر.

وهذا الحديث فيه سبب نزول هذه الآية: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ٩٥] أي: لا يستوي القاعد والمجاهد.

○ وقوله: «فَجَاءَهُ ابن أُمِّ مَكْتُومٍ وَهْوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ» يعني: يمليها كما في قوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢] يعني: يملي. والمقصود أن ابن أم مكتوم جاءه وشكا ضرارته فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النِّسَاء: ٩٥] فألحقها النبي ﷺ وأمر بإلحاقها.

❖ ❖ ❖

{٤٥٩٣} قوله: «ضَرَارَتَهُ» يعني: العمى؛ لأنه أعمى البصر.

❖ ❖ ❖

{٤٥٩٤} قوله: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ادْعُوا فُلَانًا». فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللَّوْحُ أَوِ الكَتِفُ فَقَالَ: اكْتُبْ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾» هذا الحديث فيه بيان فضل المجاهدين، وأن القاعد عن الجهاد لا يستوي مع المجاهد ولا يلحقه، وإن كان المؤمنون كلهم في الجنة، إلا أن درجات المجاهدين عالية فوق درجات القاعدين؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾، ولكن استثنى الله تعالى أولي الضرر فقال: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾؛ لأن أولي الضرر معذورون كابن أم مكتوم. قال الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٥-٩٦]، يعني:

درجات يزيدون بها على القاعدين ومغفرة ورحمة؛ وفي الحديث: «**إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين ما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله**»(١) وهذا فضل عظيم.

○ وقوله: «**وَخَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ**»، يعني: أنه جالس خلفه، وذلك من حرصه الشديد واهتمامه بهذا الشيء وهذا الأمر.

❖ ❖ ❖

{٤٥٩٥} قوله: «**أَخْبَرَنِي عَبْدُ الكَرِيمِ**» ذكر الحافظ في «الفتح» أنه الجزري، وفي «التقريب»: «عبد الكريم بن مالك الجزري أبو سعيد مولى بني أمية وهو الخضرمي - بالخاء والضاد المعجمتين - نسبة إلى قرية من اليمامة: ثقة متقن من السادسة، مات سنة سبع وعشرين»(٢).

وخضرم هذه بلدة قرب منفوحة كان يعرفها أهل الرياض، نسب إليها فيقال له: خضرمي.

○ قوله: «**أَنَّ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** [النِّسَاء: ٩٥] **عَنْ بَدْرٍ وَالْخَارِجُونَ إِلَىٰ بَدْرٍ**» هذا فيه تخصيص لأهل بدر؛ لأن لهم مزية، فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم**»(٣)، وهذه الآية عامة.

---

(١) أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاري (٢٧٩٠).

(٢) «تقريب التهذيب» (ص ٦١٩).

(٣) أحمد (١/ ٧٩)، والبخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤).

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾
الآية [النساء: ٩٧]

{٤٥٩٦} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ وَغَيْرُهُ، قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو الْأَسْوَدِ قَالَ: قُطِعَ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثٌ فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابن عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَىٰ بِهِ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] الآيَةَ.
رَوَاهُ اللَّيْثُ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ الآية» هذه الآية فيها الوعيد الشديد على من أقام من المؤمنين في بلاد الكفار ولم يهاجر وهو لا يستطيع إظهار دينه، فهو مرتكب لكبيرة، وقد توعده الله بالنار، إلا العاجز الذي لا يستطيع فإنه مستثنى؛ سواء كان امرأة أو طفلًا أو رجلًا فقد عذره الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بإقامتهم في بلاد الكفار، أي: لما جاءت ملائكة الموت لهؤلاء المؤمنين الذين عاشوا في بلاد الكفار، ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، فهذه محاورة بين الملائكة وبين المؤمنين الذين يبررون الإقامة في بلد الكفر بالاستضعاف، فرد الملائكة عليهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، أي: لمَ لمْ تهاجروا إلى بلد تقيمون فيها دينكم؟ قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٩٧﴾ [النساء: ٩٧]. وهذا يدل على وجوب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وهو دليل على أن البقاء في بلاد

الكفار وعدم الهجرة كبيرة إلا إذا كان يقيم دينه أو كان داعية فلا بأس، ثم استثنى الله العاجز فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٨-٩٩].

{٤٥٩٦} قوله: «قُطِعَ عَلَىٰ أَهْلِ المَدِينَةِ بَعْثٌ»، يعني: جيش أو سرية، وقائل هذا الكلام هو محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود.

○ قوله: «فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ» يعني: ألزم بالخروج في الجيش للقتال بعد موت يزيد بن معاوية، وكان ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير.

○ وقوله: «فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابن عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ» أي: قال له: لا تخرج؛ لأن هذا قتال فتنة. وهذا على حسب ما فهم عكرمة.

وفيه: نظر؛ لأن هذا الجيش إنما خرج لقتال الباغين على الخليفة وهو عبد الله بن الزبير الذي تمت له البيعة بعد موت يزيد، ثم بعد ذلك نازعه مروان بن الحكم ثم عبد الملك بن مروان.

○ وقوله: «ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ المُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ المُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ المُشْرِكِينَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، يعني: كان هناك ناس من المسلمين جلسوا مع المشركين حتى جاءت غزوة بدر فأخرجهم الكفار معهم بالإكراه؛ ليقاتلوا معهم ويكثروا سوادهم على رسول الله ﷺ.

○ وقوله: «يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَىٰ بِهِ، فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ»، يعني: يأتي السهم من قبل المسلمين لقتال الكفار فيصيب المسلمين الذين أخرجوا كرهًا.

○ وقوله: «أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآيَةَ» فنهى عكرمة أبا الأسود عن الخروج في قتال الفتنة، وقال: لا تقاتل ولا تكثر سواد البغاة الذين يخرجون على ولي الأمر؛ فإن الآية نزلت في المؤمنين الذين كثروا سواد المشركين فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «قُطِعَ» بضم أوله.

○ قوله: «بَعْثٌ»، أي: جيش.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «فَاكْتُتِبْتُ» بضم المثناة الأولى وكسر الثانية بعدها موحدة ساكنة على البناء للمجهول».

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذه القصة دلالة على براءة عكرمة مما ينسب إليه من رأي الخوارج؛ لأنه بالغ في النهي عن قتال المسلمين وتكثير سواد من يقاتلهم، وغرض عكرمة أن الله ذم من كثر سواد المشركين مع أنهم كانوا لا يريدون بقلوبهم موافقتهم. قال: فكذلك أنت لا تكثر سواد هذا الجيش وإن كنت لا تريد موافقتهم؛ لأنهم لا يقاتلون في سبيل الله.

وقوله: ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ سؤال توبيخ وتقريع.

واستنبط سعيد بن جبير من هذه الآية وجوب الهجرة من الأرض التي يعمل فيها بالمعصية».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ الآية [النساء: ٩٨]

{٤٥٩٧} حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: ٩٨] قَالَ: كَانَتْ أُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ.

الشَّرْح

{٤٥٩٧} قوله: «عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ قَالَ: كَانَتْ أُمِّي مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ» يعني: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٧-٩٨]. ففيه وجوب الهجرة، وأنه يجب على المسلم أن يهاجر من بلد الشرك الذي لا يقيم فيها دينه فقد توعد الله تعالى بالنار من لم يهاجر، ثم استثنى العاجز فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ فاستثنى الله من الوعيد المستضعف الذي لا يستطيع. وقد يكون المستضعف رجلًا أو امرأة أو صبيًّا، وكان ابن عباس وأمه ممن عذر الله.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٩٩﴾ [النساء: ٩٩]

{٤٥٩٨} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي العِشَاءَ إِذْ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ: «اللَّهُمَّ نَجِّ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ نَجِّ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ نَجِّ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، اللَّهُمَّ نَجِّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ ٱشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَىٰ مُضَرَ، اللَّهُمَّ ٱجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ».

الشَّرْح

كرر المؤلف ﷺ التراجم، ولو جعلها بابًا واحدًا لكفى.

{٤٥٩٨} قوله: «اللَّهُمَّ نَجِّ المُسْتَضْعَفِينَ»، دعاء للمستضعفين، وهذا هو الشاهد للترجمة.

ومناسبة هذا الحديث لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٩٩﴾ [النِّسَاء: ٩٨-٩٩]. أن الآية فيها أن الله عفا عن المستضعفين.

وفي الحديث: مشروعية القنوت في النوازل.

وفيه: مشروعية القنوت في صلاة العشاء، ويشرع كذلك في صلاة الفجر، وقد جاء كثيرًا عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يدعو للمؤمنين ويلعن العصاة حتى في الصلوات الأخرى(١).

وفيه: مشروعية تسمية من يدعى له ومن يدعى عليه في القنوت، فالنبي ﷺ دعا لأناس ودعا على أناس.

وفيه: أن القنوت يكون قبل السجود بعد أن يقول: سمع الله لمن حمده.

(١) أحمد (٢/ ٢٥٥)، والبخاري (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ الآية [النساء: ١٠٢]

{٤٥٩٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ أَبُو الحَسَنِ، أَخْبَرَنَا حَجَّاجٌ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي يَعْلَىٰ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ [النساء: ١٠٢] قَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ كَانَ جَرِيحًا.

الشَّرْح

{٤٥٩٩} قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، قَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ كَانَ جَرِيحًا» فيه: أن الله سبحانه وتعالى رفع الجناح عن المؤمنين بوضع السلاح مع أخذ الحذر حينما يقاتلون الأعداء وذلك لمرض أو مطر، بعدما كانوا يأخذون السلاح وهم يصلون؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ يعني: صلوا ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٠٢].

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ الآية [النساء: ١٢٧]

{٤٦٠٠} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]. قَالَتْ: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ اليَتِيمَةُ، هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا، فَأَشْرَكَتْهُ فِي مَالِهِ حَتَّىٰ فِي العِذْقِ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا، وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا رَجُلًا، فَيَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرِكَتْهُ، فَيَعْضُلَهَا، فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ.

الشَّرْح

{٤٦٠٠} قوله: «﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾»، يعني: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النِّسَاء: ١٢٧].

○ وقوله: «﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾»، يعني: يطلبون الفتوى، وهي الجواب عن الحادثة التي تشكل على السائل، وفيها وجهان: الفتوى والفتيا، وهي مشتقة من الفتى، وهو الشاب القوي.

وقد نزلت هذه الآية في اليتيمة تكون تحت حجر وليها كابن عمها، فيعضلها ويريد أن يتزوجها هو ولا يعطيها حقها من المهر، ولا يرضى أن يزوجها غيره؛ لئلا يشاركه في المال، قالت عائشة: «حَتَّىٰ فِي العِذْقِ» وهي: النخلات.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ **الآية** [النساء: ١٢٨]

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿شِقَاقِ﴾ [النساء: ٣٥]: تَفَاسُدٌ. ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨]: هَوَاهُ فِي الشَّيْءِ يَحْرِصُ عَلَيْهِ ﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء: ١٢٩]: لَا هِيَ أَيِّمٌ وَلَا ذَاتُ زَوْجٍ. ﴿نُشُوزًا﴾ [النساء: ١٢٨]: بُغْضًا.

{٤٦٠١} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨]. قَالَتِ: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ المَرْأَةُ لَيْسَ بِمُسْتَكْثِرٍ مِنْهَا، يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا، فَتَقُولُ: أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ. فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ.

الشَّرح

○ قوله: «﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾»، يعني: خافت من زوجها ترفعًا عليها، أو إعراضًا عنها؛ أو هجرًا لها، أو خشيت أن يطلقها، فلا بأس أن تصالحه على إسقاط شيء من حقها كأن تقول: أسقط عنك القسم، أو: أسقط عنك بعض النفقة وأبقى معك، كما فعلت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ فهي لما كبرت سنها خافت أن يطلقها النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أبقني معك وليلتي لعائشة، فأبقاها النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة ليلتين: ليلتها وليلة سودة[(١)]، فلا بأس بهذا الصلح، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾.

○ قوله: «﴿شِقَاقِ﴾» فسر ابن عباس رضي الله عنهما الشقاق بالتفاسد.

(١) أحمد (٦/٦٨)، والبخاري (٥٢١٢)، ومسلم (١٤٦٣).

○ قوله: «﴿ٱلشُّحَّ﴾» فسره فقال: «هَوَاهُ فِي الشَّيْءِ يَحْرِصُ عَلَيْهِ».

○ قوله: «﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾: لَا هِيَ أَيِّمٌ وَلَا ذَاتُ زَوْجٍ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النِّساء: ١٢٩]، والعدل يكون في أربعة أشياء: في النفقة والكسوة والمسكن والقسم، والنفقة: الأكل والشرب، والكسوة: اللباس والثياب، والسكنى: البيت، والقسم: أي لكل واحدة ليلة. فكان النبي ﷺ يقسم في هذه الأشياء الأربعة، ويقول: «**اللهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(١)؛ أما العدل الكامل فلا يستطيعه الإنسان، وهو محبة القلب وما ينشأ عنه من الوطء؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ﴾ أي: العدل الكامل في كل شيء، ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾، أي: تترك الزوجة كالمعلقة، وقد فسر المعلقة بالتي «لَا هِيَ أَيِّمٌ وَلَا ذَاتُ زَوْجٍ»، أي: لا هي مطلقة ولا صاحبة زوج.

○ قوله: «﴿نُشُوزًا﴾: بُغْضًا» فسرها بالبغض، وهو معنى من معانيها.

{٤٦٠١} ذكر حديث عائشة ﵂ في تفسير هذه الآية وفيه: «قَالَتِ: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ المَرْأَةُ لَيْسَ بِمُسْتَكْثِرٍ مِنْهَا، يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا، فَتَقُولُ: أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ. فَنَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ فِي ذَلِكَ».

وذكر الحافظ ابن حجر ﵀ أثرًا عن علي ﵁ قال: نزلت في المرأة تكون عند الرجل تكره مفارقته فيصطلحان على أن يجيئها كل ثلاثة أيام أو أربعة، وهذا نوع من المصالحة.

وذكر أيضًا أثر رافع بن خديج ﵁ أنه كانت تحته امرأة فتزوج عليها شابة، فآثر البكر عليها، فنازعته فطلقها ثم قال لها: إن شئت راجعتك وصبرت، فقالت: راجعني، فراجعها ثم لم تصبر؛ فطلقها، قال: فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله أنزل فيه هذه الآية.

---

(١) أحمد (٦/ ١٤٤)، وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: أَسْفَلَ النَّارِ، ﴿نفقًا﴾ [الأنعام: ٣٥]: سَرَبًا.

{٤٦٠٢} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ، عَنِ الأَسْوَدِ قَالَ: كُنَّا فِي حَلْقَةِ عَبْدِ اللهِ، فَجَاءَ حُذَيْفَةُ حَتَّىٰ قَامَ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَ النِّفَاقُ عَلَىٰ قَوْمٍ خَيْرٍ مِنْكُمْ. قَالَ الأَسْوَدُ: سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] فَتَبَسَّمَ عَبْدُ اللهِ، وَجَلَسَ حُذَيْفَةُ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ فَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ، فَرَمَانِي بِالْحَصَا، فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: عَجِبْتُ مِنْ ضَحِكِهِ، وَقَدْ عَرَفَ مَا قُلْتُ، لَقَدْ أُنْزِلَ النِّفَاقُ عَلَىٰ قَوْمٍ كَانُوا خَيْرًا مِنْكُمْ، ثُمَّ تَابُوا فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ.

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: أَسْفَلَ النَّارِ» يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وذلك أن النار دركات، وكل دركة سفلى أشد عذابًا من الدركة التي أعلى منها، وأما الجنة فهي درجات، وكل درجة عليا أعلى نعيمًا من الدرجة التي تحتها، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، أي: أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ فهم أشد عذابًا من اليهود والنصارى والوثنيين؛ لأنهم وافقوا اليهود والنصارى والوثنيين في الشرك والكفر وزادوا عليهم خداع من يعيشون معهم من المسلمين وتدبير المكائد للقضاء عليهم وعلى الإسلام، بخلاف اليهودي والنصراني والوثني فهو عدو مكشوف تأخذ حذرك منه، لكن المنافق عدو خفي متلبس بين المسلمين.

○ قوله: «﴿نفقًا﴾: سَرَبًا» هذه الكلمة ليست في سورة النساء، وإنما هي في سورة الأنعام قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥]؛ ولعل مناسبة ذكرها هنا الإشارة إلى اشتقاق النفاق.

{٤٦٠٢} قوله: «كُنَّا فِي حَلْقَةِ عَبْدِ اللهِ، فَجَاءَ حُذَيْفَةُ حَتَّىٰ قَامَ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَ النِّفَاقُ عَلَىٰ قَوْمٍ خَيْرٍ مِنْكُمْ»، كأنه يخاطب بعض التابعين.

○ وقوله: «قَالَ الأَسْوَدُ: سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فَتَبَسَّمَ عَبْدُ اللهِ»، يعني: تبسم عبد الله بن مسعود تقريرًا لقول حذيفة، «وَجَلَسَ حُذَيْفَةُ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ فَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ، فَرَمَانِي بِالْحَصَا، فَأَتَيْتُهُ» أي: رمى حذيفة الأسود بالحصا يستدعيه إليه.

○ وقوله: «فَقَالَ حُذَيْفَةُ: عَجِبْتُ مِنْ ضَحِكِهِ»، أي: من ضحك ابن مسعود، يعني من اقتصاره على الضحك، ولم يتكلم بشيء، وذلك يدل على إقراره لقول حذيفة، وربما أوهم أنه مخالف له.

○ وقوله: «وَقَدْ عَرَفَ مَا قُلْتُ، لَقَدْ أُنْزِلَ النِّفَاقُ عَلَىٰ قَوْمٍ كَانُوا خَيْرًا مِنْكُمْ، ثُمَّ تَابُوا فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ» يعني: ابتلوا به؛ لأنهم من طبقة الصحابة، وهم خير من التابعين، ولكن الله ابتلاهم فارتدوا ونافقوا؛ فذهبت الخيرية منهم، ومنهم من تاب فعاد إلى الخيرية، فكأن حذيفة - كما ذكر الحافظ - حذر الذين خاطبهم، وأشار عليهم ألا يغتروا، فإن القلوب تتقلب، حذرهم من الخروج من الإيمان؛ لأن الأعمال بالخواتيم، ولأن الإنسان لا ينبغي له أن يغتر.

وذكر الحافظ ابن حجر ﷺ: أن المنافق هو الذي يظهر خلاف ما يبطن، واشتقاق النفاق من النافقاء، وهو جحر اليربوع، واليربوع له جحران: جحر يقال له: القاصعاء، وجحر يقال له: النافقاء، أي: جحر ظاهر وجحر خفي، يجعل جحرًا معروفًا، ثم يجعل جحرًا خفيًّا؛ يحفر فإذا أَرَقَّ التراب فلم يبق إلا التراب تركه، فإذا جاءه أحد من الجحر المعروف ضرب التراب برأسه وخرج من الجحر غير المعروف، فهذا الجحر غير المعروف له باطن وله ظاهر، ظاهره أنه التراب وباطنه أنه حفر، وكذلك المنافق ظاهره الإسلام وباطنه الكفر، وقيل: اشتقاقه من النفق وهو السرب.

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «ويستفاد من حديث حذيفة أن الكفر والإيمان والإخلاص والنفاق كل بخلق الله تعالى وتقديره وإرادته»، ولا شك أن الله خالق كل شيء.

ثم قال ﷫: «ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النِّسَاء: ١٤٦] صحة توبة الزنديق، وقبولها على ما عليه الجمهور»، والزنديق: هو المنافق.

ثم قال الحافظ ﷫: «فإنها مستثناة من المنافقين من قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّسَاء: ١٤٥]، وقد استدل بذلك جماعة منهم أبو بكر الرازي في أحكام القرآن، والله أعلم».

فذكر الشارح أن الجمهور على القول بتوبة الزنديق، وهذا يحتاج إلى تأمل، هل هذا مذهب الجمهور، أم أن مذهبهم أنها لا تقبل في الظاهر، وإجراء الأحكام على كل حال؟ فالمحققون على أن توبة الزنديق لا تقبل في أحكام الدنيا، وأما في الآخرة فالله تعالى يقبل توبة الصادقين، لكن في الدنيا لابد من إقامة الحد عليهم، فلابد من إقامة الحد على الزنديق، والساحر، ومن تكررت ردته، والمستهزئ بالله وبكتابه وبرسوله ﷺ وبدينه، كل هؤلاء لا تقبل توبتهم في الظاهر، ولابد من قتلهم ردعًا للناس.

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية ﷫ كتابًا خصص فيه قتل الزنديق وسماه: «الصارم المسلول على شاتم الرسول».

ولو سلم المنافق نفسه - وهو قليل في المنافقين - فهذا دليل على التوبة.

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ﴾ [النساء: ١٦٣].

{٤٦٠٣} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي الأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ».

{٤٦٠٤} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، حَدَّثَنَا هِلَالٌ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ فَقَدْ كَذَبَ».

الشَّرْح

{٤٦٠٣}، {٤٦٠٤} أدرج هذين الحديثين تحت قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [النِّسَاء: ١٦٣]، وذكر منهم يونس، وهو قد أوحي إليه وأرسل إلى أمة عظيمة.

○ قوله: «مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ فَقَدْ كَذَبَ»، في اللفظ الآخر: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى، ونسبه إلى أبيه**»[(١)] وسبب قول النبي ﷺ ذلك أن ما جرى منه في قصته مع قومه وذهابه مغاضبًا كما قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والتقام الحوت له - قد يوهم بعض الناس أنه خير منه.

وقد دعا يونس عليه السلام قومه فردوا دعوته؛ فغضب عليهم وقال: انتظروا العذاب، فذهب وركب السفينة وكانت ممتلئة، فقالوا: لابد أن ينزل واحد، فتساهموا فسقط عليه السهم فأنزلوه فالتقمه الحوت، ثم لفظه الحوت كما قال الله

(١) أحمد (١/ ٢٤٢)، والبخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٢٣٧٧).

تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصَّافات: ١٣٩-١٤٠] المشحون أي: الممتلئ، فالفلك مشحون وملآن؛ فلا بد أن يلقى منه أحد، ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصَّافات: ١٤١]، أي: فوقع عليه السهم، فسقط في باطن الحوت، ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصَّافات: ١٤٢-١٤٦]. قال العلماء: شجرة من يقطين؛ لأنها لا يقع عليها شيء من الحشرات، وهو قد خرج من باطن الحوت وجلده رقيق عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يتحمل حتى وقوع الحشرة عليه؛ حتى يتقوى جلده ويتعود على الهواء.

ثم أرسله الله إلى قومه، فلما جاءهم آمنوا، وكانوا مائة ألف أو يزيدون، كما قال الله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصَّافات: ١٤٧-١٤٨].

وهذه القرية - قرية يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ - استثناها الله من العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يُونس: ٩٨] فإنه كان إذا نزل بقوم عذاب أو أسباب العذاب لا تقبل توبتهم، إلا قوم يونس استثناهم الله، فقد شهدوا أسباب العذاب فآمنوا، فقبل الله إيمانهم.

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦]

وَالْكَلَالَةُ: مَنْ لَمْ يَرِثْهُ أَبٌ ولا ابن، وَهْوَ مَصْدَرٌ مِنْ تَكَلَّلَهُ النَّسَبُ.

{٤٦٠٥} حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ الْبَرَاءَ رضي الله عنه قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةَ، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

الشَّرْح

هذه الآية تسمى آية الكلالة، والكلالة من لا ولد له ولا والد، والكلالة يرثه الإخوة كما قال الله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ورث الإخوة، والإخوة لا يرثون إلا مع فقد الأب والجد والأولاد، فدل على أن الكلالة من لا ولد له ولا والد؛ ولهذا قال: «مَنْ لَمْ يَرِثْهُ أَبٌ ولا ابن، وَهْوَ مَصْدَرٌ مِنْ تَكَلَّلَهُ النَّسَبُ».

{٤٦٠٥} قوله: «آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ: بَرَاءَةَ» وهي سورة التوبة، «وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ» هي «﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾» ولا شك أن الآية فيها أحكام بعض الورثة، وأن آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: ٣] تدل على كمال الدين، والأقرب أنها بعدها، وأما آخر ما نزل، فهو آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

وقول البراء رضي الله عنه يقال: هذا على حسب علمه رضي الله عنه، أو يحمل على وجه حسن، فيقال: إنها آخر آية تتعلق بالمواريث.

٥- ومن سورة المَائِدَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَابٌ ﴿حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١]

وَاحِدُهَا حَرَامٌ. ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [المائدة: ١٣] بِنَقْضِهِمْ ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٢١] جَعَلَ اللهُ. ﴿تَبُوٓأَ﴾ [المائدة: ٢٩] تَحْمِلُ ﴿دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] دَوْلَةٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ الإِغْرَاءُ التَّسْلِيطُ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥] مُهُورَهُنَّ. قَالَ سُفْيَانُ مَا فِي القُرْآنِ آيَةٌ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] مَخْمَصَةٌ: مَجَاعَةٌ. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢] يَعْنِي مَنْ حَرَّمَ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ حَيِيَ النَّاسُ مِنْهُ جَمِيعًا. ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]: سَبِيلاً وَسُنَّةً المُهَيْمِنُ الأَمِينُ، القُرْآنُ أَمِينٌ عَلَىٰ كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ.

الشَّرح

هذا تفسير سورة المائدة، وبدأ المؤلف ﷺ بتفسير الكلمات التي يحتاج إلى معرفة معناها طالب العلم.

○ قوله: «﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾: بِنَقْضِهِمْ» ما للتوكيد، وهذا أحد الأقوال والتقدير: فبنقضهم. وذكر الحافظ ﷺ أن هذا تفسير قتادة.

○ قوله: «﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ﴾» فسرها بقوله: «جَعَلَ اللهُ».

○ قوله: «﴿حُرُمٌ﴾: واحدها حرام»، يعني: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[المَائدة: ١].

○ قوله: «﴿تَبُوٓأَ﴾» فسرها بقوله: «تَحْمِلُ».

○ قوله: «﴿دَآئِرَةٌ﴾» فسرها بقوله: «دَوْلَةٌ».

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ الإِغْرَاءُ التَّسْلِيطُ»، يعني: تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾ [المَائدة: ١٤].

○ قوله: «﴿أُجُورَهُنَّ﴾» فسرها بقوله: «مُهُورَهُنَّ».

○ قوله: «قَالَ سُفْيَانُ مَا فِي القُرْآنِ آيَةٌ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المَائدة: ٦٨]» لا شك أن هذه الآية شديدة، وهي شاملة لهذه الأمة وإن كانت في أهل الكتاب؛ لأنها أمر بما أنزله الله، قال الله لأهل الكتاب: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يعني: حتى تعملوا بالتوراة والإنجيل، وكذلك هذه الأمة ليست على شيء حتى تعمل بالقرآن والسنة، فليس هذا خاصًّا بأهل الكتاب فالآية عامة.

○ قوله: «﴿مَخْمَصَةٍ﴾» فسرها بقوله: «مَجَاعَةٌ».

○ قوله: «﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾» فسرها بقوله: «مَنْ حَرَّمَ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ حَيِيَ النَّاسُ مِنْهُ جَمِيعًا».

○ قوله: «﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: سَبِيلاً وَسُنَّةً»، يعني: تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: ٤٨].

○ قوله: «المُهَيْمِنُ: الأَمِينُ، القُرْآنُ أَمِينٌ عَلَىٰ كُلِّ كِتَابٍ»، يعني: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: ٤٨].

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: مَخْمَصَةٌ مَجَاعَةٌ.

{٤٦٠٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ قَيْسٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَتِ اليَهُودُ لِعُمَرَ: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً لَوْ نَزَلَتْ فِينَا لَاتَّخَذْنَاهَا عِيدًا. فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ حَيْثُ أُنْزِلَتْ، وَأَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَأَيْنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَإِنَّا والله بِعَرَفَةَ. قَالَ سُفْيَانُ: وَأَشُكُّ كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَمْ لَا. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

الشَّرْح

{٤٦٠٦} قوله: «قَالَتِ اليَهُودُ لِعُمَرَ: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً لَوْ نَزَلَتْ فِينَا لَاتَّخَذْنَاهَا عِيدًا» لا شك أنها في يوم عيد، وفي اللفظ الآخر أنهم قالوا: لو نزلت فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا[(١)] وهو يوم عيد؛ ولهذا قال عمر: «إِنِّي لَأَعْلَمُ حَيْثُ أُنْزِلَتْ، وَأَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَأَيْنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ»، وهو يوم عيد.

○ قوله: «قَالَ سُفْيَانُ: وَأَشُكُّ كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَمْ لَا» تقدم أنه كان يوم الجمعة بدون شك، فكان يوم عرفة هو يوم الجمعة وهو يوم عيد.

وهذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المَائدة: ٣] من فضل الله تعالى على هذه الأمة؛ حيث امتن الله تعالى على هذه الأمة بإكمال الدين وإتمام النعمة، والله سبحانه رضي لنا الإسلام دينا.

وفي الآية الرد على أهل البدع الذين يبتدعون في دين الله ما ليس منه، وهم في المعنى يزيدون فيه، فكأن المبتدع يقول: إن الدين ناقص وأريد أن أتمه وأكمله، والدين كامل لا يحتاج إلى بدع المبتدعين، وليس فيه نقص، ولم يترك

(١) أحمد (١/٢٨)، والبخاري (٤٤٠٧).

شيئًا في الكتاب إلا ذكره، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ففيه القواعد العامة التي يدخل فيها كل شيء، وليس المراد أن القرآن ينص على كل جزئية، فمثلًا إباحة الطيبات وتحريم الخبائث قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٥]. فهذا فيه: تحليل الطيبات، وقوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] تشمل كل الخبائث من الدخان والخمور وغيرها.

وليس هناك شيء إلا ذكر في القرآن والسنة، والسنة وحي ثان، وهي تابعة للقرآن، والعمل بالسنة عمل بالقرآن؛ لأن الله أمر بالعمل بالسنة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] وقال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. ومن زعم أنه يترك العمل بالسنة فقد ترك العمل بالقرآن، ومن أنكر شيئًا من السنة كفر وهو مكذب لله ومكذب لرسوله ﷺ.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]

﴿تَيَمَّمُوا۟﴾ [المائدة: ٦]: تَعَمَّدُوا. ﴿ءَآمِّينَ﴾ [المائدة: ٢]: عَامِدِينَ. أَمَّمْتُ وَتَيَمَّمْتُ وَاحِدٌ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: لَمَسْتُمْ وَتَمَسُّوهُنَّ ﴿ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] وَالإِفْضَاءُ: النِّكَاحُ.

{٤٦٠٧} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ القَاسِمِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ- قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الجَيْشِ انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى التِمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَىٰ مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ. فَأَتَى النَّاسُ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالُوا: أَلَا تَرىٰ مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ؟! أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ، وَلَيْسُوا عَلَىٰ مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَىٰ فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَىٰ مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي، وَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ فَخِذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ أَصْبَحَ عَلَىٰ غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ. قَالَتْ: فَبَعَثْنَا البَعِيرَ الذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا العِقْدُ تَحْتَهُ.

{٤٦٠٨} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي ابن وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمْرٌو أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ القَاسِمِ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها سَقَطَتْ قِلَادَةٌ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ المَدِينَةَ، فَأَنَاخَ النَّبِيُّ ﷺ وَنَزَلَ، فَثَنَىٰ رَأْسَهُ فِي حَجْرِي رَاقِدًا، أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَكَزَنِي لَكْزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ. فَبِي المَوْتُ لِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ، وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ فَالْتُمِسَ المَاءُ فَلَمْ يُوجَدْ، فَنَزَلَتْ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾

[المائدة: ٦] الآيَةَ. فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ: لَقَدْ بَارَكَ اللهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَرَكَةٌ لَهُمْ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿«فإن لم» تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. وفسر المصنف رَحِمَهُ الله بعض الكلمات.

○ قوله: «﴿تَيَمَّمُواْ﴾: تَعَمَّدُوا»، يعني: تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المَائدة: ٦] يعني: اعمدوا واقصدوا الصعيد.

○ قوله: «﴿ءَآمِّينَ﴾: عَامِدِينَ»؛ لأن المادة تدل على القصد.

○ قوله: «أَمَّمْتُ وَتَيَمَّمْتُ وَاحِدٌ»، أممت قِبَل كذا يعني: قصدت وتوجهت.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَمَسْتُمُ﴾ و﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ و﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ وَالإِفْضَاءُ: النِّكَاحُ» كلها المراد بها الجماع والنكاح، ولكن الله يكني.

فقوله: ﴿لَمَسْتُمُ﴾ يعني: جامعتم، كما في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٧] أي: من قبل الجماع، و﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ المراد بالدخول الجماع، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّسَاء: ٢١] والإفضاء هو النكاح أي الجماع.

كذلك «لَمَسْتُمْ»، ومن العلماء من قال: ﴿لمستم﴾ على قراء حمزة والكسائي المراد باللمس الجس باليد، و﴿لَمَسْتُمُ﴾ المراد به النكاح.

{٤٦٠٧}، {٤٦٠٨} هذان الحديثان استنبط منهما العلماء كثيرًا من الأحكام وأهمها ما يلي:

أولاً: مشروعية التيمم، وهي من خصائص هذه الأمة كما قال النبي ﷺ: **«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل»**[1].

(١) أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

ثانياً: أن التيمم يشرع في حالتين:

الحالة الأولى: إذا فقد الماء.

الحالة الثانية: إذا عجز عن استعماله، أو كان يضره استعماله، فإنه يعدل عن الماء إلى التيمم.

وصفة التيمم أنه ضربة واحدة على الصحيح في أصح قولي العلماء؛ لحديث عمار في الصحيحين لما أصابته جنابة وتقلب في التراب أن النبي ﷺ قال له: «**إنما يكفيك أن تضرب بيديك هكذا؛ وضرب بكفيه الأرض ضربة واحدة**»(١) ومسح بهما وجهه ثم مسح يديه مسح الشمال على اليمين واليمين على الشمال، وقال بعض العلماء: التيمم ضربتان؛ ضربة للوجه، وضربة لليدين، وهو قول مرجوح، واستدلوا ببعض الأحاديث عن بعض الصحابة، وهو محمول على أنهم لم يبلغهم الحديث، والصواب والعمدة حديث عمار السابق، وكذلك حديث عائشة هذا وهو مجمل، لكن بينه حديث عمار.

ثالثاً: اعتناء الإمام بأحوال رعيته، وقضاء حاجاتهم؛ فإنه ﷺ جلس لالتماس هذا العقد، والله أعلم كم يساوي.

رابعاً: جواز إقامة الجيش على غير ماء إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

خامساً: جواز معاتبة الرجل ابنته إذا كانت كبيرة، فأبو بكر عاتب ابنته عائشة، ولم ينكر عليه النبي ﷺ، وكذلك جواز لكزه لها تأديبًا، وجواز تأديب الرجل ولده ولو كان كبيرًا.

سادساً: فضل عائشة وثباتها وحسن خلقها، وجمعها بين مراعاة حق رسول الله ﷺ حيث لم تتحرك؛ لأن رأس رسول الله على فخذها، ومراعاة حق أبيها، وتحملها لكلامه وطعنه ولكزه لها، وعدم الرد عليه، فجمعت بين أداء حق الرسول ﷺ وحق أبيها.

سابعاً: فيه دليل على أن بعض الناس مبارك، ومنهم آل أبي بكر الذين

(١) أحمد (٤/ ٢٦٥)، والبخاري (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨).

نزلت بسببهم آية التيمم، وجواز قول: هذا من بركتك إذا كان الشخص مباركًا، فقوله: «مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ»، يعني: البركة التي جعل الله فيكم، إذا كان الإنسان فيه خير ينفع الناس بماله فينفقه في المشروعات الخيرية، أو ببدنه يحملهم ويساعدهم، أو بتوجيهه بآرائه السديدة، أو بتعليمه ونصحه، أو غير ذلك من وجوه الخير - فيقال: هذه من بركتك التي جعل الله فيك، أو يقال: شخص مبارك كما قال أسيد بن حضير لعائشة: «مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ»، وفي اللفظ الآخر أنه قال: «**لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم**»[(١)]، فلا بأس بهذا القول.

ثامناً: أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، حيث إنه أرسل أناسًا يبحثون عن العقد ولم يجدوه، ثم لما بعثوا البعير وجدوه تحت البعير، فلو كان يعلم الغيب لما أرسل ناسًا يبحثون عن العقد وهو تحت البعير؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمل: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجنّ: ٢٦-٢٧]. فمن زعم أن الرسول يعلم الغيب فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ومن كذب الله كفر، وهناك طائفة يسمون: البرلاوية في الهند، يزعمون أن الرسول يعلم الغيب، وهي طائفة كافرة، وقد كتب بعض الطلاب أصحاب المنح عنهم رسالة لنيل درجة العالمَّية.

وفيه: أن اللكزة شديدة، حتى أحست منها بالموت؛ لأنها قالت في لفظ ثان: «**فبي الموت لمكان رسول الله ﷺ**»[(٢)].

(١) البخاري (٤٦٠٨).
(٢) البخاري (٤٦٠٨).

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾

[المائدة: ٢٤]

{٤٦٠٩} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ مُخَارِقٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، سَمِعْتُ ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْتُ مِنَ المِقْدَادِ ح. وَحَدَّثَنِي حَمْدَانُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا الأَشْجَعِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مُخَارِقٍ، عَنْ طَارِقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ المِقْدَادُ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولـٰكن ٱمْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ. فَكَأَنَّهُ سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَرَوَاهُ وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مُخَارِقٍ، عَنْ طَارِقٍ: أَنَّ المِقْدَادَ قَالَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

الشَّرْح

{٤٦٠٩} قوله: «حَدَّثَنَا الأَشْجَعِيُّ» بالياء هو عبيد الله بن عبيد الرحمن الأشجعي ثقة مأمون، أثبت الناس كتاباً في الثوري كما قال الحافظ، من كبار التاسعة مات سنة اثنتين وثمانين ومائة.

وقيل هذا للنبي ﷺ لما استشار الناس يوم بدر بالقتال؛ فإنه لما فات العير تكلم المهاجرون وقالوا: إنهم على استعداد للقتال والدفاع، فسكت النبي ﷺ، فأعادوا مرة ثانية، فتكلم الأنصار وقالوا: إيانا تريد يا رسول الله، ففهموا أن النبي ﷺ يريد أن يعرف رأيهم؛ لأن النبي ﷺ لما هاجر أخذ عليهم العهد أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ممن جاءه في المدينة، وهو الآن خارج المدينة، فقال المقداد رضي الله عنه هذه المقالة: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]، ولـٰكن ٱمْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ»، وفي اللفظ الآخر: «**نقاتل عن يمينك**

وعن شمالك ومن بين يدك ومن خلفك»[١] «**فكأنه سري عن النبي ﷺ**».

وفي الحديث: فضل الصحابة رضوان الله عليهم، وفضل هذه الأمة، بخلاف اليهود الذين جمعوا السوء والعناد الذين قالوا لنبيهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]، فنبيهم يأمرهم بأن يذهبوا معه ويقول: إن الله وعدني فتح بيت المقدس فيقولون: لا، اذهب أنت وربك، أما نحن فجالسون، ويقولون: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢﴾ [المائدة: ٢٢]، فنصحهم رجلان صالحان: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة: ٢٣-٢٤] ففرق - كما بين السماء والأرض - بين مقالة بني إسرائيل لموسى، ومقالة أصحاب النبي للنبي ﷺ.

---

(١) أحمد (١/ ٣٨٩)، والبخاري (٣٩٥٢).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾
الآية [المائدة: ٣٣]

الْمُحَارَبَةُ لله: الكُفْرُ بِهِ.

{٤٦١٠} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنَا ابن عَوْنٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَلْمَانُ أَبُو رَجَاءٍ- مَوْلَىٰ أَبِي قِلَابَةَ- عَنْ أَبِي قِلَابَةَ: أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا خَلْفَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، فَذَكَرُوا وَذَكَرُوا، فَقَالُوا وَقَالُوا: قَدْ أَقَادَتْ بِهَا الخُلَفَاءُ، فَالْتَفَتَ إِلَىٰ أَبِي قِلَابَةَ وَهْوَ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ زَيْدٍ؟ أَوْ قَالَ: مَا تَقُولُ يَا أَبَا قِلَابَةَ؟ قُلْتُ: مَا عَلِمْتُ نَفْسًا حَلَّ قَتْلُهَا فِي الإِسْلَامِ إِلَّا رَجُلٌ زَنَىٰ بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أَوْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ. فَقَالَ عَنْبَسَةُ: حَدَّثَنَا أَنَسٌ بِكَذَا وَكَذَا. قُلْتُ: إِيَّايَ حَدَّثَ أَنَسٌ قَالَ: قَدِمَ قَوْمٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَكَلَّمُوهُ فَقَالُوا: قَدِ ٱسْتَوْخَمْنَا هٰذِهِ الأَرْضَ. فَقَالَ: «هٰذِهِ نَعَمٌ لَنَا تَخْرُجُ، فَاخْرُجُوا فِيهَا، فَاشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا». فَخَرَجُوا فِيهَا، فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا وَاسْتَصَحُّوا، وَمَالُوا عَلَى الرَّاعِي فَقَتَلُوهُ، وَاطَّرَدُوا النَّعَمَ، فَمَا يُسْتَبْطَأُ مِنْ هٰؤلاءِ؟ قَتَلُوا النَّفْسَ، وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَخَوَّفُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ. فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! فَقُلْتُ: تَتَّهِمُنِي؟ قَالَ: حَدَّثَنَا بِهٰذَا أَنَسٌ. قَالَ: وَقَالَ يَا أَهْلَ كَذَا، إِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا أُبْقِيَ هٰذَا فِيكُمْ -أَوْ- مِثْلُ هٰذَا.

الشَّرْحُ

هذه الآية التي ترجم بها المؤلف ﷺ تسمى آية المحاربين، قال الله فيها: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ [المائدة: ٣٣] والمحاربون هم الذين يقطعون الطريق

على الناس؛ أحيانا يقتلون، وأحيانا يقطعون الطريق، ويوقفون السبيل، يقفون في طرق الناس في الأسفار فيوقفون الناس ويأخذون أموالهم، ويقتلون من يقتلون، ويسلبون من يسلبون، فالله تعالى أنزل في هذه الآية عقوبتهم من قبل ولاة الأمور.

قال بعض العلماء: إن الإمام مخير بين هذه الأمور الأربعة؛ إما أن يقتلهم، أو يصلبهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفيهم من الأرض، وقيل: إن هذا على حسب أحوالهم: إن قَتلوا قُتلوا وصُلبوا، وإن قتلوا وسرقوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن أخافوا السبيل ولم يقتلوا ولم يسرقوا نُفوا من الأرض.

○ قوله: «الْمُحَارَبَةُ لله: الكُفْرُ بِهِ» يعني: أعلى المحاربة لله الكفر بالله؛ هذه أعلى المحاربة، وإلا فإن المحارب - قاطع الطريق - قد يكون كافرًا كما حصل في قصة الذين قتلوا وسرقوا وكفروا وارتدوا، وقد يكون فاسقًا غلبه حب المال والطمع فصار يقطع الطريق ويأخذ أموال الناس.

{٤٦١٠} قوله: «عَنْ أَبِي قِلَابَةَ: أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا خَلْفَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، فَذَكَرُوا وَذَكَرُوا» أي: ذكروا القسامة، وسيأتي حكمها، فسأل عمر بن عبد العزيز أبا قلابة فقال: «مَا تَقُولُ يَا أَبَا قِلَابَةَ؟» قال: «مَا عَلِمْتُ نَفْسًا حَلَّ قَتْلُهَا فِي الإِسْلَامِ إِلَّا رَجُلٌ زَنَىٰ بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أَوْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ»، فإنه يرتد.

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه في معنى هذا: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[1].

ثم ذكر حديث أنس رضي الله عنه في قدوم العرنيين قال: «قَدِمَ قَوْمٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَكَلَّمُوهُ فَقَالُوا: قَدِ ٱسْتَوْخَمْنَا هٰذِهِ الأَرْضَ» وهم العرنيون، لما جاءوا المدينة مرضوا واستوخموا الأرض؛ لأنهم تعودوا على البادية والهواء الطلق، فأمرهم

(١) أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

النبي ﷺ أن يلحقوا بإبل الصدقة، وقال: «**هٰذِهِ نَعَمٌ لَنَا تَخْرُجُ**»، يعني: إبل تخرج لترعى، فأمرهم أن يخرجوا إلى الإبل التي ترعى في البر؛ لأنها تأكل من حشائش الأرض، ولا تأكل مما يعطى في البلد من الطعام وغيره، وفرق بين الدابة التي ترعى من البر والتي تعلف، أو التي تعطى شيئًا من الطعام، فالتي ترعى في البر لبنها مفيد وفيه صحة لهم؛ ولذلك أمرهم النبي أن يخرجوا إلى إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، فخرجوا فشربوا وصحوا وذهب الوخم عنهم.

وفيه: دليل على طهارة أبوال الإبل وغيرها مما يؤكل لحمه؛ لأن النبي ﷺ لا يأمر بعصيان، خلافًا للشافعية[1] الذين ذهبوا إلى أن الأبوال كلها نجسة؛ وهذا الحديث فيه رد عليهم، والصواب أن بول جميع ما يؤكل لحمه من الإبل والبقر والغنم طاهر، وأما ما لا يؤكل لحمه فهي نجسة.

واستدل الشافعية ببعض الأحاديث التي تستنزه من البول، فقالوا: هذه عامة في الأبوال، والصواب أن هذا الحديث مخصص لها من بول ما لا يؤكل لحمه، أما ما يؤكل لحمه فبوله طاهر، وروثه طاهر، وريقه طاهر، ولو كان نجسًا لأمرهم النبي ﷺ أن يغسلوا أفواههم، ولما أمرهم بشربها!.

فلما صحوا وذهب ما بهم من الوخم ارتدوا وكفروا وقتلوا الراعي، وفي رواية: «**وقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل**»[2].

○ وقوله: «**وَاطَّرَدُوا النَّعَمَ**»، يعني: أخرجوها طردًا وسرقوها.

○ قوله: «**فَمَا يُسْتَبْطَأُ مِنْ هٰؤلاءِ؟**»، يعني: ما يرجى منهم من خير، يقول: «**قَتَلُوا النَّفْسَ، وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَخَوَّفُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ**»، يعني: ما الذي يرجى لهم من الخير بعد أن فعلوا ما فعلوه؟

○ قوله: «**فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! فَقُلْتُ: تَتَّهِمُنِي؟ قَالَ: حَدَّثَنَا بِهٰذَا أَنَسٌ. قَالَ: وَقَالَ يَا أَهْلَ كَذَا، إِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا أُبْقِيَ هٰذَا فِيكُمْ -أَوْ- مِثْلُ هٰذَا**»،

(١) انظر: «مغني المحتاج» (١/ ٢٣٣).
(٢) أحمد (٣/ ١٩٨)، والبخاري (٦٨٠٢).

يعني: مادام هذا العالم الحبر فيكم، وفي اللفظ الآخر: أن النبي ﷺ أرسل في أثرهم لما هربوا، فجيء بهم حينما ارتفع النهار، فأمر النبي ﷺ بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف. يعني كل واحد قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى، ولم يحسمهم. يعني جعل الدم ينزف حتى ماتوا؛ فالسارق إذا قطعت يده فإنها تحسم يعني يصب عليها الدهن الحار حتى يقف الدم، ولم يكن عندهم وسائل توقف الدم مثلما هو موجود الآن، لكن هؤلاء تركهم حتى يموتوا فالمقصود قتلهم، وأمر بأعينهم فسملت كما فعلوا بالراعي، وتركوا في الحر يستسقون فلا يسقون حتى ماتوا[(١)]؛ لأنهم ارتدوا وسرقوا وقتلوا وكفروا بالله ورسوله.

(١) أحمد (٣/ ٢٠٥)، والبخاري (٢٣٣)، ومسلم (١٦٧١).

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ [المائدة: ٤٥]

{٤٦١١} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَلَام، أَخْبَرَنَا الفَزَارِيُّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَسَرَتِ الرُّبَيِّعُ -وَهْيَ عَمَّةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ- ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَطَلَبَ القَوْمُ القِصَاصَ، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْقِصَاصِ. فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ -عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-: لَا والله، لَا تُكْسَرُ سِنُّهَا يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ». فَرَضِيَ القَوْمُ وَقَبِلُوا الأَرْشَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ».

الشَّرح

{٤٦١١} ذكر المؤلف رحمه الله حديث أنس على قوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾.

والشاهد فيه قوله: «يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ»، لما كسرت الربيع ثنية جارية أمر النبي ﷺ بالقصاص، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾، وكسر السن من الجرح، وقد سبق هذا الحديث في سورة البقرة على قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وأعاده هنا على قوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾.

وهذه القصة كانت قبل غزوة أحد؛ لأن أنس بن النضر رضي الله عنه قتل يوم أحد، وهذه الترجمة ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ من المائدة، وهي من آخر ما نزل، ولا يلزم من ترجمة المؤلف بالآية أن تكون نزلت في قصة الربيع.

وقول أنس بن النضر: «لَا والله، لَا تُكْسَرُ سِنُّهَا» من باب إحسان الظن بالله، وليس من باب الاعتراض؛ حيث يقول له النبي ﷺ: «يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ»، وهو يقول: «والله، لَا تُكْسَرُ سِنُّهَا»؛ لأنه سيبذل الجهود راجيًا من الله أن يحقق ما رجاه في أن يقبل منه الدية، وكان في الأول قد عرض عليهم

الدية؛ لأن الربيع كسرت ثنية الجارية متعمدة، فأبوا، قالوا: لا، بل نريد القصاص، فحقق رجاءه، وعفا القوم، وقبلوا الدية، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ»، وهذا يحصل لمن كان مستجاب الدعوة كسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مجاب الدعوة»، قال: «**أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**»[1] فكان مجاب الدعوة، وكان يقسم على الله، فإذا التقت في الصفوف جيوش المسلمين جيوش القياصرة والروم قالوا: يا سعد، أقسم على ربك.

وحسن الظن بالله غير التألي على الله الذي جاء في حديث قصة العابد والعاصي الذي رآه ونهاه عن المعصية فلم ينته، «**فقال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة فقال الله: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر له، إني قد غفرت له وأحبطت عملك**»[2] فقال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. ففرق بين التألي على الله وحسن الظن بالله.

وينبغي للإنسان أن يكون على حذر في هذا الأمر، فلابد أن يكون الشخص مستقيمًا على طاعة الله، ويكون مطعمه حلالًا؛ ليكون مجاب الدعوة، وبعد أن يأخذ الاحتياطات الشديدة يقدم على مثل هذا الأمر.

(١) الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣١١).
(٢) مسلم (٢٦٢١).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية [المائدة: ٦٧]

{٤٦١٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ كَذَبَ، والله يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] الآيَةَ.

الشَّرح

{٤٦١٢} في هذا الحديث أن عائشة ﵂ قالت لمسروق: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ كَذَبَ» أخذت ذلك من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، ومن صدق الرسول ﷺ وأمانته، وهي قد صدقت ﵂، فالرسول ﷺ هو أمين الله على وحيه، وهو أصدق الناس وأعظمهم أمانة عليه الصلاة والسلام.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٨٩]

{٤٦١٣} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ سُعَيْرٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أُنْزِلَتْ هٰذِه الآيَةُ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لَا واللهِ، وَبَلَىٰ واللهِ.

{٤٦١٤} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا النَّضْرُ، عَنْ هِشَامٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ أَبَاهَا كَانَ لَا يَحْنَثُ فِي يَمِينٍ حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ كَفَّارَةَ اليَمِينِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا أَرىٰ يَمِينًا أُرىٰ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا قَبِلْتُ رُخْصَةَ اللهِ، وَفَعَلْتُ الذِي هُوَ خَيْرٌ.

الشَّرْح

{٤٦١٣} قوله: «أُنْزِلَتْ هٰذِه الآيَةُ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لَا واللهِ، وَبَلَىٰ واللهِ» هذه آية المائدة، وفسرت عائشة لغو اليمين بما يجري على لسان المكلف من غير قصد، وقيل: هو الحلف على غلبة الظن، وقيل: في الغضب، وقيل: في المعصية، وهي مثل آية البقرة التي سبقت: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٥]، والآية فيها بيان أن هناك فرقًا بين اليمين ولغو اليمين، فهما نوعان:

النوع الأول: لغو اليمين ولا يؤاخذ به الإنسان، وهو الذي يجري على اللسان بدون قصد، تتكلم وفي أثناء الكلام تقول: والله ما فعلت كذا، أو لا والله فعلت كذا، أو لا والله ما فعلت كذا، يمين يجري على اللسان من غير تعمد أو انعقاد القلب عليه فهذا معفو عنه.

النوع الثاني: اليمين التي يعقد قلبه عليها يقول: والله ما فعلت كذا، أو والله فعلت كذا، فهذه هي التي يؤاخذ بها، وهي التي يقصد فيها اليمين ويعقد قلبه عليها.

ومن لغو اليمين لو حلف على شيء يظنه كذلك، فبان خلافه؛ لأنه لم يتعمد الكذب كأن يحلف إذ رأى شخصًا يقول: والله ليس هذا بزيد، حلف لما رأى من أوصافه أنه ليس بزيد، فلما قرب منه تبين أنه زيد، فهذا لا يؤاخذ؛ لأنه حلف على شيء يظنه كذلك، ثم تبين أنه بخلافه، أو كأن يحلف أن فلانًا لم يسافر، ثم يتبين له أنه مسافر، على حسب ظنه يقول: أنا كلمته بالأمس، وليس عنده سفر، ثم تبين أنه سافر، ففي هذه الحالة لا يؤاخذ، وهذا بخلاف اليمين التي تكون على المستقبل، فإذا قال: والله لا أفعل كذا حتى آكل طعام زيد في المستقبل، أو لا أدخل بيته، أو لا أكلمه، فإذا لم ينفذ ما حلف عليه فإنه يحنث، ولكن إذا رأى أن الخير في الحنث يحنث، ولا يَلَجّ في يمينه، وهذا هو الأفضل له، للبعد عن أسباب العداوة والشحناء، فاليمين لا تمنع من فعل الخير، فيكفر عن يمينه، ويأكل طعامه، ويدخل بيته؛ ولهذا ثبت في الحديث عن النبي ﷺ قال: «**إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا فعلت الذي هو خير، وكفرت عن يميني**»[(١)] وفي لفظ: «**إلا فعلت الذي هو خير، وتحللتها**»[(٢)] وسواء قدم الكفارة أو أخرها.

وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ترى أن اللغو قولك: «**لَا والله، وَبَلَىٰ والله**»، أي: كل واحد منهما إذا قالها لغو، فلو أن رجلًا قال الكلمتين معا فالأولى لغو، والثانية منعقدة؛ لأنها استدراك مقصود، قاله الماوردي، وهذا ليس ببعيد، والمراد أنه لا يجمع بينهما، إذا قال: لا والله، أو قال: بلى والله، أما أن يجمع بينهما يقول: لا والله بلى والله فمعناه أنه انتبه، فالأولى صارت لغوًا، والثانية عقد قلبه عليها، فكلام الماوردي ليس ببعيد.

والحلف على شيء مضى كذبًا هذه هي اليمين الغموس كأن يحلف أن فلانًا ما له عنده دين، وله عنده عشرة آلاف، وهذه ليس لها كفارة يمين، وهي التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم تغمسه في النار.

---

(١) أحمد (٤/ ٣٩٨)، والبخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

{٤٦١٤} ومن ذلك حديث الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ أَبَاهَا كَانَ لَا يَحْنَثُ فِي يَمِينٍ حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ كَفَّارَةَ اليَمِينِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا أَرىٰ يَمِينًا أُرىٰ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا قَبِلْتُ رُخْصَةَ اللهِ، وَفَعَلْتُ الذِي هُوَ خَيْرٌ» فهو يفعل كما قال النبي ﷺ، ويمشي على النبي ﷺ.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]

{٤٦١٥} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَ مَعَنَا نِسَاءٌ، فَقُلْنَا: أَلَا نَخْتَصِي؟ فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ، فَرَخَّصَ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَتَزَوَّجَ المَرْأَةَ بِالثَّوْبِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

الشَّرْح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾» ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧] يعني: لا تتجاوزوا الحد.

{٤٦١٥} قوله: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَ مَعَنَا نِسَاءٌ»، يعني: اشتدت عليهم العزوبة؛ لأنهم سافروا مدة طويلة وليس معهم نساء.

○ قوله: «فَقُلْنَا: أَلَا نَخْتَصِي؟»، أي: حتى نقطع شدة الشهوة، والاختصاء يكون بقطع الخصيتين.

○ وقوله: «فَنَهَانَا عَنْ ذَلِكَ»، أي: نهاهم النبي ﷺ.

○ قوله: «فَرَخَّصَ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَتَزَوَّجَ المَرْأَةَ بِالثَّوْبِ» وهذا زواج المتعة، وهو أن يتزوج المرأة بالثوب، فيتفق معها على مدة يوم أو يومين أو أسبوع أو أسبوعين، ثم حرمها الله بعد ذلك يوم الفتح تحريمًا باتًّا، وقيل: إنها حرمت يوم خيبر، وقيل: إنها أبيحت، ثم حرمت، ثم أبيحت، ثم حرمت مرارًا.

○ قوله: «ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾» وظاهر كلام ابن مسعود واستدلاله بالآية أن المتعة باقية؛ لأنه قال: «فَرَخَّصَ لَنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَتَزَوَّجَ المَرْأَةَ بِالثَّوْبِ»، وهذا عليه بعض السلف.

القول الثاني: الذي عليه الجمهور، وهو عامة الصحابة، وهو صريح النصوص الكثيرة أن المتعة حرمت إلى قيام الساعة، وبقي على ذلك الشيعة والرافضة فيرون المتعة باقية، والشيعة فرقة ضالة منحرفة ولا يُعوَّل على خلافهم ولا على قولهم.

وقد ذكر الترمذي حديثًا: أن رجلًا أتى النبي ﷺ قال: يارسول الله إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء، وأخذتني شهوتي، فحرمت عليَّ اللحم؛ فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[(١)].

وفي حديث ابن عباس أنها نزلت في ناس قالوا: نترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض؛ فنزلت، وقد تكون هذه الأسباب كلها سببًا في نزول الآية.

(١) الترمذي (٣٠٥٤).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ الآية [المائدة: ٩٠]

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ [المائدة: ٩٠]: القِدَاحُ يَقْتَسِمُونَ بِهَا فِي الأُمُورِ. وَالنُّصُبُ: أَنْصَابٌ يَذْبَحُونَ عَلَيْهَا، وَقَالَ غَيْرُهُ: الزُّلَمُ: القِدْحُ لَا رِيشَ لَهُ، وَهُوَ وَاحِدُ الأَزْلَامِ. وَالِاسْتِقْسَامُ: أَنْ يُجِيلَ القِدَاحَ فَإِنْ نَهَتْهُ ٱنْتَهَىٰ، وَإِنْ أَمَرَتْهُ فَعَلَ مَا تَأْمُرُهُ. وَقَدْ أَعْلَمُوا القِدَاحَ أَعْلَامًا بِضُرُوبٍ يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا، وَفَعَلْتُ مِنْهُ: قَسَمْتُ، وَالْقُسُومُ المَصْدَرُ.

{٤٦١٦} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ قَالَ: حَدَّثَنِي نَافِعٌ، عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وَإِنَّ فِي المَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ لَخَمْسَةَ أَشْرِبَةٍ، مَا فِيهَا شَرَابُ العِنَبِ.

{٤٦١٧} حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابن عُلَيَّةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ قَالَ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: مَا كَانَ لَنَا خَمْرٌ غَيْرُ فَضِيخِكُمْ هٰذَا الذِي تُسَمُّونَهُ الفَضِيخَ. فَإِنِّي لَقَائِمٌ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ وَفُلَانًا وَفُلَانًا، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَهَلْ بَلَغَكُمُ الخَبَرُ؟ فَقَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: حُرِّمَتِ الخَمْرُ. قَالُوا: أَهْرِقْ هٰذِهِ القِلَالَ يَا أَنَسُ. قَالَ: فَمَا سَأَلُوا عَنْهَا، وَلَا رَاجَعُوهَا بَعْدَ خَبَرِ الرَّجُلِ.

{٤٦١٨} حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الفَضْلِ، أَخْبَرَنَا ابن عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: صَبَّحَ أُنَاسٌ غَدَاةَ أُحُدٍ الخَمْرَ، فَقُتِلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ جَمِيعًا شُهَدَاءَ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا.

{٤٦١٩} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الحَنْظَلِيُّ، أَخْبَرَنَا عِيسَىٰ وَابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِي حَيَّانَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ ابن عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رضي الله عنه عَلَىٰ مِنْبَرِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ وَهْيَ مِنْ خَمْسَةٍ: مِنَ العِنَبِ، وَالتَّمْرِ، وَالعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ، وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ.

الشَّرح

هذا تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾ [المائدة: ٩٠] وهو أمر من الله تعالى باجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وأنها رجس من عمل الشيطان.

○ قوله: «وَقَدْ أَعْلَمُوا القِدَاحَ أَعْلَامًا بِضُرُوبٍ يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا، وَفَعَلْتُ مِنْهُ: قَسَمْتُ، وَالْقُسُومُ المَصْدَرُ، وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ [المائدة: ٩٠]: القِدَاحُ يَقْتَسِمُونَ بِهَا فِي الأُمُورِ» هذا تفسير ابن عباس، يعني إذا حصل له أمر من سفر أو زواج أو مشاركة في شيء يقتسم بالأزلام.

○ قوله: «وَالنُّصُبُ: أَنْصَابٌ يَذْبَحُونَ عَلَيْهَا» وهي حجارة يذبحون عليها للأصنام.

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: الزُّلَمُ: القِدْحُ لَا رِيشَ لَهُ، وَهُوَ وَاحِدُ الأَزْلَامِ. وَالاِسْتِقْسَامُ: أَنْ يُجِيلَ القِدَاحَ فَإِنْ نَهَتْهُ ٱنْتَهَىٰ، وَإِنْ أَمَرَتْهُ فَعَلَ مَا تَأْمُرُهُ» الاستقسام من استقسم على وزن استفعل من قسم، وهي ثلاثة أقداح عندهم في الجاهلية، مكتوب على أحدها: افعل، ومكتوب على الثاني: لا تفعل، والثالث غفل ليس به شيء، فإذا أراد سفرًا أو زواجًا أو مشاركة في عمل أو في تجارة أجال الأقداح، فإن خرج الذي فيه: افعل مضى، وإن خرج الذي فيه: لا تفعل أحجم ولم يمض، وإن خرج الغفل أجالها حتى يخرج أحدهما، فهذا معنى قوله: «فَإِنْ نَهَتْهُ ٱنْتَهَىٰ، وَإِنْ أَمَرَتْهُ فَعَلَ مَا تَأْمُرُهُ» وهذا إذا لم يكن لأحدهم هوى؛ فإن كان له هوى وخرج الذي فيه: «افعل» أجالها حتى يخرج ما يهوى، مثل ما فعل سراقة بن مالك بن جعشم لما لحق بالنبي ﷺ وأبي بكر يوم الهجرة وأقبل عليهم، أجال الأقداح فخرج الذي يكرهه؛ يقول: فعصيته، ومضى يجيل الأقداح فخرج: «لا تفعل»، يقول: فعصيته وذهبت.

وقد عوض الله المسلمين عن الاستقسام بالأزلام بصلاة الاستخارة، وكذلك الاستشارة والقرعة عوضًا عنها، يستشير الإنسان، ويستخير ربه، فيصلي ركعتين من غير الفريضة كما جاء في الحديث: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع**

ركعتين، ثم ليقل» - يعني بعد السلام: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كان هذا الأمر ويسميه**»: زواج أو تجارة أو غير ذلك «**خيرًا لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاقبة أمري وآجله، واقدره لي ويسره لي، وإن علمت أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به**»(١) هذه هي صلاة الاستخارة، ويكرر الاستخارة، فإذا شرح صدره لأحد الأمرين، أو الأمر الذي يستخير له فإنه يمضي، وإلا يكرر الاستخارة، ويستفتي أيضًا أهل الخبرة مع الاستخارة.

والاستخارة تكون من الشخص الذي يخصه الأمر، فمثلًا إنسان يريد أن يزوج ابنته فتستخير هي؛ لأنها هي التي ستتزوج، ويستخير هو؛ لأنه وليها.

وهناك أيضا القرعة، وتكون في الأشياء المتساوية، فإذا كانت هناك أشياء متساوية، وقسمة بين أشخاص متقاربة، فإنهم يجعلون القرعة، وصورتها معروفة.

والاستشارة والاستخارة تكونان في الأمور المشكلة التي لم تتبين ولم يحسمها الشرع، أما الأمر الواضح الذي ليس فيه إشكال، والذي حسمه الشرع فلا يستشير الإنسان فيه ولا يستخير، فلا يستشير ولا يستخير في الصلوات الخمس هل يصلي أو لا يصلي؟ أو هل يصوم رمضان أم لا؟ أو هل يزكي أم لا؟، أو هل يحج أم لا؟ إلا إذا كان طريقًا مخوِّفًا فيستشير ويستخير بالنسبة للطريق، فهذه أمور واضحة حسمها الشرع فلا استخارة فيها ولا استشارة.

○ قوله: «**يُجِيلَ**»، يعني: «**يدير**».

❖ ❖ ❖

{٤٦١٦} قوله: «**نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وَإِنَّ فِي المَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ لَخَمْسَةَ أَشْرِبَةٍ، مَا فِيهَا شَرَابُ العِنَبِ**» يعني: أن الخمر لا يختص بماء العنب، فهناك خمسة

---

(١) أحمد (٣/ ٣٤٤)، والبخاري (٧٣٩٠).

أنواع غيرها.

{٤٦١٧} قوله: «مَا كَانَ لَنَا خَمْرٌ غَيْرُ فَضِيخِكُمْ هٰذا الذِي تُسَمُّونَهُ الفَضِيخَ»؛ الفضيخ فضيخ التمر، وهو المريس، يفضخ التمر ويصب عليه الماء ويترك حتى يصير خمرًا.

وفيه: الرد على من قال: إن الخمر لا يصير إلا من العنب، فأنس يقول: ما لنا إلا فضيخ التمر، ومع ذلك صار مسكرًا، وصار محرمًا.

○ قوله: «فَإِنِّي لَقَائِمٌ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ» وأبو طلحة هو زوج أم أنس.

○ قوله: «وَفُلَانًا وَفُلَانًا، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَهَلْ بَلَغَكُمُ الخَبَرُ؟ فَقَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: حُرِّمَتِ الخَمْرُ. قَالُوا»، أي: لأنس وهو صغير: «أَهْرِقْ هٰذِهِ القِلَالَ يَا أَنَسُ. قَالَ: فَمَا سَأَلُوا عَنْهَا، وَلَا رَاجَعُوهَا بَعْدَ خَبَرِ الرَّجُلِ» فيه: سرعة امتثال الصحابة للأمر، وانتهاؤهم عن النهي بدون مراجعة، فبمجرد ما سمعوا صوت المنادي ينهى عن الخمر قالوا: أهرقوها؛ وفيه فضل الصحابة، وهذا هو الفرق بين الصحابة وغيرهم، لا يمانعون، ولا يتأخرون.

وفيه: دليل على قبول خبر الواحد والرد على من أنكره وطعن فيه من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فالصحابة لما سمعوا صوت الرجل قبلوا الخبر، وأدلة خبر الواحد كثيرة، والصواب أن خبر الواحد يقبل في العقائد، وفي الأعمال، وفي كل شيء، وقد بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ - كما سيأتي - باباً في قبول الخبر الواحد؛ وذكر أدلة في هذا.

❖ ❖ ❖

{٤٦١٨} قوله: «صَبَّحَ أُنَاسٌ غَدَاةَ أُحُدٍ الخَمْرَ، فَقُتِلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ جَمِيعًا شُهَدَاءَ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا»، ولا يضرهم ذلك؛ لأنها كانت حلالًا في حياتهم، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟﴾ [المَائدة: ٩٣]، أنها نزلت لما نزل تحريم الخمر، فقال أناس من الصحابة: كيف حال الذين ماتوا أو قتلوا وفي بطونهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا

مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾، أي: ليس عليهم جناح فيما طعموا قبل أن تحرم.

❖ ❖ ❖

{٤٦١٩} قوله: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ وَهْيَ مِنْ خَمْسَةٍ: مِنَ العِنَبِ، وَالتَّمْرِ، وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ» هذه الخمسة هي الموجودة في المدينة: فالعنب يعصر، ثم يبقى في شدة الحر، فإذا كان اليوم الثالث صار خمرًا؛ ولهذا كان النبي يأمر بالنبيذ فينتبذ له، فيشربه اليوم والغد، وفي اليوم الثالث إما أن يهرقه، أو يسقيه لخادمه[١]، وكذلك التمر يصب عليه الماء، ويسمى المريس، يشربونه حتى يكون الماء محلى، ويشربونه يومًا ويومين، وفي الثالث يتخمر من شدة الحر، وهذا في الغالب؛ فلم يكن عندهم ثلاجات، أما لو وضع في ثلاجة فلا يضر، وكذلك العسل والحنطة والشعير، هذه الخمس هي الموجودة في المدينة في زمن النبي ﷺ، وفي زمن عمر؛ ولهذا قال عمر: «إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ وَهْيَ مِنْ خَمْسَةٍ»، وليس المراد الحصر، وإنما المراد أن هذه الخمسة هي الموجودة في زمانهم.

○ قوله: «وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ»، يعني: أنه ليس مخصوصًا بهذه الأشياء؛ فالخمر كل مسكر يغطي العقل؛ سواء من هذه الخمسة، أو من غيرها، وسواء كان مأكولًا أو مشروبًا أو مشمومًا؛ فبعض الناس يشم أشياء ثم يسكر، أو يتناول حبوبًا على شكل أقراص؛ ولهذا قال عمر: «وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ العَقْلَ»، أخذه من حديث: «**كل مسكر خمر، وكل خمر حرام**»[٢].

وفيه: الرد على من قال: بأن الخمر لا تكون إلا من عصير العنب كالأحناف[٣]؛ ولهذا قال في الحديث الأول: «نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وَإِنَّ فِي المَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ لَخَمْسَةَ أَشْرِبَةٍ»، وهي التي ذكرها عمر: «العِنَبِ، وَالتَّمْرِ، وَالْعَسَلِ

(١) أحمد (١/ ٢٣٢)، ومسلم (٢٠٠٤).
(٢) أحمد (٢/ ٢٩)، ومسلم (٢٠٠٣).
(٣) انظر: «بدائع الصنائع» (٥/ ١١٢).

«وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ» ولكن باستثناء العنب.

ويظهر هنا تعارض بين هذا الحديث وحديث ابن عمر في أول الباب؛ حيث قال عمر ﵁: **«نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ وَهْيَ مِنْ خَمْسَةٍ»** وذكر منها العنب، وحديث ابن عمر في أول الباب **«نَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وَإِنَّ فِي المَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ لَخَمْسَةَ أَشْرِبَةٍ، مَا فِيهَا شَرَابُ العِنَبِ»**.

والجواب: أنه قد يصنع الخمر من أي نوع من أنواع الخضار، يعصر ويصير خمرًا، وفي حديث عبادة قال: **«البر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح»**[1] فهذه أطعمة الصحابة، وقد ذكر الحافظ ابن حجر ﵀ أن قول ابن عمر: **«مَا فِيهَا شَرَابُ العِنَبِ»**، قال: «يريد بذلك أن الخمر لا يختص بماء العنب» خلافًا للأحناف[2] الذين يرون أن الخمر لا تكون إلا من العنب.

---

(١) أحمد (٥/ ٣٢٠)، ومسلم (١٥٨٧).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» (٥/ ١١٢).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾

الآية [المائدة: ٩٣]

{٤٦٢٠} حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ الخَمْرَ التِي أُهْرِيقَتِ الفَضِيخُ. وَزَادَنِي مُحَمَّدٌ، عَنْ أَبِي النُّعْمَانِ قَالَ: كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ فَنَزَلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَىٰ. فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: ٱخْرُجْ فَانْظُرْ مَا هٰذا الصَّوْتُ؟ قَالَ: فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ: هٰذا مُنَادٍ يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. فَقَالَ لِي: ٱذْهَبْ فَأَهْرِقْهَا. قَالَ: فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ. قَالَ: وَكَانَتْ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الفَضِيخَ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: قُتِلَ قَوْمٌ وَهْيَ فِي بُطُونِهِمْ! قَالَ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ [المائدة: ٩٣].

الشَّرْح

{٤٦٢٠} في هذا الحديث أنه لما قتل قوم شهداء يوم أحد، والخمر في بطونهم أنزل الله هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: في الوقت الذي لم تحرم فيه ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المَائدة: ٩٣] وذلك رفعًا للحرج عنهم، فلا لوم عليهم.

○ قوله: «أَنَّ الخَمْرَ التِي أُهْرِيقَتِ الفَضِيخُ» وهذا في الغالب، أن الخمر تصنع من الفضيخ، أي: من التمر؛ وفيه الرد على من قال: إنه خاص بماء العنب.

○ قوله: «فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَىٰ. فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: ٱخْرُجْ فَانْظُرْ مَا هٰذا الصَّوْتُ؟ قَالَ: فَخَرَجْتُ فَقُلْتُ: هٰذا مُنَادٍ يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. فَقَالَ لِي: ٱذْهَبْ فَأَهْرِقْهَا» فلما سمعوا الصوت أهرقوها.

وفيه: سرعة امتثال الصحابة ﵃ للأمر.

○ قوله: «فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ» استُدل به على أن الخمر ليست نجسة؛ لأن قوله: «فجرت في سكك المدينة»، يعني: أنها تجري في الشوارع، والشوارع ضيقة، والناس يطؤونها بأرجلهم، ويذهبون يصلون، وليس لهم نعال، فلو كانت نجسة لأمرهم النبي ﷺ بغسل أرجلهم؛ فدل على أنها ليست نجسة، والجمهور على أن الخمر نجسة.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قوله: «فَأَمَرَ مُنَادِيًا» الآمر بذلك هو النبي ﷺ، والمنادي لم أر التصريح باسمه، والوقت الذي وقع ذلك فيه زعم الواحدي أنه عقب قول حمزة: إنما أنتم عبيد لأبي، وحديث جابر يرد عليه، والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان؛ لما روى أحمد من طريق عبد الرحمن بن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو دوس، فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال: «**يا فلان أما علمت أن الله حرمها**» فأقبل الرجل على غلامه، فقال: بعها فقال: «**إن الذي حرم شربها حرم بيعها**»[(١)].

وأخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي وعلة نحوه[(٢)]، لكن ليس فيه تعيين الوقت، وروى أحمد من طريق نافع بن كيسان الثقفي عن أبيه: أنه كان يتجر في الخمر، وأنه أقبل من الشام، فقال: يا رسول الله إني جئتك بشراب جيد، فقال: «**يا كيسان إنها حرمت بعدك**» قال: فأبيعها قال: «**إنها حرمت وحرم ثمنها**»[(٣)].

وروى أحمد وأبو يعلى من حديث تميم الداري: أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية خمر فلما كان عام حرمت جاء براوية فقال: «**أشعرت أنها قد حرمت بعدك**»، قال: أفلا أبيعها وأنتفع بثمنها، فنهاه[(٤)]. ويستفاد من حديث

(١) أحمد (١/ ٢٤٤).
(٢) مسلم (١٥٧٩).
(٣) أحمد (٤/ ٣٣٥).
(٤) أحمد (٤/ ٢٢٧).

كيسان تسمية المبهم في حديث ابن عباس، ومن حديث تميم تأييد الوقت المذكور، فإن إسلام تميم كان بعد الفتح، وقوله: «**فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم فأنزل الله تعالى**».. إلخ، لم أقف على اسم القائل».

ثم قال الحافظ ﵀: «وروى النسائي والبيهقي من طريق ابن عباس قال: نزل تحريم الخمر في ناس شربوا فلما ثملوا عبثوا»، يعني: لما سكروا صار بعضهم يضرب بعضًا وهم لا يشعرون.

ثم قال الحافظ ﵀: «فلما صحوا جعل بعضهم يرى الأثر بوجه الآخر فنزلت، فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان، وقد قتل بأحد؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ [المَائدة: ٩٣] إلى آخرها[(١)]، وروى البزار من حديث جابر أن الذين قالوا ذلك كانوا من اليهود، وروى أصحاب السنن من طريق أبي ميسرة عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٩]، فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت التي في النساء: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّسَاء: ٤٣]، فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت التي في المائدة: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المَائدة: ٩٠] إلى قوله: ﴿مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المَائدة: ٩١] فقال عمر: انتهينا انتهينا وصححه علي بن المديني والترمذي»[(٢)].

وسورة المائدة من آخر ما نزل، وهذا يؤيد أن تحريمها متأخر؛ وذلك لأن الخمر كانت متمكنة من نفوسهم، وألفوها في الجاهلية؛ ولهذا جاء التحريم على التدريج: نزلت آية البقرة، ثم آية النساء، ثم آية المائدة، حتى قالوا: انتهينا انتهينا.

واستدل بالآية على عدم مشروعية تخليل الخمر بأن تجعل خلًّا؛ لأنه لو جاز لما أمرهم النبي ﷺ أن يريقوها، ولو تخللت طهرت.

(١) النسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٣٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/ ٢٨٥).
(٢) أحمد (١/ ٥٣)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠).

وفيه قبول خبر الواحد، وهذا واضح، والعمل به في النسخ وفي غيره، فإنهم لما سمعوا الصوت قالوا: انتهينا انتهينا، وهذا نسخ الإباحة بالتحريم ومع ذلك قبلوه.

ومن المسائل الحادثة مسألة العطور الكحولية، والأولى التورع عنها؛ لقول النبي ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[(١)]، فهذا الكحول يستخدم في مداواة الجروح؛ قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «كيف يليق لمسلم يذهب إلى صلاة الجمعة وقد تضمخ بما يسمى بالكلونيا؟!»[(٢)]، لكن إذا كان بنسبة ضئيلة مغمورة فلا بأس، أما بنسبة سبعين أو ثمانين فلا يجوز.

(١) أحمد (١/ ٢٠٠)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١).
(٢) «أضواء البيان» (١/ ٤٢٨) بنحوه.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية [المائدة: ١٠١]

{٤٦٢١} حَدَّثَنَا مُنْذِرُ بْنُ الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الجَارُودِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قَالَ: فَغَطَّىٰ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: فُلَانٌ، فَنَزَلَتْ هَٰذِهِ الآيَةُ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. رَوَاهُ النَّضْرُ، وَرَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ عَنْ شُعْبَةَ.

{٤٦٢٢} حَدَّثَنَا الفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو الجُوَيْرِيَةِ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ -تَضِلُّ نَاقَتُهُ-: أَيْنَ نَاقَتِي؟ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَٰذِهِ الآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] حَتَّىٰ فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا.

الشَّرْح

{٤٦٢١} ذكر المؤلف رحمه الله وهو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه: أن النبي ﷺ خطب خطبة قال: «مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ».

○ قوله: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قَالَ: فَغَطَّىٰ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ» حنين بالحاء المهملة، وروي بالخاء المعجمة: «**خنين**»(١) فأما الحنين بالحاء المهملة: فهو الصوت الذي يخرج من الصدر، وأما الخنين بالخاء المعجمة: فهو الصوت الذي يكون من طرف الأنف ويكون دون الانتحاب، والمراد أنهم يبكون.

(١) البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

وكان أنس رضي الله عنه صغيرًا - سنه عشر سنوات - فقال: نظرت إلى الصحابة وقد لف كل واحد وجهه بثوبه يبكون؛ خوفًا من أن ينزل شيء؛ وذلك أن النبي ﷺ كان مغضبًا فجلس على المنبر عليه الصلاة والسلام، وقال لهم: «**لا تسألوني في مكاني هذا شيئًا إلا أنبأتكم به**»(١) أغضبوه فأوحي إليه أنهم لا يسألونك في هذا الوقت عن شيء إلا أجبتهم.

○ قوله: «فَقَالَ رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: فُلَانٌ» أبهمه في هذه الرواية، وكان هذا الرجل يلاحى، وكان ينسب إلى غير أبيه، فأراد أن يعلم من أبوه، وفي اللفظ الآخر قال: «**من أبي يا رسول الله؟ فقال: أبوك حذافة**»(٢) فاطمأن أن نسبته إلى أبيه صحيحة.

وجاء فيه: أن أمه عاتبته، وقالت: يا فلان ما رأيت ولدًا أعق منك، كيف تسأل النبي ﷺ عن هذا؟! أما تخشى أن تكون أمك قد قارفت ما يقارفه أهل الجاهلية فينسبك إلى غير أبيك فتفضح أمك أبد الدهر، قال: والله لو نسبني إلى كذا أو إلى كذا لانتسبت إليه.

❖ ❖ ❖

{٤٦٢٢} ثم ذكر رحمه الله حديث عبد الله بن عباس وفيه: أن قومًا كانوا يسألون النبي ﷺ استهزاء «فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ- تَضِلُّ نَاقَتُهُ -: أَيْنَ نَاقَتِي؟ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هٰذِهِ الآيَةَ» وقد جاء هذا الحديث في معنى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المَائدة: ١٠١].

وفيها النهي عن السؤال الذي لم يقع وتقع المساءة به، فلا ينبغي للإنسان أن يسأل عن فرضيات وأشياء لم تقع، كأن يقول مثلًا: إذا حصل كذا فما حكمه؟ فالمشروع هو أن تسأل عما تحتاج إليه، أما الشيء الذي لا تحتاج إليه فلا تسأل عنه، ولا سيما الأشياء التي لم تقع حتى لا يسوؤه الجواب، وجاء

(١) أحمد (٣/ ٢٥٤)، والبخاري (٧٢٩٤)، ومسلم (٢٣٥٩).
(٢) البخاري (٩٢).

في رواية أخرى: أن عمر ﵁ جاء وبرك على ركبتيه، وقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، حتى سكن غضبه عليه الصلاة والسلام[(١)].

قال بعض العلماء: إن النهي عن الأسئلة التي لم تقع مطلقًا، ومنهم من قيدها بالأسئلة التي تقع المساءة في جوابها، أو الأسئلة التي لا حاجة لها؛ أما الأسئلة التي تتعلق بأمور دينه كالطهارة فلا إساءة فيها.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «**باب قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المَائدة: ١٠١] **سقط** «**باب قوله**» لغير أبي ذر، وقد تعلق بهذا النهي من كره السؤال عما لم يقع، وقد أسنده الدارمي في مقدمة كتابه عن جماعة من الصحابة والتابعين.

وقال ابن العربي: اعتقد قوم من الغافلين منع أسئلة النوازل حتى تقع تعلقًا بهذه الآية وليس كذلك؛ لأنها مصرحة بأن المنهي عنه ما تقع المساءة في جوابه ومسائل النوازل ليست كذلك وهو كما قال إلا أنه أساء في قوله: الغافلين على عادته كما نبه عليه القرطبي، وقد روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رفعه: «**أعظم المسلمين بالمسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته**»[(٢)]، وهذا يبين المراد من الآية وليس مما أشار إليه ابن العربي في شيء».

ثم قال ﵀: «ووقع في الفتن من طريق قتادة عن أنس في آخر هذا الحديث بعد أن ساقه مطولًا قال: فكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾، وروى ابن أبي حاتم من وجه آخر عن قتادة عن أنس قال: «**سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فصعد المنبر**»[(٣)].

---

(١) أحمد (٣/١٠٧)، والبخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩).
(٢) البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).
(٣) أحمد (٣/١٧٧)، والبخاري (٧٠٩١)، ومسلم (٢٣٥٩).

فالمراد أنهم أغضبوه وألحوا عليه في الأسئلة وآذوه فصعد المنبر ﷺ وهو غاضب؛ فأوحى الله إليه أنه لا يسأل عن شيء إلا أجابهم، فكل سؤال سألوه أجابهم وهو مغضب عليه الصلاة والسلام؛ فعرف ذلك عمر رضي الله عنه فبرك على ركبتيه وقال عائذًا بالله من الفتن: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، حتى سكن غضبه عليه الصلاة والسلام.

وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله فقال: «فصعد المنبر فقال: «**لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به، فجعلت ألتفت عن يمين وشمال فإذا كل رجل لاف ثوبه برأسه يبكي**»[(١)] الحديث، وفيه قصة عبد الله بن حذافة وقول عمر.

روى الطبري من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال: أين أبي؟ قال: «**في النار**»[(٢)].

فهذا من الأسئلة التي يقع المساءة في جوابها فهو ليس بحاجة إلى هذا السؤال.

ثم قال الحافظ رحمه الله: ««**فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: حذافة**» فقام عمر فذكر كلامه، وزاد فيه: «**وبالقرآن إمامًا**».

يعني: «**رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا وبالقرآن إمامًا**».

ثم قال الحافظ رحمه الله: «قال: «**فسكن غضبه ونزلت هذه الآية**»[(٣)] وهذا شاهد جيد لحديث موسى بن أنس المذكور. وأما ما روى الترمذي من حديث علي قال: «**لما نزلت** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] **قالوا: يا رسول الله في كل عام؟ فسكت ثم قالوا: يا رسول الله في كل عام؟ فقال: لا، ولو قلت: نعم لوجبت؛ فأنزل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ﴾»[(٤)] فهذا لا ينافي حديث أبي هريرة؛ لاحتمال أن تكون نزلت في الأمرين، ولعل مراجعتهم له في ذلك

(١) أحمد (٣/ ١٠٧)، والبخاري (٦٣٦٢)، ومسلم (٢٣٥٩).
(٢) «تفسير الطبري» (٧/ ٨١، ٨٢).
(٣) أحمد (٣/ ٢٠٦)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٨١، ٨٢).
(٤) أحمد (١/ ١١٣)، والترمذي (٨١٤)، وابن ماجه (٢٨٨٤).

هي سبب غضبه».

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ» في رواية ابن أبي حاتم من طريق أبي النضر عن أبي خيثمة: حدثنا أبو الجويرية سمعت أعرابيًّا من بني سليم سأله يعني: ابن عباس.

○ قوله: «كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ٱسْتِهْزَاءً»، قد تقدم طريق الجمع بينه وبين الذي قبله؛ والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل؛ إما على سبيل الاستهزاء أو الامتحان، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان على الإباحة».

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾

[المائدة: ١٠٣]

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ١١٦] يَقُولُ: قَالَ اللهُ. ﴿وَإِذْ﴾ [المائدة: ١١٦] هَا هُنَا صِلَةٌ، المَائِدَةُ أَصْلُهَا مَفْعُولَةٌ؛ كَعِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، وَتَطْلِيقَةٍ بَائِنَةٍ وَالْمَعْنَىٰ: مِيدَ بِهَا صَاحِبُهَا مِنْ خَيْرٍ، يُقَالُ: مَادَنِي يَمِيدُنِي. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] مُمِيتُكَ.

{٤٦٢٣} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ قَالَ: البَحِيرَةُ: التِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ. وَالسَّائِبَةُ كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ، لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ. قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ». وَالْوَصِيلَةُ: النَّاقَةُ البِكْرُ، تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الإِبِلِ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَىٰ. وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهُمْ لِطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَىٰ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ. وَالْحَام فَحْلُ الإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ المَعْدُودَ، فَإِذَا قَضَىٰ ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ، وَأَعْفَوْهُ مِنَ الحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَسَمَّوْهُ الحَامِيَ. وَقَالَ لِي أَبُو اليَمَانِ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: سَمِعْتُ سَعِيدًا قَالَ: يُخْبِرُهُ بِهٰذَا قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ نَحْوَهُ. وَرَوَاهُ ابن الهَادِ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ.

{٤٦٢٤} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الكَرْمَانِيُّ، حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَأَيْتُ عَمْرًا يَجُرُّ قُصْبَهُ، وَهْوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ».

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٣﴾ [المَائدة: ١٠٣]. فيه: بيان ما عليه أهل الجاهلية من الأعمال الشنيعة التي تخالف الشرع من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

والمراد أن الله ما أباحها ولا شرع هذه الأعمال التي يعملونها؛ من أنهم يجعلون البحيرة لأناس، ويحلون الميتة، ويسيبون الحامي، ويجعلون الأنثى إذا أردفت بأنثى قالوا: وصيلة، كل هذا من عند أنفسهم، والله تعالى لم يشرع لهم ذلك.

○ قوله: «**قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾**» فسرها فقال: «**يَقُولُ: قَالَ اللهُ**».

○ قوله: «**وإِذْ هَا هُنَا صِلَةٌ**» يعني: زيدت للتأكيد، هذا قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة؛ والصواب أنها ظرف بمعنى حين، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ [المَائدة: ١١٦]، يعني: واذكر حين قال الله.

○ قوله: «**المَائِدَةُ أَصْلُهَا مَفْعُولَةٌ؛ كَعِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، وَتَطْلِيقَةٍ بَائِنَةٍ وَالْمَعْنَىٰ: مِيدَ بِهَا صَاحِبُهَا مِنْ خَيْرٍ**»، يعني: فعل بها الميد، وهو: التحرك؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: ١٥].

○ وقوله: «**يُقَالُ: مَادَنِي يَمِيدُنِي**»، مثل عيشة راضية، يعني مرضية، بمعنى مفعولة.

○ وقوله: «**وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾**» فسرها وقال: «**مُمِيتُكَ**» هذه الآية في سورة آل عمران؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عِمرَان: ٥٥]، أتى بها؛ إما لأنها انتقال نظر أو لأنها مشابهة لأول الآيتين اللتين في سورة المائدة؛ وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المَائدة: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المَائدة: ١١٦].

والصواب أن قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المَائدة: ١١٧] هي المشابهة لآية: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

{٤٦٢٣} قوله: «عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ»، فهو موقوف عليه.

○ قوله: «الْبَحِيرَةُ: التِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ»، يعني: البهيمة من الإبل أو البقر أو الغنم يمنعون حليبها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس؛ قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المَائدة: ١٠٣]. ففسرها بالتي يمنع درها للطواغيت.

○ وقوله: «وَالسَّائِبَةُ: كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلِهَتِهِمْ، لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ»؛ سميت سائبة لأنها متروكة للأصنام فلا يحملون عليها شيئًا.

○ وقوله: «قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»؛ «قصبه» بضم القاف وإسكان الصاد أي: أمعاؤه.

فقال ذاكرًا سبب عقوبته: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»، أي: أن أول من سيب السوائب للطواغيت هو عمرو بن لحي الخزاعي، وهو الذي جلب الأصنام لبلاد العرب من الشام، وكان رئيسًا مطاعًا في مكة.

○ قوله: «وَالْوَصِيلَةُ: النَّاقَةُ الْبِكْرُ، تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الإِبِلِ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَىٰ. وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهُمْ لِطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَىٰ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ» إذا أتت الناقة البكر أو البقرة بأنثى ثم جاءت بعدها بأنثى سيبوها لطواغيتهم قالوا: وصلت إحداهما بالأخرى، وصلت أختها؛ وإذا كان ذكرًا يقال: وصلت أخاها؛ فيتركونها للأصنام.

○ قوله: «وَالْحَامِ فَحْلُ الإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ الْمَعْدُودَ، فَإِذَا قَضَىٰ ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ»، يعني: تركوه «لِلطَّوَاغِيتِ، وَأَعْفَوْهُ مِنَ الْحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَسَمَّوْهُ الْحَامِيَ» وهذا من جهلهم وفساد عقولهم وشركهم.

○ قوله: «وَرَوَاهُ ابن الْهَادِ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ» هذا طريق آخر للحديث.

○ قوله: «وَقَالَ لِي أَبُو اليَمَانِ» هذا إذا رواه في المذاكرة أو في المداخلة بينهم؛ ولهذا لم يقل: حدثني.

○ قوله: «أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: سَمِعْتُ سَعِيدًا قَالَ: بحيرة بهذا»، وفي لفظ: «يُخْبِرُهُ بِهٰذا»[١] «قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ نَحْوَهُ»، أي: كالحديث السابق.

❖ ❖ ❖

{٤٦٢٤} ثم ذكر المؤلف ﵀ حديث عائشة ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَرَأَيْتُ عَمْرًا» يعني: عمرو بن لحي الخزاعي.

○ قوله: «وَهْوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ» وهذا يحتمل أنه رآه ليلة المعراج عليه الصلاة والسلام، أو أنه رآه ليلة صلى بالناس الكسوف كشف له عن النار، فقال ﷺ: «**عرضت علي الجنة والنار في عرض هذا الحائط**»[٢] أي: مثلت له. قال: «**فرأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا، ورأيت الجنة، ورأيت كأني أتناول عنقودًا**»[٣] فيحتمل أنه رأى هذه الرؤيا ليلة المعراج؛ فإنه قال: «**اطلعت في الجنة**»[٤] أو أنه رآه في يوم الكسوف؛ حيث رأى الجنة والنار قال: «**رأيت الجنة والنار**»[٥]. وقد أورده المؤلف ﵀ في «الكسوف» في: «أبواب العمل في الصلاة»، قال: «**لقد رأيت في مقامي هذا**»[٦] أشار إلى أنه في الكسوف.

فالكافر يعذب في البرزخ، وهذا مثل ما جاء في حديث الرؤيا الطويل: «**أنه رأى رجلًا يثلغ رأسه، ورجلًا يلقم الحجارة، والزناة رآهم إذا أتاهم لهب**

(١) البخاري (٤٦٢٣).
(٢) أحمد (٣/ ١٦٢)، والبخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩).
(٣) أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٤٦٢٤)، ومسلم (٩٠١).
(٤) أحمد (١/ ٣٥٩)، والبخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٧).
(٥) أحمد (٣/ ٢١٨)، ومسلم (٤٢٦).
(٦) أحمد (٦/ ٣٤٥)، والبخاري (١٢١٢)، ومسلم (٩٠١).

ضوضوا»[١] ومثل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وهم آل فرعون، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦] فهم يعذبون في البرزخ، ويوم القيامة إذا بعثوا عذبوا أيضًا.

فالمؤمن إذا مات نقلت روحه في الجنة تنعم ولها صلة بالجسد، والكافر إذا مات نقلت روحه في النار تعذب ولها صلة بالجسد، كما جاء في الحديث الصحيح قال: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعث**»[٢].

والشهداء قال النبي ﷺ فيهم: «**إن أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة ترد أنهارها، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش**»[٣] فأرواح المؤمنين تتنعم في الجنة، وأرواح الكافرين تعذب في النار.

---

(١) أحمد (٥/ ٨)، والبخاري (٧٠٤٧).
(٢) أحمد (٣/ ٤٥٥)، والنسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١).
(٣) أحمد (١/ ٢٦٥)، والترمذي (٣٠١١)، وابن ماجه (٢٨٠١).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾
الآية [المائدة: ١١٧]

{٤٦٢٥} حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنَا المُغِيرَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا- ثُمَّ قَالَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ- ثُمَّ قَالَ: أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلَائِقِ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي. فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] فَيُقَالُ: إِنَّ هٰؤلاء لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ».

الشَّرح

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المَائدة: ١١٦-١١٧] هذا قول عيسى عليه السلام.

- قوله: «﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ الآية»، يعني: على بني إسرائيل.

{٤٦٢٥} ذكر المؤلف رحمه الله حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفيه: قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا».

- قوله: «حُفَاةً» أي: لا نعال عليهم.
- قوله: «غُرْلًا» أي: غير مختونين.

ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾. والمراد أن الناس يرجعون إلى ربهم كما ولدتهم أمهاتهم لا يملكون أي شيء.

○ قوله: «أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلَائِقِ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ» هذه منقبة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وفضيلة خاصة؛ فالناس يحشرون حفاة عراة فيكسى إبراهيم عليه السلام أولًا، ثم يكسى بقية المؤمنين.

○ قوله: «أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي»، وفي لفظ آخر: «**فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقًا سحقًا لمن غير بعدي**»[1]. وأصيحابي: تصغير أصحابي، وهؤلاء المرتدون من الأعراب وغيرهم ممن لم يثبت الإيمان في قلوبهم.

○ قوله: «فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»، فيه: دليل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب ولا يعلم أحوال أمته؛ ففيه الرد على من قال: إنه تعرض عليه أعمال أمته حسنها وسيئها وهو يستغفر للسيئ ويسر بالحسن؛ جاء هذا في حديث ضعيف، لكن الحديث دل على أنه لا يعلم أعمال أمته.

○ قوله: «فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾» وهذا الشاهد من الحديث.

○ قوله: «فَيُقَالُ: إِنَّ هٰؤلاء لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ» وهذا حينما يردون عليه الحوض. وفي لفظ آخر: «**أنهم يردون عليه الحوض ويذادون كما تذاد الإبل الغريبة**»[2] وفيه: دليل على أن المنافقين الذين ارتدوا وغيرهم يطردون عن الحوض.

---

(١) أحمد (٣/ ٢٨)، والبخاري (٦٥٨٥)، ومسلم (٢٣٠٤).

(٢) أحمد (٢/ ٢٩٨)، والبخاري (٢٣٧٦)، ومسلم (٢٣٠٢).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]

{٤٦٢٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا المُغِيرَةُ بْنُ النُّعْمَانِ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ، وَإِنَّ نَاسًا يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

الشَّرْح

{٤٦٢٦} هذا الحديث السابق أعاده لقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، والآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المَائدة: ١١٧].

٦- ومن سُورَةِ الأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ مَعْذِرَتُهُمْ. ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ﴾: مَا يُعْرَشُ مِنَ الكَرْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿حَمُولَةً﴾ [الأنعام: ١٤٢]: مَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا. ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ [الأنعام: ٩]: لَشَبَّهْنَا. ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ [الأنعام: ٢٦]: يَتَبَاعَدُونَ. ﴿تُبْسَلَ﴾: تُفْضَحُ ﴿أُبْسِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٤٢]: أُفْضِحُوا. ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ البَسْطُ الضَّرْبُ. ﴿ٱسْتَكْثَرْتُم﴾: أَضْلَلْتُمْ كَثِيرًا. ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾: جَعَلُوا لله مِنْ ثَمَرَاتِهِمْ وَمَالِهِمْ نَصِيبًا، وَلِلشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانِ نَصِيبًا. ﴿أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥] وَاحِدُهَا كِنَانٌ ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ﴾ يَعْنِي هَلْ تَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَىٰ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ، فَلِمَ تُحَرِّمُونَ بَعْضًا وَتُحِلُّونَ بَعْضًا؟ ﴿مَّسْفُوحًا﴾: مُهْرَاقًا. ﴿وَصَدَفَ﴾: أَعْرَضَ. (أُبْلِسُوا): أُويِسُوا. وَ﴿أُبْسِلُواْ﴾: أُسْلِمُوا. ﴿سَرْمَدًا﴾: دَائِمًا. ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾: أَضَلَّتْهُ. ﴿يَمْتَرُونَ﴾: يَشُكُّونَ. ﴿وَقْرٌ﴾: صَمَمٌ، وَأَمَّا الوِقْرُ: الحِمْلُ. ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ وَاحِدُهَا أُسْطُورَةٌ وَإِسْطَارَةٌ وَهِيَ التُّرَّهَاتُ. ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ مِنَ البَأْسِ، وَيَكُونُ مِنَ البُؤْسِ. ﴿جَهْرَةً﴾ مُعَايَنَةً. ﴿ٱلصُّورِ﴾ جَمَاعَةُ صُورَةٍ، كَقَوْلِهِ: سُورَةٌ وَسُوَرٌ. ﴿مَلَكُوتَ﴾: مُلْكٌ، مِثْلُ: رَهَبُوتٍ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوتٍ، وَيَقُولُ: تُرْهَبُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُرْحَمَ. ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾: تُقْسِطْ، لَا يُقْبَلْ مِنْهَا فِي ذَلِكَ اليَوم ﴿جَنَّ﴾ أَظْلَمَ. ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: عَلا يُقَالُ عَلَىٰ اللهِ حُسْبَانُهُ أَيْ: حِسَابُهُ، وَيُقَالُ: ﴿حُسْبَانًا﴾ مَرَامِيَ. وَ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فِي الصُّلْبِ وَ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فِي الرَّحِمِ. القِنْوُ: العِذْقُ، وَالاثْنَانِ قِنْوَانِ، وَالْجَمَاعَةُ أَيْضًا قِنْوَانٌ، مِثْلُ صِنْوٍ وَصِنْوَانٍ.

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ﴾ [الأنعام: ١٤٣] يعني: هل تشتمل إلا على ذكر أو أنثى؛ فلم تحرموا بعضا وتحلوا بعضًا. ﴿صَدَفَ﴾ [الأنعام: ١٥٧]: **أعرض. أبلسوا: أُيسُوا.** ﴿أُبْسِلُواْ﴾ [الأنعام: ٧٠]: أسلموا. ﴿سَرْمَدًا﴾ [القصص: ٧١]: دائمًا. ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾ [الأنعام: ٧١]: أضلته. ﴿يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٣]: يشكون. يقال: على الله حسبانه؛ أي: حسابه.

الشَّرْح

«الجامع الصحيح» مشتمل على تفسير وبيان المفردات اللغوية، ومشتمل أيضًا على الإعراب، ومشتمل أصلًا على أحاديث وأسانيد؛ فقد حوى هذا الجامع أنواعًا من العلوم.

- قوله تعالى: «﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾» فسره فقال: «مَعْذِرَتَهُمْ».
- قوله تعالى: «﴿وَلَلَبَسْنَا﴾»، فسره فقال: «لَشَبَّهْنَا».
- قوله تعالى: «﴿حَمُولَةً﴾»، فسره فقال: «مَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا».
- قوله تعالى: «﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾»، فسره فقال: «يَتَبَاعَدُونَ».
- قوله تعالى: «﴿تُبْسَلَ﴾»، فسره فقال: «تُفْضَحُ».

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ [الأنعام: ٧٠]، أي: ترتهن وتسلم».

- قوله تعالى: «﴿أُبْسِلُوا۟﴾»، فسره فقال: «أُفْضِحُوا».

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «﴿أُبْسِلُوا۟﴾: أُفْضِحُوا» كذا... من الرباعي».

- قوله تعالى: «﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾»، فسره فقال: «البَسْطُ: الضَّرْبُ».
- قوله تعالى: «﴿ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾»، فسره فقال: «أَضْلَلْتُمْ كَثِيرًا».
- قوله تعالى: «﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾»، فسره فقال: «جَعَلُوا لله مِنْ ثَمَرَاتِهِمْ وَمَالِهِمْ نَصِيبًا، وَلِلشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانِ نَصِيبًا». ويقولون: الله ليس بحاجة إليه، وإذا زاد الذي للصنم تركوه؛ هذه قسمة، وهذا من جهلهم!

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٧] فمن جهلهم أيضا قتل الأولاد.

ومنه قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ هذه أنعام وحرث لا يجعلونها إلا لمن شاءوا، ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ مثل الحام، ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا

كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ومن جهلهم: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩] يقولون: هذا خاص للذكور ويحرمونه على الإناث، وإذا كانت ميتة اشترك فيها الذكور والإناث، وهذا من الجهل العظيم؛ لأنهم بعدوا عن نور النبوة، فهم في ظلام دامس، ومن جهلهم أيضًا أنهم عبدوا الأصنام والأوثان، فإذا ذهب الواحد منهم في البرية أخذ ثلاثة أحجار، يجعل عليها القدر حتى يوقد عليه، فإذا وجد واحدًا أملس طيبًا أخذه ربًّا له يعبده، وإذا لم يجدوا شيئًا جعلوا كوم تراب ثم يحلبون عليه الشاة ثم يطوفون عليه ويعبدونه.

وقد فعل الصحابة هذا، فلما هداهم الله للإسلام تعجبوا من حالهم السابقة، كيف كانت عقولهم توصلهم إلى هذه الحال، حتى مَنَّ الله عليهم بالإسلام وأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ ولهذا كانت الأمم السابقة تحتقر العرب وتقول: إنهم لا قيمة لهم، فهم قبائل متناحرة فقراء يأكلون الميتة ويعبدون الأصنام ويأكل القوي منهم الضعيف ويحارب بعضهم بعضًا. فلما جاء الإسلام جعلهم قادة للأمم، بل للدنيا بأسرها، وأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن ذلك ما قاله بعض الصحابة لرستم لما قال له: من أخرجكم من جزيرتكم؟ قال: أخرجنا الله، لقد كنا قومًا نأكل الميتة، ونعبد الأصنام، ونقطع الأرحام؛ فبعث الله إلينا نبينا فهدانا للإسلام. قال: ما الذي جاء بكم؟ قال: جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

- قوله تعالى: «﴿أَكِنَّةً﴾»، فسره فقال: «**وَاحِدُهَا: كِنَانٌ**».
- قوله تعالى: «﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]»، فسره فقال: «**صَمَمٌ، وَأَمَّا الوِقْرُ - بِالْكَسْرِ -: الحِمْلُ**».
- قوله تعالى: «﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾»، فسره فقال: «**وَاحِدُهَا: أُسْطُورَةٌ وَإِسْطَارَةٌ، وَهِيَ: التُّرَّهَاتُ**».
- قوله تعالى: «﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾»، فسره فقال: «**مِنَ البَأْسِ، وَيَكُونُ مِنَ البُؤْسِ**».
- قوله تعالى: «﴿جَهْرَةً﴾»، فسره فقال: «**مُعَايَنَةً**».

○ قوله تعالى: «﴿ٱلصُّورِ﴾»، فسره فقال: «جَمَاعَةُ صُورَةٍ، كَقَوْلِهِ: سُورَةٌ وَسُوَرٌ».

○ قوله تعالى: «﴿مَلَكُوتَ﴾ مُلْكٌ» كما قال الله تعالى: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، بمعنى ملك كل شيء، من باب المبالغة، وكذلك قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، يعني: ملك كل شيء، «مِثْلُ: رَهَبُوتٍ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوتٍ، وَيَقُولُ: تُرْهَبُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُرْحَمَ».

○ قوله تعالى: «﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾»، فسره فقال: «تَقْسِطْ، لَا يُقْبَلْ مِنْهَا فِي ذَلِكَ اليَومِ».

○ قوله تعالى: «﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾»، فسره فقال: «أَظْلَمَ».

○ قوله تعالى: «﴿تَعَٰلَىٰ﴾»، فسره فقال: «عَلا».

○ قوله تعالى: «﴿حُسْبَانًا﴾»، فسره فقال: «مَرَامِيَ. وَ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾».

○ قوله تعالى: «﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾»، فسره فقال: «فِي الصُّلْبِ»، «﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾»، فسره فقال: «فِي الرَّحِمِ».

○ قوله: «القِنْوُ: العِذْقُ» بالكسر، وسبق أن القنو بالفتح النخلات.

والقنو يقال: للواحد والاثنين وللجماعة، ويقال: «وَالِاثْنَانِ قِنْوَانِ، وَالْجَمَاعَةُ أَيْضًا: ﴿قِنْوَانٌ﴾، مِثْلُ صِنْوٍ، و﴿صِنْوَانٌ﴾».

○ قوله تعالى: «﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ﴾، يعني: هل تشتمل إلا على ذكر أو أنثى، فلم تحرموا بعضها وتحلوا بعضها؟!»، يعني: بطون الأنعام تشتمل على ذكر وأنثى؛ فيحلون الأنثى ويحرمون الذكر أو العكس؛ وهي كلها اشتملت عليها البطون، فليس هناك فرق بين هذا وذاك!

○ قوله تعالى: «﴿صَدَفَ عَنْهَا﴾» فسره فقال: «أعرض».

○ قوله: «أبلسوا: أيسوا»، وقوله تعالى: «﴿أُبْسِلُوا﴾: أسلموا»، فرق بين أبلسوا وأبسلوا؛ فأبلس يعني: أيس من رحمة الله، وأبسل يعني: أسلم.

فأبسلوا تقبل المعنيين؛ يقال: أبسله: أسلمه للعدو أو فضحه.

- قوله تعالى: «﴿سَرۡمَدًا﴾» فسره فقال: «**دائمًا**».
- قوله تعالى: «﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾» فسره فقال: «**أضلته**».
- قوله تعالى: «﴿يَمۡتَرُونَ﴾» فسره فقال: «**يشكون**».
- قوله: «**يقال: على الله حسبانه؛ أي: حسابه**».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]

{٤٦٢٧} حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ: إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] وفيها إثبات مرتبتين من مراتب الإيمان بالقدر:

المرتبة الأولى: العلم.

المرتبة الثانية: الكتابة.

وهاتان المرتبتان أنكرهما غلاة القدرية الأولى، فكفروا بذلك؛ لأنهم نسبوا الله إلى الجهل تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، كما روى الإمام مسلم أول حديث في «صحيحه» في قصة حميد الطويل وصاحبه لما سألا عبد الله بن عمر قالوا له: أبا عبد الرحمن، إنه ظهر قِبَلنا أناس يتقفرون العلم ويزعمون أن الأمر أنف، يعني: مستأنف وجديد لم يسبق به علم الله، فقال: أخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني، ثم روى ابن عمر رضي الله عنهما حديث جبرائيل في سؤالاته جبرائيل للنبي ﷺ عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ثم عن الساعة ثم عن أماراتها.

فالإيمان بالعلم لا بد منه في الإيمان بالقدر وهو الإيمان بأن الله علم كل شيء في الأزل، ويعلم ما في الحاضر وما في المستقبل، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، وكذلك الإيمان بأن كل شيء كتب في اللوح المحفوظ؛ قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وهو اللوح المحفوظ.

{٤٦٢٧} ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خَمْسٌ»، وقرئ: ﴿وَعِندَهُۥ «مفاتيح» ٱلْغَيْبِ﴾ قراءتان، وقوله تعالى: ﴿مَفَاتِحُ﴾ جمع: مفتح.

○ قوله: «﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خَمْسٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾» هذه **الأولى**؛ يعني: لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، ولكن لها أمارات وعلامات تسبقها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، أي: لا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾، أي: لا يعلم ما في الأرحام إلا الله، والمراد قبل خلق الجنين؛ فلا يعلم هذه النطفة ستكون ذكرًا أو أنثى إلا الله، ثم بعد ذلك يُعلِم الله الملك إذا مضى أربعة أشهر، فيسأل الملك يقول: يا رب ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما رزقه؟ ما أجله؟ ثم بعد ذلك يعلم الأطباء، أما قبل ذلك فلا يعلم ما في الأرحام إلا الله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

وهذا الحديث يوافق آية سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، وهي آخر آية في سورة لقمان.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾
إلىٰ قوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] الآيَةَ

﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]: يَخْلِطَكُمْ مِنَ الْأَلْتِبَاسِ. ﴿يَلْبِسُوٓاْ﴾ [الأنعام: ٨٢]: يَخْلِطُوا. ﴿شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]: فِرَقًا.

{٤٦٢٨} حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَٰذِهِ الآيَةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَٰذَا أَهْوَنُ». أَوْ «هَٰذَا أَيْسَرُ».

الشَّرْح

فسر المؤلف رحمه الله قوله تعالى: «﴿يَلْبِسَكُمْ﴾» فقال: «يَخْلِطَكُمْ مِنَ الْأَلْتِبَاسِ».

- قوله تعالى: «﴿يَلْبِسُوٓاْ﴾»، فسره فقال: «يَخْلِطُوا».
- وقوله تعالى: «﴿شِيَعًا﴾»، فسره فقال: «فِرَقًا»، أي: تكون الأمة فرقًا وأحزابًا متناحرة متقاتلة.

{٤٦٢٨} وهذه الآية ذكر الله فيها ثلاثة أشياء، قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، وهو العذاب الذي ينزل من السماء؛ قد يكون نارًا كما نزل على قوم شعيب، أو صيحة من ملك، أو ريحًا كما حصل لعاد قوم هود، أو مطرًا أو بردًا.

وقال تعالى: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: خسف أو نار تخرج من أسفل.

وقال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يعني: يجعلكم شيعًا وأحزابًا تتقاتلون، وجاء في حديث آخر أن النبي ﷺ لما أنزل الله عليه هذه الآية

قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾»، قال: «**أعوذ بوجهك**»، «﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾»، قال: «**أعوذ بوجهك**»، «﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]» قال: «**هذا أيسر**»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «**سألت الله ﷻ ألا يهلك أمتي بسنة عامة**»[(٢)] يعني: بعذاب عام يعمهم.

وقال: «**وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم**»، أي: لا يقضون عليها قضاءً مبرمًا، فتبقى طائفة على الحق، وقد استجاب الله لنبيه ﷺ ألا يهلك الأمة بعذاب عام أو بعدو يجتاحها.

وقال: «**وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها**»[(٣)] منع منه.

وفي اللفظ الآخر: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**».

ويدل هذا على أن اختلاف الأمة والقتال بينها واقع كما جاء في حديث جابر قال: «**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذَا أَهْوَنُ» أَوْ «هَذَا أَيْسَرُ»**»، وهو أن يهلك بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، ويكونوا شيعًا وأحزابًا يتقاتلون فيما بينهم، وهذا واقع بين الأمة الآن.

ويستفاد من هذا الحديث أنه لا بأس بالاستعاذة بوجه الله من قوله: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»؛ لأنها صفة من صفات الله.

وفي الحديث الآخر: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك**»[(٤)].

---

(١) أحمد (٣/ ٣٠٩)، والبخاري (٧٤٠٦).
(٢) أحمد (٤/ ١٢٣)، ومسلم (٢٨٨٩).
(٣) أحمد (٥/ ٢٤٨)، والترمذي (٢١٧٥).
(٤) «السيرة النبوية» لابن إسحاق (٢/ ٢٦٨).

بَابٌ
﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية

{٤٦٢٩} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابن أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﵁ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الشَّرْح

{٤٦٢٩} قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعني: وحدوا الله وأخلصوا دينهم.

قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾، أي: ولم يخلطوا.

قوله: ﴿إِيمَٰنَهُم﴾، أي: توحيدهم.

قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾، أي: بشرك.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾، أي: من العذاب في الآخرة.

قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: في الدنيا.

فالمراد بالظلم في الآية الشرك.

ولما نزلت هذه الآية أشكلت على الصحابة رضوان الله عليهم وظنوا أن المراد بالظلم ظلم النفس بالمعاصي، وجاءوا وقد شقت عليهم هذه الآية وجثوا على الركب، وقالوا: «وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟» فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس بالذي تعنون، ألم تسمعوا إلى قول لقمان**[1]: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

(١) أحمد ١/٣٧٨، والبخاري (٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤).

وهذه من الآيات التي فسرها النبي ﷺ، ففسر الظلم بالشرك، فمن مات على التوحيد ولم يظلم نفسه بالشرك ولا بالكبائر والمعاصي فله الأمن التام من دخول النار والخلود فيها وله الهداية الكاملة.

أما إذا سلم من الشرك الأكبر ولكنه لم يسلم من الكبائر ومن المعاصي فهذا له أمن ناقص وهداية ناقصة، له أمن من الخلود في النار، لكن قد يدخلها؛ إلا أن مآله إلى الجنة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

{٤٦٣٠} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابن مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي العَالِيَةِ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابن عَمِّ نَبِيِّكُمْ- يَعْنِي: ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ».

{٤٦٣١} حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنَا سَعْدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: سَمِعْتُ حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ».

الشَّرح

{٤٦٣٠}، {٤٦٣١} قوله: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ»؛ وذلك لأنه نبي كريم ومن المرسلين؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصَّافات: ١٣٩]. فقد أرسل إلى أمة عظيمة، إلى مائة ألف أو يزيدون، فلما أغضبه قومه ذهب مغاضبًا، ثم ركب البحر والتقمه الحوت وهو مليم، ولكن الله اجتباه وهداه كما اجتبى آدم من قبل، فمن قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب؛ لأنه من المرسلين ومن الأنبياء، والرسل أفضل من الأنبياء، والأنبياء أفضل من سائر الناس.

وفي لفظ قال ﷺ: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب**»[١].

---

(١) أحمد (٢/ ٤٥٠)، والبخاري (٤٦٠٤).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾

{٤٦٣٢} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ: أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ الأَحْوَلُ أَنَّ مُجَاهِدًا أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ سَأَلَ ابن عَبَّاسٍ: أَفِي «ص» سَجْدَةٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. ثُمَّ تَلَا ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ [الأنعام: ٨٤] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ. زَادَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَسَهْلُ بْنُ يُوسُفَ، عَنِ العَوَّامِ، عَنْ مُجَاهِدٍ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ؛ فَقَالَ: نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ.

الشَّرْح

{٤٦٣٢} قول مجاهد: «أنه سأل ابن عباس: أفي ﴿صٓ﴾ سجدة؟ فقال: نعم».

فأكثر السجدات ثبتت عن الصحابة وبعضها عن النبي ﷺ، وسجدة ﴿صٓ﴾ ثبتت عن النبي ﷺ، فقال ابن بطال في شرح صحيح البخاري أن ابن عباس قال: سجدة ﴿صٓ﴾ ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[(١)]؛ فدل على أنها سجدة ثابتة.

فالسجدة موجودة في المصاحف عند قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [صٓ: ٢٤] ولكن السجدة تكون بعد تمام المعنى؛ أي بعد قوله: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾ [صٓ: ٢٥]. كما أن موضع سجدة فصلت عند قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٨] بعد قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٧]. فظاهره أن السجود عند تمام المعنى.

(١) البخاري (١٠٦٩).

○ قوله: «**ثُمَّ تَلَا: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾** [الأنعام: ٨٤- ٩٠] ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ»، يعني: رسولنا ﷺ منهم.

وفي رواية مجاهد: «**قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ؛ فَقَالَ: نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ**»، يعني: أمر نبينا ﷺ أن يقتدي بهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اختلف هل كان عليه الصلاة والسلام متعبدًا بشرع من قبله حتى نزل عليه ناسخه، فقيل: نعم وحجتهم هذه الآية ونحوها، وقيل: لا، وأجابوا عن الآية بأن المراد اتباعهم فيما أنزل عليه وفاقه ولو على طريق الإجمال فيتبعهم في التفصيل، وهذا هو الأصح عند كثير من الشافعية واختاره إمام الحرمين ومن تبعه، واختار الأول ابن الحاجب. والله أعلم».

وكان عليه الصلاة والسلام يتعبد في غار حراء قبل البعثة على ما توارثه الناس من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكذلك كانوا يحجون في الجاهلية على ما توارثوه من دين إبراهيم، كما كانت قريش تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله يصومه معهم، ثم غيروا وبدلوا أشياء.

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]: البَعِيرُ وَالنَّعَامَةُ. ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ [الأنعام: ١٤٦] المباعر. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿هَادُواْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] صَارُوا يَهُودا، و﴿هُدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٥٦] تُبْنَا. وهَائِدٌ: تَائِبٌ.

{٤٦٣٣} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، قَالَ عَطَاءٌ سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ، لَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوهَا».

وَقَالَ أَبُو عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الحَمِيدِ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، كَتَبَ إِلَيَّ عَطَاءٌ، سَمِعْتُ جَابِرًا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

الشَّرح

هذه الآية الكريمة فيها أن الله تعالى حرم على اليهود شيئًا مما كان مباحًا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

وفيه: أن الإنسان يعاقب بمعاصيه؛ وفيه شؤم المعاصي وآثارها.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ فسر ابن عباس الظفر فقال: «البَعِيرُ وَالنَّعَامَةُ».

○ قوله تعالى: «﴿ٱلْحَوَايَآ﴾»، فسره فقال: «المبعر».

وقيل: المباعر، والحوايا جمع حوية: وهي ما اجتمع واستدار من البطن، وفيها الأمعاء، فهذه استثناها الله؛ لما فيه من المشقة، فقال الله تعالى: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝١٤٦﴾ [الأنعام: ١٤٦]. هذا سبب مجازاتهم وعقوبتهم.

وفي آية النساء قال الله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وفي الآية الأخرى قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١]، أي: بسبب ظلمهم.

وفيه: التحذير من المعاصي وبيان شؤمها وعاقبتها، وما حصل وما يحصل في الدنيا من العقوبات والمصائب والنكبات، وما سيحصل فيها أيضًا كذلك من فساد الهواء والجو والزروع والثمار؛ وذلك كله بسبب المعاصي كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

{٤٦٣٣} ذكر المؤلف رحمه الله حديث جابر رضي الله عنه قال: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ» فيه: دليل على جواز لعن اليهود، وفي اللفظ الآخر: «**لعن الله اليهود**»(١) على العموم وأنه لا بأس بقول: قاتل الله اليهود، لعن الله النصارى، وحتى أيضًا الفاسق على العموم: لعن الله آكل الربا، لعن الله السارق، لعن الله الزاني، أما المعيَّن فلا يلعن على الصحيح من قولي العلماء، لا من الكفار ولا من الفساق؛ لأن المعين لا يدرى حاله؛ فقد يتوب الله عليه إن كان كافرًا أو فاسقًا، أو قد يكون معذورًا ما بلغه النص؛ ولهذا لما جيء برجل للنبي ﷺ يشرب الخمر وكان كثيرًا ما يؤتى به يقال له: عبد الله، وكان لقبه حمارًا جيء به مرة ليجلد، فقال رجل من القوم: «**أخزاه الله**»(٢) وفي لفظ: «**لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به**»، فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**»(٣)؛ لأن إقامة الحد كافية.

---

(١) أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (٣٤٦٠)، ومسلم (١٥٨٢).
(٢) البخاري (٦٧٨١).
(٣) البخاري (٦٧٨٠).

○ قوله: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ، لَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوهَا»، يعني: تحيلوا.

وفيه: دليل على إبطال الحيل، فلا يجوز للإنسان أن يتحيل على إبطال ما أوجب الله أو على استحلال ما حرم الله، وقد تكون الحيلة أشد بإظهار أن يأتي الأمر على وجهه؛ ولهذا قال بعض السلف مستنكرًا: عاملوا الله كما يعاملون صبيانهم! ولهذا لعنهم النبي ﷺ قال: «قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ، لَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا»، يعني: أن الله حرم عليهم شحوم الغنم والبقر، فتحيلوا على الله؛ أذابوا الشحوم ثم باعوها ثم أكلوا ثمنها، وقالوا: ما أكلنا الشحوم. فهذه حيلة؛ لأن الشحوم محرمة لا يجوز أصلًا إذابتها وأكلها، ولا بيعها؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه**»(١)؛ ولهذا لعنهم النبي ﷺ على هذه الحيلة.

وثبت بسند جيد أن النبي ﷺ قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**»(٢) وهذا يقع فيه بعض الناس والعياذ بالله من الحيل، مثل قلب الدين على المعسر، كأن يكون لشخص على آخر دين عشرة آلاف مؤجلة إلى سنة، فإذا حل الدين قال: أعطني الدين، قال: ما عندي شيء، فيقول: أبيعك سيارة تساوي عشرة آلاف بخمسة عشر، ويقول: بعها وأعطني، ثم يبيعها ويعطيه، وهكذا يتراكم الدين عليه، فبهذا يزيد الدين، فبدلًا من أن يكون عشرة يصير خمسة عشر، وهذا صريح الربا.

---

(١) أحمد (١/ ٢٩٣).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٨).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]

{٤٦٣٤} حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ، لِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ». قُلْتُ: سَمِعْتَهُ مِنْ عَبْدِ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَرَفَعَهُ؟ قَالَ نَعَمْ.

الشَّرْح

○ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الفواحش الظاهرة: مثل الزنا والربا والسرقة والقتل، والفواحش الباطنة: مثل العجب والكبر والرياء، ومحبة إيذاء الناس وما أشبه ذلك.

{٤٦٣٤} هذا الحديث على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] فقد نهى الله ﷻ عن قربان الفواحش؛ والفواحش: جمع فاحشة، وهي ما عظم فحشه من الذنوب والمعاصي كالزنا واللواط وغيرها.

○ قوله: «لَا أَحَدَ»، لا: نافية للجنس مثل: لا رجل في الدار.

○ قوله: «أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»، فيه إثبات الغيرة لله ﷻ، وهي من الصفات التي تليق بالله تعالى؛ وفي الحديث الآخر في قصة سعد قال: «**أتعجبون من غيرة سعد، فأنا أغير منه والله أغير مني**»[(١)].

يعني: أشد غيرة.

(١) أحمد (٤/٢٤٨)، والبخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

○ وقوله: «وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ، لِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ» فيه: إثبات المحبة لله ﷻ، ومن أثر محبة المدح أن الله مدح نفسه.

○ قوله: «قُلْتُ: سَمِعْتَهُ مِنْ عَبْدِ اللهِ؟» أي: أن عمرًا يقول لأبي وائل: سمعت هذا الحديث من عبد الله بن مسعود؟ «قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَرَفَعَهُ؟ قَالَ نَعَمْ».

وفي لفظ آخر للحديث زيادة: «**ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين**»[1]. والمراد أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥]. فقطع المعذرة على الناس؛ حتى لا يكون لأحد عذر في ذلك إذا عذب؛ لأنه عصى ربه على بصيرة.

(١) أحمد (٤/٢٤٨)، والبخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

بَابٌ

﴿وَكِيلٌ﴾ حَفِيظٌ وَمُحِيطٌ بِهِ.

﴿قُبُلًا﴾ [الأنعام: ١١١]: جَمْعُ قَبِيلٍ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ ضُرُوبٌ لِلْعَذَابِ، كُلُّ ضَرْبٍ مِنْهَا قَبِيلٌ. ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأنعام: ١١٢]: كُلُّ شَيْءٍ حَسَّنْتَهُ وَوَشَّيْتَهُ وَهُوَ بَاطِلٌ، فَهْوَ زُخْرُفٌ. ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨]: حَرَامٌ، وَكُلُّ مَمْنُوعٍ فَهْوَ حِجْرٌ مَحْجُورٌ، وَالْحِجْرُ: كُلُّ بِنَاءٍ بَنَيْتَهُ، وَيُقَالُ لِلأُنْثَىٰ مِنَ الخَيْلِ: حِجْرٌ. وَيُقَالُ لِلْعَقْلِ: حِجْرٌ وَحِجًى. وَأَمَّا الحِجْرُ: فَمَوْضِعُ ثَمُودَ، وَمَا حَجَّرْتَ عَلَيْهِ مِنَ الأَرْضِ: فَهُوَ حِجْرٌ، وَمِنْهُ سُمِّيَ حَطِيمُ البَيْتِ حِجْرًا، كَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ مَحْطُومٍ، مِثْلُ قَتِيلٍ مِنْ مَقْتُولٍ، وَأَمَّا حَجْرُ اليَمَامَةِ: فَهْوَ مَنْزِلٌ.

الشَّرْح

«﴿قُبُلًا﴾» جمع قبيل، قيل في معناه: المقابلة والمعاينة، وقا مجاهد: «﴿قُبُلًا﴾» أفواجًا. قال ابن جرير: «ويحتمل أن يكون القبل جمع قبيل وهو الضمين والكفيل ويجوز أن يكون بمعنى ناحية يقول لي قبل فلان كذا أي من جهته» ثم قال: «ولم أر من فسره بأصناف العذاب فليحرر هنا»[(١)].

قوله: «﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأنعام: ١١٢]»: كل شيء حسنته ووشيته، وهو باطل فهو زخرف، أي يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره، أفاده الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

---

(١) قال محمد زكريا الكاندهلوي في كتابه: الأبواب والتراجم لصحيح البخاري: (٤/ ١٢٧) والأوجه عند هذا العبد الضعيف أن ذكر هذا التفسير هنا ليس في محله، بل هو تفسير لما سيأتي في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف: ٥٥] ثم قال: (فالظاهر عندي أن التفسير كان لقبلًا الذي في الكهف ذكر هاهنا من سهو الناسخ).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٢١).

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الأنعام: ١٥٠]

لُغَةُ أَهْلِ الحِجَازِ: هَلُمَّ لِلْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمِيعِ.

الشَّرْح

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: لُغَةُ أَهْلِ الحِجَازِ: هَلُمَّ لِلْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمِيعِ» هو كلام أبي عبيدة بزيادة والذكر والأنثى سواء، وأهل نجد يقولون للواحد: هلم وللمرأة: هلمي، وللاثنين: هلما وللقوم: هلموا، وللنساء: هلممن؛ يجعلونها من هلممت، وعلى الأول فهو اسم فعل معناه: طلب الإحضار، و﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾ مفعول به، والميم في ﴿هَلُمَّ﴾ مبنية على الفتح في اللغة الأولى».

بَابٌ

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]

{٤٦٣٥} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ، حَدَّثَنَا عُمَارَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]».

{٤٦٣٦} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]». ثُمَّ قَرَأَ الآيَةَ.

الشَّرْح

ترجم المؤلف رحمه الله على بعض آية فقال: «**باب ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾**»، وهذا يكون في آخر الزمان في أشراط الساعة الكبار، وقد أشار البخاري رحمه الله في هذه الترجمة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

{٤٦٣٥}، {٤٦٣٦} في هذين الحديثين الكلام عن أحد أشراط الساعة الكبار وهي طلوع الشمس من مغربها وهي من العلامات المتأخرة، فأشراط الساعة الكبار تكون في آخر الزمان، وهي كما جاء في الحديث: «**كنظام بال قطع سلكه**»[1] ثم تتوالى، أولها خروج المهدي ثم خروج الدجال ثم نزول عيسى بن مريم ثم خروج يأجوج ومأجوج؛ هذه أربعة متوالية، ثم تتوالى أشراط الساعة: كهدم الكعبة ونزع القرآن من الصدور والدخان، وطلوع الشمس من مغربها وغلق

(١) الترمذي (٢٢١١).

باب التوبة، وخروج الدابة التي تسم الناس في جباههم سمة يبيض لها وجه المؤمن ويسود لها وجه الكافر، ويعرف الكافر من المؤمن في آخر الزمان، حتى يتبايع الناس في أسواقهم دهرًا من الزمان يقولون: خذ هذا يا مؤمن، بع هذا يا كافر.

وآخر شيء من أشراط الساعة: النار التي تسوق الناس إلى المحشر، وبعدها تقوم الساعة.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أن من شروط قبول التوبة ألا تطلع الشمس من مغربها، وهو شرط عام لجميع الناس.

وهناك شروط أخرى حددها العلماء منها: ألا تصل الروح إلى الحلقوم، وهذا الشرط خاص بالشخص، فكل أحد في حقه تقبل توبته ما لم تصل الروح إلى الحلقوم، ومن الشروط الأخرى أيضًا أن يقلع عن المعصية، وأن يندم على ما مضى، وأن يرد المظالم إلى أهلها، وأن يعزم على ألا يعود إليها.

٧- سورة الأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابن عبَّاسٍ: (وَرِيَاشًا): المَالُ (الْمُعْتَدِينَ): فِي الدُّعَاءِ وَفِي غَيْرِهِ. ﴿عَفَواْ﴾ كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾: القَاضِي ﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾: ٱقْضِ بَيْنَنَا. ﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾: رَفَعْنَا (انْبَجَسَتْ): ٱنْفَجَرَتْ ﴿مُتَبَّرٌ﴾: خُسْرَانٌ ﴿ءَاسَىٰ﴾: أَحْزَنُ ﴿تَأْسَ﴾ تَحْزَنْ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾: يَقُولُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أَخَذَا الخِصَافَ مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ، يُؤَلِّفَانِ الوَرَقَ، يَخْصِفَانِ الوَرَقَ بَعْضَهُ إِلَىٰ بَعْضٍ. ﴿سَوْءَاتِهِمَا﴾ كِنَايَةٌ عَنْ فَرْجَيْهِمَا، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ هُوَ هَا هُنَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَالْحِينُ عِنْدَ العَرَبِ مِنْ سَاعَةٍ إِلَىٰ مَا لَا يُحْصَىٰ عَدَدُهَا، الرِّيَاشُ وَالرِّيشُ وَاحِدٌ، وَهْوَ مَا ظَهَرَ مِنَ اللِّبَاسِ. ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: جِيلُهُ الذِي هُوَ مِنْهُمْ. ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: ٱجْتَمَعُوا. وَمَشَاقُّ الإِنْسَانِ وَالدَّابَّةِ كُلُّهُمْ يُسَمَّىٰ سُمُومًا وَاحِدُهَا سَمٌّ. وَهِيَ عَيْنَاهُ وَمَنْخِرَاهُ وَفَمُهُ وَأُذُنَاهُ وَدُبُرُهُ وَإِحْلِيلُهُ. ﴿غَوَاشٍ﴾: مَا غُشُّوا بِهِ. ﴿نُشُرًا﴾: مُتَفَرِّقَةً. ﴿نَكِدًا﴾: قَلِيلًا. ﴿يَغْنَوْاْ﴾: يَعِيشُوا ﴿حَقِيقٌ﴾: حَقٌّ. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: مِنَ الرَّهْبَةِ ﴿تَلْقَفُ﴾: تَلْقَمُ. ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: حَظُّهُمْ. طُوفَانٌ مِنَ السَّيْلِ. وَيُقَالُ لِلْمَوْتِ الكَثِيرِ الطُّوفَانُ. ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ الحُمْنَانُ يُشْبِهُ صِغَارَ الحَلَمِ. عُرُوشٌ وَعَرِيشٌ بِنَاءٌ. ﴿سُقِطَ﴾: كُلُّ مَنْ نَدِمَ فَقَدْ سُقِطَ فِي يَدِهِ، الأَسْبَاطُ قَبَائِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ﴿يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يَتَعَدَّوْنَ لَهُ يُجَاوِزُونَ ﴿تَعْدُ﴾ [الكهف: ٢٨] تُجَاوِزْ. ﴿شُرَّعًا﴾ شَوَارِعَ ﴿بَـِٔيسٍ﴾ شَدِيدٍ، ﴿أَخْلَدَ﴾ قَعَدَ وَتَقَاعَسَ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ نَأْتِيهِمْ مِنْ مَأْمَنِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ مِنْ جُنُونٍ. ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: مَتَىٰ خُرُوجُهَا ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: ٱسْتَمَرَّ بِهَا الحَمْلُ فَأَتَمَّتْهُ ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يَسْتَخِفَّنَّكَ، طَيْفٌ مُلِمٌّ: بِهِ لَمَمٌ وَيُقَالُ ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ وَهْوَ وَاحِدٌ. ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يُزَيِّنُونَ. ﴿وَخِيفَةً﴾ خَوْفًا ﴿وَخُفْيَةً﴾ مِنَ الإِخْفَاءِ، ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ وَاحِدُهَا أَصِيلٌ وَهُوَ مَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَى المَغْرِبِ كَقَوْلِهِ: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

الشَّرح

فسر المؤلف الكلمات التي في سورة الأعراف؛ ليفيد طالب العلم، وليكون هذا «الجامع الصحيح» مشتملًا على بيان المعاني اللغوية مع الآيات الكريمة.

○ قوله: «قَالَ ابن عَبَّاسٍ: (وَرِيَاشًا): المَالُ»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشًاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦] على قراءة، وفسره بعد ذلك حيث قال: «الريش والرياش واحد وهو ما ظهر من اللباس»؛ فالله تعالى امتن على بني آدم بنوعين من اللباس:

النوع الأول: ما يواري السوأة، وهو لابد منه في ستر العورة، مثل السروال الذي يغطي ما بين السرة إلى الركبة.

النوع الثاني: ما يكون للجمال، وهو فوق ذلك، وهو الذي يسمى الرياش، مثل القميص - إذا كان تحته سروال - أو العباءة أو غير ذلك من الزينة.

○ قوله: «﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾: فِي الدُّعَاءِ وَفِي غَيْرِهِ» والاعتداء هو تجاوز الحد، وذلك بأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم، أو يسأل ما لا يستحق من الدرجة.

○ قوله: «﴿عَفَواْ﴾: كَثُرُوا» أشار المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]، والمعنى: حتى كثروا وكثرت أموالهم.

○ قوله: «﴿نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾: رَفَعْنَا» يشير المؤلف إلى ما حدث لبني إسرائيل لما امتنعوا عن العمل بالتوراة؛ حيث رفع الله جبل الطور فوق رؤوسهم فصاروا ينظرون إليه يخشون أن يسقط عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، وهذا من قدرة الله العظيمة، فقال الله تعالى لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾، أي: اعملوا بالتوراة، ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأعراف: ١٧١]؛ وهذا لأنهم عتاة.

○ قوله: «انْبَجَسَتْ: ٱنْفَجَرَتْ»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، أي: الحجر الذي يحمله موسى.

○ قوله: «﴿مُتَبَّرٌ﴾: خُسْرَانٌ»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩]

○ قوله: «﴿ءَاسَىٰ﴾: أَحْزَنُ»، يشير بذلك إلى قول الله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣].

○ قوله: «﴿تَأْسَ﴾: تَحْزَنْ» يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦]، أي: لا تحزن عليهم.

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾: يَقُولُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ» يعني: أن ﴿لَآ﴾ هنا صلة، كما في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١] أي: أقسم بيوم القيامة؛ فتكون للتأكيد.

○ قوله: «﴿يَخْصِفَانِ﴾: أَخَذَا الخِصَافَ مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ، يُؤَلِّفَانِ الوَرَقَ، يَخْصِفَانِ الوَرَقَ بَعْضَهُ إِلَىٰ بَعْضٍ»، يعني: آدم وحواء لما عصيا الله بأن ذاقا من الشجرة سقط اللباس فبدت العورة وبانت، فاستحيا فجعلا يقطعان ورق الأشجار حتى يسترا عورتيهما، كما في قوله تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وهذا فيه: دليل على شؤم المعاصي، وأن المعاصي عورة.

وقوله تعالى: ﴿سَوْءَٰتِهِمَآ﴾، كناية عن فرجيهما ومواطن العورات التي ظهرت منهما.

○ قوله: «﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: ٱجْتَمَعُوا»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعني: أهل النار.

○ قوله: «﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾: القَاضِي» أي: يقضي بينهم، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

○ قوله: «﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾: اقضِ»، أشار إلى قوله تعالى: ﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].

○ قوله: «﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: حظهم»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

○ قوله: «﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾»، أي: «إلى يوم القيامة»، وذلك لما هبطا من الجنة.

○ قوله: «والحين عند العرب: من ساعة إلى ما لا يحصى عدده»، والساعة ليست المعروفة الآن، بل اللحظة من الزمن وتسمى حينًا.

○ قوله: «﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾، أي: جيله الذي هو منهم»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٧]، والضمير يعود إلى الشيطان.

○ قوله: «ومشاق الإنسان والدابة كلها تسمى: سمومًا، واحدها: سم، وهي: عيناه، ومنخراه، وفمه، وأذناه، ودبره، وإحليله»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. السم: هي الثقب، وكل هذه سموم؛ لأن فيها شقوقًا، مثل سم الإبرة، أي الثقب الذي فيها.

○ قوله: «﴿غَوَاشٍ﴾: ما غشوا به»، يعني: ما غطوا به.

○ قوله: «نشرًا: متفرقة» هذه قراءة، وفي رواية حفص التي نقرأ بها: ﴿بُشْرًا﴾ [الأعراف: ٥٧].

○ قوله: «﴿نَكِدًا﴾: قليلًا»، أي: في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

○ قوله: «﴿يَغْنَوْا﴾: يعيشوا»، أي: في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢].

○ قوله: «﴿حَقِيقٌ﴾: حق»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

○ قوله: «﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: من الرهبة»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦].

○ قوله: «﴿تَلْقَفُ﴾: تلقم»، يعني: عصا موسى، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف: ١١٧].

○ قوله: «طوفان: من السيل، ويقال للموت الكثير: الطوفان» يشير إلى

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعرَاف: ١٣٣].

○ قوله: «﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: **الحمنان، يشبه صغار الحلم**» الحلم: دابة صغيرة، وهذا في عقوبة على بني إسرائيل.

○ قوله: «**عروش وعريش: بناء**»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعرَاف: ١٣٧].

○ قوله: «﴿سُقِطَ﴾: **كل من ندم فقد سقط في يده**»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعرَاف: ١٤٩]، أي: ندموا.

○ قوله: «﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: **قبائل بني إسرائيل**»، أي: أن الأسباط في بني إسرائيل بمنزلة القبائل عند العرب.

○ قوله: «﴿يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾: **يتعدون له، تجاوز بعد تجاوز**»، أي: يتعدون الحدود، فالله تعالى حرم عليهم اصطياد السبت عقوبة لهم، ومن ابتلاء الله لهم أن الحوت لا يأتي إلا يوم السبت، فتحيلوا فجعلوا الشباك يوم الجمعة تصيد يوم السبت ويأخذونها يوم الأحد، وقالوا: ما صدنا؛ ومن أجل ذلك مسخهم الله قردة وخنازير.

○ قوله: «﴿شُرَّعٗا﴾: **شوارع**»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا﴾ [الأعرَاف: ١٦٣].

○ قوله: «﴿بَـِٔيسِۭ﴾: **شديد**» في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ [الأعرَاف: ١٦٥].

○ قوله: «﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: **قعد وتقاعس**»، ومنه الإخلاد وهو طول المكث.

○ قوله: «﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ [الأعرَاف: ١٨٢]، **أي: نأتيهم من مأمنهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحَشر: ٢]**»، أي: وهم غافلون.

○ قوله: «﴿مِّن جِنَّةٍ﴾: **من جنون**»، أي: في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سَبَإ: ٤٦].

○ قوله: «﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: متى خروجها؟»، أي: في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧].

○ قوله: «﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: استمر بها الحمل فأتمته» يعني: حواء لما حملت.

○ قوله: «﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يستخفنك»، أي: في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

○ قوله: «طيف ملم: به لمم، ويقال: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، وهو واحد»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

○ قوله: «﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾: يزينون»، أي: في قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

○ قوله: «﴿وَخِيفَةً﴾: خوفًا»، أي: في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

○ قوله: «﴿وَخُفْيَةً﴾: من الإخفاء»، أي: في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وفرق بين الخيفة وهي: الخوف، ضد الأمن، والخفية وهي: الإخفاء، ضد الجهر.

○ قوله: «﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ واحدها: أصل» وكذلك واحدها: أصيل، مثل قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢]، قوله: «وهو: ما بين العصر إلى المغرب» أي: آخر النهار.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

[الأعراف: ٣٣]

{٤٦٣٧} حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ سَمِعْتَ هٰذا مِنْ عَبْدِ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَرَفَعَهُ. قَالَ: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ».

الشَّرح

{٤٦٣٧} قوله: «لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ» هذا هو الشاهد في الحديث، ومناسبته للترجمة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، أي: ظاهر الفواحش وباطنها، وسبق الكلام على الحديث.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾
إلىٰ قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَرِنِي﴾: أَعْطِنِي.

{٤٦٣٨} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى المَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لُطِمَ وَجْهُهُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي. قَالَ: «ادْعُوهُ». فَدَعَوْهُ قَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي ٱصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَى البَشَرِ. فَقُلْتُ: وَعَلَىٰ مُحَمَّدٍ؟! وَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ؛ فَلَطَمْتُهُ. قَالَ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي: أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟».

الشَّرْح

هذه الترجمة في قصة موسى عليه السلام قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وذلك بعدما كلمه الله من دون واسطة - لذا يسمى كليم الرحمن - فطمع في رؤية الله فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾ فقال الله سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، أي: لا تستطيع في الدنيا ببشريتك الضعيفة، قال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾؛ لأن الجبل شديد صلب، ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾، يعني: إن ثبت الجبل فأنت تستطيع، وإن لم يثبت فلن تستطيع، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، أي: تدكدك وانساخ وذاب، قال بعض السلف: إنه كشف له بمقدار الخنصر.

قال الله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾، أي: موسى ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعرَاف: ١٤٣]، أي: المؤمنين أنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات ولا جبل إلا تدكدك، فلا يستطيع أحد أن يرى الله حتى نبينا ﷺ ليلة المعراج؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم قال: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**» قال في آخر الحديث: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[(١)] فالله سبحانه احتجب من خلقه، ولو كشف الحجاب لاحترق الخلق.

وقد أجمع العلماء على أن الله لم يره أحد في الدنيا، إلا أنهم اختلفوا في نبينا ﷺ ليلة المعراج، واتفقوا على أنه لم يره في الأرض، وإنما الخلاف في رؤيته في السماء، قال بعض السلف: إنه رآه بعين رأسه، وقال آخرون: لم يره وإنما رآه بعين قلبه، وهذا هو الصواب، ولما قال أبو ذر للنبي ﷺ: هل رأيت ربك في ليلة المعراج؟ قال: «**نور أنى أراه؟**»[(٢)] يعني: نور حجابه يمنعني من رؤيته فلا يستطيع أحد أن يرى الله أو أن يتحمل رؤية الله؛ ولهذا قالت عائشة لما سألها مسروق هل رأى محمد ربه؟ قالت: لقد قف شعري لما قلت، ثم قالت: «**من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب**»[(٣)].

لكن الرؤية في الآخرة ثابتة، فالمؤمنون يرون الله، والقرآن صريح في هذا، والأحاديث متواترة؛ قال العلامة ابن القيم: «وأهل السنة كلهم متفقون على إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة»[(٤)].

ومن الأدلة عليها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيَامَة: ٢٢-٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: ٢٦]. والزيادة جاء تفسيرها بأنها النظر إلى وجهه الكريم سبحانه، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [قٓ: ٣٥]، ومن أصرح الأدلة حديث أبي هريرة: «**إنكم ترون ربكم كما**

(١) أحمد (٤/ ٤٠٥)، ومسلم (١٧٩).
(٢) أحمد (٥/ ١٤٧)، ومسلم (١٧٨).
(٣) أحمد (٦/ ٤٩)، والبخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).
(٤) «الصواعق المرسلة» (٤/ ٢٤٧).

ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»[(١)].

وقد أنكر المعتزلة والجهمية رؤية الله في الآخرة، وقالوا: إن الله لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، وفسروا الرؤية المذكورة في الحديث بالعلم؛ أي: إنكم تعلمون ربكم لا تشكون في العلم به كما لا تشكون في القمر أنه قمر، وهذا تأويل فاسد، واستدلوا على عدم الرؤية، في المستقبل بهذه الآية: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقالوا: لن تفيد النفي المؤبد، فلا يمكن رؤية الله لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ وهذا باطل لأنها حتى لو قيدت بالتأبيد فلا تفيد النفي في الآخرة؛ قال الله تعالى عن الكفار: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البَقَرَة: ٩٥]، أي: لن يتمنوا الموت أبدًا، وأخبر الله أنهم يتمنوه في الآخرة فقال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزّخرُف: ٧٧]. فهم تمنوا الموت في الآخرة، فهذا فيه رد على المعتزلة.

ورؤية الله جائزة عقلًا واقعة شرعًا:

جائزة عقلًا: يعني في الدنيا لا يحيلها العقل؛ فالرؤية ليست بمستحيلة، فلو كانت مستحيلة لما سألها موسى؛ لأن موسى لا يسأل المستحيل، لكنها غير واقعة في الدنيا.

واقعة شرعًا: أي واقعة في الآخرة كما دلت على ذلك نصوص الشريعة، وسبب عدم وقوعها في الدنيا هو عدم تحمل الناس لرؤية الله ببشريتهم الضعيفة، أما في يوم القيامة فينشئهم الله تنشئة قوية فيثبتون لرؤيته.

{٤٦٣٨} ثم ذكر المؤلف ﷺ حديث أبي سعيد أن رجلًا يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فشكا إليه أن رجلًا من الأنصار لطمه في وجهه، فلما دعاه النبي ﷺ وسأله قال: «**إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي ٱصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَى الْبَشَرِ**»، فقال الصحابي: «**وَعَلَىٰ مُحَمَّدٍ؟!**»؛ وفي اللفظ الآخر، قال: «**قلت: أي خبيث على محمد؟!**»[(٢)] يخاطب اليهودي، قال: «**وَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ**»، أي: غضب

(١) أحمد (٢/ ٢٧٥)، والبخاري (٦٥٧٤)، ومسلم (١٨٣).
(٢) أحمد (٢/ ٤٥٠)، والبخاري (٢٤١٢).

الصحابي من خبث هذا اليهودي فلطمه، فاليهود قوم بهت خبثاء، أراد اليهودي أن يفضل موسى عليه السلام وقد مات - يعني وهو من أتباعه - على محمد ﷺ وهو حي بين أظهر المسلمين، فقال النبي ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ»، يعني: لا تفضلوني؛ «فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي: أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟».

اختلف العلماء في قوله: «لَا تُخَيِّرُونِي»، مع أنه أفضل الأنبياء كما في حديث أنس: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»[(١)] وجمعوا بين الحديثين بأن قالوا: إن هذا على سبيل التواضع وهضم النفس، أو لمنع التفضيل على سبيل الحمية والعصبية للجنس.

ولم يقتص النبي ﷺ لليهودي من الأنصاري؛ لأن الأنصاري على حق؛ فدل على أن من قال خلاف الحق ثم غضب أحد لله وأدبه فلا شيء عليه.

○ قوله: «فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ»، هي صعقة في موقف القيامة.

والصعقات ثلاث:

الصعقة الأولى: صعقة الموت في آخر الدنيا، ينفخ في الصور فيصعق الناس.

الصعقة الثانية: صعقة البعث؛ حيث تبعث الأجساد وتعود الأرواح إلى أجسادها، كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

الصعقة الثالثة: صعقة في موقف القيامة؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة حيث يتجلى الله لفصل القضاء فيصعق الناس؛ ولذلك قال النبي ﷺ «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ» أي: من صعقة التجلي في موقف القيامة، قال: «فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ»، وهذه منقبة لموسى عليه السلام، ثم قال النبي ﷺ:

(١) أحمد (٣/ ٢)، والترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨).

«فَلَا أَدْرِي: أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟»، أي: فلا أدري هل لم يصعق موسى مجازاة له بصعقة يوم الطور؟ أو أنه صعق فأفاق قبلي؟ وفي كلتا الحالتين منقبة لموسى عليه السلام، لكن الفضائل الخاصة لا تقضي على الفضائل العامة.

وفي بعض الروايات: «**فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله**»[1] وهذا انقلاب من بعض الرواة التبس عليه صعقة البعث بصعقة التجلي؛ لأن صعقة التجلي ليس فيها استثناء، أما صعقة الموت ففيها استثناء لقول الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ والمقصود بالاستثناء في الآية، أي: من لم يكتب الله عليه الموت من الحور العين والأرواح التي لا تموت والملائكة.

* * *

(١) أحمد (٢/ ٤٥٠)، والبخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٠]

{٤٦٣٩} حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءُ العَيْنِ».

الشَّرح

○ قوله: «﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾» نوعان من الطعام، وهما مما أنزله الله على بني إسرائيل في التيه، والمن: شيء ينزل من السماء مثل العسل، والسلوى: طائر يشبه السمان.

{٤٦٣٩} قوله: «الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ» هذا هو الشاهد من الحديث، و«الكمأة»: نبتة معروفة تسمى عند العامة: الفقع، والمعنى أنها من المن الذي أنزله الله على بني إسرائيل، وقيل: إن المن استقر في الأرض فخرج منه.

○ وقوله: «وَمَاؤُهَا شِفَاءُ العَيْنِ»، أي: ماء الكمأة شفاء للعين على كيفية يعرفها أصحاب الخبرة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

الآية [الأعراف: ١٥٨]

{٤٦٤٠} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمُوسَىٰ بْنُ هَارُونَ قَالَا: حَدَّثَنَا الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ العَلَاءِ بْنِ زَبْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي بُسْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلَانِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ- حَتَّىٰ أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ- فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَنَحْنُ عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ هٰذا فَقَدْ غَامَرَ». قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّىٰ سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَصَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الخَبَرَ. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ». قالَ أبو عَبدِ اللهِ: «غامَرَ»: سَبَقَ بِالْخيرِ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، ثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمُوسَىٰ بْنُ هَارُونَ قَالَا: ثَنَا الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، ثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ العَلَاءِ بْنِ زَبْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي بُسْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلَانِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ محاورة.. الحديث وفي آخره: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي، إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ».

الشَّرح

{٤٦٤٠} يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فهو ﷺ رسول الله إلى عموم الجن والإنس إلى يوم القيامة، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فمن اعتقد أن بعده نبي فهو كافر بإجماع المسلمين، وكذلك من زعم أن رسالته خاصة بالعرب، أو أنه ليس برسول إلى العرب والعجم، أو أنه ليس رسولاً إلى الجن، بل هو رسول الله إلى العرب والعجم والجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سَبَإ: ٢٨] وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفُرقان: ١] وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] إلى يوم القيامة كل من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة، فرسالة نبينا محمد ﷺ رسالة عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، العرب والعجم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «فَقَدْ غَامَرَ» بالغين المعجمة أي: خاصم، والمعنى: دخل في غمرة الخصومة، والغامر الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم كالحرب وغيره، وقيل: هو من الغِمر بكسر المعجمة وهو الحقد أي: صنع أمرًا اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه ويحقد الآخر عليه، ووقع في تفسير الأعراف في رواية أبي ذر وحده: «قالَ أبو عَبدِ اللهِ»، هو المصنف. غامر، أي: سبق بالخير، وذكر عياض أنه في رواية المستملي وحده عن أبي ذر، وهوتفسير مستغرب، والأول أظهر».

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٦١]

{٤٦٤١} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَىٰ أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ».

الشَّرْح

ترجم البخاري رحمه الله هنا على كلمة من الآية فقال: «باب قَوْلِهِ: ﴿حِطَّةٌ﴾»، يشير بذلك إلى قول الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف: ١٦١]، يعني: ادخلوا هذه القرية المباركة، واسجدوا شكرًا لله، وقولوا: يا الله، حط عنا خطايانا واغفر لنا.

{٤٦٤١} قوله: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]» أي: خضوعًا لله، والراكع يسمى ساجدًا، «فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَىٰ أَسْتَاهِهِمْ»، أي: على أدبارهم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، أي: قولوا: يا الله، احطط عنا ذنوبنا، واغفر لنا خطايانا، فقالوا: «حَبَّةٌ فِي شَعَرَة»، وفي رواية للكشميهني: «في شعيرة»؛ وفي لفظ: «**قالوا حنطة**»[(١)]؛ استهزاء، وهذا من عتوهم وعنادهم غيروا وبدلوا بالقول وبالفعل، وقد بين ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله ثم قال: «ويستنبط منه أن الأقوال المنصوصة إذا تعبد بلفظها لا يجوز تغييرها ولو وافق المعنى» وهذا هو الصواب؛ ومن الأقوال المتعبد بلفظها - والتي لا يجوز تغييرها - الأذكار في الركوع والسجود والتكبير والتسبيح وقراءة الفاتحة؛ ولذلك يجب على العجم أن يتعلموا العربية، ولا يجوز لهم التعبد بلغتهم.

(١) أحمد (٢/ ٣١٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٨٦).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

[الأعراف: ١٩٩]

(الْعُرْفُ): المَعْرُوفُ.

{٤٦٤٢} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ ابن عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ عَلَى ابن أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ -وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ- وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا. فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابن أَخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هٰذا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ. قَالَ سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ يَا ابن الخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّىٰ هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] وَإِنَّ هٰذا مِنَ الجَاهِلِينَ. واللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ.

{٤٦٤٣} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قَالَ: مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ.

{٤٦٤٤} وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ بَرَّادٍ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ. أَوْ كَمَا قَالَ.

الشَّرْح

{٤٦٤٢} في هذا الأثر أن عيينة بن حصن لما أراد أن يدخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو خليفة - قال لابن أخيه الحر بن قيس: «**هل لك وجه عند هذا الأمير؟ فاستأذن لي عليه**»، يعني: عمر، فاستأذن الحر لعمه فأذن عمر، فلما جاءه تكلم بكلام لا يليق، فقال: «**هِيْ يَا ابن الخَطَّابِ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّىٰ هَمَّ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وَإِنَّ هٰذا مِنَ الجَاهِلِينَ. والله مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ**»، وعيينة من الصحابة إلا أنه غلب عليه جفاء البادية وغلظها.

وفي هذا الأثر فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وانقياده لأمر الله، حيث لم يعاقب عيينة بن حصن على ما بدر منه.

❖ ❖ ❖

{٤٦٤٣} ذكر المؤلف رحمه الله هذه الآية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ثم ذكر أن عبد الله بن الزبير قال فيها: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ**».

❖ ❖ ❖

{٤٦٤٤} قوله: «**أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ**»، أي: في هذه الآية ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾. وإلى هذا ذهب ابن الزبير ومجاهد، وقيل: إنها نزلت في أموال الناس وإلى هذا ذهب ابن عباس، وقد بين هذا الحافظ ابن حجر رحمه الله فقال: «وإلى ما ذهب إليه ابن الزبير من تفسير الآية ذهب مجاهد، وخالف في ذلك ابن عباس، فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، يعني خذ ما عفا لك من أموالهم، أي: ما فضل، وكان ذلك قبل فرض الزكاة، وبذلك قال السدي وزاد: نسختها آية الزكاة؛ وبنحوه قال الضحاك وعطاء وأبو عبيدة، ورجح ابن جرير الأول، واحتج له. وروي عن جعفر الصادق

وقال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها، ووجهوه بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوة الإنسانية: عقلية، وشهوية، وغضبية؛ فالعقلية: الحكمة، ومنها الأمر بالمعروف؛ والشهوية: العفة، ومنها أخذ العفو؛ والغضبية: الشجاعة، ومنها الإعراض عن الجاهلين. وروى الطبري مرسلًا وابن مردويه موصولًا من حديث جابر وغيره: لما نزلت: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ سأل جبريل، فقال: لا أعلم حتى أسأله، ثم رجع فقال: «**إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**»[(١)].

(١) «تفسير ابن جرير» (٩/ ١٥٥) مرسلًا.

٨- ومن سُورَةُ الأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ الآية [الأنفال: ١]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١]: الْمَغَانِمُ. قَالَ قَتَادَةُ: ﴿رِيحُكُمۡۖ﴾: الحَرْبُ يُقَالُ: نَافِلَةٌ: عَطِيَّةٌ.

{٤٦٤٥} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: سُورَةُ الأَنْفَالِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ.

﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ [الأنفال: ٧]: الحَدُّ ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]: فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ، رَدِفَنِي وَأَرْدَفَنِي: جَاءَ بَعْدِي ﴿ذُوقُواْ﴾ [الأنفال: ٥]: بَاشِرُوا وَجَرِّبُوا، وَلَيْسَ هٰذا مِنْ ذَوْقِ الفَمِ. ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ﴾ [الأنفال: ٣٧]: يَجْمَعُهُ. (شَرِّدْ) [الأنفال: ٥٧]: فَرِّقْ ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ [الأنفال: ٦١]: طَلَبُوا السِّلْمُ وَالسَّلْمُ والسَّلَامُ وَاحِدٌ. ﴿يُثۡخِنَ﴾ [الأنفال: ٦٧]: يَغْلِبَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُكَآءٗ﴾ [الأنفال: ٣٥]: إِدْخَالُ أَصَابِعِهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ. وَ﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ [الأنفال: ٣٥]: الصَّفِيرُ. ﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]: لِيَحْبِسُوكَ.

الشَّرح

○ قوله: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾: الْمَغَانِمُ» وهي التي يغنمها المسلمون من أموال الكفار.

○ قوله: «﴿نَافِلَةٗ﴾» في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، فسره فقال: «عَطِيَّةٌ».

○ قوله تعالى: «﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾»، يعني «طَلَبُوا» السلام، قال: «السِّلْمُ وَالسَّلْمُ والسَّلَامُ وَاحِدٌ».

○ قوله: «﴿يُثۡخِنَ﴾: يَغْلِبَ»، أي: في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفسر: «﴿مُكَآءٗ﴾» في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ [الأنفال: ٣٥] بقول مجاهد: «إِدْخَالُ أَصَابِعِهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ».

○ قوله: «قال قتادة: ﴿رِيحُكُمۡۖ﴾: الحرب»، والمعنى: قوتكم في الحرب.

○ قوله: «﴿مُرۡدِفِينَ ٩﴾: فوجًا بعد فوج، يقال: ردفني، وأردفني: جاء بعدي»، أي: الملائكة.

○ قوله: «﴿وَذُوقُواْ﴾ [الأنفال: ٥٠]: باشروا وجربوا، وليس هذا من ذوق الفم»، أي: وإنما هو ذوق بالجسم.

○ قوله: «﴿فَيَرۡكُمَهُۥ﴾»، فسره فقال: «يجمعه».

○ قوله: «شرد: فرق»، أي: في قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٥٧]، والمعنى: نكل بهم فيتفرق من خلفهم ممن يريدون قتال المسلمين.

○ قوله: «﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ [الأنفال: ٣٥] الصَّفِيرُ»، وقيل: بالعكس، كما نقل الحافظ ابن حجر عن أبي عبيدة: «المكاء: الصفير، والتصدية: صفق الأكف».

○ قوله: «﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾»، فسره فقال: «لِيَحْبِسُوكَ».

{٤٦٤٥} ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عباس لما سئل عن سورة الأنفال قال: «نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ»؛ لأن الآيات التي في أول السورة، وكذلك التي في آخرها تحدثت عن غزوة بدر.

بَابٌ قوله:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

[الأنفال: ٢٢]

{٤٦٤٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢] قَالَ: هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ.

الشَّرْح

{٤٦٤٦} قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢]، أي: لا يتبعون الحق.

○ قوله: «هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ»، أي: من نزلت فيهم الآية، وهذا ليس خاصًّا بهم، بل يشمل كل من اتصف بهذا الوصف؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من لا يسمع الحق سماع قبول واتباع فهو داخل تحت هذه الآية.

بَابُ قوله:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾
الآية [الأنفال: ٢٤]

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ [الأنفال: ٢٤]: أَجِيبُوا ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤] يُصْلِحُكُمْ.

{٤٦٤٧} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَمِعْتُ حَفْصَ بْنَ عَاصِمٍ يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّىٰ ﷺ قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّىٰ صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾؟» ثُمَّ قَالَ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ». فَذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيَخْرُجَ فَذَكَرْتُ لَهُ.

وَقَالَ مُعَاذٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خُبَيْبٍ سَمِعَ حَفْصًا سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِهٰذا، وَقَالَ: هِيَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: ٢] السَّبْعُ المَثَانِي.

الشَّرح

○ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾، وجه الخطاب للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين ينقادون لأوامر الله.

○ قوله تعالى: «﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾»، فسره بقوله: «أَجِيبُوا».

○ قوله: «﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾: لما يُصْلِحُكُمْ»، وذلك بفعل الأوامر وترك النواهي؛ فحياة القلوب بالاستجابة لله والانقياد لشرعه ودينه، يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] وهذا وعيد شديد لمن لم يستجب، وأنه يخشى عليه من زيغ القلب، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّف: ٥]،

وقال أيضًا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعَام: ١١٠].

{٤٦٤٧} ذكر البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الترجمة حديث أبي سعيد بن المعلى قال: «كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّىٰ صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفَال: ٢٤]؟» ومقتضى هذا أنه يقطع الصلاة ويجيب النبي ﷺ؛ لأن الأدلة التي وردت بإتمام الصلاة عامة، وتكون إجابته ﷺ مخصصة لها؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محَمَّد: ٣٣]، فيجب على المسلم إذا ناداه الرسول ﷺ في حال حياته أن يجيبه وإن كان في الصلاة.

أما إذا دعا الوالد ولده وهو يصلي، فإن كان يصلي الفريضة فلا يجيبه ولا يقطع الصلاة، أما إن كان يصلي النافلة ففيه تفصيل: فإن كان الوالد يتأثر ويغضب، أو قد تحدث مفاسد مستقبلًا إن لم يجبه فعليه أن يقطع الصلاة ويجيبه؛ لأن إجابة الوالد فرض والصلاة نافلة، والفرض مقدم على النافلة.

وأما إذا كان لا يغضب فإنه يشير إليه ويسبح؛ حتى يعلمه أنه يصلي، ثم يكمل صلاته ويتجوز فيها ثم يجيبه.

○ قوله: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ» جاء في التعليق أنها الفاتحة؛ فهي أعظم سورة في القرآن، وهي السبع المثاني، ومن أسمائها الحمد والفاتحة، وأم القرآن.

وأما أعظم آية في القرآن فهي آية الكرسي، كما في حديث أبي بن كعب لما سأله النبي ﷺ: أي آية في القرآن أعظم؟ قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] فضرب في صدره وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»[(١)] أي: هنيئًا لك العلم.

(١) أحمد (٥/ ١٤١)، ومسلم (٨١٠).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

[الأنفال: ٣٢]

قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: مَا سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ مَطَرًا فِي القُرْآنِ إِلَّا عَذَابًا، وَتُسَمِّيهِ العَرَبُ الغَيْثَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورىٰ: ٢٨]

{٤٦٤٨} حَدَّثَنِي أَحْمَدُ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الحَمِيدِ -هُوَ ابن كُرْدِيدٍ صَاحِبُ الزِّيَادِيِّ- سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ أَبُو جَهْلٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فَنَزَلَتْ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٣، ٣٤].

الشَّرْح

ترجم البخاري على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]. وفيها بيان عتو المشركين وعنادهم.

○ قوله: «قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: مَا سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ مَطَرًا فِي القُرْآنِ إِلَّا عَذَابًا، وَتُسَمِّيهِ العَرَبُ الغَيْثَ» وقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تفصيلًا في كون المطر عذابًا أو رحمة، فقال: «المراد بالغيث هو ما تأدى البلل به، وقال أبو عبيدة: إن كان من العذاب فهو أمطرت، وإن كان من الرحمة فهو مطرت».

{٤٦٤٨} قوله: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»، أي: إن كان هذا الذي

جاء به محمد منزل حقًّا من عندك فأهلكنا؛ وكان الواجب عليه أن يقول: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا له، لكن سبقت عليهم الشقاوة؛ ومناسبة الحديث للترجمة واضحة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ **الآية** [الأنفال: ٣٣]

{٤٦٤٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الحَمِيدِ صَاحِبِ الزِّيَادِيِّ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ قَالَ أَبُو جَهْلٍ ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] **فَنَزَلَتْ** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ **الآيَةَ** [الأنفال: ٣٣، ٣٤].

الشَّرْح

{٤٦٤٩} في هذا الحديث أن المانع من نزول العذاب أمران:

الأمر الأول: وجود النبي ﷺ بين أظهرهم.

الأمر الثاني: الاستغفار والتوبة. كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]. وبما أن النبي ﷺ قد توفي، فما بقي إلا أمر واحد يمنع من نزول العذاب وهو الاستغفار، والاستغفار إذا أطلق فالمراد به التوبة.

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾
الآية وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾

{٤٦٥٠} حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ بُكَيْرٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٢٥٩] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ لَا تُقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ. فَقَالَ يَا ابن أَخِي أَغْتَرُّ بِهٰذِهِ الآيَةِ وَلَا أُقَاتِلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَغْتَرَّ بِهٰذِهِ الآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] إِلَىٰ آخِرِهَا. قَالَ فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]. قَالَ ابن عُمَرَ: قَدْ فَعَلْنَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ كَانَ الإِسْلَامُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ، إِمَّا يَقْتُلُوهُ وَإِمَّا يُوثِقُوهُ، حَتَّىٰ كَثُرَ الإِسْلَامُ، فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ. فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يُرِيدُ قَالَ فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ قَالَ ابن عُمَرَ: مَا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ! أَمَّا عُثْمَانُ فَكَانَ اللهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ، فَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَتَنُهُ. وَأَشَارَ بِيَدِهِ وهٰذِه ابنتُهُ أَوْ بِنْتُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ.

{٤٦٥١} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا بَيَانٌ أَنَّ وَبرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا أَوْ إِلَيْنَا ابن عُمَرَ، فَقَالَ رَجُلٌ كَيْفَ تَرىٰ فِي قِتَالِ الفِتْنَةِ. فَقَالَ وَهَلْ تَدْرِي مَا الفِتْنَةُ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَاتِلُ المُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْسَ كَقِتَالِكُمْ عَلَى المُلْكِ.

الشَّرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وفي آية البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ

لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٣]، أمر الله تعالى المؤمنين بقتال المشركين؛ حتى تنتهي فتنة الشرك ويكفوا عن شركهم ويدخلوا في الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾، أي: بعد القضاء على المشركين.

{٤٦٥٠} ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٢٥٩] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ لَا تُقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ» وهذا في وقت القتال بين علي ومعاوية، وكان ابن عمر ممن اعتزل الفريقين فلم يقاتل، ووافقه على هذا جماعة من الصحابة: كسلمة بن الأكوع، وأسامة بن زيد، وغيرهم؛ وذلك لأنهم لم يتبين لهم وجه الصواب؛ أمع هؤلاء أم مع هؤلاء؟ لكن جمهور الصحابة تبين لهم أن عليًّا هو المصيب؛ لأنه هو الخليفة الذي تمت له البيعة، فعملوا بقول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي﴾ [الحُجرَات: ٩]. فالآية فيها أمر بالقتال، فانضموا إلى علي يقاتلون الفرقة الباغية، وهم معاوية وأهل الشام، ومعاوية ومن معه متأولون مجتهدون، ولا يعلمون أنهم بغاة، بل ظنوا أنهم على الحق، لكنهم كانوا مخطئين ففاتهم أجر الصواب، ولهم أجر الاجتهاد.

فقال له ابن عمر: «فَقَالَ يَا ابن أَخِي أَغْتَرُّ بِهَٰذِهِ الآيَةِ وَلَا أُقَاتِلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَغْتَرَّ بِهَٰذِهِ الآيَةِ التِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] إِلَىٰ آخِرِهَا»، أي: أخاف أن أقتل مؤمنًا متعمدًا، وهذا يدل على أنه لم يتبين له الأمر، فقال هذا الرجل لابن عمر: «فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]. قَالَ ابن عُمَرَ: قَدْ فَعَلْنَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ كَانَ الإِسْلَامُ قَلِيلًا»، يعني: قاتلنا الكفار حتى زالوا، قال: «فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ، إِمَّا يَقْتُلُوهُ وَإِمَّا يُوثِقُوهُ»، إما يقتلوه؛ أصلها: إما يقتلونه، حذف النون دون أن يسبقها ناصب ولا جازم وهذه لغة قليلة الأصل.

○ قوله: «حَتَّىٰ كَثُرَ الإِسْلَامُ، فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ»، أي: زال الشرك، فلما رأى

هذا الرجل أن ابن عمر لا يوافقه قال: «فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟» هذا يدل على أنه من الخوارج، فأجابه ابن عمر: «أَمَّا عُثْمَانُ فَكَانَ اللهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ فَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَخَتَنُهُ»، يعني: زوج ابنته.

والختن: هو القريب من جهة الزوجة، والجمع: أَختان، والحمو: هو القريب من جهة الزوج والجمع: أحماء، والصهر يشمل الفريقين.

❖ ❖ ❖

{٤٦٥١} في هذا الحديث أن رجلًا قال لابن عمر: «كَيْفَ تَرىٰ فِي قِتَالِ الفِتْنَةِ» يحتمل أن هذا الرجل هو المذكور في الحديث السابق، ويحتمل أنه غيره، فرد عليه ابن عمر: «وَهَلْ تَدْرِي مَا الفِتْنَةُ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَاتِلُ المُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْسَ كَقِتَالِكُمْ عَلَى المُلْكِ»، وهذا اجتهاد من ابن عمر، لكن القتال الذي حدث ليس قتالًا على الملك بل قتال عن اجتهاد؛ فعلي تأول أنه الخليفة الذي تمت له البيعة ولابد أن يخضع له أهل الشام، وأهل الشام يطالبون بدم عثمان وهم مجتهدون، لكنهم أخطأوا.

وقتال الفئة الباغية فرض عين إذا عرفت؛ فالله تعالى يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ [الحُجرَات: ٩]، والأصل في الأوامر الوجوب.

ومثال ذلك إذا خرجت جماعة على الإمام، فالواجب قتالهم، ولو كانوا متأولين؛ لأنهم بغاة يريدون التفريق بين المسلمين.

وهناك فرق بين الفئة الباغية الخارجة على الإمام والخوارج:

فالبغاة: هم الذين ينقمون على الإمام أشياء ويكون لهم شوكة، ويطالبون بإزالة المعاصي، ولكنهم لا يكفرون الولاة ولا يستحلون دماءهم ولا أموالهم، فهؤلاء بوب لهم العلماء في كتبهم بابًا سموه: باب البغاة، وقالوا: إن الإمام يرسل إليهم من يكشف شبهتهم؛ فإن فاءوا فالحمد لله، وإلا قاتلهم ولو كانوا مسلمين.

أما الخوارج: فيقاتلون الإمام؛ لأنهم يعتقدون كفره، ويكفرون المسلمين بالمعاصي.

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]

{٤٦٥٢} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ﴾ [الأنفال: ٦٥] فَكُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ - فَقَالَ سُفْيَانُ غَيْرَ مَرَّةٍ: أَنْ لَا يَفِرَّ عِشْرُونَ مِنْ مِائَتَيْنِ - ثُمَّ نَزَلَتِ ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦] الآيَةَ، فَكَتَبَ: أَنْ لَا يَفِرَّ مِائَةٌ مِنْ مِائَتَيْنِ. زَادَ سُفْيَانُ مَرَّةً: نَزَلَتْ ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] . قَالَ سُفْيَانُ: وَقَالَ ابن شُبْرُمَةَ وَأُرى الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ مِثْلَ هٰذا.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥]. وهذه الآية تسمى آية المصابرة، وهي منسوخة بالآية التي بعدها.

{٤٦٥٢} هذا الحديث فيه نسخ آية المصابرة، والتخفيف على المؤمنين في صف القتال، ففي أول الأمر بالجهاد أمر الله تعالى المسلم أن يصابر العشرة، أي يقف أمام عشرة في الجهاد ولا يفر، فإذا زاد عن العشرة جاز له الفرار كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ثم نسخ الله ذلك فأمر الواحد أن يصابر الاثنين، والمائة يصابرون المائتين، فإذا زاد عن اثنين جاز له الفرار، وذلك بقول الله تعالى في الآية التالية: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

[الأنفال: ٦٦].

{٤٦٥٣} قوله: «وَقَالَ ابن شُبْرُمَةَ وَأُرى الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِثْلَ هٰذا»، أي: أن الإنسان كان يجب عليه أن يأمر عشرة، ثم خفف بأن الواجب عليه أن يأمر اثنين، فألحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالجهاد، وهذا اجتهاد من ابن شبرمة، وليس الأمر كذلك فالجهاد أغلظ على الإنسان، أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فشأنه أيسر فالإنسان يستطيع أن يقوم به مع العدد الكثير، كذلك يستطيع أن يغير المنكر إذا وجده بغير تحديد عدد.

ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام، حتى قال بعض أهل العلم: إنه ركن سادس من أركان الإسلام، والخيرية إنما تحصل لهذه الأمة بالإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي: كنتم خير أمة بهذه الأوصاف: بالإيمان بالله، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقدم الله ﷻ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله - مع أن الإيمان بالله هو أصل الدين - لأهميته.

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إخلال بواجب، وهو من أسباب وقوع العذاب، فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**»(١)، وقالت زينب ﵂: استيقظ النبي ﷺ ليلة فزعًا محمرًا وجهه وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بين أصبعيه السبابة والإبهام، فقالت زينب: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»(٢)، والخبث هي المعاصي، وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، أي: تعم الجميع،

(١) أحمد (١/ ٢)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥).
(٢) أحمد (٦/ ٤٢٨)، والبخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

ومعلوم أن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في تقليل الشرور والمعاصي، والتي هي سبب في وقوع الفتن والهلاك.

وقيام الأمة بهذا الواجب من الاستجابة لأمر الله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤-١٠٥]، أي: لتنتصب جماعة أو فئة تقوم بهذا الأمر.

فالواجب على المسلمين أن يقوموا بهذه الشعيرة العظيمة، وأن يتكاتفوا ويتعاونوا عليها؛ لتتحقق الخيرية في هذه الأمة، وليرد الله عن الأمة النكبات والمصائب.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إِلَىٰ ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]

{٤٦٥٣} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ عَبْدِ اللهِ السُّلَمِيُّ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ، أَخْبَرَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي الزُّبَيْرُ بْنُ خِرِّيتٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ حِينَ فُرِضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشَرَةٍ فَجَاءَ التَّخْفِيفُ، فَقَالَ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]. قَالَ: فَلَمَّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ العِدَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خُفِّفَ عَنْهُمْ.

الشَّرْح

{٤٦٥٣} هذا الحديث صريح في أن الآية الثانية نسخت الآية الأولى، لكن قول ابن عباس: «فَلَمَّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ العِدَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خُفِّفَ عَنْهُمْ» فيه نظر.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «واستدل بهذا الحديث على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار، وتحريم الفرار عليه منهما، سواء طلباه أو طلبهما، سواء وقع ذلك وهو واقف في الصف مع العسكر أو لم يكن هناك عسكر، وهذا هو ظاهر تفسير ابن عباس؛ ورجحه ابن الصباغ من الشافعية، وهو المعتمد لوجود نص الشافعي عليه في الرسالة الجديدة رواية الربيع، ولفظه: ومن نسخة عليها خط الربيع نقلت، قال: بعد أن ذكر للآية آيات في كتابه أنه وضع عنهم أن يقوم الواحد بقتال العشرة، وأثبت عليهم أن يقوم الواحد بقتال الاثنين، ثم ذكر حديث ابن عباس المذكور في الباب وساق الكلام عليه، لكن المنفرد لو طلباه وهو على غير أهبة جاز له التولي عنهما جزمًا، وإن طلبهما فهل

يحرم؟ وجهان أصحهما عند المتأخرين: لا، لكن ظاهر هذه الآثار المتضافرة عن ابن عباس يأباه وهو ترجمان القرآن وأعرف الناس بالمراد، لكن يحتمل أن يكون ما أطلقه إنما هو في صورة ما إذا قاوم الواحد المسلم من جملة الصف في عسكر المسلمين اثنين من الكفار، أما المنفرد وحده بغير العسكر فلا؛ لأن الجهاد إنما عهد بالجماعة دون الشخص المنفرد، وهذا فيه نظر؛ فقد أرسل النبي ﷺ بعض أصحابه سرية وحده[١]. وقد استوعب الطبري وابن مردويه طرق هذا الحديث عن ابن عباس وفي غالبها التصريح بمنع تولي الواحد عن الاثنين، واستدل ابن عباس في بعضها بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧]، وبقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النِّسَاء: ٨٤]، قوله: «**فَلَمَّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ مِنَ العِدَّةِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ**»، كذا في رواية ابن المبارك، وفي رواية وهب بن جرير عن أبيه عند الإسماعيلي: «**نقص من النصر**»، وهذا قاله ابن عباس توقيفًا على ما يظهر، ويحتمل أن يكون قاله بطريق الاستقراء».

(١) أحمد في «الزهد» (ص٥٢)، وأبو يعلى في «المسند» (٢/ ٢٠٣)، وأبو بكر الشيباني في «الآحاد والمثاني» (٤/ ٧٨).

٩- سورة بَرَاءَةَ

﴿مَرۡصَدٖ﴾ طريق ﴿إِلّٗا﴾ الإل: القرابة و(الذمة) والعهد.

﴿وَلِيجَةٗ﴾ كُلُّ شَيء أَدْخَلْتَهُ فِي شَيء ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ السَّفَرُ، الخَبَالُ الفَسَادُ، وَالْخَبَالُ المَوْتُ. ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ لَا تُوَبِّخْنِي. ﴿كَرۡهٗا﴾ وَكُرْهًا وَاحِدٌ. ﴿مُدَّخَلٗا﴾ يُدْخَلُونَ فِيهِ. ﴿يَجۡمَحُونَ﴾ يُسْرِعُونَ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ ٱئْتَفَكَتْ ٱنْقَلَبَتْ بِهَا الأَرْضُ. (أَهْوى) أَلْقَاهُ فِي هُوَّةٍ. ﴿عَدۡنٖ﴾ خُلْدٍ، عَدَنْتُ بِأَرْضٍ أيْ أَقَمْتُ، وَمِنْهُ مَعْدِنٌ وَيُقَالُ فِي مَعْدِنِ صِدْقٍ. فِي مَنْبِتِ صِدْقٍ. ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ الخَالِفُ الذِي خَلَفَنِي فَقَعَدَ بَعْدِي، وَمِنْهُ يَخْلُفُهُ فِي الغَابِرِينَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النِّسَاءُ مِنَ الخَالِفَةِ، وَإِنْ كَانَ جَمْعَ الذُّكُورِ فَإِنَّهُ لَمْ يُوجَدْ عَلَىٰ تَقْدِيرِ جَمْعِهِ إِلَّا حَرْفَانِ فَارِسٌ وَفَوَارِسُ، وَهَالِكٌ وَهَوَالِكُ. ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ وَاحِدُهَا خَيْرَةٌ وَهِيَ الفَوَاضِلُ. ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ مُؤَخَّرُونَ. الشَّفَا شَفِيرٌ وَهْوَ حَدُّهُ، وَالْجُرُفُ مَا تَجَرَّفَ مِنَ السُّيُولِ وَالأَوْدِيَةِ. ﴿هَارٖ﴾ هَائِرٍ. يُقَالُ: تَهَوَّرَتِ البِئْرُ إذا ٱنْهَدَمَتْ، وَانْهَارَ مِثْلُهُ (لأَوَّاهٌ) شَفَقًا وَفَرَقًا. وَقَالَ:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ ... تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الحَزِينِ

الشَّرْح

جرى البخاري ﵀ على عادته، فبدأ بتفسير بعض الكلمات التي تحتاج إلى تفسير، وقد ينقل عن مجاهد وقتادة وابن عباس وأبي عبيدة وغيرهم، وهذه مزية عظيمة تميز بها «صحيح البخاري».

○ قوله: «﴿ٱلشُّقَّةُ﴾: السَّفَرُ»، أي: في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التوبة: ٤٢]، وهو: السفر البعيد الذي ينتج عنه مشقة.

○ قوله: «الخَبَالُ الفَسَادُ، وَالْخَبَالُ المَوْتُ»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ [التوبة: ٤٧]، ففسر الخبال بالفساد مرة وبالموت مرة؛ لأن

الخبال يطلق على الشر والفساد كما يطلق على الموت، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وَالْخَبَالُ المَوْتُ» والصواب: الموتة - بضم الميم وزيادة هاء في آخره - وهو ضرب من الجنون».

○ قوله: «﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾: لَا تُوَبِّخْنِي»، أي: في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩]، وهذا قول المنافقين.

○ قوله: «﴿مُدَّخَلًا﴾: يُدْخَلُونَ فِيهِ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [التوبة: ٥٧]. والمقصود: أن المنافقين لو وجدوا مهربًا لهربوا من القتال.

قوله تعالى: ﴿يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التوبة: ٥٧]، فسره فقال: «يُسْرِعُونَ».

○ قوله: «﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ﴾، ٱئْتَفَكَتْ: ٱنْقَلَبَتْ بِهَا الأَرْضُ»، يعني: قلبها، وهم قرية قوم لوط وما جاورها - ممن يفعلون فعلها - حين رفعها جبريل إلى السماء ثم قلبها، وجاءت بالإفراد في الآية الأخرى في سورة النجم في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النجم: ٥٣]، وفسر قوله تعالى: ﴿أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ فقال: «أَلْقَاهُ فِي هُوَّةٍ» والمقصود بها: قرية قوم لوط، وهي القرية الأم في هذه الفاحشة.

○ قوله: «﴿عَدْنٍ﴾: خُلْدٍ»، أي: الجنات في قوله تعالى: ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]، وسميت جنات عدن لخلودها وخلود من فيها، يقال: عدنت بأرض أي: أقمت.

وفسر قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]، قال: «الخَالِفُ: الذِي خَلَفَنِي فَقَعَدَ بَعْدِي، وَمِنْهُ يَخْلُفُهُ فِي الغَابِرِينَ»، يعني: في الباقين، «وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النِّسَاءُ مِنَ الخَالِفَةِ، وَإِنْ كَانَ جَمْعَ الذُّكُورِ فَإِنَّهُ لَمْ يُوجَدْ عَلَىٰ تَقْدِيرِ جَمْعِهِ إِلَّا حَرْفَانِ فَارِسٌ وَفَوَارِسُ، وَهَالِكٌ وَهَوَالِكُ»، أي: كلمتان، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد استدرك عليه ابن مالك: شاهق وشواهق وناكس ونواكس وداجن ودواجن».

○ قوله: «﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ [التوبة: ٨٨]، وَاحِدُهَا: خَيْرَةٌ، وَهْيَ الفَوَاضِلُ»، وقد جاء بيان وصفها في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٧٠].

○ قوله: «الشَّفَا: شَفِيرٌ، وَهْوَ حَدُّهُ»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] والتي نزلت في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون، قال: «وَالْجُرُفُ مَا تَجَرَّفَ مِنَ السُّيُولِ وَالأَوْدِيَةِ».

قوله تعالى: ﴿هَارٍ﴾، فسره فقال: «هَائِرٍ. يُقَالُ: تَهَوَّرَتِ البِئْرُ إذا انْهَدَمَتْ، وَانْهَارَ مِثْلُهُ».

وفسر الأواه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤] فقال: «شَفَقًا وَفَرَقًا»، أي أن سبب التأوه هو: الخشية من الله ﷻ.

واستشهد بقول الشاعر:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ ... تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الحَزِينِ

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]: يُصَدِّقُ. ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وَنَحْوُهَا كَثِيرٌ، وَالزَّكَاةُ: الطَّاعَةُ وَالإِخْلَاصُ ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٧]: لَا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ [التوبة: ٣٠]: يُشَبِّهُونَ.

{٤٦٥٤} حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ البَرَاءَ ﷺ يَقُولُ: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ.

الشَّرْح

ترجم المؤلف ﵀ على قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة: ١]، وهذه السورة لم تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، واختلف في سبب ذلك؛ فقيل: لأنها نزلت بالسيف وبالغضب على المنافقين، وقيل: لأنها أشكلت على الصحابة هل هي تابعة للأنفال، أو أنها سورة بنفسها؛ لذلك جعلوها بجوارها ولم يجعلوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم.

وفسر الأذان - في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٣] - بالإعلام، ومنه الأذان للصلاة، أي: الإعلام بدخول الوقت.

○ قوله: «﴿أُذُنٌ﴾: يُصَدِّقُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]، فهم يصفون الرسول بأنه يسمع من كل أحد.

○ قوله: «و﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾: وَنَحْوُهَا كَثِيرٌ»، يعني: إنها الطهارة، ثم فسر الزكاة بأنها: «الطَّاعَةُ وَالإِخْلَاصُ».

○ قوله: «﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾» أي: «لَا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وهذا مروي عن ابن عباس، يعني: أن الزكاة من شرطها التوحيد، وهذا معلوم فلا تصح

الزكاة إلا بالتوحيد، وهذا من تفسير الشيء بلازمه أو ببعضه.

قال الحافظ: «يستدل بهذه الآية في الرد على من قال: إن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة».

وهذه الآية من سورة فصلت، لكن ذكرها المصنف هنا استطرادًا، وهي في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فُصّلَت: ٦-٧].

○ قوله: «"يضاهون": يُشَبِّهُونَ» وذلك في قوله تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ [التّوبَة: ٣٠].

قال العيني رحمه الله: «أشار به إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [التّوبَة: ٣٠]، وفسر «يضاهون» بقوله: «يُشَبِّهُونَ»، وكذا فسره ابن عباس فيما رواه عنه علي بن أبي طلحة، وهو من المضاهاة، وقال أبو عبيدة: هي التشبيه، وهذا إخبار من الله تعالى عن قول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: ٣٠]، وقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التّوبَة: ٣٠]، فأكذبهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾ يعني: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلافهم، «يضاهون» أي: يشابهون قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم، ضلوا كما ضل هؤلاء».

{٤٦٥٤} قوله: «آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ﴾».

والأرجح أن آخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١]، وأن قول البراء هذا محمول على أنها آخر آية نزلت في الفرائض، «وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ»، والمراد: أن معظم السورة نزل عقب فتح مكة سنة تسع، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: ٣] في حجة الوداع.

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]

(سِيحُوا) [التوبة: ٢]: سِيرُوا.

{٤٦٥٥} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابن شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ فِي أَهْلِ مِنًى بِبَرَاءَةَ، وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

الشَّرح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ﴾ سيروا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ [التوبة: ٢]»، فـفـسـر قـولـه تـعـالـى: ﴿فَسِيحُواْ﴾ قال: «سيروا».

{٤٦٥٥} هذا الحديث على قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ﴾؛ حيث بعث النبي ﷺ أبا بكر في تلك الحجة، وأمَّره على الناس، وكانت في السنة التاسعة على الصحيح، وبعث معه مؤذنين يؤذنون في الناس بمنى ليعلموا الناس.

○ قوله: «بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى» بعثهم ببراءة، منهم: أبو هريرة، وعلي، وجماعة، وعليّ أردفه النبي ﷺ بعد ذلك، فلما جاء إلى أبي أبكر قال أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور، وكانوا يعلمون الناس بأربع كلمات وينذرونهم ويحذرونهم في المستقبل من عدم تنفيذ هذه الكلمات: **الكلمة الأولى**: «أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ»؛ لأنهم كانوا يحجون وهم مشركون، فأعطاهم النبي ﷺ مهلة؛ إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يُقاتلوا، ومن له عهد يبقى على عهده، ومن ليس له عهد يبقى مدة أربعة أشهر،

ومن كان له عهد أقل من أربعة أشهر يكمل له أربعة أشهر، وبعد مضي العهد أو مضي الأربعة أشهر إما أن يسلم، وإما أن يقاتل، ولا يحج في المستقبل بعد العام مشرك.

الكلمة الثانية: «**وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ**»، وقد كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت وهم عراة حتى المرأة! وذلك أنهم يزعمون أن الإنسان إذا جاء من خارج مكة فإنه لا يصح له أن يطوف بثياب قد عصى الله بها؛ لأنها نجسة متسخة، ولابد أن يرميها ويطلب ثوبًا يلبسه من أهل مكة من الحُمْس لتشددهم، فإن وجد أحدًا يعطيه من أهل مكة ثوبًا طاف به، وإن لم يجد طاف عريانًا، وكذلك المرأة إذا وجدت من يعطيها وإلا طافت عريانة، وتضع يدها على فرجها وتطوف وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كُلّهُ ... وما بدا منهُ فلا أُحِلّهُ

تعني: الفرج، تطوف وتقول هذا الكلام، وهذا من جهلهم العظيم والفظيع، فالله ﷻ امتن على المسلمين بالإسلام وأنقذهم من هذه الضلالات.

الكلمة الثالثة: «**لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»[(١)].

الكلمة الرابعة: «**أن من كان له عهد عند النبي ﷺ فتمام عهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فمدته أربعة أشهر**»[(٢)].

فلما جاءت السنة العاشرة تحققت هذه الصفات، فما حج بعد العام مشرك، ولا طاف بالبيت عريان، وانتهت مدة التسيير، وسميت بذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]، أي: إذا استمررتم على شرككم فلستم بمعجزي الله ولن تفلتوا منه.

ولما حرم الله على المشركين أن يقربوا المسجد الحرام أنزل سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨].

---

(١) أحمد (١/ ٧٩)، والترمذي (٨٧١)، والنسائي (٢٩٥٨).
(٢) أحمد (٢/ ٢٩٩)، والترمذي (٣٠٩٢)، والنسائي (٢٩٥٨).

وأما علي فإن النبي ﷺ أرسله بعد ذلك يؤذن بهذه الكلمات؛ وذلك لأن المشركين يقولون: إن أبا بكر ليس من بيت النبي ﷺ وعليّ من بيته، قالوا: لا يؤدي عن الرجل إلا هو أو أحد من أهل بيته؛ فأرسله النبي ﷺ يؤذن للناس ويعلمهم.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾
الآية [التوبة: ٣]

آذَنَهُمْ: أَعْلَمَهُمْ.

{٤٦٥٦} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، قَالَ ابن شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي المُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى: أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةَ، وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

الشَّرْح

○ قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ سبق أن الأذان هو: الإعلام، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم الحج الأكبر هو: يوم النحر، يؤذنون بالناس بمنى، وقيل: يوم عرفة، والصواب: أنه يوم النحر، وهو أفضل الأيام على الإطلاق، وسمي بيوم الحج الأكبر؛ لأن معظم أعمال الحج كلها فيه، ففيه: رمي الجمار، والنحر، والحلق، والطواف بالبيت، فيؤذنون يوم العيد بالناس: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: ٣].

{٤٦٥٦} قوله: «فِي المُؤَذِّنِينَ» منهم: أبو هريرة وعلي وقد ذكر الحافظ ابن حجر منهم جماعة قال: «وقد وقفت - ممن سمي ممن كان مع أبي بكر في تلك الحجة - على أسماء؛ منهم: سعد بن أبي وقاص، ومنهم: جابر وجماعة، وأبو هريرة وعلي، كلهم يؤذنون للناس، يصوتون يعلمون الناس».

○ قوله: «يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى» يعني: يدورون على الناس في مخيماتهم، ويعلمونهم فالأذان هو: الإعلام، مثل ما يؤذن المؤذن للإعلام بدخول وقت الصلاة، يعلمونهم: «أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ» ويعلمونهم أنه: «**لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ومن كان له عهد فمدته إلى عهده، ومن لم يكن له عهد فمدته أربعة أشهر**»[1].

(١) أحمد (٢/ ٢٩٩)، والترمذي (٨٧١)، والنسائي (٢٩٥٨).

بَابُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

{٤٦٥٧} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، أَنَّ حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه بَعَثَهُ فِي الحَجَّةِ التِي أَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهَا -قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ- فِي رَهْطٍ يُؤَذِّنُ فِي النَّاسِ: أَنْ لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. فَكَانَ حُمَيْدٌ يَقُولُ: يَوْمُ النَّحْرِ يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ. مِنْ أَجْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

الشَّرْح

{٤٦٥٧} قوله: «فِي رَهْطٍ» الرهط: الجمع، وهو العدد الذي ليس بالكثير.

○ قوله: «فَكَانَ حُمَيْدٌ يَقُولُ: يَوْمُ النَّحْرِ يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ» هذا هو الصواب، وقيل: القران، وذكر الحافظ أنه اختلف في المراد بالحج الأصغر؛ فقيل: العمرة، وقيل: الإفراد، وقيل: يوم عرفة، وقيل أقوال أخرى.

وذكر في الحكمة من إرسال علي بعد أبي بكر: أن عادة العرب جرت ألا ينقض العهد إلا من عقده أو من هو منه بسبيل من أهل بيته فأجراهم في ذلك على عادتهم؛ ولهذا قال: «**لا يبلغه عني إلا أنا أو رجل من أهل بيتي**»[(١)].

وروى محرر بن أبي هريرة عن أبيه قال: كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ببراءة فكنا ننادي: «**أن لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله أربعة أشهر، فإذا مضت فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج بعد العام مشرك**»[(٢)] قال: فكنتُ أنادي حتى صحل صوتي؛ يعني: انقطع صوتي من كثرة المناداة.

(١) أحمد (٣/ ٢١٢).
(٢) أحمد (٢/ ٢٩٩)، والنسائي (٢٩٥٨).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ الآية [التوبة: ١٢]

{٤٦٥٨} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هٰذِهِ الآيَةِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، وَلَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ. فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: إِنَّكُمْ -أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ- تُخْبِرُونَا فَلَا نَدْرِي، فَمَا بَالُ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْقُرُونَ بُيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعْلَاقَنَا؟ قَالَ: أُولَئِكَ الفُسَّاقُ، أَجَلْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَرْبَعَةٌ، أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ المَاءَ البَارِدَ لَمَا وَجَدَ بَرْدَهُ.

الشَّرْح

○ قوله: «بَابُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾»، قال الحافظ ابن حجر ؒ: «قرأ الجمهور بفتح الهمزة من أيمان، أي: لا عهود لهم، وعن الحسن البصري بكسر الهمزة، وهي قراءة شاذة، وقد روى الطبري من طريق عمار بن ياسر وغيره في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾، أي: لا عهد لهم، وهذا يؤيد قراءة الجمهور».

{٤٦٥٨} هذا الحديث على قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾.

○ قوله: «كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَقَالَ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ هٰذِهِ الآيَةِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، وَلَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ» يعني: ما بقي من أئمة الكفر إلا ثلاثة من الذين أخبره رسول الله ﷺ بهم، ولم يبق من المنافقين الذين أعلمه الرسول ﷺ بأسمائهم إلا أربعة، وليس المراد أنه لا يوجد منافقون غيرهم، بل المنافقون كثير، ولا يزالون إلى يوم القيامة.

وحذيفة صاحب السر، حيث أسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين؛ ولهذا

فإن عمر كان لا يصلي على من لا يصلي عليه حذيفة.

○ قوله: «فَمَا بَالُ هٰؤلاء الذِينَ يَبْقُرُونَ بُيُوتَنَا وَيَسْرِقُونَ أَعْلَاقَنَا؟» حكم هؤلاء - الذين يسرقون ويزنون ويشربون - أنهم فساق عصاة غير المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وقد روي: «**يبقِّرون**» بالتشديد، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فهي أبلغ.

○ قوله: «أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ المَاءَ البَارِدَ لَمَا وَجَدَ بَرْدَهُ» يعني: لذهاب شهوته وفساد معدته، فلا يفرق بين الألوان والطعوم من أجل كبر سنه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: كنا عند حذيفة فقرأ هذه الآية: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ١٢]، قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد، ومن طريق الأعمش عن زيد بن وهب نحوه، والمراد بكونهم لم يقاتلوا: أن قتالهم لم يقع لعدم وقوع الشرط؛ لأن لفظ الآية: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ [التوبة: ١٢]، فلما لم يقع منهم نكث ولا طعن لم يقاتلوا، وروى الطبري من طريق السدي قال: المراد بأئمة الكفر: كفار قريش، ومن طريق الضحاك قال: أئمة الكفر: رؤوس المشركين من أهل مكة.

○ قوله: «إِلَّا ثَلَاثَةٌ»، سمى منهم في رواية أبي بشر عن مجاهد: أبا سفيان ابن حرب، وفي رواية معمر عن قتادة: أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وأبا سفيان وسهيل بن عمرو، وتعقب؛ بأن أبا جهل وعتبة قتلا ببدر، وإنما ينطبق التفسير على من نزلت الآية المذكورة وهو حي، فيصح في: أبي سفيان وسهيل بن عمرو، وقد أسلما جميعًا، قوله: «وَلَا مِنَ المُنَافِقِينَ إِلَّا أَرْبَعَةٌ»، لم أقف على تسميتهم.

○ قوله: «فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ»، لم أقف على اسمه».

وهذه الآية نزلت في الصحابة، فهو خطاب لهم، أما بعدهم فالجهاد في سبيل الله باقٍ.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]

{٤٦٥٩} حَدَّثَنَا الحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الأَعْرَجَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَكُونُ كَنْزُ أَحَدِكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ».

{٤٦٦٠} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ مَرَرْتُ عَلَىٰ أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ فَقُلْتُ: مَا أَنْزَلَكَ بِهٰذِهِ الأَرْضِ؟ قَالَ: كُنَّا بِالشَّأْمِ فَقَرَأْتُ ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هٰذِهِ فِينَا، مَا هٰذِهِ إِلَّا فِي أَهْلِ الكِتَابِ. قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهَا لَفِينَا وَفِيهِمْ.

الشَّرْح

تسمية الكنوز في المعنى اللغوي تعني: الأموال المجموعة؛ فإذا أدى فيه الزكاة فهو كنز لكن ذهب عنه شره، وإذا لم يؤد فيه الزكاة فإنه يكوى به في نار جهنم.

{٤٦٥٩} قوله: «يَكُونُ كَنْزُ أَحَدِكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ» الكنز: هو المال الذي لم تؤد زكاته فيعذب به صاحبه بنوعين من العذاب:

أولهما: يتحول هذا المال إلى «شجاع»، يعني: ثعبان أو حية تأخذ بلهزمتيه، «أَقْرَعَ» قد سقط شعر رأسه لكبر سنه وكثرة سمه.

ثانيهما: في موقف القيامة؛ حيث يصفح له صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت عليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، هذا إذا كانت دراهم أو دنانير أو أوراق نقدية، وإذا كانت إبلًا أو بقرًا

أو غنمًا يبطح لها بقاع قرقر، فتطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مرت عليه أخراها رد عليه أولاها.

❖ ❖ ❖

{٤٦٦٠} في هذا الحديث أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه انتقل إلى الربذة فسأله زيد بن وهب «**قال: كنا بالشام فقرأت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التوبة: ٣٤] قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هٰذِه فِينَا، مَا هٰذِه إِلَّا فِي أَهْلِ الكِتَابِ. قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهَا لَفِينَا وَفِيهِمْ**» وكأن مراد معاوية رضي الله عنه أن أهل الكتاب ليس لهم أن يكنزوا بل عليهم أن ينفقوا، أما نحن الآن فيجوز لنا اقتناء الأموال، وهذا رأي معاوية، وبين له أبو ذر أن الكنز يكوى به الإنسان؛ سواء في الأمم السابقة أو في هذه الأمة، وكان أبو ذر رضي الله عنه يرى أنه ليس لأحد حق في المال، بل يأخذ ما يحتاج إليه، والباقي ينفقه في وجوه الخير، وإلا فهو كنز يكوى به يوم القيامة، ومما يستدل به أبو ذر رضي الله عنه على رأيه أنه قال: كنت أمشي مع النبي في ظل القمر، فقال: «**يا أبا ذر إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من قال بماله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله**»[١] يعني: ينفقها في سبيل الله، وبين له الصحابة رضوان الله عليهم أن هذا اجتهاد خاطئ؛ فمن أخرج زكاة المال فإنها تطهره، ولا يكوى بها، ولا يكون كنزًا، وهذا كالإجماع من الصحابة، وكالإجماع من العلماء، وكل يؤخذ منه ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنصوص واضحة، أما رأي أبي ذر فهو رأي مهجور، وقد كان من الصحابة أصحاب أموال كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، ولم ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولا قال: أنفقوه، ولما حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة على الجهاد جهز عثمان رضي الله عنه ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم**»[٢]، ولم يقل له النبي صلى الله عليه وسلم: يجب عليك أن تخرج جميع أموالك وإلا تكوى بها، وإن

(١) أحمد (٥/ ١٨١)، والبخاري (٦٤٤٣)، ومسلم (٩٤).
(٢) أحمد (٥/ ٦٣)، والترمذي (٣٧٠١).

كان مشروعًا للإنسان الإكثار من النفقة، فقد كان أبو بكر وعثمان وغيرهم ﷺ من المكثرين من النفقة.

ومما يدل على غلط رأي أبي ذر ﷺ أن التركات - وهي الأموال التي تورث - أموال تبقى بعد أهلها، فلو كان يجب على الإنسان أن ينفق ما لا يحتاج إليه ما بقيت أموال تورث، ولا صار هناك إرث.

وقد تعلق الاشتراكيون والشيوعيون برأي أبي ذر، واستدلوا به على انتزاع أموال الناس حتى يتساوى الناس في الفقر، وهؤلاء لا ينفقون في وجوه الخير وليسوا أهلاً لذلك، بل ينفقونها في شهواتهم وأهوائهم وتوفير أسباب العظمة والكبرياء لهم، يقولون: إن أبا ذر اشتراكي، وخديجة اشتراكية، وهكذا، وهم لا يستدلون بالنصوص، بل يتعلقون بما يناسب أهواءهم، فأبو ذر ﷺ هذا رأيه، وهو زاهد؛ ولهذا قال له النبي ﷺ: «**يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**»(١)، لكنهم يختلفون، وكل له اختصاص، وكل ميسر لما خلق له، فخالد بن الوليد قائد عظيم شجاع يقود الجيوش الجرارة، وأبو ذر لا يستطيع أن يكون قائدًا، وأبو بكر وعمر ﷺ والخلفاء الراشدون لهم مكانتهم في سياسة الأمة ونشر العدل بينهم.

وبالنسبة لإقامة أبي ذر بالربذة فقد جاءت فيها آثار، فقيل له: لو ذهبت إلى الربذة تعتزل الناس؛ لأن رأيه هذا قد يوقعه في مشاكل.

(١) أحمد (٥/ ١٨٠)، ومسلم (١٨٢٦).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [التوبة: ٣٥]

{٤٦٦١} وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبِ بْنِ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ فَقَالَ: هٰذا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ طُهْرًا لِلأَمْوَالِ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال البيضاوي: خص الجنب والجبين والظهر؛ لأنه جمع المال ولم يصرفه في حقه لتحصيل الجاه والتنعم بالمطاعم والملابس، أو لأنه أعرض عن الفقير وولاه ظهره، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة لاشتمالها على الأعضاء الرئيسة، وقيل: المراد بها الجهات الأربع التي هي مقدم البدن ومؤخره وجنباه، نسأل الله السلامة».

{٤٦٦١} قوله: «وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبِ بْنِ سَعِيدٍ»، هو أحد شيوخ البخاري، لكنه معلق في صورته، ويحتمل أن يكون قاله له غيره، وعند بعضهم ليس معلقًا؛ لأنه من شيوخه، فيحمل على أنه سمعه منه.

○ قوله: «عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ»، هو أخو زيد بن أسلم.

○ قوله: «خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ فَقَالَ: هٰذا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ طُهْرًا لِلأَمْوَالِ»، يعني: أن الوعيد الذي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٥] كان قبل أن تنزل وتفرض الزكاة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية [التوبة: ٣٦]

﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ القَائِمُ.

{٤٦٦٢} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابن أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ ٱسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا، أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الذِي بَيْنَ جُمَادىٰ وَشَعْبَانَ».

الشَّرْح

هذه الآية: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، الضمير فيها يعود إلى الأشهرالحرم.

وفيها تعظيم الأشهر الحرم، وأن المعصية تعظم في الزمان المعظم كالأشهر الحرم ورمضان أيضًا، وكذلك أيضًا: في المكان المعظم كالحرم.

○ قوله: «﴿ٱلْقَيِّمُ﴾» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، فسر القيم فقال: «هو القَائِمُ».

{٤٦٦٢} قوله: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ ٱسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا، أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الذِي بَيْنَ جُمَادىٰ وَشَعْبَانَ»، يعني: عاد كل شهر إلى مكانه في حجة النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يتلاعبون بالأشهر الحرم - وهي ثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب بين جمادى وشعبان - وكانت الحرب تضع أوزارها في هذه الأشهر، لكن تطول عليهم

المدة، فقالوا: نؤخر المحرم إلى صفر ونقدم صفرًا، فيؤخرون المحرم ويسمونه صفرًا؛ حتى يقاتلوا فيه، وهذا كما أخبر الله من زيادة كفرهم؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] والنسيء تأخير المحرم إلى صفر، ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧] - إذا احتاجوا إليه - ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ إذا لم يحتاجوا إليه، على حسب أهوائهم.

وسمي رجب: رجب مضر؛ لأن مضر كانوا متمسكين بتعظيمه؛ فنسب إليهم بخلاف غيرهم، ويقال: إن ربيعة يجعلونه بدل رمضان، وكان من العرب من يجعل في رجب وشعبان ما ذكر في المحرم وصفر، فيحرمون رجبًا ويحلون شعبان.

والمعصية في الزمان المحرم تكون أعظم وأشد، فمعصية في الأشهر الحرم وفي رمضان أعظم من معصية في غيرها، ومعصية في الحرم أشد من معصية في غيره، وهي واحدة؛ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فهي واحدة في العدد لا تزاد، لكن تعظم وتضخم في نفسها فتكون عظيمة عند الله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥] فهذا من التعظيم لمعصية الحرم.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]

﴿مَعَنَاۖ﴾ نَاصِرُنَا، السكينة: فعيلة من السكون.

{٤٦٦٣} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا حَبَّانُ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، حَدَّثَنَا أَنَسٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَارِ، فَرَأَيْتُ آثَارَ المُشْرِكِينَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا. قَالَ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».

{٤٦٦٤} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا ابن عُيَيْنَةَ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﵄ أَنَّهُ قَالَ حِينَ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابن الزُّبَيْرِ: قُلْتُ: أَبُوهُ الزُّبَيْرُ، وَأُمُّهُ أَسْمَاءُ، وَخَالَتُهُ عَائِشَةُ، وَجَدُّهُ أَبُو بَكْرٍ، وَجَدَّتُهُ صَفِيَّةُ. فَقُلْتُ لِسُفْيَانَ إِسْنَادُهُ. فَقَالَ: حَدَّثَنَا، فَشَغَلَهُ إِنْسَانٌ وَلَمْ يَقُلِ ابن جُرَيْجٍ.

{٤٦٦٥} حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ بْنُ مَعِينٍ، حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ قَالَ ابن جُرَيْجٍ: قَالَ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ: وَكَانَ بَيْنَهُمَا شَيْءٌ فَغَدَوْتُ عَلَى ابن عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: أَتُرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَ ابن الزُّبَيْرِ فَتُحِلَّ حَرَمَ اللهِ؟ فَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ! إِنَّ اللهَ كَتَبَ ابن الزُّبَيْرِ وَبَنِي أُمَيَّةَ مُحِلِّينَ، وَإِنِّي واللهِ لَا أُحِلُّهُ أَبَدًا. قَالَ: قَالَ النَّاسُ: بَايِعْ لِابْنِ الزُّبَيْرِ. فَقُلْتُ: وَأَيْنَ بِهٰذا الأَمْرِ عَنْهُ؟ أَمَّا أَبُوهُ: فَحَوَارِيُّ النَّبِيِّ ﷺ -يُرِيدُ الزُّبَيْرَ- وَأَمَّا جَدُّهُ فَصَاحِبُ الغَارِ -يُرِيدُ أَبَا بَكْرٍ- وَأُمُّهُ فَذَاتُ النِّطَاقِ -يُرِيدُ أَسْمَاءَ-، وَأَمَّا خَالَتُهُ فَأُمُّ المُؤْمِنِينَ -يُرِيدُ عَائِشَةَ- وَأَمَّا عَمَّتُهُ فَزَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ، يُرِيدُ خَدِيجَةَ، وَأَمَّا عَمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فَجَدَّتُهُ -يُرِيدُ صَفِيَّةَ- ثُمَّ عَفِيفٌ فِي الإِسْلَامِ، قَارِئٌ لِلْقُرْآنِ. واللهِ إِنْ وَصَلُونِي وَصَلُونِي مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ رَبُّونِي رَبَّنِي أَكْفَاءٌ كِرَامٌ، فَآثَرَ التُّوَيْتَاتِ وَالأُسَامَاتِ وَالْحُمَيْدَاتِ، يُرِيدُ أَبْطُنًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ بَنِي تُوَيْتٍ وَبَنِي أُسَامَةَ وَبَنِي أَسَدٍ، إِنَّ ابن أَبِي العَاصِ بَرَزَ يَمْشِي القُدَمِيَّةَ -يَعْنِي: عَبْدَ المَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ، وَإِنَّهُ لَوَىٰ ذَنَبَهُ- يَعْنِي ابن الزُّبَيْرِ.

{٤٦٦٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ مَيْمُونٍ، حَدَّثَنَا عِيسَىٰ بْنُ يُونُسَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن أَبِي مُلَيْكَةَ: دَخَلْنَا عَلَى ابن عَبَّاسٍ فَقَالَ: أَلَا تَعْجَبُونَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ قَامَ فِي أَمْرِهِ هٰذا؟! فَقُلْتُ: لَأُحَاسِبَنَّ نَفْسِي لَهُ، مَا حَاسَبْتُهَا لِأَبِي بَكْرٍ وَلَا لِعُمَرَ، وَلَهُمَا كَانَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنْهُ، وَقُلْتُ: ابن عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَابْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَابْنُ أَخِي خَدِيجَةَ، وَابْنُ أُخْتِ عَائِشَةَ فَإِذَا هُوَ يَتَعَلَّىٰ عَنِّي وَلَا يُرِيدُ ذَلِكَ فَقُلْتُ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَعْرِضُ هٰذا مِنْ نَفْسِي، فَيَدَعُهُ، وَمَا أُرَاهُ يُرِيدُ خَيْرًا، وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ لأَنْ يَرُبَّنِي بَنُو عَمِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي غَيْرُهُمْ.

الشَّرْح

فسر قوله تعالى: ﴿مَعَنَا﴾ قال: «أي: نَاصِرُنَا»، فالنصر والتأييد من مقتضى المعية، فمقتضاها: المعية، ومعناها: المصاحبة.

قوله تعالى: ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾ «فعيلة من السكون».

قال العيني: «أشار به إلى قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التّوبَة: ٤٠] الآية، ثم أشار إلى أن وزن السكينة فعيلة، وأنه مشتق من السكون، وفي التفسير ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: تأييده ونصره ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي: على رسوله في أشهر القولين، وقيل على أبي بكر ﷺ، وروي عن ابن عباس وغيره؛ قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافي تجديد سكينة خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ أي: الملائكة».

{٤٦٦٣} وهذه منقبة للصديق ﷺ، فهذه صحبة خاصة، فكل الصحابة أصحاب للنبي ﷺ، فعمر وعثمان وعلي وغيرهم ﷺ كلهم صحابة، لكن هذه صحبة خاصة وهي صحبة الغار، ففيها مزية ومنقبة لأبي بكر لا يلحقه فيها أحد، لا عمر ولا غيره، ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، يعني: صاحبه الخاص ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. وهذه المعية معية خاصة، والمعية صفة من صفات الله ﷻ، وهي المصاحبة، وهي نوعان:

النوع الأول: معية عامة لجميع الخلق للمؤمن والكافر، ومقتضاها: الإحاطة والاطلاع ونفوذ القدرة والمشيئة، وتأتي في سياق المجازاة والمحاسبة والتخويف كقوله سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ۖ﴾ ثم قال التعليل: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤]، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

النوع الثاني: ذومعية خاصة بالمؤمنين، وتأتي في سياق المدح والثناء، ومقتضاها: النصر والتأييد والحفظ، كما في هذه الآية: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، يعني: بنصره وتوفيقه وتأييده، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله تعالى في حق موسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، ولما دخل معهم فرعون جاءت المعية العامة في قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥].

❖ ❖ ❖

{٤٦٦٤} وهذه القصة لابن عباس «حِينَ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابن الزُّبَيْرِ»، أي: حين دعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، فبايعه أهل الحجاز - مكة والمدينة والطائف - وامتنع ابن عباس من بيعته حتى يجتمع الناس على خليفة؛ لأن ابن عباس يرى أن الخلافة في الشام، وأن وجوه الناس وأصول الناس بايعوا مروان بن الحكم، ثم عبد الملك بن مروان بعد موت يزيد.

فتوقف ابن عباس وقال: «**لأن يربني بنو عمي - فيكون أميرًا علي - أحب إلي من أن يربني غيرهم**» كما سيأتي، لكن المسألة ليست مسألة قرابة، إنما المسألة مسألة أحقية بالخلافة كما سيأتي في الحديث الذي بعده.

❖ ❖ ❖

{٤٦٦٥} قوله: «وَكَانَ بَيْنَهُمَا شَيْءٌ» يعني: بين ابن عباس وابن الزبير.

○ قوله: «فَغَدَوْتُ عَلَى ابن عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: أَتُرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَ ابن الزُّبَيْرِ فَتُحِلُّ حَرَمَ اللهِ؟ فَقَالَ»، أي: ابن عباس «مَعَاذَ اللهِ! إِنَّ اللهَ كَتَبَ ابن الزُّبَيْرِ وَبَنِي أُمَيَّةَ مُحِلِّينَ»، يعني: يبيحون القتال في الحرم وفي المسجد الحرام، أما أنا فلا أستحله؛ يشير إلى القتال الذي بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان الذي وكل المهمة فيه إلى الحجاج، «وَإِنِّي والله لَا أُحِلُّهُ أَبَدًا» يعني: ابن عباس لا يحل القتال فيه.

○ قوله: «قَالَ: قَالَ النَّاسُ: بَايِعْ لِابْنِ الزُّبَيْرِ» الكلام لابن عباس، أي: إن الناس قالوا لي: بايع ابن الزبير، «وَأَيْنَ بِهٰذَا الأَمْرِ عَنْهُ؟»، أي: أنه مستحق للخلافة لما له من المناقب، ثم ذكر مناقبه فقال: «أَمَّا أَبُوهُ: فَحَوَارِيُّ النَّبِيِّ ﷺ -يُرِيدُ الزُّبَيْرَ»؛ لأن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح: «**لكل نبي حواري وحواري الزبير**»[1] والحواري: الناصر والمخلص، ثم قال: «وَأَمَّا جَدُّهُ فَصَاحِبُ الغَارِ -يُرِيدُ أَبَا بَكْرٍ» فأبو بكر رضي الله عنه جده من قبل أمه، «وَأُمُّهُ فَذَاتُ النِّطَاقِ -يُرِيدُ أَسْمَاءَ»، التي شقت نطاقها، واتزرت بقسم منه، وقسم جعلته سفرة للنبي ﷺ، فهذه منقبة لها، «وَأَمَّا خَالَتُهُ فَأُمُّ المُؤْمِنِينَ -يُرِيدُ عَائِشَةَ- وَأَمَّا عَمَّتُهُ فَزَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ، يُرِيدُ خَدِيجَةَ، وَأَمَّا عَمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فَجَدَّتُهُ -يُرِيدُ صَفِيَّةَ- ثُمَّ عَفِيفٌ فِي الإِسْلَامِ، قَارِئٌ لِلْقُرْآنِ»، فهذه صفات عظيمة تؤهله من جهة النسب، ومن جهة الزهد والورع أيضًا.

ثم قال ابن عباس: «والله إِنْ وَصَلُونِي وَصَلُونِي مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ رَبُّونِي رَبَّنِي أَكْفَاءٌ كِرَامٌ» الأقرب أن هذا الضمير يعود إلى بني أمية في قوله: «إِنْ وَصَلُونِي»، ولا يعود إلى ابن الزبير، يقول: إن كان من جهة التربية فهم أكفاء كرام، وإن كان من جهة الصلة فهم أقرباء لي.

أما ابن الزبير «فَآثَرَ التُّوَيْتَاتِ وَالأُسَامَاتِ وَالْحُمَيْدَاتِ» والتويتات: بطون من بني تويت، والأسامات: بطون من بني أسد، والحميدات بطون من بني حميد.

(١) أحمد (١/ ٨٩)، والبخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).

ثم قال: «إِنَّ ابن أَبِي العَاصِ»، يعني: عبد الملك بن مروان أو مروان بن الحكم «بَرَزَ يَمْشِي القُدَمِيَّةَ»، يعني: برز وتقدم وظهر وبايعه أهل الشام.

○ قوله: «وَإِنَّهُ لَوىٰ ذَنَبَهُ - يَعْنِي ابن الزُّبَيْرِ»، كناية عن تخلفه عن معالي الأمور، وقيل: كنى بها عن الجبن وإيثار الدعة.

والشاهد قوله: «وَأَمَّا جَدُّهُ فَصَاحِبُ الغَارِ - يُرِيدُ أَبَا بَكْرٍ» جاء بهذه القصة من أجل هذه الكلمة.

❖ ❖ ❖

{٤٦٦٦} هذا الحديث جاء به استطرادًا من أجل قوله في الحديث السابق: «فَصَاحِبُ الغَارِ - يُرِيدُ أَبَا بَكْرٍ».

يقول ابن أبي مُلَيْكَة: «دَخَلْنَا عَلَى ابن عَبَّاسٍ» في وقت دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة، «فَقَالَ» ابن عباس: «أَلَا تَعْجَبُونَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ قَامَ فِي أَمْرِهِ هٰذا؟!» يعني: طلب الخلافة «فَقُلْتُ»، يعني: ابن عباس «لأُحَاسِبَنَّ نَفْسِي لَهُ»، يعني: أناقشها في معونته ونصحه، فابن عباس يقول: سأحاسب نفسي وأناقشها في معونة ابن الزبير ونصحه مناقشة ومحاسبة «مَا حَاسَبْتُهَا لأَبِي بَكْرٍ وَلَا لِعُمَرَ، وَلَهُمَا كَانَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ خَيْرٍ مِنْهُ»، مع أن أبا بكر وعمر أولى بالخير من ابن الزبير، ومع ذلك أحاسب نفسي لمعونته ونصحه.

ثم أخذ يبين فضائل ابن الزبير فقال: «وَقُلْتُ: ابن عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ» يعني: صفية بنت عبد المطلب «وَابْنُ الزُّبَيْرِ»، يعني: والده الزبير، «وَابْنُ أَبِي بَكْرٍ»، يعني: أبو بكر والده لأمه، «وَابْنُ أَخِي خَدِيجَةَ»، يعني: عمته خديجة، «وَابْنُ أُخْتِ عَائِشَةَ» كل هذه مناقب له، لكن يقول من جهة أخرى: «فَإِذَا هُوَ يَتَعَلَّىٰ عَنِّي»، يعني: يترفع عني متنحيًا، ومعناها يلومه ويعتب عليه، «وَلَا يُرِيدُ ذَٰلِكَ» يعني: لا يريد أن أكون من خاصته.

○ قوله: «فَقُلْتُ» يعني: ابن عباس: «مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَعْرِضُ هٰذا مِنْ نَفْسِي، فَيَدَعُهُ» يعني: أبدأه بالخضوع، ولا يرضى مني بذلك، وهذا من باب

اللوم والعتاب، «**وَمَا أُرَاهُ يُرِيدُ خَيْرًا**»، يعني: ما أظنه يصنع بي خيرًا، «**وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ**»، يعني: الخلافة لابن الزبير أو لعبد الملك بن مروان في الشام، فأنا أفضل عبد الملك بن مروان لقربه؛ «**لأَنْ يَرُبَّنِي بَنُو عَمِّي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي غَيْرُهُمْ**»؛ يربني: يعني يكون علي رباً وأميراً من بني عمي أحب إلي من أن يكون علي أمير من غيرهم.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠]

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَتَأَلَّفُهُمْ بِالْعَطِيَّةِ.

{٤٦٦٧} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابن أَبِي نُعْمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: بُعِثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِشَيْءٍ، فَقَسَمَهُ بَيْنَ أَرْبَعَةٍ وَقَالَ: «أَتَأَلَّفُهُمْ». فَقَالَ رَجُلٌ: مَا عَدَلْتَ. فَقَالَ: «يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هٰذَا قَوْمٌ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ».

الشَّرْح

○ قوله: «بابُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَتَأَلَّفُهُمْ بِالْعَطِيَّةِ» المؤلفة قلوبهم أحد الأصناف الذين تصرف إليهم الزكاة، فإن منصرف الزكاة ثمانية بينهم الله تعالى في كتابه؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ لما جاءه رجل يسأله الزكاة قال: «**إن الله لم يرض بحكم نبي حتى حكم فيها بنفسه، وإن الله جزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت منهم أعطيتك وقرأ الآية**: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠]»(١)، يعني: الزكاة لثمانية أصناف، والمؤلفة قلوبهم صنف منهم، وهم نوعان:

النوع الأول: مسلمون ضعفاء الإيمان، يعطون من الزكاة حتى يتقوى إيمانهم، أو يكونوا رؤساء عشائر فيعطون حتى يطوعوا أتباعهم لدفع الزكاة.

النوع الثاني: كفار يعطون من الزكاة دفعًا لشرهم عن المسلمين.

{٤٦٦٧} هذا حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وفيه: أنه يقول: «بُعِثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِشَيْءٍ، فَقَسَمَهُ بَيْنَ أَرْبَعَةٍ وَقَالَ: أَتَأَلَّفُهُمْ»، وهذا هو الشاهد من قول المؤلفة، وفي الحديث الآخر:

(١) أبو داود (١٦٣٠).

«**أن عليًا بعث بذهيبة من اليمن لم تحصل من ترابها، فقسمها بين أربعة من رؤساء القبائل؛ ليتألفهم على الإسلام**»[(١)].

○ قوله: «**فَقَالَ رَجُلٌ: مَا عَدَلْتَ**»، يقول هذا للنبي ﷺ، وهذا من الخوارج، وفي اللفظ الآخر: أنه ذو الخويصرة التميمي قال: «**إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، قال: ويحك، أو خبت وخسرت إن لم أعدل**»[(٢)].

○ قوله: «**مِنْ ضِئْضِئِ هٰذا**» قيل: من نسله، وقيل: من جنسه.

○ وقوله: «**قَوْمٌ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ**»، هم: الخوارج، يعني: أنهم كفار، والجمهور على أنهم فساق عصاة، والقائلين بكفرهم دليلهم قوي، والأحاديث فيها أنهم: «**يخرجون من الدين ثم لا يعودون فيه**»[(٣)]، وفيها: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[(٤)]، وفي لفظ آخر: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[(٥)].

---

(١) أحمد (٣/ ٤)، والبخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) أحمد (٣/ ٥٦)، والبخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٣) أحمد (٥/ ٣١)، والبخاري (٧٥٦٢)، ومسلم (١٠٦٧).
(٤) أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).
(٥) أحمد (١/ ٨٨)، والبخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾
الآية [التوبة: ٧٩]

﴿يَلۡمِزُونَ﴾ [التوبة: ٧٩]: يَعِيبُونَ، وَ ﴿جُهۡدَهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩] وَجَهْدَهُمْ: طَاقَتَهُمْ.

{٤٦٦٨} حَدَّثَنِي بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ أَبُو مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ. فَقَالَ المُنَافِقُونَ: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هٰذَا، وَمَا فَعَلَ هٰذَا الآخَرُ إِلَّا رِئَاءً. فَنَزَلَتْ ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ الآيَةَ [التوبة: ٧٩].

{٤٦٦٩} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: قُلْتُ لأَبِي أُسَامَةَ: أَحَدَّثَكُمْ زَائِدَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالصَّدَقَةِ، فَيَحْتَالُ أَحَدُنَا حَتَّىٰ يَجِيءَ بِالْمُدِّ، وَإِنَّ لأَحَدِهِمِ اليَوْمَ مِائَةَ أَلْفٍ، كَأَنَّهُ يُعَرِّضُ بِنَفْسِهِ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَلۡمِزُونَ﴾، أي: يعيبون.

○ قوله: «جُهْدَهم» و﴿جُهۡدَهُمۡ﴾»، يعني: بفتح الجيم وضمها والمعنى واحد أي: «طَاقَتَهُمْ».

○ قوله: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩]. هذه الآية في المنافقين،

وهم لا يسلم منهم أحد، فهم يعيبون المتصدقين، فإن جاء متصدق بمال قليل قالوا: الله غني عن هذا، وإن جاء متصدق بمال كثير قالوا: هذا مراء.

{٤٦٦٨} هذا حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

وفيه: أنه يقول: «لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ»، يعني: يحمل بعضنا بعضًا بالأجرة، ثم يتصدقون، وهذا فيه فضل الصحابة لما حثهم النبي ﷺ على الصدقة وليس عندهم شيء صاروا يشتغلون؛ منهم من يشتغل حمالًا ثم يأتي بمال، ينفق بعضه على أهله، وبعضه يتصدق به.

وفيه: دليل على أنه ليس بعيب أن يكون الإنسان حمالًا يحمل بعض المتاع ويعطى أجرة؛ ليكف الله بها وجهه عن السؤال.

○ قوله: «فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ. فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هٰذَا»، يعني: ما يجيء إلا بنصف صاع؟! الله غني عن هذا، ولما جاء الآخر بكثير قالوا: «وَمَا فَعَلَ هٰذَا الآخَرُ إِلَّا رِئَاءً. فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]» فلا أحد يسلم من المنافق.

❖ ❖ ❖

{٤٦٦٩} هذا حديث لأبي مسعود رضي الله عنه أيضا من طريق أخرى، يقول: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بِالصَّدَقَةِ، فَيَحْتَالُ أَحَدُنَا حَتَّىٰ يَجِيءَ بِالْمُدِّ»، يعني: يشتغل ويعمل حتى يأتي بمد فيتصدق به.

○ وقوله: «وَإِنَّ لأَحَدِهِم اليَوْمَ مِائَةَ أَلْفٍ، كَأَنَّهُ يُعَرِّضُ بِنَفْسِهِ»، يعني: ولا يتصدقون وهم مكثرون، أو أنهم لا يتصدقون مع يسرهم، وكانوا يتصدقون مع عسرهم، فقد تغيرت الحال بعد مدة، والآن الواحد عنده مائة ألف ولا يتصدق.

وذكر الحافظ توجيهات لذلك فقال: «ويحتمل أن يكون مراده: أن الحرص على الصدقة الآن لسهولة مأخذها بالتوسع الذي وسع عليهم أولى من الحرص عليها مع تكلفهم، أو أنه أشار إلى ضيق العيش في زمن الرسول ﷺ».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾

الآية [التوبة: ٨٠]

{٤٦٧٠} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ أَبِي أُسَامَةَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ جَاءَ ابنهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ». قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. قَالَ: فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

{٤٦٧١} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابن سَلُولَ دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابن أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا؟! قَالَ: أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ». فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا». قَالَ فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] قَالَ فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، واللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. [التوبة: ٨٤]

الشَّرْح

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء المنافقين اللمازين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم، وذكر السبعين بالنص عليه لحسم مادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامهم تذكر السبعين في مبالغة كلامهم، ولا يراد بها التحديد، ولا أن كون ما زاد عليها بخلافها».

{٤٦٧٠} قوله: «**لما توفي عبد الله بن أبيّ**» مات بعد منصرفهم من تبوك، شهر ذي القعدة من سنة تسع، وكانت مدة مرضه عشرين يومًا، وكان قد تخلف هو ومن تبعه عن غزوة تبوك، وفيهم نزلت: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، وهذا خلافاً لابن التين الذي ذهب إلى أن هذه القصة كانت في أول الإسلام قبل تقرير الأحكام.

○ قوله: «**جَاءَ ابنهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ**» وهو من فضلاء الصحابة، وقد شهد بدرًا وما بعدها، واستشهد يوم اليمامة في خلافة أبي بكر الصديق، ومن مناقبه أنه بلغه بعض مقالات أبيه، فجاء إلى النبي ﷺ يستأذنه في قتله، فقال له النبي ﷺ: «**بل أحسن صحبته**»[(١)] فقال: عبد الله بن عبد الله بن أبيّ: يا نبي الله إن أبي قد احتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه، قال: «**ما اسمك؟**»، قال: الحُباب، «**قال: بل أنت عبد الله**»[(٢)]، لأن الحُباب اسم الشيطان.

وقد جاء أنه أرسل عبد الله بن أُبَيّ إلى النبي ﷺ فلما دخل عليه قال: «**أهلكك حب يهود**»[(٣)] فقال: يا رسول الله، إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتوبخني، ثم سأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه فأجابه، وهذا الحديث كما يقول ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ مرسل مع ثقة رجاله، ويعضده: ما جاء عن ابن عباس قال: لما مرض عبد الله بن أبي جاءه النبي ﷺ فكلمه فقال: قد فهمت ما تقول

(١) الطبراني في «الأوسط» (١/ ٨٠)، وابن حبان (٢/ ١٧١).
(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ١٩٩).
(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٢٨٥)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٢٠٦).

فامنن عليّ فكفني في قميصك وصَلِّ عليَّ ففعل[١]، وسبب هذا الطلب كما يقول ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ أنه كأن عبد الله بن أبي أراد بذلك دفع العار عن ولده وعشيرته بعد موته فأظهر الرغبة في صلاة النبي ﷺ عليه، ووقعت إجابته إلى سؤاله بحسب ما ظهر من حاله إلى أن كشف الله الغطاء عن ذلك ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «**وهذا من أحسن الأجوبة فيما يتعلق بهذه القصة**».

○ قوله: «**فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»، في حديث ابن عباس عن عمر الآتي بعد هذا الحديث: «**فلما قام رسول الله ﷺ**» وفي حديث الترمذي من هذا الوجه: «**فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا يعد أيامه**»[٢] يشير بذلك إلى مثل قوله: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧]، وإلى مثل قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

○ قوله: «**فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟**» كذا في هذه الرواية إطلاق النهي عن الصلاة، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «**وقد استشكل جدًا حتى أقدم بعضهم فقال: هذا وهم من بعض رواته، وعاكسه غيره فزعم أن عمر اطلع على نهي خاص في ذلك، وقال القرطبي: لعل ذلك وقع في خاطر عمر فيكون من قبيل الإلهام، ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] قلت: الثاني، يعني ما قاله القرطبي أقرب من الأول؛ لأنه لم يتقدم النهي عن الصلاة على المنافقين بدليل أنه قال في آخر هذا الحديث قال: «فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ [التوبة: ٨٤]»** والذي يظهر: أن في رواية الباب تجوزًا بينته الرواية التي في الباب بعده من وجه آخر عن عبد الله بن عمر بلفظ: «**فقال: تصلي عليه وقد نهاك الله أن تستغفر لهم**»[٣]، وروى عبد بن حميد والطبري من طريق الشعبي عن ابن عمر عن عمر

(١) الطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٣٥).
(٢) الترمذي (٣٠٩٧).
(٣) البخاري (٤٦٧٢).

قال: أراد رسول الله ﷺ أن يصلي على عبد الله بن أُبَي، فأخذتُ بثوبه فقلتُ: والله ما أمرك الله بهذا، لقد قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ووقع عند ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال عمر: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه، قال: «أين؟»، قال: قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية، وهذا مثل رواية الباب، فكأن عمر قد فهم من الآية المذكورة ما هو الأكثر الأغلب من لسان العرب من: أن «أو» ليست للتخيير، بل للتسوية في عدم الوصف المذكور، أي أن الاستغفار لهم وعدم الاستغفار سواء، وهو كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] لكن الثانية أصرح؛ ولهذا ورد أنها نزلت بعد هذه القصة كما سأذكره، وفهم عمر أيضًا من قوله: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ أنها للمبالغة، وأن العدد المعين لا مفهوم له، بل المراد نفي المغفرة لهم ولو كثر الاستغفار، فيحصل من ذلك: النهي عن الاستغفار فأطلقه، وفهم أيضًا أن المقصود الأعظم من الصلاة على الميت طلب المغفرة للميت والشفاعة له؛ فلذلك استلزم عنده النهي عن الاستغفار ترك الصلاة؛ فلذلك جاء عنه في هذه الرواية إطلاق النهي عن الصلاة، ولهذه الأمور استنكر إرادة الصلاة على عبد الله بن أبي، هذا تقرير ما صدر عن عمر مع ما عرف من شدة صلابته في الدين وكثرة بغضه للكفار والمنافقين، وهو القائل في حق حاطب بن أبي بلتعة مع ما كان له من الفضل كشهوده بدرًا وغير ذلك لكونه كاتب قريشًا قبل الفتح: دعني يا رسول الله أضرب عنقه؛ فقد نافق، فلذلك أقدم على كلامه للنبي ﷺ بما قال، ولم يلتفت إلى احتمال إجراء الكلام على ظاهره لما غلب عليه من الصلابة المذكورة، قال الزين بن المنير: وإنما قال ذلك عمر حرصًا على النبي ﷺ، ومشورة لا إلزامًا، وله عوائد بذلك، ولا يبعد أن يكون النبي كان أذن له في مثل ذلك، فلا يستلزم ما وقع من عمر أنه اجتهد مع وجود النص كما تمسك به قوم في جواز ذلك، وإنما أشار بالذي ظهر له فقط؛ ولهذا احتمل منه النبي ﷺ أخذه بثوبه ومخاطبته له في مثل ذلك المقام حتى التفت إليه متبسمًا كما في حديث ابن عباس بذلك في هذا الباب».

○ قوله: «**إنما خيرني الله، فقال:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ

﴿لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين» في حديث ابن عباس عن عمر الآتي من الزيادة «فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ»، فلما أكثرت عليه قال: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ»، أي خيرت بين الاستغفار وعدمه.

❖ ❖ ❖

{٤٦٧١} هذا الحديث على قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] والآية في المنافقين ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فالرسول ﷺ لما توفي عبد الله بن أبي سأله ابنه عبد الله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه، فأعطاه حرصًا منه ﷺ على جمع المسلمين وتأليفًا لقومه؛ لأن ابن أبي كان رئيسًا في قومه، وكادوا أن يسودوه قبل الإسلام، فلما جاء الله بالإسلام شرق لهذا الأمر، وحرصًا من النبي ﷺ فعل ذلك لعل الله أن يغفر له؛ ولأنه لم يأته مانع عليه الصلاة والسلام اجتهد فقال لعمر: «إِنِّي خُيِّرْتُ»، أي: لما قال الله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

○ قوله: «فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابن أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا؟! قَالَ: أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ» فانظر إلى خلق النبي ﷺ جاء عمر مغضبًا يأخذ بثوبه يقول يا رسول الله: هذا المنافق تصلي عليه؟ فقابله النبي ﷺ بالابتسامة وقال: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ»، فقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ من التخيير.

○ وقوله: «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرْ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا» فصلى عليه النبي ﷺ. وجاء في الرواية التي في «الجنائز»: «**أن عبد الله بن أبي جاءه النبي ﷺ فاستخرجه من قبره، ونفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه**»[(١)]، وفي لفظ آخر: «**أنه دلي في قبره**»[(٢)]؛ ويجمع بينهما: بأنه استخرجه من قبره؛ لأنه دلي، ولما دلي في حفرته جاءه النبي ﷺ فاستخرجه من القبر، ونفث فيه من ريقه لعل الله أن يرحمه؛ لأنه لم يأته نهي وألبسه قميصه، وقيل: إنه مكافأة له؛ لأنه أعطى

---

(١) البخاري (١٢٧٠).
(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٢٠٦) بمعناه.

يوم بدر قميصه لعمه العباس، وكان العباس طويلًا وعبد الله بن أُبَي طويلًا ولم يجد ثوبًا يكافئه إلا ثوب عبد الله بن أبي، ثم بعد ذلك أنزل الله عليه النهي: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ والتعليل: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤] فالنبي ﷺ أراد نفعه، ولعل الله أن ينفعه، ولعل الله أن يغفر له، ثم بين الله أنه لا حيلة فيه؛ لأنه مات على الكفر وعلى الفسق، ونهاه الله عن الصلاة على أحد من المنافقين، وعن القيام على قبره بالدعاء.

وفي هذا دليل على أن المؤمن يصلى عليه، ويقام على قبره بالدعاء له والسؤال له بالتثبيت، والكافر لا يصلى عليه ولا يقام على قبره، فمن مات على الكفر فلا يصلى عليه، ومن مات على الإسلام يصلى عليه، ولو كان ضعيف الإيمان، ولو كان فاسقًا.

وعمر رضي الله عنه بعد ذلك كان يقول: فعجبتُ من جرأتي على النبي ﷺ.

والنبي ﷺ تبين له بعد ذلك وأخبره الله قال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ نهاه الله فلم يصل بعد ذلك على منافق بعد نزول الآية، أما جزم عمر بأنه منافق فجرى على ما كان يطلع عليه من أحواله، وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله وصلى عليه إجراءً له على ظاهره واستصحابًا لظاهر الحكم، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته، ومصلحة الاستئلاف لقومه ودفعًا للمفسدة فاعتبر ﷺ كلَّ هذه المصالح، ولعل الله أن ينفعه ثم بين الله له بعد ذلك أنه لا حيلة فيه؛ لأنه مات على الكفر.

وكذلك إذا علم عن إنسان أنه يسب الدين فهذا مرتد ولا تنفعه الصلاة مع سب الدين، ولو صلى الذي يفعل ناقضًا من نواقض الإسلام لا تفيده، بل تبطل أعماله لقول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] كمن يسجد للصنم ويصلي فإنها لا تنفعه.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]

{٤٦٧٢} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابنهُ عَبْدُ اللهِ ابْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يُكَفِّنَهُ فِيهِ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي عَلَيْهِ، فَأَخَذَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ بِثَوْبِهِ فَقَالَ: تُصَلِّي عَلَيْهِ وَهُوَ مُنَافِقٌ وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ. قَالَ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ أَوْ أَخْبَرَنِي فَقَالَ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فَقَالَ: «سَأَزِيدُهُ عَلَىٰ سَبْعِينَ». قَالَ: فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

الشَّرْح

قال العيني ﷺ: «أي هذا باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ إلى آخره، وظاهر الآية: أنها نزلت في جميع المنافقين، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم، قال الواقدي: أخبرنا معمر، عن الزهري، قال: قال حذيفة ﷺ: قال لي رسول الله: «**إني مسر إليك سراً فلا تذكره لأحد، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان، رهط ذوي عدد من المنافقين**» قال: فلذلك كان عمر ﷺ إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة، فإن مشى مشى معه وإلا لم يصل عليه[(١)]، ومن طريق آخر عن جبير بن مطعم: أنهم اثنا عشر رجلًا».

{٤٦٧٢} هذا هو الحديث السابق أعاده المؤلف ﷺ لهذه الترجمة، فقد أتى به على الآية الأولى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ثم أعاده على هذه

(١) معمر في «جامعه» (١١/ ٢٣٩)، ومن طريقه الواقدي في «المغازي» (٣/ ١٠٤٥)، وعبدالرزاق في «المصنف» (١١/ ٢٣٨).

الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

○ قوله: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ أَوْ أَخْبَرَنِي اللهُ»، شك من الراوي، هل قال: خيرني أم أخبرني؟

○ وقوله: «فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ»؛ لأنه لم يُنه عن الصلاة عليه أولًا، ثم نزلت الآية في النهي عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم، فلم يصل بعد ذلك على أحد منهم عليه الصلاة والسلام.

وهذه الآية نزلت في جميع المنافقين، من علم كفره فلا يصلى عليه؛ لأن المنافقين كفار، فالعلة واضحة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ والتعليل ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤] هذه هي العلة في النهي عن الصلاة على المنافقين.

وأما إذا لم يعلم أن هذا منافق فإنه يجرى عليه أحكام الإسلام إذا كان مظهرًا للإسلام، وأمره إلى الله.

وأهل العلم لهم طرق خفية يعلمون بها حال مثل هذا، فينظرون في كلامه إذا كان يدل على كفره، فإذا كان كفرًا صريحًا فلا يصلى عليه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفيه: جواز الشهادة على المرء بما كان عليه حيًا وميتًا؛ لقول عمر: إن عبد الله منافق، ولم ينكر النبي ﷺ قوله، ويؤخذ: أن المنهي عنه من سب الأموات ما قصد به الشتم لا التعريف، وأن المنافق تجرى عليه أحكام الإسلام الظاهرة، وأن الإعلام بوفاة الميت مجردًا لا يدخل في النعي المنهي عنه.

وفيه: جواز سؤال الموسر من المال من ترجى بركته شيئًا من ماله لضرورة دينية.

وفيه: رعاية الحي المطيع بالإحسان إلى الميت العاصي.

وفيه: التكفين بالمخيط، وجواز تأخير البيان عن وقت النزول إلى وقت الحاجة، والعمل بالظاهر إذا كان النص محتملًا.

وفيه: جواز تنبيه المفضول للفاضل على ما يظن أنه سها عنه، وتنبيه الفاضل المفضول على ما يشكل عليه»، يعني: عمر نبهه قائلًا: يا رسول الله، إنه منافق، نهاك ربك، فهذا تنبيه، ويظن أنه ما انتبه له.

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجواز استفسار السائل المسئول وعكسه عما يحتمل ما دار بينهما.

وفيه: جواز التبسم في حضور الجنازة عند وجود ما يقتضيه»؛ لأن النبي ﷺ تبسم لعمر لما قال له: نهاك ربك، فتبسم.

ثم قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد استحب أهل العلم عدم التبسم من أجل تمام الخشوع فيستثنى منه ما تدعو إليه الحاجة».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟﴾ الآية [التوبة: ٩٥]

{٤٦٧٣} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ: والله مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي أَعْظَمَ مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الذِينَ كَذَبُوا حِينَ أُنْزِلَ الوَحْيُ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩٥] إِلَىٰ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

الشَّرْح

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر الله عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة يعتذرون ويحلفون بالله ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ فلا تؤنبوهم، ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، أي: جبناء نجسة بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في آخره ﴿جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة: ٩٥] من الآثام والخطايا».

{٤٦٧٣} هذا الحديث فيه: فضل الصدق، وأنه من أعظم النعم قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وأنه منجاة؛ لأن كعب بن مالك صدق فحصلت له شدة في أول الأمر ثم كانت العاقبة الحميدة له، بخلاف المنافقين؛ فإنهم حلفوا أنهم معذورون وأنهم لا يستطيعون، فقبل النبي ﷺ ظاهرهم ووكل سرائرهم إلى الله، فكانت العاقبة الوخيمة لهم؛ ولهذا فإن كعبًا اعتبر هذا الصدق نعمة عظيمة عليه فقال: «والله ما أنعم الله»، وفي رواية: «عليَّ»[1] «مِنْ نِعْمَةٍ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي»،

(١) أحمد (٣/ ٤٥٦)، والبخاري (٤٦٧٣)، ومسلم (٢٧٦٩).

يعني: للإسلام «**أَعْظَمَ مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الذِينَ كَذَبُوا حِينَ أُنْزِلَ الوَحْيُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾** [التوبة: ٩٥- ٩٦]».

فكعب يقول: هذه نعمة أنعم الله عليه بها؛ لأنه صدق، فما صار من المنافقين الذين حلفوا، فقال الله لهم: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التّوبَة: ٩٥].

بَابُ ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٦]

الشَّرْح

قال العيني رحمه الله: «أي: هذا باب في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ إلى آخره، هكذا ثبت هذا الباب لأبي ذر وحده بغير حديث، وليس بمذكور أصلاً في رواية الباقين، ونزلت هذه في المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾؛ لأجل أن ترضوا عنهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بحلفانهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦]، أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسول الله».

بَابٌ وقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢].

{٤٦٧٤} حَدَّثنا مُؤَمَّلٌ -هُوَ ابن هِشَامٍ- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَحَدَّثنا عَوْفٌ، حَدَّثَنَا أَبُو رَجاءٍ، حَدَّثَنَا سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَنَا: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ قَالَا لَهُمُ ٱذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ. فَوَقَعُوا فِيهِ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ قَالَا لِي هٰذِه جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَا: أَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ».

الشَّرح

بوب على هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]. وهذه الآية في الذين عملوا أعمالًا صالحة وأعمالًا أخرى سيئة، وتجاوز الله عنهم وعفا عنهم.

{٤٦٧٤} ذكر المؤلف ﵀ حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي ﷺ، ورؤيا الأنبياء ﵈ وحي.

- قوله: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ» يعني: في الرؤيا.
- وقوله: «فَابْتَعَثَانِي»، وفي نسخة: «**ابتعثاني**»، أي: من النوم.
- وقوله: «فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ» هذه هي الجنة.
- وقوله: «فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ»، يعني بالشطر الحسن: الأعمال الحسنة، وبالشطر السيئ الأعمال السيئة.
- وقوله: «قَالَا لَهُمُ: ٱذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ. فَوَقَعُوا فِيهِ ثُمَّ رَجَعُوا

إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ»، يعني: القبح الذي فيهم.

○ وقوله: «فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ قَالَا لِي هَٰذِه جَنَّةُ عَدْنٍ» وهي مبنية بلبن من ذهب وبلبن من فضة.

○ وقوله: «وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ» يعني: في أعلاها؛ ففي لفظ آخر: «**مثل الربابة البيضاء**»[(١)].

○ وقوله: «قَالَا: أَمَّا القَوْمُ الذِينَ» - وفي نسخة: «**القوم الذي**» - «كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ» إما بتوبة منهم بعدما اعترفوا بذنوبهم؛ فالتوبة تجب ما قبلها، أو يتجاوز الله عنهم بتوحيدهم وإسلامهم وإيمانهم؛ لأن الذنوب والمعاصي التي دون الشرك تحت المشيئة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨].

---

(١) أحمد (٥/٨)، والبخاري (٧٠٤٧).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]

{٤٦٧٥} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ. أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

الشَّرح

هذا الباب على قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

{٤٦٧٥} هذا الحديث فيه: أن النبي ﷺ دعا عمه لما حضرته الوفاة وعرض عليه الإسلام فقال له: «قُلْ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ» وكان عنده قرناء السوء: أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية - وكان وقتها كافرًا - فلقناه وذكراه الحجة الملعونة، وهي: اتباع الآباء والأجداد في الباطل، فكانا يعيبان عليه أن يترك ملة أبيه وجده؛ فقالا له: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ».

ففيه: مضرة أصحاب السوء وقرناء السوء، وعبد الله بن أبي أُمية هداه الله إلى الإسلام، وأبو جهل عمرو بن هشام قتل كافرًا في غزوة بدر.

وفيه: التحذير من تعظيم الآباء وما هم عليه من الباطل.

وفيه: مشروعية زيارة المريض الكافر ودعوته إلى الإسلام إذا كان يرجى إسلامه، وأنه لا بأس بذلك.

وفيه: أن أبا طالب مات على الشرك.

وفيه: أن عبد المطلب أيضًا مات على الشرك وأن ملته الشرك.

وفيه: الرد على من زعم أن أبا طالب أو عبد المطلب ماتا على الإسلام كالرافضة الشيعة، فإنهم يقولون: إن أبا طالب مات على الإسلام.

وفيه: أن توبة المريض صحيحة مقبولة ما لم تصل الروح إلى الحلقوم؛ ولهذا فإن النبي ﷺ دعا عمه في مرض الموت، فلولا أنها تنفعه لما دعاه، وفي الحديث: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[(١)].

وفيه: أن المحتضر الذي حضره الموت ينتفع بالأقوال والأعمال الصالحة ما لم تصل الروح إلى الحلقوم فلا تنفعه حينئذ.

وفيه: أن أبا طالب لو قال: لا إله إلا الله، عند الموت لنفعته.

وفيه: أنه لا يجوز الدعاء والاستغفار لمن مات على الشرك، وكذا الصدقة والحج عنه.

(١) أحمد (٢/ ١٣٢)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾
إِلَىٰ ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]

{٤٦٧٦} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابن وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ، قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَنْبَسَةُ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ كَعْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ كَعْبٍ -وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ-، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فِي حَدِيثِهِ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨] قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهْوَ خَيْرٌ لَكَ».

الشَّرْح

هذا الباب على قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾.

{٤٦٧٦} ذكر المؤلف رحمه الله حديث عبد الرحمن بن كعب - وهو عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب - عن أبيه عبد الله بن كعب عن كعب كما سبق قريبًا.

○ قوله: «إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ»، وفي نسخة: «**وإلى رسوله**»[(١)] قال: «فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهْوَ خَيْرٌ لَكَ» وفي رواية: «**أمسك عليك بعض مالك**»[(٢)] يعني: لا تنفق مالك كله؛ ليبقى شيء تنفقه على أهلك ونفسك، لئلا يحتاج إلى سؤال أحد، فلا يجوز للإنسان أن ينفق ماله كله ثم يتكفف الناس إلا إذا كان له كسب يومي، فلا بأس حينئذ أن ينفق جميع ماله، وعليه يحمل عمل الصديق رضي الله عنه في إنفاقه جميع أمواله في سبيل الله، فإن النبي ﷺ حث يومًا على الصدقة فجاء عمر بمال فأعطاه

(١) البخاري (٢٧٥٨)، ومسلم (٢٧٦٩).
(٢) أحمد (٣/ ٤٥٤)، والبخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

النبي ﷺ فقال: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم مثل ذلك - أي: أبقيتُ لهم النصف - ثم جاء أبو بكر بماله فقال له: «**ما أبقيت لأهلك؟**»[(١)] قال: أبقيت لهم الله ورسوله ﷺ. فقد أتى الصديق بجميع ماله فسبق عمرَ، وأقره النبي ﷺ؛ لأنه يستطيع أن يكسب ما يكيفيه يوميًّا، ولأن أهله يصبرون.

ولهذا لما ولي الصديق رضي الله عنه الخلافة ذهب إلى السوق ليكتسب، فقالوا: كيف تذهب إلى السوق وأنت الآن خليفة مشغول بأمور الناس؟! قال: لا أترك أهلي يضيعون. فقالوا: ندير لك كل يوم كذا وكذا درهمًا. فهذا يدل على أن له كسبًا يوميًّا.

(١) أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾
إِلَىٰ ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]

{٤٦٧٧} حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي شُعَيْبٍ، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ أَعْيَنَ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ رَاشِدٍ أَنَّ الزُّهْرِيَّ حَدَّثَهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ -وَهْوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ- أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ غَيْرَ غَزْوَتَيْنِ: غَزْوَةِ العُسْرَةِ وَغَزْوَةِ بَدْرٍ. قَالَ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضُحًى، وَكَانَ قَلَّمَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ سَافَرَهُ إِلَّا ضُحًى، وَكَانَ يَبْدَأُ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ، وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كَلَامِي وَكَلَامِ صَاحِبَيَّ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ كَلَامِ أَحَدٍ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ غَيْرِنَا، فَاجْتَنَبَ النَّاسُ كَلَامَنَا، فَلَبِثْتُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيَّ الأَمْرُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ يَمُوتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَكُونَ مِنَ النَّاسِ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ، فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَنَا عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ تِيبَ عَلَىٰ كَعْبٍ». قَالَتْ: أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرَهُ قَالَ: «إِذًا يَحْطِمَكُمُ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمُ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ». حَتَّىٰ إِذَا صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا، وَكَانَ إِذَا ٱسْتَبْشَرَ ٱسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ القَمَرِ، وَكُنَّا -أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ- الذِينَ خُلِّفُوا عَنِ الأَمْرِ الذِي قُبِلَ مِنْ هٰؤلاء الذِينَ ٱعْتَذَرُوا حِينَ أَنْزَلَ اللهُ لَنَا التَّوْبَةَ، فَلَمَّا ذُكِرَ الذِينَ كَذَبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنَ المُتَخَلِّفِينَ، وَاعْتَذَرُوا بِالْبَاطِلِ، ذُكِرُوا بِشَرِّ مَا ذُكِرَ بِهِ أَحَدٌ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآيَةَ [التوبة: ٩٤].

الشَّرح

هذه الترجمة على هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: ١١٨].

{٤٦٧٧} قوله: «غَزْوَةِ العُسْرَةِ»، هي غزوة تبوك، وسميت عسرة للشدة التي حصلت للمسلمين؛ لأنها في وقت الحر والشدة، ولأن السفر بعيد.

○ وقوله: «فَأَجْمَعْتُ» يعني: فعزمت، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١].

○ وقوله: «وَكَانَ يَبْدَأُ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ»، فيه: مشروعية مجيء المسافر للمسجد فيصلي فيه ركعتين أول ما يقدم.

وفي الحديث الآخر: «**قم حتى يقضي الله فيك**»(١) فهذا الحديث على هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وهم: كعب بن مالك، وصاحباه: هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، يعني: تيقنوا، فالظن هنا بمعنى: اليقين، فتيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني: وفقهم للتوبة، ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ يعني: ليقبل توبتهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: ١١٨].

○ وقوله: «وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ يَمُوتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَكُونَ مِنَ النَّاسِ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ، فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ» ففيه: أن كعبًا يقول: إن أخشى ما أخشاه أن أموت فلا يصلي علي النبي ﷺ، أو يموت الرسول ﷺ فلا يكلمني، ولا يصلي علي أحد.

○ وقوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَوْبَتَنَا عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ»، أي: أنزل الله آية التوبة في آخر الليل.

(١) أحمد (٣/٤٥٦)، والبخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

○ وقوله: «وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ تِيبَ عَلَىٰ كَعْبٍ. قَالَتْ: أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرَهُ قَالَ: إِذًا يَحْطِمَكُمُ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمُ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ»، وفي رواية «**إذن يحطمكم الناس**»[(١)] فالظاهر: أن كعبًا لم يكن نائمًا وأنه مستيقظ لا يأتيه النوم، ومقصود النبي ﷺ أن الناس في آخر الليل سيخرجون من بيوتهم يبشرون وتحصل جلبة وأصوات، ومنع الناس الذين حوله أهل البيوت من النوم؛ فلا تستطيعون النوم؛ لأن بيوتهم كانت صغيرة وقريبة ومتجاورة، وأم سلمة فلها نيتها، فإذا مُنِعْتَ من شيء يكفيك النية؛ لأن الإنسان إذا نوى العمل ثم منعه مانع كتب الله له أجر ما كان يعمله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغَابُن: ١٦].

○ وقوله: «حَتَّىٰ إِذَا صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا» يعني: بعد صلاة الفجر أعلم النبي ﷺ الناس أن الله أنزل بتوبتهم.

○ وقوله: «وَكُنَّا -أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ- الذِينَ خُلِّفُوا عَنِ الأَمْرِ الذِي قُبِلَ»، وفي رواية: «**الذي قيل**» أي: قيل للمنافقين.

○ وقوله: «مِنْ هٰؤلاء الذِينَ ٱعْتَذَرُوا حِينَ أَنْزَلَ اللهُ لَنَا التَّوْبَةَ، فَلَمَّا ذُكِرَ الذِينَ كَذَبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنَ المُتَخَلِّفِينَ، وَاعْتَذَرُوا بِالْبَاطِلِ، ذُكِرُوا بِشَرِّ مَا ذُكِرَ بِهِ أَحَدٌ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبَة: ٩٤]»، فذكر كعب رضي الله عنه أن تسميتهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التّوبَة: ١١٨] أنهم خلفوا، ليس من التخلف عن الغزوة كما يتبادر؛ لأن الذين تخلفوا عنها كثيرون، أما هؤلاء الثلاثة فخلفوا عن الأمر الذي قبل من هؤلاء الذين جاءوا واعتذروا حين أنزل الله آية التوبة فلما ذكر الذين كذبوا رسول الله ﷺ واعتذروا بالباطل ذكروا بشر ما ذكروا به.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبَة: ٩٤] أنه وعيد؛ فهذه الآية في المنافقين.

---

(١) البخاري (٤٦٧٧).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥]، يستدل به بعض الناس الآن في مناسبات العمل الخيري، لكن ظاهر الآية أن فيها الوعيد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١] ثم بعدها: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]، ثم بعد ذلك جاءت الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ثم بعدها: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥]، ثم قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ [التوبة: ١٠٦].

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

[التوبة: ١١٩]

{٤٦٧٨} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ -وَكَانَ قَائِدَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ- قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ. فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِي هٰذَا كَذِبًا، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [التوبة: ١١٧] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

الشَّرْح

أعاد المؤلف ؒ قصة كعب في هذا الباب لمناسبتها للآيات، فترجم على قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩٥] وترجم على قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [التوبة: ١١٧]، وترجم على قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، وترجم على هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]؛ لأن هؤلاء الثلاثة صدقوا الله.

{٤٦٧٨} قوله: «فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الحَدِيثِ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي»، يعني: اختبره وامتحنه بالصدق في الحديث.

○ وقوله: «مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِي هٰذَا كَذِبًا»؛ وفي لفظ آخر: «**وأرجو أن يحفظني الله فيما بقي**»(١).

---

(١) أحمد (٦/٣٨٧)، ومسلم (٢٧٦٩).

فيه: أن الصدق يكون بالأقوال والأفعال، فالصدق في الصلاة والزكاة والصوم والحج يكون: بالإخلاص فيها وبذل الجهد في أدائها كما أمر الله.

قال ابن القيم في «الكافية»:

والصدق توحيد الإرادة وهو بذ ل الجهد لا كسلًا ولا متوان[١]

وفي الحديث الآخر: «**العين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها الاستماع، واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[٢] فقد يفعل تصديق ذلك أو تكذيبه.

---

(١) «متن القصيدة النونية» (٢١٩).

(٢) أحمد (٢/٢٧٦)، والبخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [التوبة: ١٢٨]

{٤٦٧٩} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن السَّبَّاقِ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ ﵁ وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الوَحْيَ قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ إِنَّ القَتْلَ قَدِ ٱسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ؛ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ، إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لأَرَىٰ أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ واللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الذِي رَأَىٰ عُمَرُ. قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلَا نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ. فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ؛ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ واللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ حَتَّىٰ وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ، لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨] إِلَىٰ آخِرِهِمَا، وَكَانَتِ الصُّحُفُ التِي جُمِعَ فِيهَا القُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ.

تَابَعَهُ عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ وَاللَّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابن شِهَابٍ. وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ وَقَالَ: مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ. وَقَالَ مُوسَىٰ: عَنْ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَنَا ابن شِهَابٍ: مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ. وَتَابَعَهُ يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ. وَقَالَ أَبُو ثَابِتٍ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: مَعَ خُزَيْمَةَ، أَوْ أَبِي خُزَيْمَةَ.

الشَّرح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

{٤٦٧٩} هذه قصة جمع القرآن، ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة على هذه الآية؛ وذلك لأنها ما وجدت مكتوبة إلا عند خزيمة الأنصاري.

وفيها: أن القرآن ما كان مجموعًا في عهد النبي ﷺ؛ لأنه لم يكتمل النزول، ولا يعلمون متى ينتهي، وكان يكتب في اللخاف وغيرها، فلما توفي النبي ﷺ انقطع الوحي ثم جمع القرآن، فاحتيج إلى جمعه في مصحف واحد.

○ قوله: «قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟»، فيه: أنه لم يرَ هذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أول الأمر.

○ قوله: «فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ لِذَلِكَ صَدْرِي»، ثم استدعى زيد بن ثابت، وكان يكتب الوحي للنبي ﷺ، فرأى أن الأمر شديد وعظيم؛ ولهذا قال: «فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ؛ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ»، أي: والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان ذلك أشد عليَّ؛ لأنه يتعلق بجمع كتاب الله، فتلكأ في أول الأمر، وقال: «كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ واللهِ خَيْرٌ»، فلم يزل يراجعه أبو بكر حتى شرح الله صدره، ثم استعد لهذه المهمة واعتنى بها، قال: «فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ»، أي: فجعل يجمع ما يجدها مكتوبة في رقاع أو في لخاف أو محفوظة في الصدور، فجمع بين الكتابة والحفظ، إلا هذه الآية، وهي آية الترجمة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ ما وجدها إلا مكتوبة عند خزيمة الأنصاري وحده فكتبها.

وجمع القرآن من باب المصالح المرسلة وليس من باب البدع.

○ قوله: «تَابَعَهُ عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ وَاللَّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابن شِهَابٍ»، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يريد أن لليث فيه شيخًا آخر عن ابن شهاب، وأنه رواه عنه بإسناده المذكور لكن خالف في قوله: «**مع خزيمة الأنصاري**»[1] فقال: «مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ».

○ قوله: «وَقَالَ مُوسَىٰ: عَنْ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَنَا ابن شِهَابٍ: مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ» فموسى هو: موسى بن إسماعيل، وإبراهيم هو: إبراهيم بن سعد، كما ذكر الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والمعنى: أنهم اختلفوا فقال بعضهم: «**مع أبي خزيمة**»[2] وقال بعضهم: «**مع خزيمة**»، شك بعضهم كما ذكره الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) أحمد (٥/ ١٨٨)، والبخاري (٤٦٧٩).
(٢) البخاري (٤٩٨٦).

١٠- سُورة يُونُسَ عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

بَابٌ

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾ [يونس: ٢٤]: فَنَبَتَ بِالْمَاءِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ. وَ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ [يونس: ٦٨]. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ [يونس: ٢]: مُحَمَّدٌ ﷺ. وَقَالَ مُجاهِدٌ: خَيْرٌ. يُقَالُ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾ [يونس: ١]: يَعْنِي هٰذِه أَعْلَامُ القُرْآنِ وَمِثْلُهُ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢] المَعْنَىٰ: بِكُمْ. ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ [يونس: ١٠]: دُعَاؤُهُمْ ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: ٢٢]: دَنَوْا مِنَ الهَلَكَةِ ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١] ﴿فاتَّبَعَهم﴾ [يونس: ٩٠] وَأَتْبَعَهُمْ وَاحِدٌ. ﴿عَدۡوًاۚ﴾ [يونس: ٩٠]: مِنَ العُدْوَانِ. وَقَالَ مُجاهِدٌ: ﴿يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ [يونس: ١١] قَوْلُ الإِنْسَانِ لِوَلَدِهِ وَمَالِهِ إِذَا غَضِبَ: اللَّهُمَّ لَا تُبارِكْ فِيهِ وَالْعَنْهُ ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ [يونس: ١١]: لأُهْلِكُ مَنْ دُعِيَ عَلَيْهِ وَلأَماتَهُ. ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦]: مِثْلُهَا حُسْنَىٰ ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦]: مَغْفِرَةٌ. ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ [يونس: ٧٨]: المُلْكُ.

الشَّرح

قال المؤلف رحمه الله: «سُورة يُونُسَ عليه السلام»، فذكر كلمات من سورة يونس وفسرها.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾: فَنَبَتَ بِالْمَاءِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ»، يعني: أنه فسَّر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يُونس: ٢٤].

وذكر بعدها - في بعض النسخ - قوله تعالى: «﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ

سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ [يُونس: ٦٨]». وما ذكر على هذه الآية شيء.

○ قوله: «وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾: مُحَمَّدٌ ﷺ» يعني: أنه فسر قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ [يُونس: ٢] بأنه: محمد ﷺ.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: خَيْرٌ»، أي: فسر قوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: قدم خير، أي: أن محمدًا ﷺ يتقدمهم.

وذكر في بعض النسخ: «يُقَالُ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ [يُوسُف: ١]، يَعْنِي هٰذِه أَعْلَامُ القُرْآنِ، وَمِثْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ [يُونس: ٢٢]، المَعْنَىٰ: بِكُمْ»[1]، أي: وجرين بكم.

○ قوله: «يُقَالُ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: دُعَاؤُهُم»، أي: فسر قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ [يُونس: ١٠] بدعائهم.

○ قوله: «﴿أُحِيطَ بِهِمْ ۙ﴾»، يعني: فسر قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ [يُونس: ٢٢] بقوله: «دَنَوْا مِنَ الهَلَكَةِ».

وذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية، وهي في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ [البَقَرَة: ٨١]، والباب في تفسير سورة يونس؛ إشارة إلى معنى الفعل: أحاط.

---

(١) البخاري (٨/٣٤٦ - فتح).

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾» وتمام الآية: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يُونس: ١١] فسره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بـ «قَوْلُ الإِنْسَانِ لِوَلَدِهِ وَمَالِهِ إِذَا غَضِبَ» ودعا فإنه يقول: «اللَّهُمَّ لَا تُبَارِكْ فِيهِ وَالْعَنْهُ»، فهذا مثال.

قوله: «﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾»، يعني: فسر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾، بقوله: «لأُهْلِكُ مَنْ دُعِيَ عَلَيْهِ وَلأَمَاتَهُ»، ولكن الله تعالى حليم بعباده.

○ قوله: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»، زاد بعدها في بعض النسخ: «**مثلها حسنى**»[(١)] فلعل المعنى: يجازى مثلها بالحسنى، وفسر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الزيادة بأنها «مَغْفِرَةٌ ورضوان».

○ قوله: «وقال غيره: النظر إلى وجهه»، والتفسير الذي ورد في «صحيح مسلم» عن صهيب مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: **النظر إلى وجه الله الكريم**»[(٢)].

○ قوله: «﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: المُلْكُ» يعني: أن قوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: ٧٨] أي: ويكون لكما الملك.

○ قوله: «فاتَّبَعهم و«أَتْبَعهم» واحد»، أي: في قراءة: «فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ»، وقرأ الجمهور: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ [يُونس: ٩٠]، ومعنى اتَّبعهم وأتبعهم واحد.

○ قوله: «﴿عَدْوًا﴾: من العدوان» يعني قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يُونس: ٩٠] بأنه «من العدوان».

* * *

(١) البخاري (٨/ ٣٤٧ - فتح).
(٢) مسلم (١٨١).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ الآية

﴿نُنَجِّيكَ﴾ [يونس: ٩٢] نُلْقِيكَ عَلَىٰ نَجْوَةٍ مِنَ الأَرْضِ، وَهْوَ النَّشَزُ المَكَانُ المُرْتَفِعُ.

{٤٦٨٠} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ فَقَالُوا: هٰذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَىٰ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْهُمْ، فَصُومُوا».

الشَّرح

ترجم المصنف ﵀ على هذه الآية: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يُونس: ٩٠]. وفيها أن فرعون قال: لا إله إلا الله، - فقال فيما ذكره الله -: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يُونس: ٩٠]، فآمن وأسلم، لكن إيمانه عند رؤية العذاب لا ينفع؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]. فمن شروط صحة التوبة أن تكون قبل نزول العذاب، فإذا نزل العذاب فلا توبة ولا حيلة؛ ففرعون مات كافرًا.

ولم يستثن الله إلا أمة واحدة، وهي: أمة يونس؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨﴾ [يُونس: ٩٨].

وكذلك إذا وصلت الروح إلى الحلقوم لا تقبل التوبة، لكن في حال المرض تنفع التوبة، فإذا تاب المريض وهو في مرض الموت صحت توبته، وإذا أوصى صحت وصيته؛ ولهذا زار النبي ﷺ عمه أبا طالب لما حضرته الوفاة ودعاه إلى الإسلام[١]، ولو قال كلمة التوحيد لنفعته.

○ قوله: «﴿نُنَجِّيكَ﴾» يعني: في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس: ٩٢] فسره فقال: «نُلْقِيكَ عَلَىٰ نَجْوَةٍ مِنَ الأَرْضِ، وَهْوَ النَّشَزُ المَكَانُ المُرْتَفِعُ».

{٤٦٨٠} قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ» لم يجد المؤلف حديثًا على شرطه إلا حديث ابن عباس في صيام يوم عاشوراء.

والشاهد قوله: «فَقَالُوا: هٰذا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَىٰ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْهُمْ، فَصُومُوا»»، وفي رواية: «**نحن أحق بموسى منكم**»[٢].

(١) أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).
(٢) أحمد (١/ ٢٩١)، والبخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).

١١- ومن سورة هُودٍ عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ أَبُو مَيْسَرَةَ: الأَوَّاهُ الرَّحِيمُ بِالْحَبَشِيَّةِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: (بَادِئَ الرَّأْيِ) مَا ظَهَرَ لَنَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾ جَبَلٌ بِالْجَزِيرَةِ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ﴾ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَقْلِعِي﴾ أَمْسِكِي. ﴿عَصِيبٌ﴾ شَدِيدٌ. ﴿لَا جَرَمَ﴾ بَلَىٰ. ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ نَبَعَ المَاءُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَجْهُ الأَرْضِ.

الشَّرْح

ترجم المؤلف رحمه الله فقال: «سورة هود»، وفسر كلمات في هذه السورة.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿عَصِيبٌ﴾: شديد» وفي بعض النسخ: «وقال أبو ميسرة: الأواه الرحيم بالحبشية. وقال ابن عباس: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هُود: ٢٧] ما ظهر لنا. وقال مجاهد: ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾ [هُود: ٤٤]: جبل بالجزيرة. وقال الحسن: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ [هُود: ٨٧]، يستهزئون به، وقال ابن عباس: ﴿أَقْلِعِي﴾ [هُود: ٤٤]: أمسكي. ﴿عَصِيبٌ﴾: شديد»[1].

فقوله: «وَقَالَ أَبُو مَيْسَرَةَ: الأَوَّاهُ الرَّحِيمُ بِالْحَبَشِيَّةِ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هُود: ٧٥]، فالأواه: الرحيم، باللغة الحبشية، والكلمة على هذا القول ليست عربية الأصل بل تعربت.

○ وقوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هُود: ٢٧] مَا ظَهَرَ لَنَا».

○ وقوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾: جَبَلٌ بِالْجَزِيرَةِ»، يعني: في قوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هُود: ٤٤] أي: إن سفينة نوح استوت على جبل بالجزيرة.

○ وقوله: «وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ»، أي: قوم شعيب قالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا

(١) البخاري (٨/ ٣٤٩ - فتح).

نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هُود: ٨٧]، فهم يستهزءون به ويسخرون منه، فقالوا: أتنهانا عن عبادة ما يعبد آباؤنا وتنهانا أن نتصرف في أموالنا كيف نشاء؟

○ وقوله: «**وقال ابن عباس**: ﴿أَقۡلِعِي﴾: **أمسكي**» أي: في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هُود: ٤٤].

○ وقوله: «**وقال ابن عباس**: ﴿عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾: **شديد**» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَـٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هُود: ٧٧].

○ وقوله: «﴿لَا جَرَمَ﴾: بَلَىٰ»، يعني: في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هُود: ٢٢]»، أي: «بَلَىٰ» أو حقًّا، فهي كلمة جواب مثل نعم.

وبعده في بعض النسخ: «﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: **نبع الماء. وقال عكرمة: وجه الأرض**»[1]، يعني: في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هُود: ٤٠]، يعني أن التنور الذي يخبز فيه الخبز فاض بالماء.

○ وقوله: «وَقَالَ عِكْرِمَةُ»، أي في معنى: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ أنه: «وَجْهُ الأَرْضِ».

---

(١) البخاري (٨/ ٣٤٩ - فتح).

بَابٌ

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ
أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ
إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿وَحَاقَ﴾ [هود: ٨]: نَزَلَ، يَحِيقُ: يَنْزِلُ. ﴿يَئُوسٌ﴾: فَعُولٌ مِنْ يَئِسْتُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾ [هود: ٣٦]: تَحْزَنْ. ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ [هود: ٥] شَكٌّ وَامْتِرَاءٌ فِي الحَقِّ. ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: ٥]: مِنَ اللهِ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا.

{٤٦٨١} حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ صَبَّاحٍ، حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ قَالَ: قَالَ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابن عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: (أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ) قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: أُنَاسٌ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ.

{٤٦٨٢} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ وَأَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّ ابن عَبَّاسٍ قَرَأَ: أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ. قُلْتُ: يَا أَبَا العَبَّاسِ مَا تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُجَامِعُ ٱمْرَأَتَهُ فَيَسْتَحِي، أَوْ يَتَخَلَّىٰ فَيَسْتَحِي، فَنَزَلَتْ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ [هود: ٥].

{٤٦٨٣} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرٌو قَالَ: قَرَأَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ [هود: ٥] وَقَالَ غَيْرُهُ: عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﴿يَسۡتَغۡشُونَ﴾ [هود: ٥]: يُغَطُّونَ رُءُوسَهُمْ ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ [هود: ٧٧]: سَاءَ ظَنُّهُ بِقَوْمِهِ. ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ﴾ [هود: ٧٧]: بِأَضْيَافِهِ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ٨١]: بِسَوَادٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]: أَرْجِعُ. ﴿سِجِّيلٖ﴾ [هود: ٨٢]: الشَّدِيدُ الكَبِيرُ. سِجِّيلٌ وَسِجِّينٌ، وَاللَّامُ وَالنُّونُ أُخْتَانِ، وَقَالَ تَمِيمُ بْنُ مُقْبِلٍ:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ البَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْبًا تَوَاصَىٰ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿وَحَاقَ﴾: نَزَلَ».

○ قوله: «﴿يَحِيقُ﴾: يَنْزِلُ».

○ قوله: «يؤوس: فَعُولٌ مِنْ يَئِسْتُ» أي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هُود: ٩].

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَبْتَئِسْ﴾: تَحْزَنْ» أي: في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هُود: ٣٦].

○ قوله: «﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾»، يعني: «شَكٌّ وَامْتِرَاءٌ فِي الحَقِّ».

○ قوله: «﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُۚ﴾»، يعني: «مِنَ اللهِ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا».

ذكر المصنف ﷺ هذه الترجمة على هذه الآية: «﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُۚ﴾ [هُود: ٥]».

{٤٦٨١} قوله: «عن محمد بن مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابن عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: أُنَاسٌ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيُفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَنَزَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ» يعني: إذا أراد الجماع أو قضاء الحاجة فإنه يثني صدره على فرجه ليستخفي حياء من الله، وليس في هذا حياء، فإن الله لا تخفى عليه خافية.

❖ ❖ ❖

{٤٦٨٢} قوله: «قُلْتُ: يَا أَبَا العَبَّاسِ (مَا تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ)؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُجَامِعُ ٱمْرَأَتَهُ فَيَسْتَحِي، أَوْ يَتَخَلَّىٰ فَيَسْتَحِي، فَنَزَلَتْ» أي: نزلت هذه الآية.

❖ ❖ ❖

{٤٦٨٣} قوله: «ألا إنهم تثنوني صدورهم ألا حين يستغشون ثيابهم» إما أن تكون هذه قراءة ثابتة أو قراءة شاذة وتحمل على أنها تفسير من ابن عباس، وقراءة حفص: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا

يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هُود: ٥].

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: عَنِ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يُغَطُّون رُءُوسَهُمْ».

○ قوله: «﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾: سَاءَ ظَنُّهُ بِقَوْمِهِ»، أي: في قوله تعالى في قصة لوط: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هُود: ٧٧].

○ قوله: «﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾: أي «بِأَضْيَافِهِ»، فعند مجيء هؤلاء الذين يريدون الضيافة ضاق بهم ذرعًا.

○ قوله: «﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾: بِسَوَادٍ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هُود: ٨١].

○ قوله: «﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هُود: ٨٨]: أَرْجِعُ»، قاله مجاهد.

وفي بعض النسخ: «﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ [هُود: ٦١] **جعلكم عمارًا، أعمرته الدار فهي عمرى جعلتها له.** ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ [هُود: ٧٠] **وأنكرهم واستنكرهم واحد.** ﴿حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾ [هُود: ٧٣] **كأنه فعيل من ماجد محمود من حمد**»[(١)].

فقوله: «﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾»، قال الشعبي: جعلكم عمار الأرض، وعمرته الدار فهي عمرى أيضًا.

○ قوله: «﴿نَكِرَهُمۡ﴾ وأنكرهم واستنكرهم واحد»، يعني: قوله تعالى: ﴿نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [هُود: ٧٠]، وهذا لما لم يأكل أضياف إبراهيم.

○ قوله: «﴿حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾، كأنه فعيل من ماجد محمود من حمد».

○ قوله: «﴿سِجِّيلٖ﴾: الشَّدِيدُ الكَبِيرُ. سِجِّيلٌ وَسِجِّينٌ، وَاللَّامُ وَالنُّونُ أُخْتَانِ»، أي: كل واحد بمعنى الآخر مثل: إسماعيل وإسماعين باللام والنون، وجبريل وجبرين باللام والنون.

○ قوله: «وَقَالَ تَمِيمُ بْنُ مُقْبِلٍ:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ البَيْضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْبًا تَوَاصَىٰ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا

فسجينا بالنون.

---

(١) البخاري (٨/ ٣٥١ - فتح).

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]

{٤٦٨٤} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ عز وجل: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» وَقَالَ: «يَدُ اللهِ مَلأَىٰ لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» وَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ».

﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ [هود: ٥٤]: ٱفْتَعَلْتَ مِنْ عَرَوْتُهُ أَيْ: أَصَبْتُهُ، وَمِنْهُ: يَعْرُوهُ، وَاعْتَرَانِي ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] أَيْ: فِي مِلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ. ﴿عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩] وَعَنُودٌ وَعَانِدٌ وَاحِدٌ، هُوَ تَأْكِيدُ التَّجَبُّرِ، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ [هود: ٦١]: جَعَلَكُمْ عُمَّارًا، أَعْمَرْتُهُ الدَّارَ فَهْيَ عُمْرَىٰ جَعَلْتُهَا لَهُ. ﴿نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] وَأَنْكَرَهُمْ وَاسْتَنْكَرَهُمْ وَاحِدٌ ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]: كَأَنَّهُ فَعِيلٌ مِنْ مَاجِدٍ. مَحْمُودٌ مِنْ حَمِدَ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على هذه الآية: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧]

{٤٦٨٤} ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث قدسي من كلام الله لفظًا ومعنًى، وأتى به شاهدًا على آية الترجمة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

○ قوله: «قَالَ اللهُ عز وجل: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»، هذا من كلام الله عز وجل، وفيه: فضل النفقة، وأن المنفق موعود بأن يخلف الله عليه نفقته؛ كما قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سَبَإ: ٣٩].

○ قوله: «وَقَالَ: يَدُ اللهِ مَلأَىٰ لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ»، أي: لا تنقصها نفقة، من غاض يغيض، بفتح التاء.

○ قوله: «سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، السحّ: كثرة الصب، و«اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» بالنصب على الظرفية، فكلاهما ظرف؛ أي: في الليل وفي النهار.

○ قوله: «وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ»، يعني: لم ينقص.

○ قوله: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ المِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ» وفي الحديث الآخر: «**وبيده الأخرى الميزان**»[1]، فيده الأخرى فيها العدل والميزان الذي به يخفض ويرفع، وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشّورى: ١٧] أي: العدل.

قال: «﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾: ٱفْتَعَلْتَ مِنْ عَرَوْتُهُ أَيْ: أَصَبْتُهُ» يعني: أن معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هُود: ٥٤] أي: إلا أصابك.

○ قوله: «﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾»، يعني: في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هُود: ٥٦]، وفسره فقال: «أَيْ: فِي مِلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ».

---

(١) أحمد (٢/ ٥٠٠)، والبخاري (٧٤١١).

بَابُ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]

إِلَىٰ أَهْلِ مَدْيَنَ؛ لأَنَّ مَدْيَنَ بَلَدٌ، وَمِثْلُهُ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وَاسْأَلِ ﴿ٱلْعِيرَ﴾ [يوسف: ٨٢] يَعْنِي: أَهْلَ القَرْيَةِ وَأَصْحَابَ العِيرِ ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] يَقُولُ: لَمْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَيُقَالُ إِذَا لَمْ يَقْضِ الرَّجُلُ حَاجَتَهُ: ظَهَرْتَ بِحَاجَتِي وَجَعَلْتَنِي ظِهْرِيًّا، وَالظِّهْرِيُّ هٰهنا: أَنْ تَأْخُذَ مَعَكَ دَابَّةً أَوْ وِعَاءً تَسْتَظْهِرُ بِهِ. ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]: سُقَاطُنَا. ﴿إِجْرَامِى﴾ [هود: ٣٥] هُوَ مَصْدَرٌ مِنْ أَجْرَمْتُ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: جَرَمْتُ. ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ [هود: ٣٧] وَالْفَلَكُ: وَاحِدٌ وَهْيَ السَّفِينَةُ وَالسُّفُنُ. مُجْرَاهَا مَدْفَعُهَا وَهْوَ مَصْدَرُ أَجْرَيْتُ، وَأَرْسَيْتُ حَبَسْتُ وَيُقْرَأُ: مَرْسَاهَا مِنْ رَسَتْ هِيَ، وَ (مَجْرَاهَا) [هود: ٤١] مِنْ جَرَتْ هِيَ وَ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا: مِنْ فُعِلَ بِهَا. الرَّاسِيَاتُ: ثَابِتَاتٌ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾»، أي: «إِلَىٰ أَهْلِ مَدْيَنَ؛ لأَنَّ مَدْيَنَ بَلَدٌ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هُود: ٨٤]، يعني: وأرسلنا إلى أهل مدين؛ لأن مدين بلد.

○ قوله: «وَمِثْلُهُ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾»، أي: واسأل أهل القرية.

○ قوله: «وَاسْأَلِ الْعِيرَ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يُوسُف: ٨٢]، فالمقصود «وَأَصْحَابَ العِيرِ».

○ قوله: «﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾»، يعني: في قوله تعالى في ذكر كلام شعيب: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هُود: ٩٢]، فسره فقال: «يَقُولُ: لَمْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَيُقَالُ إِذَا لَمْ يَقْضِ الرَّجُلُ حَاجَتَهُ: ظَهَرْتَ بِحَاجَتِي وَجَعَلْتَنِي ظِهْرِيًّا، وَالظِّهْرِيُّ هٰهنا: أَنْ تَأْخُذَ مَعَكَ دَابَّةً أَوْ وِعَاءً تَسْتَظْهِرُ بِهِ» يعني: تتقوى، فيطلق على هذا وعلى هذا.

○ قوله: «أَرْذَلُنَا: سُقَاطُنَا» يعني: في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هُود: ٢٧]، هؤلاء قوم نوح الذين قالوا لنوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾، أي: ما آمن بك، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، أي: «سُقَاطُنَا».

○ قوله: «﴿إِجْرَامِى﴾: مَصْدَرٌ مِنْ أَجْرَمْتُ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: جَرَمْتُ» يعني: في قوله تعالى: ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ٣٥﴾ [هُود: ٣٥].

وقال: «﴿ٱلْفُلْكَ﴾ وَالْفَلَكُ: وَاحِدٌ وَهْيَ السَّفِينَةُ وَالسُّفُنُ».

○ قوله: «﴿مُجْرِىٰهَا﴾: موقفها» وفي نسخة: «**مدفعها**»، وفي نسخة قال: «﴿مُجْرِىٰهَا﴾ مِنْ جَرَتْ هِيَ»[1] أي: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مُجْرِىٰهَا﴾ [هُود: ٤١]. وقراءة حفص بالإمالة في هذا الموضع فقط، وكثير من القراء لا يميلونها، وهي: مَجراها، ومُجراها بالفتح من الثلاثي وبالضم من الرباعي في قراءة أخرى.

○ قوله: «ومجراها من جرت»، يعني: السفينة، والمعنى: مسيرها.

○ قوله: «﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾»: وقفها.

○ قوله: «أرسيت: حبست».

○ قوله: «ويقرأ ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: من رست هي، و﴿مُجْرِىٰهَا﴾ من جرت» يعني: في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مُجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هُود: ٤١] فباسم الله سيرها ووقوفها، فهو يستعين بالله في سيرها وفي وقوفها.

○ قوله: «﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سَبَإ: ١٣]: ثابتات».

○ قوله: «﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾»، بالضم من الرباعي، و«مَرساها» من الثلاثي.

○ قوله: «﴿عَنِيدٍ ٥٩﴾ وعنود وعاند واحد، وهو تأكيد التجبر»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩﴾ [هُود: ٥٩]، أي: كافر متجبر.

قال: «﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ واحده شاهد، مثل: صاحب وأصحاب».

---

(١) البخاري (٨/ ٣٥٢ - فتح).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]

وَاحِدُ الأَشْهَادِ: شَاهِدٌ، مِثْلُ: صَاحِبٍ وَأَصْحَابٍ.

{٤٦٨٥} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ وَهِشَامٌ قَالَا: حَدَّثنَا قَتَادَةُ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قَالَ: بَيْنَا ابن عُمَرَ يَطُوفُ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ -أَوْ قَالَ يَا ابن عُمَرَ- سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّجْوَىٰ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ -وَقَالَ هِشَامٌ: يَدْنُو الْمُؤْمِنُ- حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ: تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ -مَرَّتَيْنِ- فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ- ثُمَّ تُطْوىٰ صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الآخَرُونَ أَوِ الكُفَّارُ فَيُنَادىٰ عَلَىٰ رُؤوسِ الأَشْهَادِ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]». وَقَالَ شَيْبَانُ عَنْ قَتَادَةَ: حَدَّثنَا صَفْوَانُ.

الشَّرْح

{٤٦٨٥} ذكر المصنف ﵀ حديث ابن عمر شاهدًا على آية الترجمة: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨].

وفيه: أن رجلًا سأل ابن عمر وهو يطوف، «فقال: يا أبا عبد الرحمن - أو يا ابن عمر، سمعت النبي ﷺ في النجوى؟» وهي: الكلام في السر والمناجاة من قرب، فقال ابن عمر: «فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ»، وَقَالَ هِشَامٌ: يَدْنُو الْمُؤْمِنُ- حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ: تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ -مَرَّتَيْنِ- فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا، وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ- ثُمَّ تُطْوىٰ صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ» وهذا من فضل الله تعالى على عبده المؤمن أن يقرره بذنوبه سرًّا بينه وبينه فلا يعلم الخلق عنه

شيئًا ، أما الكافر :- «فَيُنَادىٰ عَلَىٰ رُؤوسِ الأَشْهَادِ» فيفتضح.

وفيه: إثبات النجوى والنداء لله ﷻ.

وفيه: الرد على أهل البدع المنكرين للنداء أو المناجاة أوالكلام.

وكلام الله تعالى أنواع؛ منه:

المناجاة: وهو الكلام من قرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢] يعني موسى.

والنداء: وهو الكلام من بعد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠].

والكلام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النّحل: ٥١]، فهذا كلام.

○ قوله: «وَقَالَ شَيْبَانُ عَنْ قَتَادَةَ»، وفي بعض النسخ: «**وقال شيبان: عن قتادة حدثنا صفوان**»[1] يعني: أن قتادة صرح بالسماع، وقتادة مدلس، فأراد أن يبين أنه سمعه منه؛ لأنه قال في الأول: «**حدثنا قتادة عن صفوان**» بالعنعنة.

---

(١) البخاري (٤٦٨٥).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]

﴿ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]: العَوْنُ المُعِينُ. رَفَدْتُهُ: أَعَنْتُهُ ﴿تَرْكَنُوٓاْ﴾ [هود: ١١٣] تَمِيلُوا ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ [هود: ١١٦]: فَهَلَّا كَانَ ﴿أُتْرِفُواْ﴾ [هود: ١١٦]: أُهْلِكُوا. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]: شَدِيدٌ وَصَوْتٌ ضَعِيفٌ.

{٤٦٨٦} حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الفَضْلِ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا بُرَيْدُ بْنُ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». قَالَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

الشَّرْح

فسر المصنف رحمه الله بعض الكلمات فقال: «﴿ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾: العَوْنُ المُعِينُ. رَفَدْتُهُ: أَعَنْتُهُ»، فقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هُود: ٩٩] يعني: بئس العون المعين.

وبعده في بعض النسخ: «﴿تَرْكَنُوٓاْ﴾: تَمِيلُوا»، فمعنى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هُود: ١١٣] أي: ولا تميلوا.

○ وقوله: «﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾: فَهَلَّا كَانَ»[1] يعني: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [هُود: ١١٦]: بمعنى: هلَّا، أي: هلَّا كان.

○ قوله: «﴿أُتْرِفُواْ﴾: أُهْلِكُوا»، وبعده في بعض النسخ: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هُود: ١٠٦]: شَدِيدٌ وَصَوْتٌ ضَعِيفٌ»[2] فالزفير: هو الصوت

(١) البخاري (٨/ ٣٥٤ - فتح).
(٢) البخاري (٨/ ٤٤٩ - فتح).

الشديد، والشهيق: هو الصوت الضعيف.

{٤٦٨٦} هذا حديث أبي موسى رضي الله عنه وهو مناسب لآية الترجمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هُود: ١٠٢].

- قوله: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ**»، يعني: يمهله استدراجًا.

- قوله: «**حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» فيه: أن الواجب على المسلم الحذر من الظلم، وألا يغتر الظالم بحلم الله وإملائه وتأخيره، فإن العاقبة وخيمة إن استمر على ظلمه.

وقراءته ﷺ للآية فيها الوعيد الشديد للظلمة.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ الآية [هود: ١١٤]

﴿وَزُلَفًا﴾ [هود: ١١٤]: سَاعَاتٍ بَعْدَ سَاعَاتٍ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْمُزْدَلِفَةُ، الزُّلَفُ: مَنْزِلَةٌ بَعْدَ مَنْزِلَةٍ وَأَمَّا ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧]: فَمَصْدَرٌ مِنَ الْقُرْبَى، ٱزْدَلَفُوا: ٱجْتَمَعُوا ﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾ [الشعراء: ٦٤]: جَمَعْنَا.

{٤٦٨٧} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ -هُوَ ابن زُرَيْعٍ- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنِ ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنَ ٱمْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤]. قَالَ الرَّجُلُ: أَلِيَ هٰذِه؟ قَالَ: «لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي».

الشَّرْح

ذكر المؤلف رحمه الله تفسير بعض الكلمات فقال: «﴿وَزُلَفًا﴾: سَاعَاتٍ بَعْدَ سَاعَاتٍ»، يعني: قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾، قال: «وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْمُزْدَلِفَةُ، الزُّلَفُ: مَنْزِلَةٌ بَعْدَ مَنْزِلَةٍ».

- قوله: «وَأَمَّا ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: فَمَصْدَرٌ مِنَ الْقُرْبَى، ٱزْدَلَفُوا: ٱجْتَمَعُوا».
- وقوله: «﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾: جَمَعْنَا».

{٤٦٨٧} في «صحيح مسلم» أن هذا الرجل صلى مع النبي ﷺ فقال: «**صليت معنا**»، أو قال: «**صل معنا**»، وقال: «**إن الله غفر لك**»(١) فهذا الرجل لما أدى الفريضة وفعل الحسنات أذهب الله عنه السيئات، وأنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤]، وفيها أن الله تعالى يكفر الصغائر بأداء الفرائض وذلك

(١) البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤).

مشروط بما إذا اجتنب الإنسان الكبائر، فهذه القبلة من الصغائر وكفرت بهذه الحسنات.

○ قوله: «قَالَ الرَّجُلُ: أَلِيَ هٰذِه؟ قَالَ: «لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي»»، وفي هذا المعنى يقول الله ﷻ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النِّسَاء: ٣١].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر**»[١].

(١) أحمد (٢/ ٤٠٠)، ومسلم (٢٣٣).

١٢- ومن سورة يُوسُفَ عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ فُضَيْلٌ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ الأُتْرُجُّ. قَالَ فُضَيْلٌ: الأُتْرُجُّ بِالْحَبَشِيَّةِ مُتْكًا. وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ عَنْ رَجُلٍ عَنْ مُجَاهِدٍ مُتْكًا كُلُّ شَيْءٍ قُطِعَ بِالسِّكِّينِ. وَقَالَ قَتَادَةُ ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾. عَامِلٌ بِمَا عَلِمَ. وَقَالَ ابن جُبَيْرٍ صُوَاعٌ مَكُّوكُ الفَارِسِيِّ الذِي يَلْتَقِي طَرَفَاهُ، كَانَتْ تَشْرَبُ بِهِ الأَعَاجِمُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تُجَهِّلُونِ. وَقَالَ غَيْرُهُ غَيَابَةٌ كُلُّ شَيءٍ غَيَّبَ عَنْكَ شَيْئًا فَهْوَ غَيَابَةٌ. وَالْجُبُّ الرَّكِيَّةُ التِي لَمْ تُطْوَ. ﴿بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بِمُصَدِّقٍ. ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ فِي النُّقْصَانِ، يُقَالُ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغُوا أَشُدَّهُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاحِدُهَا شَدٌّ، وَالْمُتَّكَأُ مَا ٱتَّكَأْتَ عَلَيْهِ لِشَرَابٍ أَوْ لِحَدِيثٍ أَوْ لِطَعَامٍ. وَأَبْطَلَ الذِي قَالَ الأُتْرُجُّ، وَلَيْسَ فِي كَلَامِ العَرَبِ الأُتْرُجُّ، فَلَمَّا ٱحْتُجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ المُتَّكَأُ مِنْ نَمَارِقَ فَرُّوا إِلَىٰ شَرٍّ مِنْهُ، فَقَالُوا إِنَّمَا هُوَ المُتْكُ سَاكِنَةَ التَّاءِ، وَإِنَّمَا المُتْكُ طَرَفُ البَظْرِ وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لَهَا مَتْكَاءُ وَابْنُ المَتْكَاءِ، فَإِنْ كَانَ ثَمَّ أُتْرُجٌّ فَإِنَّهُ بَعْدَ المُتَّكَإِ. ﴿شَغَفَهَا﴾ يُقَالُ إِلَىٰ شِغَافِهَا وَهْوَ غِلَافُ قَلْبِهَا، وَأَمَّا شَعَفَهَا فَمِنَ المَشْعُوفِ ﴿أَصْبُ﴾ أَمِيلُ. ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ مَا لَا تَأْوِيلَ لَهُ، وَالضِّغْثُ مِلْءُ اليَدِ مِنْ حَشِيشٍ وَمَا أَشْبَهَهُ، وَمِنْهُ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ لَا مِنْ قوله: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ وَاحِدُهَا ضِغْثٌ ﴿وَنَمِيرُ﴾ مِنَ المِيرَةِ ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ مَا يَحْمِلُ بَعِيرٌ. (أَوى إِلَيْهِ) ضَمَّ إِلَيْهِ، السِّقَايَةُ مِكْيَالٌ ﴿تَفْتَؤُاْ﴾ لَا تَزَالُ. ﴿حَرَضًا﴾ مُحْرَضًا، يُذِيبُكَ الهَمُّ. (تَحَسَّسُوا) تَخَبَّرُوا. ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ قَلِيلَةٍ ﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ عَامَّةٌ مُجَلِّلَةٌ.

الشَّرح

فسر المؤلف رحمه الله فقال: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ «وَقَالَ فُضَيْلٌ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ الأُتْرُجُّ. قَالَ فُضَيْلٌ: الأُتْرُجُّ بِالْحَبَشِيَّةِ مُتْكًا» فامرأة العزيز جمعت النسوة وآتت كل واحدة منهن سكينًا وأترنجة، وقالت ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يُوسُف: ٣١]،

فلما خرج يوسف انشغلن بالنظر إليه وبهرهن جماله وصرن يقطعن الأترنج بالسكين فيخطئن ويقطعن أيديهن بدلًا من الأترنج.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ عَنْ رَجُلٍ عَنْ مُجَاهِدٍ «مُتْكًا» كُلُّ شَيْءٍ قُطِعَ بِالسِّكِّينِ».

○ قوله: «وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾: عَامِلٌ بِمَا عَلِمَ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يُوسُف: ٦٨].

○ قوله: «وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ: ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾: مَكُّوكُ الفَارِسِيِّ الذِي يَلْتَقِي طَرَفَاهُ، كَانَتْ تَشْرَبُ بِهِ الأَعَاجِمُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ [يُوسُف: ٧٢] والصواع والمكيال بمعنى واحد.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾: تُجَهِّلُونِ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ [يُوسُف: ٩٤].

○ قوله: «﴿غَيَٰبَتِ﴾: كُلُّ شيء غَيَّبَ عَنْكَ شَيْئًا فَهْوَ غَيَابَةٌ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يُوسُف: ١٠].

○ قوله: «و﴿ٱلْجُبِّ﴾: الرَّكِيَّةُ التِي لَمْ تُطْوَ»، أي: هي البئر التي لم تطو.

○ قوله: «﴿بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾: بِمُصَدِّقٍ»، يعني: في قوله تعالى عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: ١٧].

○ قوله: «﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾: قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ فِي النُّقْصَانِ، يُقَالُ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغُوا أَشُدَّهُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَاحِدُهَا شَدٌّ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ [يُوسُف: ٢٢].

شرح بعد ذلك معنى ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ - ولم يجعل الكلام في موضع واحد - فقال: «وَالْمُتَّكَأُ مَا ٱتَّكَأْتَ عَلَيْهِ لِشَرَابٍ أَوْ لِحَدِيثٍ أَوْ لِطَعَامٍ»، فصار «المتكأ» يطلق على الأترنج ويطلق على ما اتكأت عليه لشراب أو لحديث أو لطعام.

○ قوله: «وَأَبْطَلَ الذِي قَالَ الأُتْرُجُّ»، يعني: من قال: إن المتكأ هو ما اتكأت عليه لشراب أو لحديث أو لطعام أبطل قول من قال إن: المتكأ هو الأترنج.

قال: «وَلَيْسَ فِي كَلَامِ العَرَبِ الأُتْرُجُّ، فَلَمَّا ٱحْتُجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ المُتَّكَأُ مِنْ نَمَارِقَ»، وفي بعض النسخ: «**فلما احتج عليهم بأنه المتكأ من نمارق**»[١] قال: «فروا إلى شر منه وقالوا: إنما هو المتك - ساكنة التاء - وإنما المتك طرف البظر»، والبظر: هو الذي في فرج المرأة، والمتك أيضًا: طرف الذكر.

قال: «وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لَهَا مَتْكَاءُ وَابْنُ المَتْكَاءِ، فَإِنْ كَانَ ثَمَّ أُتْرُجٌّ فَإِنَّهُ بَعْدَ المُتَّكَإِ» يعني: أنه يفرق بينهما، فالمتكأ: هو كل شيء يقطع بالسكين كالأترنج وغيره، وأما «المتك» فهو البظر أو طرف الفرج.

○ قوله: «﴿شَغَفَهَا﴾ يُقَالُ: إِلَىٰ شِغَافِهَا وَهْوَ غِلَافُ قَلْبِهَا وفي بعض النسخ: «يقال: بلغ إلى شغافها».

قال: «وَأَمَّا شَعَفَهَا»: بالعين المهملة «فَمِنَ المَشْعُوفِ».

○ قوله: «﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِيلُ»، أي: حبًّا.

○ قوله: «﴿أَضْغَٰثُ﴾: مَا لَا تَأْوِيلَ لَهُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يُوسُف: ٤٤] فالمعنى أنها لا تؤول.

○ قوله: «وَالضِّغْثُ مِلْءُ اليَدِ مِنْ حَشِيشٍ وَمَا أَشْبَهَهُ، وَمِنْهُ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [صٓ: ٤٤] ثم قال: «لَا مِنْ قوله: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾»، أي: إن الضغث يختلف عن الأضغاث، فأضغاث الأحلام: هي ما لا تأويل لها من الرؤى، والضغث: هو ما يأخذه الإنسان بيده، وهو: الشمراخ، فأيوب عليه السلام أخذ عذقًا فيه مائة شمراخ، وضرب به امرأته لما أقسم أن يجلدها؛ حتى لا يحنث في يمينه.

○ قوله: «﴿وَنَمِيرُ﴾: مِنَ المِيرَةِ» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ٦٥﴾ [يُوسُف: ٦٥].

○ قوله: «﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: مَا يَحْمِلُ بَعِيرٌ».

(١) البخاري (٨/ ٤٥٤ - فتح).

○ قوله: «﴿أَوى إِلَيْهِ﴾: ضَمَّ إِلَيْهِ» قال: «﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: مِكْيَالٌ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يُوسُف: ٧٠].

○ قوله: «﴿تَفْتَؤُاْ﴾: لَا تَزَالُ» يعني: في قوله تعالى: ﴿تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٨٥].

○ قوله: «﴿تَحَسَّسُوا﴾: تَخَبَّرُوا»، يعني: في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٨٧].

○ قوله: «﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: عَامَّةٌ مُجَلِّلَةٌ».

○ قوله: «﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾: قَلِيلَةٍ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يُوسُف: ٨٨].

○ قوله: «﴿حَرَضًا﴾: مُحْرَضًا، يُذِيبُكَ الهَمُّ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يُوسُف: ٨٥].

○ قوله: «﴿ٱسْتَيْـَٔسُواْ﴾: يئسوا من اليأس».

○ قوله: «﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ معناه: الرجاء».

○ قوله: «﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾: اعترفوا نجيًا، والجميع: أنجية، يتناجون، الواحد نجي، والاثنان والجميع: نجي وأنجية» في بعض النسخ: «**اعتزلوا نجيًا**»[١].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن رواية: «**اعتزلوا**»: «ثبت هذا لأبي ذر عن المُسْتَمْلي والكُشْميهني، ووقع في رواية المستملي: «**اعترفوا**» بدل «**اعتزلوا**»، والصواب: الأول».

---

(١) البخاري (٨/ ٤٥٨ - فتح).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾
الآية [يوسف: ٦]

{٤٦٨٨} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَرِيمُ بْنُ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ».

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾.

ومعنى: «﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾» أي: بالنبوة والرسالة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الجمع بين قول يعقوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يُوسُف: ٦] وبين قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يُوسُف: ١٣] غموض؛ لأنه جزم بالاجتباء، وظاهره فيما يستقبل فكيف يخاف عليه أن يهلك قبل ذلك؟ وأجيب بأجوبة:

أحدها: لا يلزم من جواز أكل الذئب له أكل جميعه بحيث يموت.

ثانيها: أراد بذلك دفع إخوته عن التوجه به فخاطبهم بما جرت عادتهم لا على ما هو في معتقده.

ثالثها: أن قوله: ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ لفظه لفظ خبر ومعناه: الدعاء، كما يقال: فلان يرحمه الله، فلا ينافي وقوع هلاكه قبل ذلك.

رابعها: أن الاجتباء الذي ذكر يعقوب أنه سيحصل له كان حصل قبل أن يسأل إخوته أباهم أن يوجهه معهم؛ بدليل قوله بعد أن ألقوه في الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَآ

إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: ١٥] ولا بُعْد في أن يُؤتَىٰ النبوة في ذلك السن؛ فقد قال في قصة يحيى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢]، ولا اختصاص لذلك بيحيى فقد قال عيسى - وهو في المهد -: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠] وإذا حصل الاجتباء الموعود به لم يمتنع عليه الهلاك».

قلت: وهذا ليس بشيء؛ فالنبوة إنما أعطيها بعد البلوغ كما نص القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [يوسف: ٢٢] فهذا بعد بلوغ الأشد، لا أنه أوتي النبوة لما ألقي في الجب في تلك السن وهو صبي صغير.

ثم قال ﷺ: «**خامسها**: أن يعقوب أخبر بالاجتباء مستندًا إلى ما أوحي إليه به، والخبر يجوز أن يدخله النسخ عند قوم فيكون هذا من أمثلته، وإنما قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣] تجويزًا لا وقوعًا، وقريب منه أنه ﷺ أخبرنا بأشياء من علامات الساعة: كالدجال ونزول عيسى وطلوع الشمس من المغرب[1]، ومع ذلك فإنه خرج لما كسفت الشمس فزعاً؛ يخشى أن تكون الساعة[2]» وعلى كل حال هذه كلها أجوبة محتملة.

{٤٦٨٨} ذكر حديث ابن عمر: «**الْكَرِيمُ بْنُ الكَرِيمِ بْنِ الكَرِيمِ بْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ**»، هذا في النسب.

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وهو دال على فضيلة خاصة وقعت ليوسف ﵇ لم يشركه فيها أحد».

فيوسف ﵇ «**الْكَرِيمُ بْنُ الكَرِيمِ بْنِ الكَرِيمِ بْنِ الكَرِيمِ**»؛ لأنه نبي وأبوه يعقوب نبيّ وجده إسحاق نبي وجده إبراهيم الأعلى نبي؛ فهم أربعة أنبياء في نسق واحد.

---

(١) أحمد (٤/ ٦)، ومسلم (٢٩٠١).
(٢) أحمد (٥/ ٣٧)، والبخاري (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧]

{٤٦٨٩} حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هٰذا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ، نَبِيُّ اللهِ ابن نَبِيِّ اللهِ ابن نَبِيِّ اللهِ ابن خَلِيلِ اللهِ». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هٰذا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا». تَابَعَهُ أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ.

الشَّرْح

{٤٦٨٩} هذا الحديث فيه: أن النبي ﷺ سئل: «أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ»» وهذا موافق للآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحُجرَات: ١٣] فأكرم الناس بالتقوى لا بالحسب والنسب.

○ قوله: «قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هٰذا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ»» يعني: من جهة النسب، فليس على إطلاقه وإلا فأبوه إبراهيم أكرم منه، وأكرم منهما نبينا محمد ﷺ، فلا يلزم من ذلك أن يكون يوسف ﷺ أفضل من غيره مطلقًا.

لكن كيف يقول ﷺ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ» مع أنه ﷺ أكرم منه؟ يجاب عن ذلك بأحد جوابين:

الجواب الأول: أن يوسف أكرم الناس في زمانه كما فضل الله بني إسرائيل على من سواهم في زمنهم؛ فقال سبحانه عنهم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ [البَقَرَة: ٤٧] يعني: على عالمي زمانهم، وليسوا أفضل من هذه الأمة.

الجواب الثاني: أن النبي ﷺ قال هذا أولًا قبل أن يعلمه الله أنه هو وأبوه إبراهيم أكرم من يوسف عليه السلام.

○ قوله: «"**فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟**". **قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ**: "**فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**"» يعني: أصولهم وقبائلهم، فقد كان عندهم في الجاهلية صفات حميدة؛ من: النجدة، والشهامة، والشجاعة، والكرم، ونصر المظلوم، والإحسان، وبذل المعروف، فلما دخلوا في الإسلام زادت هذه الصفات وتقوت.

○ وقوله: «**فَقِهُوا**»: بضم القاف وكسرها.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]

﴿سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنَتْ.

{٤٦٩٠} حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ. قَالَ: وَحَدَّثَنَا الحَجَّاجُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ النُّمَيْرِيُّ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ الأَيْلِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ سَمِعْتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ المُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ- حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللهُ، كُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ». قُلْتُ: إِنِّي والله لَا أَجِدُ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وَأَنْزَلَ اللهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ﴾ [النور: ١١] العَشْرَ الآيَاتِ.

{٤٦٩١} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَسْرُوقُ بْنُ الأَجْدَعِ قَالَ حَدَّثَتْنِي أُمُّ رُومَانَ -وَهْيَ أُمُّ عَائِشَةَ- قَالَتْ بَيْنَا أَنَا وَعَائِشَةُ أَخَذَتْهَا الحُمَّىٰ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَلَّ فِي حَدِيثٍ تُحُدِّثَ». قَالَتْ: نَعَمْ وَقَعَدَتْ عَائِشَةُ قَالَتْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

الشَّرح

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال أبو عبيدة في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾، أي: زينت وحسنت».

{٤٦٩٠} هذا الحديث - حديث الإفك - أتى به المصنف رحمه الله على الآية التي ترجم بها؛ لأن عائشة رضي الله عنها استشهدت بالآية في قصة الإفك، ثم برأها الله.

○ قوله: «إِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ»، فيه: دليل على أن من وقع في الزلل والخطأ عليه أن يبادر بالتوبة.

وفيه: دليل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، فلو كان يعلم الغيب ما جلس مدة شهر، وكان الناس يخوضون في الإفك ولا يعلم ويقول لعائشة: «إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ»، فلو كان يعلم الغيب لعلم أنها بريئة، فالحديث يرد على من قال: إن الرسول ﷺ يعلم الغيب.

○ قولها: «إِنِّي واللهِ لَا أَجِدُ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ»، وفي لفظ آخر أنها قالت: «**والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه**»[(١)] فهي تريد أن تقول: يعقوب، فغاب عنها اسمه، فلعلها في وقت قدرت، وفي وقت لم تقدر، ثم ذكرت الآية: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يُوسُف: ١٨]، ولو كانت آية: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] نزلت قبل ذلك لقالتها، ولو نزلت على يعقوب لقالها، ولكن جعلها الله من خصائص هذه الأمة؛ فهي أحسن من: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

فنزلت الآيات في براءتها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النُّور: ١١].

❖ ❖ ❖

{٤٦٩١} في هذا الحديث: أن عائشة رضي الله عنها «أَخَذَتْهَا الحُمَّىٰ»، فلما رجعت من السفر سمعت الناس يتكلمون وكانت قد نقهت؛ أي: برئت، فعادت إليها الحمى من جديد، وفي الحديث الآخر: «**فأصابتها حمى بنافض**»[(٢)] فصارت تنفضها؛ لأنها رضي الله عنها مظلومة، فسأل النبي ﷺ عنها فقيل: تنفضها الحمى. فقال: «لَعَلَّ فِي حَدِيثٍ تُحُدِّثَ؟» يعني: لعل سبب الحمى الحديث الذي تحدث؟ وهو حديث الإفك.

---

(١) علقه البخاري (٤٧٥٧)، ووصله الترمذي (٣١٨٠).
(٢) أحمد (٦/ ٣٦٧)، والبخاري (٤١٤٣).

«قَالَتْ: نَعَمْ»، أي: هو بسببه.

❍ قولها: «وَقَعَدَتْ عَائِشَةُ قَالَتْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ»، أي: قال لبنيه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: ٢٣]

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: ٢٣] بِالْحَوْرَانِيَّةِ هَلُمَّ. وَقَالَ ابن جُبَيْرٍ: تَعَالَهْ.

{٤٦٩٢} حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: هَيْتَ لَكَ قَالَ وَإِنَّمَا نَقْرَؤُهَا كَمَا عُلِّمْنَاهَا ﴿مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]: مُقَامُهُ ﴿وَأَلۡفَيَا﴾ [يوسف: ٢٥]: وَجَدَا ﴿أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ [الصافات: ٦٩] ﴿أَلۡفَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] وَعَنِ ابن مَسْعُودٍ: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾ [الصافات: ١٢].

{٤٦٩٣} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﵁، أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا أَبْطَئُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِالإِسْلَامِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ» فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ حَتَّىٰ جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِثْلَ الدُّخَانِ، قَالَ اللهُ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [الدخان: ١٠] قَالَ اللهُ ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾ [الدخان: ١٥] أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ وَقَدْ مَضَى الدُّخَانُ وَمَضَتِ البَطْشَةُ.

الشَّرح

هذا الباب على هذه الآية: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يُوسُف: ٢٣].

○ قوله: «﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾» أي: امرأة العزيز، والضمير عائد إلى يوسف، يعني دعته إلى نفسها.

○ قوله: «﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾»: أغلقت الأبواب حتى لا يأتي أحد.

○ قوله: «﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾»، يعني: تعال.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يُوسُف: ٢٤] أي: فلولا فضل الله لمال إليها؛ فهو رجل شاب في قوة شبابه والمرأة أيضًا تدعوه إلى نفسها، وتغلق الأبواب ليكون آمنا، وذكر العلماء أن زوجها ليس عنده القوة، فهي قوية الشخصية ومسيطرة عليه ولا تخشى منه، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يُوسُف: ٢٣] قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يُوسُف: ٢٤] وهذا يدل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام نجاه الله وسلمه من هذه المحنة، فرغم قوة الدواعي عصمه الله.

○ قوله: «﴿مَثۡوَىٰهُ﴾» فسرها فقال: «مُقَامُهُ».

○ قوله: «﴿وَأَلۡفَيَا﴾: وَجَدَا. ﴿أَلۡفَوۡاْ﴾ و﴿أَلۡفَيۡنَا﴾»، يعني: قوله تعالى: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يُوسُف: ٢٥]، معناه: وجدا، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩﴾ [الصَّافات: ٦٩] يعني: وجدوا آباهم ضالين.

○ قوله: «قال عكرمة: ﴿هَيۡتَ﴾ بالحورانية: هلم. وقال ابن جبير: تعاله» فسر كلمة: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يُوسُف: ٢٣] بهلم وتعال.

{٤٦٩٢} قوله: «هِيت لك» ثم قال: «وَإِنَّمَا نَقْرَؤُهَا كَمَا عُلِّمْنَاهَا».

○ قوله: «وعن ابن مسعود قال: «بل عَجِبتُ ويَسْخَرُونَ»» هذه الآية في سورة الصافات ومناسبة مجيء البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية هنا كما قال الكرماني أن ابن مسعود يقرأ: «بل عَجِبْتُ» بضم التاء كما كان يقرأ: «هيتُ لَكَ» بضم التاء، أما في قراءة حفص: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾ [الصَّافات: ١٢]، فيكون الخطاب للنبي ﷺ والعجب من النبي ﷺ؛ وفي القراءة الأخرى يكون الضمير لله وفيه إثبات صفة العجب لله.

وأنكر شُرَيْح قراءة الضم في: «عَجِبْتُ» وعلل ذلك بأن الله لا يعجب، إنما يعجب من لا يعلم وهذا غلط منه؛ لأن الله يعجب عجب العالم، وقد ورد أن الله

يعجب في أحاديث منها حديث: «**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**»[(١)] وحديث: «**يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة**»[(٢)] والعجب وصف يليق بالله ﷻ كسائر صفاته لا يُكَيَّف، ولا يلزم أن يكون عجبه كعجب المخلوق؛ لأن المخلوق يعجب لكونه جاهلًا، أما الله فلا يشبه عجبه عجب المخلوق، بل هو عجب يليق به.

❖ ❖ ❖

{٤٦٩٣} قوله: «**أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا أَبْطَئُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِالإِسْلَامِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**» سبع يوسف هي ما أخبر الله من رؤية الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف فعبرها يوسف ﵇ فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، يعني: خصبًا ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ جدب ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: ٤٧- ٤٨]، فالنبي ﷺ دعا عليهم.

○ قوله: «**فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ**» يعني: من شدة الجوع.

○ قوله: «**حَتَّىٰ جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِثْلَ الدُّخَانِ**» فيسقط من شدة الجوع.

○ قوله: «**قال الله ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدّخان: ١٠]**» فسر ابن مسعود الدخان بهذا الذي حدث لقريش من الجدب الذي أصابهم.

○ قوله: «**قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدّخان: ١٥] أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!**» أخبر الله ﷻ أنه سيكشف العذاب ولو كان عذاب يوم القيامة فلا يكشف؛ فهذا دليل على أنه عذاب في الدنيا ولهذا أخبر أنه يكشف.

---

(١) أحمد (٢/ ٣٠٢)، والبخاري (٣٠١٠).
(٢) أحمد في «المسند» (٤/ ١٥١).

- قوله: «وَقَدْ مَضَى الدُّخَانُ»، أي: الذي رأته قريش من شدة الجوع.
- قوله: «وَمَضَتِ البَطْشَةُ»، يعني: يوم بدر؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدّخان: ١٦]، حيث أصابتهم الهزيمة والنكسة.

وهذا هو الذي ذهب إليه ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة من أن الدخان مضى، والصواب أنهما دخانان: دخان مضى وهو: الجدب الذي أصابهم، والدخان الثاني يكون في آخر الزمان، وهو: أحد أشراط الساعة الكبرى وهو دخان يملأ ما بين السماء والأرض يصيب المؤمن منه كهيئة الزكام ويؤذي الكافر حتى يدخل في أذنيه ومنخريه وفمه، وابن مسعود أنكر على قاص يتكلم ويقول: إن الدخان سيأتي، وهذا على حسب علمه رضي الله عنه.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ الآية [يوسف: ٤٩]

وَحَاشَ، وَحَاشَىٰ: تَنْزِيهٌ وَاسْتِثْنَاءٌ ﴿حَصْحَصَ﴾ [يوسف: ٥١]: وَضَحَ.

{٤٦٩٤} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ تَلِيدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ القَاسِمِ، عَنْ بَكْرِ بْنِ مُضَرَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الحَارِثِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ، وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَهُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾».

الشَّرْح

○ قوله: «باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾» هذه الآية فيها: أن يوسف عليه السلام لما سجن ولبث في السجن بضع سنين وجاءه الرسول من قبل الملك يقول له: اخرج من السجن، امتنع يوسف من الخروج حتى تحصل براءته فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يُوسُف: ٥٠]. فرجع إلى النسوة فسألهن ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أي: ما شأنكن؟ فاعترفن بأنه بريء؛ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾: تنزيه واستثناء ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، فظهرت براءة يوسف عليه السلام ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: بان ووضح ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يُوسُف: ٥١-٥٢] فلما ظهرت براءته خرج من السجن.

{٤٦٩٤} قوله: «يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ»، في قوله

عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاءه الأضياف - وهم الملائكة - وجاءه قومه يريدونهم صار يدافعهم، فقال الله على لسانه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هُود: ٨٠]. ومراد لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بالركن الشديد: من البشر، ومراد النبي ﷺ بالركن الشديد الله ﷻ.

○ قوله: «وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ» وهذا تواضع من نبينا ﷺ؛ أما يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: لا أخرج حتى تظهر براءتي، وهذا فيه بيان فضل يوسف وصبره عَلَيْهِ السَّلَامُ.

○ قوله: «وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» قد تقدم الحديث في سورة البقرة وفي أحاديث الأنبياء، والمقصود: أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠] وهذا من باب التواضع واعتراف بالحق لأهله وإلا فنبينا ﷺ أفضل من يوسف وأفضل من أبيه إبراهيم، وجعل النبي ﷺ الدرجة ما بين الخبر والمشاهدة شكًّا، وهي الدرجة التي بين علم اليقين الحاصل بخبر الله، وبين عين اليقين الحاصل بالمشاهدة، وقد شهد إبراهيم موت الطيور وإحياءها فحصل له عين اليقين، فجعل النبي ﷺ الدرجة التي بين علم اليقين وعين اليقين جعلها شكًّا وسماها شكًّا.

بَابُ قَوْلِهِ تعالىٰ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية [يوسف: ١١٠]

{٤٦٩٥} حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠] قَالَ: قُلْتُ: أَكُذِبُوا أَمْ كُذِّبُوا؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: كُذِّبُوا. قُلْتُ: فَقَدِ ٱسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ. قَالَتْ: أَجَلْ لَعَمْرِي لَقَدِ ٱسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ. فَقُلْتُ لَهَا: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا. قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا. قُلْتُ: فَمَا هٰذِهِ الآيَةُ؟ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ البَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ حَتَّى ٱسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ عِنْدَ ذَلِكَ.

{٤٦٩٦} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ فَقُلْتُ لَعَلَّهَا ﴿كُذِبُوا﴾ [يوسف: ١١٠] مُخَفَّفَةً. قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ.

الشَّرْح

{٤٦٩٥}، {٤٦٩٦} قوله: «قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللهِ عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟»، هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠] فيها قراءتان: قراءة: ﴿قَدْ كُذِبُواْ﴾ بالتخفيف، وقراءة: ﴿قد كُذِّبوا﴾ بالتشديد.

○ قوله: «قَالَتْ عَائِشَةُ: كُذِّبُوا»؛ أنكرت عائشة رضي الله عنها إحدى القراءتين، وهذا محمول على أنها لم تبلغها.

○ قوله: «فَقَدِ ٱسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ»، لما قالت عائشة رضي الله عنها لعروة: إن القراءة بالتثقيل. استشكل الظن وقال: ما معنى الظن

في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ [يُوسُف: ١١٠]؟ ولِمَ لَمْ يأت اليقين؟

○ قولها: «أَجَلْ لَعَمْرِي لَقَدِ ٱسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ» «لعمري» تأكيد للكلام وليست قسمًا، وجاءت هذه الكلمة في بعض الآثار[1]، وترد على ألسنة بعض أهل العلم كابن القيم أحيانًا يقول في كتبه: لعمري، و«أَجَلْ» كلمة جواب.

○ قوله: «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا. قَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ»، هذا قول عروة، وهو فقيه يناقش خالته.

○ قولها: «لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا» الرسل لا يظنون ذلك الظن بربهم.

○ قوله: «قُلْتُ: فَمَا هٰذِه الآيَةُ؟» يعني: ما معناها؟

○ قولها: «هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ البَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ حَتَّى ٱسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ»، يعني: تقول عائشة ﵂: إن الرسل عليهم الصلاة والسلام صدقهم قوم وكذبهم قوم فلما طال على الذين آمنوا بهم البلاء واستأخر عنهم النصر ظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم بسبب طول البلاء وتأخر النصر؛ وهذا على قراءة التشديد، ولكن الآية فيها قراءة أخرى بالتخفيف أنكرتها عائشة ﵂ وهي ثابتة.

وظاهر السياق: أن الآية تتحدث عن الرسل لا عن أتباعهم، ولكن المراد أنهم كذبوا من قبل أنفسهم لا من قبل الله؛ أي: غلطوا، وفاعل «ظنوا» الرسل، وقراءة التخفيف ثابتة لكنها لم تبلغ عائشة ﵂.

(١) أحمد (١/ ٣١٢)، والبخاري (١٦١٨)، ومسلم (١٢٧٧) وغيرهم.

١٣- ومن سورة الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ مَثَلُ المُشْرِكِ الذِي عَبَدَ مَعَ اللهِ إِلَهًا غَيْرَهُ كَمَثَلِ العَطْشَانِ الذِي يَنْظُرُ إِلَىٰ خَيَالِهِ فِي المَاءِ مِنْ بَعِيدٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ وَلَا يَقْدِرُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿سَخَّرَ﴾ ذَلَّلَ. ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ مُتَدَانِيَاتٌ. ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ وَاحِدُهَا مَثُلَةٌ وَهِيَ الأَشْبَاهُ وَالأَمْثَالُ، وَقَالَ: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾. ﴿بِمِقۡدَارٍ﴾ بِقَدَرٍ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ مَلَائِكَةٌ حَفَظَةٌ تُعَقِّبُ الأُولَىٰ مِنْهَا الأُخْرَىٰ، وَمِنْهُ قِيلَ العَقِيبُ. يُقَالُ عَقَّبْتُ فِي إِثْرِهِ، المِحَالُ العُقُوبَةُ. ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ لِيَقْبِضَ عَلَى المَاءِ. ﴿رَّابِيٗاۖ﴾ مِنْ رَبَا يَرْبُو. ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ﴾ المَتَاعُ مَا تَمَتَّعْتَ بِهِ. ﴿جُفَآءٗۖ﴾ أَجْفَأَتِ القِدْرُ إِذَا غَلَتْ فَعَلَاهَا الزَّبَدُ، ثُمَّ تَسْكُنُ فَيَذْهَبُ الزَّبَدُ بِلَا مَنْفَعَةٍ، فَكَذَلِكَ يُمَيِّزُ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ. ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ الفِرَاشُ. (يَدْرَءُونَ) يَدْفَعُونَ دَرَأْتُهُ دَفَعْتُهُ. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۖ﴾ أَيْ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ تَوْبَتِي. ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ لَمْ يَتَبَيَّنْ. ﴿قَارِعَةٌ﴾ دَاهِيَةٌ ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾ أَطَلْتُ مِنَ المَلِيِّ وَالمُلَاوَةُ وَمِنْهُ مَلِيًّا، وَيُقَالُ لِلْوَاسِعِ الطَّوِيلِ مِنَ الأَرْضِ مَلًى مِنَ الأَرْضِ ﴿أَشَقُّۖ﴾ أَشَدُّ مِنَ المَشَقَّةِ ﴿مُعَقِّبَ﴾ مُغَيِّرٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ طَيِّبُهَا، وَخَبِيثُهَا السِّبَاخُ، ﴿صِنۡوَانٌ﴾ النَّخْلَتَانِ أَوْ أَكْثَرُ فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ ﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ﴾ وَحْدَهَا ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ كَصَالِحِ بَنِي آدَمَ وَخَبِيثِهِمْ أَبُوهُمْ وَاحِدٌ، ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ الذِي فِيهِ المَاءُ ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ يَدْعُو المَاءَ بِلِسَانِهِ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ فَلَا يَأْتِيهِ أَبَدًا، سَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا: تَمْلأُ بَطْنَ وَادٍ، ﴿زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ زَبَدُ السَّيْلِ خَبَثُ الحَدِيدِ وَالحِلْيَةِ.

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ مَثَلُ المُشْرِكِ الذِي عَبَدَ مَعَ اللهِ إِلَهًا غَيْرَهُ كَمَثَلِ العَطْشَانِ الذِي يَنْظُرُ إِلَىٰ خَيَالِهِ فِي المَاءِ مِنْ بَعِيدٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ وَلَا يَقْدِرُ» هذه الآية في سورة الرعد، قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ

﴿يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم المشركون؛ يدعون الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ وضرب الله لهم مثلًا فقال: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ [الرّعد: ١٣-١٤] فكما أن العطشان الذي ينظر إلى ظل خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله ولا يقدر فكذلك الذي يدعو الأصنام والأوثان لا يستجيبون لهم، وهذا مثل ضربه الله للمشرك.

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ مُتَدَانِيَاتٌ».

وجاء في «الصحيح» في غير رواية أبي ذر: وقال غيره: ﴿وَسَخَّرَ﴾ [الرّعد: ٢] قال: «ذلل».

○ قوله: «وقال غيره: ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾» قال: «وَاحِدُهَا مَثُلَةٌ وَهِيَ الأَشْبَاهُ وَالأَمْثَالُ».

○ قوله: «وقال: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾».

○ قوله: ﴿بِمِقۡدَارٍ﴾ فسر قال: «بقدر».

○ قوله: «يقال: ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾» قال: «مَلَائِكَةٌ حَفَظَةٌ تُعَقِّبُ الأُولَىٰ مِنْهَا الأُخْرَىٰ»، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، «وَمِنْهُ قِيلَ: العَقِيبُ. يُقَالُ: عَقَّبْتُ فِي إِثْرِهِ».

○ قوله: «﴿ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾» قال: «العُقُوبَةُ».

○ قوله: «﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾» قال: «لِيَقْبِضَ عَلَى المَاءِ».

○ قوله: «﴿زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾» قال: «مِنْ رَبَا يَرْبُو».

○ قوله: «﴿أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾» قال: «المَتَاعُ: مَا تَمَتَّعْتَ بِهِ».

○ قوله: «﴿جُفَآءٗۖ﴾»، يعني في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرّعد: ١٧]. قال: «أَجْفَأَتِ القِدْرُ إِذَا غَلَتْ فَعَلَاهَا الزَّبَدُ، ثُمَّ تَسْكُنُ فَيَذْهَبُ الزَّبَدُ بِلَا مَنْفَعَةٍ، فَكَذَلِكَ يُمَيِّزُ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ».

وجاء في الصحيح في غير رواية أبي ذر: ﴿ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ [الرّعد: ١٨] قال: «الفِرَاشُ».

○ قوله: «﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾»، قال: «يَدْفَعُونَ دَرَأْتُهُ دَفَعْتُهُ».

○ قوله: «﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾»، «أي: يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» وهم الملائكة تقول: سلام عليكم.

○ قوله: «والمتاب: إليه توبتي»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرّعد: ٣٠].

○ قوله: «﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾»، قال: «أفلم يتبين» يعني: في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ [الرّعد: ٣١].

○ قوله: «﴿قَارِعَةٌ﴾»، قال: «دَاهِيَةٌ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ [الرّعد: ٣١].

○ قوله: «﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾»، قال: «أَطَلْتُ مِنَ المَلِيِّ وَالْمُلَاوَةُ، وَمِنْهُ: ﴿مَلِيّٗا ٤٦﴾، وَيُقَالُ لِلْوَاسِعِ الطَّوِيلِ مِنَ الأَرْضِ: مَلًى مِنَ الأَرْضِ».

○ قوله: «﴿أَشَقُّۖ﴾»، قال: «أَشَدُّ، مِنَ المَشَقَّةِ».

○ قوله: «﴿مُعَقِّبَ﴾»، قال: «مُغَيِّرٌ».

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ طَيِّبُهَا وَخَبِيثُهَا السِّبَاخُ»، كذا نقلها عنه.

○ قوله: «﴿صِنۡوَانٞ﴾»، قال: «النَّخْلَتَانِ أَوْ أَكْثَرُ فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ».

○ قوله: «﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾»، قال: «وَحْدَهَا».

○ قوله: «﴿بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾»، ومع ذلك يتغير طعمه ولونه! قال: «كَصَالِحِ بَنِي آدَمَ وَخَبِيثِهِمْ؛ أَبُوهُمْ وَاحِدٌ».

○ قوله: «﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾»، قال: «الَّذِي فِيهِ المَاءُ».

○ قوله: «﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾»، قال: «يَدْعُو المَاءَ بِلِسَانِهِ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ فَلَا يَأْتِيهِ أَبَدًا» أعاده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ مرة ثانية.

○ قوله: «﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾»، قال: «تملأ بطن كل واد».

○ قوله: «﴿زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾»، قال: «الزبد زبد السيل».

○ قوله: «﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾»، قال: «خَبَثُ الحَدِيدِ وَالْحِلْيَةِ».

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾

[الرعد: ٨]

﴿وَغِيضَ﴾ [هود: ٤٤]: نُقِصَ.

{٤٦٩٧} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ».

الشَّرْح

○ قوله: «**باب قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾**»

قال: «﴿وَغِيضَ﴾: **نُقِصَ**».

{٤٦٩٧} قوله: «**مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ**» ترجم المؤلف رحمه الله على هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرّعد: ٨]، إشارة إلى أن هذا أحد مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله، فلا يعلم ما في غد، ولا يعلم ما تغيض الأرحام - أي: ما تنقص - ولا يعلم ما في الأرحام أذكر أم أنثى - إلا الله سبحانه، وهذا قبل أن يخلق، وقبل أن يعلم المَلَك؛ فهذه الخمس: مفاتيح الغيب.

١٤- ومن سورة إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: (هَادٍ) [الرعد: ٧] دَاعٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: صَدِيدٌ قَيْحٌ وَدَمٌ. وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أَيَادِيَ اللهِ عِنْدَكُمْ وَأَيَّامَهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ رَغِبْتُمْ إِلَيْهِ فِيهِ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يَلْتَمِسُونَ لَهَا عِوَجًا ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أَعْلَمَكُمْ آذَنَكُمْ ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ هٰذا مَثَلٌ كَفُّوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ ﴿مَقَامِى﴾ حَيْثُ يُقِيمُهُ اللهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ قُدَّامِهِ. ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ وَاحِدُهَا تَابِعٌ مِثْلُ غَيَبٍ وَغَائِبٍ ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ٱسْتَصْرَخَنِي ٱسْتَغَاثَنِي يَسْتَصْرِخُهُ مِنَ الصُّرَاخِ ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ مَصْدَرُ خَالَلْتُهُ خِلَالًا، وَيَجُوزُ أَيْضًا جَمْعُ خُلَّةٍ وَخِلَالٍ ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ ٱسْتُؤْصِلَتْ.

الشَّرْح

○ قوله: «قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿هَادٍ﴾، قال: «دَاعٍ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرّعد: ٧].

وجاء في «الصحيح» - في غير رواية أبي ذر - قال: «وقال مجاهد: صديد: قيح ودم»، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾ [إبراهيم: ١٦].

○ قوله: «وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾»، قال: «أَيَادِيَ اللهِ عِنْدَكُمْ وَأَيَّامَهُ».

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾»، قال: «رَغِبْتُمْ إِلَيْهِ فِيهِ».

○ قوله: «﴿وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾» يعني: في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾ [إبراهيم: ٣١] قال: «مَصْدَرُ خَالَلْتُهُ خِلَالًا، وَيَجُوزُ أَيْضًا جَمْعُ خُلَّةٍ وَخِلَالٍ».

○ قوله: «﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾»، قال: «أعلمكم ربكم».

○ قوله: «﴿أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، قال: «هذا مثل كفوا عما أمروا به، والمراد الأمم التي كذبت رسلها.

○ قوله: «﴿مَقَامِي﴾» قال: «حَيْثُ يُقِيمُهُ اللهُ بَيْنَ يَدَيْهِ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: ١٤].

○ قوله: «﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾» قال: «قدامه جهنم».

○ قوله: «﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾» قال: «وَاحِدُهَا تَابِعٌ، مِثْلُ: غَيَبٍ وَغَائِبٍ».

وجاء في «الصحيح» - في غير رواية أبي ذر - قول الله عن الشيطان: ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] قال: «ٱسْتَصْرَخَنِي: ٱسْتَغَاثَنِي».

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القَصَص: ١٨]: من الصراخ.

○ قوله: «﴿ٱجْتُثَّتْ﴾» قال: «ٱسْتُؤْصِلَتْ».

○ قوله: «﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾» قال: «تلتمسون لها عوجًا».

بَابٌ قوله:

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]

{٤٦٩٨} حَدَّثَنِي عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ أَبِي أُسَامَةَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ ﵄ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا وَلَا وَلَا وَلَا، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ». قَالَ ابن عُمَرَ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ». فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ والله لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ. فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا. قَالَ عُمَرُ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا.

الشَّرْح

{٤٦٩٨} قوله: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا» هذا الحديث على هذه الآية: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]

وفيه: أن النبي ﷺ ألقى على الصحابة سؤالًا.

وفيه: استحباب إلقاء العالم المسألة على أصحابه؛ ليختبر ما عندهم من العلم مثل قوله ﷺ: «**أتدرون ماذا قال ربكم الليلة**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»(١).

○ قوله: «تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ»، وذلك لأن كل ما فيها مفيد وطيب، وكل شيء ينتفع به ولا يرمى شيء منها، فالعسيب يجعل منه الخشب، والخوص هناك

(١) أحمد (٤/١١٧)، والبخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

من يعمل منها الزنبيل وأشباهها، والليف والشوك كذلك، ثم بعد ذلك التمر والرطب والبسر، ولا تيبس لا صيفًا ولا شتاء ولا ربيعًا ولا خريفًا.

وفي رواية: «**فوقع الناس في شجر البوادي**»[(١)] يعني: ذهبوا بأذهانهم بعيدًا إلى شجر البوادي.

❍ قوله: «قَالَ ابن عُمَرَ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ» وفي اللفظ الآخر قال: «**فاستحييت**»[(٢)].

❍ قوله: «فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»»، كما وقع في قلب ابن عمر رضي الله عنهما.

❍ قوله: «فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ واللهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ. فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا. قَالَ عُمَرُ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا» فيه: أن الصغير عند البحث لا يستصغر نفسه، بل يتكلم بما عنده، فقد يفطن لما لا يفطن إليه الكبير، وإن كان الكبير أعلم وأفضل.

---

(١) أحمد (٢/ ٦١)، والبخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).
(٢) أحمد (٢/ ٣١)، والبخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

بَابٌ قوله:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٧].

{٤٦٩٩} حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَلْقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ عُبَيْدَةَ، عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي القَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

الشَّرْح

{٤٦٩٩} قوله: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي القَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» هذا الحديث على هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، يعني: في أول الآخرة، وهو: القبر، حين يسأل عن ربه وعن دينه وعن نبيه، وجاء في حديث البراء رضي الله عنه وغيره أنه يسأل عن ربه وعن دينه وعن نبيه؟ فيقول المسلم: الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي، وهذا من تثبيت الله له، وأما الكافر والفاجر فإنه لا يستطيع أن يجيب؛ فإذا قيل له: من ربك؟ قال: ها ها لا أدري، رأيت الناس يقولون شيئًا فقلته. من نبيك؟ يقول: ها ها لا أدري. ما دينك؟ يقول: ها ها لا أدري. فيضرب بمرزبة من حديد ويقال له: لا دريت ولا تليت. يعني: لا عرفت الحق بنفسك ولا تبعت من يعلم الحق ويعمل به، فيصيح صيحة فيسمعها كل شيء إلا الجن والإنس[(١)].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٥) مطولًا، وأخرجه مختصرًا البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

بَابٌ
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية [إبراهيم: ٢٨]

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [إبراهيم: ٢٨] أَلَمْ تَعْلَمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]: البَوَارُ: الهَلَاكُ، بَارَ يَبُورُ بَوْرًا ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هَالِكِينَ.

{٤٧٠٠} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ سَمِعَ ابن عَبَّاسٍ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قَالَ: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ.

الشَّرح

{٤٧٠٠} قوله: «ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] قَالَ: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ» وذلك لأن الله تعالى أنعم عليهم ببعثة محمد ﷺ فكفروا هذه النعمة ولم يؤمنوا برسالته ﷺ فبدلوا نعمة الله كفرًا.

- قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: ألم تعلم يا محمد كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٣].

- وقوله: ﴿ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨] يعني: الهلاك كقوله: ﴿قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفُرقان: ١٨] يعني: «هَالِكِينَ».

وهذه الآية نزلت في أهل مكة ولكنها عامة تشمل كل من لم يؤمن بالنبي ﷺ؛ لأنه قد بدل نعمة الله كفرًا.

وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ من رواية الطبري عن ابن عباس أنه سأل عمر عن هذه الآية فقال: من هم؟ قال: هم الأفجران من بني مخزوم وبني أمية أخوالي وأعمامك؛ فأما أخوالي: فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك: فأملى الله لهم إلى حين.

١٥- ومن سورة الحِجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ الحَقُّ يَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ وَعَلَيْهِ طَرِيقُهُ. ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لَعَيْشُكَ ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أَنْكَرَهُمْ لُوطٌ وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أَجَلٌ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ هَلَّا تَأْتِينَا شِيَعٌ أُمَمٌ وَلِلأَوْلِيَاءِ أَيْضًا شِيَعٌ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ [هود: ٧٨] مُسْرِعِينَ (لِلْمُتَوَسِّمِينَ) لِلنَّاظِرِينَ ﴿سُكِّرَتْ﴾ غُشِّيَتْ ﴿بُرُوجًا﴾ مَنَازِلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ مَلَاقِحَ مُلْقَحَةً (حمأ) جَمَاعَةُ حَمْأَةٍ وَهْوَ الطِّينُ المُتَغَيِّرُ وَالْمَسْنُونُ المَصْبُوبُ ﴿تَوْجَلْ﴾ تَخَفْ ﴿دابر﴾ آخِرَ ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ الإِمَامُ كُلُّ مَا ٱئْتَمَمْتَ وَاهْتَدَيْتَ بِهِ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ الهَلَكَةُ.

الشَّرح

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾» قال: «الحَقُّ يَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ وَعَلَيْهِ طَرِيقُهُ».

○ قوله: «﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾» قال: «عَلَى الطَّرِيقِ» يعني: أمامهم على طريقهم يمرون عليهم.

وجاء في «الصحيح» من غير رواية أبي ذر: قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]»، قال: «لَعَيْشُكَ».

○ وقوله: «﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الحجر: ٦٢]»، قال: «أَنْكَرَهُمْ لُوطٌ»؛ لأنهم أتوا إليه ولا يعرفهم.

○ وقوله: «﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾»، قال: «أَجَلٌ».

○ قوله: «﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾»، قال: «هَلَّا تَأْتِينَا».

○ قوله: «﴿شِيَعِ﴾»، قال: «أُمَمٌ، وَلِلأَوْلِيَاءِ أَيْضًا شِيَعٌ».

○ وقوله: «﴿يُهْرَعُونَ﴾ [هود: ٧٨]»، قال: «مُسْرِعِينَ».

- وقوله: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: ٧٥]»، قال: «لِلنَّاظِرِينَ».
- قوله: «﴿سُكِّرَتْ﴾»، قال: «غُشِّيَتْ».

وجاء في «الصحيح» من غير رواية أبي ذر: قال: ﴿بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦]، قال: «مَنَازِلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ».

- وقوله: «﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الحجر: ٢٢]»، قال: «مَلَاقِحَ مُلْقَحَةً».
- وقوله: «﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: ٢٦]»، قال: «حمأ: جَمَاعَةُ حَمْأَةٍ وَهْوَ الطِّينُ الْمُتَغَيِّرُ وَالْمَسْنُونُ الْمَصْبُوبُ».
- وقوله: «﴿لَا تَوْجَلْ﴾ [الحجر: ٥٣]»، قال: «لا تخف».
- وقوله: «﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ [الأعراف: ٧٢]»، قال: «دابر آخِرَ».
- قوله: «﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾»، قال: «الإِمَامُ: كُلُّ مَا ٱئْتَمَمْتَ وَاهْتَدَيْتَ بِهِ»، فسرها مرة أخرى.
- قوله: «﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾»، قال: «الهَلَكَةُ».

بَابٌ قوله:

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: ١٨]

{٤٧٠١} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسِّلْسِلَةِ عَلَىٰ صَفْوَانٍ -قَالَ عَلِيٌّ، وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفَوَانٍ- يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ- وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَىٰ، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ- فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ، قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ، فَيُحْرِقَهُ وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّىٰ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الذِي يَلِيهِ إِلَى الذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ حَتَّىٰ يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ- وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَى الأَرْضِ- فَتُلْقَىٰ عَلَىٰ فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ فَيَصْدُقُ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ التِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ». حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرٌو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ -وَزَادَ: وَالْكَاهِنِ- وَحَدَّثَنَا سُفْيَانُ فَقَالَ قَالَ عَمْرٌو: سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ وَقَالَ عَلَىٰ فَمِ السَّاحِرِ. قُلْتُ لِسُفْيَانَ: أأنت سمعت عمرًا؟ قَالَ: سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ لِسُفْيَانَ: إِنَّ إِنْسَانًا رَوَىٰ عَنْكَ عَنْ عَمْرٍو عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَيَرْفَعُهُ أَنَّهُ قَرَأَ فُزِّعَ. قَالَ سُفْيَانُ: هَكَذَا قَرَأَ عَمْرٌو. فَلَا أَدْرِي سَمِعَهُ هَكَذَا أَمْ لَا. قَالَ سُفْيَانُ: وَهِيَ قِرَاءَتُنَا.

الشَّرْح

{٤٧٠١} قوله: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا» وفي اللفظ الآخر: «**إذا قضى الله الأمر**»[(١)].

(١) أحمد (١/٢١٨)، والبخاري (٤٧٠١).

○ قوله: «**خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ**» خضعانًا فيها وجهان:

الوجه الأول: فتح الخاء والعين.

الوجه الثاني: بضم الخاء وفتح العين.

وفيه: إثبات الكلام لله ﷻ والرد على المعتزلة الذين يقولون: إن القرآن مخلوق.

وهذا الحديث على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحِجر: ١٦-١٨]، فالله تعالى حفظ السماء من الشياطين، لكن من استرق السمع تتبعه الشهب وتحرقه.

○ قوله: «**كأنه سلسلة على صفوان**»، وفي لفظ: «**كَالسِّلْسِلَةِ**»[1] يعني: الصوت المسموع من كلام الله كالسلسلة على الصفوان؛ والصفوان: الحجر الأملس، يعني: صوت قوي.

○ قوله: «**قَالَ عَلِيٌّ**»، هو: علي بن عبد الله المديني شيخ المؤلف رحمه الله.

○ قوله: «**وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ**»، يعني: ينفذهم كلام الله كالسلسلة على صفوان.

○ قوله: «**فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**»: زال الفزع من قلوبهم.

○ قوله: «﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ﴾ [سَبَإ: ٢٣]»، يعني: للذي قال.

○ قوله: «﴿ٱلْحَقَّۖ﴾ [سَبَإ: ٢٣]». فيه: إثبات القول لله ﷻ.

○ قوله: «﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سَبَإ: ٢٣]» فيه إثبات اسم العلي واسم الكبير لله ﷻ.

وفي رواية عكرمة عن أبي هريرة يرفعه أنه قال: ﴿فُزِّعَ﴾ [سَبَإ: ٢٣] قال: هذه قراءتنا، وفي قراءة شاذة: «فُرِّغ»[2] بالراء المهملة والغين المعجمة؛ من التفريغ.

○ قوله: «**فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ- وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ، وَفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَىٰ، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ**»،

(١) أحمد (١/٢١٨)، والبخاري (٤٧٠١).
(٢) انظر: «المحتسب»، لابن جني (٢/٢٣٦).

يعني: لم يبسطها بل فرج بين أصابعه وجعلها غير متلاصقة على صورة واحد فوق آخر حتى يصل إلى السماء، غير متلاصقين.

وسفيان هذا هو ابن عيينة لا الثوري؛ لأن علي بن المديني لم يدرك سفيان الثوري، وإنما تتلمذ على ابن عيينة.

○ قوله: «فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المُسْتَمِعَ، قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ، فَيُحْرِقَهُ وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّىٰ يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الذِي يَلِيهِ إِلَى الذِي هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ حَتَّىٰ يُلْقُوهَا إِلَى الأَرْضِ»، يعني: يتكلم الملائكة بالوحي فيتكلم أهل السماء السابعة ثم يصل إلى السماء السادسة حتى يصل إلى السماء الدنيا ثم يتكلم به الملائكة في السحاب فيسمع الشيطان قول الملائكة في السحاب فيسترق السمع ثم يلقيه إلى من تحته ويلقيه الثاني إلى من تحته والشهب تلاحقهم وتحرقهم حتى تصل إلى الشيطان الذي في الأسفل، والشيطان الذي في الأسفل يلقي الكلمة في أذن الكاهن يقرقرها كقر الدجاجة: قر قر قر. أحيانًا يحرقه الشهاب قبل أن يلقي الكلمة على لسان الكاهن، وأحيانًا يلقي الكلمة على لسان الكاهن قبل أن يحرقه الشهاب.

وفي هذا دليل على أن الشياطين كثيرون ويولدون بكثرة؛ فكل إنسان معه قرين.

○ قوله: «وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَى الأَرْضِ- فَتُلْقَىٰ عَلَىٰ فَمِ السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ فَيَصْدُقُ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ التِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»، يعني: إذا وصلت هذه الكلمة الحق التي سمعت من السماء إلى الكاهن كذب معها مائة كذبة وأخبر الناس بهذه الأخبار التي واحدة منها من السماء صادقة، والباقي كذب؛ فالناس يصدقون هذا الكاهن في جميع الكذب من أجل واحدة؛ يقول العلماء: وهذا فيه قبول الناس للشر؛ فكيف يعتبرون بالواحدة ولا يعتبرون بالمائة؟! فإذا قيل للناس: لا تصدقوا الكاهن، قالوا: أليس قد قال يوم كذا: كذا وكذا، فوقع، وتكون هي الكلمة التي سمعت من السماء؛ فيصدقونه في الكذب من أجل واحدة، والواجب: أن يُكَذّب من أجل كذبه؛ لأن الكذب هو الغالب عليه.

بَابُ قوله:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر: ٨٠]

{٤٧٠٢} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لأَصْحَابِ الْحِجْرِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَىٰ هٰؤُلاء الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ».

الشَّرح

○ قوله: «باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحِجر: ٨٠]» هم: ثمود قوم صالح.

{٤٧٠٢} قوله: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لأَصْحَابِ الحِجْرِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَىٰ هٰؤُلاء الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»» نهاهم النبي ﷺ عن دخولها إلا على هيئة البكاء ومنعهم أن يشربوا إلا من بئر الناقة ولما عجنوا العجين من الآبار أمرهم أن يعلفوها الإبل[(١)]؛ وفيه: تحريم دخول ديار المعذبين - كأصحاب الحجر وغيرهم وأصحاب الأخدود - إلا للعظة والاعتبار وعلى حالة البكاء أو التباكي؛ خشية العذاب وأن يصيبهم ما أصابهم، وفي لفظ: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين**»[(٢)] وفي لفظ: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم**»[(٣)]، وهذا كله يفيد تحريم الدخول إلا على وجه التباكي للعظة والعبرة.

---

(١) أحمد (٢/١١٧)، والبخاري (٣٣٧٨).
(٢) أحمد (٢/٥٨)، والبخاري (٤٣٣).
(٣) أحمد (٢/٦٦)، والبخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠).

بَابُ قوله:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾

الآية [الحجر: ٨٧]

{٤٧٠٣} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّىٰ قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُصَلِّي فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّىٰ صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟». فَقُلْتُ: كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ» فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ فَذَكَّرْتُهُ فَقَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالْقُرْآنُ العَظِيمُ الذِي أُوتِيتُهُ».

{٤٧٠٤} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا ابن أَبِي ذِئْبٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ المَقْبُرِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالْقُرْآنُ العَظِيمُ».

الشَّرْح

{٤٧٠٣} قوله: «مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُصَلِّي فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّىٰ صَلَّيْتُ» فيه أنه يجب على الإنسان في حياة النبي ﷺ أن يجيبه ﷺ إذا دعاه ولو في الصلاة، لهذه الآية؛ أما الوالد فإذا دعا ابنه فلا يجيبه في الفريضة، أما في النافلة ففيه تفصيل؛ فإذا كان الوالد يتأثر ولا يسمح فإنه يقطع النافلة ويجيبه، وإن كان لا يتأثر فيشير إليه أو يسبح حتى يعلم أنه في الصلاة؛ لأن طاعة الوالد فرض وهذه نافلة، والفرض مقدم على النافلة.

○ قوله: «فَقَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالْقُرْآنُ العَظِيمُ الذِي أُوتِيتُهُ» فيه: أن الفاتحة هي السبع المثاني، سميت

كذلك؛ لأنها تثنى في كل ركعة وأنها سبع آيات بدون البسملة؛ أولها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢] وآخرها: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٧] وأما: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفَاتِحَة: ١] فهي آية للفصل بين السور، وهي آية في أول كل سورة ما عدا «براءة»، وهي بعض آية من «سورة النمل»: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النَّمل: ٣٠]. والفاتحة لها أسماء منها: الحمد، والسبع المثاني، وأم الكتاب، وأم القرآن؛ لأنها أصل القرآن، وذكر الحافظ أحاديث عن علي، وقال: السبع المثاني فاتحة الكتاب.

❖ ❖ ❖

{٤٧٠٤} سبق الكلام عليه في الحديث قبله.

بَابُ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: ٩١]

و﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: ٩٠] الذِينَ حَلَفُوا وَمِنْهُ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [القيامة: ١] أَيْ: أُقْسِمُ، وَتُقْرَأُ (لَأُقْسِمُ). ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] حَلَفَ لَهُمَا وَلَمْ يَحْلِفَا لَهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ [النمل: ٤٩]: تَحَالَفُوا.

{٤٧٠٥} حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: ٩١] قَالَ هُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، جَزَّءُوهُ أَجْزَاءً، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ.

{٤٧٠٦} حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ [الحجر: ٩٠] قَالَ: آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ.

الشَّرح

○ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ هذه الترجمة على هذه الآية وفيها ذم للمشركين، والمعنى: أن أهل الكتاب جعلوه أقسامًا يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحِجر: ٨٧-٩١].

○ قوله: «﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾» قال: «الذِينَ حَلَفُوا» سموا مقتسمين من القسم.

○ قوله: «وَمِنْهُ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [القيامة: ١] أَيْ: أُقْسِمُ، وَتُقْرَأُ (لَأُقْسِمُ)» ﴿لَا﴾ زائدة للتأكيد، والتقدير: أقسم.

○ قوله: «﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾»، قال: «حَلَفَ لَهُمَا وَلَمْ يَحْلِفَا لَهُ».

○ قوله: «وقال مجاهد: ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾»، قال: «تَحَالَفُوا» هذا تفسير لكلمة المقتسمين ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ [الحِجر: ٩٠]، يعني: الذين حلفوا

وتقاسموا، ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: ٩١] يعني: أجزاء يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، هددهم الله فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

{٤٧٠٥} قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ: ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾»، قال: «هُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، جَزَّءُوهُ أَجْزَاءً، فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ» فيه: التحذير من فعل أهل الكتاب ووجوب الإيمان بجميع القرآن؛ وأما الوثنيون من أهل مكة فإنهم كفروا بالقرآن كله.

❖ ❖ ❖

{٤٧٠٦} قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ»، يعني: رواية أخرى، ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾، «قَالَ: آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، اليَهُودُ وَالنَّصَارىٰ» فيه: التحذير من فعلهم ووجوب الإيمان بجميع القرآن.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]

قَالَ سَالِمٌ: ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]: المَوْتُ.

الشَّرح

○ قوله: «قَالَ سَالِمٌ: اليَقِينُ: المَوْتُ» هذا هو الحق في تفسير اليقين أنه: الموت: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩] يعني: استمر على عبادة الله حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، لا كما يقوله الصوفية من أن المراد باليقين العلم، وأنه إذا وصل إلى العلم سقطت عنه التكاليف؛ لأن هذا القول ردةٌ عن الإسلام وكفرٌ بالقرآن؛ بعض الصوفية يفسرون اليقين بالعلم إذا وصل أحدهم إلى العلم وعلم أن ما قدر سيكون وألغى صفاته وجعلها من صفات الله سقطت عنه التكاليف؛ لأنه تجاوز مرتبة العامة وأصبح في مرتبة الخاصة ويجعلون الرسل كلهم وأتباعهم من العامة، أما هم فتجاوزوا هذه الرتبة، وهذا كفر وردة بإجماع المسلمين؛ فقد أجمع المسلمون على أن من اعتقد أن هناك أحدًا تسقط عنه التكاليف وعقله ثابت معه فإنه مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

١٦- ومن سورة النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جِبْرِيلُ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ يُقَالُ أَمْرٌ ضَيْقٌ وَضَيِّقٌ، مِثْلُ هَيْنٍ وَهَيِّنٍ وَلَيْنٍ وَلَيِّنٍ، وَمَيْتٍ وَمَيِّتٍ. قَالَ ابن عَبَّاس: (تَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ): تَتَهَيَّأُ. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾: لا يتوعَّرُ علَيْهَا مَكانٌ سَلَكَتْهُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ اخْتِلافِهِمْ. وقَالَ مُجاهِدٌ: تَمِيدُ تَكَفَّأُ ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ مَنْسِيُّونَ. وقَالَ غَيْرُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ هٰذا مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ وَذلِكَ أَنَّ الاسْتِعَاذَةَ قَبْلَ القِرَاءَةِ وَمَعْنَاهَا الاعْتِصامُ باللهِ. وقَالَ ابن عبَّاسٍ: ﴿تُسِيمُونَ﴾: تَرْعَونَ. ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]: نَاحِيَتِهِ ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ البَيَانُ. الدِّفْءُ: مَا اسْتَدْفَأْتَ ﴿تُرِيحُونَ﴾ بِالْعَشِيِّ وَتَسْرَحُونَ بِالْغَدَاةِ ﴿بِشِقِّ﴾ يَعْنِي المَشَقَّةَ. ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ تَنَقُّصٍ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ وَهِيَ تُؤَنَّثُ وَتُذَكَّرُ، كَذَلِكَ النَّعَمُ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جَماعَةُ النَّعَمِ ﴿أَكْنَٰنًا﴾: وَاحِدُها كِنٌّ، مثلُ: حِمْلٍ وأحْمَالٍ ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ قُمُصٌ ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وأَمَّا ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ فَإِنَّهَا الدُّرُوعُ. ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ يَصِحَّ فَهُوَ دَخَلٌ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ ﴿وَحَفَدَةً﴾ مَنْ وَلَدَ الرَّجُلُ. السَّكَرُ مَا حُرِّمَ مِنْ ثَمَرَتِهَا، وَالرِّزْقُ الحَسَنُ مَا أَحلَّ اللهُ، وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ عَنْ صَدَقَةَ ﴿أَنكَٰثًا﴾ هِيَ خَرْقَاءُ، كَانَتْ إِذَا أَبْرَمَتْ غَزْلَهَا نَقَضَتْهُ. وَقَالَ ابن مَسْعُودٍ: الأُمَّةُ مُعَلِّمُ الخَيْرِ. [وَالْقَانِتُ المُطِيعُ].

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاس: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾» قال: «اخْتِلافِهِمْ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [النّحل: ٤٦].

○ قوله: «وَقَالَ مُجاهِدٌ: : ﴿تَمِيدَ﴾» قال: «تكَفَّأُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: ١٥].

○ قوله: «﴿مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾»، قال: «مَنْسِيُّونَ».

○ قوله: «﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾» قال: «جِبْرِيلُ» قال الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النّحل: ١٠٢].

○ قوله: «﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾» قال في بعض النسخ: «هو جبريل» أيضًا.

○ قوله: «﴿فِى ضَيْقٍ﴾، يُقَالُ أَمْرٌ ضَيْقٌ وَضَيِّقٌ، مِثْلُ هَيْنٍ وَهَيِّنٍ وَلَيْنٍ وَلَيِّنٍ، وَمَيْتٍ وَمَيِّتٍ» كلمات معدودة تقال بالتخفيف والتشديد، وهي خمس كلمات؛ ذكر المصنف منها أربعة والخامسة: نيف ونيف.

○ قوله: «قَالَ ابن عَبَّاس: «تتفيأ ظلاله»»، قال: «تَتَهَيَّأُ» وهذه قراءة. وأما عند حفص: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ [النّحل: ٤٨].

○ قوله: «﴿سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾»، قال: «لا يتوَعَّرُ عَلَيْهَا مَكَانٌ سَلَكَتْهُ» يعني: النحل، وهو خطاب من الله تعالى للنحل.

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾»، قال: «هـٰذا مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ» يعني: إذا أردت قراءة القرآن. ثم برر ذلك فقال: «وَذَلِكَ أَنَّ الاسْتِعَاذَةَ قَبْلَ القِرَاءَةِ وَمَعْنَاهَا الاعْتِصَامُ بالله».

○ قوله: «وقَالَ ابن عبَّاسٍ: ﴿تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النّحل: ١٠]»، قال: «تَرْعَونَ».

○ قوله: «﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]»، قال: «نَاحِيَتِهِ».

○ قوله: «﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾»، قال: «البَيَانُ».

○ قوله: «الدِّفْءُ» قال: «ما استدفأت به»، يعني: في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النّحل: ٥].

قوله في بعض النسخ: «﴿تُرِيحُونَ﴾ [النحل: ٦]»، قال: «بالعشي».

○ قوله: «﴿تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ قال: بالغداة»؛ لأن الذهاب في الغداة بالبهيمة يسمى سرحًا وبالعشي يسمى رواحًا.

○ قوله: «﴿بِشِقِّ﴾ قال «يعني: المشقة»، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النّحل: ٧].

○ قوله: «﴿تَخَوُّفٍ﴾ من قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]»، قال: «تنقص».

○ قوله: «﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾، قال: «وهي تؤنث وتذكر» تقول: هذه أنعام وهذا أنعام.

○ قوله: «كَذَلِكَ النَّعَمُ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ جَمَاعَةُ النَّعَمِ»، يعني: وهي الإبل.

○ قوله: «﴿أَكۡنَٰنٗا﴾»، قال: «وَاحِدُها كِنٌّ، مثلُ: حِمْلٍ وأحْمَالٍ»، يعني: الشيء الذي يُكِنُّ الإنسانَ ويستره.

○ قوله: «﴿سَرَٰبِيلَ﴾»، قال: «قُمُصٌ ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾».

○ قوله: «وأما ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ [النحل: ٨١]»، قال: «فَإِنَّهَا الدُّرُوعُ».

○ قوله: «﴿دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾»، قال: «كُلُّ شَيْءٍ لَمْ يَصِحَّ فَهْوَ دَخَلٌ» هذا قول أبي عبيدة. وقيل: «دخلًا»: خيانة وهو عن قتادة، وقيل: «الدخل» الداخل في الشيء ليس منه، وهذا هو المتبادر.

○ قوله: «قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَحَفَدَةٗ﴾»، قال: «مَنْ وَلَدَ الرَّجُلُ» والمعروف أن الحفيد ولد الولد.

○ قوله: «السَّكَرُ: مَا حُرِّمَ مِنْ ثَمَرَتِهَا»، كذا فسرها، يعني في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ [النّحل: ٦٧].

○ قوله: «وَالرِّزْقُ الحَسَنُ»، قال: «مَا أَحَلَّ اللهُ» وذلك في قول الله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ [النّحل: ٦٧].

○ قوله: «وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ عَنْ صَدَقَةَ ﴿أَنكَٰثٗا﴾»، قال: «هِيَ خَرْقَاءُ، كَانَتْ إِذَا أَبْرَمَتْ غَزْلَهَا نَقَضَتْهُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النّحل: ٩٢]، قيل: إن هذه امرأة خرقاء كانت بمكة وكانت تغزل غزلها بالنهار ثم تنقضه بالليل وقيل: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده.

○ قوله: «وَقَالَ ابن مَسْعُودٍ: الأُمَّةُ مُعَلِّمُ الخَيْرِ» يعني: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النّحل: ١٢٠].

○ قوله: «وَالقَانِتُ المُطِيعُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿قَانِتٗا﴾ [النّحل: ١٢٠].

بَابُ قوله:

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]

{٤٧٠٧} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مُوسَىٰ أَبُو عَبْدِ اللهِ الأَعْوَرُ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو «أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ وَالْكَسَلِ، وَأَرْذَلِ العُمُرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَفِتْنَةِ المَحْيَا وَالْمَمَاتِ».

الشَّرْح

{٤٧٠٧} قوله: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ»، وهو منع الواجب.

○ قوله: «وَالْكَسَلِ»، أي: التكاسل عن الخيرات مع القدرة عليها.

○ قوله: «وَأَرْذَلِ العُمُرِ»: أسوءه، وهو الخَرَف وذهاب العقل في آخر العمر؛ وهذا هو الشاهد لآية الترجمة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النّحل: ٧٠].

○ قوله: «وَعَذَابِ القَبْرِ» فيه: إثبات عذاب القبر والرد على من أنكره.

○ قوله: «وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ»: يخرج في آخر الزمان رجل يدعي الصلاح، ثم النبوة، ثم يدعي الربوبية.

○ قوله: «وَفِتْنَةِ المَحْيَا»: الفتن التي تكون في الحياة من الشبهات والشهوات.

○ قوله: «وفتنة الممات»، وهي التي تكون عند الموت؛ حيث يفتن الإنسان ويأتيه الشيطان ويفتنه فيتكلم بكلام باطل أو يمتنع من الشهادة.

وكان النبي ﷺ يدعو بهذه الدعوات عقب التشهد الأخير في آخر الصلاة.

١٧- ومن سورة بني إسرائيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَابٌ

{٤٧٠٨} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي.

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] يَهُزُّونَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: نَغَضَتْ سِنُّكَ أَيْ: تَحَرَّكَتْ.

الشَّرح

○ قوله: «سورة بني إسرائيل» هي سورة الإسراء؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤].

{٤٧٠٨} قوله: «سَمِعْتُ ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي»، أي: إنهن مما حفظت قديمًا في مكة؛ لأن هذه السور نزلت في مكة والتلاد هو: المال القديم، والمال الجديد يسمى طريفًا.

○ قوله: «﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾»، قال ابن عباس: «يَهُزُّونَ» فالكفار إذا أخبروا بالبعث وأمروا بالإيمان به فإنهم يهزون رءوسهم إنكارًا واستهزاءً.

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: نَغَضَتْ سِنُّكَ، أَيْ: تَحَرَّكَتْ»، يعني: حركوا الرؤوس.

بَابٌ باب ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

أَخْبَرْنَاهُمْ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ، وَالْقَضَاءُ عَلَىٰ وُجُوهٍ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] أَمَرَ رَبُّكَ، وَمِنْهُ الحُكْمُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٩٣] ، وَمِنْهُ الخَلْقُ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] خَلَقَهُنَّ. ﴿نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦] مَنْ يَنْفِرُ مَعَهُ. ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ [الإسراء: ٧] يُدَمِّرُوا ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ [الإسراء: ٧]. ﴿حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨] مَحْبِسًا مَحْصَرًا ﴿حَقَّ﴾ [الإسراء: ١٦] وَجَبَ ﴿مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨] لَيِّنًا. ﴿خِطْـًٔا﴾ [الإسراء: ٣١] إِثْمًا، وَهْوَ ٱسْمٌ مِنْ خَطِئْتُ، وَالْخَطَأُ مَفْتُوحٌ مَصْدَرُهُ مِنَ الإِثْمِ، خَطِئْتُ بِمَعْنَىٰ أَخْطَأْتُ. ﴿لَن تَخْرِقَ﴾ [الإسراء: ٣٧]: لَنْ تَقْطَعَ. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧]: مَصْدَرٌ مِنْ نَاجَيْتُ، فَوَصَفَهُمْ بِهَا، وَالْمَعْنَىٰ: يَتَنَاجَوْنَ ﴿وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: ٤٩، ٩٨]: حُطَامًا ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ [الإسراء: ٦٤] ٱسْتَخِفَّ ﴿بِخَيْلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]: الفُرْسَانِ، وَالرَّجْلُ: الرَّجَّالَةُ وَاحِدُهَا رَاجِلٌ مِثْلُ صَاحِبٍ وَصَحْبٍ، وَتَاجِرٍ وَتَجْرٍ. ﴿حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨] الرِّيحُ العَاصِفُ، وَالْحَاصِبُ أَيْضًا مَا تَرْمِي بِهِ الرِّيحُ وَمِنْهُ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] يُرْمَىٰ بِهِ فِي جَهَنَّمَ، وَهْوَ حَصَبُهَا، وَيُقَالُ: حَصَبَ فِي الأَرْضِ ذَهَبَ، وَالْحَصَبُ مُشْتَقٌّ مِنَ الحَصْبَاءِ وَالْحِجَارَةِ. ﴿تَارَةً﴾ [الإسراء: ٦٩] مَرَّةً وَجَمَاعَتُهُ تِيَرَةٌ وَتَارَاتٌ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] لَأَسْتَأْصِلَنَّهُمْ يُقَالُ ٱحْتَنَكَ فُلَانٌ مَا عِنْدَ فُلَانٍ مِنْ عِلْمٍ ٱسْتَقْصَاهُ. ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ [الإسراء: ١٣]: حَظُّهُ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: كُلُّ سُلْطَانٍ فِي القُرْآنِ فَهْوَ حُجَّةٌ. ﴿وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] لَمْ يُحَالِفْ أَحَدًا.

الشَّرح

○ قوله: «﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾»، قال: «أَخْبَرْنَاهُمْ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ» يعني: قدر الله عليهم ذلك فهذا القضاء بمعنى التقدير.

○ قوله: «وَالْقَضَاءُ عَلَىٰ وُجُوهٍ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾»، قال: «أَمَرَ» يعني: يأتي على وجوه منها: أمر ووصى.

○ قوله: «وَمِنْهُ الحُكْمُ»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾، يعني: يحكم بينهم.

○ قوله: «وَمِنْهُ الخَلْقُ»: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾، قال: «خَلَقَهُنَّ».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «لفظة: قضى في الكتاب العزيز جاءت على خمسة عشر وجهاً؛ منها الفراغ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٠]: فرغتم. ومنها الأمر: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ [البَقَرَة: ١١٧]، ومنها الأجل: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزَاب: ٢٣]، يعني: أجله. ومنها الفصل: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعَام: ٥٨]، ومنها الحكم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، ومنها الهلاك: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يُونس: ١١] والوجوب ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] والإبرام: ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يُوسُف: ٦٨]، والإعلام: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسرَاء: ٤]، والوصية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: ٢٣]، والموت: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القَصَص: ١٥]، والنزول: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سَبَإ: ١٤]، والفعل: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عَبَس: ٢٣]، والعهد: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القَصَص: ٤٤]، والمكتوب: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مَريَم: ٢١]، والفعل: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]».

○ قوله: «﴿نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾» قال: «من ينفر معه»، يعني: في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإسراء: ٦].

وجاء في «الصحيح» في غير رواية أبي ذر: قوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٧] قال: «يُدَمِّرُوا».

○ وقوله: «﴿فَحَقَّ﴾»، قال: «الشيء الذي وجب».

○ وقوله: «﴿مَّيْسُورًا﴾»، قال: «لَيِّنًا».

○ قوله: «﴿قَاصِفًا﴾»، قال: «ريح تقصف كل شيء»، وذلك في قوله: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسرَاء: ٦٩].

○ قوله: «﴿خِطْـًٔا﴾»، قال: «إِثْمًا، وَهْوَ ٱسْمٌ مِنْ خَطِئْتُ، وَالْخَطَأُ مَفْتُوحٌ مَصْدَرُهُ مِنَ الإِثْمِ»، يقال: خَطأَ يَخْطَؤُ خَطَئًا، وخَطِأَ خَطِئً يعني: أثم، ومنه قوله

تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ [الحاقّة: ٣٧]، يعني: الآثمون، وأما «خَطِئْتُ بِمَعْنَىٰ أَخْطَأْتُ»، يعني: غلطت.

○ قوله: «﴿لَن تَخْرِقَ﴾»، قال: «لن تقْطَعَ»، يعني: في قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ٣٧].

○ قوله: «﴿حَصِيرًا ۝٨﴾»، قال: «مَحْبِسًا» وفي لفظ: «مَحْصَرًا»[1] يعني: يحبسون فيها ويحصرون قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء: ٨]

○ قوله: «﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾»، قال: «مَصْدَرٌ مِنْ نَاجَيْتُ، فَوَصَفَهُمْ بِهَا، وَالْمَعْنَىٰ: يَتَنَاجَوْنَ»، وهو الكلام الذي يكون في السر.

○ قوله: «﴿وَرُفَٰتًا﴾» قال: «حُطَامًا»، أي: عظامًا مُحَطَّمة.

○ قوله: «﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾»، قال: «ٱسْتَخِفَّ»، يعني في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

○ قوله: «﴿بِخَيْلِكَ﴾»، قال: «الفُرْسَانِ»، يعني: راكبي الخيل.

○ قوله: «وَالرَّجْلُ: الرَّجَّالَةُ وَاحِدُهَا رَاجِلٌ مِثْلُ صَاحِبٍ وَصَحْبٍ، وَتَاجِرٍ وَتَجْرٍ»، يعني: الواحد الذي يمشي على رجليه.

○ قوله: «﴿حَاصِبًا﴾»، قال: «الرِّيحُ العَاصِفُ، وَالْحَاصِبُ أَيْضًا مَا تَرْمِي بِهِ الرِّيحُ».

○ قوله: «ومنه ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾» قال: «يُرْمَىٰ بِهِ فِي جَهَنَّمَ، وَهْوَ حَصَبُهَا، وَيُقَالُ: حَصَبَ فِي الأَرْضِ ذَهَبَ، وَالْحَصَبُ مُشْتَقٌّ مِنَ الحَصْبَاءِ وَالْحِجَارَةِ»، يعني: الحجارة الصغيرة يقال لها: حصباء.

○ قوله: «﴿تَارَةً﴾» قال: «مَرَّةً وَجَمَاعَتُهُ تِيَرَةٌ وَتَارَاتٌ»، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ٦٩].

○ قوله: «﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾»، قال: «لأَسْتَأْصِلَنَّهُمْ يُقَالُ ٱحْتَنَكَ فُلَانٌ مَا عِنْدَ

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٤٩٤).

فُلَانٍ مِنْ عِلْمٍ ٱسْتَقْصَاهُ» يعني: في قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ [الإسرَاء: ٦٢].

وجاء في «الصحيح» في غير رواية أبي ذر، قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسرَاء: ١٣] قال: «حَظُّهُ».

○ قوله: «**وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: كُلُّ سُلْطَانٍ فِي القُرْآنِ فَهُوَ حُجَّةٌ، يعني: في قوله تعالى:** ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسرَاء: ٣٣].

○ قوله: ﴿وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال: «لَمْ يُحَالِفْ أَحَدًا» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسـرَاء: ١١١]، فالله سبحانه وتعالى ليس له أولياء من الذل يتكثر بهم أو يتقوى بهم أو يتعزز بهم، بل أولياؤه أحبابه، خلاف المخلوق فإنه يكون له ولي من الذل؛ حتى يتقوى به ويتعزز به ويستفيد منه.

بَابُ قوله:

﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]

{٤٧٠٩} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، حَدَّثنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ ح. وَحَدَّثنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا عَنْبَسَةُ، حَدَّثنَا يُونُسُ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ ابن المُسَيَّبِ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِإِيلِيَاءَ بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا فَأَخَذَ اللَّبَنَ قَالَ جِبْرِيلُ الحَمْدُ لله الذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ، لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ.

{٤٧١٠} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابن وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلَّىٰ اللهُ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ». زَادَ يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: حَدَّثَنَا ابن أَخِي ابن شِهَابٍ، عَنْ عَمِّهِ «لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ». نَحْوَهُ.

الشَّرح

أعاد الترجمة على قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسرَاء: ١].

{٤٧٠٩} قوله: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِإِيلِيَاءَ» هذا هو الشاهد للترجمة وفيه إثبات الإسراء، و«الإسراء» معناه لغة: السفر ليلًا، وشرعًا: هو الإسراء بنبينا ﷺ ليلة المعراج من مكة إلى بيت المقدس على البُرَاق بصحبة جبرائيل، والبراق: دابة فوق الحمار ودون البغل خطوه مد البصر، قطع هذه المسافة في مدة وجيزة وكانت المسافة شهرًا على مركوبات ذلك الزمان وهي الإبل. ومن أنكر الإسراء بعد علمه كفر؛ لأنه مكذب لله، فالله تعالى يقول:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، ومسجد إيلياء بالشام، ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء؛ حيث أتي بالمعراج وهو كهيئة المرقاة؛ أي: السُّلَّم، فكان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس والعروج من بيت المقدس إلى السماء، وكانا في ليلة واحدة في أصح قولي العلماء، وقيل: الإسراء في ليلة والمعراج في ليلة.

وكان الإسراء بروحه وجسده ﷺ في أصح قولي العلماء؛ لقوله الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ والعبد: اسم للروح والجسد.

وأسري به يقظة لا منامًا، وهذا هو الصواب.

وأسري به مرة واحدة ولم يتكرر، وقال آخرون: تكرر، وهذا قول ضعيف.

○ قوله: «بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا فَأَخَذَ اللَّبَنَ قَالَ جِبْرِيلُ الحَمْدُ لله الذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ، لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ» وهذا قبل التكليف؛ لأن ليلة المعراج كانت قبل أن تشرع الصلاة وسائر العبادات الأخرى، وهذا من فضل الله تعالى وإحسانه وتوفيقه لنبيه ﷺ ولهذه الأمة أن هداها للفطرة؛ وفيه: أن اللبن يفسر بالفطرة في الرؤيا.

❖ ❖ ❖

{٤٧١٠} قوله: «لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ»، واللفظ الآخر: «**كذبتني**»[(١)].

○ قوله: «قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلَّىٰ اللهُ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» هذا من المعجزات حيث كشف الله تعالى لنبيه بيت المقدس فهو ينظر إليه ويصفه لهم.

ذكر الحافظ ابن حجر ﵀ الفرق بين: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ وبين قول الله للوط: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هُود: ٨١] قال: «والمراد بقوله: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: ١] أي: جعل البراق يسري به كما يقال: أمضيت كذا؛ أي جعلته يمضي. أما في قصة لوط فالمعنى: سر بهم على ما تحملون عليه من دابة».

(١) أحمد (٣/ ٣٧٧)، والبخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠).

بَابٌ قوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]

﴿كَرَّمْنَا﴾ وَأَكْرَمْنَا وَاحِدٌ ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] عَذَابَ الحَيَاةِ وَعَذَابَ المَمَاتِ ﴿خِلَٰفَكَ﴾ [الإسراء: ٧٦] وَخَلْفَكَ سَوَاءٌ ﴿وَنَـَٔا﴾ [الإسراء: ٨٣] تَبَاعَدَ ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]: نَاحِيَتِهِ، وَهْيَ مِنْ شَكْلِهِ ﴿صَرَّفْنَا﴾ [الإسراء: ٤١، ٨٩]: وَجَّهْنَا ﴿قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]: مُعَايَنَةً وَمُقَابَلَةً، وَقِيلَ: القَابِلَةُ؛ لأَنَّهَا مُقَابِلَتُهَا وَتَقْبَلُ وَلَدَهَا ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠] أَنْفَقَ الرَّجُلُ: أَمْلَقَ، وَنَفِقَ الشَّيْءُ: ذَهَبَ ﴿قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]: مُقَتِّرًا. ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٩] مُجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ، وَالْوَاحِدُ: ذَقَنٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]: وَافِرًا ﴿تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٩]: ثَائِرًا، وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: نَصِيرًا. ﴿خَبَتْ﴾ [الإسراء: ٩٧]: طَفِئَتْ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ [الإسراء: ٢٦]: لَا تُنْفِقْ فِي البَاطِلِ ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ [الإسراء: ٢٨]: رِزْقٍ ﴿مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]: مَلْعُونًا ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ [الإسراء: ٣٦]: لَا تَقُلْ ﴿فَجَاسُوا﴾ [الإسراء: ٥]: تَيَمَّمُوا. ﴿يُزْجِي﴾ [الإسراء: ٦٦] الفُلْكَ: يُجْرِي الفُلْكَ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٩]: لِلْوُجُوهِ.

الشَّرح

○ قوله: «باب قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: ٧٠]» هذا الباب فيه تفسير الكلمات فقط.

○ قوله: «﴿كَرَّمْنَا﴾ وَأَكْرَمْنَا وَاحِدٌ» أي: في اللغة.

○ قوله: «﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾» قال: «عَذَابَ الحَيَاةِ»، و«﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾»، قال: «وَعَذَابَ المَمَاتِ» من قول الله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسرَاء: ٧٥] يعني: لو مال إلى المشركين، وهذا لعلو مكانته ﷺ وهو معصوم من ذلك؛ لكن هذا لبيان مقادير الأشياء.

○ قوله: «﴿خِلَٰفَكَ﴾ وَخَلْفَكَ سَوَاءٌ»، أي: بمعنى واحد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦].

○ قوله: «﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾» قال: «نَاحِيَتِهِ، وَهْيَ مِنْ شَكْلِهِ» يعني: في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

○ قوله: «﴿وَنَـَٔا﴾» قال: «تَبَاعَدَ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣].

○ قوله: «﴿صَرَّفْنَا﴾»، قال: «وَجَّهْنَا» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١].

○ قوله: «﴿قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾»، قال: «مُعَايَنَةً وَمُقَابَلَةً».

○ قوله: «وَقِيلَ: القَابِلَةُ؛ لأَنَّهَا مُقَابِلَتُهَا وَتَقْبَلُ وَلَدَهَا» سميت التي تقوم على توليد المرأة عند الولادة - وهي: الداية - قابلة؛ لأنها مقابلتها وتقبل ولدها.

○ قوله: «﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾»، قال: «يقال: أَنْفَقَ الرَّجُلُ: أَمْلَقَ»، يعني: ذهب ماله.

○ قوله: «وَنَفِقَ الشَّيْءُ: ذَهَبَ»، نفق من الثلاثي: ذهب.

○ قوله: «﴿قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾»، قال: «مُقَتِّرًا».

○ قوله: «﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾»، قال: «مُجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ، وَالْوَاحِدُ: ذَقَنٌ».

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾: وَافِرًا».

○ قوله: «﴿تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾» قال: «ثَائِرًا» يعني: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٩]، «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: نَصِيرًا».

وفي «الصحيح» من غير رواية أبي ذر: قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧]، قال: «كلما طفئت»، أي: النار.

○ قوله: «﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾»، قال: «رِزْقٍ».

○ قوله: «﴿مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾» قال: «مَلْعُونًا»، يعني: في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسرَاء: ١٠٢]، وقيل: ﴿مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾: هالكًا، وهذا هو الظاهر.

○ قوله: «﴿يُزْجِى﴾ الفلك»، قال: «يُجْرِي الفُلْكَ».

○ قوله: «﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾»، قال: «لَا تُنْفِقْ فِي البَاطِلِ» ومن هنا يتبين الفرق بين التبذير والإسراف؛ فالتبذير: هو الإنفاق في الباطل، الذي ليس له أصل مشروع، كالإنفاق في شراء الخمر وآلات اللهو والمزامير وغيرها.

أما الإسراف: فهو الزيادة عن الحد المطلوب في الإنفاق، ويكون في شيء أصله مشروع، كالزيادة في النفقة في وليمة العرس مثلًا.

○ قوله: «﴿فَجَاسُواْ﴾»، قال: «تَيَمَّمُوا»، أي: فمشوا، قال أبو عبيدة: جاس يجوس أي: نقب.

○ قوله: «﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسرَاء: ١٠٧]»، قال: «لِلْوُجُوهِ»، يعني: لوجوههم.

بَابٌ قوله:
﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾
الآيَةَ [الإسراء: ١٦]

{٤٧١١} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، أَخْبَرَنَا مَنْصُورٌ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كُنَّا نَقُولُ لِلْحَيِّ إِذَا كَثُرُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَمِرَ بَنُو فُلَانٍ. حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ وَقَالَ: أَمَرَ.

الشَّرح

○ قوله: «باب ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]».

{٤٧١١} قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «كُنَّا نَقُولُ لِلْحَيِّ إِذَا كَثُرُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَمِرَ بَنُو فُلَانٍ»، ثم ذكر عن شيخه الحُمَيْدِي عن سفيان، وقال: أمر، فالأولى: بكسر الميم، والثانية: بفتحها وكلاهما لغتان، وأنكر ابن التين فتح الميم في أمر بمعنى: كثر، وغفل في ذلك»، وذكر عن ابن مسعود: «وزعم أنه لا يقال أمرنا بمعنى: كثرنا، إلا بالمد، واعتذر عن حديث: «**أفضل المال مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة**»[(١)].

○ قوله: «أَمِرَ بَنُو فُلَانٍ»، بفتح الميم وكسرها، أي: كثروا، وهذه لهجة عندنا موجودة في نجد بين الناس يقولون: نخل مأمور هذا العام، أي: كثرت ثمرته، وهذا يوافق ما ذكره ابن مسعود.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «واستشهد الطبري بما أسنده من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾، قال: سلطنا شرارها. ثم ساق عن أبي عثمان وأبي العالية ومجاهد أنهم قرءوا بالتشديد - يعني: «أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا» - وقيل التضعيف للتعدية، والأصل ﴿أَمَرْنَا﴾ بالتخفيف، أي: كثرنا، كما

(١) «فتح الباري» (٨/ ٣٩٤).

وقع في هذا الحديث الصحيح، ومنه حديث: «**خير المال مهرة مأمورة**»[(١)] أي: كثيرة النتاج؛ أخرجه أحمد، ويقال: أمر بنو فلان أي: كثروا، وأمرهم الله: كثرهم، وأمروا أي: كثروا، وقد تقدم قول أبي سفيان في أول هذا الشرح في قصة هرقل حيث قال: «لقد أَمِر أَمْر ابن أبي كبشة»[(٢)]، أي: عظم، واختار الطبري قراءة الجمهور، واختار في تأويلها حملها على الظاهر وقال: المعنى: أمرنا مترفيها بالطاعة فعصوا، ثم أسنده عن ابن عباس، ثم سعيد بن جبير. وقد أنكر الزمخشري هذا التأويل وبالغ كعادته، وعمدة إنكاره: أن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، وتعقب: بأن السياق يدل عليه، وهو كقولك: أمرته فعصاني أي: أمرته بطاعتي فعصاني، وكذا أمرته فامتثل».

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] أي: كثرنا المترفين فيها فهلكوا، والمترفون هم: العصاة الذين اغتروا بما هم فيه من الترف فكثروا فأهلكهم الله، وقيل - على قراءة التشديد - «**أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا**»، يعني: جعلنا المترفين هم الأمراء والولاة.

وأما قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بمعنى سلطنا شرارها، فهذا على أن يكون المعنى: أمرناهم أمرًا قدريًا؛ فالأمر نوعان: أمر شرعي وأمر قدري؛ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. هذا أمر قدري؛ يقول: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ يعني: قدرنا.

(١) أحمد (٣/ ٤٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٩١).
(٢) أحمد (٣/ ٢٦٢)، والبخاري (٧).

بَابٌ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]

{٤٧١٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا أَبُو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ ﵇ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ. وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلَا تَرىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ- فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ- نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ. فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى

النَّاسِ، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضب بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ. فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَىٰ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، ٱشْفَعْ لَنَا، أَلَا تَرىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ- وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا- نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي ٱذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلَا تَرىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ. فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوىٰ ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرىٰ».

الشَّرْح

{٤٧١٢} هذا الحديث على هذه الآية الكريمة: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]. والشاهد: قوله في قصة نوح: «وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا»، وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يأكل اللحم وغيره من الطيبات، وهو أزهد الناس وأفضلهم ﷺ.

○ قوله: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ» فيه: الرد على بعض المتصوفة والمتزهدة الذين يمتنعون من الطيبات ويزعمون أنهم يزهدون في الدنيا، فهذا رسول الله أفضل الناس وسيدهم ومع ذلك كان يأكل اللحم، وجاء في الحديث الآخر: «**لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج**

النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١] فالزهد ليس في ترك الطيبات، وإنما الزهد في ترك المحرمات، والزاهد هو الذي يتورع عن المحرمات ولا يسرف في المباحات.

○ قوله: «فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً» النهسة: تكون بالأسنان.

○ قوله: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ»؛ فيه: فضل نبينا ﷺ وأنه سيد الأولين والآخرين ﷺ، وأما قوله في الحديث الآخر: لما قالوا: أنت سيدنا، قال: «**قولوا بقولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»[٢] فهذا من باب سد الذريعة؛ حتى لا يفضي بهم إلى الغلو.

○ قوله: «يَوْمَ القِيَامَةِ» فيه: إثبات القيامة، وإثبات البعث، والرد على من أنكره، وأن منكر البعث ومنكر القيامة كافر.

○ قوله: «يُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ»، فيه: إثبات حشر الناس وجمعهم في صعيد واحد.

وفيه: الشدة التي تصيب الناس يوم القيامة، وأن الشمس تدنو وتبقى في موقف القيامة، ثم بعد ذلك تكور الشمس والقمر ويلقيان في النار مع من عبدهما؛ قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التّكوير: ١] وهذا بعد الحساب، لكن في وقت الحساب تكون الشمس موجودة فوق الرءوس.

○ قوله: «فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ»، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدَّثر: ٨-١٠] هو شديد على الكفار، ولكن الله يسهله على المؤمنين.

وفيه: أن الناس يكونون في صعيد واحد وليس هناك حجب تحجب بينهم ليس هناك أشجار أو جبال أو جدران، وتكون الأرض قاعاً صفصفاً وتُزال

(١) أحمد (٢/ ١٨٥)، والبخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٢) أحمد (٣/ ٢٤٩)، وأبو داود (٤٨٠٦).

الجبال ويحشر الناس على أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد.

وفيه: أن الناس إذا اشتد بهم الكرب يموج بعضهم إلى بعض ويطلبون من يشفع لهم عند الله فيفزعون إلى الأنبياء؛ وذلك لأنهم أحياء في هذا الموقف، أما الميت فلا يطلب منه الشفاعة، فلو قال إنسان الآن: يا رسول الله، اشفع لي؛ فهذا لا يصح وهو الشرك؛ لأنه طلب الشفاعة من الميت، لكن طلب الشفاعة من الحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه لا بأس به.

وفيه: أن الأنبياء أفضل الناس؛ ولهذا يفزع الناس إليهم، فيأتون أولاً: آدم أبا البشر ثم يعتذر، وهو نبي مكلم، ثم نوحًا فيعتذر، ثم إبراهيم فيعتذر، ثم موسى فيعتذر، ثم عيسى فيعتذر، حتى يسأل الناس نبينا ﷺ. ولكن يرد سؤال هنا: لماذا لم يأت الناس إلى نبينا ﷺ من أول مرة؟ أليس عرفوا في الدنيا أنه لن يشفع إلا نبينا ﷺ؟ قد يقال: إن الله تعالى ينسيهم ذلك؛ ليظهر فضل نبينا ﷺ، أو إن الذين يذهبون إلى الأنبياء من الأمم السابقة لا يعلمون أن نبينا ﷺ هو الذي يشفع، وهذا محتمل.

وفيه: فضل آدم وأن الله خلقه بيده كما دل عليه القرآن الكريم؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [صٓ: ٧٥] ففيه: فضل آدم على غيره من المخلوقات؛ لأن المخلوقات خلقت بكلمة: كن، وآدم خلقه الله بيده.

○ قوله: «وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ» الضمير يعود إلى الله هنا، من إضافة المخلوق إلى خالقه للتشريف وليس الروح صفة لله ﷻ.

○ قوله: «وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ» هذه عبادة تعبدهم الله بها.

وفيه: فضل آدم عليه الصلاة والسلام.

○ قوله: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ» فيه: إثبات الغضب لله ﷻ - وأن الغضب من صفات الله - وأن صفات الله تتفاوت.

وفيه: الرد على من أنكر الغضب.

وفيه: إثبات الكلام لله ﷻ والرد على من أنكره من المعتزلة والأشاعرة والجهمية.

وفيه: أن الأمر شديد وعظيم؛ فالأنبياء - وهم أولو العزم - كل واحد يقول: نفسي نفسي.

○ قوله: «يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ» هذا لا ينفي خلة نبينا ﷺ، فإن إبراهيم خليل الله، ومحمد خليل الله؛ قال ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلا**»(١)، فإن كليهما خليل الله من أهل الأرض، ويحتمل أنهم نسوا خلة محمد ﷺ لكونه متأخرًا.

○ قوله: «وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ»، هذه الكذبات التي كذبها ليست كذبات صريحة، ولكنها تورية، وهي قوله عن زوجته: إنها أختي، وتأول أنها أخته في الإسلام؛ لئلا يأخذها الملك الظالم، وكذلك لما كسر الأصنام وسألوه: من فعل هذا؟ قال: هذا الصنم الكبير؛ ليريهم أن الأصنام لا تنفع ولا تضر، وكذلك لما قال: إني سقيم، وهذا من باب إيهامهم.

○ قوله: «يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ» فيه إثبات الكلام لله ﷻ والرد على من أنكره.

○ قوله: «إني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها» هذا قبل النبوة، وذلك عندما خرج ووجد إسرائيلياً وقبطياً يقتتلان، فاستغاث الإسرائيلي بموسى على القبطي فقتله موسى، أما بعد الرسالة فالأنبياء معصومون من الكبائر والشرك ومعصومون عن الخطأ فيما يبلغونه عن الله، أما الصغائر التي قد تقع فهي مغفورة، كما قال الله تعالى لنبيه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: ٢].

○ قوله: «فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ» فيه: فضل نبينا ﷺ وأنه أفضل الأنبياء وأنه الشافع المشفع في المحشر.

---

(١) مسلم (٥٣٢).

وفيه: إثبات الشفاعة العظمى لنبينا ﷺ وهي: المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

وفيه من الفوائد: أنه لا يستطيع أحد أن يشفع عند الله إلا بعد الإذن، ولو كان وجيها، ونبينا ﷺ أعظم الناس وجاهة، وإذا كان الله قال عن موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ٦٩﴾ [الأحزاب: ٦٩] فنبينا ﷺ أعظم وجاهة، ومع ذلك لا يستطيع أن يشفع حتى يأتيه الإذن من الله، ولا بد من الرضا عن المشفوع له؛ قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبيَاء: ٢٨] فلا يشفع إلا لمن ارتضى الله قوله وعمله، وقد جمع الله بين الشرطين في قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النّجم: ٢٦] فالنبي ﷺ لا يبدأ بالشفاعة أولًا.

○ قوله: «فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ» هذا هو الإذن.

○ قوله: «فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ» فأين الشفاعة العظمى في سياق الحديث؟ فهو لم يقل: يا رب أسألك الشفاعة لتقضي بين خلقك، بل قال: «أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ»، فأين الشفاعة العظمى في ضمن سؤاله لأمته الفصل بين الناس؟

والجواب: يحتمل أنه سقط على الراوي سؤاله القضاء بين الناس، كقوله: «**أنت تحكم بين عبادك**»(١)، وأحياناً إذا ذكر العلماء حديث الشفاعة ينتقلون من الشفاعة العظمى إلى الشفاعة في إخراج العصاة، ومقصودهم من ذلك: الرد على من أنكر الشفاعة في خروج العصاة من النار، وهم: الخوارج والمعتزلة، الذين أنكروا الشفاعة مع أن أحاديثها متواترة، وقالوا: إن من دخل النار لا يخرج

(١) أحمد (٦/ ١٥٦)، ومسلم (٧٧٠).

منها، بل يخلد أبد الآبدين، أما الشفاعة العظمى فليس فيها خلاف، أثبتها الخوارج والمعتزلة وغيرهم، وكذلك شفاعة الإذن في دخول الجنة ورفع الدرجات، وإنما الذي أنكروه: الشفاعة فيمن دخل النار من العصاة ليخرج منها، وفيمن استحقها ألا يدخلها؛ ولهذا لم يذكر في هذا الحديث الشفاعة العظمى؛ لأنه لا خلاف بينهم عليها ولا إشكال فيها.

○ قوله: «فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوىٰ ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ»، فيه: إثبات الجنة والنار، وأن من لم يؤمن بالجنة والنار فهو كافر؛ لأنه من الإيمان باليوم الآخر.

ولا شك أن هناك باب خاص يسمى: الباب الأيمن يدخل منه المؤمنون الذين لا حساب عليهم.

وفيه: إثبات أن بعض المؤمنين لا حساب عليهم، كما جاء في الحديث الآخر: «**من هذه الأمة سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»[(١)] وهؤلاء يدخلون من الباب الأيمن.

○ قوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» فيه: الحلف وإثبات اليد لله ﷻ، وأن نفوس العباد بيد الله ﷻ.

○ قوله: «إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ»، يعني: الدرفتين من أحد الأبواب؛ كل درفة مصراع.

○ قوله: «مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ» حمير باليمن.

وفيه: سعة أبواب الجنة؛ ولهذا جاء في بعض الروايات: «**كما بين مكة وهجر**»[(٢)] والمراد: المسافة بين مكة وهجر.

○ قوله: «أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرىٰ» بصرى بالشام، وجاء في الحديث

(١) أحمد (١/ ٢٧١)، والبخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(٢) أحمد (٢/ ٤٣٥)، ومسلم (١٩٤).

الآخر - مع هذه المسافة التي بينهما - قال: «**وإنه ليأتي عليه يوم وهو كظيظ من الزحام**»[(١)]؛ وذلك من كثرة الداخلين، فالمسافة بعيدة بين مكة والشام، أو ما بين مكة واليمن، وهذا اتساع ما بين الدرفتين، فمع طول المسافة إلا أنه يكون هناك كظيظ وزحام شديد من كثرة الداخلين.

(١) أحمد (٤/ ١٧٤)، ومسلم (٢٩٦٧).

بَابُ قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]

{٤٧١٣} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ نَصْرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خُفِّفَ عَلَىٰ دَاوُدَ القِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ لِتُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ». يَعْنِي: القُرْآنَ.

الشَّرْح

{٤٧١٣} قوله: «خُفِّفَ عَلَىٰ دَاوُدَ القِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ لِتُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ». يَعْنِي: القُرْآنَ» والمراد بالقرآن: القراءة، أي: خفف قراءته للزبور، وليس المراد القرآن المعهود لهذه الأمة؛ لأن القرآن لم ينزل إلا على هذه الأمة، وفي رواية: «**خفف عليه القراءة**»[1] أي: قراءة الزبور.

وهذا الحديث على قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١٦٣] وداود نبي من أنبياء بني إسرائيل أمر بالعمل بالتوراة؛ لأنه جاء بعد موسى والأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى كلهم كلفوا بالعمل بالتوراة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المَائدة: ٤٤] حتى بعث الله عيسى وأنزل عليه الإنجيل، والإنجيل فيه تخفيف لبعض الأحكام التي جاءت في التوراة وتحليل لبعض المحرمات؛ قال الله تعالى على لسان عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ٥٠]، وأما الزبور - وهو كتاب أنزله الله على داود - فهو مواعظ وعبر، أما الأحكام فإنهم كلفوا بالعمل بالتوراة. وقيل: من المواعظ التي في الزبور: عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبتُ لمن رأى الدنيا وسرعة تقلبها كيف يطمئن إليها، وعجبتُ للنار كيف نام هاربها، وعجبتُ للجنة كيف ينام طالبها.

قيل: إن هذه المواعظ التي في الزبور كان داود ﷺ يتعبد لله بقراءتها.

(١) «فتح الباري» (٨/ ٣٩٧).

والرسول هو: الذي يبعث إلى أمة يؤمن به من قومه بعضهم ويرد دعوته بعضهم، وأما النبي فهو: الذي يبعث إلى المؤمنين خاصة، ويكلف بالعمل بشريعة سابقة، وقد يوحى إليه وحي خاص في مسألة.

بَابٌ قوله:

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٥٦]

{٤٧١٤} حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الجِنِّ، فَأَسْلَمَ الجِنُّ، وَتَمَسَّكَ هٰؤلاء بِدِينِهِمْ. زَادَ الأَشْجَعِيُّ عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ. ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ [الإسراء: ٥٦].

الشَّرح

○ قوله: «﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾» هذه الآية فيها الرد على المشركين الذين يعبدون غير الله، ويدعونهم في كشف الضر وجلب النفع، يقول: كيف تعبدون من لا يستحق العبادة وليس لهم قدرة كشف الضر أو جلب النفع؟! وزعمتم أنهم آلهة واعتقدتم ذلك.

○ وقوله: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي: لا يملكون إزالة الضر ولا يملكون تحويله من حال إلى حال. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] الوسيلة: هي القربة، أي: يتقربون إليه بطاعته، وهذه الآية نزلت في الذين يعبدون غير الله وهم مؤمنون، فأولئك الذين يدعونهم من دون الله يطلبون القربة إلى الله ويرجون الله ويخافونه!

{٤٧١٤} قوله: «﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الجِنِّ، فَأَسْلَمَ الجِنُّ»، يعني: ولم يعلم بهم الإنس.

○ قوله: «وَتَمَسَّكَ هٰؤلاء»، يعني: الإنس «بِدِينِهِمْ»، وهو: عبادتهم الجن.

○ قوله: «زَادَ الأَشْجَعِيُّ عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَش، ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾»، يعني: أناس من الإنس كانوا يعبدون أناساً من الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس

على عبادتهم فقال الله لهم: إن هؤلاء الذين تدعونهم وتعبدونهم من دون الله يطلبون الوسيلة إلى الله، ويرجون رحمة الله ويخافون عذابه؛ فيقول: فكيف تعبدونهم وهذا حالهم؟!

بَابُ قوله:
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ الآيَةَ [الإسراء: ٥٧]

{٤٧١٥} حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ فِي هٰذِهِ الآيَةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] قَالَ: نَاسٌ مِنَ الجِنِّ كَانُوا يُعْبَدُونَ فَأَسْلَمُوا.

الشَّرْح

{٤٧١٥} هذا الحديث أتى به المصنف على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ [الإسرَاء: ٥٦] وأتى به على الآية الثانية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ﴾، والوسيلة معناها: القربة إلى الله بطاعته.

بَابُ قوله:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]

{٤٧١٦} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ [الإسراء: ٦٠]: شَجَرَةُ الزَّقُّومِ.

الشَّرْح

{٤٧١٦} قوله: «عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ»، والمراد بالرؤيا التي أريها هي الآيات التي أريها، وروي عن ابن عباس أنه قال: الرؤيا يعني: رؤيا الله، لكن هذا ضعيف، فالرؤيا هي: الآيات التي أريها ليلة الإسراء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النّجم: ١٨].

○ قوله: «﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾: شَجَرَةُ الزَّقُّومِ» ومعنى الملعونة: المذمومة، واللعن: الذم، لا الشتم المعروف؛ وذلك أن الله ذمها في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدّخان: ٤٣-٤٦] وهذا ذم لها ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصّافات: ٦٥]، ومن ذم شخصاً فقد لعنه، ومن ذم شيئاً فقد لعنه، وهي شجرة تنبت في النار ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصّافات: ٦٤] يأكلها أهل النار، وهي خبيثة الطعم تبقى في الحلق لا تدخل ولا تخرج.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «واستدل به على إطلاق لفظ الرؤيا على ما يرى بالعين في اليقظة، وقد أنكره الحريري وقال: إنما يقال رؤيا في المنام، وأما التي في اليقظة فتسمى رؤية».

بَابُ قوله:

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]

قَالَ مُجَاهِدٌ: صَلَاةَ الفَجْرِ.

{٤٧١٧} حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ وَابْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فَضْلُ صَلَاةِ الجَمِيعِ عَلَىٰ صَلَاةِ الوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ». يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

الشَّرح

○ قوله: «باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: صَلَاةَ الفَجْرِ» سميت صلاة الفجر قرآنًا لطول القراءة فيها.

○ قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾، أي: وصلاة الفجر.

○ قوله: ﴿مَشْهُودًا ۝٧٨﴾، أي: تشهده الملائكة وتحضره.

{٤٧١٧} قوله: «فَضْلُ صَلَاةِ الجَمِيعِ»، يعني: الجماعة.

○ قوله: «عَلَىٰ صَلَاةِ الوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً»، في الحديث الآخر: «**تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ بسبع وعشرين**»(١) قال العلماء: وكان هذا أولًا أي: خمس وعشرون، ثم زاده الله فضلًا منه وكرمًا.

○ قوله: «وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ»، يعني: في صلاة الصبح.

○ قوله: «يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾»، يعني: تشهده الملائكة، وفي الحديث الآخر: أنهم يجتمعون

(١) أحمد (٢/ ٦٥)، والبخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠).

في صلاة الصبح وصلاة العصر، وفي صلاة العصر تنزل ملائكة الليل وتصعد ملائكة النهار، وفي صلاة الصبح تنزل ملائكة النهار وتصعد ملائكة الليل، فيجتمعون في الصلاتين[(١)].

وفيه: فضل هاتين الصلاتين؛ ولهذا جاء في الحديث: «**من صلى البردين دخل الجنة**»[(٢)] والبردان: الصبح والعصر؛ لأنهما يقعان في آخر النهار وأول الليل.

(١) أحمد (٢/ ٣٤٤)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).
(٢) أحمد (٤/ ٨٠)، والبخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

بَابُ قوله:

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]

{٤٧١٨} حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَصِ، عَنْ آدَمَ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ ٱشْفَعْ، يَا فُلَانُ ٱشْفَعْ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ.

{٤٧١٩} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَيَّاشٍ، حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ».

رَوَاهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

الشرح

○ قوله: «باب قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾» سبق ذكر أن المقام المحمود هو: الشفاعة العظمى، وجاء في آثار عن مجاهد أنه: إجلاسه على العرش، وإن صح هذا فيكون المقام المحمود نوعين، لكن ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) أن جلوسه على العرش هذا جاء عن مجاهد في آثار، وهو صحيح، ولم يأت مرفوعًا، وأن رفعه خطأ، وقال: إن هذا ثابت عن السلف، لكن فرق بين الرواية عن مجاهد والرواية عن النبي ﷺ، وإن كان هذا ثابتًا.

وقال ابن القيم في هذا: هو قول أهل السنة، ولم يخالف في هذا إلا أهل البدع، وهو جلوسه على العرش، لكن الآثار جاءت عن مجاهد، ومجاهد يروي

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٧٤).

عن ابن عباس، وقد يقال: إن مثل هذا لا يقال بالرأي؛ فله حكم الرفع وابن عباس وإن كان يأخذ عن بني إسرائيل فلا يمكن أن يأخذ مثل هذا عنهم.

{٤٧١٨} قوله: «إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا»؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

○ قوله: «كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ»، أي: الشفاعة العظمى.

❖ ❖ ❖

{٤٧١٩} قوله: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبَّ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ» الشاهد قوله: «وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا» وهذه هي الشفاعة العظمى.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩] وصححه الحاكم[(١)]، ولا منافاة بينه وبين حديث ابن عمر في الباب؛ لأن هذا الكلام كأنه مقدمة الشفاعة. وروى ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن أبي هلال أنه بلغه أن المقام المحمود الذي ذكره الله أن النبي ﷺ يكون يوم القيامة بين الجبار وبين جبريل، فيغبطه لمقامه ذلك أهل الجمع. ورجاله ثقات، لكنه مرسل، ومن طريق علي بن الحسين بن علي قال: أخبرني رجل من أهل العلم أن النبي ﷺ قال: «**تمد الأرض مد الأديم**» الحديث.

وفيه: «**ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول: أي رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض. قال: فذلك المقام المحمود**»[(٢)] ورجاله ثقات، وهو صحيح إن كان الرجل صحابيًا. وقد تقدم في «كتاب الزكاة» أن المراد بالمقام المحمود: أخذه بحلقة باب الجنة، وقيل: إعطاؤه لواء الحمد، وقيل: جلوسه على العرش؛

(١) «المستدرك» (٤/ ٥٤١).
(٢) «المستدرك» (٤/ ٦١٤).

أخرجه عبد بن حميد وغيره عن مجاهد، وقيل: شفاعته رابع أربعة، وسيأتي بيانه في «كتاب الرقاق» إن شاء الله تعالى».

زاد البيهقي في الحديث: «**إنك لا تخلف الميعاد**»[(١)] وهي زيادة ثابتة، لكن قال بعضهم: إنها شاذة على طريقة المتقدمين؛ يعني: تفرد بها بعض الرواة، وعلى طريقة الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الزيادة من الثقة مقبولة.

والوسيلة: هي درجة النبي ﷺ وبيته في الجنة، وقال ﷺ: «**لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو**»[(٢)] وأما زيادة بعضهم: «**والدرجة الرفيعة**»[(٣)]، فهذه خطأ؛ لأن الوسيلة هي الدرجة الرفيعة.

(١) «سنن البيهقي الكبرى» (١/ ٤١٠).
(٢) أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٣٨٤).
(٣) ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١/ ١٨٠).

بَابٌ قوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]

يَزْهَقُ: يَهْلِكُ.

{٤٧٢٠} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩].

الشَّرح

هذا الحديث على هذه الآية: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

○ قوله: «يَزْهَقُ: يَهْلِكُ»، أي: يذهب ويضيع.

{٤٧٢٠} قوله: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ»، يعني: يوم الفتح.

○ قوله: «وَحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ نُصُبٍ»، والنصب: هي الأحجار التي يذبح عليها للأصنام ومنها: هُبَل، وفي اللفظ الآخر: «صنم»(١).

○ قوله: «فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ»، وهي تتساقط على وجوهها، «وَيَقُولُ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]»، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩] كيف وصلت الحال بهم إلى هذا الأمر؟! ستون وثلاثمائة من الأصنام حول البيت وهم يزعمون أنهم خير الناس؛ لأنهم أهل الحرم وجيران بيت الله، هذا أمر عظيم، يدل على شدة تعلقهم بالأصنام فإذا كان هذا عددها في جوف الكعبة فكيف بعددها في الأماكن

(١) أحمد (٤/ ١١٢)، ومسلم (١٧٨١).

الأخرى؟! كان في كل بيت صنم، وكل قبيلة عندها صنم. لكن الحمد لله الذي مَنَّ على نبيه محمد ﷺ بفتح مكة وتطهير بيته الحرام من معاقل الشرك والمشركين.

ولا شك أن أعظم المنكر الشرك بالله، ولهذا يجب تكسير الأصنام وإزالتها مع القدرة، كما فعل النبي ﷺ، وقد قال ﷺ: «**بعثت بكسر الأصنام وصلة الأرحام**»[(١)].

ولهذا لما فتح النبي ﷺ الطائف أمر بإزالة اللّات، فسأله أهل الطائف أن يبقيه لهم ثلاث سنين؛ لأنهم متعلقون به فأبى، فسألوه أن يبقيه سنة فأبى، فسألوه أن يبقيه لهم شهراً أو ثلاثة أيام فأبى النبي ﷺ أن يبقيه ولو للحظة[(٢)].

---

(١) أحمد (٤/ ١١٢)، ومسلم (٨٣٢).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٥/ ٢٢٥)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٨٠).

بَابٌ قوله:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى﴾

[الإسراء: ٨٥]

{٤٧٢١} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﵁ قَالَ: بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ وَهْوَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ عَسِيبٍ إِذْ مَرَّ اليَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ فَقَالُوا: سَلُوهُ. فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِم شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

الشَّرح

{٤٧٢١} هذا حديث عبد الله بن مسعود ﵁ على هذه الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ في قصة اليهود.

○ قوله: «إِذْ مَرَّ اليَهُودُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا رَابَكُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ فَقَالُوا: سَلُوهُ. فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِم شَيْئًا» فقال ابن مسعود: «فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]» يعني: الروح من مأمور ربي؛ فهي من مخلوقاته ولا يعلم حقيقتها إلا الله.

بَابٌ

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]

{٤٧٢٢} حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، كَانَ إِذَا صَلَّىٰ بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠] أَيْ: بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ، فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمْ ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

{٤٧٢٣} حَدَّثَنِي طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ، حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: أُنْزِلَ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ.

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسرَاء: ١١٠]. المراد بالصلاة هنا: القراءة في الصلاة.

{٤٧٢٢} قوله: «نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، كَانَ إِذَا صَلَّىٰ بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أَيْ: بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ، فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمْ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠﴾ [الإسرَاء: ١١٠]» فيقرأ قراءة ليس فيها جهر حتى لا يسبه المشركون، وليس فيها إسرار حتى يسمعه أصحابه.

❖ ❖ ❖

{٤٧٢٣} قوله في حديث عائشة رضي الله عنها: «قَالَتْ: أُنْزِلَ ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ» وفي

حديث ابن عباس رَضِيَالِلَّهُعَنْهُمَا: أنزلت في القراءة، ولا مانع من شمول الآية للصلاة والدعاء في داخل الصلاة وخارجها يعني: من الجهر وعند حصول المضرة يسر، وعند الحاجة إلى رفع الصوت للتعليم أو غيره فإنه يجهر، وهذا فيه دليل على أن الآية نزلت بمكة قديمًا قبل الهجرة.

وفي هذا الحديث: دليل لمن يقول بسد ذريعة سب المشركين بل من أقوى الأدلة وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعَام: ١٠٨] فالجهر بالصلاة ذريعة لسبهم.

وفيه: أن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، فإذا كان رفع الصوت فيه مصلحة، فإنه يُمنع منه إذا كان يترتب عليه مفسدة؛ فتدفع المفسدة بخفض الصوت.

١٨- ومن سورة الكَهْفِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ تَتْرُكُهُمْ، ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: جَمَاعَةُ الثَّمَرِ. ﴿بَٰخِعٌ﴾ مُهْلِكٌ ﴿أَسِفًا﴾ نَدَمًا. الكَهْفُ: الفَتْحُ فِي الجَبَلِ. وَالرَّقِيمُ: الكِتَابُ، مَرْقُومٌ مَكْتُوبٌ مِنَ الرَّقْمِ. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَلْهَمْنَاهُمْ صَبْرًا. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. ﴿شَطَطًا﴾ إِفْرَاطًا. ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ الفِنَاءُ جَمْعُهُ وَصَائِدُ وَوُصُدٌ وَيُقَالُ: الوَصِيدُ البَابُ. ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مُطْبَقَةٌ آصَدَ البَابَ وَأَوْصَدَ ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أَحْيَيْنَاهُمْ ﴿أَزْكَىٰ﴾ أَكْثَرُ، وَيُقَالُ: أَحَلُّ، وَيُقَالُ: أَكْثَرُ رَيْعًا. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم﴾ لَمْ تَنْقُصْ. وَقَالَ سَعِيدٌ عَنِ ابن عَبَّاسٍ: الرَّقِيمُ اللَّوْحُ مِنْ رَصَاصٍ، كَتَبَ عَامِلُهُمْ أَسْمَاءَهُمْ ثُمَّ طَرَحَهُ فِي خِزَانَتِهِ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ آذَانِهِمْ فَنَامُوا. وَقَالَ غَيْرُهُ: وَأَلَتْ تَئِلُ تَنْجُو. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَوْئِلًا﴾ مَحْرِزًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لَا يَعْقِلُونَ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿بَٰخِعٌ﴾ مُهْلِكٌ» أي: نفسك.

○ قوله تعالى: «﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾: ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: جَمَاعَةُ الثَّمَرِ» والأقرب: أنه على ظاهره.

○ قوله: «﴿أَسَفًا ۝٦﴾: نَدَمًا».

○ قوله: «﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾: لم تنقص».

○ قوله: «وألت تئل: تنجو».

○ قوله: «﴿دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾: محرزًا» وقيل: ملجأً، وقيل: مرجعًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ [الكهف: ٥٨].

○ قوله: «﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾: لَا يَعْقِلُونَ»، يعني: لا يفهمون؛ لأن الله لم يوفقهم لسماع الخير.

بَابُ قوله:

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]

{٤٧٢٤} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخْبَرَهُ، عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ قَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟».

﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] لَمْ يَسْتَبِنْ. ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]: نَدَمًا ﴿سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]: مِثْلُ السُّرَادِقِ، وَالْحُجْرَةِ الَّتِي تُطِيفُ بِالْفَسَاطِيطِ، ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾ [الكهف: ٣٧] مِنَ الْمُحَاوَرَةِ ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨] أَيْ: لكن أَنَا هُوَ اللهُ رَبِّي، ثُمَّ حَذَفَ الأَلِفَ وَأَدْغَمَ إِحْدَى النُّونَيْنِ فِي الأُخْرَىٰ. ﴿زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠] لَا يَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ. ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ [الكهف: ٤٤]: مَصْدَرُ الوَلِيِّ. ﴿عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]: عَاقِبَةٌ وَعُقْبَىٰ وَعُقْبَةٌ وَاحِدٌ، وَهِيَ الآخِرَةُ قِبَلًا وَ﴿قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥] وَقَبَلًا: ٱسْتِئْنَافًا ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ [الكهف: ٥٦]: لِيُزِيلُوا، الدَّحْضُ: الزَّلَقُ.

الشَّرح

قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف: ٥٤] يعني: طبيعة الإنسان الجدال والخصومة.

{٤٧٢٤} ذكر المؤلف رحمه الله حديث عليّ رضي الله عنه وهو من رواية علي بن الحسين عن حسين بن عليّ عن عليّ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ، قَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟»، والطروق إنما يكون ليلًا، وتمام الحديث أن عليًا قال: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثها بعثها فولى النبي ﷺ وهو يضرب يده على فخذه ويقول: «﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف: ٥٤]» وهذا هو الشاهد للترجمة ولم يذكر المؤلف بقية الحديث.

○ قوله: «﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾، مِنَ الْمُحَاوَرَةِ» وهذا في قصة رجلين أحدهما كان كافراً بما أنعم الله عليه وبما أعطاه من الأموال، حتى جره ذلك إلى

إنكار الساعة، وشك في القيامة والبعث، ومن شك في البعث فهو كافر بإجماع المسلمين، ولهذا قال له صاحبه: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ والكفر في قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يعني: أشك في قيام الساعة، الكفر يكون بالشك، ويكون - أيضاً - بالجحود وبالقول وبالفعل وبالترك والإعراض وبالاعتقاد.

○ قوله: «﴿قُبُلًا ۝٥٥﴾ وقِبَلًا وقَبَلًا: ٱسْتِئْنَافًا» أي: يرونه عياناً مواجهة ومقابلة.

○ قوله: «﴿فُرُطًا ۝٢٨﴾ يقال: نَدَمًا».

○ قوله: «﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾، يقول: بينهما» أي: نهرًا.

○ قوله: «﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، أَيْ: لكن أَنَا هُوَ اللهُ رَبِّي، ثُمَّ حَذَفَ الأَلِفَ وَأَدْغَمَ إِحْدى النُّونَيْنِ فِي الأُخْرىٰ» يقول: أصلها: لكن أنا هو الله ربي، حذفت الهمزة فالتقت النون بالنون وشددتا فصارت ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾.

○ قوله: «﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، مَصْدَرُ الوَلِيِّ»، اكتفى هنا بذكر المصدر والوَلاية - بفتح الواو - بمعنى: النصرة والأخوة والمحبة، أما الوِلاية - بالكسر - فهي الإمارة.

○ قوله: «﴿لِيُدْحِضُواْ﴾: لِيُزِيلُوا»، الدَّحْضُ: الزَّلَقُ.

بَابُ قوله:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ [الكهف: ٦٠]

زَمَانًا، وَجَمْعُهُ: أَحْقَابٌ.

{٤٧٢٥} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا البِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ صَاحِبَ الخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَىٰ صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مُوسَىٰ قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ ثُمَّ ٱنْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَسَقَطَ فِي البَحْرِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ، فَلَمَّا ٱسْتَيْقَظَ، نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّىٰ جَاوَزَ المَكَانَ الذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ. فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ لَا وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلِمُوسَىٰ وَلِفَتَاهُ عَجَبًا. فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤﴾ [الكهف: ٦٤] قَالَ: رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى ٱنْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى ثَوْبًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ. فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ

لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا. قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، يَا مُوسَىٰ إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ. فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا لَّا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]. فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ، فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُومِ. فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]. قَالَ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَكَانَتِ الأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا» قَالَ: «وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هٰذَا العُصْفُورُ مِنْ هٰذَا البَحْرِ. ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، إِذْ أَبْصَرَ الخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ رَأْسَهُ بِيَدِهِ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ. فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا لَا قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٦٩-٧٥] قَالَ: وهٰذَا أَشَدُّ مِنَ الأُولَىٰ، قَالَ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦] ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] -قَالَ مَائِلٌ- فَقَامَ الخَضِرُ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧] بِيَدِهِ. فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، وَلَمْ يُضَيِّفُونَا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]. قَالَ: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ﴾ [الكهف: ٧٨] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا».

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَكَانَ ابن عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا، وَكَانَ يَقْرَأُ وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ.

الشَّرْح

هذا الحديث الطويل ساقه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف: ٦٠].

○ قوله: ﴿حُقُبًا﴾ «زَمَانًا، وَجَمْعُهُ: أَحْقَابٌ» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

{٤٧٢٥} أتى المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الحديث بطوله، وهو تفسير للآيات التي ذكرها الله تعالى في هذه القصة، ثم أعاده أيضًا مرة ثانية على الآية التي بعدها، وهذا قليل من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، فالغالب أنه يقطع الأحاديث على حسب التراجم، وأحيانا ينشرح صدره فيسوق الحديث بطوله كما في هذه القصة، وكما في قصة الإفك، وهذا الحديث يدور على سعيد بن جبير وأنه سأل ابن عباس: «قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا البِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ صَاحِبَ الخَضِرِ لَيْسَ هُوَ مُوسَىٰ صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ» هذا من باب الشدة في الرد والإنكار، ليؤكد أنه موسى بني إسرائيل، وهذه الكلمة لا يريد بها معناها؛ لأن نوفًا البِكالي مؤمن وليس عدوًا لله، ولكن هذا مما يجري على اللسان من غير قصد مثل: عقرى حلقى، ومثل: ثكلتك أمك.

وفيه: دليل على أن القصة إنما حصلت مع موسى بني إسرائيل عليه الصلاة والسلام وهو من أولي العزم الخمسة، وسبب ذلك: أن «مُوسَىٰ قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ»، فيه: أنه لاينبغي للإنسان ولو كان نبيًا كريمًا أن يقول: أنا أعلم الناس؛ ولهذا عتب الله على موسى عليه الصلاة والسلام إذ لم يرد العلم إليه.

○ قوله: «فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا

فَقَدْتَ الحُوتَ فَهْوَ ثَمَّ» يعني: تجده في ذلك المكان، و«ثَمَّ»: ظرف مكان.

وفيه: مشروعية الرحلة في طلب العلم، وأخذ العلم عمن هو دونه؛ فإن موسى رحل وسافر في طلب العلم، وأخذ العلم عن الخضر - والخضر فيه وجهان: الخَضِر والخِضْر - وهو دونه بلا إشكال؛ لأن موسى من أولي العزم الخمسة، وأما الخضر فاختلف فيه، هل هو نبي أو عبد صالح؟ والجمهور على أنه عبد صالح، والصواب: أنه نبي؛ لأمور متعددة في القصة، منها:

١- أنه لا يمكن أن يعمل هذه الأعمال - خرق السفينة وقتل الغلام - من غير وحي.

٢- أنه قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢]، يعني: وإنما فعلته عن أمر الله، كذلك أيضًا: لما أقام الجدار وقال: إن تحته كنز ليتيمين في المدينة فأراد ربك أن يبلغا أشدهما، فمن أين يعلم هذا إلا بوحي من الله؟ وهذه من أمور الغيب، جدار تحته كنز، ثم هذا الكنز ليتيمين، ثم هذان اليتيمان سيعيشان ويبلغان أشدهما ويأخذان كنزهما فلا يعلم هذا إلا بوحي من الله.

٣- قوله: «إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ» وهذا لا شك من النبوة.

وفيه: دليل على إحياء الله الموتى في إحياء الحوت، فإنهما أخذا معهما «حوتًا»، وفي اللفظ الآخر: «**حوتًا مالحًا**»[(١)]، حوتًا يريدان أكله، فأتاه رشاش من عين فاضطرب ودخل البحر، أحياه الله فجاءت الحياة إليه ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف: ٦١] صار يمشي في البحر، والله على كل شيء قدير، وهذا من آيات الله العظيمة.

○ قوله: «وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق» يشاهده موسى، والحكمة - والله أعلم - ليعلم موسى مكان الحوت.

---

(١) مسلم (٢٣٨٠).

وفيه: أن موسى لم يسافر وحده، وإنما سافر ومعه فتاه: يُوْشَع بن نُون، وثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لو يعلم المسافر ما في الوحدة ما ذهب راكب بليل، أو ما سار راكب بليل**»[(١)] وهذا في شرعنا وفي شرع من قبلنا، ويوشع بن نون صار نبيًا بعد موسى عليه الصلاة والسلام، وهو الذي فتح الله به بيت المقدس، وهو الذي قاد بني إسرائيل، وهو الذي أمسك الله له الشمس حتى تم الفتح قال: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا، ولم تمسك الشمس لأحد إلا ليوشع بن نون، أمسكها الله حتى تم الفتح، وأما ما يروى من آثار أنها مسكت لعلي بن أبي طالب فهذه كلها آثار لا تثبت، وإنما هي من أخبار الشيعة والرافضة.

وفيه: أن موسى عليه السلام ليست نبوته عامة، وإنما هي نبوة خاصة لبني إسرائيل؛ ولهذا سأله الخضر عليه السلام وقال: «أَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟» كأن الخضر بأرض ليس فيها مسلمون؛ ولهذا تعجب الخضر من إلقاء موسى السلام.

○ قوله: «أَنَا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ» فيه: دليل على أن نبوة موسى خاصة ببني إسرائيل، وهذا ثابت في الأحاديث، ومنه قول النبي ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**»[(٢)].

وفيما قصه الله سبحانه وتعالى علينا من أن الخضر اشترط على موسى الصبر، فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾ [الكهف: ٦٩] تعليق الأمر بالمشيئة.

وفيه: أنهما لما كانا «يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ، فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ» يعني: بغير أجرة لما عرفوا أنه الخضر.

وفيه: أن «الْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ»، لأن هذه السفينة

---

(١) البخاري (٢٩٩٨).
(٢) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

لمساكين، وكان أمامهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة، فأراد أن يجعل فيها عيباً حتى تبقى لهم.

وفيه: دليل على أن المسكين قد يملك شيئًا من المال إلا أنه لا يجد الكفاية، بخلاف الفقير فإنه لا يجد شيئًا أو يجد نصف الكفاية.

وفيه: أن الخضر قال لموسى لما خرق السفينة: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف: ٧٢]، ولما قتل الغلام أكد ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥]؛ لأن إنكاره أشد في قتل الغلام، وقتل هذا الغلام من العلم الذي أطلع الله عليه الخضر.

○ قوله: «قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَكَانَ ابن عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا» وراء تستخدم للأمام وللخلف، وهذه تحمل على أنها تفسير يعني: كان أمامهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا، وكأن الخضر عرف أن هذا الملك يأخذ السفينة الصالحة؛ إما لأنه أعلن ذلك، أو لأنه عرف ذلك منه.

○ قوله: «وَكَانَ يَقْرَأُ: وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ» هذه تحمل على أنها تفسير.

وفي الحديث: أن علم الله واسع محيط بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطَّلَاق: ١٢]، وأن علم الخلق كلهم لا يساوي شيئًا بالنسبة إلى علم الله؛ ولهذا لما نقر عصفور في حرف السفينة بمنقاره قال الخضر: «مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هٰذا العُصْفُورُ مِنْ هٰذا البَحْرِ».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف: ٦١]

﴿سَرَبًا﴾: مَذْهَبًا، يَسْرُبُ: يَسْلُكُ، وَمِنْهُ ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]

{٤٧٢٦} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ: أَخْبَرَنِي يَعْلَىٰ بْنُ مُسْلِمٍ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ -يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ صَاحِبِهِ، وَغَيْرُهُمَا قَدْ سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُهُ عَنْ سَعِيدٍ- قَالَ إِنَّا لَعِنْدَ ابن عَبَّاسٍ فِي بَيْتِهِ، إِذْ قَالَ: سَلُونِي. قُلْتُ: أَيْ أَبَا عَبَّاسٍ -جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ- بِالْكُوفَةِ رَجُلٌ قَاصٌّ يُقَالُ: لَهُ نَوْفٌ، يَزْعُمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ. أَمَّا عَمْرٌو فَقَالَ لِي: قَالَ: قَدْ كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ، وَأَمَّا يَعْلَىٰ فَقَالَ لِي: قَالَ ابن عَبَّاسٍ: حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مُوسَىٰ رَسُولُ اللهِ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قَالَ: ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّىٰ إِذَا فَاضَتِ العُيُونُ، وَرَقَّتِ القُلُوبُ وَلَّىٰ، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا. فَعَتَبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَىٰ اللهِ. قِيلَ: بَلَىٰ. قَالَ: أَيْ رَبِّ، فَأَيْنَ؟ قَالَ: بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ. قَالَ: أَيْ رَبِّ، ٱجْعَلْ لِي عَلَمًا أَعْلَمُ ذَلِكَ بِهِ». فَقَالَ لِي عَمْرٌو قَالَ: «حَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ». وَقَالَ لِي يَعْلَىٰ قَالَ: «خُذْ نُونًا مَيِّتًا حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، فَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ. قَالَ مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠]: يُوشَعَ بْنِ نُونٍ- لَيْسَتْ عَنْ سَعِيدٍ- قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرْيَانَ، إِذْ تَضَرَّبَ الحُوتُ، وَمُوسَىٰ نَائِمٌ، فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أُوقِظُهُ. حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ، وَتَضَرَّبَ الحُوتُ، حَتَّىٰ دَخَلَ البَحْرَ فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ جِرْيَةَ البَحْرِ حَتَّىٰ كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ- قَالَ لِي عَمْرٌو هَكَذَا كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ، وَحَلَّقَ بَيْنَ إِبْهَامَيْهِ وَاللَّتَيْنِ تَلِيَانِهِمَا- ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] قَالَ:

قَدْ قَطَعَ اللهُ عَنْكَ النَّصَبَ -لَيْسَتْ هٰذِهِ عَنْ سَعِيدٍ- أَخْبَرَهُ، فَرَجَعَا فَوَجَدَا خَضِرًا. قَالَ لِي عُثْمَانُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ: عَلَىٰ طِنْفِسَةٍ خَضْرَاءَ عَلَىٰ كَبِدِ البَحْرِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مُسَجًّى بِثَوْبِهِ قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ، وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ؟ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: جِئْتُ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا. قَالَ: أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الوَحْيَ يَأْتِيكَ؟ يَا مُوسَىٰ، إِنَّ لِي عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَهُ، وَإِنَّ لَكَ عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَهُ. فَأَخَذَ طَائِرٌ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ، وَقَالَ: واللهِ مَا عِلْمِي وَمَا عِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ هٰذا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ. حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ وَجَدَا مَعَابِرَ صِغَارًا تَحْمِلُ أَهْلَ هٰذا السَّاحِلِ إِلَىٰ أَهْلِ هٰذا السَّاحِلِ الآخَرِ عَرَفُوهُ، فَقَالُوا: عَبْدُ اللهِ الصَّالِحُ -قَالَ: قُلْنَا لِسَعِيدٍ: خَضِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ- لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ. فَخَرَقَهَا وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا. قَالَ مُوسَىٰ ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]- قَالَ مُجَاهِدٌ: مُنْكَرًا- قَالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] -كَانَتِ الأُولَىٰ نِسْيَانًا، وَالْوُسْطَىٰ شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا- قَالَ: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، ﴿لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ [الكهف: ٧٤]- قَالَ يَعْلَىٰ: قَالَ سَعِيدٌ: وَجَدَ غِلْمَانًا يَلْعَبُونَ، فَأَخَذَ غُلَامًا كَافِرًا ظَرِيفًا فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ. قَالَ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤] لَمْ تَعْمَلْ بِالْحِنْثِ- وَكَانَ ابن عَبَّاسٍ قَرَأَهَا: زَكِيَّةً زَاكِيَةً مُسْلِمَةً. كَقَوْلِكَ: غُلَامًا زَكِيًّا- فَانْطَلَقَا، فَوَجَدَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ- قَالَ سَعِيدٌ بِيَدِهِ: هَكَذَا، وَرَفَعَ يَدَهُ فَاسْتَقَامَ. قَالَ يَعْلَىٰ: حَسِبْتُ أَنَّ سَعِيدًا قَالَ: فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]- قَالَ سَعِيدٌ: أَجْرًا نَأْكُلُهُ. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ [الكهف: ٧٩]، وَكَانَ أَمَامَهُمْ- قَرَأَهَا ابن عَبَّاسٍ: أَمَامَهُمْ مَلِكٌ- يَزْعُمُونَ عَنْ غَيْرِ سَعِيدٍ أَنَّهُ هُدَدُ بْنُ بُدَدٍ، وَالْغُلَامُ المَقْتُولُ اسْمُهُ -يَزْعُمُونَ-: جَيْسُورٌ. ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدَعَهَا لِعَيْبِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سَدُّوهَا بِقَارُورَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بِالْقَارِ، كَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ،

وَكَانَ كَافِرًا ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] ، أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَىٰ أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَىٰ دِينِهِ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً لِقَوْلِهِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الكهف: ٧٤] ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]: هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالأَوَّلِ الذِي قَتَلَ خَضِرٌ، وَزَعَمَ غَيْرُ سَعِيدٍ أَنَّهُمَا أُبْدِلَا جَارِيَةً، وَأَمَّا دَاوُدُ بْنُ أَبِي عَاصِمٍ فَقَالَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ: إِنَّهَا جَارِيَةٌ.

الشَّرْح

○ قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾ [الكهف: ٦١]: «مَذْهَبًا» يعني: يذهب فيه، ومنه: اشتقاق فلان «يَسْرُبُ: يَسْلُكُ، وَمِنْهُ: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾».

والحديث أتى به المصنف على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾، والآية التي بعدها ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾ فأتى بالقصة على الآية الأولى، وأتى بالقصة نفسها على الآية الثانية.

{٤٧٢٦} هذه القصة ساقها المؤلف ﷺ، وفيها زيادات وتوضيحات لبعض الجمل، وهذا من الفوائد في سياق الحديث، فالمؤلف ﷺ يسوق الحديث أحيانًا مكررًا؛ لأنه يكون في تكرار سياق الحديث فوائد، إما فوائد في المتن، أو فوائد في السند، فمن فوائد السند: تقوية الحديث بتعدد الطرق، وفي المتن: يكون فيه زيادات وفيه توضيح.

○ قوله: «**كذب عدو الله**» مبالغة في الإنكار عليه، وإلا فإنه مسلم، وهذا مثل قول النبي ﷺ: «**كذب أبو السنابل**»(١).

وفيه: أن موسى سأل ربه أن يجعل له علماً يعلم متى يجد الخضر، فقال الله له «حَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ. وَقَالَ لِي يَعْلَىٰ قَالَ: خُذْ نُونًا مَيِّتًا» النون: اسم للحوت «حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ» يعني: يحييه الله ويسقط في البحر فهذا هو العلم، «فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ»، وفي رواية أبي إسحاق عند مسلم «**فقيل له تزود**

(١) أحمد (١/ ٤٤٧)، وأصل الحديث عند البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (٥٣١٨).

حوتا مالحًا»[١]، ويستفاد من هذه الرواية: أن الحوت كان ميتًا؛ لأنه لا يملح وهو حي، وهو صريح في قوله: «خُذْ نُونًا مَيِّتًا».

○ قوله: «فَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ»؛ لأنه جعل له علامة: أنه إذا فقد الحوت فسوف يجد الخضر ويتعلم منه، فقال له: لا أكلفك بشيء إلا أن تخبرني إذا فقدت الحوت «قَالَ مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾»، وفيه: التصريح بأن يوشع بن نون فتاه.

○ قوله: «فَبَيْنَمَا هُوَ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرْيَانَ» يعني: مبلول بالماء «إِذْ تَضَرَّبَ الحُوتُ» يعني: ثار، على زنة تَفعَّل من الضرب في الأرض، وهو: السير، وفي لفظ: أنه «**جاءه من ماء عين الحياة التي في أصل الصخرة**»[٢] فعادت إليه الحياة بإذن الله، فدخل في البحر.

○ قوله: «فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ جِرْيَةَ البَحْرِ حَتَّىٰ كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ»، ليعلم موسى مكان الحوت.

○ قوله: «هَكَذَا كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ، وَحَلَّقَ بَيْنَ إِبْهَامَيْهِ وَاللَّتَيْنِ تَلِيانِهِمَا»، وجعل حلقة مثل الطاقة مكان طريق الحوت كأنه خرق في الماء يشاهده كأنه في حجر.

وفيه: فضل موسى عليه السلام، وأن الله آتاه التوراة «أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ»، وكثيرًا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، والتوراة كتاب عظيم، فيه أحكام بني إسرائيل التي كلف أنبياء بني إسرائيل بالعمل بها، والإنجيل فيه تخفيف لبعض هذه الأحكام.

○ قوله: «وَجَدَا مَعَابِرَ صِغَارًا تَحْمِلُ أَهْلَ هٰذَا السَّاحِلِ إِلَىٰ أَهْلِ هٰذَا السَّاحِلِ» فيه: أن السفينة كانت صغيرة، ويسمونها: عبارة أو معابر صغيرة، تنقل من ساحل إلى ساحل آخر ليس ببعيد، فكأن الخضر وموسى أشاروا إلى هذه

---

(١) مسلم (٢٣٨٠).
(٢) البخاري (٤٧٢٧).

المعابر، وأنهم يريدون الركوب فعرفوا الخضر «فَقَالُوا: عَبْدُ اللهِ الصَّالِحُ -قَالَ: قُلْنَا لِسَعِيدٍ: خَضِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ- لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ» فحملوه مجانًا.

○ قوله: «فَخَرَقَهَا وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا» يحتمل أنه جعل فيها خرقة أو وتدًا من الخشب، وفي آخر القصة قال: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سَدُّوهَا بِقَارُورَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بِالْقَارِ»؛ وذلك أن الخضر قال: «فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدَعَهَا لِعَيْبِهَا»، أي: يدعها الملك الظالم من أجل عيبها، وهو الخرق الذي فيها، «فَإِذَا جَاوَزُوا» الملك الظالم «أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا».

وفيه: أن الخضر اشترط على موسى أن يصبر، فلما اعترض عليه قال له في المرة الأولى: إني نسيت فـ «كَانَتِ الأُولَىٰ نِسْيَانًا، وَالْوُسْطَىٰ شَرْطًا» وهي قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦] «وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا»، فلما أخل بالشرط انتهى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] فلم يصاحبه بعدها.

○ قوله: «فَأَخَذَ غُلَامًا كَافِرًا ظَرِيفًا» هذا محمول على أنه من التفسير: «فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ»، وفي رواية أخرى قال: «**فأخذ برأسه فاقتلعه بيده**»[(١)] ويجمع بينهما كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «بأنه ذبحه ثم اقتلع رأسه، وفي رواية أخرى عند الطبري: «**فأخذ صخرة فثلغ رأسه**» وهي بمثلثة ثم معجمة، والأول أصح، ويمكن أن يكون ضرب رأسه بالصخرة، ثم ذبحه وقطع رأسه»[(٢)].

○ قوله: «﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾»، يعني: لم يكلف ولم يبلغ الحد الذي يأثم فيه وهو البلوغ حتى يعاقب بالقتل.

○ قوله: «ابن عَبَّاسٍ قَرَأَهَا: ﴿زَكِيَّةً﴾ زَاكِيَةً مُسْلِمَةً»، وهذا يحمل على أنه تفسير، فالقراءة الشاذة تحمل على أنها تفسير.

وذكر سعيد: أن اسم الملك الظالم هو هدد بن بدد، وأن اسم الغلام المقتول: حيسور، والله أعلم بصحة ثبوت هذا الاسم ممن أخذه سعيد أو غيره،

(١) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).
(٢) «فتح الباري» (٨/ ٤١٩).

فقد يكون أخذه عن بني إسرائيل، ولا يترتب على معرفة اسم الملك أو معرفة اسم الغلام المقتول شيء.

○ قوله: «﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾» يعني: «**أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه**»[1] يعني: لو عاش لكان وبالًا على أبويه فيحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: ٨١]، قال: «**هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر**»[2]، فأبدلهما الله خيرًا منه.

قال الحافظ ﷺ: «قوله: «**وَزَعَمَ غَيْرُ سَعِيدٍ أَنَّهُمَا أُبْدِلَا جَارِيَةً**» هو قول ابن جريج، وروى ابن مردويه من وجه آخر عن ابن جريج قال: وقال يعلى بن مسلم أيضًا، عن سعيد بن جبير: إنها جارية، وفي رواية الإسماعيلي من هذا الوجه قال: ويقال أيضاً عن سعيد بن جبير: إنها جارية، وللنسائي من طريق أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ قال: أبدلهما جارية فولدت نبيًا من الأنبياء، وللطبري من طريق عمرو بن قيس نحوه، ولابن المنذر من طريق بسطام بن جميل قال: أبدلهما مكان الغلام جارية ولدت نبيين، ولعبد بن حميد من طريق الحكم بن أبان، عن عكرمة: ولدت جارية، ولابن أبي حاتم من طريق السدي قال: ولدت جارية، فولدت نبيًا، وهو الذي كان بعد موسى، فقالوا له: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦] واسم هذا النبي: شمعون، واسم أمه: حنة، وعند ابن مردويه من حديث أبي بن كعب: أنها ولدت غلامًا، لكن إسناده ضعيف، وأخرجه ابن المنذر بإسناد حسن عن عكرمة، عن ابن عباس نحوه، وفي تفسير ابن الكلبي: ولدت جارية ولدت عدة أنبياء فهدى الله بهم أممًا، وقيل: عدة من جاء من ولدها من الأنبياء سبعون نبيًا».

قال الحافظ ﷺ: «قوله: «**وَأَمَّا دَاوُدُ بْنُ أَبِي عَاصِمٍ فَقَالَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ: إِنَّهَا جَارِيَةٌ**» هو قول ابن جريج أيضًا، وروى الطبري من طريق حجاج بن محمد، عن

(١) البخاري (٤٧٢٦).
(٢) البخاري (٤٧٢٦).

ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن يعقوب بن عاصم أنهما أبدلا جارية، قال: وأخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير أنها جارية.

قال ابن جريج: وبلغني أن أمه يوم قتل كانت حبلى بغلام، ويعقوب بن عاصم هو أخو داود، وهما ابنا عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي، وكل منهما ثقة من صغار التابعين.

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: استحباب الحرص على الازدياد من العلم، والرحلة فيه، ولقاء المشايخ، وتجشم المشاق في ذلك، والاستعانة في ذلك بالأتباع، وإطلاق الفتى على التابع، واستخدام الحر، وطواعية الخادم لمخدومه، وعذر الناسي، وقبول الهبة من غير المسلم.

واستدل به على: أن الخضر نبي لعدة معان قد نبهت عليها فيما تقدم كقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، وكاتباع موسى رسول الله له ليتعلم منه، وكإطلاق أنه أعلم منه، وكإقدامه على قتل النفس لما شرحه بعد وغير ذلك، وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما، والإغضاء على بعض المنكرات مخافة أن يتولد منه ما هو أشد، وإفساد بعض المال لإصلاح معظمه كخصاء البهيمة للسمن وقطع أذنها لتتميز، ومن هذا: مصالحة ولي اليتيم السلطان على بعض مال اليتيم خشية ذهابه بجميعه - فصحيح لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع، فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفسًا كثيرة قبل أن يتعاطى شيئًا من ذلك، وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه.

وقال ابن بطال: قول الخضر: وأما الغلام فكان كافرًا، هو باعتبار ما يؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ، واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله، ولله أن يحكم في خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده انتهى.

ويحتمل: أن يكون جواز تكليف المميز قبل أن يبلغ كان في تلك الشريعة فيرتفع الإشكال.

وفيه: جواز الإخبار بالتعب ويلحق به: الألم من مرض ونحوه»، لقوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢] فأخبره أنه متعب.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور.

وفيه: أن المتوجه إلى ربه يعان فلا يسرع إليه النصب والجوع، بخلاف المتوجه إلى غيره كما في قصة موسى في توجهه إلى ميقات ربه وذلك في طاعة ربه، فلم ينقل عنه أنه تعب ولا طلب غداء ولا رافق أحدًا».

ومن ذلك أن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما أرسله النبي ﷺ ليعلم خبر الأحزاب وكان في ليلة باردة شديدة قال: كأني أمشي في الحمام، ذهب البرد عنه مع شدة البرد، فلما رجع وانتهت المهمة ووصل إلى النبي ﷺ عاد إليه البرد حتى ألبسه النبي ﷺ عباءة كانت عليه وهو يصلي، فلما جاء الفجر قال: «**قم يا نومان**» أخرجه مسلم في «صحيحه»[(١)]، ذلك أنه توجه في أمر الله، وهذا يؤيد ما قاله الشارح.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما في توجهه إلى مدين فكان في حاجة نفسه فأصابه الجوع، وفي توجهه إلى الخضر لحاجة نفسه أيضًا فتعب وجاع.

وفيه: جواز طلب القوت وطلب الضيافة.

وفيه: قيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالثانية، قال ابن عطية: يشبه أن يكون هذا أصل مالك في ضرب الآجال في الأحكام إلى ثلاثة أيام وفي التلوم ونحو ذلك.

وفيه: حسن الأدب مع الله وأن لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه - وإن كان الكل بتقديره وخلقه لقول الخضر عن السفينة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وعن الجدار ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف: ٨٢] ومثل هذا: قوله ﷺ: «**والخير بيديك، والشر ليس إليك**»[(٢)]، أي: لما رأى العيب قال: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، ولما كان خيرًا قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

■ **مسألة:** قال بعض العلماء: إن الخضر معمر وموجود الآن، والصواب: أنه مات، سواء قيل إنه نبي أو عبد صالح، فلا يمكن أن يكون موجودًا ولا يأتي

(١) مسلم (١٧٨٨).
(٢) أحمد (١/ ١٠٢)، ومسلم (٧٧١).

إلى النبي ﷺ ويؤمن به، فهو وإن وسعه الخروج على شريعة موسى فلا يسعه الخروج على شريعة محمد ﷺ؛ لأن شريعة موسى خاصة ببني إسرائيل، أما شريعة محمد ﷺ فعامة للناس أجمعين، فلا يسع أحدًا الخروج عليها، وقد ذكر العلماء في نواقض الإسلام من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، فهذا مرتد كافر بجميع المرسلين، والله تعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي لئن بُعث محمد وأنت حي لتؤمنن به ولتطيعنه، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨١]، وكذلك أيضًا مما يؤيد أنه مات: أن النبي ﷺ قال في آخر حياته: «**لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو على ظهرها**»(١) يعني: المائة سنة تخرم ذلك القرن، فلو كان حيًا لشمله هذا الحديث ومات؛ لكن قال بعضهم: إن الخضر ليس على وجه الأرض، وإنما هو في البحر.

وشيخ الإسلام ابن تيمية ؒ له قولان في «مجموع الفتاوى»، قول بأنه مات، وقول بأنه باق، والصواب من القولين: أنه مات.

○ وقوله: «**سَلُونِي**»، فيه: جواز قول العالم: سلوني إذا كان عنده علم؛ فإن موسى قال: «**سَلُونِي**»؛ لأنه ينزل عليه الوحي، وكذلك نبينا ﷺ لما أكثروا عليه الأسئلة مرة جلس على المنبر وقال: «**سلوني سلوني، لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به**»، فقام عبد الله بن حُذَافَة فقال: من أبي؟ فقال: «**أبوك حذافة**»(٢) فعلم أنه أبوه، وكانوا يشككونه في أبيه.

---

(١) أحمد (٢/ ٨٨)، والبخاري (١١٦)، ومسلم (٢٥٣٧).
(٢) أحمد (٢/ ٥٠٣)، والبخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩).

بَابُ قوله:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَـٰهُ﴾ [الكهف: ٦٢]

إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قَصَصًا ۝٦٤﴾ [الكهف: ٦٢- ٦٤]

﴿حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨]: تَحَوُّلًا ﴿نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]: دَاهِيَةً ﴿يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]: يَنْقَاضُ كَمَا تَنْقَاضُ السِّنُّ ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ [الكهف: ٧٧] وَاتَّخَذْتَ وَاحِدٌ (رُحْمًا) [الكهف: ٨١]: مِنَ الرُّحْمِ، وهو أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنَ الرَّحْمَةِ، وَتُدْعَىٰ مَكَّةُ: أُمَّ رُحْمٍ؛ أَيِ: الرَّحْمَةُ تَنْزِلُ فيها.

بَابُ قولهُ:

﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣]

{٤٧٢٧} حَدَّثَنِي قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا البِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ بِمُوسَى الخَضِرِ. فَقَالَ كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ، حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَامَ مُوسَىٰ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ: بَلَىٰ، عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ قَالَ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَاتَّبِعْهُ. قَالَ: فَخَرَجَ مُوسَىٰ، وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَمَعَهُمَا الحُوتُ حَتَّى ٱنْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَنَزَلَا عِنْدَهَا. قَالَ: فَوَضَعَ مُوسَىٰ رَأْسَهُ فَنَامَ. قَالَ سُفْيَانُ: وَفِي حَدِيثِ غَيْرِ عَمْرٍو قَالَ: وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا: الحَيَاةُ، لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ، فَأَصَابَ الحُوتَ مِنْ مَاءِ تِلْكَ العَيْنِ. قَالَ فَتَحَرَّكَ، وَانْسَلَّ مِنَ المِكْتَلِ، فَدَخَلَ البَحْرَ فَلَمَّا ٱسْتَيْقَظَ مُوسَىٰ ﴿قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ الآيَةَ [الكهف: ٦٢]. قَالَ: وَلَمْ يَجِدِ النَّصَبَ حَتَّىٰ جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ الآيَةَ [الكهف: ٦٣]. قَالَ: فَرَجَعَا يَقُصَّانِ فِي آثَارِهِمَا، فَوَجَدَا فِي البَحْرِ

كَالطَّاقِ مَمَرَّ الحُوتِ، فَكَانَ لِفَتَاهُ عَجَبًا، وَلِلْحُوتِ سَرَبًا، قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذْ هُمَا بِرَجُلٍ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ. قَالَ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَىٰ. قَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٧٠]. قَالَ لَهُ الخَضِرُ: يَا مُوسَىٰ، إِنَّكَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ. قَالَ: بَلْ أَتَّبِعُكَ. قَالَ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمْ فِي سَفِينَتِهِمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ -يَقُولُ: بِغَيْرِ أَجْرٍ- فَرَكِبَا السَّفِينَةَ. قَالَ: وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ لِمُوسَىٰ: مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هٰذا العُصْفُورُ مِنْقَارَهُ. قَالَ: فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَىٰ، إِذْ عَمَدَ الخَضِرُ إِلَىٰ قَدُومٍ فَخَرَقَ السَّفِينَةَ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ﴾ الآيَةَ [الكهف: ٧١] فَانْطَلَقَا إِذَا هُمَا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَطَعَهُ. قَالَ لَهُ مُوسَىٰ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ [الكهف: ٧٤، ٧٥] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] فَقَالَ بِيَدِهِ: هَكَذَا فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّا دَخَلْنَا هٰذِهِ القَرْيَةَ، فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]. قَالَ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ صَبَرَ حَتَّىٰ يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا». قَالَ: وَكَانَ ابن عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا.

الشَّرْح

قال: «﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨]» أي: «تحولًا» وهذا في آخر السورة.

○ قوله: «﴿يَنقَضَّ﴾» قال: «يَنْقَاضُ كَمَا تَنْقَاضُ السِّنُّ».

○ قوله: «﴿نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: ٧٤]»: «دَاهِيَةً»، ولكن نكرًا أشد من إمرًا، يعني: أمرًا عظيمًا.

○ قوله: «﴿لَتَّخَذۡتَ﴾ [الكهف: ٧٧]»: «واتَّخذت واحد»، يعني: في قوله تعالى: ﴿لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾ [الكهف: ٧٧].

○ قوله: «﴿رُحۡمٗا ٨١﴾»: «مِنَ الرُّحْمِ، وَهو أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنَ الرَّحْمَةِ، وَتُدْعَىٰ مَكَّةُ: أُمَّ رُحْمٍ؛ أَيِ: الرَّحْمَةُ تَنْزِلُ فيها».

{٤٧٢٧} المؤلف حين يكررالحديث فلابد أن يكون فيه فوائد إما في المتن وإما في السند، أما في السند فلا شك أن تعدد الطرق فيه قوة للحديث، وأما في المتن فقد بين هنا سبب إحياء الله للحوت، وذلك أنهما ناما عند الصخرة، ووضعا رأسيهما عندها، «وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا: الحَيَاةُ، لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ، فَأَصَابَ الحُوتَ مِنْ مَاءِ تِلْكَ العَيْنِ»، وفي الرواية التي قبلها «من مكان مبلول ثريان»[1] أي: مبلول من ماء هذه العين، «فَتَحَرَّكَ، وَانْسَلَّ مِنَ المِكْتَلِ» فأحياه الله وأعاد الروح إليه «فَدَخَلَ البَحْرَ»، وهذا من آيات الله العظيمة، ودليل على إحياء الله الموتى والأدلة كثيرة على إحياء الله الموتى قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [الرُّوم: ٥٠].

والله تعالى أخبر في القرآن الكريم أن الحوت حيي فقال: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ [الكهف: ٦١]، لكن هذا فيه بيان سبب الحياة، والله تعالى قادر على إحيائه سواء كان هناك عين أو لم يكن.

○ قوله: «وَفِي حَدِيثِ غَيْرِ عَمْرٍو» ليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ، فقد يكون من أخبار بني إسرائيل.

وفي الحديث: دليل على أن السلام تحية المؤمنين من هذه الأمة ومن قبلها من الأمم؛ ولهذا سلم موسى على الخضر، وكان السلام معروفًا عند موسى ومعروفًا عند الخضر، وكذلك إبراهيم عليه السلام لما جاءه الملك حياه وسلم عليه:

(١) البخاري (٤٧٢٦).

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ [هُود: ٦٩]، ولوط كذلك، والسلام تحية المؤمنين في الجنة ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ [الأحزَاب: ٤٤].

قال الحافظ ابن حجر ﷺ مشيراً إلى قصة العين وأنها عن بني إسرائيل: «وفي رواية قتيبة عن سفيان في الباب الذي يليه من الزيادة قال سفيان: وفي غير حديث عمرو «**وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا: الحَيَاةُ، لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ، فَأَصَابَ الحُوتَ مِنْ مَاءِ تِلْكَ العَيْنِ. قَالَ فَتَحَرَّكَ، وَانْسَلَّ مِنَ المِكْتَلِ، فَدَخَلَ البَحْرَ**».

وحكى ابن الجوزي أن في روايته في البخاري الحيا بغير هاء قال: وهو ما يحيى به الناس، وهذه الزيادة التي ذكر سفيان أنها في حديث غير عمرو قد أخرجها ابن مردويه من رواية إبراهيم بن يسار عن سفيان مدرجة في حديث عمرو، ولفظه «**حتى انتهيا إلى الصخرة فقال موسى عندها، أي: نام**»[(١)]، يعني: نام نومة القيلولة، «**وكان عند الصخرة عين ماء يقال لها عين الحياة لا يصيب من ذلك الماء ميت إلا عاش فقطرت من ذلك الماء على الحوت قطرة فعاش وخرج من المكتل فسقط في البحر**» وأظن أن ابن عيينة أخذ ذلك عن قتادة، فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريقه قال: «**فأتى على عين في البحر يقال لها عين الحياة فلما أصاب تلك العين رد الله روح الحوت إليه**»[(٢)]، وقد أنكر الداودي فيما حكاه ابن التين هذه الزيادة فقال: لا أرى هذا يثبت فإن كان محفوظًا فهو من خلق الله وقدرته، قال: لكن في دخول الحوت العين دلالة على أنه كان حيًّا قبل دخوله، فلو كان كما في هذا الخبر لم يحتج إلى العين، قال: والله قادر على أن يحييه بغير العين. انتهى.

قال: ولا يخفى ضعف كلامه دعوى واستدلالًا، وكأنه ظن أن الماء الذي دخل فيه الحوت هو ماء العين وليس كذلك، بل الأخبار صريحة في أن العين عند الصخرة وهي غير البحر، وكأن الذي أصاب الحوت من الماء كان شيئًا من

(١) «فتح الباري» (٨/ ٤١٥).
(٢) عزاه السيوطي في «الدر» (٥/ ٤٢٤) لابن أبي حاتم في «التفسير».

رشاش، ولعل هذه العين إن ثبت النقل فيها مستند من زعم أن الخضر شرب من عين الحياة فخلد، وذلك مذكور عن وهب بن منبه وغيره ممن كان ينقل من الإسرائيليات، وقد صنف أبو جعفر بن المنادي في ذلك كتابًا، وقرر أنه لا يوثق بالنقل فيما يوجد من الإسرائيليات».

قلت: لا شك أن الإسرائيليات لا يعول عليها، فإذا كان الخضر شرب من هذه العين ليخلد، فإلى متى يخلد؟ لابد من الموت، قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥]، وقد تقدم بيان الصواب من أن الخضر قد مات.

○ قوله: «وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟» الأصل رد السلام وهذا معروف، وقد يكون ليس واجبًا في شريعة الخضر، لكن في شريعتنا رد السلام واجب.

يقول النبي ﷺ: «**وددنا أن موسى صبر حتى يقص علينا من خبرهما**»، وفي لفظ قال: «**ولو صبر لرأى العجب**»[1] هذا من زيادة سعيد بن جبير.

○ قوله: «وَكَانَ ابن عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا»، هذه القراءة شاذة، فتحمل على أنها تفسير صحيح، «وَكَانَ أَمَامَهُمْ»، بمعنى وراءهم.

○ قوله: «يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ»، يعني: أن هذا الملك لا يأخذ إلا السفينة الصالحة، أما السفينة التي فيها عيب فلا يأخذها؛ ولهذا أراد أن يجعل فيها عيبًا.

○ قوله: «وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا» كذلك تحمل على أنها تفسير.

---

(١) مسلم (٢٣٨٠).

بَابٌ قوله:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣﴾ [الكهف: ١٠٣]

صنعًا: عملًا.

{٤٧٢٨} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ مُصْعَبٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣﴾ [الكهف: ١٠٣] هُمُ الحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا، هُمُ اليَهُودُ وَالنَّصَارىٰ، أَمَّا اليَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَّا النَّصَارىٰ كَفَرُوا بِالْجَنَّةِ وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ، وَالْحَرُورِيَّةُ الذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ: الفَاسِقِينَ.

الشَّرْح

○ قوله: «باب قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣﴾ [الكهف: ١٠٣] الآية» قال العيني رحمه الله: «اختلفوا فيهم، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هم الرهبان والقسوس الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه هم اليهود والنصارى، وسأل عبد الله بن الكَوَّاء عليًا رضي الله عنه عن الأخسرين أعمالًا قال: أنتم يا أهل حروراء».

{٤٧٢٨} هذا الحديث على هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، يعني: الذين بطل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم على هدى هم الأخسرون أعمالًا ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ [الكهف: ١٠٥]. وظاهر الآية: أنها في الكفار واليهود والنصارى، لكن مصعب بن سعد بن أبي وقاص أشكل عليه الأمر فسأل أباه الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص «قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣﴾ هُمُ الحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا، هُمُ اليَهُودُ وَالنَّصَارىٰ»، والحرورية هم الخوارج، سموا حرورية؛ لأنهم نزلوا في بلدة يقال لها: حروراء في العراق فتجمعوا فيها، ومنه قول عائشة لما

سألتها امرأة كأنها تعترض قالت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ أحرورية أنت؟ أي: من الخوارج؛ لأنهم يرون أن الحائض تقضي الصلاة، قالت: لست بحرورية، ولكني أسأل - إلا أنها لم تحسن السؤال - قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان ذلك يصيبنا على عهد رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة.

○ قوله: «أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ»، يعني: كفروا بالنبي ﷺ، ولم يتابعوه مع معرفتهم أنه رسول الله، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

○ قوله: «وَأَمَّا النَّصَارَىٰ كَفَرُوا بِالْجَنَّةِ وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ»، فلما كفروا بالجنة كفروا بالله، فالنصارى الأمر فيهم ظاهر؛ لأنهم يتعبدون بالجهالات والضلالات، يعني: أغلب النصارى، وإلا يوجد فيهم غير ذلك، واليهود يرون أن بقاءهم مع دينهم ورئاستهم ومناصبهم أولى لهم من الدخول في الإسلام، وكذلك الأميون المشركون من أهل مكة وغيرهم يحسبون أنهم باتباعهم للرؤساء أنهم يحسنون صنعًا.

○ قوله: «وَالْحَرُورِيَّةُ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ: الْفَاسِقِينَ»، أي: الخوارج، فكان سعد بن أبي وقاص يسميهم: الفاسقين ولا يسميهم كفارًا؛ ولهذا فرق بينهم وبين اليهود والنصارى لما قيل: «هُمُ الْحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: لَا، هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ»، وهذا هو الذي ذهب إليه جمهور العلماء، واستدلوا بقول عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سألوه عن الخوارج أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، وذهب جمع من أهل العلم أنهم كفار، وهي رواية عن الإمام أحمد(١)، واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»(٢)، ولأن النبي ﷺ شبههم بعاد، قال: «**لأن لقيتهم لأقتلنهم قتل عاد**»(٣) وقوم عاد كفار، وهذا قول قوي، ورجح شيخنا الشيخ

(١) انظر: «كشاف القناع» (٦/ ١٦١).
(٢) البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٣) البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).

عبد العزيز بن باز ﷺ هذا القول، ورجح شيخ الإسلام قول الجمهور وقال: الصحابة لم يعاملوهم معاملة الكفار وإنما عاملوهم معاملة المبتدعة[(١)]، وهذا هو المعتمد.

والخوارج أربعة وعشرون فرقة، منهم: الإباضية، وهي منسوبة إلى: عبد الله الإباضي، وهي باقية موجودة في: عُمَان والمغرب والجزائر.

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قوله: «**وَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ: الفَاسِقِينَ**»، لعل هذا السبب في الغلط المذكور، وفي رواية للحاكم: الخوارج قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، وهذه الآية هي التي آخرها الفاسقين، فلعل الاختصار اقتضى ذلك الغلط، وكأن سعداً ذكر الآيتين معاً التي في «البقرة» والتي في «الصف»، وقد روى ابن مردويه من طريق أبي عون عن مصعب قال: نظر رجل من الخوارج إلى سعد فقال: هذا من أئمة الكفر، فقال له سعد: كذبت، أنا قاتلت أئمة الكفر، فقال له آخر: هذا من الأخسرين أعمالًا، فقال له سعد: كذبت، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [الكهف: ١٠٥] الآية.

قال ابن الجوزي: وجه خسرانهم أنهم تعبدوا على غير أصل؛ فابتدعوا؛ فخسروا الأعمار والأعمال».

قلت: ويجب علينا أن ندعو الخوارج والإباضية إلى ترك ما هم عليه من البدعة، فهم يرون أن العاصي يكفر، وعلينا أن نبين لهم أن النصوص دلت على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ [البقرة: ١٧٨] سمى الله القاتل أخاً للمقتول، لكنه يضعف إيمانه، وهو إذا دخل النار فإنه لا يخلد فيها، بل يطهر منها ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين، والأدلة في هذا متواترة تفيد العلم اليقيني.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٨٢).

بَابُ قوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ الآيَةَ [الكهف: ١٠٥]

{٤٧٢٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنَا المُغِيرَةُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَقَالَ: ٱقْرَءُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

وَعَنْ يَحْيَىٰ بْنِ بُكَيْرٍ، عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ مِثْلَهُ.

الشَّرْح

○ قوله: «باب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [الكهف: ١٠٥] الآية» قال العيني رحمه الله: «أي: أولئك الذين جحدوا بالدلائل وكفروا بالبعث والثواب والعقاب؛ فحبطت أعمالهم؛ لأنها خلت من الثواب».

{٤٧٢٩} قوله: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»؛ وذلك لأن العبرة في الوزن بالعمل، وفي حديث عبد الله بن مسعود لما كشفت الريح عن ساقيه ضحك أصحابه فقال النبي ﷺ: «**مم تضحكون؟**» قالوا: يا رسول الله من دقة ساقيه، قال: «**والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من جبل أحد**»(١) فيه: دليل على أن الأعمال الصالحة توزن والأشخاص يوزنون، والثقل والخفة بحسب العمل؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(٢).

---

(١) أحمد (١/ ١١٤).
(٢) البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤).

١٩- ومن سورة كهيعص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَبْصِرْ بِهِمْ وَأَسْمِعْ اللهُ يَقُولُهُ، وَهُمُ اليَوْمَ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْنِي قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، الكُفَّارُ يَوْمَئِذٍ أَسْمَعُ شَيْءٍ وَأَبْصَرُهُ، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لأَشْتِمَنَّكَ ﴿وَرِءْيًا﴾ مَنْظَرًا. وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تُزْعِجُهُمْ إِلَى المَعَاصِي إِزْعَاجًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِدًّا﴾ عِوَجًا. قَالَ ابن عَبَّاسٍ (وِرْدًا) عِطَاشًا ﴿أَثَٰثًا﴾ مَالًا ﴿إِدًّا﴾ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿رِكْزًا﴾ صَوْتًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ [مريم: ٧٥]: فَلْيَدَعْهُ. (غَيًّا) خُسْرَانًا ﴿وَبُكِيًّا﴾ جَمَاعَةُ بَاكٍ ﴿صِلِيًّا﴾ صَلِيَ يَصْلَى ﴿نَدِيًّا﴾ وَالنَّادِي مَجْلِسًا.

الشَّرح

○ قوله: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مَريَم: ٣٨] اللهُ يَقُولُهُ، وَهُمُ اليَوْمَ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ»، يعني: الكفار يوم القيامة أسمع شيء وأبصر ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مَريَم: ٣٨]، اليوم في الدنيا لا يسمعون ولا يبصرون، قال الله تعالى في سورة السجدة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السَّجدَة: ١٢] وجد السمع والبصر لكن لا ينفع ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فتمنوا العودة إلى الدنيا.

○ قوله: «﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾» في قصة إبراهيم قال له أبوه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مَريَم: ٤٦] «لأشتمنك»، أصل الرجم أن يكون بالحجارة، ولكن هنا فسره بالشتم، كأن الرجم بالكلام.

○ قوله: «﴿وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾»: «مَنْظَرًا»، قال العيني رَحِمَهُ اللهُ: «وقال الثعلبي: وقرئ بالزاي وهو الهيئة»، وهي قراءة شاذة، لا يعول عليها في القراءة»[1].

(١) «المحتسب»، لابن جني (٢/ ٨٧).

○ قوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ قال: «**تُزْعِجُهُمْ إِلَى المَعَاصِي إِزْعَاجًا**»، وقال العيني: «وكذا روي عن ابن عباس ﵄، وعن الضحاك: تأمرهم بالمعاصي أمرًا، وعن سعيد بن جبير: تغريهم إغراء، وعن مجاهد: تشليهم أشلاء، وعن الأخفش: توهجهم، وعن المؤرج: تحركهم».

○ قوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [مريم: ٨٩] حينما نسبوا الولد إلى الله قال: «**قَوْلًا عَظِيمًا**»، وفي رواية: «**عوجا**»[1]، والأول أقرب.

○ قوله: «**(وِرْدًا) عِطَاشًا**» وقد تقدم هذا في كتاب بدء الخلق باب صفة النار أنها مخلوقة.

○ قوله: «**﴿أَثَٰثًا﴾: مَالًا**»، وقال العيني: «وعن ابن عباس: هيئة، وعن مقاتل: ثيابًا، وقيل: متاعًا».

○ قوله: «**﴿رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾: صَوْتًا**».

○ قوله: «**﴿وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾: جَمَاعَةُ بَاكٍ**» قال العيني: «أصله بُكُوي على وزن فعول كقعود جمع قاعد، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياء، ثم أدغمت الياء في الياء، ثم أبدلت ضمة الكاف كسرة لأجل الياء فافهم، وقال الثعلبي: هذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه».

○ قوله: «**(صُلِيًّا)** [مريم: ٧٠]: **صَلِيَ يَصْلَىٰ**»، قال الحافظ ابن حجر ؒ: «صلي يصلى بفتح اللام في المضارع أي: شوي يشوى، ومنه قوله: مصلية بفتح الميم أي مشوية».

○ قوله: «**﴿نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ والنادي واحد مجلسا**» أي: مجلس القوم.

○ قوله: «**وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ فَلْيَدَعْهُ**» قال الحافظ ابن حجر ؒ: «وصله الفريابي بلفظ فليدعه الله في طغيانه، أي: يمهله إلى مدة، وهو بلفظ الأمر والمراد به الإخبار، وروى ابن أبي حاتم من طريق حبيب بن أبي ثابت قال: في حرف أبي بن كعب: قل من كان في الضلالة فإن الله يزيده ضلالة».

(١) البخاري تعليقا عقب (٤٧٢٩).

بَابٌ قوله:
﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ الآية [مريم: ٣٩]

{٤٧٣٠} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ. فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذا المَوْتُ- وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ- ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هٰذا المَوْتُ -وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ- فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وهؤلاء فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾».

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ وهو يوم القيامة، إذ يتحسر الكفار على ما عملوا من أعمال سيئة ويودون أن يرجعوا إلى الدنيا، ولكن كما قال الله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨] -نسأل الله السلامة والعافية.

قال العيني رحمه الله: «أي: أنذر كفار مكة؛ ﴿ٱلْحَسْرَةِ﴾: وهو يوم القيامة، يوم يتحسر المسيء هلا أحسن العمل، والمحسن هلا ازداد من الإحسان، وأكثر المفسرين أن يوم الحسرة حين يذبح الموت.

○ قوله: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: فرغ من الحساب، وقيل: ذبح الموت ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ معرضون في الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩] بما يكون في الآخرة».

{٤٧٣٠} قوله: «يُؤْتَىٰ بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ» وهذا يوم الحسرة بالنسبة للكفار إذا ذبح الموت، وهذا بعد خروج الموحدين من النار، والموت أمر معنوي، يقلبه الله عينًا فيجعله كهيئة كبش أملح، والله على كل شيء قدير.

والذي يذبح هو الموت، وليس ملك الموت كما يظنه بعض الناس، فيقلبه الله أمراً حسياً.

○ قوله: «فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ. فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هٰذا المَوْتُ- وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ- ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هٰذا المَوْتُ -وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ- فَيُذْبَحُ» ذكر العيني أنهم رأوه عند قبض أرواحهم على صورته. والله أعلم.

وسمي يوم القيامة: يوم الحسرة؛ لأن الكفار يتحسرون بعد أن يذبح الموت، ويقال: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ».

بَابُ قوله:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية [مريم: ٦٤]

{٤٧٣١} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤].

الشَّرْح

قال العيني رحمه الله: «قال عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي: احتبس جبريل عليه السلام عن النبي حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم، ورجاه أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوه فأبطأ عليه، قال عكرمة: أربعين يوما، وقال مجاهد: اثنتي عشرة ليلة، وقيل: خمس عشرة، فشق على رسول الله، فلما نزل عليه جبريل عليه السلام قال: «**أبطأت علي حتى ساء ظني فاشتقت إليك**»[(١)] فقال له جبريل: أنا كنتُ أشوق، ولكني عبد مأمور، وإذا بُعِثْتُ نزلتُ، وإذا حُبِسْتُ احتبست؛ فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ﴾[(٢)].

○ قوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾؛ قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما بين النفختين».

{٤٧٣١} وهذه الآية سبب نزولها أن النبي ﷺ قال لجبريل: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤]»، أي: كل شيء بأمر الله.

---

(١) الطبري في «تفسيره» (٨/٣٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (ص٢٤٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (١/٢٠٣).

(٢) «عمدة القاري» (١٥/٣٠٣).

وكأن النبي ﷺ اشتاق إلى جبريل؛ فقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل، فقال له النبي ﷺ: «**ما نزلت حتى اشتقت إليك**» فقال له جبريل: «**أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور**» **فأوحى الله إلى جبريل إن قل له:** ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ﴾ [مَريَم: ٦٤]»[١].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٣١٧٠).

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧]

{٤٧٣٢} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَمِعْتُ خَبَّابًا قَالَ: جِئْتُ العَاصِيَ بْنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. فَقُلْتُ: لَا، حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ. فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧].

رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ، وَشُعْبَةُ، وَحَفْصٌ، وَأَبُو مُعَاوِيَةَ، وَوَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ.

الشَّرْح

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ بمعنى: أخبر، والفاء جاءت لإفادة معناها الذي هو: التعقيب، كأنه قال: أخبره أيضًا بقصة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك، والفاء بعد همزة الاستفهام عاطفة على جملة، ﴿ٱلَّذِى﴾ العاص بن وائل ﴿كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ القرآن ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧] يعني: في الجنة بعد البعث، قال ذلك استهزاءً، قرأ حمزة والكسائي «وُلْدًا»، بضم الواو وسكون اللام، والباقون بفتحهما، وهما لغتان كالعَرَب والعُرْب».

{٤٧٣٢} هذه الآية وما بعدها وهي قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٧٧-٨٠]، كلها آيات نزلت في العاص بن وائل السهمي، وهو والد عمرو بن العاص الصحابي المشهور.

وفي الحديث: أنه جاء الصحابي خَبَّاب بن الأَرَتّ - وكان حدادًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلى العاص، وكان قد عمل له صناعة فجاء يتقاضاه حقًّا له فامتنع العاص وقال:

«لَا أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ»، فقال خباب: «لَا، حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ» والمراد: النفي المؤبد؛ لأنه بعد الموت ليس هناك عمل، بل حساب فقط، فكأنه قال: لا أكفر أبدًا. قوله: «وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ. فَنَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ» مفهومه: أنه يكفر حينئذ، لكنه لم يرد ذلك؛ لأن الكفر حينئذ لا يتصور فكأنه قال: لا أكفر أبدًا».

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنكتة في تعبيره بالبعث تعبير العاص بأنه لا يؤمن به، وبهذا التقرير يندفع إيراد من استشكل قوله هذا فقال: علق الكفر، ومن علق الكفر كفر، وأجاب: بأنه خاطب العاص بما يعتقده، فعلق على ما يستحيل بزعمه، والتقرير الأول يغني عن هذا الجواب».

بَابٌ قوله:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٨]

قَالَ: مَوْثِقًا.

{٤٧٣٣} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ خَبَّابٍ قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا بِمَكَّةَ، فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ سَيْفًا، فَجِئْتُ أَتَقَاضَاهُ فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. قُلْتُ: لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، حَتَّىٰ يُمِيتَكَ اللهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ. قَالَ إِذَا أَمَاتَنِي اللهُ ثُمَّ بَعَثَنِي، وَلِي مَالٌ وَوَلَدٌ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨]. قَالَ: مَوْثِقًا. لَمْ يَقُلِ الأَشْجَعِيُّ عَنْ سُفْيَانَ: سَيْفًا وَلَا مَوْثِقًا.

الشَّرْح

قال العيني ﵀: «قال ابن عباس: أَنَظَرَ في اللوح المحفوظ؟! يعني: العاص بن وائل، وقال مجاهد: أَعَلِمَ علم الغيب حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟! قوله: ﴿أَطَّلَعَ﴾ من اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه، قوله: ﴿عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مَريَم: ٧٨] أي قال: لا إله إلا الله، وعن قتادة: عمل صالحًا قدمه، وعن الكلبي: عهد إليه أنه يدخله الجنة، وفسر البخاري «عهداً» بقوله: موثقاً».

{٤٧٣٣} قوله: «كُنْتُ قَيْنًا بِمَكَّةَ»؛ القين: هو الحداد.

وفي هذا الحديث: بيان العمل الذي عمله للعاص، وأنه أصلح له سيفًا فصارت له أجرة عنده، فجاء يتقاضاه الأجرة، فحصلت بينهما هذه المحاورة.

والمراد بـ «ثُمَّ يُحْيِيكَ»: النفي المؤبد، و«مَوْثِقًا:» تفسير للعهد.

بَابُ قوله:

﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ [مريم: ٧٩]

{٤٧٣٤} حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ أَبَا الضُّحَىٰ يُحَدِّثُ عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ خَبَّابٍ قَالَ: كُنْتُ قَيْنًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي دَيْنٌ عَلَى العَاصِي بْنِ وَائِلٍ قَالَ فَأَتَاهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. فَقَالَ: والله لَا أَكْفُرُ حَتَّىٰ يُمِيتَكَ اللهُ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: فَذَرْنِي حَتَّىٰ أَمُوتَ ثُمَّ أُبْعَثَ، فَسَوْفَ أُوتَىٰ مَالًا وَوَلَدًا، فَأَقْضِيكَ. فَنَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ [مريم: ٧٧].

الشَّرح

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلمة ﴿كَلَّاۚ﴾ ردع ورد على العاص بن وائل، قوله: ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ أي: سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه به في الآخرة، قوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾، أي: نزيده عذاباً فوق العذاب».

{٤٧٣٤} هذا الحديث هو نفس الحديث السابق من طريق أخرى أتى به المؤلف على هذه الآية لأن الآيات كلها في قصة واحدة.

بَابُ قَوْلِهِ ﷻ:

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠]

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]: هَدْمًا.

{٤٧٣٥} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ خَبَّابٍ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِي بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لِي: لَا أَقْضِيكَ حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. قَالَ: قُلْتُ: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّىٰ تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: وَإِنِّي لَمَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ؟ فَسَوْفَ أَقْضِيكَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَىٰ مَالٍ وَوَلَدٍ. قَالَ فَنَزَلَتْ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

الشَّرح

قال العيني ﵀: «قوله ﷻ: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾، أي: نرث العاص بن وائل ﴿مَا يَقُولُ﴾ من المال والولد ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا ۝٨٠﴾ [مَريَم: ٨٠]، أي: بلا مال ولا ولد، وقال النسفي: معناه لا ننسى قوله هذا ولا نلغيه، بل نثبته في صحيفته لنضرب به وجهه في الموقف ونعيره به ويأتينا على فقره ومسكنته فردًا من المال والولد».

ثم قال العيني ﵀ أيضاً: «وعن مقاتل: ﴿هَدًّا ۝٩٠﴾ [مَريَم: ٩٠]: كسراً، وعن أبي عبيدة: سقوطًا».

{٤٧٣٥} هذا الحديث كرره المؤلف أربع مرات على أربع آيات؛ لأن هذه الآيات كلها نزلت في هذه القصة.

٢٠- ومن سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ ابن جُبَيْرٍ: بِالنَّبَطِيَّةِ ﴿طه ۝١﴾ يا رَجُلُ. قال مجاهد: ﴿أَلْقَىٰ﴾: صَنَعَ. يُقَالُ: كُلُّ مَا لَمْ يَنْطِقْ بِحَرْفٍ أَوْ فِيهِ تَمْتَمَةٌ أَوْ فَأْفَأَةٌ، فَهْيَ عُقْدَةٌ. (أَزْرِي) ظَهْرِي. ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يُهْلِكَكُمْ (الْمُثْلَى) تَأْنِيثُ الأَمْثَلِ، يَقُولُ: بِدِينِكُمْ يُقَالُ: خُذِ الْمُثْلَىٰ خُذِ الأَمْثَلَ. ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ يُقَالُ: هَلْ أَتَيْتَ الصَّفَّ الْيَوْمَ يَعْنِي الْمُصَلَّى الذِي يُصَلَّىٰ فِيهِ ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أَضْمَرَ خَوْفًا فَذَهَبَتِ الوَاوُ مِنْ ﴿خِيفَةً﴾ لِكَسْرَةِ الخَاءِ. ﴿فِى جُذُوعِ﴾ أَيْ عَلَىٰ جُذُوعِ النَّخْلِ. (خَطْبُكَ) بَالُكَ. ﴿مِسَاسَ﴾ مَصْدَرُ مَاسَّهُ مِسَاسًا. ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لَنُذْرِيَنَّهُ. (قَاعًا) يَعْلُوهُ المَاءُ وَالصَّفْصَفُ المُسْتَوِي مِنَ الأَرْضِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ الحُلِيُّ الذِي ٱسْتَعَارُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ. (فَقَذَفْتُهَا) فَأَلْقَيْتُهَا، ﴿أَلْقَى﴾ صَنَعَ. ﴿فَنَسِىَ﴾ مُوسَىٰ، هُمْ يَقُولُونَهُ أَخْطَأَ الرَّبَّ. ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ العِجْلُ. ﴿هَمْسًا﴾ حِسُّ الأَقْدَامِ. ﴿حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ عَنْ حُجَّتِي ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ فِي الدُّنْيَا. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿بِقَبَسٍ﴾: ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وكانوا شَاتِينَ، فقال: إن لم أَجِدْ عليها مَنْ يَهْدِي الطَّرِيقَ آتِكُمْ بِنَارٍ تُوقِدُون. وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾ أَعْدَلُهُمْ طَرِيقَةً. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿هَضْمًا﴾ لَا يُظْلَمُ فَيُهْضَمُ مِنْ حَسَنَاتِهِ ﴿عِوَجًا﴾ وَادِيًا. ﴿أَمْتًا﴾ رَابِيَةً ﴿سِيرَتَهَا﴾ حَالَتَهَا الأُولَىٰ (النُّهَى) التُّقَىٰ ﴿ضَنكًا﴾ الشَّقَاءُ (هَوى) شَقِيَ (الْمُقَدَّسِ) المُبَارَكِ (طُوى) ٱسْمُ الوَادِي ﴿بِمَلْكِنَا﴾ بِأَمْرِنَا (مَكَانًا سِوى) مَنْصَفٌ بَيْنَهُمْ. ﴿يَبَسًا﴾ يَابِسًا ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ مَوْعِدٍ ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ تَضْعُفَا.

الشرح

○ قوله: «قَالَ ابن جُبَيْرٍ: بِالنَّبَطِيَّةِ ﴿طه ۝١﴾ يَا رَجُلُ» معروف أن طه من الحروف المقطعة، وذُكر عن ابن عباس أنه كقوله: يا محمد بالحبشية، وذكر أيضًا عن الضحاك أنه قال: هذا اسم من أسماء الله؛ وهذا كله بعيد، والأقرب: أنها من الحروف المقطعة التي تفتتح بها السور مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ و﴿نٓ﴾

و﴿حمٓ ۝١﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓرۚ﴾ و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ أما قول بعضهم أن طه من أسماء النبي ﷺ فهذا ليس بصحيح.

○ قوله: «﴿أَزْرِي ۝٣١﴾: ظَهْرِي».

○ قوله: «﴿فَيُسْحِتَكُم﴾: يُهْلِكَكُمْ» فموسى عليه السلام خوفهم بالوعيد ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ﴾ [طه: ٦١] يعني: يهلككم ويستأصلكم بالعذاب.

○ وقوله: «﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾» تأنيث الأمثل والمعنى: يذهب بدينكم الأمثل يقال: «خُذِ المُثْلَىٰ خُذِ الأَمْثَلَ».

○ قوله: «﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: هَلْ أَتَيْتَ الصَّفَّ اليَوْمَ يَعْنِي المُصَلَّى الذِي يُصَلَّىٰ فِيهِ»، يعني: ظاهر سياق الآية أنهم يأتون جميعًا.

○ قوله: «﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ﴾»، يقول: «خَوْفًا فَذَهَبَتِ الوَاوُ مِنْ ﴿خِيفَةً﴾»، لكسرة الخاء، أصلها خوفة، فلما كسرت الخاء تحركت الواو وفتح ما قبلها فقلبت ياء كما هو معروف في علم التصريف.

○ قوله: «﴿فِى جُذُوعِ﴾» يعني: على جذوع النخل.

○ قوله: «﴿خَطْبُكَ﴾» يعني: ما بالك وما شأنك؟

○ قوله: «﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه: ٩٧]» مصدر من ماسه مساسًا.

○ قوله: «﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ لَنُذْرِيَنَّهُ»، يعني: العجل لما حرقه موسى.

○ قوله: «﴿قَاعًا﴾» قال: «يَعْلُوهُ المَاءُ وَالصَّفْصَفُ المُسْتَوِي مِنَ الأَرْضِ» فالأرض يوم القيامة يزال ما عليها من الجبال وكل ما كان مرتفعا من التلول وغيرها فتكون مستوية، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧] فليس فيها جبال ولا نبات، وتمد الأرض كما يمد الأديم، وتبسط وتستوي، فيكون هناك الحساب على راحة الأرض بعد استوائها، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وهذا تبديل صفات لا تبديل ذات.

○ قوله: «﴿أَوْزَارًا﴾» قال مجاهد: الأوزار هي الأثقال و«﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]»: «الحُلِيُّ الذِي ٱسْتَعَارُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ».

○ قوله: «فَقَذَفْتُهَا» [طه: ٨٧]، قال: «فَأَلْقَيْتُهَا».

○ قوله: «﴿أَلْقَى﴾»: «صَنَعَ» يعني: أن السامري أخذ الذهب من آل فرعون فصوره على هيئة العجل وقذف عليه من أثر الرسول - قال بعضهم: من أثر فرس جبريل - فصار عجلًا له خوار، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨].

○ قوله: «﴿فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٨]» الضمير يعود إلى موسى، واليهود يقولون: أخطأ الرب.

○ قوله: «﴿يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾» يعني: العجل كيف يتخذونه إلهاً وهو لا يرد الكلام؟ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩]، أي: ما يستطيع الكلام، وهذا فيه دليل على أن عدم الكلام نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل، وفيه: الرد على الجهمية والمعتزلة الذين قالوا: إن الرب سبحانه لا يتكلم وأن الكلام مخلوق، فالله تعالى أنكر على عباد العجل كيف يعبدونه ولا يستطيع الرد عليهم؟!

○ قوله: «﴿هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾»، يعني: حس الأقدام يوم القيامة.

○ قوله: «﴿حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾»: «عَنْ حُجَّتِي» ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: ١٢٥] في الدنيا فسرها، أي: أعمى عن الحجة وقد كنت بصيرًا في الدنيا.

○ قوله: «قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿بِقَبَسٍ﴾ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وكانوا شَاتِينَ»، يعني: كانوا في الشتاء في البرد «فقال: إن لم أَجِدْ عليها مَنْ يَهْدِي الطَّرِيقَ آتِكُمْ بِنَارٍ تُوقِدون»، وذلك في تفسير قوله تعالى عن موسى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾، أي: بجانب الطور ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [طه: ١٠]، يعني: اجلسوا، سآتي هذه النار، وكانوا ضلوا الطريق، والوقت شاتٍ، فقال: أنا بين أحد أمرين: إما أن أجد أحدًا عند النار يدلني على الطريق، أو إن لم أجد أحدًا آخذ قبسًا أستدفئ به ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، يعني: من النار.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ [طه: ١٠٤]: أَعْدَلُهُمْ طَرِيقَةً».

○ قوله: «﴿هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]»، الهضم الظلم، يعني لا يظلم فيهضم من حسناته.

○ قوله: «﴿عِوَجًا﴾: وَادِيًا»، يعني: الأرض يوم القيامة ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه: ١٠٧].

○ قوله: «﴿أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾: رَابِيَةً»، يعني: يزال ما عليها من الجبال.

○ قوله: «﴿ضَنكًا﴾» هذا الذي ضل يكون في الدنيا في ضنك، والضنك: الشقاء.

○ قوله: «﴿هَوَىٰ﴾»، قال: «شَقِيَ».

○ قوله: «﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾»: «المُبَارَكِ».

○ قوله: «﴿طُوًى ﴿١٢﴾﴾» اسم الوادي الذي فيه جبل الطور، وهو الوادي المبارك؛ قال الله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢]، يعني: المطهر.

○ قوله: «﴿يَفْرُطَ﴾»، يعني: نخاف من عقوبته يعني فرعون.

○ قوله: «﴿يَبَسًا﴾»، يعني: البحر يابسًا.

○ قوله: «﴿وَلَا تَنِيَا﴾» يعني: لا تضعفا.

بَابٌ قَوْلِهِ:
﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ الآية [طه: ٤١]

{٤٧٣٦} حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ، حَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْتَقَىٰ آدَمُ وَمُوسَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ لآدَمَ: أَنْتَ الذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ؟ قَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ الذِي ٱصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ، وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَوَجَدْتَهَا كُتِبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ: نَعَمْ. فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ».
﴿ٱلۡيَمِّ﴾ [طه: ٣٩]: البَحْرُ.

الشَّرْح

{٤٧٣٦} قوله: «وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ» هذا هو الشاهد للترجمة؛ قال تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: ٤١].

○ قوله: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ»، حجه من جهتين:

إحداهما: أنه لامه على المصيبة التي لحقته وذريته بالخروج من الجنة، فاحتج آدم بالقدر، وهو أنه قال: إنها كتبت عليه.

ثانيهما: أنه لامه بعد التوبة، والتائب مغفور له فلا يلام، وإنما الذي يلام المصر على الذنب.

وهذه المحاورة يحتمل أنها كانت في البرزخ أو في ليلة المعراج، ومعلوم أن آدم عليه السلام مات ودفن في الأرض وموسى عليه السلام مات ودفن في الأرض، لكن النبي ﷺ في حديث المعراج رأى الأنبياء على أشكالهم - والروح تأخذ شكل الجسد - وكلموه وكلمهم.

○ قوله: «﴿ٱلۡيَمِّ﴾»، يعني: «البحر»، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ **الآية** [طه: ٧٧-٧٩]

{٤٧٣٧} حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَالْيَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَسَأَلَهُمْ، فَقَالُوا: هٰذَا الْيَوْمُ الذِي ظَهَرَ فِيهِ مُوسَىٰ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَحْنُ أَوْلَىٰ بِمُوسَىٰ مِنْهُمْ فَصُومُوهُ».

الشَّرْح

{٤٧٣٧} في الحديث: مشروعية صيام يوم عاشوراء، ومناسبته لآية الترجمة ظاهرة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]

{٤٧٣٨} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ بْنُ النَّجَّارِ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَاجَّ مُوسَىٰ آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ؟ قَالَ: قَالَ آدَمُ يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ الذِي ٱصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَىٰ أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟!». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ».

الشَّرْح

{٤٧٣٨} قوله: «حَدَّثَنَا أَيُّوبُ بْنُ النَّجَّارِ»، هو أيوب بن النجار اليمامي، من اليمامة؛ والإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ لم يرو له كثيرًا، وهو ثقة.

○ قوله: «أَنْتَ الذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ»، ظاهره أنه لامه على الذنب؛ وظاهر الأحاديث الأخرى أنه لامه على المصيبة، ويحتمل أن بعض الرواة رواه بالمعنى فذكر الذنب.

٢١- ومن سورة الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{٤٧٣٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْكَهْفُ، وَمَرْيَمُ، وَطَه، وَالأَنْبِيَاءُ هُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿جُذَاذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]: قَطَّعَهُنَّ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: ٣٣] مِثْلِ فَلْكَةِ المِغْزَلِ. ﴿يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء: ٣٣]: يَدُورُونَ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿نَفَشَتْ﴾ [الأنبياء: ٧٨]: رَعَتْ لَيلًا ﴿يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]: يُمْنَعُونَ. ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] قَالَ: دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿حَصَبُ﴾ [الأنبياء: ٩٨] حَطَبُ بِالْحَبَشِيَّةِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَحَسُّوا﴾ [الأنبياء: ١٢]: تَوَقَّعُوهُ مِنْ أَحْسَسْتُ. ﴿خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]: هَامِدِينَ. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]: مُسْتَأْصَلٌ يَقَعُ عَلَى الوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمِيعِ. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]: لَا يُعْيُونَ، وَمِنْهُ: ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، وَحَسَرْتُ بَعِيرِي. عَمِيقٌ: بَعِيدٌ. ﴿نُكِسُوا﴾ [الأنبياء: ٦٥]: رُدُّوا. ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ [الأنبياء: ٨٠]: الدُّرُوعُ. ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم﴾ [الأنبياء: ٩٣]: اخْتَلَفُوا، الحَسِيسُ وَالْحِسُّ وَالْجَرْسُ وَالْهَمْسُ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنَ الصَّوْتِ الخَفِيِّ ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ [فصلت: ٤٧]: أَعْلَمْنَاكَ ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]: إِذَا أَعْلَمْتَهُ فَأَنْتَ وَهُوَ عَلَى سَوَاءٍ لَمْ تَغْدِرْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣]: تُفْهَمُونَ ﴿ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]: رَضِيَ. ﴿التَّمَاثِيلُ﴾ [الأنبياء: ٥٢]: الأَصْنَامُ، ﴿السِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]: الصَّحِيفَةُ.

الشَّرح

{٤٧٣٩} قوله: «عَنْ عَبْدِ اللهِ» هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

○ قوله: «بَنِي إِسْرَائِيلَ» يعني: سورة الإسراء «وَالْكَهْفُ، وَمَرْيَمُ، وَطَه، وَالأَنْبِيَاءُ هُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي»، يعني: أنه رضي الله عنه حفظهم قديمًا

بمكة، والتلاد هو المال القديم، والطريف هو المال الجديد.

وفيه: فضل ابن مسعود رضي الله عنه لأنه من الحفاظ، قال النبي ﷺ: «**خذوا القرآن من أربعة ...**»(١) وذكر منهم ابن أم عبد وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

○ قوله: «**وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿جُذَٰذًا﴾: قَطَّعَهُنَّ**»، يعني: الأصنام.

○ قوله: «**وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: مِثْلِ فَلْكَةِ المِغْزَلِ**»، أي: تدور مثل فلكة المغزل، الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل؛ فالشمس في النهار يعقبها القمر في الليل ثم يعقب القمر الشمس وهكذا حتى يقضي الله عز وجل الأمر وتنتهي الدنيا.

○ قوله: «﴿نَفَشَتْ﴾» كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**رَعَتْ ليلًا**».

○ قوله: «﴿يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾» قال: «**يُمْنَعُونَ**» فلا أحد يمنعهم، ولا أحد يدفع عنهم من الله شيئاً إذا أراد بهم شيئاً، فليس لهم هناك آلهة تمنعهم، وليس هناك إلا الله فليعترفوا بفضل الله ونعمته.

○ قوله: «﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾» قال: «**دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ**».

○ قوله: «﴿أَحَسُّوا﴾» يعني: «**تَوَقَّعُوهُ، مِنْ أَحْسَسْتُ**».

○ قوله: «﴿خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾» قال: «**هَامِدِينَ**».

○ قوله: «﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾» قال: «**لَا يُعْيُونَ**»، وهو من باب فَرِحَ يَفْرَحُ.

وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن ابن التين أن الصواب بضم أوله يُعيون من أعيا يُعيي، والصواب بفتح أوله من الثلاثي عَيِيَ يَعْيى.

○ قوله: «﴿نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾» يعني: رُدوا على رءوسهم.

○ قوله: «﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾» قال: «**الدُّرُوعُ**».

○ قوله: «﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم﴾» قال: «**اخْتَلَفُوا**».

○ قوله: «**الحَسِيسُ وَالْحِسُّ وَالْجَرْسُ**»، بإسكان الراء «**وَالْهَمْسُ**»:

---

(١) البخاري (٣٨٠٨)، ومسلم (٢٤٦٤).

«وَاحِدٌ، وَهْوَ مِنَ الصَّوْتِ الخَفِيِّ»، وهو الحركة، أي: لا يسمعون الحركة ولا الصوت الخفي، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، يعني: النار.

بَابُ قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠٤]

{٤٧٤٠} حَدَّثَنا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ النُّعْمَانِ شَيْخٍ مِنَ النَّخَعِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلَا إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أَصْحَابِي. فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ﴾ [المادة: ١١٧] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] فَيُقَالُ: إِنَّ هٰؤلاء لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ».

الشَّرْح

{٤٧٤٠} هذا الحديث على هذه الآية: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤] الآية، وفيها أن الناس يعادون يوم القيامة كما بدأهم الله تعالى حفاة عراة غرلًا مثل خلقهم الأول، وذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً»: لا نعال عليكم، «عُرَاةً»: لا ثياب عليكم «غُرْلًا»: غير مختونين.

○ قوله: «أَوَّلَ مَنْ يُكْسَىٰ يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ» هذه منقبة لإبراهيم عليه السلام.

○ قوله: «أَلَا إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أَصْحَابِي. فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» فيه: شدة الخطر ووجوب الحذر؛ فإذا كان من آمن بالنبي ﷺ ورآه وصحبه يؤخذ بهم ذات الشمال لكونهم أحدثوا بعد النبي ﷺ فكيف حال من هو في آخر الزمان في القرون المتأخرة؟! فالخطر أعظم لغلبة الجهل وكثرة البدع وطول العهد والبعد عن آثار النبوة؛ فينبغي

للإنسان أن يكون على حذر.

وفيه: دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ولا يعلم أعمال أمته.

وفيه: دليل على ضعف الحديث الذي يروى أن النبي ﷺ تعرض عليه أعمال أمته حسنها وسيئها فإذا رأى حسنًا استبشر وإذا رأى سيئًا استغفر.

٢٢- ومن سورة الحجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: المُطْمَئِنِّينَ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيُبْطِلُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ وَيُحْكِمُ آيَاتِهِ. وَيُقَالُ: أُمْنِيَّتُهُ: قِرَاءَتُه ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ يَقْرَءُونَ وَلَايَكْتُبُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَشِيدٌ بِالْقَصَّةِ. وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿يَسْطُونَ﴾ يَفْرُطُونَ مِنَ السَّطْوَةِ، وَيُقَالُ: يَسْطُونَ: يَبْطُشُونَ. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أُلْهِمُوا. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿بِسَبَبٍ﴾ بِحَبْلٍ إِلَىٰ سَقْفِ الْبَيْتِ. ﴿تَذْهَلُ﴾: تُشْغَلُ.

الشَّرْح

○ قوله: «قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ ٣٤﴾: المُطْمَئِنِّينَ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [الحَجّ: ٣٤-٣٥].

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيُبْطِلُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ وَيُحْكِمُ آيَاتِهِ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحَجّ: ٥٢]، يعني: إذا قرأ أو حدث.

○ قوله: «﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾»، قال: «يَقْرَءُونَ وَلَايَكْتُبُونَ» يعني: في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البَقَرَة: ٧٨] يعني إلا تلاوة مجردة.

○ قوله: «﴿بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾» قال: «بِحَبْلٍ إِلَىٰ سَقْفِ الْبَيْتِ».

○ قوله: «﴿يَسْطُونَ﴾» قال: «يبطشون، وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿يَسْطُونَ﴾ يَفْرُطُونَ مِنَ السَّطْوَةِ».

- قوله: «﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ﴾»، قال: «**أُلْهِمُوا**» إلى القرآن، وهو القول الطيب.
- قوله تعالى: «﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾» فسر الصراط بالإسلام.
- قوله: «﴿تَذْهَلُ﴾»، أي: «**تُشْغَلُ**».
- قوله: «﴿مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾»، يعني: مزخرف بالجص ومدهون بالدهانات.

بَابٌ قوله:

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢]

{٤٧٤١} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ ﷻ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ. يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادىٰ بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ -أُرَاهُ قَالَ- تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الوَلِيدُ ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]». فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّىٰ تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا. قَالَ أَبُو أُسَامَةَ عَنِ الأَعْمَشِ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] وَقَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. وَقَالَ جَرِيرٌ وَعِيسَىٰ بْنُ يُونُسَ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ: (سَكْرَىٰ وَمَا هُمْ بِسَكْرَىٰ).

الشَّرْح

{٤٧٤١} قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحَجّ: ٢]. هذه قراءة حفص المشهورة، قال القرطبي رحمه الله: «وقرأ النخعي «سَكْرَىٰ»: بفتح السين على مثال فَعْلَى، وهو تكسير سكران، وإنما كسر على «سكرى»، لأن السكر آفة تلحق العقل فجرى مجرى صرعى وبابه. وقرأ الأعمش «سُكرى» كحُبْلَى فهو صفة مفردة، وجاز الإخبار بالصفة المفردة عن الجماعة على ما يستعملونه من الإخبار عن الجماعة بالواحد»(١).

(١) «تفسير القرطبي» (٥/ ٢٠٢).

والشاهد قوله: «فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الوَلِيدُ».

وهذا الحديث فيه: إثبات القيامة وإثبات البعث ومن أنكر البعث فهو كافر بإجماع المسلمين ونص القرآن، فالأجساد يعيدها الله ﷻ خلقًا جديدًا، وقد أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقسم على البعث في ثلاثة مواضع من كتابه:

الموضع الأول: قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

الموضع الثاني: قوله: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ [يونس: ٥٣]، يعني: البعث.

الموضع الثالث: قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [سبإ: ٣].

والإنسان إذا مات يبلى جسده إلا عجب الذنب وهو: وفي الحديث: «**ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[(١)]، أما الرسل فإن أجسادهم كريمة لا تأكلها الأرض؛ فيعيد الله ﷻ الذرات التي استحالت لأنه عالم بها وقادر على إعادتها ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾ [ق: ٤] وذلك بعد أن ينفخ إسرافيل نفخة الصعق والموت فيمكث الناس أربعين، ثم ينزل الله ﷻ مطرًا تنبت منه أجساد الناس، وينشأ الناس تنشئة قوية؛ الصفات والذوات هي هي خلافًا للجهمية الذين يقولون: تبدل الذوات، وهذا من أبطل الباطل وكفر وضلال، فالذات هي التي تعاد؛ فإذا تم الخلق أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ في الصور فعادت الأرواح إلى أجسادها، والأرواح باقية بعد الموت، والإنسان إما في عذاب أو في نعيم، وأرواح المؤمنين تنقل إلى الجنة ولها صلة بالجسد وأرواح الكافرين تنقل إلى النار ولها صلة بالجسد؛ فمن قال: إن المعاد للأرواح فهو كافر، كما يقول الفلاسفة الذين أنكروا بعث الأجساد وقالوا: البعث للأرواح.

وفي الحديث: إثبات الكلام لله ﷻ وإثبات القول والنداء والرد على من أنكر ذلك كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة؛ فقوله: «فينادى بصوت» فيه: إثبات

---

(١) البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

الصوت لله ﷻ وأن كلام الله ﷻ بحرف وصوت، وفيه: الرد على الأشاعرة والكلابية الذين يقولون: إن كلام الله ﷻ معنى قائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت.

والله تعالى نَوَّعَ هذه الصفة في الكلام، فقال ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النِّسَاء: ١٦٤] وأكده بالمصدر، وقال ﷻ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾، والنداء هو الكلام من بعد، وقال ﷻ: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مَريَم: ٥٢] والنجاء هو الكلام من قرب؛ فأتى بالكلام من قرب والكلام من بعد، والنداء - وهو الكلام من بعد - لابد فيه من الصوت والحديث صرح فيه بالصوت «فَيُنَادِىٰ بِصَوْتٍ» وهو الرب ﷻ، والضمير يعود إلى الله ﷻ، وقد ورد: «فينادي»[1] وهو صريح في أن المنادي هو الله ﷻ.

○ قوله: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»؛ فيه: دليل على أن يأجوج ومأجوج من بني آدم بعد قوله: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ» وهم من نسل يافث بن نوح، وهما أمتان كافرتان، أمة يقال لها: يأجوج، وأمة يقال لها: مأجوج.

ويأجوج ومأجوج من الأجيج، وهو كثرة الأصوات واختلاطها، وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله ﷻ.

ولما قال النبي ﷺ: إن الله تعالى يقول لآدم ﵇ أخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار شق ذلك على الصحابة ﵃ حتى تغيرت وجوههم من الخوف، وفي اللفظ الآخر أنهم قالوا: «وأينا ذلك الواحد؟»[2] أي: من هو الواحد الذي يذهب إلى الجنة؟ قال ابن القيم ﵀ في وصف الجنة:

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

يعني: لا ينالها من الألف إلا واحد أخذًا من هذا الحديث؛ فبعث النار تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة.

(١) البخاري (٧٠٤٥).
(٢) أحمد (٣/ ٣٢)، والبخاري (٣١٧٠).

○ قوله: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ» يعني: نصيب النار من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومن غير يأجوج ومأجوج: واحد، وهذا يدل على أنهما أمتان كافرتان.

○ قوله ﷺ: «ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ» فيه: دليل على أن أهل النار كثيرون وأن هذه الأمة والمؤمنين منها نسبتها كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود وهي نسبة ضئيلة.

○ قوله ﷺ: «وَإِنِّي لأَرْجُو» هذا رجاء محقق «أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا» فيه: مشروعية التكبير عند الأمر الذي يتعجب منه؛ فكبروا فرحًا بفضل الله ﷻ ثم قال ﷺ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» وفي اللفظ الآخر أنه قال ﷺ: «**إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا**»[1] فرحًا «ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا» وفي اللفظ الآخر أنه قال ﷺ: «**إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة**»[2] والشطر: النصف.

وجاء في حديث آخر في غير «الصحيحين» أن هذه الأمة ثلثا أهل الجنة، وأن أهل الجنة مائة وعشرون صفًّا، وأن هذه الأمة ثمانون صفًّا، والثلث الباقي للأمم الباقية[3]؛ وهذا يدل على كثرة أتباع النبي ﷺ.

---

(١) البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢١).
(٢) البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢).
(٣) أحمد في «المسند» (١/ ٤٥٣).

بَابٌ قوله:
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ الآية [الحج: ١١]

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]: وَسَّعْنَاهُمْ.

{٤٧٤٢} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الحَارِثِ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ المَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتِ ٱمْرَأَتُهُ غُلَامًا، وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ؛ قَالَ هٰذا دِينٌ صَالِحٌ. وَإِنْ لَمْ تَلِدِ ٱمْرَأَتُهُ وَلَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ؛ قَالَ هٰذا دِينُ سُوءٍ.

الشَّرْح

هذه الآية في ضعيف الإيمان الذي لا يثبت عند الشدائد فيرتد عن دينه، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحَجّ: ١١] يعني: على شك؛ فهو لا يثبت ولا يدوم على طرف بل ضعيف الإيمان لا يثبت عند الشدائد؛ إن أصابه خير بقي على الدين وإن أصابته الشدة والمصائب ارتد عن دينه، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يعني: ثبت على هذا الدين ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، يعني: ارتد عن دينه و﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ⑪﴾ [الحَجّ: ١١]. نعوذ بالله ﷻ من ذلك.

○ قوله: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، يعني: وسعنا عليهم فبغوا وكفروا.

{٤٧٤٢} قوله: «كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ المَدِينَةَ» من البادية أو غيرها وهو ضعيف الإيمان «فَإِنْ وَلَدَتِ ٱمْرَأَتُهُ غُلَامًا، وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ؛ قَالَ هٰذا دِينٌ صَالِحٌ»، يعني: إن أصابه خير ونعمة قال ذلك «وإن لم تلد امرأته» شيئًا أو ولدت أنثى «وَلَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ؛ قَالَ هٰذا دِينُ سُوءٍ»، فارتد عن دينه، وهذا ضعيف الإيمان، وهذه الآية

مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [العَنكبوت: ١٠].

بَابٌ قوله:

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ الآية [الحج: ١٩]

{٤٧٤٣} حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو هَاشِمٍ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ فِيهَا إِنَّ هٰذِهِ الآيَةَ ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: ١٩] نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبَيْهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ. رَوَاهُ سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ. وَقَالَ عُثْمَانُ: عَنْ جَرِيرٍ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَوْلَهُ.

{٤٧٤٤} حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلَزٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ. قَالَ قَيْسٌ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: ١٩] قَالَ: هُمُ الذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ عَلِيٌّ، وَحَمْزَةُ وَعُبَيْدَةُ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ.

الشَّرْح

{٤٧٤٣}، {٤٧٤٤} هذه الآية نزلت يوم بدر لما تبارز: علي وحمزة وعبيدة رضي الله عنهم مع: شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وما حصل من قتل علي رضي الله عنه وحمزة صاحبيهما، أما عبيدة فاختلف مع صاحبه في ضربتين، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحَجّ: ١٩] بضمير الجمع؛ لأن كلا من الخصمين جمع، فكل خصم ثلاثة فهم ستة تبارز علي وحمزة وعبيدة رضي الله عنهم من المسلمين وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من المشركين، وهذا هو سبب النزول، والآية عامة تشمل فريق الكفار وفريق المؤمنين الذين يختصمون.

٢٣- ومن سورة المُؤْمِنِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: سَبْعَ سَمَوَاتٍ. ﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾: سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ. ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: خَائِفِينَ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾: بَعِيدٌ بَعِيدٌ. ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾: المَلَائِكَةَ. ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: لَعَادِلُونَ. ﴿كَٰلِحُونَ﴾: عَابِسُونَ. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: الوَلَدُ، وَالنُّطْفَةُ السُّلَالَةُ. وَالْجِنَّةُ وَالْجُنُونُ وَاحِدٌ. وَالْغُثَاءُ: الزَّبَدُ وَمَا ارْتَفَعَ عَنِ المَاءِ، وَمَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾» قال: «سَبْعَ سَمَوَاتٍ».

○ قوله تعالى: «﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾» أي: خائفة.

○ قوله: «﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾» استبعاد بمعنى: «بَعِيدٌ بَعِيدٌ».

○ قوله: «﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٤]» أي: «لَعَادِلُونَ».

○ قوله تعالى: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤] عَابِسُونَ» أهل النار.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] فسر السلالة بالولد، وفسر النطفة بالسلالة.

○ قوله: «وَالْجِنَّةُ وَالْجُنُونُ وَاحِدٌ» في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥] يعني: ما هو إلا رجل به جنون.

○ قوله تعالى: «﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١١٣]» أي: «المَلَائِكَةَ».

○ قوله: «وَالْغُثَاءُ: الزَّبَدُ وَمَا ارْتَفَعَ عَنِ المَاءِ، وَمَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ»، في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

٢٤- ومن سُورَةِ النُّورِ

﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ مِنْ بَيْنِ أَضْعَافِ السَّحَابِ. ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ الضِّيَاءُ. (مذعنين). يُقَالُ لِلْمُسْتَخْذِي: مُذْعِنٌ، أَشْتَاتًا وَشَتَّىٰ وَشَتَاتٌ وَشَتٌّ وَاحِدٌ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ بَيَّنَّاهَا. وَقَالَ غَيْرُهُ: سُمِّيَ الْقُرْآنُ لِجَمَاعَةِ السُّوَرِ، وَسُمِّيَتِ السُّورَةُ لأَنَّهَا مَقْطُوعَةٌ مِنَ الأُخْرىٰ فَلَمَّا قُرِنَ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ سُمِّيَ قُرْآنًا. وَقَالَ سَعْدُ بْنُ عِيَاضٍ الثُّمَالِيُّ الْمِشْكَاةُ: الْكُوَّةُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ، وَقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ تَأْلِيفَ بَعْضِهِ إِلَىٰ بَعْضٍ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ فَإِذَا جَمَعْنَاهُ وَأَلَّفْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، أَىْ مَا جُمِعَ فِيهِ، فَاعْمَلْ بِمَا أَمَرَكَ، وَانْتَهِ عَمَّا نَهَاكَ اللهُ، وَيُقَالُ لَيْسَ لِشِعْرِهِ قُرْآنٌ أَىْ تَأْلِيفٌ، وَسُمِّيَ الفُرْقَانَ لأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ مَا قَرَأَتْ بِسَلًا قَطُّ أَىْ لَمْ تَجْمَعْ فِي بَطْنِهَا وَلَدًا. وَقَالَ ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أَنْزَلْنَا فِيهَا فَرَائِضَ مُخْتَلِفَةً وَمَنْ قَرَأَ ﴿وَفَرَّضْنَٰهَا﴾ يَقُولُ فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰ مَنْ بَعْدَكُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ لَمْ يَدْرُوا لِمَا بِهِمْ مِنَ الصِّغَرِ.

الشَّرْح

لم يذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا في سورة النور؛ لأنه لم يجد حديثًا على شرطه فاكتفى بتفسير الكلمات التي تحتاج إلى بيان معنى.

○ قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النُّور: ٤٣] قال: «مِنْ بَيْنِ أَضْعَافِ السَّحَابِ».

○ قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ [النُّور: ٤٣]، قال: «الضِّيَاءُ».

○ قوله تعالى: ﴿مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النُّور: ٤٩]، قال: «يُقَالُ لِلْمُسْتَخْذِي: مُذْعِنٌ».

○ قوله: «المِشْكَاةُ: الكُوَّةُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ»، أي: بلغتهم.

○ قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النُّور: ١]، أي: «بَيَّنَّاهَا»، وبين تفسير الكلمة فقال: «سُمِّيَ القُرْآنُ لِجَمَاعَةِ السُّوَرِ، وَسُمِّيَتِ السُّورَةُ لأَنَّهَا مَقْطُوعَةٌ مِنَ الأُخْرىٰ فَلَمَّا قُرِنَ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ سُمِّيَ قُرْآنًا».

○ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القِيَامَة: ١٧] أي: «تَأْلِيفَ بَعْضِهِ إِلَىٰ بَعْضٍ».

○ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: فإذا قرأه جبريل عليه السلام ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القِيَامَة: ١٨] «فَإِذَا جَمَعْنَاهُ وَأَلَّفْنَاهُ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، أيْ مَا جُمِعَ فِيهِ، فَاعْمَلْ بِمَا أَمَرَكَ، وَانْتَهِ عَمَّا نَهَاكَ اللهُ».

○ قوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النُّور: ١]، فيها قراءتان، والأولى تعني: «أَنْزَلْنَا فِيهَا فَرَائِضَ مُخْتَلِفَةً»، والثانية تعني: «فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰ مَنْ بَعْدَكُمْ».

○ قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ [النُّور: ٣١]، قال مجاهد: «لَمْ يَدْرُوا لِمَا بِهِمْ مِنَ الصِّغَرِ».

وحكمه حكم ﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ [النُّور: ٣١] وهم: من ليس لهم أرب ولا حاجة في النساء؛ أي: من ليس عندهم شهوة، وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يهمه إلا بطنه ولا يُخَاف على النساء»، وقال طاوس: «هو الأحمق الذي لا حاجة له في النساء»، يعني: الذي ليس له شهوة في النساء.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾
الآية [النور: ٦]

{٤٧٤٥} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ عُوَيْمِرًا أَتَىٰ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلَانَ فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ ٱمْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَأَتَىٰ عَاصِمٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ. فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَرِهَ المَسَائِلَ وَعَابَهَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: واللهِ لَاأَنْتَهِي حَتَّىٰ أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ ٱمْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ القُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ». فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُلَاعَنَةِ بِمَا سَمَّىٰ اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَاعَنَهَا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ حَبَسْتُهَا فَقَدْ ظَلَمْتُهَا، فَطَلَّقَهَا، فَكَانَتْ سُنَّةً لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي المُتَلَاعِنَيْنِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْظُرُوا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَدْعَجَ العَيْنَيْنِ عَظِيمَ الأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا، إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا». فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الذِي نَعَتَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَصْدِيقِ عُوَيْمِرٍ، فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَىٰ أُمِّهِ.

الشَّرْح

{٤٧٤٥} هذه الآية وهذا الحديث في الملاعنة، والملاعنة معناها في اللغة: السب، وسميت ملاعنة لأن الرجل يسب نفسه في الخامسة، وكذلك المرأة في الخامسة تدعو على نفسها بالغضب، والسب يسمى: لعنًا، ولو كان بغير لفظ اللعن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يعني: المذمومة.

فإذا رمى الزوج زوجته بالزنا والفاحشة وأنكرت فإنه يلاعنها، بخلاف غير الزوج، فإما أن يأتي بأربعة شهود - ولابد أن يكونوا أربعة - أو يجلد ثمانين جلدة؛ فإن شهد أربعة أقيم على المشهود عليها الحد وإن شهد ثلاثة أو اثنان أو واحد أقيم على كل واحد منهم حد القذف ثمانين جلدة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النُّور: ٤]، إلا الزوج فإنه إذا لم يكن عنده شهود فإنه يلاعن عند الحاكم الشرعي؛ فيشهد على نفسه أربع شهادات، أي: يشهد بالله ﷻ أربع مرات أن زوجته فلانة زنت وفي الخامسة يلعن نفسه؛ فإن كان كاذبًا فلعنة الله ﷻ عليه.

ثم تُوجَّه الأيمان إلى المرأة؛ فتشهد أربع شهادات أن زوجها كاذب تقول: أشهد بالله لقد كذب عليّ فيما رماني به من الزنا أربع مرات وفي الخامسة تدعو على نفسها بالغضب إن كان من الصادقين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النُّور: ٦-٩].

فإذا تمت الأيمان والشهادات فإنه يفرق بينهما تفريقًا مؤبدًا، وإن شهد الزوج على نفسه ثم نكلت وامتنعت أقيم عليها الحد.

وقوله في الحديث: «فَطَلَّقَهَا»، يعني: من قبل نفسه ظنًّا منه أنه لابد من طلاقها، وإلا فإن اللعان فرقة مؤبدة ولا يحتاج إلى طلاق؛ فهو طلقها من نفسه ولم يأمره النبي ﷺ بطلاقها.

وإن كان في المرأة حمل وجب التلاعن لنفي الولد، وإن لم يكن حمل فالأولى ولا يلاعنها وبعد اللعان ينسب الولد إلى أمه ولا ينسب إلى أبيه، ولهذا قال ﷺ: «فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَىٰ أُمِّهِ» ويرث أمه وترثه.

قوله ﷺ: «انْظُرُوا»، يعني: الولد «فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ»، لأن المرأة كانت حاملًا «أَسْحَمَ أَدْعَجَ العَيْنَيْنِ عَظِيمَ الأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ» يعني: يشبه الرجل الذي رماها به «فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ

وَحَرَةٌ» يشبه الزوج «فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا، إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا» فجاءت به على وصف الرجل الذي رميت به، ولهذا قال: «فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الذِي نَعَتَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَصْدِيقِ عُوَيْمِرٍ» ولم يقم عليها الحد؛ لأن الحكم الشرعي هو الملاعنة، وقد جاء في بعض الروايات: «**لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن**»[1] فالحكم الشرعيك أنه بعد الملاعنة لا ينظر إلى وصف الولد سواء كان وصف الولد مشابهًا لزوج المرأة أو مشابهًا لوصف الرجل الذي رميت به؛ فالأيمان كافية، ولهذا فإنها لما جاءت به على الوصف الذي يشبه الرجل الذي رميت به ما أقام النبي ﷺ عليها الحد.

(١) أحمد (١/ ٢٣٨)، والبخاري (٤٧٤٧).

بَابٌ قوله:

﴿وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾

[النور: ٧]

{٤٧٤٦} حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ أَبُو الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا رَأَىٰ مَعَ ٱمْرَأَتِهِ رَجُلًا أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمَا مَا ذُكِرَ فِي القُرْآنِ مِنَ التَّلَاعُنِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ قُضِيَ فِيكَ وَفِي ٱمْرَأَتِكَ». قَالَ فَتَلَاعَنَا، وَأَنَا شَاهِدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَفَارَقَهَا فَكَانَتْ سُنَّةً أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ المُتَلَاعِنَيْنِ وَكَانَتْ حَامِلًا، فَأَنْكَرَ حَمْلَهَا وَكَانَ ابنهَا يُدْعَىٰ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَرَتِ السُّنَّةُ فِي المِيرَاثِ أَنْ يَرِثَهَا، وَتَرِثَ مِنْهُ مَا فَرَضَ اللهُ لَهَا.

الشَّرْح

{٤٧٤٦} هذه هي السنة في المتلاعنين: أن يفرق بينهما، ويرث الولد من أمه وترث منه؛ فإن كان معها ورثة غيرها بأن كان له إخوة أو كان له جد من قبل الأم أو غير ذلك فإنهم يرثون، فإن لم يكن معها وارث أخذت المال كله فرضًا وردًّا.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨﴾ [النور: ٨]

{٤٧٤٧} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابن أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ: أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا رَأَىٰ أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ. فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «الْبَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٦] فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩] فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالٌ، فَشَهِدَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ». ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَّفُوهَا، وَقَالُوا إِنَّهَا مُوجِبَةٌ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ». فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْلَا مَا مَضَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ».

الشَّرْح

{٤٧٤٧} هذا الحديث فيه: أن هذه الآية نزلت في هلال بن أُمية حينما قذف امرأته بشَرِيْك بن سَحْمَاء والحديث السابق فيه: أنها نزلت في عُوَيْمِر العَجْلَانِي، فلعلها نزلت في هلاله وصادف ذلك مجيء عويمر.

وفي هذا الحديث: دليل على أن من قذف شخصًا بالزنا فإن عليه البينة أو يقام عليه الحد، ولما قذف امرأته كان الحكم كذلك حتى أنزل الله ﷻ في الزوج إذا قذف امرأته ما يبرئ ظهره، وهو: الملاعنة.

وأخذ العلماء من هذا: أنه إذا شهد رجل على امرأته أربع مرات فإنه يوقف في الخامسة ويقال له: اتق الله فإنها موجبة؛ لأن الخامسة فيها يلعن نفسه، والمرأة كذلك إذا شهدت أربع شهادات توقف عند الخامسة ويقال لها: اتق الله فإنها موجبة.

وفيه: أن امرأة هلال بن أمية تلكأت في الخامسة؛ لما قيل لها: «إِنَّهَا مُوجِبَةٌ»، حتى ظنوا أنها سترجع ثم قالت: «لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ اليَوْمِ» فشهدت الخامسة.

وفيه: أن النبي ﷺ قال: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلَ العَيْنَيْنِ سَابِغَ الأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهْوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ» وهو الذي قذفها زوجها به؛ فجاءت به كذلك، ومع ذلك لم يقم النبي ﷺ عليها الحد لأن الحكم مضى؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَوْلَا مَا مَضَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النُّور: ٦]» كذا في هذه الرواية: أن آيات اللعان نزلت في قصة هلال بن أمية، وفي حديث سعد الماضي أنها نزلت في عويمر ولفظه: فجاء عويمر فقال: يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتُلُه فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «**قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك**»[(١)]؛ فأمرهما بالملاعنة.

وقد اختلف الأئمة في هذا الموضع: فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر، ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال، ومنهم من جمع بينهما؛ بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضًا فنزلت في شأنهما معًا في وقت واحد. وقد جنح النووي إلى هذا، وسبقه الخطيب فقال: لعلهما اتفق كونهما جاءا في وقت واحد. ويؤيد التعدد: أن القائل في قصة هلال: سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما أخرجه أبو داود والطبري من طريق عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مثل رواية هشام بن حسان بزيادة في أوله: لما نزلت:

---

(١) أحمد (٥/ ٣٣٦)، والبخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢).

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النُّور: ٦] الآية. قال سعد بن عبادة ﷺ: لو رأيتُ لُكَاعًا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أُهَيّجه حتى آتي بأربعة شهداء، ما كنت لآتي بهم حتى يفرغ من حاجته، قال: فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية... الحديث[1]. وعند الطبري من طريق أيوب عن عكرمة مرسلاً فيه نحوه وزاد: فلم يلبثوا أن جاء ابن عم له فرمى امرأته... الحديث. والقائل في قصة عويمر عاصم بن عدي كما في حديث سهل بن سعد في الباب الذي قبله، وأخرج الطبري من طريق الشعبي مرسلًا قال: لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النُّور: ٦] الآية. قال عاصم بن عدي: إن أنا رأيتُ فتكلمتُ جُلِدْتُ، وإن سَكَتُّ سَكَتُّ على غيظ... الحديث، ولا مانع أن تتعدد القصص ويتحد النزول».

ذكر ابن حجر ثلاثة أقوال:

الأول: أنها نزلت في شأن عويمر.

الثاني: أنها نزلت في شأن هلال.

الثالث: من العلماء كالخطيب والنووي من جمع بينهما بأن نزلت في شأنهما معًا في وقت واحد، وهذا القول ليس ببعيد؛ ففي الحديث الأول قال: «**فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ**» وهنا قال: «**فَهْوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ**» هذا رجل وهذا رجل، ومعروف أن شَرِيْك بن سَحْمَاء صاحب هلال بن أمية.

وقد قال بعض العلماء: إنها نزلت مرتين، نزلت في هلال ونزلت في عويمر، قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «أول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته... الحديث، وجنح القرطبي ﷺ إلى تجويز نزول الآية مرتين، قال: وهذه الاحتمالات - وإن بعدت - أولى من تغليط الرواة الحفاظ».

قوله: «**لَوْلَا مَا مَضَىٰ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ**»، في اللفظ الآخر: «**لولا الأيمان لكان لي ولها شأن**»[2].

---

(١) أبو داود (٢٢٥٦)، والطبري في «التفسير» (١٨/ ٨٢).
(٢) أحمد (١/ ٢٣٨)، وأبو داود (٢٢٥٦).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النور: ٩]

{٤٧٤٨} حَدَّثَنَا مُقَدَّمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا عَمِّي القَاسِمُ بْنُ يَحْيَىٰ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ وَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ ﵄ أَنَّ رَجُلًا رَمَى ٱمْرَأَتَهُ فَانْتَفَىٰ مِنْ وَلَدِهَا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَلَاعَنَا كَمَا قَالَ اللهُ، ثُمَّ قَضَىٰ بِالْوَلَدِ لِلْمَرْأَةِ وَفَرَّقَ بَيْنَ المُتَلَاعِنَيْنِ.

الشَّرْح

{٤٧٤٨} هذا الحديث فيه: دليل على أنه بعد اللعان تكون الفرقة مؤبدة بين الزوجين ولا يحتاج إلى طلاق.

وفيه: أن الولد ينسب إلى أمه ولا ينسب إلى أبيه ويكون التوارث بينه وبين أمه ولا يكون له أب.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [النور: ١١]

أَفَّاكٌ: كَذَّابٌ.

{٤٧٤٩} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ [النور: ١١] قَالَتْ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ ابن سَلُولَ.

الشَّرْح

{٤٧٤٩} هذا هو الصواب أن الذي تولى كبره: عبد الله بن أُبَي بن سَلُول رئيس المنافقين، وسيأتي في الحديث الذي بعد هذا أن الذي تولى كبره هو: حسان بن ثابت، والصواب: أنه عبد الله بن أبي بن سلول.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النُّور: ١١] الإفك يعني: الكذب، ويطلق على أسوأ الكذب؛ فسمي الذين رموا عائشة رضي الله عنها أنهم أصحاب الإفك؛ لأن ما قالوه هو أسوأ الكذب.

بَابُ قوله:
﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾
إِلىٰ ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٢، ١٣]

{٤٧٥٠} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ، وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ- حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْ بَعْضٍ الذِي حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ -زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ- قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ مَا نَزَلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّىٰ جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَىٰ رَحْلِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارٍ قَدِ ٱنْقَطَعَ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ٱبْتِغَاؤُهُ وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَىٰ بَعِيرِي الذِي كُنْتُ رَكِبْتُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا تَأْكُلُ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ - وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا ٱسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ، وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَدْلَجَ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَىٰ سَوَادَ إِنْسَانٍ

نَائِم، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي -وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الحِجَابِ- فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، واللهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ ٱسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّىٰ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَىٰ يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّىٰ أَتَيْنَا الجَيْشَ، بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَى ابن سَلُولَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهْوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَاأَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطَفَ الذِي كُنْتُ أَرىٰ مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟». ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الذِي يَرِيبُنِي، وَلَاأَشْعُرُ حَتَّىٰ خَرَجْتُ بَعْدَ مَا نَقَهْتُ، فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ -وَهْوَ مُتَبَرَّزُنَا- وَكُنَّا لَانَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَىٰ لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذىٰ بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهْيَ ابنةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، قَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟! قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهُ، أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَىٰ مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعْنِي سَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟». فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ فَوَاللَّهِ، لَقَلَّمَا كَانَتِ ٱمْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا. قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! وَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهٰذا. قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ لَايَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَاأَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ أَبْكِي فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما حِينَ ٱسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ،

قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَهْلَكَ، وَمَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ عَلَيْهَا مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ». قَالَتْ بَرِيرَةُ: لَاوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَي ابن سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ، قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا مَعِي». فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا -مِنَ الخَزْرَجِ- أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ -وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ- وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، ولكن ٱحْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللهِ لَاتَقْتُلُهُ، وَلَاتَقْدِرُ عَلَىٰ قَتْلِهِ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابن عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَتَثَاوَرَ الحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّىٰ هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّىٰ سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَمَكُثْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَايَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَاأَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي -وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَاأَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ وَلَايَرْقَأُ لِي دَمْعٌ- يَظُنَّانِ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ ٱمْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ؛ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَىٰ ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ. قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَايُوحَىٰ إِلَيْهِ فِي شَأْنِي، قَالَتْ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً

فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَىٰ اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ». قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّىٰ مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قَالَ: واللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: لأُمِّي أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَاأَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ، إِنِّي واللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هٰذا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ -واللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ- لَاتُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ -واللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، واللهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَىٰ فِرَاشِي. قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، ولٰكن واللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَىٰ، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِي بِأَمْرٍ يُتْلَىٰ، ولٰكن كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَاخَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ حَتَّىٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ، وَهْوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُرِّيَ عَنْهُ وَهْوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ ﷻ فَقَدْ بَرَّأَكِ». فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: واللهِ، لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ ﷻ. وَأَنْزَلَ اللهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ [النور: ١١] العَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هٰذا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه -وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ، وَفَقْرِهِ-: واللهِ لَاأُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢] قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَىٰ، واللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَىٰ مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ التِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: واللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. قَالَتْ

عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ: وَهِيَ التِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الإِفْكِ.

الشَّرْح

{٤٧٥٠} قوله: «وَكُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الحَدِيثِ» يعني: كل واحد حدثني قطعة من الحديث؛ فالزهري روى الحديث عن: عروة وسعيد بن المسيب وعلقمة بن أبي وقاص وعبيدالله بن عتبة بن مسعود.

○ قوله: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ» فيه: دليل على مشروعية إقراع الرجل بين أزواجه إذا أراد أن يسافر؛ فمن وقعت لها القرعة سافر بها، أما إذا رضين بواحدة تخرج معه ابتداءً من دون قرعة فلا بأس، والنبي ﷺ أقرع بينهن في هذه الغزاة فخرج سهم عائشة ﵂.

○ قوله: «فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ مَا نَزَلَ الحِجَابُ» فيه: دليل على أن قصة الإفك حدثت بعدما نزل الحجاب، قيل: في غزوة المُرَيْسِيْع أو في غيرها، والمشهور: أنها في غزوة المريسيع.

وفيه: العناية بالمرأة وحجبها عن الرجال، حيث كانت عائشة ﵂ تحمل في هودج وتنزل فيه، والهودج كالغرفة من سعف النخيل تكون فيه المرأة، ويحمل هذا الهودج ويوضع على البعير وينزل فتكون مستورة من جميع الجهات؛ فأين دعاة السفور ودعاة التفسخ والعري من هذه الأحاديث؟! ومن قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]؟!

ولما آذن النبي ﷺ بالرحيل ذهبت إلى شيء من حاجتها، ولما قضت وعادت لمست صدرها فإذا العقد الذي تتزين به قد سقط، وفي هذا دليل على مشروعية تحلي المرأة بالذهب والفضة وغيرهما.

وفيه: دليل على جواز لبس الذهب المحلق والرد على من أنكره؛ لأن هذا العقد محلق؛ فالذهب المحلق لا بأس به وهو كالإجماع من أهل العلم، وما ورد

من أحاديث في النهي عن الذهب المحلق - والتي استدل بها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله - فهي: إما منسوخة أو: شاذة مخالفة للأحاديث الصحيحة.

وفيه: دليل على العناية بالمال، حيث التمست عقدها لما سقط منها ولم تتركه، والنبي ﷺ أرسل رهطًا يبحثون عن عقد آخر سقط من عائشة رضي الله عنها في بعض الغزوات الأخرى.

○ قوله: «فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ» كانت عائشة رضي الله عنها تحمل بالهودج فلا تتكلم ولا يتكلمون معها، وعللت عدم استنكارهم لوجودها بالهودج مع خفته بقولها: «وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ».

○ قوله: «إِنَّمَا تَأْكُلُ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ»، أي: البلغة أو ما يقيم الجسد؛ فلهذا كانت رضي الله عنها خفيفة.

○ قوله: «فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي»، يعني: غطيت.

وفيه: دليل على أن تغطية الوجه من الحجاب، وأن النساء كن يكشفن وجوههن قبل نزول الحجاب، ففيه: الرد على من أباح كشف الوجه، وقال: إنه خاص بأمهات المؤمنين، ولا دليل عليه؛ فقد نزل القرآن على العموم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وهذا صريح في تغطية الوجه وأنه من الحجاب، وأن المرأة لابد أن تستر وجهها؛ فأين دعاة السفور من هذا النص الصريح؟! لكن دعاة السفور من أهل الزيغ يتركون النصوص الصريحة ويتعلقون بالنصوص المشتبهة، مثل حديث الخثعمية يقولون: إن الخثعمية كانت تنظر إلى الفضل وينظر إليها، واستدلوا به على أنها كانت كاشفة الوجه، وهو حديث مشتبه يرد إلى الأحاديث المحكمة الصريحة الواضحة؛ فلا يلزم منه أن تكون كاشفة لوجهها.

○ قوله: «وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ ٱسْتِرْجَاعِهِ» يعني: قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

○ قوله: «فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ» يعني: تكلم في عائشة رضي الله عنها ورماها بالإفك.

○ قوله: «وَكَانَ الذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَى ابن سَلُولَ» كان عبد الله بن أبي ينشر الحديث وما يُمسك عليه شيء؛ ولهذا ما أقيم عليه الحد، وهو الذي تولى كبره، وسيأتي أن الذي تولى كبره حسان ﵁، ولكن هذا قول مرجوح.

○ قوله: «فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا»، يعني: مرضت شهرًا كاملًا، والناس يتكلمون في الإفك، وهي لا تدري، ولما برأت من مرضها وشفيت أخبرتها أم مسطح؛ فرد المرض عليها مرة ثانية بسبب ما سمعت؛ لأنها مظلومة.

○ قوله: «لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ»، يعني: أنها لا تدري أن الناس يتكلمون فيها، إلا أنها استنكرت فقد اللطف من النبي ﷺ، حيث كانت إذا مرضت عاملها بلطف، وفي هذه المرة شعرت بأن النبي ﷺ لا يعاملها باللطف الذي كان يعاملها به، وكان هذا يسبب لها القلق، لذلك قالت ﵂: «إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ؟». ثُمَّ يَنْصَرِفُ»، وتيكم: اسم إشارة للأنثى، أي: كيف حالك؟

○ قوله: «حَتَّىٰ خَرَجْتُ بَعْدَ مَا نَقَهْتُ»، أي: بعدما برئت من المرض، وكانت ﵂ قد أتمت شهرًا.

○ قوله: «فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ» ومسطح هو ابن أُثَاثَة الذي رمى عائشة ﵂، وهو ابن خالة أبي بكر ﵁، والذي حلف أبو بكر ﵁ أنه يقطع عنه النفقة بسبب خوضه في الإفك.

○ قوله: «قِبَلَ المَنَاصِعِ» وهي صحراء قبل البيوت تقضي فيها المرأة حاجتها؛ لأن المدينة كانت بلدة صغيرة ولم تكن مثل المدن الآن، وكان أهل القرى - إلى عهد قريب - ليس عندهم حمامات في البيوت؛ فإذا أراد أحدهم أن يقضي حاجته خرج إلى الخلاء فيقضي حاجته، وكانت النساء تخرج بالليل؛ لأنه أستر لهن.

○ قوله: «وَهْوَ مُتَبَرَّزُنَا» أي: مكان البراز «وَكُنَّا لَانَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَىٰ لَيْلٍ»، لأنه لا حاجة لكثرة الخروج؛ لأن الأكل قليل.

○ قوله: «وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا» الكنف: جمع كنيف وهو: الحمام، وكان الناس يجعلون مكانًا تقضى فيه الحاجة يسمى: كنيفًا، قبل أن توجد الحمامات.

○ قوله: «كُنَّا نَتَأَذَّىٰ بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا»، أي: نتأذى بالكنف حيث يكون لها رائحة منتنة كريهة.

وخرجت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مع أم مسطح في الليل تقضي حاجتها، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: «تَعِسَ مِسْطَحٌ» قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟!»، أي: من أصحاب بدر الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «**لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(١)] فأخبرتها بقول الناس في الإفك، قالت: والناس يتكلمون في هذا؟! قالت: نعم؛ فرجع إليها المرض مرة أخرى.

○ قوله: «أَيْ هَنْتَاهُ»، خطاب للأنثى.

○ قوله: «أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟» فيه: دليل على أن المرأة لا تخرج من بيتها إلا بإذن من زوجها، ولهذا استأذنت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ولو كان الخروج لأبويها، لأن الزوج هو الذي يملك الإذن، وعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا استأذنت أن تخرج لأبويها، تريد أن تستيقن الخبر، وتتأكد مما أخبرتها به أم مسطح.

○ قوله: «لَقَلَّمَا كَانَتِ ٱمْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا» يعني: قلما كانت امرأة جميلة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا حسدنها فلا تستغربي هذا.

○ قوله: «فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ!» فيه: مشروعية التسبيح عند التعجب؛ لأن النبي ﷺ أقرها على ذلك ولم ينكر عليها، والنبي ﷺ سبح في مواضع، والمشروع عند التعجب هو: التسبيح والتكبير، أما التصفيق فلا وجه له.

---

(١) أحمد (١/ ٧٩)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

○ قوله: «حِينَ ٱسْتَلْبَثَ الوَحْيُ» يعني: تأخر، وكان الوحي قد تأخر شهرًا ابتلاء وامتحانًا.

○ قوله: «يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ» أي: يستشيرهما في فراق عائشة رضي الله عنها.

وفيه: دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ فقد مكث مدة لا يعلم ما قيل في عائشة رضي الله عنها هل هو صدق أو كذب، ولم يعلم أبو بكر رضي الله عنه هل هو صدق أم كذب، ولم يعلم علي ولم يعلم أسامة ولم يعلم غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم فكيف بهؤلاء الصوفية وغيرهم الذين يزعمون أن الأولياء يعلمون الغيب، وهذا رسول الله ﷺ أفضل الناس ولا يعلم الغيب، وقد استشار عليًّا وأسامة رضي الله عنهما هل يفارق زوجته أو لا يفارقها؟ ثم يأتي في آخر القصة أن النبي ﷺ سأل عائشة رضي الله عنها وقال: «وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا ٱعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَىٰ اللهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ» وهذا أيضًا دليل على أنه لا يعلم الغيب.

وفيه: الرد على طائفة يسمون: البلاوية في الهند يقولون: إن الرسول يعلم الغيب، وهم طائفة كفرة؛ يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النَّمل: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجنّ: ٢٦-٢٧] ولو كان ﷺ يعلم الغيب ما استشار، ولو كان يعلم الغيب لأقام الحد من أول وهلة على هؤلاء الذين تكلموا.

○ قوله: «وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ»، ولهذا صار في نفسها شيء على علي رضي الله عنه.

○ قوله: «وَإِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ» الجارية: بريرة وهي التي أعتقتها عائشة رضي الله عنها.

○ قوله: «إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا» «إن» نافية بمعنى: ما؛ تعني: ما رأيت شيئًا أنتقده عليها «أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ»، أي: صغيرة السن؛ لأنه ﷺ لما تزوجها كانت بنت تسع سنين «تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ»، أي: تعجن العجين فيغلبها النوم فتأتي الشاة التي تألت البيت ولا تخرج إلى المرعىٰ فيأكل عجينها، وسيأتي أنها قالت أيضًا هنا كما في رواية أخرى:

«**ما أعرف عنها إلا كما أعرف من الذهب الأحمر**»[١] يعني: الصافي الخالص.

○ قوله: «فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَي ابن سَلُولَ» لأنه هو الذي أشاع حديث الإفك، لكنه ﷺ لم يُقم عليه الحد؛ لأنه ما ثبت عليه شيء، بخلاف: حِمْنَة وحَسَّان ومِسْطَح بن أُثَاثَة وغيرهم فإنهم جلدوا الحد؛ لأنهم تكلموا، وكان الحد لهم طهارة.

○ قوله: «وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، يعني: صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه.

○ قوله: «إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا -مِنَ الخَزْرَجِ- أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ» وفي هذا: تأدب من سعد بن معاذ رضي الله عنه.

○ قوله: «فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ -وَهْوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ- وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، ولكن ٱحْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَىٰ قَتْلِهِ» وسعد بن معاذ رضي الله عنه لم يقل نقتله بل قال: أمرتنا ففعلنا أمرك! «فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهْوَ ابن عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ، لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ» هذا فيه دليل على أن رمي الإنسان بالنفاق إذا كان عن اجتهاد أو عن تأويل فلا يلحقه الوعيد؛ فالوعيد يلحق من رمى رجلًا بالكفر أو بالنفاق إذا كان عن هوى وعن شهوة؛ فقد جاء في الحديث: «**أيما رجل قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما**»[٢] وهذا في الرجل يرمي أخاه بالكفر ومثله النفاق؛ فإن كان كذلك وإلا حار عليه، إن كان عن هوى وعن دنيا وعن شحناء، أما إن كان عن تأويل فلا يستحق عليه الوعيد، ومن ذلك أيضًا قول عمر رضي الله عنه في حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه لما كتب الكتاب للمشركين: «**يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فإنه قد خان الله ورسوله**»[٣] ولم ينكر عليه النبي ﷺ رميه بالنفاق؛ لأنه قاله عن اجتهاد وتأويل لا عن هوى،

(١) أحمد (٦/ ٥٩)، والبخاري (٤٧٥٧) ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) أحمد (٢/ ١٨)، والبخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).
(٣) أحمد (١/ ١٥٠)، والبخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤) بنحوه.

ومثله: القتال الذي كان بين الصحابة ﭫ لا يتناوله الوعيد؛ لأنه كان عن اجتهاد وتأويل، ولا يتناوله الحديث: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١) وحديث: «**القاتل والمقتول في النار**»(٢).

○ قوله: «فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّىٰ سَكَتُوا»، يعني: يسكنهم ويهدئهم حتى سكتوا.

○ قوله: «فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي - وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ»، يعني: أنها ﭭ كانت تبكي ولا تنام «يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي»، وفي لفظ آخر سيأتي أنها قالت ﭭ: «**خشيت من كثرة البكاء أن تنفلق الكبد**»(٣) أي: ينشق كبدها من كثرة البكاء؛ لأنها كانت مظلومة ﭭ.

○ قوله: «وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ فِي شَأْنِي»، وهذا ابتلاء وامتحان، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

○ قوله: «فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ» فيه: مشروعية التشهد عند الكلام وعند الخطبة، ولهذا تشهد النبي ﷺ فشهد لله ﷻ بالوحدانية، وشهد لنفسه بالرسالة ﷺ.

○ قوله: «والله مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يُوسُف: ١٨]» في الرواية الأخرى قالت: «**قد التمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه**»(٤)؛ نسيته لعظم الموقف والظلم الواقع عليها ﭭ.

○ قوله: «فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ» والبرحاء: العرق ينزل عليه في يوم شديد البرد من ثقل الوحي عليه، حتى إنه ليتحدر منه مثل حبات اللؤلؤ.

---

(١) أحمد (١/ ٢٣٠)، والبخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).
(٢) أحمد (٤/ ٤٠١)، ومسلم (١٦٨٠)، والبخاري بنحوه (٣١).
(٣) البخاري (٢٥١٨) و(٣٩١٠) بنحوه.
(٤) الترمذي (٣١٨٠).

○ قوله: «والله، لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَاأَحْمَدُ إِلَّا اللهَ ﷻ» فيه: نسبةُ الفضل إلى أهله، ومنه: ما جاء في «مسند الإمام أحمد رحمه الله» أنه: «جيء بأسير إلى النبي ﷺ فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبيُّ ﷺ: «**عرف الحق لأهله**»(١)؛ فالله أهل التقوى وأهل المغفرة.

فلما أنزل الله ﷻ براءتها حَلَفَ الصديقُ رضي الله عنه أن يقطع النفقة عن مسطح بن أثاثة - وهو ابن خالة أبي بكر رضي الله عنه - وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه، وكان أبوبكر رضي الله عنه من أغنياء الصحابة، وكان معروفًا بنفقاته العظيمة وإعتاقه للرقاب، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لأنه كان فقيرًا قريبًا، لكنه لما شارك في قصة الإفك حلف أن يقطع النفقة عنه عقوبة له لمشاركته في حديث الإفك؛ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٢٢] أي: لا يحلف أبو بكر رضي الله عنه الذي آتاه الله ﷻ فضلًا وسعة في ماله أن يمنع النفقة عن قريبه مسطح بن أثاثة؛ فذلك أدعى للمغفرة؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: «بَلَىٰ، والله إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَىٰ مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ التِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: والله لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا».

○ قوله: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا» وفيه: إبراء زينب رضي الله عنها عائشة رضي الله عنها لما سألها النبي ﷺ عنها، قالت عائشة رضي الله عنها: «وَهْيَ التِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ» من: السمو، وهو: العلو وفيه: ما كانة عليه زينب رضي الله عنها من الدين والورع؛ أي تعاليني؛ يعني: تنافسني في الحظوة عند النبي ﷺ.

○ قوله: «وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا؛ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الإِفْكِ» حمنة بنت جحش هي: أخت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها جعلت تناصر زينب رضي الله عنها لتزيد حظوتها عند النبي ﷺ فتكلمت فيمن تكلم بالإفك، لكنها

(١) أحمد (٣/ ٤٣٥).

جلدت، أمر بجلدها النبي ﷺ ثمانين جلدة فكان الحد طهارة لها، وكان ممن جلد في الإفك أيضاً: مِسْطَح بن أُثَاثَة، وحَسَّان بن ثابت؛ فطهرهم الله ﷻ، فالحد طهارة والتوبة طهارة.

وهذا الحديث فيه: الابتلاء والامتحان للصالحين والأخيار؛ فهذه المرأة الصالحة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ابتليت بهذا البلاء، تحدث المنافقون وغيرهم ورموها بالفاحشة، ومن الابتلاء والامتحان: أنه مكث الوحي شهرًا كاملًا لا ينزل على النبي ﷺ حتى اشتد البلاء.

وفيه: أن الكربة إذا اشتدت يأتي الفرج معها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ [الطَّلَاق: ٢] ويأتي اليسر مع العسر ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥﴾ [الشَّرح: ٥]، وهي رضي الله عنها امرأة تقية صالحة جعل الله ﷻ لها مخرجًا وفرجًا وأنزل براءتها من فوق سبع سموات، في آيات تتلى إلى يوم القيامة؛ فمن رمى عائشة رضي الله عنها بالفاحشة بعد تبرئة الله ﷻ لها فهو كافر بالله العظيم.

وفي هذا الحديث: يقول أبو الربيع سليمان بن داود شيخ البخاري رحمه الله: «أفهمني بعضه أحمد»؛ فدل على أن الرواة إذا أفهم بعضهم بعضًا أسيق مساقًا واحدًا فإنه صحيح.

فائدة:

لا يجوز قياس قيادة المرأة للسيارة على قيادة الراحلة؛ لأنه قياس مع الفارق؛ لأن السيارة ليست مثل الراحلة ولا يترتب عليها ما يترتب على الراحلة؛ فالمرأة التي تقود السيارة تخالط بعض الأشخاص وتمر بشرور وفتن، مما يعرضها للامتهان والتعرض للشرطة والتفتيش، علاوة على أن المرأة قديمًا لم تكن تقود الراحلة، بل كانت الراحلة تقاد والمرأة في هودجها.

بَابٌ قوله:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية [النور: ١٤]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ [النور: ١٥]: يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، ﴿تُفِيضُونَ﴾ [يونس: ٦١]: تَقُولُونَ.

{٤٧٥١} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُومَانَ -أُمِّ عَائِشَةَ- أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا رُمِيَتْ عَائِشَةُ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا.

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ [النُّور: ١٥]: يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ»، يعني: حديث الإفك.

○ قوله: «﴿تُفِيضُونَ﴾ [يُونس: ٦١] تَقُولُونَ»: من الإفاضة وهي الإشاعة، ومادة هذه الكلمة كما هنا في سورة النور: ﴿أَفَضْتُمْ﴾ [النُّور: ١٤]

{٤٧٥١} قوله: «لَمَّا رُمِيَتْ عَائِشَةُ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا» لأنها مظلومة رضي الله عنها.

بَابٌ قوله:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ الآية [النور: ١٥]

{٤٧٥٢} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقْرَأُ ﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾

الشَّرْح

{٤٧٥٢} قوله: ﴿إِذْ «تَلِقُونَهُ» بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ تلِقُونه بكسر اللام وضم القاف قراءة، وهي قرءة عائشة وابن عباس وغيرهما وهي من القراءات الشاذة، كما أفاده الحافظ(١) وقراءة حفص عن عاصم: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النُّور: ١٥]، بفتح اللام وفتح القاف مع التشديد من التلقي، ويلزم من التلقى الوَلْق وهو الكذب.

---

(١) «المحتسب»، لابن جني (٢٠/ ١٤٧).

بَابٌ قوله:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾

الآية [النور: ١٦]

{٤٧٥٣} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابن أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: ٱسْتَأْذَنَ ابن عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَىٰ عَائِشَةَ، وَهْيَ مَغْلُوبَةٌ، قَالَتْ: أَخْشَىٰ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ. فَقِيلَ: ابن عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَتِ: ٱئْذَنُوا لَهُ. فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ ٱتَّقَيْتُ. قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ -إِنْ شَاءَ اللهُ- زَوْجَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ. وَدَخَلَ ابن الزُّبَيْرِ خِلاَفَهُ فَقَالَتْ: دَخَلَ ابن عَبَّاسٍ فَأَثْنَىٰ عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا.

{٤٧٥٤} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ بْنُ عَبْدِ المَجِيدِ، حَدَّثَنَا ابن عَوْنٍ، عَنِ القَاسِمِ أَنَّ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ٱسْتَأْذَنَ عَلَىٰ عَائِشَةَ نَحْوَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ نِسْيًا مَنْسِيًّا.

الشَّرْح

{٤٧٥٣} في هذا الحديث: دليل على ورع عائشة رضي الله عنها حيث استأذن ابن عباس رضي الله عنهما عليها قبيل موتها وهي مريضة «قَالَتْ: أَخْشَىٰ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ»، فهي لا تريد الثناء، ثم لما دخل أثنى عليها «فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ ٱتَّقَيْتُ. قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ -إِنْ شَاءَ اللهُ- زَوْجَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ» قال ابن عباس ما كانت تخشاه عائشة وهو من ورعها رضي الله عنها.

○ قوله: «وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ» وهذا هو الشاهد من الحديث.

ودخل ابن الزبير رضي الله عنهما بعدما دخل ابن عباس رضي الله عنهما «فَقَالَتْ: دَخَلَ ابن عَبَّاسٍ فَأَثْنَىٰ عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا» هذا من شدة تواضعها رضي الله عنها، قالت كما

قالت مريم ابنة عمران، وكُلّ منهما برة تقية، لكن مريم خافت من العاقبة من مجيئها بالولد بغير زوج، أما عائشة رضي الله عنها فخافت أن يحصل لها شيء يضرها بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ فإنها خرجت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه إلى البصرة تطالب بدمه هي والزبير وطلحة رضي الله عنهم، وكان قصدها الخير والإصلاح.

❖ ❖ ❖

{٤٧٥٤} ذكر حديث ابن عباس من طريق أخرى.

بَابٌ قوله:
﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١٧]

{٤٧٥٥} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: جَاءَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا. قُلْتُ: أَتَأْذَنِينَ لهٰذا؟ قَالَتْ: أَوَلَيْس قَدْ أَصابَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟ قَالَ سُفْيَانُ: تَعْنِي ذَهَابَ بَصَرِهِ. فَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

قَالَتْ: لٰكن أَنْتَ..

الشَّرْح

{٤٧٥٥} استأذن حَسَّان على عائشة رضي الله عنها فقال مسروق: «أَتَأْذَنِينَ لهٰذا؟» يعني: وقد شارك في الإثم «قَالَتْ: أَوَلَيْسَ قَدْ أَصَابَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟» تشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النُّور: ١١] «قَالَ سُفْيَانُ: تَعْنِي ذَهَابَ بَصَرِهِ» وعلى هذا القول فالذي تولى كبره حسان رضي الله عنه، والصواب أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ.

فقال حَسَّانُ يمدح عائشة رضي الله عنها:

«حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتصبح غرثى من لحوم الغوافل»

يعني: حصينة رزينة عاقلة، ما تتهم بتهمة، وتصبح خالية عن الناس لا تغتاب أحدًا.

وفي اللفظ الآخر أنه قال:

فإن أبي ووالدتي وعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُم وِقَاءُ

○ قوله: «قالت: لكن أنت» يعني: أنت لست كذلك؛ يعني: أنه في قلبها وفي نفسها شيء عليه؛ لأنه شارك في الإفك.

بَابُ قوله:

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النور: ١٨]

{٤٧٥٦} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابن أَبِي عَدِيٍّ أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ دَخَلَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَىٰ عَائِشَةَ فَشَبَّبَ وَقَالَ:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ الغَوَافِلِ

قَالَتْ: لَسْتَ كَذَاكَ. قُلْتُ: تَدَعِينَ مِثْلَ هٰذا يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾؟ [النور: ١١] فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ العَمَىٰ؟ وَقَالَتْ: وَقَدْ كَانَ يَرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

الشَّرح

{٤٧٥٦} في هذا الحديث: دليل على أن عائشة رضي الله عنها ظنت أن الذي تولى كبره هو حسان، وفسرت العذاب - في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النُّور: ١١] - بالعمى: الذي أصابه، قالت: «وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ العَمَىٰ؟» وهذا قول مرجوح، ولعل هذا كان أولًا ثم تبين لها أن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي، كما دلت عليه النصوص.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

إلىٰ قوله: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١٩، ٢٠]

تشيع: تظهر، أي: تنتشر، قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ الآية [النور: ٢٢].

{٤٧٥٧} وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ: عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الذي ذُكِرَ وَمَا عَلِمْتُ بِهِ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَطِيبًا، فَتَشَهَّدَ فَحمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي، وَأَيْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ؟! والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَايَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي». فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: ٱئْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الخَزْرَجِ -وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ- فَقَالَ: كَذَبْتَ، أَمَا والله، أَنْ لَوْ كَانُوا مِنَ الأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ. حَتَّىٰ كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ فِي المَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ فَلَمَّا كَانَ مَسَاءُ ذَلِكَ اليَوْمِ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ. فَعَثَرَتْ وَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فَقُلْتُ: أَيْ أُمِّ تَسُبِّينَ ابنكِ وَسَكَتَتْ ثُمَّ عَثَرَتِ الثَّانِيَةَ فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: تَسُبِّينَ ابنكِ ثُمَّ عَثَرَتِ الثَّالِثَةَ. فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فَانْتَهَرْتُهَا، فَقَالَتْ: والله مَا أَسُبُّهُ إِلَّا فِيكِ. فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: فَبَقَرَتْ لِي الحَدِيثَ. فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هٰذا؟ قَالَتْ: نَعَمْ والله. فَرَجَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِي كَأَنَّ الذِي خَرَجْتُ لَهُ لَاأَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَاكَثِيرًا، وَوُعِكْتُ فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرْسِلْنِي إِلَىٰ بَيْتِ أَبِي. فَأَرْسَلَ مَعِي الغُلَامَ، فَدَخَلْتُ الدَّارَ فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ البَيْتِ يَقْرَأُ. فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكِ يَا بُنَيَّةُ فَأَخْبَرْتُهَا وَذَكَرْتُ لَهَا الحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ خَفِّضِي عَلَيْكِ

الشَّأْنَ، فَإِنَّهُ والله، لَقَلَّمَا كَانَتِ ٱمْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا حَسَدْنَهَا وَقِيلَ فِيهَا. وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي، قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ. وَاسْتَعْبَرْتُ وَبَكَيْتُ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي وَهْوَ فَوْقَ البَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ فَقَالَ لأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهَا. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ أَيْ بُنَيَّةُ إِلَّا رَجَعْتِ إِلَىٰ بَيْتِكِ.

فَرَجَعْتُ وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي، فَقَالَتْ: لَا والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّىٰ تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلَ خَمِيرَهَا أَوْ عَجِينَهَا. وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: ٱصْدُقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. حَتَّىٰ أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ، والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَىٰ تِبْرِ الذَّهَبِ الأَحْمَرِ. وَبَلَغَ الأَمْرُ إِلَىٰ ذَلِكَ الرَّجُلِ الذِي قِيلَ لَهُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! والله مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَىٰ قَطُّ. قَالَتْ: عَائِشَةُ فَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ. قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ صَلَّى العَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ وَقَدِ ٱكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنْ كُنْتِ قَارَفْتِ سُوءًا أَوْ ظَلَمْتِ، فَتُوبِي إِلَىٰ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ». قَالَتْ: وَقَدْ جَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَهْيَ جَالِسَةٌ بِالْبَابِ فَقُلْتُ: أَلَا تَسْتَحِي مِنْ هٰذِهِ المَرْأَةِ أَنْ تَذْكُرَ شَيْئًا. فَوَعَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَالْتَفَتُّ إِلَىٰ أَبِي فَقُلْتُ: أَجِبْهُ. قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفَتُّ إِلَىٰ أُمِّي فَقُلْتُ: أَجِيبِيهِ. فَقَالَتْ: أَقُولُ مَاذَا؟ فَلَمَّا لَمْ يُجِيبَاهُ تَشَهَّدْتُ فَحَمِدْتُ اللهَ وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ. والله ﷻ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ، مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ، لَقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي فَعَلْتُ. والله يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ، لَتَقُولُنَّ قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِهَا، وَإِنِّي والله مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا -وَالْتَمَسْتُ ٱسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ- إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وَأُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ فَسَكَتْنَا، فَرُفِعَ عَنْهُ، وَإِنِّي لأَتَبَيَّنُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهْوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَكِ». قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا

كُنْتُ غَضَبًا فَقَالَ لِي أَبَوَايَ: قُومِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: والله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُهُ وَلَا أَحْمَدُكُمَا، ولكن أَحْمَدُ اللهَ الذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ، فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَّا زَيْنَبُ بْنَةُ جَحْشٍ فَعَصَمَهَا اللهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، وَهْوَ الذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهْوَ الذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ. قَالَتْ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النور: ٢٢] إِلَىٰ آخِرِ الآيَةِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ﴿وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ [النور: ٢٢] -يَعْنِي مِسْطَحًا- إِلَىٰ قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] حَتَّىٰ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَىٰ، والله يَا رَبَّنَا إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا، وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النُّور: ١٩]. فيه: الوعيد الشديد على من أحب الفاحشة، وأن من أحب أن تشيع الفاحشة في المؤمنين فإنه متوعد بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يقام عليه الحد، وفي الآخرة وعيد بالعذاب الأليم.

فإذا أحب أن تشيع الفاحشة بقلبه وأشاعها بلسانه أو بأفعاله يكون عذابه أشد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾، يعني: لا يحلف الذين أعطاهم الله ﷻ فضلًا من المال وسعة في أرزاقهم، والمَعْنِيّ هو: أبو بكر الصديق ﷺ، وذلك أن أبا بكر ﷺ حلف أن يقطع النفقة عن مِسْطَح بن أُثَاثَة وكان ابن خالته، وكان فقيرًا، ومن المهاجرين الأولين، ومن أصحاب بدر أيضًا؛ لأنه تكلم في الإفك، ولكن الله ﷻ طهره بالحد الذي أقيم عليه، فقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي: عما صدر منهم، وألا يقطعوا النفقة التي يعطونها أولي القربى .﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النُّور: ٢٢]، قال أبو بكر ﷺ: بلى والله أحب أن يغفر الله لي. كما ورد في الحديث السابق؛ فأعاد النفقة إلى مسطح.

وفي الحديث: دليل على أن أهل بدر ليسوا معصومين من كبائر الذنوب؛ فقد تحصل منهم الكبيرة، كما حصل من مسطح بن أثاثة؛ فهو من أهل بدر وقد رمى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالإفك، وكما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كتب لأهل مكة يخبرهم بخبر النبي ﷺ، وهذه كبيرة.

ولكن إذا وقع من أهل بدر كبيرة فلابد أن يوفقوا للأسباب التي تمحو عنهم هذه الكبيرة، إما بالتوبة كما حصل لحاطب فإنه تاب وتاب الله ﷻ عليه، أو بالحد كما حصل لمسطح بن أثاثة، فإن الله ﷻ طهره بالحد وأقيم عليه، أو بحسنات ماحية، أو بمصائب تصيبهم، أو بشفاعة النبي ﷺ الذين هم أولى الناس بها.

والمعصومون من الكبائر هم الرسل، وعصمتهم تكون من الخطأ في تبليغ الرسالة، أما الصغائر فقد تقع منهم.

أما غير الرسل فتقع منهم الصغائر والكبائر، وقد يقع الشرك أيضًا، لكن الله ﷻ عصم الصحابة الذين رسخ الإيمان في قلوبهم من الشرك، والذين ارتدوا بعد موت النبي ﷺ أو في أواخر حياته إنما هم الأعراب الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم.

وأتى المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا بالحديث معلقًا وسبق أنه أتى به موصولًا، ووصله أحمد كما قاله الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في الشرح: «ووقع في رواية المستملي عن الفربري قال: حدثنا حميد بن الربيع قال: حدثنا أبو أسامة فظن الكرماني أن البخاري وصله عن حميد بن الربيع، وليس كذلك بل هو خطأ فاحش فلا يغتر به» وعلى هذا فقد أتى به معلقًا، لكنه موصول عند أحمد، والحديث ثابت، وأيضًا الأحاديث السابقة ساقها في مواضع متعددة موصولة.

○ قوله: «**قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَطِيبًا**» فيه: تحفيز للإنسان أن يهتم بأمر أهله ويعتني بهم؛ لأن النبي ﷺ اهتم بأمر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اهتمامًا عظيمًا.

○ قوله: «**فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ**» فيه مشروعية التشهد عند الخطبة؛ فيشهد لله تعالى بالوحدانية ويشهد للنبي ﷺ بالرسالة، ثم يقول: «**أَمَّا بَعْدُ**»، وكان النبي ﷺ يقولها في رسائله وفي خطبه ولا يقول: «وبعد».

○ قوله: «أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي»، يعني: اتهموهم، «وَأَيْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي مِنْ سُوءٍ»، قسم، مثل: وايمن الله «وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ؟!» يعني: اتهموهم بمن؟! و«من» اسم استفهام أو موصولة بمعنى الذي «والله مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَايَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي» وهو صفوان بن المعطل السلمي ﷺ «فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: ٱئْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الخَزْرَجِ -وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ» سبق أنه سعد بن عبادة سيد الخزرج «فَقَالَ: كَذَبْتَ»، يعني: أخطأت، وهذا كما قالت عائشة ﷺ: «**احتملته الحمية**»(١) وإلا فهو رجل صالح «أَمَا والله، أَنْ لَوْ كَانُوا مِنَ الأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ. حَتَّىٰ كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ» فما زال النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا.

○ قولها: «أَيْ أُمِّ» نداء، والمعنى: أنها مثل أمها في التقدير والاحترام.

○ قولها: «فَبَقَرَتْ لِي الحَدِيثَ» البقرة: مادة الكلمة تدل على الكثرة والسعة وفي النهاية أي: افتضحته وكشفته(٢).

○ قولها: «فَرَجَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِي كَأَنَّ الذِي خَرَجْتُ لَهُ لَاأَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا»، يعني: أنها دهشت بحيث رجعت إلى بيتها وما عرفت لأي شيء خرجت من البيت، لما أخبرتها أن الناس يتكلمون في الإفك؛ لأنه قد مر عليها شهر لا تدري أي شيء، ورجع عليها المرض مرة ثانية، وصارت تبكي حتى ظنت أن البكاء سيشق كبدها.

وفي قولها: «فَرَجَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِي كَأَنَّ الذِي خَرَجْتُ لَهُ لَاأَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا» معنى آخر: هو أنها رجعت ما تحس شيئًا من حاجتها من بول أو غائط بسبب الدهشة، والظاهر: أنها بعدما ذهبت مع أم مسطح لتقضي حاجتها رجعت ولم تقضها، وأما ما تقدم: (قد فرغنا من شأننا).

○ قوله: «فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرْسِلْنِي إِلَىٰ بَيْتِ أَبِي» وفي الحديث:

---

(١) أحمد (٦/ ١٩٧)، والبخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٤٥).

السابق أنها استأذنت قالت: «أَتَأْذَن لِي أَن أَذْهَبَ إِلَى أَبَوَيَّ»؛ لأجل أن تتأكد من الخبر.

○ قوله: «لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي»، يعني: ما تأثرت الأم بمثل تأثرها، وقالت: «يَا بُنَيَّةُ خَفِّضِي عَلَيْكِ الشَّأْنَ، فَإِنَّهُ واللهِ، لَقَلَّمَا كَانَتِ ٱمْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا حَسَدْنَهَا وَقِيلَ فِيهَا» فالمرأة تُحْسَد، إذا كانت لها حظوة عند زوجها وكان لها ضرائر.

○ قوله: «وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟» يعني: بخبر الإفك؟ «قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ؟» يعني: هل بلغه الخبر؟ «قَالَتْ: نَعَمْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ».

○ قوله: «فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي» وهي بريرة كما سبق.

○ قوله: «وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ» يعني: شددوا على الجارية بريرة في السؤال؛ لأن الرسول ﷺ أمرها أن تخبرهم بالحقيقة.

○ قوله: «حَتَّىٰ أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ» يعني: حتى صرحوا لها بالأمر.

○ قوله: «إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَىٰ تِبْرِ الذَّهَبِ الأَحْمَرِ» التبر هو قطعة الذهب التي أخذت بترابها لم تضرب.

○ قوله: «وَبَلَغَ الأَمْرُ إِلَىٰ ذَلِكَ الرَّجُلِ الذِي قِيلَ لَهُ» وهو صفوان بن المعطل رضي الله عنه.

○ قوله: «واللهِ مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أُنْثَىٰ قَطُّ» الكنف: الستر، والمراد: الثوب، وظاهره: أنه ما تزوج قبل هذه القصة فلم يكشف سترا على امرأة، ولا مانع أن يتزوج بعد ذلك، كما قال الحافظ رحمه الله.

○ قوله: «تَشَهَّدْتُ فَحَمِدْتُ اللهَ وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ...» فيه: فضل عائشة رضي الله عنها وفقهها ورجاحة عقلها مع صغر سنها، حيث تشهدت وحمدت الله وأثنت عليه، واستشهدت بقول يعقوب عليه السلام وهي ابنة خمس عشرة سنة.

○ قوله: «وَأُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ» يعني: الوحي، وكان الوحي

قد استلبث شهرًا كاملًا ابتلاءً وامتحانًا، ثم أنزل عليه بعدما أفاضوا في الإفك شهرًا كاملًا.

○ قوله: «**وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا**» اعتذرت عن نفسها لما قال لها أبواها: قومي إلى رسول الله ﷺ، قالت: «**والله لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُهُ وَلَا أَحْمَدُكُمَا، ولكن أَحْمَدُ اللهَ الذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي**» وعللت أيضًا عدم حمدها لهم بعد غضبها بقولها: «**لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ، فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ**»، يعني: الكلام الذي قيل، وهو الإفك.

○ قوله: «**أَمَّا زَيْنَبُ بْنَةُ جَحْشٍ فَعَصَمَهَا اللهُ بِدِينِهَا**»، لأن النبي ﷺ لما سألها عنها؛ قالت: «**أحمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها إلا خيرًا**»[(١)] كما في الرواية السابقة.

○ قوله: «**وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ**» وهي حمنة بنت جحش أخت زينب رضي الله عنها؛ لأنها تكلمت مع من تكلم بالإفك، وأقيم عليها الحد؛ وفي الحديث: السابق أنها قالت: «**فطفقت تحارب عن أختها فهلكت فيمن هلك**»[(٢)] يعني: تحارب عن أختها زينب.

○ قوله: «**وَكَانَ الذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، وَهْوَ الذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهْوَ الذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ**» فيه: أن الذي تكلم في الإفك مسطح وحسان وحمنة وأقيم الحد عليهم ثمانين جلدة، وأما المنافق: عبد الله بن أبي فإنه لم يقم عليه الحد؛ لأنه لم يثبت عليه شيء، وقول عائشة رضي الله عنها صريح في أن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي، وهذا هو الصواب، وأما ما سبق من أن الذي تولى كبره هو: حسان فهذا ليس بصحيح، وقد سبق أنها قالت إن الذي تولى كبره حسان رضي الله عنه، وأنها قالت: «**وأي عذاب أشد من العمى؟**»[(٣)]؛ لأنه كان قد عمي، ولكنه قول مرجوح ولعل

---

(١) أحمد (٦/ ١٩٤)، والبخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) أحمد (٦/ ١٩٤)، والبخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٣) البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨).

هذا كان أولاً ثم بين لها أنه عبدالله بن أبيّ.

○ قوله: «**فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَايَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا**» لكونه تكلم في الإفك، وهو ابن خالة أبي بكر رضي الله عنه، وهو فقير من المهاجرين الأولين ومن أصحاب بدر، وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لقرابته ولفقره؛ فلما تكلم مع أهل الإفك حلف أبو بكر رضي الله عنه أن يقطع عنه النفقة، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النُّور: ٢٢]، وأمره فيها أن يعيد النفقة.

○ قوله: «**حَتَّىٰ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَىٰ، والله يَا رَبَّنَا إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا، وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ**» فيه: دليل على صدق إيمان أبي بكر رضي الله عنه وفضله وأنه كان وقافًا عند كتاب الله عز وجل.

بَابٌ قوله:
﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾

{٤٧٥٨} وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ يُونُسَ قَالَ ابن شِهَابٍ: عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهِ.

{٤٧٥٩} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ نَافِعٍ، عَنِ الحَسَنِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ كَانَتْ تَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] أَخَذْنَ أُزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا.

الشَّرح

{٤٧٥٨}، {٤٧٥٩} قوله: «وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ شَبِيبٍ» هذا من شيوخ البخاري ﵀، رواه عنه معلقًا بهذه الصيغة، وذكر الشارح ﵀ أنه وصله محمد بن المنذر عن محمد بن إسماعيل الصائغ عن أحمد بن شبيب، وكذا أخرجه ابن مردويه من طريق موسى بن سعيد الدنداني عن أحمد بن شبيب، وكذا أخرجه أبو داود والطبراني من طريق قرة بن عبد الرحمن.

○ قوله: «فَاخْتَمَرْنَ بِهَا»، يعني: غطين بها وجوههن، والخمار هو: ما يكون على الرأس ثم تسدله المرأة على وجهها وعلى صدرها، ومن قال: إن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين فعليه الدليل؛ فالعلة تدل على أن الحجاب عام لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فالحجاب أطهر لقلوب أمهات المؤمنين وقلوب غيرهن، ولا يقول أحد: إن غير أمهات المؤمنين لا تحتاج إلى طهارة القلوب؛ فالعلة عامة وإذا كانت العلة عامة دل على أن الحكم عام لأمهات المؤمنين ولغيرهن.

هذا الحديث فيه: دليل على أن تغطية الوجه داخلة في الحجاب الذي أمر الله ﷻ به.

وفيه: فضل النساء المهاجرات الأول ومسارعتهن للامتثال؛ فإنهن لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١]، سارعن إلى الامتثال، فشققن مروطهن وغطين بها وجوههن.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «**فَاخْتَمَرْنَ بِهِ**»، «أي غطين وجوههن؛ وصفة ذلك: أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر وهو: التقنع، وقال الفراء: كانوا في الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها وتكشف ما قدامها، فأمرن بالاستتار، والخمار للمرأة كالعمامة للرجل».

وذكر أيضًا الحديث الذي أخرجه الحاكم ابن أبي حاتم عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ذكرنا عند عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا نساء قريش وفضلهن، فقالت: إن نساء قريش لفضلاء، ولكني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقًا بكتاب الله ﷻ ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١] فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان» وفي هذا دليل على ستر المرأة رأسها فيُخص بمزيد من الستر بأن تضع على رأسها شيئا، كالعبادة وغيرها.

٢٥- ومن سورة الفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾: مَا تَسْفِي بِهِ الرِّيحُ. ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ. ﴿سَاكِنًا﴾: دَائِمًا. ﴿عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ طُلُوعُ الشَّمْسِ. ﴿خِلْفَةً﴾: مَنْ فَاتَهُ مِنَ اللَّيْلِ عَمَلٌ أَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ فَاتَهُ بِالنَّهَارِ أَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾: فِي طَاعَةِ اللهِ، وَمَا شَيْءٌ أَقَرَّ لِعَيْنِ المُؤْمِنِ أَنْ يَرَىٰ حَبِيبَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ثُبُورًا﴾: وَيْلًا. وَقَالَ غَيْرُهُ السَّعِيرُ مُذَكَّرٌ، وَالتَّسَعُّرُ وَالاضْطِرَامُ: التَّوَقُّدُ الشَّدِيدُ. ﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾: تُقْرَأُ عَلَيْهِ، مِنْ أَمْلَيْتُ وَأَمْلَلْتُ، الرَّسُّ: المَعْدِنُ، جَمْعُهُ: رِسَاسٌ. ﴿مَا يَعْبَؤُا﴾ يُقَالُ: مَا عَبَأْتُ بِهِ شَيْئًا: لَا يُعْتَدُّ بِهِ. ﴿غَرَامًا﴾: هَلَاكًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَعَتَوْا﴾: طَغَوْا. وَقَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عَتَتْ عَنِ الخُزَّانِ.

الشَّرح

○ قوله تعالى: «﴿هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفُرقان: ٢٣]»، أي: «مَا تَسْفِي بِهِ الرِّيحُ».

○ قوله تعالى: «﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفُرقان: ٤٥]: مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ».

○ قوله تعالى: «﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفُرقان: ٦٢]»: يخلف أحدهما الآخر؛ يعني: «مَنْ فَاتَهُ مِنَ اللَّيْلِ عَمَلٌ أَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ فَاتَهُ بِالنَّهَارِ أَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ».

○ قوله تعالى: «﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الفُرقان: ٥]»، قال: «تُقْرَأُ عَلَيْهِ، مِنْ أَمْلَيْتُ وَأَمْلَلْتُ»؛ يعني: تملى عليه وهو يكتب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

○ قوله: «الرَّسُّ: المَعْدِنُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾ [الفُرقان: ٣٨].

○ قوله تعالى: «﴿غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفُرقان: ٦٥]» يعني: «هَلَاكًا».

○ قوله تعالى: «﴿مَا يَعْبَؤُا﴾ [الفُرقان: ٧٧]: لَا يُعْتَدُّ بِهِ» لولا إيمانكم، وهذا في أحد الأقوال.

○ قوله تعالى: «﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفُرقان: ٤٥]». قال مجاهد: «دَائِمًا».

○ قوله تعالى: «﴿عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفُرقان: ٤٥]»: أي: «طُلُوعِ الشَّمْسِ».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]

{٤٧٦٠} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ البَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!». قَالَ قَتَادَةُ: بَلَىٰ وَعِزَّةِ رَبِّنَا.

الشَّرح

الآية التي بوب بها المصنف ﷺ، والحديث الذي أورده فيهما، دليل على أن الكافر يحشر على وجهه، وفي هذا ذلة له ومهانة.

فالله ﷻ على كل شيء قدير، يمشيه على وجهه زيادة في ذلته ثم يساق إلى النار؛ ولذلك قال سبحانه في وصفهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

{٤٧٦٠} قوله: «بَلَىٰ وَعِزَّةِ رَبِّنَا» قسم، والعزة مقسم بها وهي صفة لله تبارك وتعالى، قال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]، وقول آخر أهل النار خروجًا: «**لا وعزتك لا أسألك غيره**»[(١)] ففي ذلك كله جواز القسم بصفة من صفات الله ﷻ.

ذكر الحافظ ابن حجر ﷺ حديث أبي هريرة ﷺ عند البزار: «**يحشر الناس ثلاثة أصناف: صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم. فقالوا: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم...**»[(٢)] إلى آخر الحديث؛ فقال: «ويؤخذ من مجموع الأحاديث: أن المقربين يحشرون ركبانًا، ومن دونهم من المسلمين على أقدامهم، وأما الكفار فيحشرون على وجوههم».

(١) أحمد (٢/ ٢٧٥)، والبخاري (٦٥٧٤)، ومسلم (١٨٧).
(٢) أحمد (٢/ ٣٥٤)، والترمذي نحوه (٣١٤٢).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]

﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: العقوبة

{٤٧٦١} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْصُورٌ وَسُلَيْمَانُ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. قَالَ وَحَدَّثَنِي وَاصِلٌ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ سَأَلْتُ -أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ- أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». قَالَ: وَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

{٤٧٦٢} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ، قَالَ: أَخْبَرَنِي القَاسِمُ بْنُ أَبِي بَزَّةَ أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]. فَقَالَ سَعِيدٌ: قَرَأْتُهَا عَلَى ابن عَبَّاسٍ كَمَا قَرَأْتَهَا عَلَيَّ. فَقَالَ: هٰذِهِ مَكِّيَّةٌ نَسَخَتْهَا آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ، التِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ.

{٤٧٦٣} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ المُغِيرَةِ ابْنِ النُّعْمَانِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ ٱخْتَلَفَ أَهْلُ الكُوفَةِ فِي قَتْلِ المُؤْمِنِ، فَرَحَلْتُ فِيهِ إِلَى ابن عَبَّاسٍ، فَقَالَ: نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ وَلَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ.

{٤٧٦٤} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَأَلْتُ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ قوله تعالىٰ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] قَالَ: لَا تَوْبَةَ لَهُ. وَعَنْ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] قَالَ كَانَتْ هٰذِه فِي الجَاهِلِيَّةِ.

الشَّرْح

{٤٧٦١} في هذا الحديث ذكر أعظم الذنوب، وأعظمها كما في قوله: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ»، لأن من لقي الله ﷻ بالشرك لا يغفر له، وهو آيس من رحمة الله ﷻ، وهو مخلد في النار، والجنة عليه حرام، ولا يمكن أن ينقذه أحد من عذاب الله ﷻ، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن ينقذوه لما استطاعوا، ولا يقبل منه فدية ولو افتدى نفسه بملء الأرض ذهبًا.

○ قوله: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» اجتمعت فيه ثلاثة أمور:

أولًا: القتل.

ثانيًا: قطيعة الرحم.

ثالثًا: سوء الظن بالله ﷻ حيث قتله خشية أن يطعم معه فيقل رزقه فلا يستطيع أن ينفق عليه بزعمه.

○ قوله: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» فيه كبيرتان: زنًا وإيذاء للجار، ولهذا جاء في الحديث: «**لأن يزني الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**»[(٣)] والحليلة: الزوجة.

○ قوله: «وَنَزَلَتْ هٰذِه الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]» وقد فسر المؤلف ﷺ الآثام بالعقوبة، ثم بين هذه الآثام فقال: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفُرقان: ٦٩]. وفيه: دليل على أن التوبة تجب ما قبلها، وأن التوبة تصح من جميع الذنوب حتى الشرك، فمن تاب تاب الله ﷻ عليه بشرط: أن تكون التوبة خالصة لله ﷻ وأن يكون فيها إقلاع عن المعاصي وندم على ما مضى وعزم صادق جازم على عدم العودة إليها، وتكون قبل الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها في آخر الزمان؛ فتكون التوبة صحيحة، والدليل على هذا قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ

(٣) أحمد (٦/٨).

أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] وأجمع العلماء أن هذه الآية نزلت في التائبين؛ لأن الله ﷻ عمم الذنوب بإطلاق فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ يعني: لمن تاب.

❖ ❖ ❖

{٤٧٦٢}، {٤٧٦٣} الآية المدنية التي نسخت المكية هي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٣]. فكان ابن عباس رضي الله عنهما يرى أن القاتل لا توبة له على اعتبار: أن آية الفرقان نسختها آية النساء، وآية النساء فيها الوعيد على القاتل؛ فدل على أن القاتل لا توبة له.

❖ ❖ ❖

{٤٧٦٤} في الحديث: أن آية الفرقان كانت في الجاهلية ونسختها آية النساء ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النِّسَاء: ٩٣] فدل على أن القاتل لا توبة له، وابن عباس رضي الله عنهما روي عنه أن القاتل لا توبة له، وروي عنه أيضًا: أن له توبة، وروي أنه جاءه رجل فسأله فقال: هل للقاتل توبة؟ فقال: لا توبة له، وجاءه بعد مدة شخص آخر فقال: هل للقاتل توبة؟ قال: نعم؛ فنظر إلى الأول الذي استفتاه فإذا هو متهيئ للقتل؛ فقال: لا توبة له؛ حتى يردعه، والثاني جاء تائبًا نادمًا فقال: هل للقاتل توبة؟ قال: نعم له توبة.

وعلى هذا يكون لابن عباس رضي الله عنهما روايتان، رواية: أن له توبة ورواية: أنه لا توبة له، والصواب الذي تدل عليه النصوص والذي عليه جمهور العلماء: أن القاتل له توبة، بل المشرك - وهو أعظم ذنب عصي الله ﷻ به في الأرض - له توبة.

وأحسن ما يحمل عليه قول ابن عباس رضي الله عنهما: «لا توبة له»، أي: لا توبة له تمنع القصاص أو إقامة الحد عليه أو تسليمه الدية، ولكن له توبة فيما بينه وبين الله ﷻ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما: **«إن المؤمن إذا قتل مؤمنًا متعمدًا فلا توبة له»** مشهور عنه، والمعنى: أنه لابد أن يعذب في النار ولكن لا يخلد فيها ولا يؤبد،

بل يعذب بقدر جريمته؛ فإذا طهر خرج من النار بالتوحيد؛ لأن أهل التوحيد ممن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان يخرجون من النار، ولأنه لا يخلد في النار إلا الكفرة.

والصواب قول الجمهور: إن القاتل له توبة، ويحمل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النِّسَاء: ٩٣] على مشيئة الله ﷻ، إن شاء أن يدخله جهنم أدخله وإن شاء ألا يدخله لا يدخله؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]. وإذا دخلها فإنه لا يخلد فيها أبدًا، والخلود خلودان: خلود مؤبد لا ينتهي وهو خلود الكافر والمشرك، وخلود مؤمد له أمد ونهاية وهو: المكث الطويل، وهو خلود العصاة الموحدين كالقاتل، والعرب يسمون المكث الطويل: خلودًا؛ قال الشاعر:

أقاموا فأخلدوا

ومن أدلة الجمهور على أن القاتل له توبة: حديث الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم تاب وصحت توبته؛ فإن النبي ﷺ ساقه وأقره ولم ينكره، ولم يأت في شرعنا ما يخالفه، وشرع من قبلنا شرع لنا إن لم يأت شرعنا بما يخالفه؛ فدل على أن القاتل له توبة.

مسألة أصولية: هل شرع من قبلنا شرع لنا؟ قيل: هو شرع لنا، وقيل: ليس بشرع لنا، والصواب: التفصيل، أنه إذا جاء شرعنا بما يخالفه فليس بشرع لنا، وإذا جاء شرعنا بما يوافقه أو سكت عنه شرعنا ولم يخالفه فهو شرع لنا.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾

{٤٧٦٥} حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ ابن أَبْزىٰ: سُئل ابن عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٧٠] فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: فَقَدْ عَدَلْنَا باللهِ وَقَتَلْنَا النَّفْسَ التِي حَرَّمَ اللهُ وَأَتَيْنَا الفَوَاحِشَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ إِلَىٰ قوله: ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠].

الشَّرح

{٤٧٦٥} قوله: «فَقَدْ عَدَلْنَا باللهِ»، يعني: أشركنا بالله ﷻ؛ لأن الشرك عدل غير الله بالله ﷻ، ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: ١].

بَابٌ قوله:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ **الآية** [الفرقان: ٧٠]

{٤٧٦٦} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: أَمَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبْزَىٰ أَنْ أَسْأَلَ ابن عَبَّاسٍ عَنْ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]. فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: لَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ. وَعَنْ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ.

الشَّرح

{٤٧٦٦} تقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما له روايتان:

الأولى: رواية أن القاتل له توبة.

الثانية: رواية أنه لا توبة له.

والصواب: أن له توبة.

بَابٌ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]

: هَلَكَةً.

{٤٧٦٧} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ الدُّخَانُ وَالْقَمَرُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

الشَّرْح

○ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، فسرها بقوله: «هَلَكَةً».

{٤٧٦٧} قوله: «قَالَ عَبْدُ اللهِ»، هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

○ قوله: «الدُّخَانُ»: الجوع الشديد الذي أصاب قريش، حتى كان أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من شدة الجوع.

والصواب أن الدخان الذي مضى غير الدخان الذي يأتي، وهما دخانان: دخان مضى، وهو الذي أصاب قريشًا لما دعا عليهم النبي ﷺ بالسنين؛ قال: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[(٤)] فأصابهم الجهد حتى أكلوا الميتة والعظام، حتى صاروا يرون كهيئة الدخان من الجوع ما بينهم وبين السماء والأرض، ودخان يأتي في آخر الزمان وهو من أشراط الساعة الكبرى، وهو دخان يصيب المؤمن كهيئة الزكام، وأما الكافر فيصيبه شدة، حيث يدخل الدخان في سمعه وبصره وعينيه ومنخريه.

وقد ورد أن ابن مسعود رضي الله عنه أنكر على من قال: إن هناك دخانًا يأتي قبل يوم القيامة، لكن هذا على حسب علمه.

○ قوله: «وَالْقَمَرُ» يعني: انشقاق القمر؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١].

---

(٤) أحمد (٢/ ٢٥٥)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥).

○ قوله: «وَالرُّومُ» يعني: ظهور الروم على الفرس؛ قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الرُّوم: ٢-٣].

○ قوله: «وَالْبَطْشَةُ» يعني: ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر.

○ قوله: «وَاللِّزَامُ» يعني: لزام العذاب لهم؛ قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ۝٧٧﴾ [الفُرقان: ٧٧] يعني: جزاء يلزم كل عامل بما عمل، وله معنى آخر وهو: الهلاك، وهو الذي فسره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الترجمة، وهو الشاهد منها.

٢٦- ومن سورة الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ تَبْنُونَ ﴿هَضِيمٌ﴾ يَتَفَتَّتُ إِذَا مُسَّ مُسَحَّرِينَ المَسْحُورِينَ. (لَيْكَةُ) وَالأَيْكَةُ جَمْعُ أَيْكَةٍ، وَهْيَ جَمْعُ شَجَرٍ ﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ إِظْلَالُ العَذَابِ إِيَّاهُمْ ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ مَعْلُومٍ ﴿كَٱلطَّوۡدِ﴾ الجَبَلِ. الشِّرْذِمَةُ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ المُصَلِّينَ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ كَأَنَّكُمْ. الرِّيعُ الأَيْفَاعُ مِنَ الأَرْضِ وَجَمْعُهُ رِيعَةٌ وَأَرْيَاعٌ، وَاحِدُ الرِّيعَةِ ﴿مَصَانِعَ﴾ كُلُّ بِنَاءٍ فَهْوَ مَصْنَعَةٌ (فرهين) مَرِحِينَ، فَارِهِينَ بِمَعْنَاهُ وَيُقَالُ: فَارِهِينَ حَاذِقِينَ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ أَشَدُّ الفَسَادِ عَاثَ يَعِيثُ عَيْثًا. ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ الخَلْقُ، جُبِلَ خُلِقَ، وَمِنْهُ جُبُلًا وَجِبِلًا وَجُبْلًا، يَعْنِي الخَلْقَ. قاله ابن عَبّاسٍ.

الشَّرْح

○ قوله تعالى: «﴿تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٨]» «قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ تَبْنُونَ».

○ قوله تعالى: «﴿هَضِيمٞ ١٤٨﴾ [الشُّعَرَاء: ١٤٨]»، قال: «يَتَفَتَّتُ إِذَا مُسَّ».

○ قوله: «﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٣]»، قال: «المَسْحُورِينَ».

○ قوله: «أليكة: والأيكة، وهي الغيضة» يعني: في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾ [الشُّعَرَاء: ١٧٦].

○ قوله تعالى: «﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٩]»، قال: «المُصَلِّينَ».

○ قوله تعالى: «﴿فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشُّعَرَاء: ١٤٩]»، بمعنى: «حَاذِقِينَ»، وأنها بمعنى (فرهين) التي فسرها بقوله: «مَرِحِينَ».

○ قوله تعالى: «﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٣]»، قال: «أَشَدُّ الفَسَادِ».

○ قوله تعالى: «﴿مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ [الحِجر: ١٩]»، قال: «مَعْلُومٍ».

○ قوله تعالى: «﴿كَالطَّوْدِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٣]»، قال: «**الجَبَلِ**».

○ قوله تعالى: «﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٤]»، قال: «**طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ**».

وفي قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٨]، قال: «**الرِّيعُ: الأَيْفَاعُ مِنَ الأَرْضِ**» والريعة والريع: المكان المرتفع، والمعنى: أنهم يرتفعون في البناء ليكون معلمًا مشهورًا عبثًا لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة.

○ قوله تعالى: «﴿مَصَانِعَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٩]»، قال: «**كُلُّ بِنَاءٍ فَهْوَ مَصْنَعَةٌ**».

بَابٌ

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء: ٨٧]

{٤٧٦٨} وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ: عَنِ ابن أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ يرىٰ أَبَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ الغَبَرَةُ وَالْقَتَرَةُ».

{٤٧٦٩} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا أَخِي، عَنِ ابن أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَاتُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَيَقُولُ اللهُ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ».

الشَّرح

{٤٧٦٨} قوله: «عَلَيْهِ الغَبَرَةُ وَالْقَتَرَةُ»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٤٠-٤٢].

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قال ابن التين: قوله في سورة عبس: ﴿غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ تأكيد لفظي، كأنه قال: غبرة فوقها غبرة. وقال غير هؤلاء: القترة ما يغشى الوجه من الكرب، والغبرة ما يعلوه من الغبار، وأحدهما حسي والآخر معنوي، وقيل: القترة شدة الغبرة بحيث يسود الوجه، وقيل: القترة سواد الدخان فاستعير هنا».

قوله: «يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ» وفي رواية: «**يلقى إبراهيم أباه آزر**»[(١)] وسماه الله ﷻ في القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤].

وتكملة الحديث سقطت من المصنفين: «**ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك انظر، فينظر، فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**»[(٢)]

(١) البخاري (٣٣٥٠).
(٢) البخاري (٣٣٥٠).

وهذا يدل على أن الكافر لا حيلة فيه، وأنه لو كان أحد تقبل شفاعته في الكافر لقبلت شفاعة إبراهيم عليه السلام، والد الحنفاء وأبي الأنبياء وأفضلهم بعد نبينا محمد ﷺ؛ فمن مات على الكفر لا حيلة له، ولهذا قال الله تعالى: «إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ» وفيه: دليل على أن الكافر لا يدخل الجنة، كما في هذا الحديث، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] فلا حيلة في إنجاء الكافر من عذاب الله ﷻ إذ لا تقبل فيه الشفاعة، وإذا كان إبراهيم عليه السلام رق لوالده وأراد أن يشفع له فقال: «يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ»، فيسَلِّيه الله تعالى ويقول له: «**يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك فإذا هو بذيخ متلطخ**»[(١)] يعني: مسخه الله ﷻ فصار ضبعًا، والحكمة في مسخة ضبعًا؛ لتنفر نفس إبراهيم عليه السلام منه.

وفي رواية كما ذكر ابن حجر رحمه الله: «**فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد**».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «**فيحول في صورة قبيحة وريح منتنة**»[(٢)]، زاد ابن المنذر من هذا الوجه: «**فإذا رآه كذا تبرأ منه قال: لست أبي**»[(٣)] والذيخ - بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة -: ذكر الضباع، وقيل: لا يقال له ذيخ إلا إذا كان كثير الشعر. والضبعان لغة في الضبع. وقوله: «**متلطخ**» قال بعض الشراح: أي: في رجيع أو دم أو طين. وقد عينت الرواية الأخرى المراد، وأنه الاحتمال الأول، حيث قال: «**يتمرغ في نتنه**»[(٤)]. قيل: الحكمة في مسخه؛ لتنفر نفس إبراهيم منه ولئلا يبقى في النار على صورته؛ فيكون فيه غضاضة على إبراهيم عليه السلام. وقيل: الحكمة في مسخه ضبعًا؛ أن الضبع من أحمق الحيوان، وآزر كان من أحمق البشر».

---

(١) البخاري (٣٣٥٠).
(٢) ابن حبان في «صحيحه» (١/ ٤٨٦).
(٣) ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٧) بنحوه.
(٤) النسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٢٢).

بَابُ قوله:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥]

: أَلِنْ جَانِبَكَ.

{٤٧٧٠} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ». لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟». قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد: ١، ٢].

{٤٧٧١} حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا». تَابَعَهُ أَصْبَغُ، عَنِ ابن وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابن شِهَابٍ.

الشَّرح

{٤٧٧٠}، {٤٧٧١} هذان الحديثان يدلان على: أن الداعية يبدأ دعوته في أقاربه وبني قومه وجيرانه وأهل بلده، وعليه أن يكرر النصيحة والدعوة ولا ييأس؛

لأمرين:

الأول: لأنهم أولى الناس ببره وإحسانه.

الثاني: أن الناس يقتدون بهم؛ فإذا رأوهم انقادوا وأذعنوا اقتدوا بهم، وإذا رأوهم معرضين معاندين له؛ قال الناس: لو كان ما يدعو إليه حقًّا أو خيرًا لتبعه قومه أو أقاربه.

○ قوله: «**يَا بَنِي فِهْرٍ**»، فهر هو :جد قريش، وهو المسمى: قريشًا، وهو الجد العاشر للنبي ﷺ، وقيل: إن قريشًا هو: النضر وهو جد فهر؛ فيكون الجد الثاني عشر للنبي ﷺ.

وفي الحديث: الأول صعد النبي ﷺ الصفا وهو جبل مرتفع؛ حتى يسمع الناس فجعل ينادي بطون قريش بطنًا بطنًا حتى اجتمعوا؛ فجعل من لم يستطع أرسل رسولًا؛ فقال لهم النبي ﷺ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ**»، ما جربنا عليك كذبًا، «ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ومع كونهم يصدقونه إلا أنهم أعرضوا عنه لما أنذرهم عذاب الله ﷻ وما قبلوا، وقال له أبو لهب: «**تَبًّا لَكَ**»، فتوعده الله ﷻ وأنزل فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المَسَد: ١].

٢٧- ومن سورة النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْخَبْءُ مَا خَبَأْتَ. ﴿لَا قِبَلَ﴾ لَاطَاقَةَ. الصَّرْحُ كُلُّ مِلَاطٍ اتُّخِذَ مِنَ القَوَارِيرِ، وَالصَّرْحُ القَصْرُ، وَجَمَاعَتُهُ صُرُوحٌ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سَرِيرٌ ﴿كَرِيمٌ﴾ حُسْنُ الصَّنْعَةِ، وَغَلَاءُ الثَّمَنِ ﴿مُسْلِمِينَ﴾ طَائِعِينَ. ﴿رَدِفَ﴾ اقْتَرَبَ ﴿جَامِدَةً﴾ قَائِمَةً ﴿أَوْزِعْنِي﴾ اجْعَلْنِي. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿نَكِّرُوا﴾ غَيِّرُوا ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ يَقُولُهُ سُلَيْمَانُ. ﴿الصَّرْحَ﴾ بِرْكَةُ مَاءٍ ضَرَبَ عَلَيْهَا سُلَيْمَانُ قَوَارِيرَ، أَلْبَسَهَا إِيَّاهُ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿الْخَبْءَ﴾ [النمل: ٢٥]» بالهمز في قراءة حفص، «وَالْخَبْءُ»: هو الشيء الخفي.

○ قوله: «﴿الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤]»: القصر، قال: «كُلُّ مِلَاطٍ اتُّخِذَ مِنَ القَوَارِيرِ».

○ قوله: «﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣]» وصف السرير بالعرش لأنه عظيم.

○ قوله: «﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]» قال: «اقْتَرَبَ» لكم.

○ قوله: «﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]» قال: «غَيِّرُوا».

○ قوله: «﴿جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨]» أي: «قَائِمَةً».

○ قوله: «﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]» يعني: اجعلني أشكر نعمتك.

○ قوله: «﴿الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤]»: بركة ماء ضرب عليها سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤] والقوارير: الزجاج. يعني: قصر ملاطه الزجاج. وكأن المؤلف رحمه الله ما وجد حديثًا على شرطه، ولهذا اكتفى بتفسير الكلمات.

٢٨- ومن سورة القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إِلَّا مُلْكَهُ، وَيُقَالُ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿الْأَنْبَاءُ﴾ الحُجَجُ.

الشَّرْح

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «إِلَّا مُلْكَهُ» ضبط هذه الكلمة بفتح الميم وكسر اللام وفتح الكاف «إلا مَلِكَه»، يعود الضمير إلى الله، فيكون المعنى: كل شيء هالك إلا هو - كما قال أبو عبيدة في مجاز القرآن الذي يأخذ عنه البخار(١) -، ففي هذا إثبات الذات، وفي الآية أيضا إثبات صفة الوجه لله ﷻ، وبالآية بوب البخاري رَحِمَهُ اللهُ في كتاب التوحيد على إثبات صفة الوجه لله ﷻ(٢). ففي الآية: إثبات صفة الوجه لله ﷻ وإثبات الذات.

○ قوله: «وَيُقَالُ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ» هذا صحيح من جهة المعنى: أن ما أريد به ثواب ا. يبقى، والله كتب لأهل الجنة البقاء، لكن الآية إنما هي استثناء الرب تعالى.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ [القَصَص: ٦٦]». فسر الأنباء بالحجج.

---

(١) مجاز القرآن (٢/ ١٢٢).
(٢) البخاري (٧٤٠٦).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية

{٤٧٧٢} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ ابْنُ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهِ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟! فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ حَتَّىٰ قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَاإِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «واللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]: لَا يَرْفَعُهَا العُصْبَةُ مِنَ الرِّجَالِ. ﴿لَتَنُوأُ﴾ [القصص: ٧٦]: لَتُثْقِلُ. ﴿فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَىٰ. ﴿الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]: المَرِحِينَ. ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]: اتَّبِعِي أَثَرَهُ، وَقَدْ يَكُونُ أَنْ يَقُصَّ الكَلَامَ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣]. ﴿عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: ١١]: عَنْ بُعْدٍ عَنْ جَنَابَةٍ وَاحِدٌ، وَعَنِ اجْتِنَابٍ أَيْضًا، ﴿يَبْطِشَ﴾ [القصص: ١٩] وَيَبْطُشُ. ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ [القصص: ٢٠]: يَتَشَاوَرُونَ. العُدْوَانُ وَالْعَدَاءُ وَالتَّعَدِّي وَاحِدٌ. آنَسَ: أَبْصَرَ. الجِذْوَةُ: قِطْعَةٌ غَلِيظَةٌ مِنَ الخَشَبِ لَيْسَ فِيهَا لَهَبٌ، وَالشِّهَابُ: فِيهِ لَهَبٌ. وَالْحَيَّاتُ أَجْنَاسٌ: الجَانُّ وَالأَفَاعِي وَالأَسَاوِدُ. ﴿رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]: مُعِينًا. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤] وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿سَنَشُدُّ﴾ [القصص: ٣٥]: سَنُعِينُكَ كُلَّمَا عَزَّزْتَ شَيْئًا فَقَدْ جَعَلْتَ لَهُ عَضُدًا. مَقْبُوحِينَ: مُهْلَكِينَ. ﴿وَصَّلْنَا﴾ [القصص: ٥١]: بَيَّنَّاهُ وَأَتْمَمْنَاهُ. ﴿يُجْبَىٰ﴾ [القصص: ٥٧]: يُجْلَبُ. ﴿بَطِرَتْ﴾ [القصص: ٥٨]: أَشِرَتْ. ﴿فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]: أُمُّ القُرَىٰ: مَكَّةُ وَمَا حَوْلَهَا. ﴿تُكِنُّ﴾

[القصص: ٦٩]: تُخْفِي. أَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ، وَكَنَنْتُهُ: أَخْفَيْتُهُ وَأَظْهَرْتُهُ. ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [القصص: ٨٢] مِثْلُ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢] يُوَسِّعُ عَلَيْهِ وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ.

الشَّرْح

{٤٧٧٢} بوَّب المصنف ﵀ هذا الحديث على هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] في قصة دعوة النبي ﷺ لأبي طالب عند الوفاة.

وفيه: أن الإنسان يبدأ بأقاربه بالنصيحة والدعوة، ولهذا حرص النبي ﷺ على نصيحة عمه عند الوفاة.

وفيه: مضرة أصحاب السوء؛ فعبد الله بن أبي أمية وأبو جهل قالا: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟!»؛ ذَكَّرَاهُ الحُجَّة الملعونة، وهي: اتباع الآباء في الباطل، وهي حجة فرعون، قال الله عنه: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: ٥١] وهي الحجة القرشية حيث قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧] فالحجة الملعونة هي: اتباع الآباء والأجداد في الباطل على الشرك.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أن أبا طالب لو قال: لا إله إلا الله لنفعته؛ لأنه ليس في مكة نفاق؛ فإما إيمان صريح أو كفر صريح.

وفيه: أن المريض تصح توبته وينفعه التلفظ بالشهادة ما لم تصل الروح إلى الحلقوم، ويدل على هذا أن الصبي اليهودي الذي حضرته الوفاة، جاءه النبي ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فنظر الصبي إلى أبيه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الصبي: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»(١)، وإلا لو كانت غير مفيدة لما دعا النبي ﷺ عمه أبا طالب ولا دعا اليهودي.

وفيه: جواز زيارة الكافر ودعوته إلى الإسلام؛ فالنبي ﷺ زار عمه أبا طالب ودعاه إلى الإسلام، وزار اليهودي ودعاه إلى الإسلام؛ فاليهودي أسلم وأبو طالب لم يسلم.

(١) أحمد (٣/ ٢٢٧)، والبخاري (١٣٥٦).

وفيه: أن أبا طالب مات على الشرك.

وفيه: الرد على السيوطي الذي قال بإسلامه، وقال: إن الله ﷻ أحيا أبوي الرسول ﷺ فأسلما ثم ردهما، وهذا من أبطل الباطل، ويدل على ذلك ما رواه جابر ابن عبد الله بن حرام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب وأحيا أباك فكلمه كفاحًا، فقال: يا عبدي تمن عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب ﷻ: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون**»[(١)].

وفيه: أنه لا يجوز الدعاء والاستغفار للمشركين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣] وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ [التوبة: ٨٤] ففي هذه الآية ذكر علة المنع من الصلاة عليهم والدعاء وهي الكفر، وكذلك لا يجوز الصدقة ولا الحج عنهم.

وفيه: - وهو موضع الشاهد للترجمة - أن هداية القلوب بيد الله ﷻ، لا يملكها رسول ولا غيره، وهذا معنى الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] فهذه الهداية هي: هداية التوفيق والتسديد، لا يملكها إلا الله ﷻ، أما هداية الدلالة والإرشاد: فيملكها الرسول ﷺ ويملكها غيره؛ فالهداية هدايتان: هداية توفيق وتسديد، وهذه لا يملكها إلا الله ﷻ، وهداية دلالة وإرشاد، وهي ثابتة للرسل وللدعاة، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فصلت: ١٧] يعني: دللناهم وأرشدناهم، لكنه تعالى لم يرد لهم التوفيق والسداد فماتوا على الكفر.

○ قوله: «مَقْبُوحِينَ: مُهْلَكِينَ» يعني في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: ٤٢]، أي: من المهلكين.

(١) الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠).

- قوله تعالى: «﴿وَصَّلْنَا﴾ [القَصَص: ٥١]»، قال: «بَيَّنَّاهُ وَأَتْمَمْنَاهُ».
- قوله تعالى: «﴿يُجْبَىٰٓ﴾ [القَصَص: ٥٧]»، قال: «يُجْلَبُ».
- قوله تعالى: «﴿بَطِرَتْ﴾ [القَصَص: ٥٨]»، قال: «أَشِرَتْ».
- قوله تعالى: «﴿فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القَصَص: ٥٩]»، قال: «أُمُّ القُرىٰ: مَكَّةُ وَمَا حَوْلَهَا»، حتى يبعث فيها رسولًا تقوم الحجة به.
- قوله تعالى: «﴿تُكِنُّ﴾ [القَصَص: ٦٩]» قال: «تُخْفِي».

بَابُ قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

الآية [القصص: ٨٥]

{٤٧٧٣} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا يَعْلَىٰ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ العُصْفُرِيُّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] قَالَ: إِلَىٰ مَكَّةَ.

الشَّـرْح

{٤٧٧٣} قوله: «حَدَّثَنَا سُفْيَانُ العُصْفُرِيُّ» العصفري: بضم العين والفاء وإسكان الصاد.

○ قوله: «﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]»، أراد بالمعاد: مكة.

٢٩- ومن سورة العَنْكَبُوتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ضَلَلَةً. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ عَلِمَ اللهُ ذَلِكَ، إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ فَلِيَمِيزَ اللهُ كَقَوْلِهِ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾. ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أَوْزَارِهِمْ.

الشَّرح

○ قوله تعالى: «﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العَنكبوت: ٣٨]»، قال مجاهد: «ضَلَلَةً» يعني: ضالون وهم يعلمون الحق.

○ قول الله تعالى: «﴿الْحَيَوَانُ﴾ [العَنكبوت: ٦٤]»: الحيوان والحي بمعنى واحد.

○ قوله تعالى: «﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ [العَنكبوت: ٣]»، قال رحمه الله: «عَلِمَ اللهُ ذَلِكَ، إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ فَلِيَمِيزَ اللهُ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]» وفي هذه الآية إثبات العلم، ومن علمه أن ذلك ليميز المؤمنين عن الكاذبين.

○ قوله تعالى: «﴿أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العَنكبوت: ١٣]»، يعني: أوزارًا مع أوزارهم.

وكأن المؤلف رحمه الله لم يجد حديثًا على شرطه ولذلك اكتفى بتفسير الكلمات.

٣٠- ومن سورة الرُّوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ [الروم: ٣٩]: مَنْ أَعْطَىٰ يَبْتَغِي أَفْضَلَ فَلَاأَجْرَ لَهُ فِيهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]: يُنَعَّمُونَ. ﴿يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]: يُسَوُّونَ المَضَاجِعَ، ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ [الروم: ٤٨]: المَطَرُ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [الروم: ٢٨] فِي الآلِهَةِ، وَفِيهِ ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أَنْ يَرِثُوكُمْ كَمَا يَرِثُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]: يَتَفَرَّقُونَ، ﴿فَٱصْدَعْ﴾ [الحجر: ٩٤] وَقَالَ غَيْرُهُ: ضُعْفٌ وَضَعْفٌ لُغَتَانِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: ١٠]: الإِسَاءَةُ، جَزَاءُ المُسِيئِينَ.

الشَّرح

○ قوله تعالى: «﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [الرُّوم: ٢٨]»، يعني: «فِي الآلِهَةِ»، وفيه: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ [الرُّوم: ٢٨] «أَنْ يَرِثُوكُمْ كَمَا يَرِثُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا».

○ قوله تعالى: «﴿ٱلْوَدْقَ﴾ [الرُّوم: ٤٨]»، المراد بالودق: «المَطَرُ».

○ قوله تعالى: «﴿يُحْبَرُونَ ١٥﴾ [الرُّوم: ١٥]»، أي: «يُنَعَّمُونَ».

○ قوله تعالى: «﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ٤٤﴾ [الرُّوم: ٤٤]»، أي: «يُسَوُّونَ المَضَاجِعَ».

○ قوله تعالى: ﴿يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ [الرُّوم: ٤٣]، أي: «يَتَفَرَّقُونَ».

○ قوله: «ضُعْفٌ وَضَعْفٌ لُغَتَانِ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الرُّوم: ٥٤] وهما قراءتان سبعيتان[1].

---

(١) انظر: «الميسر في القراءات الأربع عشر» (ص ٤١٠).

بَابُ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١-٢]

{٤٧٧٤} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ وَالأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةَ فَقَالَ: يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ المُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، يَأْخُذُ المُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ. فَفزِعْنَا، فَأَتَيْتُ ابن مَسْعُودٍ، وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَغَضِبَ فَجَلَسَ فَقَالَ: مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ لَا أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ وَإِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَئُوا عَنِ الإِسْلَامِ فَدَعَا عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّىٰ هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا المَيْتَةَ وَالْعِظَامَ وَيرى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ»، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللهَ، فَقَرَأَ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [الدخان: ١٠] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الآخِرَةِ إِذَا جَاءَ ثُمَّ عَادُوا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ، فَذَلِكَ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الدخان: ١٦] يَوْمَ بَدْرٍ وَلِزَامًا يَوْمَ بَدْرٍ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١، ٢] إِلَىٰ ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣] وَالرُّومُ قَدْ مَضَىٰ.

الشَّرح

{٤٧٧٤} هذا الحديث فيه: أن ابن مسعود ﷺ أنكر على المحدث الذي يقول: «يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ المُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ»؛ فقال منكرًا عليه: «مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ لَا أَعْلَمُ».

وفيه: أنه ينبغي على من سئل عن شيء لا يعلمه، أن يكل العلم إلى عالمه؛ فيقول: الله أعلم، أو يقول: لا أدري، والعالم إذا أخطأ لا أدري أصيبت مقاتله، كما قال محمد بن عجلان.

وفيه: أن قول: الله أعلم لما لا يعلم من العلم؛ لأن المعلومات نوعان: نوع تعلمه، ونوع لا تعلمه؛ فالذي تعلمه تقول فيه بما تعلم، والذي لا تعلمه تقول: الله أعلم.

وقد قيل: الله أعلم نصف العلم؛ فالعلم نصفان: أعلم ولا أعلم.

وفي قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كما سبق - أن الدخان دخانان: دخان سبق، وهو: ما أصاب قريشًا من السنة حتى كان يرى بعضهم ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان، وهذا هو الذي حفظه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والدخان الثاني هو الذي من آيات الساعة الكبار في آخر الزمان، يأخذ بأسماع المنافقين والكفار، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وقد خفي هذا على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحفظه غيره، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

○ قوله: «فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ»، يعني: أن قريشًا أصابهم جدب حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام.

○ قوله: «وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ»، إشارة لقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥﴾ [الدّخان: ١٠-١٥]. فالمراد به: أنه كشف عنهم الجوع؛ فدل على أنه عذاب في الدنيا، وأنه يكشف؛ لقوله: «أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الآخِرَةِ إِذَا جَاءَ ثُمَّ عَادُوا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ؟» فلا يكشف عنهم عذاب الآخرة؛ فذلك قوله: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [الدّخان: ١٦]؛ إشارة إلى يوم بدر فقد أصابهم من القتل والأسر ما أصابهم.

○ وقوله: ﴿لِزَامَۢا ۝٧٧﴾ [الفرقان: ٧٧]: أي: يوم بدر أيضًا فقد لزمهم العذاب.

بَابٌ قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الرُّوم: ٣٠]

: لِدِينِ اللهِ.

﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ [الشُّعَرَاء: ١٣٧]: دِينُ الأَوَّلِينَ. وَالْفِطْرَةُ: الإِسْلَامُ.

{٤٧٧٥} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الرُّوم: ٣٠]، أي: لا تبديل لدين الله ﷻ.

○ قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ [الشُّعَرَاء: ١٣٧]، أي: «دِينُ الأَوَّلِينَ».

{٤٧٧٥} قوله: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»، وفي لفظ: «**ما من مولود يولد إلا وهو على الملة**»[(١)] وفي لفظ آخر: «**ليس من مولود يولد إلا على الإسلام**»[(٢)] فالفطرة والملة هي: دين الإسلام، والإنسان فطر على معرفة ربه، وفطر على قبول الخير، وهذا من الإسلام ومن الإيمان.

والحديث فيه: دليل على أن كل مولود يولد على الفطرة.

وأطفال المشركين فيهم أقوال ذكرها العلامة ابن القيم ﵀ في طبقات المكلفين، في كتاب «طريق الهجرتين»[(٣)]، وذكرها الحافظ ابن حجر ﵀[(٤)].

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥٣)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٢) البيهقي في «الكبرى» (٦/ ٢٠٣).
(٣) «طريق الهجرتين»، لابن القيم (ص ٣٨٧).
(٤) «فتح الباري»، لابن حجر (٣/ ٢٤٦).

ومجموعها ثمانية أقوال، أصحها قولان:

القول الأول: أنهم في الجنة، ويدل عليه حديث النبي ﷺ في رؤياه أنه رأى إبراهيم في الجنة، وحوله ولدان الناس(١)، يعني: المشركين والمؤمنين عمومًا، فدل على أنهم في الجنة.

القول الثاني: أنهم ممتحنون.

وقيل: إنهم خدم لأهل الجنة، وهذا ضعيف؛ فخدم أهل الجنة الولدان يخلقهم الله فيها.

فالصواب القول الأول: أنهم في الجنة، ويليه في القوة القول الثاني: أنهم يمتحنون.

○ قوله: «**فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ**» يعني: مجتمعة الحواس «**هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**» وفي اللفظ الآخر: «**حتى تكونوا أنتم تجدعونها**»(٢).

فالمراد أن الإنسان يولد على الفطرة، وهي دين الإسلام، ثم يأتي بعد ذلك ما يغيره؛ فأبواه يهودانه أي: ينقلانه إلى دين اليهودية، إذا كانا يهوديين، أو ينصرانه أي: ينقلانه إلى دين النصرانية، أو يمجسانه أي: ينقلانه إلى دين المجوس، ولم يقل: أو يسلمانه؛ لأنه مفطور على الإسلام. كما في شأن البهيمة التي يكون لها أذنان وقرنان، ثم يأتيها الجدع بعد ذلك، أي: يأتي من يقطع أذنها، ويأتي من يكسر قرنها.

ثم قرأ ﷺ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

(٢) أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

٣١- ومن سورة لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بَابٌ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

{٤٧٧٦} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَٰذِهِ الآيَةُ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَىٰ قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» [لقمان: ١٣].

الشَّرْح

{٤٧٧٦} في هذا الحديث فضل التوحيد، وأن من مات على التوحيد فهو على خير عظيم، وهو من أهل الجنة والكرامة؛ فإن مات على توحيد محقق لم يخلطه بشرك ولا بدعة ولا كبيرة دخل الجنة من أول وهلة فضلًا من الله تعالى وإحسانًا، وله الأمن الكامل والهداية الكاملة، وإن مات على توحيد ملطخ بالمعاصي والبدع؛ فله أمن ناقص وهداية ناقصة، وهو على خطر من دخول النار، وقد يعفى عنه وقد لا يعفى عنه؛ فهو تحت المشيئة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فدلت الآية والحديث على أن المؤمن الموحد الذي لم يخلط توحيده بشرك فله الأمن في الآخرة من العذاب، وله الهداية في الدنيا، إذا سلم من أنواع الظلم الثلاثة: ظلم الشرك وظلم العباد وظلم المعاصي، وله الأمن التام والهداية التامة، أما إذا سلم من ظلم الشرك وحصل له ظلم العباد أو ظلم المعاصي؛ فله أصل الأمن وأصل الهداية، لكنه أمن ناقص وهداية ناقصة؛ فالكل للكل والحصة للحصة.

وهذا التفصيل وإن لم يذكر هنا؛ فقد دلت عليه النصوص الأخرى، والنصوص يضم بعضها إلى بعض، ويعمل بها جميعها، وهذه الآية مما فسره النبي ﷺ؛ فبعض الآيات فسرها النبي ﷺ، ومنها هذه الآية؛ فلما نزلت شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وظنوا أن المراد بالظلم ظلم المعاصي وظلم العباد؛ فقالوا: «أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟!» يعني: أينا يسلم من المعاصي؟ فقال النبي ﷺ: «إنه ليس بذاك»، ليس هو بظلم المعاصي، إنما هو ظلم الشرك، فسرها بآية لقمان فقال: «ألا تسمع إلى قول لقمان» وهذا خطاب للواحد، والمراد به الجنس يعني جنس المخاطب، وفي رواية «**ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»(١) وفيه: دليل على أن القرآن يفسر بعضه ببعض، فآية الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فسرتها آية لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

فائدة:

تفسير القرآن أنواع: منه ما فسره النبي ﷺ، ومنه ما فسره الصحابة والتابعون رضي الله عنهم، ومنه: ما دلت عليه اللغة العربية، ومنه: ما هو معلوم لكل أحد من العرب، كما قال ابن عباس.

---

(١) أحمد (١/ ٣٧٨).

بَابُ قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]

{٤٧٧٧} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، عَنْ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي حَيَّانَ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَاتُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، ولكن سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ المَرْأَةُ رَبَّتَهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]». ثُمَّ ٱنْصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ: «رُدُّوا عَلَيَّ». فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ: «هٰذا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ».

{٤٧٧٨} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي ابن وَهْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ ﷺ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

الشَّرْح

ترجم المؤلف ﷺ للباب بآية لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، وفيها مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، فلا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ﷻ، ولا يدري متى ينزل المطر إلا الله

ﷻ، ولا يدري ما في الأرحام إلا الله ﷻ، والمراد: قبل أن يخلق فإنه لا يعلم لا الملك ولا غيره، ولهذا يقول الملك: يا رب أذكر أم أنثى؟ أما إذا تخلق فإنه يعلمه الملك ثم يعلمه الأطباء بعد ذلك، وما تدري نفس ماذا يحصل لها غدًا، وما تدري متى ولا أين يكون موتها.

{٤٧٧٧} ذكر المؤلف رحمه الله شاهداً للترجمة وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي قال فيه: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الإِيمَانُ؟**» هذا الرجل هو: جبريل عليه السلام كما جاء في رواية «الإيمان» المتقدمة، وهذا الحديث معروف: بحديث جبريل عليه السلام(١).

وفيه: دليل على أن الملك يتصور؛ حيث أعطاه الله ﷻ قدرة على التشكل.

وفيه: أن الملك قد يُرى؛ فقد رآه الصحابة رضي الله عنهم في صورة رجل، وكذلك جاء الملك لثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى؛ جاء للأول في صورة أبرص، وجاء للثاني في صورة أقرع، وجاء للثالث في صورة أعمى؛ جاءهم مرتين المرة الأولى: في صورة رجل والمرة الثانية: في صورته؛ لكي يذكره بحالته السابقة(٢).

وفيه: أن جبريل عليه السلام إنما جاء ليعلم الناس أمر دينهم.

وفيه من الفوائد: أنه لا بأس أن يسأل الإنسان وهو عالم؛ لأجل أن يستفيد من حوله؛ فإن جبريل عليه السلام عالم، لكنه سأل كما قال النبي ﷺ: «**جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ**»؛ فإذا سأل الإنسان للفائدة ليستفيد من حوله وإن كان عالمًا فلا بأس، أما إذا سأل عن أشياء لم تقع، أو عن أشياء ليعنت المسئول ويوقعه في الحرج؛ فهذا منهي عنه، وقد نهى النبي ﷺ عن المسائل وعابها وكرهها، كما نهى عن السؤال من أجل الرياء ليري الناس أنه يعلم، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المَائدة: ١٠١]. وقال النبي ﷺ: «**إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته**»(٣).

(١) أحمد (٢/٤٢٦)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٨).
(٢) البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (٢٩٦٤).
(٣) أحمد (١/١٧٩)، والبخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

فجبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ» والآخر بكسر الخاء مقابل الأول إذا كان أول وآخِر، وإذا كانوا أكثر من اثنين يقال: الآخَر، فيقال: الأول، والآخَر يعني: الثاني، والآخر يعني: الثالث، والبعث الآخِر هو اليوم الآخِر، ويقابله: اليوم الأول، وهو: الدنيا.

وجاء في غير حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا تفسير الإسلام فقال: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا**»[(١)] وفي اللفظ الآخر: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**»[(٢)] وهنا قال: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا»، فدل على أن المراد من الكلمة: معناها والعمل بمقتضاها، وليس المراد النطق بالشهادتين فقط.

ومعنى: «تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» تفسير لمعنى شهادة أن لا إله إلا الله؛ فلا يكفي فيها النطق باللسان، بل لابد في التوحيد من: معرفة معناها والعمل بمقتضاها والبعد عما يناقضها.

○ قوله: «وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ»، ولم يذكر هنا الحج، وفي حديث جبريل عليه السلام المشهور ذكر الحج، وجاء في حديث آخر تفسير الإسلام، قال: «**وتحج وتعتمر وتغتسل من الجنابة**»[(٣)]، وجاء في حديث وفد عبد القيس تفسير الإيمان، قال «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس**»[(٤)].

ولما سأله عن الإحسان؛ بين له أن الإحسان مراقبة الله ﷻ، وأن له مرتبتين، قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

---

(١) أحمد (٢/ ١٠٧)، والنسائي (٤٩٩١).
(٢) أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (٨).
(٣) ابن خزيمة (١/ ٣)، وابن حبان (١/ ٣٩٧)، والدارقطني (٢/ ٢٨٢).
(٤) أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

ولما سأله عن الساعة؛ قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» وهذا أيضًا شاهد للترجمة: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾»، قال: «ولكن سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا»، أي: إذا ولدت الأمة سيدتها، وذلك يكون: إذا تسرى الملك السرية فتجيء ببنت فتصير الأمة ولدت سيدتها بنت الملك. وفي اللفظ الآخر: «**إذا ولدت الأمة ربها**»[1] فيكون ولدها من الملك سيدًا عليها وعلى غيرها.

○ قوله: «وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا» يعني: أن الفقراء الذين في الغالب لا يكون لهم نعال وثيابهم مخرقة عراة، يتحضرون ويسكنون المدن ويتطاولون في البنيان، كما في اللفظ الآخر: «**يتطاولون في البنيان**»[2] يعني: بعد أن كانوا حفاة عراة رعاة الشاء والغنم في البراري، يتحضرون ويسكنون في المدن ويكونون رءوس الناس وأمراءهم.

○ قوله: «فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]، ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ: «رُدُّوا عَلَيَّ». فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ» وموطن الشاهد من الحديث: «فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ ...».

❖ ❖ ❖

{٤٧٧٨} ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما شاهدًا آخر للترجمة قال: قال النبي ﷺ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ. ثُمَّ قَرَأَ» آية لقمان «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾»، وتمام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

---

(١) أحمد (٢/ ٤٢٦)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩).
(٢) أحمد (٢/ ٥١)، ومسلم (٨).

٣٢- ومن سورة ﴿تنزيل﴾ السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَهِينٌ﴾ ضَعِيفٍ، نُطْفَةُ الرَّجُلِ. ﴿ضَلَلْنَا﴾ هَلَكْنَا. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: الجُرُزُ التِي لَا تُمْطَرُ إِلَّا مَطَرًا لَا يُغْنِي عَنْهَا شَيْئًا. ﴿يَهْدِ﴾ يُبَيِّنُ.

الشَّرْح

ذكر المؤلف تفسير الكلمات في سورة السجدة، فقال في قوله تعالى: ﴿مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السَّجدَة: ٨] أي: «ضَعِيفٍ»، ويعني أن الإنسان مخلوق من النطفة الضعيفة في ماء الرجل.

○ قوله تعالى: «﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ [السَّجدَة: ١٠]»، أي: «هَلَكْنَا»؛ يعني: إذا دفنا في الأرض وبليت عظامنا كيف نبعث؟! وهؤلاء هم المنكرون للبعث.

وذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلْجُرُزِ﴾ [السَّجدَة: ٢٧] قال: ﴿ٱلْجُرُزِ﴾: «التِي لَا تُمطَرُ إِلَّا مَطَرًا لَا يُغْنِي عَنْهَا شَيْئًا».

○ قوله تعالى: «﴿يَهْدِ﴾ [السَّجدَة: ٢٦]»، قال: «يُبَيِّنُ»، والمراد هداية البيان والإرشاد؛ فالهداية نوعان:

هداية الدلالة والبيان والإرشاد، وهذه ثبتت للنبي ﷺ وللدعاة مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشّورىٰ: ٥٢].

وهداية التوفيق والتسديد، وهذه خاصة بالله ﷻ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القَصَص: ٥٦].

بَابٌ قوله:
﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

[السجدة: ١٧]

{٤٧٧٩} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وَحَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ اللهُ مِثْلَهُ. قِيلَ لِسُفْيَانَ: رِوَايَةً. قَالَ: فَأَيُّ شَيْءٍ؟ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ: قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُرَّاتِ.

{٤٧٨٠} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ نَصْرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، ومن بَلْهِ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧].

الشَّرْح

{٤٧٧٩} هذا الحديث القدسي موافق للآية المترجم بها، وهو من كلام الله ﷻ لفظًا ومعنى، مثل القرآن، إلا أن له أحكامًا تختلف عن القرآن؛ فالقرآن: يتعبد بقراءته والحديث القدسي: لا يتعبد بقراءته، والقرآن معجز والحديث القدسي: غير معجز، والقرآن: لا يمسه إلا المتوضئ والحديث القدسي: يمسه المتوضئ وغير المتوضئ.

○ قوله: «قال الله ﷻ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ» يعني: أعددت لهم شيئًا عظيمًا لا تعلمه النفوس.

○ قوله: «قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ٱقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧]».

○ قوله: «قَالَ اللهُ مِثْلَهُ» يعني: مثل الحديث السابق.

○ قوله: «قِيلَ لِسُفْيَانَ: رِوَايَةً»، أي: أهذا رواية عن النبي ﷺ؟.

○ قوله: «قَالَ: فَأَيُّ شَيْءٍ؟!»، يعني: فأي شيء إذا لم يكن رواية؟!

❖ ❖ ❖

{٤٧٨٠} قوله: «ذُخْرًا»، أي: مدخرًا لهم.

○ قوله: «مِن بَلْهَ» إذا تقدمت «من» على «بله» يكون معناها: غير، أو: سوى، كأنه قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مدخرًا لهم غير ما أطلعتم عليه أو سوى ما أطلعتم عليه، وأما إذا لم تتقدم فمعناها: دع.

وهذا فيه النعيم العظيم الذي يعطاه أهل الجنة، وأهل التوحيد؛ فالواجب على كل إنسان: أن يوحد الله ﷻ وأن يخلص له العبادة ويكثر من عمل الطاعات حتى يكون من الصالحين ويكون من أولياء الله ﷻ ومن أحبابه؛ ليحصل له هذا الخير.

○ قوله: «قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُرَّاتِ» أعين، بالجمع، والقراءة المتواترة ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقراءة ﴿قرات﴾ - بالجمع - قرأ بها أبو هريرة وأبو الدرداء وابن مسعود والأعمش وغيرهم وهي قراءة شاذة(١)، وتحمل على أنها تفسير.

---

(١) انظر: «المحتسب»، لابن جني (٢/٢١٧)، و«الميسر في القراءات الأربع عشرة» (ص ٤١٦).

٣٣- ومن سُورَةِ الأَحْزَابِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦]: قُصُورِهِمْ. ﴿مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]

الشَّرْح

سميت هذه السورة باسم «الأحزاب»، وهم: الكفرة الذين تحزبوا وتجمعوا على قتال النبي ﷺ؛ حيث جاءت قريش وتجمعت معها قبائل متعددة، حتى أحاطوا بالمدينة، ثم تحزبوا أيضًا مع اليهود الذين نقضوا العهد، وكانت غزوة الأحزاب، وكان فيها شدة ومشقة عظيمة على المؤمنين، كما بين الله ﷻ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ [الأحزاب: ١٠] ولهذا سميت سورة الأحزاب.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦]: قُصُورِهِمْ»، وذلك في خبر اليهود الذين نقضوا العهد؛ قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٦] والمراد: أن الذين ظاهروا المشركين وعاونوهم ونقضوا العهد أنزلهم الله ﷻ من بيوتهم ومن قصورهم، وسلط الله ﷻ رسولَه والمؤمنين عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

وذكر ابن حجر ؒ قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفسره فقال: «هو إعطاء المسلم الكافر بينهما قرابة صلة»، وفسر المعروف فقال: أي معروف في الكتاب، أقرهم الله ﷻ على ذلك، كما قال الله تعالى في آية الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [المُمتحَنة: ٨].

بَابُ
﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾

{٤٧٨١} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ٱقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦] فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضِيَاعًا فَلْيَأْتِنِي وَأَنَا مَوْلَاهُ».

الشَّرح

ذكر المؤلف رحمه الله في الترجمة هذه الآية فقال: «باب ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦]».

وذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وسيأتي الكلام عليه.

{٤٧٨١} ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه مستشهدًا به مع الآية المبوب بها، قال ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ٱقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾» والمعنى: أن النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أي: يقدمون محبته على محبة أنفسهم، ويفدونه بأنفسهم في حياته ﷺ، كما فعل طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه وغيره في غزوة أحد حيث إنه يبست يده وشلت بسبب أنه كان يقي بها النبي ﷺ، وبعد مماتهم: يتولى ﷺ شئونهم ويقضي ديونهم ويتحمل أثقالهم، وينفق على أيتامهم.

قال العيني رحمه الله في هذه الآية: «النبي أحق بالمؤمنين في كل شيء من أمور الدين والدنيا من أنفسهم فلهذا أطلق ولم يقيد».

○ قوله: «فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضِيَاعًا فَلْيَأْتِنِي وَأَنَا مَوْلَاهُ»، معناه أنه من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك دينًا

فيقضيه الرسول ﷺ، ومن ترك ضياعًا - أي: عيالًا ضائعين - لا قيِّم لهم فإن النبي ﷺ يتولاهم ويقوم بشئونهم وينفق عليهم، وكذلك ولاة الأمور من بعده على الصحيح، يقضون ديون من مات من المسلمين مدينًا، ويقومون على شؤون القُصَّر ويرتبون لهم من بيت المال ما يقوم بشؤونهم وكفايتهم حتى يكبروا؛ إذا كان في بيت المال سعة.

بَابٌ قوله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ الآية [الأحزاب: ٥]

{٤٧٨٢} حَدَّثَنَا مُعَلَّىٰ بْنُ أَسَدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ المُخْتَارِ، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي سَالِمٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ -مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ- مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا: زَيْدَ بن مُحَمَّدٍ، حَتَّىٰ نَزَلَ القُرْآنُ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥].

الشَّرْح

في هذه الآية إبطال التبني، والتبني هو أن ينسب الإنسان لنفسه ابنًا ليس من صلبه، وكان هذا جائزًا في الجاهلية وفي أول الإسلام، ومن ذلك: تبني النبي ﷺ زيد بن حارثة؛ فكان يدعى زيد بن محمد، ثم أبطل الله ﷻ التبني في الإسلام وهدمه.

{٤٧٨٢} قوله: «أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ -مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ- مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا: زَيْدَ بن مُحَمَّدٍ، حَتَّىٰ نَزَلَ القُرْآنُ»، أي: فأمرهم بنسبته إلى أبيه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥]. فصار بعد ذلك يدعى: زيد بن حارثة؛ فنسب إلى أبيه.

وهدم الله ﷻ التبني قولًا وفعلًا؛ بالقول في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وبالفعل: حيث أمر نبيه ﷺ أن يتزوج مطلقة زيد رضي الله عنه - وهي زينب بنت جحش رضي الله عنها - لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه زوجها الله ﷻ رسوله ﷺ من فوق سبع سموات، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ ثم بين ﷻ الحكمة قال: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يعني: في تزوج أزواج أدعيائهم؛ فالابن الدعي ليس ابنًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٥]. وقال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٤].

بَابُ قوله:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الآية [الأحزاب: ٢٣]

﴿نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣]: عَهْدَهُ. ﴿أَقْطَارِهَا﴾ [الأحزاب: ١٤] جَوَانِبُهَا. ﴿سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]: لأَعْطَوْهَا.

{٤٧٨٣} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ ثُمَامَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: نُرَىٰ هٰذِه الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

{٤٧٨٤} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: لَمَّا نَسَخْنَا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ، الذِي جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، أي: منهم الذي قتل شهيدًا ووفَّىٰ بعهده، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وهذا ثناء من الله ﷻ عليهم، والآية نزلت في أنس بن النضر ﷺ كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]، يعني: لو دُخل على المنافقين من أقطار المدينة وجوانبها، ثم سئلوا الفتنة لأعطوها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤] قال: «لأَعْطَوْهَا».

{٤٧٨٣} قوله: «نُرَىٰ هٰذِه الآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾» يعني: نزلت فيه وفي أمثاله أيضًا، وذلك لما فاته

مشهد بدر وقال لئن أشهدني الله مشهدًا ليرين الله ما أصنع؛ فلما كانت غزوة أحد أبلى بلاءً حسنًا وقاتل حتى قتل شهيدًا رضي الله عنه.

❖ ❖ ❖

{٤٧٨٤} كان زيد بن ثابت رضي الله عنه من الشباب الذين عهد إليهم أبو بكر رضي الله عنه بجمع القرآن، حيث قال أبو بكر لزيد بن ثابت رضي الله عنهما: إنك شاب عاقل تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ولا نتهمك؛ فاجمع القرآن. قال زيد رضي الله عنه: فوالله لو كلفوني نقل جبل ما كان بأثقل عليَّ من ذلك. فجعل يجمع القرآن مع الشباب الذين عهد إليهم أبو بكر بجمع القرآن فيأخذونه من العسب والحجارة، وكانوا لا يكتبون الآية إلا إذا وجدت مكتوبة في السطور ومحفوظة في الصدور، قال زيد رضي الله عنه: «لَمَّا نَسَخْنَا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ»، يعني: لم يجدها مكتوبة وإلا فهي محفوظة.

○ قوله: «الذِي جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ»، وذلك لما شهد على الأعرابي الذي اشترى منه النبي ﷺ الفرس، وكان قد باع الفرس على النبي ﷺ فطفق رجال يساومونه وما يدرون أن النبي ﷺ اشتراه؛ فلما أعطوه ما يريد قال للنبيّ ﷺ: اشتر الفرس إن كنت مشتريًا، وإلا فإني سأبيعه؛ فقال النبيُّ ﷺ: «**أوليس قد ابتعته منك؟**» قال: لا، ما بعته لك، وقال: من يشهد لك؟ فجاء خزيمة رضي الله عنه وشهد أنه باعه للنبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: «**وبم تشهد؟**»؟ قال: يا رسول الله قد شهدنا على ما هو أعظم من ذلك. فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة اثنين[(١)].

---

(١) أحمد (٥/ ٢١٥)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٢٨]

وقال معمر: التَّبَرُّجُ أَنْ تُخْرِجَ مَحَاسِنَهَا، و﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٢] سنّها: جَعَلَهَا.

{٤٧٨٥} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها -زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ- أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَ اللهُ أَنْ يُخَيِّرَ أَزْوَاجَهُ، فَبَدَأَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ تَسْتَعْجِلِي حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ»، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]». إِلَىٰ تَمَامِ الآيَتَيْنِ. فَقُلْتُ لَهُ: فَفِي أَيِّ هٰذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ.

الشَّرح

○ قوله: «وَقَالَ معمر: التَّبَرُّجُ أَنْ تُخْرِجَ مَحَاسِنَهَا» وهو من البروج أي: الظهور؛ فالمتبرجة: هي التي أبرزت شيئًا من محاسنها.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، قال: «سنّها: جَعَلَهَا».

{٤٧٨٥} قوله: «فَلَا عَلَيْكِ أَنْ تَسْتَعْجِلِي»، والرواية الآتية: «**فلا عليك ألا تعجلي**»، ولعل الصواب: أن كلمة «لا» سقطت، ويدل على سقوطها ثبوتها في الحديث الذي بعده، ويحتمل أن تكون هذه رواية على نية «لا» فتكون «لا» مقدرة هنا.

وهذا الحديث تفسير لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩] والتي تسمى: آية التخيير، والتي نزلت بعد أن اجتمعن عليه يطلبن النفقة، وكان النبي ﷺ قد هجرهن شهرًا.

وهذا التخيير هل هو طلاق أم ليس بطلاق؟

والصواب: أن التخيير ليس بطلاق، وقال بعض العلماء: التخيير طلاق، وقيل: إنه طلاق في غير حق النبي ﷺ، فلما أنزل الله ﷻ هذه الآية خير النبي ﷺ أزواجه، قالت عائشة ﵂: «فَبَدَأَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ تَسْتَعْجِلِي حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ»، لأنها صغيرة السن ويخشى أن تعجل في أمرها بخلاف كبيرة السن، ولهذا أمرها ﷺ أن لا تستعجل حتى تستأمر أبويها وتشاورهما.

○ قوله: «فَقُلْتُ لَهُ: فَفِي أَيِّ هٰذا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ» هذا دليل على فطنتها وذكائها مع صغر سنها ﵂.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾

الآية [الأحزاب: ٢٩]

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]: القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ.

{٤٧٨٦} وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ عَائِشَةَ -زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ- قَالَتْ: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ بَدَأَ بِي فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّىٰ تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ». قَالَتْ: وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب: ٢٨] إِلَىٰ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩]». قَالَتْ: فَقُلْتُ: فَفِي أَيِّ هٰذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ.

تَابَعَهُ مُوسَىٰ بْنُ أَعْيَنَ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ.
وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَأَبُو سُفْيَانَ المَعْمَرِيُّ: عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ.

الشَّرح

في بعض روايات الحديث: أن عائشة رضي الله عنها لما خيرها واختارت الله ﷻ ورسوله ﷺ قالت: لا تخبر أزواجك باختياري؛ فقال ﷺ: «**لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسراً**»(١) وقد حملتها الغيرة على هذا.

(١) أحمد (٣/٣٢٨)، ومسلم (١٤٧٨) واللفظ له.

بَابُ قوله:

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]

{٤٧٨٧} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ هٰذِهِ الآيَةَ ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ ابنةِ جَحْشٍ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ.

الشَّرح

{٤٧٨٧} نزلت آية الأحزاب في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما، وفي الآية يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق، وهو: زيد بن حارثة رضي الله عنه ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يعني: إذ جاء زيد رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يريد أن يطلق زينب رضي الله عنها قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**اتق الله لا تطلقها**»، قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أنها ستكون زوجتك ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: سيبديه في المستقبل ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تخشى أن يقول الناس: تزوج امرأة ابنه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي هذا هدم للتبني؛ لكيلا يكون على الرجل حرج في تزوُّج امرأة ابنه الدعي، وقول الله عز وجل: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، أي: زوجك الله عز وجل إياها من فوق سبع سموات؛ فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم بدون ولي وبدون شهود؛ فكانت زينب رضي الله عنها تفخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات.

وبذلك هدم الله التبني بالقول وبالفعل؛ بالقول: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]. وبالفعل أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج امرأة ابنه الدعي بعد طلاقها منه.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله ﷻ إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله ﷻ إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابنًا، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم، وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية، والله أعلم. وقد أخرج الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة ﵄ قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧- ٣٨]. وإن رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] الآية، وكان تبناه وهو صغير، قلت: حتى صار رجلًا يقال له: زيد بن محمد؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. قال الترمذي: روى عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة ﵄، إلى قوله: «لكتم هذه الآية»، ولم يذكر ما بعده، قلت: وهذا القدر أخرجه مسلم، كما قال الترمذي: وأظن الزائد بعده مدرجًا في الخبر، فإن الراوي له عن داود لم يكن بالحافظ. وقال ابن العربي: إنما قال ﷺ لزيد أمسك عليك زوجك اختبارًا لما عنده من الرغبة فيها أو عنها؛ فلما أطلعه زيد على ما عنده منها من النفرة التي نشأت من تعاظمها عليه وبذاءة لسانها، أذن له في طلاقها، وليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الآمر به، والله أعلم. وروى أحمد ومسلم والنسائي من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب ﵂ قال رسول ﷺ لزيد: «**فاذكرها عليّ**»(١) قال: فانطلقتُ فقلتُ: يا زينب أبشري، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن، وهذا

(١) أحمد (٣/ ١٩٥)، ومسلم (١٤٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٥٢).

أيضًا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو: أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهرًا بغير رضاه.

وفيه أيضًا: اختبار ما كان عنده منها، هل بقي منه شيء أم لا.

وفيه: استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة، وأن من وكل أمره إلى الله ﷻ يسر الله ﷻ له ما هو الأحظ له والأنفع دنيا وأخرى».

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ **الآية** [الأحزاب: ٥١]

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: (تُرْجِئُ) تُؤَخِّرُ. (أَرْجِئْهُ) [الأعراف: ١١١] و[الشعراء: ٣٦]: أَخِّرْهُ.

{٤٧٨٨} حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ بْنُ يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ قَالَ هِشَامٌ، حَدَّثَنَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَقُولُ: أَتَهَبُ المَرْأَةُ نَفْسَهَا؟! فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قُلْتُ: مَا أُرَىٰ رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ.

{٤٧٨٩} حَدَّثَنَا حِبَّانُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا عَاصِمٌ الأَحْوَلُ، عَنْ مُعَاذَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ المَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١]. فَقُلْتُ لَهَا: مَا كُنْتِ تَقُولِينَ؟ قَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ لَهُ: إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ أُوثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا.

تَابَعَهُ عَبَّادُ بْنُ عَبَّادٍ سَمِعَ عَاصِمًا.

الشَّرْح

نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] في: الواهبات اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ؛ فقد ذكر العلماء أن هناك عددًا من النساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. خالصة يعني: خاصة.

وفيه: دليل على أن الشريعة عامة إلا ما دل الدليل على تخصيصه، والنبي ﷺ هو أسوة للأمة؛ فما كان في حقه جائز فهو للأمة، إلا ما دل الدليل على

تخصيصه، كما في هذه الآية السابقة، وهي: الخصوصية بالهبة للنبي ﷺ؛ فلا يجوز للمرأة أن تهب نفسها لأحد، بل لابد من ولي وشاهدي عدل، إلا النبي ﷺ فإن هذا من خصوصياته.

○ قوله: «قَالَ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: (تُرْجِئُ) تُؤَخِّرُ، (أَرْجِئْهُ): أَخِّرْهُ» الإرجاء هو: التأخير، والمراد: لك أن تؤخر منهن من تشاء، وتؤوي من تشاء ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١].

{٤٧٨٨} قوله: «كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَقُولُ: أَتَهَبُ المَرْأَةُ نَفْسَهَا؟!» ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله عددًا من النساء اللاتي وهبن أنفسهن، قال: «ومن حديث أنس رضي الله عنه أن المرأة التي جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن لي ابنة فذكرت من جمالها فآثرتك بها فقال: «**قد قبلتها**» فلم تزل تذكر حتى قالت: لم تصدع قط؛ فقال: «**لا حاجة لي في ابنتك**»(١)؛ **لأنها لم يصبها الصداع**».

وذكر أيضًا: ما أخرجه النسائي من الواهبات: أم شريك(٢)، كذلك أيضًا يذكر عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن من الواهبات: فاطمة بنت شريح، وقيل: إن ليلى بنت الحطيم ممن وهبت نفسها له، ومنهن: زينب بنت خزيمة، جاء عن الشعبي وليس بثابت، وخولة بنت حكيم، وهو في «الصحيح»(٣)، ومن طريق قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ هي: ميمونة بنت الحارث(٤)، على أن بعض هذه الآثار فيها ضعف وفيها انقطاع.

وذكر المؤلف رحمه الله أن القَسْمَ ليس بواجب، وهو قول الجمهور في قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١] يعني: تؤخرهن بغير قسم، وقال آخرون من أهل العلم: يجب عليه القسم، والجمهور على أنه لا يجب، ولكنه ﷺ يقسم من باب

(١) أحمد (٣/ ١٥٥).
(٢) «السنن الكبرى» (٥/ ٢٩٤).
(٣) البخاري (٥١١٣)، ومسلم (١٤٦٤) ولم يسمها.
(٤) الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٢٣).

الإحسان، وقيل: المعنى تطلق وتمسك، وقيل: المعنى تعتزل من شئت، وقيل: المعنى تقبل من شئت من الواهبات وترد من شئت، واللفظ محتمل لجميع هذه الأقوال.

قالت عائشة تخاطب النبي ﷺ: «مَا أُرىٰ رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ»؛ فهو ﷺ خليل الله وحبيبه وهو ﷺ أفضل خلق الله ﷻ.

❖ ❖ ❖

{٤٧٨٩} في هذا الحديث كما مر في الحديث السابق أنه لا يجب عليه ﷺ القسم، لكنه يقسم من باب التفضل والإحسان، وتطييبًا لخاطرهن، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ المَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ هٰذِه الآيَةُ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]». فكان يقول: «أين أنا غدًا؟»[(١)]؛ فسألت معاذة عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا كُنْتِ تَقُولِينَ؟ قَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ لَهُ: إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ أُوثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا»، أي: لو كان الأمر إليها فإنها لا تفرط في يومها من النبي ﷺ.

---

(١) البخاري (١٣٨٩)، ومسلم (٢٤٤٣).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٣]

يُقَالُ: ﴿إِنَاهُ﴾: إِدْرَاكُهُ، أَنَى يَأْنِي أَنَاةً ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] إِذَا وَصَفْتَ صِفَةَ المُؤَنَّثِ قُلْتَ قَرِيبَةً وَإِذَا جَعَلْتَهُ ظَرْفًا وَبَدَلًا، وَلَمْ تُرِدِ الصِّفَةَ نَزَعْتَ الهَاءَ مِنَ المُؤَنَّثِ، وَكَذَلِكَ لَفْظُهَا فِي الوَاحِدِ وَالاِثْنَيْنِ وَالْجَمِيعِ لِلذَّكَرِ وَالأُنْثَى.

{٤٧٩٠} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ البَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الحِجَابِ.

{٤٧٩١} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الرَّقَاشِيُّ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلَزٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ ابنةَ جَحْشٍ دَعَا القَوْمَ، فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا القَوْمُ جُلُوسٌ ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا، فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآيَةَ [الأحزاب: ٥٣].

{٤٧٩٢} حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذِهِ الآيَةِ- آيَةِ الحِجَابِ- لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَتْ مَعَهُ فِي البَيْتِ، صَنَعَ طَعَامًا، وَدَعَا القَوْمَ، فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ، ثُمَّ يَرْجِعُ، وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فَضُرِبَ الحِجَابُ، وَقَامَ القَوْمُ.

{٤٧٩٣} حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ ابنةِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّىٰ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ. قَالَ: «ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ». وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي البَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَىٰ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ». فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللهُ لَكَ؟ فَتَقَرَّىٰ حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةُ رَهْطٍ فِي البَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي أَخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ القَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّىٰ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ البَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَىٰ خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الحِجَابِ.

{٤٧٩٤} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ بَكْرٍ السَّهْمِيُّ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسٍ- ﵁ قَالَ: أَوْلَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَنَىٰ بِزَيْنَبَ ابنةِ جَحْشٍ، فَأَشْبَعَ النَّاسَ خُبْزًا وَلَحْمًا ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ حُجَرِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ صَبِيحَةَ بِنَائِهِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيَدْعُو لَهُنَّ وَيُسَلِّمْنَ عَلَيْهِ وَيَدْعُونَ لَهُ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ رَأَىٰ رَجُلَيْنِ جَرَىٰ بِهِمَا الحَدِيثُ، فَلَمَّا رَآهُمَا رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَانِ نَبِيَّ اللهِ ﷺ رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ وَثَبَا مُسْرِعَيْنِ، فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ بِخُرُوجِهِمَا أَمْ أُخْبِرَ فَرَجَعَ حَتَّىٰ دَخَلَ البَيْتَ، وَأَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الحِجَابِ. وَقَالَ ابن أَبِي مَرْيَمَ: أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنِي حُمَيْدٌ، سَمِعَ أَنَسًا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

{٤٧٩٥} حَدَّثَنِي زَكَرِيَّاءُ بْنُ يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَ مَا ضُرِبَ الحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتِ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ، أَمَا واللهِ مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا، فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ، قَالَتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّىٰ. وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ فَدَخَلَتْ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي

خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا. قَالَتْ: فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ العَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لكن أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ».

الشَّرْح

هذه الآية تسمى: آية الحجاب، وقد ترجم بها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، والشاهد منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزَاب: ٥٣]. وفيه: دليل على وجوب حجب اليدين والوجه لأمهات المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزَاب: ٥٣]، يعني: غير منتظرين إدراك الطعام ونضجه.

والحجاب هو: ما يحجب المرأة عن الرجل، سواء كان بابًا أو جدارًا أو غطاءً.

وفيه: دليل على وجوب الحجاب، وهو: ستر الوجه واليدين مع بقية الجسم، ووجوب الحجاب مجمع عليه في حق أزواج النبي ﷺ، وكذلك هو واجب في حق غير أزواج النبي ﷺ على الصحيح، وقال بعض العلماء: إن هذا الحجاب خاص بأزواج النبي ﷺ؛ لأن الآية في أزواج النبي ﷺ، والصواب: أنه عام؛ لأن العلة عامة والعلة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزَاب: ٥٣]، ولا يقول أحد: إن غير أزواج النبي ﷺ لا يحتجن إلى طهارة القلوب؛ فلما كانت العلة عامة دل على أن الحكم عام.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا فائدة لغوية في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزَاب: ٦٣] فقال: **«إِذَا وَصَفْتَ صِفَةَ الْمُؤَنَّثِ قُلْتَ قَرِيبَةً وَإِذَا جَعَلْتَهُ ظَرْفًا وَبَدَلًا، وَلَمْ تُرِدِ الصِّفَةَ نَزَعْتَ الهَاءَ مِنَ الْمُؤَنَّثِ، وَكَذَلِكَ لَفْظُهَا فِي الوَاحِدِ وَالاِثْنَيْنِ وَالْجَمِيعِ لِلذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ»** والمراد في قوله ﷻ: ﴿قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ الظرف وليس الوصف.

{٤٧٩٠}، {٤٧٩١}، {٤٧٩٢} هذه الأحاديث صريحة في أن الحجاب نزل حينما بنى النبي ﷺ بزينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفيها: مشروعية الوليمة للمتزوج؛ لقوله «لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ ابنة جَحْشٍ دَعَا القَوْمَ، فَطَعِمُوا»؛ فالنبي ﷺ أولم على زينب رضي الله عنها وأشبع الناس خبزًا ولحمًا، وجعل يدعو الناس من ارتفاع الضحى؛ يدخل جماعة ويأكلون فيخرجون، ثم يدخل جماعة ويأكلون فيخرجون وهكذا.

وفيها: تأذي النبي ﷺ ممن جلسوا يتحدثون في البيت؛ لقوله: «ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا القَوْمُ جُلُوسٌ»، وفي الحديث الآتي: ذهب النبي ﷺ إلى بيت عائشة رضي الله عنها ثم رجع، فإذا هم على حالهم، ثم انصرف فلما انصرف قاموا.

○ قوله: «فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ ٱنْطَلَقُوا، فَجَاءَ حَتَّىٰ دَخَلَ»؛ لأن البيوت لم تكن واسعة مثل بيوتنا الآن؛ فلم يكن هناك مكان، وإلا لو كان المكان واسعًا مثل الآن لدخل البيت وتركهم في مجلسهم.

وفيه: حياء النبي ﷺ وأنه لا يواجه أحدًا بما يكره، وإذا أراد شيئًا قام، أو فعل شيئًا يفهم منه ما يريد.

وفيه: أن المشروع عدم الجلوس بعد الطعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزَاب: ٥٣]؛ فيشرع للضيوف بعد الطعام أن ينصرفوا؛ لأن الجلوس قد يشق على أهل البيت، إلا إذا أذن لهم صاحب البيت، أو كانت العادة الجلوس بعد الطعام - مثل ما هو موجود الآن أن العادة: الجلوس بعد الطعام للقهوة والطيب - أما إذا لم يكن هناك عادة أو كان يشق على أهل البيت؛ فإنه ينبغي الانصراف.

○ قوله: «فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» فيه: أن النبي ﷺ ألقى الحجاب بينه وبين أنس رضي الله عنه؛ لنزول قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزَاب: ٥٣] وهذا بيان لوقت فرض الحجاب، وأنه بعد بنائه ﷺ بزينب رضي الله عنها.

❖ ❖ ❖

{٤٧٩٣} قوله: «بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ ابنةِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ»، يعني: أقيمت وليمة الزواج بخبز ولحم.

○ قوله: «فَأُرْسِلْتُ» على البناء للمجهول؛ يعني: أرسل النبي ﷺ أنسًا يدعو الناس للطعام، وكان ذلك ضحى.

○ قوله: «فَدَعَوْتُ حَتَّىٰ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو»، يعني: أنه دعا كل من رآه، حتى إنه لم يترك أحدًا إلا دعاه، حتى شبع الناس خبزًا ولحمًا، فقال للنبي ﷺ: «يَا نَبِيَّ اللهِ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ».

○ قوله: «ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ»، وفي نسخة: «**فارفعوا طعامكم**».

○ قوله: «فَمَا أَدْرِي أَخْبَرْتُهُ أَوْ أُخْبِرَ» هذا من قول أنس رضي الله عنه؛ فلا يذكر أهو أخبر النبي ﷺ أم أخبره غيره؟

○ قوله: «حَتَّىٰ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ البَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرىٰ خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الحِجَابِ»، فيه: دلالة ظاهرة على أنها أنزلت في هذا الوقت.

❖ ❖ ❖

{٤٧٩٤} قوله: «وَثَبَا مُسْرِعَيْنِ»، يعني: قاما مسرعين؛ لأنهما رأيا النبي ﷺ لما جاء ليدخل، فلما رآهما رجع، وعرفوا في وجهه الكراهة.

والحديث فيه: مشروعية الوليمة للمتزوج؛ حيث إن النبي ﷺ أولم وليمة كبيرة على زينب رضي الله عنها، وأما صفية رضي الله عنها فإنه بنى بها في السفر بين المدينة وخيبر؛ فكانت الوليمة حيسًا، والحيس: سمن وأقط وتمر، قال الشاعر:

التمر والسمن جميعا والأقط ... الحيس إلا أنه لم يختلط

وفيه: دليل على أنه لا يشترط أن يكون في الوليمة لحم، ولا ينبغي للإنسان أن يسرف أو أن يصنع طعامًا أو لحومًا ترمى ولا يستفاد منها، بل يكون مناسبًا على قدر الحاجة، وإذا بقي شيء فلا يجوز له أن يرميه؛ وقد أنشئت الآن مؤسسات تقبل الفائض من الطعام فينبغي للإنسان أن يتعاون معهم.

وأحاديث الباب - مع الآية - فيها دليل على وجوب الحجاب، وفيها الرد على دعاة السفور الذين يطالبون بسفور المرأة، وفي حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك حيث قالت: «فخمرت وجهي بجلبابي، وكان يعرفني قبل الحجاب»[١] دليل على وجوب الحجاب، وأن الحجاب المراد هو: أن تستر المرأة وجهها ويديها.

وفي الحديث: أن أفضل طعام الوليمة اللحم، وأقل شيء: شاة؛ لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «**أولم ولو بشاة**»[٢] وإذا دعت الحاجة لأكثر من شاة فلا بأس أن يولم بشاتين أو ثلاث أو أربع، على حسب الحاجة إذا كان في استطاعته.

* * *

[٤٧٩٥] في الحديث: أن النساء كانت تخرج لقضاء الحاجة في الليل من البول والغائط، ولم يكن عندهم حمامات في البيوت، قالت عائشة رضي الله عنها: «كنا نكره ونتأذى أن يكون في البيوت كنف»[٣].

◘ قوله: «يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين» ولما قال عمر ما قال استحيت ورجعت ولم تقض حاجتها، وأخبرت النبي ﷺ، «فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا» وكان عمر يريد ألا يخرجن بل يقضين حاجتهن في البيوت زيادة في الحجاب، وهذا من شدة غيرته رضي الله عنه، فرفع الله تعالى الحرج وأوحى لنبيه ﷺ، فقال ﷺ: «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن» لأن الحاجة داعية للخروج.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفي الحديث من الفوائد: مشروعية الحجاب

(١) أحمد (٦/ ١٩٤)، والبخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) أحمد (٣/ ١٦٥)، والبخاري (٢٠٤٨)، ومسلم (١٤٢٧).
(٣) البخاري (٣٩١٠)، ومسلم (٢٧٧٠) بمعناه.

لأمهات المؤمنين».

وهذا مجمع عليه، لكن اختلف في غير أمهات المؤمنين، هل يجب عليهن أو لا؟ والصواب الذي عليه الجمهور وأهل الحق أن الحجاب عام، خلافًا لمن قال: إنه خاص بأمهات المؤمنين، والدليل: التعليل؛ فالعلة عامة قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فرض الحجاب مما اختصصن به، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها، ولا إظهار شخوصهن وأن يكن مستترات، إلا ما دعت إليه ضرورة من بِراز، ثم استدل بما في «الموطأ»: أن حفصة لما توفي عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها، وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها ليستر شخصها، انتهى. وليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن، وقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطفن، وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص، وقد تقدم في «الحج» قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له طواف عائشة، أقبل الحجاب أو بعده؟ قال: قد أدركت ذلك بعد الحجاب... قال الكرماني: فإن قلت: وقع هنا أنه كان بعد ما ضرب الحجاب، وتقدم في «الوضوء» أنه كان قبل الحجاب، فالجواب: لعله وقع مرتين. قلت: بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثاني، والحاصل أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقع في قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحريم النبوي، حتى صرح بقوله له ﷺ: احجب نساءك، وأكد ذلك، إلى أن نزلت آية الحجاب، ثم قصد بعد ذلك: أن لا يبدين أشخاصهن أصلًا، ولو كن مستترات، فبالغ في ذلك، فمنع منه وأذن لهن في الخروج لحاجتهن دفعًا للمشقة ورفعًا للحرج».

○ قوله: «**وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ**»؛ العَرْق - بفتح العين وسكون الراء - هو: العظم الذي فيه بقية من اللحم.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾
إلىٰ قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٤، ٥٥]

{٤٧٩٦} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتِ: ٱسْتَأْذَنَ عَلَيَّ أَفْلَحُ أَخُو أَبِي القُعَيْسِ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَقُلْتُ: لَا آذَنُ لَهُ حَتَّىٰ أَسْتَأْذِنَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ فَإِنَّ أَخَاهُ أَبَا القُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي، ولٰكن أَرْضَعَتْنِي ٱمْرَأَةُ أَبِي القُعَيْسِ، فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي القُعَيْسِ ٱسْتَأْذَنَ، فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ حَتَّىٰ أَسْتَأْذِنَكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا مَنَعَكِ أَنْ تَأْذَنِينَ عَمُّكِ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي، ولٰكن أَرْضَعَتْنِي ٱمْرَأَةُ أَبِي القُعَيْسِ. فَقَالَ: «ائْذَنِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ عَمُّكِ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ». قَالَ عُرْوَةُ: فَلِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا تُحَرِّمُونَ مِنَ النَّسَبِ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]. فيه: بيان للمحارم الذين تبدي لهم المرأة زينتها فذكر أن: الآباء، والأبناء، والإخوان، وأبناء الإخوان، وأبناء الأخوات، والنساء، وما ملكت الأيمان - يعني: عبدها الذي ملكته بملك اليمين - هؤلاء هم محارم المرأة، فيجوز لها أن تبدي زينتها أمامهم كل بحسبه، كما قال الله تعالى في آية النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

{٤٧٩٦} هذا الحديث فيه: دليل على أن لبن الفحل يحرم، وأن الحرمة كما تنتشر في المرضع وأقاربها كذلك تنتشر في الزوج الذي له اللبن وأقاربه، وهي مسألة خلافية بين أهل العلم، والصواب: أن لبن الفحل يحرم.

○ قوله ﷺ: «ائْذَنِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ عَمُّكِ» حين استأذن أفلح أخو أبي القعيس على عائشة - وهو عمها من الرضاع -؛ فزوجة أبي القعيس أرضعتها فكان

أبو القعيس أباها من الرضاعة، فلم تأذن له، فسألت النبي ﷺ في ذلك فأمرها أن تأذن له؛ لأنه عمها؛ فدل على أن لبن الفحل يحرم.

واستدل بهذا الحديث على: أنه يحرم بالصهر في الرضاع ما يحرم بالصهر في النكاح مثل: أم زوجته من الرضاع، وبنت زوجته من الرضاع، وزوجة ابنه من الرضاع، وزوجة أبيه من الرضاع، وهي مسألة خلافية، وقد اختار شيخ الإسلام رحمه الله أن تحريم المصاهرة لا يثبت بالرضاع فلا يحرم على الرجل نكاح أم زوجته وابنتها من الرضاع، ولا على المرأة نكاح أبي زوجها وأمه من الرضاع[1].

والحديث صريح في أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا تُحَرِّمُونَ مِنَ النَّسَبِ» ودخول عمها عليها من الرضاع لا من الصهر.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقوله في الحديث: «ائْذَنِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ عَمُّكِ»، مع قوله في الحديث الآخر: «العم صنو الأب» وبهذا يندفع اعتراض من زعم أنه ليس في الحديث مطابقة للترجمة أصلًا، وكأن البخاري رمز بإيراد هذا الحديث إلى الرد على من كره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها، كما أخرجه الطبري من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة والشعبي أنه قيل لهما: لِمَ لم يذكر العم والخال في هذه الآية؟ فقالا: لأنهما ينعتاها لأبنائهما، وكرها لذلك أن تضع خمارها عند عمها أو خالها، وحديث عائشة في قصة أفلح يرد عليهما. وهذا من دقائق ما في تراجم البخاري» اهـ.

قوله: «ينعتاها» يعني: يصفاها، وهذا هو الصواب: أن المرأة تضع خمارها عند عمها أو خالها فهما محرم وليس فيه إشكال.

---

(١) انظر: «الفتاوى الكبرى» (٥/٤٥٨).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٦]

قَالَ أَبُو العَالِيَةِ: صَلاَةُ اللهِ ﷻ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلاَئِكَةِ، وَصَلاَةُ المَلاَئِكَةِ: الدُّعَاءُ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يُصَلُّونَ﴾ [الأحزاب: ٥٦]: يُبَرِّكُونَ. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ [الأحزاب: ٦٠]: لَنُسَلِّطَنَّكَ.

{٤٧٩٧} حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ، عَنِ الحَكَمِ، عَنِ ابن أَبِي لَيْلَىٰ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ﷺ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَّا السَّلاَمُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ الصَّلاَةُ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

{٤٧٩٨} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي ابن الهَادِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، هٰذَا التَّسْلِيمُ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ». قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ اللَّيْثِ «عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ».

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ، حَدَّثَنَا ابن أَبِي حَازِمٍ وَالدَّرَاوَرْدِيُّ، عَنْ يَزِيدَ وَقَالَ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ».

الشَّرْح

هذه الترجمة على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] فهذه الآية فيها: الأمر بالصلاة والسلام على النبي ﷺ، وفيها: فضل نبينا ﷺ حيث إن الله وملائكته يصلون

عليه، وأمر الله المؤمنين أن يصلوا ويسلموا عليه، والأصل في الأمر الوجوب، أي: أنه واجب، ولكن قيل: إن الصلاة على النبي ﷺ تجب في العمر مرة والباقي مستحب، ولكن هذا القول فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «**البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي**»[(١)] وظاهره: أنه يجب الصلاة عليه كلما ذكر اسمه ﷺ، وقيل: إنه يصلى عليه في كل صلاة، وأنه ركن من أركان الصلاة في التشهد الأخير كما هو مذهب الحنابلة[(٢)] وجماعة، وقيل: إن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير واجب وليس بركن.

والصلاة أصح ما قيل فيها: ما رواه أبو العالية هنا، وهو قوله: «**صَلاَةُ اللهِ ﷻ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلاَئِكَةِ**»، وفي رواية: «**ثناؤه عليه في الملأ الأعلى**» فصلاة الله: ثناؤه على عبده، وقيل: المراد الرحمة، وقيل: إذا أطلقت الصلاة دخل فيها الثناء والرحمة، وإذا اجتمعا خرجت الرحمة، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البَقَرَة: ١٥٧] وأما صلاة الملائكة فهي: الدعاء، ﴿يُصَلُّونَ﴾ [الأحزَاب: ٥٦] يعني: يدعون.

○ قوله: «**وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يَصِلُونَ﴾: يُبَرِّكُونَ**»، يعني: يدعون بالبركة.

قوله تعالى: «﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ﴾ [الأحزَاب: ٦٠]»، يعني: «**لَنُسَلِّطَنَّكَ**» عليهم.

{٤٧٩٧} قوله: «**قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَّا السَّلاَمُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ**»، يعني: عرفوه من التشهد، وهو قوله: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»[(٣)].

○ قوله: «**فَكَيْفَ الصَّلاَةُ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**» هذا نوع من أنواع الصلاة عليه ﷺ، وفي هذا النوع: الجمع بين محمد وآل محمد في الصلاة، والجمع بين محمد وآل محمد في التبريك، والصلاة والتبريك على آل إبراهيم فقط.

---

(١) أحمد (١/ ٢٠١)، والترمذي (٣٥٤٦).
(٢) انظر: «كشاف القناع» (١/ ٣٨٨).
(٣) أحمد (١/ ٣٧٦)، والبخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

{٤٧٩٨} قوله: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، هٰذا التَّسْلِيمُ» يعني: عرفناه.

○ قوله: «فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ قَالَ: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ» هذا نوع آخر من أنواع الصلاة عليه ﷺ.

○ قوله: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ» ذكر الصلاة على آل إبراهيم فقط.

○ قوله: «وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ» التبريك هنا على محمد وعلى آل محمد وأما في إبراهيم فالتبريك على آل إبراهيم فقط.

○ قوله: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ» هذا نوع آخر، فالصلاة على النبي ﷺ وردت بألفاظ متعددة في بعضها الجمع بين محمد وآل محمد دون الجمع بين إبراهيم وآل إبراهيم، وأكمل ما جاء في الصلاة على النبي ﷺ: ما رواه البخاري في «أحاديث الأنبياء» وهو: الجمع بين محمد وآل محمد في الصلاة والتبريك والجمع بين إبراهيم وآل إبراهيم في الصلاة والتبريك حيث قال: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(١).

وقد خفي هذا على شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) - مع حفظه العظيم وإمامته، وكذلك ابن القيم(٣) - فقالا: لم يرد الجمع بين محمد وآل محمد وإبراهيم وآل إبراهيم في الصلاة والتبريك، فكل أحد لا بد أن يخفى عليه شيء من السنة، وقد جمع العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الفصل الوارد في الصلاة على النبي ﷺ في كتاب خاص سماه: «جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام» جمع فيه روايات متعددة في الصلاة على النبي ﷺ والتبريك والصلاة على إبراهيم عليه

---

(١) البخاري (٣٣٧٠).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٥٦).
(٣) انظر: «جلاء الأفهام» (١/ ٢٩٢).

الصلاة والسلام، والتبريك وهو كتاب قيم.

واستشكل بعضهم في الصلاة قوله: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**»[(١)] أنه طلب أو سأل الرب ﷻ أن يصلي على محمد وعلى آل محمد مثل الصلاة على إبراهيم وآل إبراهيم، مع أن نبينا محمدًا أفضل، وأجيب بأجوبة منها: أن إبراهيم في سلالته أنبياء ومحمد ليس في سلالته أنبياء، بل هو آخر الأنبياء، فإذا طلب الصلاة على آل محمد مثل الصلاة على آل إبراهيم - وهم فيهم الأنبياء - تبين فضل نبينا ﷺ، وقيل: إن هذا قبل أن يعلم الله نبيه أنه أفضل من إبراهيم، وقيل غير ذلك.

وفي رواية أبي صالح عن الليث قال: «**عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ**» في التبريك لقوله: «**كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ**»، والحديث الذي قبله: «**كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**» وهذا نوع ثابت أيضًا.

(١) أحمد (٤/ ٢٤٤)، والبخاري (٣٣٧٠).

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾
إلى قوله: ﴿وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]

{٤٧٩٩} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الحَسَنِ وَمُحَمَّدٍ وَخِلَاسٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا، وَذَلِكَ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩]».

الشَّرح

{٤٧٩٩} قوله ﷺ: «إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا» اختصر المؤلف الحديث كعادته؛ واقتصر على محل الشاهد، وتمامه: أن موسى ﷺ وضع ثوبه على حجر ليغتسل، ففر الحجر بثوبه، وكانت بنو إسرائيل رموه بأنه آدر - يعني: كبير الخصيتين - لأن بني إسرائيل كانوا يغتسلون وهم عراة، وموسى كان حييًّا يغتسل وحده ويستتر، فاتهموه، وقالوا: لا يتستر موسى هذا التستر إلا لأن فيه عيبًا، ولولا أن فيه عيبًا ما تستر وتعرى مثلنا، والله تعالى أراد أن يبرئه، فلما أراد أن يغتسل يومًا خلع ثوبه ورماه على حجر وجعل يغتسل، ففر الحجر بثوبه - وهذا فيه قدرة الله العظيمة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] فكل شيء بيده، فأمر الله الحجر ففر بثوبه، كما أن عصا موسى إذا وضعها صارت حية، وإذا أخذها بيده صارت عصا، والله على كل شيء قدير، لا يستعصي عليه شيء وتنقاد له جميع الأشياء - فلما فر الحجر بثوبه جعل يتبعه ويقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى مر على بني إسرائيل فرأوه، فقالوا: والله ما رأينا أحسن جسمًا منه، وليس به عيب، فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩] فلما

رأوه سليمًا بريئًا مما عابوه نزل الحجر بثوبه، وصار موسى يعامل الحجر معاملة العاقل، وجعل يضربه بالعصا حتى أثر العصا في الحجر وإن بالحجر لندبًا - مرتين أو ثلاثة - من ضرب موسى[1].

(١) أحمد (٢/ ٥١٤)، والبخاري (٣٤٠٤)، (٣٣٩).

٣٤- ومن سورة سَبَأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُقَالُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُسَابِقِينَ ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ بِفَائِتِينَ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُغَالِبِينَ ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ فَاتُوا ﴿لَا يُعۡجِزُونَ﴾ لَا يَفُوتُونَ ﴿يَسۡبِقُونَاۚ﴾ يُعْجِزُونَا قوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ بِفَائِتِينَ، وَمَعْنَىٰ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُغَالِبِينَ يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يُظْهِرَ عَجْزَ صَاحِبِهِ. مِعْشَارٌ. عُشْرٌ الأُكُلُ الثَّمَرُ ﴿بَٰعِدۡ﴾ وَبَعِّدْ وَاحِدٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾ لَا يَغِيبُ. العَرِمُ السُّدُّ مَاءٌ أَحْمَرُ أَرْسَلَهُ اللهُ فِي السُّدِّ فَشَقَّهُ وَهَدَمَهُ وَحَفَرَ الوَادِيَ، فَارْتَفَعَتَا عَنِ الجَنْبَيْنِ، وَغَابَ عَنْهُمَا المَاءُ فَيَبِسَتَا، وَلَمْ يَكُنِ المَاءُ الأَحْمَرُ مِنَ السُّدِّ، ولكن كَانَ عَذَابًا أَرْسَلَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ شَاءَ. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ: العَرِمُ المُسَنَّاةُ بِلَحْنِ أَهْلِ اليَمَنِ. وَقَالَ غَيْرُهُ العَرِمُ الوَادِي. السَّابِغَاتُ: الدُّرُوعُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُجَازَىٰ يُعَاقَبُ. ﴿أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ. ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ وَاحِدٌ وَاثْنَيْنِ. ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ الرَّدُّ مِنَ الآخِرَةِ إِلَى الدُّنْيَا. ﴿وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ مِنْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ زَهْرَةٍ. ﴿بِأَشۡيَاعِهِم﴾ بِأَمْثَالِهِمْ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾ كَالْجَوْبَةِ مِنَ الأَرْضِ. الخَمْطُ الأَرَاكُ. وَالأَثَلُ الطَّرْفَاءُ. العَرِمُ الشَّدِيدُ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ [سَبَإ: ٥]» يعني: «مُسَابِقِينَ» ومعاجزيّ: مسابقيّ.

ثم أتى المؤلف بتصريف الكلمة مثل: «﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾» بدون ألف بمعنى: «بِفَائِتِينَ»، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤﴾ [الأنعَام: ١٣٤].

○ قوله: «﴿سَبَقُوٓاْ﴾ [الأنفَال: ٥٩]» يعني: «فَاتُوا»، وقوله: ﴿لَا يُعۡجِزُونَ ٥٩﴾ [الأنفَال: ٥٩] يعني: «لَا يَفُوتُونَ»، ويتضح من ذلك: أنها تأتي بمعنى المعاجز: المسابق، وتأتي بمعنى المعجز: الفائت.

○ قوله: «﴿يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العَنكبوت: ٤]» يعني: «يُعْجِزُونَا».

○ قوله: «﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ [سَبَإ: ٥]» بمعنى: «مُغَالِبِينَ يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يُظْهِرَ عَجْزَ صَاحِبِهِ».

○ قوله: «﴿مِعْشَارَ﴾ [سَبَإ: ٤٥]» يعني: العشر.

○ قوله: «﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ [سَبَإ: ٣]» معناه: «لَا يَغِيبُ» عنه.

○ قوله: «﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [سَبَإ: ١٦]»: هو السد قال السُّدي: «مَاءٌ أَحْمَرُ أَرْسَلَهُ اللهُ فِي السُّدِّ فَشَقَّهُ وَهَدَمَهُ وَحَفَرَ الوَادِيَ، فَارْتَفَعَتَا عَنِ الجنتين»، وفي لفظ: «عن الجنبتين» «وَغَابَ عَنْهُمَا المَاءُ فَيَبِسَتَا، وَلَمْ يَكُنِ المَاءُ الأَحْمَرُ مِنَ السُّدِّ، ولكن كَانَ عَذَابًا أَرْسَلَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ شَاءَ».

قال في «القاموس»: «والسد: الجبل والحاجز - ويضم - أو بالضم: ما كان مخلوقا لله تعالى، وبالفتح: من فعلنا»[(١)] يعني يقال: سَد وسُد، والمقدم فيه: فتح السين.

○ قوله: «﴿ٱلْعَرِمِ﴾: الوَادِي».

○ قوله: «﴿وَهَلْ «يُجَازَى» إِلَّا «الكفورُ» ١٧﴾ [سَبَإ: ١٧]» «يُجَازَىٰ: يُعَاقَبُ».

وقيل: إن هذه الآية أرجأ آية في كتاب الله من جهة الحصر في الكفر، فمفهومه: أن غير الكفر بخلاف ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾ [طه: ٤٨] وقيل: أرجأ آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: ٥] وقيل: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] وقيل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] وقيل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: ٥٣] وقيل: آية الدين، وقيل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور: ٢٢] وهذه كلها أقوال ذكرها الشارح رحمه الله.

○ قوله: «﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ [سَبَإ: ٥٤]» يعني: «بِأَمْثَالِهِمْ».

(١) «القاموس المحيط» (١/ ٣٧٦) باب الدال، فصل السين.

○ قوله: «﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: كَالْجَوْبَةِ مِنَ الأَرْضِ» قال تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سَبَإ: ١٣] يعني: كأنها الجوبة أي: الحياض الواسعة.

○ قوله: «الأكل» من قوله ﷻ: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ [سَبَإ: ١٦] يعني: «الثمر».

○ قوله: «﴿بَٰعِدْ﴾ [سَبَإ: ١٩]» باعِدْ وبَعِّدْ معناهما واحد.

قوله ﷻ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سَبَإ: ١١] في قصة داود قال: «السَّابِغَاتُ: الدُّرُوعُ».

○ قوله: «﴿أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ [سَبَإ: ٤٦]» فسرها بطاعة الله.

○ قوله: «﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سَبَإ: ٤٦]» أي: «وَاحِدٌ وَاثْنَيْنِ».

○ قوله: «﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ [سَبَإ: ٥٢]» يعني: «الرَّدُّ مِنَ الآخِرَةِ إِلَى الدُّنْيَا».

○ قوله: «﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سَبَإ: ٥٤]» قال: «مِنْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ زَهْرَةٍ».

○ قوله: «الخَمْطُ: الأَرَاكُ. وَالأَثْلُ: الطَّرْفَاءُ» وذلك في قوله ﷻ: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ [سَبَإ: ١٦]، وفسر العرم بالشديد.

بَابُ قوله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ **الآية** [سبأ: ٢٣]

{٤٨٠٠} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرٌو، قَالَ: سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟! فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ».

الشَّرْح

هذه الترجمة فيها: بيان أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده، وأنه لا يستحق العبادة غيره.

قوله تعالى في هذه الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سَبَإ: ٢٣] فالضمير يعود إلى الملائكة يعني: زال الفزع من قلوبهم، وفي هذه الآية: بيان عظمة الرب ﷻ، وأنه مستحق للعبادة، وأن الملائكة لا يستحقون العبادة؛ لأنهم يصيبهم الفزع والخوف؛ ومن يصيبه الفزع والخوف لا يصلح للعبادة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُوا۟ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سَبَإ: ٢٣] فيه دليل على إثبات الكلام للرب ﷻ وإثبات القول، وإثبات اسمي: العلي والكبير وأنهما من أسماء الله، والعلي: مشتمل على صفة العلو، والكبير: مشتمل على صفة العظمة والكبر.

{٤٨٠٠} قوله: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا» يقال: خَضَعانًا وخُضْعانًا وجهان.

○ قوله: «لِقَوْلِهِ»، يعني: القول المسموع من كلام الله.

○ قوله: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ»؛ في لفظ: «**ينفذهم ذلك**»[1] يعني: ينفذ الملائكة الصوت.

○ قوله: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سَبَإ: ٢٣] يعني: إذا زال الفزع.

○ قوله: «﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ لِلَّذِي قَالَ: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سَبَإ: ٢٣]، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ»، يعني: الكلمة التي يتحدث بها الملائكة من كلام الله ﷻ، ومسترق السمع: هو الشيطان.

○ قوله: «هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ» الحرف مقابل البسط، وبدد بين الأصابع: فرق بينها، يعني: شد بعضها فوق بعض بدون تلاصق، فجعلها حرفًا واحدًا فوق واحد.

○ قوله: «فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ»، أي: فيسمع الأعلى الكلمة.

○ قوله: «ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ» حتى تصل إلى الشيطان الذي في الأرض.

○ قوله: «حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ»، والشهب خلفهم تحرقهم.

○ قوله: «فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ»، أي: مرة يحرق الشهاب الشيطان الذي في الأرض فيصله الحريق قبل أن يلقيها ويهلك، ومرة يلقيها في أذن الكاهن قبل أن يدركه الشهاب، يقرها كقر الدجاجة قر قر قر.

○ قوله: «فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»، أي: إذا وصلت إلى الكاهن كذب

(١) البخاري (٤٧٠١).

معها مائة كذبة وأخبر الناس بهذا الكذب، وفي هذا الكذب الكلمة التي سمعت؛ فيصدق الناس الكاهن في جميع الكذب من أجل واحدة، وهذا فيه دليل على قبول الناس للشر كيف لا يعتبرون بمائة ويعتبرون بواحدة؟!

- قوله: «أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟!»، يعني: فوقع.
- قوله: «فَيُصَدَّقُ» يعني: في جميع الكذب من أجل تلك الكلمة.
- قوله: «بِتِلْكَ الكَلِمَةِ التِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ»، يعني: إن الشياطين المسترقين للسمع يكون بعضهم فوق بعض من دون ملاصقة؛ لأن أرواحهم خفيفة والله تعالى أعطاهم القدرة على الطيران في الهواء والوقوف فيه، والجن والشياطين أقسام، منهم: من له القدرة على الصعود والطيران، ومنهم: من روحه صغيرة ضعيفة لا يقدر بها على الصعود واستراق السمع.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]

{٤٨٠١} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَازِمٍ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهْ». فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ قَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟». قَالُوا: بَلَىٰ. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].

الشَّرْح

هذه الآية فيها: أن النبي ﷺ قام بالإنذار لقومه؛ امتثالًا لأمر ربه، فقال ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سَبَإ: ٤٦]. فالنبي نذير وبشير كما أتى في آية أخرى ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعرَاف: ١٨٨]، فهو نذير لمن عصاه وبشير لمن أطاعه ﷺ، وهو البشير النذير والسراج المنير ﷺ.

{٤٨٠١} هذا الحديث فيه: أن النبي ﷺ لما نزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] «صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا»، يعني: الجبل المرتفع.

○ قوله: «فَقَالَ: يَا صَبَاحَاهْ»، ذلك على عادة العرب أنهم إذا حزب الواحد أمر يصعد على المكان المرتفع وينادي: يا صباحاه.

○ قوله: «فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ قَالُوا: مَا لَكَ؟» يعني: ما الذي تريد؟

○ قوله: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟. قَالُوا: بَلَىٰ» فما جربنا عليك كذبًا قبل ذلك.

○ قوله: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، يعني: أنذركم عذاب الله، وفي اللفظ الآخر أنه خص وعم ونادى قريشًا فقال: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا**»(١).

○ قوله: «فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟!» التب يعني: الخسارة، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المَسَد: ١]. وكان أبو لهب عمه، وهذا من المصائب العظيمة على الداعية؛ إذا كان من قرابته أو أهل بيته من يرد دعوته وينفر الناس عنه، فإنه يقف حجر عثرة في طريق الدعوة وقبول الناس لها.

---

(١) أحمد (٢/٣٩٨)، والبخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

٣٥- ومن سورة المَلاَئِكَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: القِطْمِيرُ: لِفَافَةُ النَّوَاةِ. ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ مُثَقَّلَةٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الحَرُورُ بِالنَّهَارِ مَعَ الشَّمْسِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: الحَرُورُ بِاللَّيْلِ، وَالسَّمُومُ بِالنَّهَارِ ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فَاطِر: ٢٧]: أَشَدُّ سَوَادٍ، الغِرْبِيبُ: الشَّدِيدُ السَّوَادِ.

الشَّرح

سورة الملائكة هي: سورة فاطر يقال لها: سورة الملائكة؛ لأن فيها ذكر الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فَاطِر: ١].

وتسمى: سورة فاطر؛ لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فالملائكة رسل الله ينفذون أمر الله الديني والكوني كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النّحل: ٢]. وهنا قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ يعني: لهم أجنحة، ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فَاطِر: ١].

ولم يجد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديثًا على شرطه؛ ولهذا اكتفى بتفسير الكلمات التي قد يشكل معناها كعادته.

○ قوله: «القِطْمِيرُ: لِفَافَةُ النَّوَاةِ» فالنواة التي في وسط التمرة عليها لفافة أو قشرة بيضاء، فهذه: القطمير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فَاطِر: ١٣]. فالمعبودون من دون الله لا يملكون ولا مثل اللفافة، فكيف يُعْبَدُون من دون الله وهم لا يملكون؟! فالمعبود لابد أن يكون مالكًا للنفع!

○ قوله: «وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فَاطِر: ٢٧] أَشَدُّ سَوَادٍ، الغِرْبِيبُ»، يعني: الجبال أنواع: منها بيض، ومنها حمر، ومنها سود شديدة السواد.

○ قوله: «﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: ٣٠]» ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قول مجاهد في تفسيرها فقال: «**وكان حسرةً عليهم استهزاؤهم بالرسل**».

○ قوله: «﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [يس: ٤٢]» قال: «**من الأنعام**»، وعن ابن عباس وغيره أن المراد من السفن، ومال إليه الحافظ ابن كثير، وأطال الشيخ السعدي في تقرير هذا مفصلًا.

○ قوله: «﴿فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس: ٥٥]» قال: «**معجبون**» وهذا جاء عن مجاهد، وجاء عن ابن عباس: فرحون.

٣٦- ومن سورة ﴿يسٓ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: شَدَّدْنَا. ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾: كَانَ حَسْرَةً عَلَيْهِمُ ٱسْتِهْزَاؤُهُمْ بِالرُّسُلِ. ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾: لَايَسْتُرُ ضَوْءُ أَحَدِهِمَا ضَوْءَ الآخَرِ، وَلَايَنْبَغِي لَهُمَا ذَلِكَ. ﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾: يَتَطَالَبَانِ حَثِيثَيْنِ. ﴿نَسْلَخُ﴾: نُخْرِجُ أَحَدَهُمَا مِنَ الآخَرِ، وَيَجْرِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: مِنَ الأَنْعَامِ. (فَكِهُونَ): مُعْجَبُونَ. ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: عِنْدَ الحِسَابِ. وَيُذْكَرُ عَنْ عِكْرِمَةَ ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: المُوقَرُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾: مَصَائِبُكُمْ. ﴿يَنسِلُونَ﴾: يَخْرُجُونَ. ﴿مَّرْقَدِنَا﴾: مَخْرَجِنَا. ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: حَفِظْنَاهُ. مَكَانَتُهُمْ وَمَكَانُهُمْ وَاحِدٌ.

الشَّرح

«وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾: مَصَائِبُكُمْ» والمرد: حظكم وما نالكم بسببكم، لا بسبب الناصحين والمرسلين.

○ قوله: «﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾» يعني: «مَصَائِبُكُمْ» وما أصابكم من سوء فبسبب ذنوبكم.

ويذكر عن عكرمة «المشحون»: الموقر أي: المملؤ.

○ قوله: «﴿يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: ٥١]» يعني: «يَخْرُجُونَ» أي: من قبورهم سراعاه إلى ربهم، ووردت هذه الكلمة في سورة الأنبياء ﴿يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾ [الأنبياء: ٩٦] أي: يخرج يأجوج ومأجوج سراعا من كل حدب أي: من كل مرتفع من الأرض.

بَابٌ قوله:

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس: ٣٨]

{٤٨٠٢} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحتَ العَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس: ٣٨]».

{٤٨٠٣} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨] قَالَ: «مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرْشِ».

الشَّرْح

{٤٨٠٢} في هذا الحديث قال النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» فيه: أنه يقال في حياته ﷺ: «الله ورسوله أعلم»، أما بعد مماته فيقال: الله أعلم؛ لأنه لا يعلم الغيب، لكن لو قيل: «الله ورسوله أعلم» في المسائل الشرعية فلا بأس.

○ قوله: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّىٰ تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ»، يعني: تسجد تحت العرش عند محاذاتها وسطه بعد الغروب كل ليلة، وليس في سجودها كل ليلة ما يعيق عن دورانها في سيرها، والله أعلم بكيفية السجود، فنحن لا نعلم كيفية السجود، ولا يخفى أن العرش محيط بالعالم، فكيف تسجد تحت العرش والعرش تحته العالم كله؟! لكن المعنى: أنها إذا حاذت وسطه سجدت على كيفية الله أعلم بها.

وجاء في الحديث الآخر: أنه في آخر الزمان تستأذن الشمس فلا يؤذن

لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من المغرب[(١)]، وهذا الشَّرَط من أشراط الساعة الكبار، وإذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس بالله، وحينئذٍ لا ينفع نفس إيمانها.

❖ ❖ ❖

{٤٨٠٣} في هذا الحديث لما سئل النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨]، فسر ذلك بقوله: «مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ العَرْشِ».

والشمس تشرق من المشرق وتغرب من المغرب، فهي تدور وليست ثابتة، وهذا واضح من نص القرآن.

---

(١) البخاري (٣٠٢٧).

٣٧- ومن سورة الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾: يُرْمَوْنَ ﴿وَاصِبٌ﴾: دَائِمٌ، لَازِبٌ: لَازِمٌ ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ يَعْنِي: الحَقَّ الكُفَّارُ تَقُولُهُ لِلشَّيْطَانِ ﴿غَوْلٌ﴾: وَجَعُ بَطْنٍ ﴿يُنزَفُونَ﴾: لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ (قَرِينٌ): شَيْطَانٌ ﴿يُهْرَعُونَ﴾: كَهَيْئَةِ الهَرْوَلَةِ ﴿يَزِفُّونَ﴾: النَّسَلَانُ فِي المَشْيِ ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: المَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَأُمَّهَاتُهُمْ بَنَاتُ سَرَوَاتِ الجِنِّ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: سَتُحْضَرُ لِلْحِسَابِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾: المَلَائِكَةُ ﴿صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾: سَوَاءِ الجَحِيمِ وَوَسَطِ الجَحِيمِ ﴿لَشَوْبًا﴾: يُخْلَطُ طَعَامُهُمْ وَيُسَاطُ بِالْحَمِيمِ ﴿مَّدْحُورًا﴾: مَطْرُودًا ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨﴾: يُذْكَرُ بِخَيْرٍ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: يَسْخَرُونَ ﴿بَعْلًا﴾: رَبًّا. ﴿الْأَسْبَابَ﴾: السَّمَاءُ.

الشَّرح

○ قوله: «﴿تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝٢٨﴾ [الصَّافات: ٢٨]» يعني: يقول الجن الكفار للشياطين: إنكم تضلوننا عن الحق.

○ قوله: «﴿يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ [الصَّافات: ٧٠]» يعني: «كَهَيْئَةِ الهَرْوَلَةِ».

○ قوله: «﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصَّافات: ٤٩]» هو: «اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ».

○ قوله: «﴿يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ [الصَّافات: ١٤]» يعني: «يَسْخَرُونَ».

وفي غير رواية أبي ذر قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ [سَبَإ: ٥٣]: «من كل مكان»، وقوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ [الصَّافات: ٨]: «يرمون».

○ وقوله: «﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصَّافات: ٩]»: «هو الدائم».

○ وقوله: «﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصَّافات: ١١]»، يعني: «لَازِمٌ».

○ وقوله: «﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصَّافات: ٤٧]»، يعني: خمر الجنة ليس فيها غول وهو وجع البطن.

○ وقوله: «﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصَّافات: ٤٧]»، يعني: «لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ» بخلاف خمر الدنيا فإن فيه وجع البطن وذهاب العقول.

○ وقوله: «﴿قَرِينٌ ۝٥١﴾ [الصَّافات: ٥١]» هو: «شَيْطَانٌ».

○ وقوله: «﴿يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾ [الصَّافات: ٩٤]» يعني: «النَّسَلَانُ فِي المَشْيِ».

○ وقوله: «﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصَّافات: ١٥٨]»، يعني: «قال قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: المَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَأُمَّهَاتُهُمْ» أمهات الملائكة «بَنَاتُ سَرَوَاتِ الجِنِّ».

○ وقوله: «﴿صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصَّافات: ٢٣]»، فسره بأنه: «وَسَطِ الجَحِيمِ».

○ وقوله: «﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾ [الصَّافات: ٦٧]»، يعني: «يُخْلَطُ طَعَامُهُمْ وَيُسَاطُ بِالْحَمِيمِ»، والعياذ بالله.

○ وقوله: «﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨﴾ [الصَّافات: ٧٨]»، يعني: «يُذْكَرُ بِخَيْرٍ».

○ وقوله: «﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ [الصَّافات: ١٢٥]»، يعني: «أتدعون هذا البعل ربًّا».

بَابُ قوله:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾ [الصافات: ١٣٩]

{٤٨٠٤} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنِ ابن مَتَّىٰ».

{٤٨٠٥} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ هِلاَلِ بْنِ عَلِيٍّ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَىٰ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ فَقَدْ كَذَبَ».

الشَّرح

{٤٨٠٤} هذا الحديث فيه: أن يونس عليه السلام من المرسلين، وهو نبي كريم ورسول أرسله الله إلى أمة عظيمة فآمن به مائة ألف أو يزيدون.

○ قوله: «مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنِ ابن مَتَّىٰ» فيه: أنه لا يجوز ولا ينبغي لإنسان أن يقول: أنا خير من يونس بن متى.

❖ ❖ ❖

{٤٨٠٥} قوله: «مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ فَقَدْ كَذَبَ»، لأنه نبي كريم؛ فقد يتوهم بعض الناس من كون يونس عليه السلام غضب من قومه وذهب وركب البحر وابتلعه الحوت أن هذا نقص في حقه، وأنه خير من يونس بن متى، فمن قال ذلك فهو كاذب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ۝١٤٨﴾ [الصَّافات: ١٣٩-١٤٨].

٣٨- ومن سُورَة ص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَابٌ

{٤٨٠٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ العَوَّامِ قَالَ سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنِ السَّجْدَةِ فِي ص قَالَ سُئِلَ ابن عَبَّاسٍ فَقَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وَكَانَ ابن عَبَّاسٍ يَسْجُدُ فِيهَا.

{٤٨٠٧} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ الطَّنَافِسِيُّ، عَنِ العَوَّامِ قَالَ سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ سَجْدَةٍ ص فَقَالَ سَأَلْتُ ابن عَبَّاسٍ مِنْ أَيْنَ سَجَدْتَ؟ فَقَالَ: أَوَ مَا تَقْرَأُ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ، فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

﴿عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]: عَجِيبٌ. القِطُّ: الصَّحِيفَةُ، هُوَ هَا هُنَا صَحِيفَةُ الحَسَنَاتِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (فِي عِزَّةٍ) [ص: ٢]: مُعَازِّينَ. ﴿ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [ص: ٧]: مِلَّةُ قُرَيْشٍ. الاخْتِلَاقُ: الكَذِبُ. ﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ١٠]: طُرُقُ السَّمَاءِ فِي أَبْوَابِهَا ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ [ص: ١١]: يَعْنِي قُرَيْشًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ [ص: ١٣]: القُرُونُ المَاضِيَةُ. ﴿فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥]: رُجُوعٍ. ﴿قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]: عَذَابَنَا ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [ص: ٦٣]: أَحَطْنَا بِهِمْ ﴿أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢]: أَمْثَالٌ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْأَيْدِۖ﴾ [ص: ١٧]: القُوَّةُ فِي العِبَادَةِ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [ص: ٤٥]: البَصَرُ فِي أَمْرِ اللهِ، ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢]: مِنْ ذِكْرٍ. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾ [ص: ٣٣]: يَمْسَحُ أَعْرَافَ الخَيْلِ وَعَرَاقِيبَهَا. ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨]: الوَثَاقِ.

الشَّرح

{٤٨٠٦}، {٤٨٠٧} هذان الحديثان في سجدة ﴿صٓ﴾ وهي قوله تعالى:

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢٤]، فذهب بعض الفقهاء إلى أنه يسجد في ﴿صٓ﴾ خارج الصلاة ولا يسجد في الصلاة؛ لأنها سجدة شكر؛ حتى إن بعضهم قال: لو سجد داخل الصلاة لم تصح صلاته، والصواب الذي عليه المحققون: أنها سجدة داخل الصلاة وخارجها؛ لأن النبي ﷺ سجدها فنحن نسجدها، وقد سبق في أبواب سجدات القرآن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ليس ﴿صٓ﴾ من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»[(١)]. فلما سجدها ﷺ دل على أنها سجدة داخل الصلاة وخارجها.

○ قوله: «**سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾** [الأنعام: ٩٠] **وَكَانَ ابن عَبَّاسٍ يَسْجُدُ فِيهَا**» فلما سئل مجاهد عن السجدة التي في ﴿صٓ﴾ أجاب بما أجاب به ابن عباس لما سئل عنها.

وأما قول ابن عباس: «ليست ﴿صٓ﴾ من عزائم السجود» يعني: ليست من السجدات المؤكدة، فهذا اجتهاد منه.

○ قوله: «**أَوَ مَا تَقْرَأُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾** [الأنعام: ٨٤] **﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾** [الأنعام: ٩٠]. **فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ، فسجدها داود عليه السلام فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ**» وهذا صريح في أن الرسول ﷺ سجدها، وهذا فيه الرد على من قال: إنها ليست سجدة، ومن قال: إنها لا تكون داخل الصلاة، أو قال: إنها تبطل الصلاة؛ فهذا كلام باطل.

○ قوله: «**﴿عُجَابٌ ۝٥﴾** [ص: ٥]»، أي: «**عَجِيبٌ**».

○ قوله: «**القِطُّ: الصَّحِيفَةُ، هُوَ هَا هُنَا صَحِيفَةُ الحَسَنَاتِ**»؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]، كذا فسرها هنا، وأتى بها مرة أخرى فقال بعد ذلك: «**﴿قِطَّنَا﴾: عَذَابَنَا**» يعني: عجل لنا نصيبنا من العذاب وما وعدتنا به قبل يوم القيامة.

○ قوله: «**﴿عِزَّةٍ﴾** [ص: ٢]» قال مجاهد: «**مُعَازِّينَ**».

---

(١) البخاري (١٠٦٩).

○ قوله: «﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [ص: ٧]: مِلَّةُ قُرَيْشٍ» وهي: الوثنية، والآخرة بمعنى: الأخرى.

○ قوله: «الاِخْتِلَاقُ: الكَذِبُ»، يعني في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧].

○ قوله: «﴿فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠﴾ [ص: ١٠]» أي: «طُرُقُ السَّمَاءِ فِي أَبْوَابِهَا».

○ قوله: «﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١﴾ [ص: ١١]» يعني: قريشًا، أي: مهزومون.

○ قوله: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣﴾ [ص: ١٣]»، يعني: «القُرُونُ المَاضِيَةُ».

○ قوله: «﴿فَوَاقٖ ۝١٥﴾ [ص: ١٥]»، يعني: «رُجُوعٍ».

○ قوله: «﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ [ص: ٦٣]»، يعني: «أَحَطْنَا بِهِمْ».

○ قوله: «﴿أَتۡرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص: ٥٢]»، يعني: «أَمْثَالٌ».

○ قوله: «﴿ٱلۡأَيۡدِ﴾ [ص: ١٧]» قال ابن عباس: «القُوَّةُ فِي العِبَادَةِ».

وجاء في غير رواية أبي ذر قوله: «﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢]» أي: «مِنْ ذِكْرٍ».

○ قوله: «﴿فَطَفِقَ﴾» يعني: سليمان، وقوله: ﴿مَسۡحَۢا﴾ [ص: ٣٣] يعني: «يَمْسَحُ أَعْرَافَ الخَيْلِ وَعَرَاقِيبَهَا».

○ وقوله: «﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾»، يعني: «الخيل» ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٣﴾ [ص: ٣٣].

وفي معنى مسح السوق والأعناق قولان:

القول الأول: - وهو الأظهر - أن المراد: يذبحها ويضرب أعناقها وسوقها بالسيف؛ غضبًا وغيرة لله؛ حيث فوتت عليه الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب، وكونه ضرب سوقها مع أن ذلك فيه تعذيب للحيوان، فلعل هذا جائز في شريعته التوراة، فداود وسليمان ممن يعملون بشريعة التوراة.

القول الثاني: أن المراد: يمسح ناصية الخيل وهو الشعر الذي على الرقبة

ويمسح ساقها تعجبًا واستنكارًا من تفويتها إياه الصلاة، ولكن المعنى الأول أظهر؛ ولأن مسح السوق لا وجه له ولا يمسح في العادة.

- وقوله: «﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص: ٣٨]» الأصفاد: «**الوَثَاقِ**».
- قوله: «﴿وَٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٤٥﴾ [ص: ٤٥]» يعني: «**البصر في أمر الله**».

بَابُ قوله:
﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

[ص: ٣٥]

{٤٨٠٨} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ جعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَايَنْبَغِي لأَحدٍ مِنْ بَعْدِي». قَالَ رَوْحٌ: فَرَدَّهُ خاسِئًا.

الشَّرْح

ترجم المؤلف هذا الباب على قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥]. فسليمان سأل ربه أن يهب له ملكًا خاصًّا به لا يكون لأحد من بعده، فاستجاب الله له حيث قال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٦]. فسخر الله لهذا النبي الريح تجري بأمره وتحمله إلى المكان الذي يريد من ملكه، وسخر له الشياطين فمنهم بناء ومنهم غواص ومنهم المقرنون في الأصفاد - أي: موثوقون بالأغلال - ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سَبَإ: ١٣]، أي: يصنعون له ما يريد ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سَبَإ: ١٣]، أي: يجعلون ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾: جمع محراب، وهو مكان العبادة، ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: جمع تمثال، وهو ما يصور من حجر أو خشب أو طين أو غيره، وكان هذا جائزًا في شريعة سليمان؛ ﴿وَجِفَانٍ﴾: جمع جفنة وهي ما يؤكل فيها الطعام، مثل: القدر الكبيرة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: كالحياض، وبعضهم مصفد مغلول مسخر له، وبعضهم يغوص في البحار يستخرج له ما يريد، وكل هذا ملك خاص بسليمان.

{٤٨٠٨} في هذا الحديث قصة حدثت للنبي ﷺ مع عفريت من الجن.

○ قوله ﷺ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا» هذه اللفظة شك من الراوي.

○ قوله: «لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ» فيه: شدة عداوة الشيطان للإنسان، وفي رواية: «**إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي**»[(١)] فإذا كان يفعل هذا مع الرسول ﷺ فكيف بغيره؟!.

قوله ﷺ: «فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ»، وفي اللفظ الآخر: «**فخنقته حتى وجدت برد لسانه على كفي**»[(٢)].

○ قوله: «وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ»، يعني: عمودٍ.

○ قوله: «حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ»، وفي اللفظ الآخر: «**يتلاعب به صبيان المدينة**»[(٣)].

○ قوله ﷺ: «فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَايَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي»؛ وذلك لأن سليمان عليه السلام سخرت له الشياطين، فمنهم البناء والغواص، ومنهم المقرنون في الأصفاد، وكذلك بساط الريح؛ فهذا الملك خاص بسليمان عليه السلام؛ لذلك لما أراد النبي ﷺ أن يربط العفريت بسارية من سواري المسجد خشي النبي ﷺ - يعني: توهم - أن يكون هذا نوع مشاركة لسليمان في ملكه؛ لأن هذا تسخير للشياطين، ولذلك أطلقه النبي ﷺ، وفي هذا تأدب منه ﷺ مع أخيه سليمان عليه السلام واحترام لما اختص به.

○ قوله: «فَرَدَّهُ خَاسِئًا»؛ هذا في رواية روح كما ذكر المؤلف.

(١) مسلم (٥٤٢).
(٢) أحمد (١/ ٤١٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦/ ١١٤)، والدارقطني في «السنن» (١/ ٣٦٥).
(٣) أحمد (٣/ ٨٢).

بَابٌ قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]

{٤٨٠٩} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ اللهُ ﷻ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦] وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ الدُّخَانِ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا قُرَيْشًا إِلَى الإِسْلَامِ فَأَبْطَئُوا عَلَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَكَلُوا المَيْتَةَ وَالْجُلُودَ، حَتَّىٰ جَعَلَ الرَّجُلُ يَرَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَانًا مِنَ الجُوعِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠، ١١] قَالَ: فَدَعَوْا ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٢- ١٥] أَفَيُكْشَفُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: فَكُشِفَ، ثُمَّ عَادُوا فِي كُفْرِهِمْ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٦].

الشَّرْح

{٤٨٠٩} هذا الحديث على هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [صٓ: ٨٦].

والحديث لعبد الله بن مسعود، وقد سبق أن كرر المؤلف هذا الحديث، وسبب هذا الحديث أن رجلًا من كندة كان يحدث ويقص ويعظ الناس ويقول: إن هناك دخانًا سيأتي في آخر الزمان يصيب المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل في أنف الكافر وسمعه وبصره، فسأل مسروق عبد الله بن مسعود وقال: إن رجلًا يحدث الناس ويقول كذا وكذا، فغضب عبد الله بن مسعود ثم خطب.

○ قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ اللهُ ﷻ لِنَبِيِّهِ ﷺ:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]» فظن عبد الله بن مسعود أن هذا تكلف من هذا الرجل الذي يقول: سيأتي دخان وكذا وكذا، وابن مسعود يقول: ليس هناك إلا دخان واحد وهو الذي سبق.

وقول ابن مسعود: «وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ» سماه علمًا، وهذا حق؛ فإن العلم بالنسبة إلي الإنسان نوعان؛ موجود ومفقود، فإذا سئل عن الموجود أجاب بما يعلمه، وإذا سئل عن المفقود الذي لا يعلمه قال: لا أدري، أو قال: لا أعلم، فلا أدري نصف العلم، فنصف تعلمه ونصف لا تعلمه، والذي لا تعلمه يقابل الذي تعلمه؛ فيكون (لا أعلم) نصف العلم.

وقد كثرت الجرأة على الفتوى بغير علم في هذا الزمن! كل يفتي، فصار بعض الناس يفتي في القنوات الفضائية، وبعض الناس يفتي في الصحف، وبعض الناس يفتي في المجلات، وبعض الناس يفتي في المجالس، وهذه جرأة! والواجب على الإنسان الورع ولا يتكلم إلا بما يعلم، فهذا من العلم، بل هو نصف العلم.

○ قوله: «وَسَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ الدُّخَانِ» يعني: الذي تكلم فيه هذا الواعظ.

○ قوله: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا قُرَيْشًا إِلَى الإِسْلَامِ فَأَبْطَئُوا عَلَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ»، يعني: جدب.

○ قوله: «فَحَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَكَلُوا المَيْتَةَ وَالْجُلُودَ، حَتَّىٰ جَعَلَ الرَّجُلُ يَرىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ دُخَانًا مِنَ الجُوعِ» هذا هو الدخان الذي أصاب قريشًا، وليس هناك دخان غيره، هكذا فهم ابن مسعود، واستدل بقول الله ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠-١١] «قَالَ: فَدَعَوْا ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: ١٢]» قال الله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٣-١٥].

○ قوله: «أَفَيُكْشَفُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» استدل ابن مسعود به على قوله:

إن الدخان قد ذهب، ولو كان دخان يوم القيامة فلن يكشف.

○ قوله: «**فَكُشِفَ، ثُمَّ عَادُوا فِي كُفْرِهِمْ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥]»، حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وهذا الدخان الذي ذكره ابن مسعود حق، فقد وقع على قريش ثم كشف، لكن هناك دخان آخر سيقع في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة، ويكشف أيضًا، وقد خفي على ابن مسعود هذا مع علمه وفضله.

وفيه: أنه قد يخفى على الأكابر بعض العلم ويعلمه من دونهم.

٣٩- ومن سورة الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾ يُجَرُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي النَّارِ، وَهْوَ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا﴾ [فصلت: ٤٠]. ﴿ذِي عِوَجٍ﴾ لَبْسٍ. ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ مَثَلٌ لآلِهَتِهِم البَاطِلِ، وَالإِلَهِ الحَقِّ. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ بِالأَوْثَانِ خَوَّلْنَا أَعْطَيْنَا. ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ القُرْآنُ. ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ المُؤْمِنُ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ هٰذا الذِي أَعْطَيْتَنِي عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ الشَّكِسُ العَسِرُ لَايَرْضَىٰ بِالإِنْصَافِ وَرَجُلًا سِلْمًا وَيُقَالُ سَالِمًا صَالِحًا. ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نَفَرَتْ ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ مِنَ الفَوْزِ. ﴿حَآفِّينَ﴾ أَطَافُوا بِهِ مُطِيفِينَ بِحِفَافَيْهِ بِجَوَانِبِهِ ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ لَيْسَ مِنَ الاشْتِبَاهِ ولكن يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي التَّصْدِيقِ.

الشَّرْح

○ قوله: «سورة الزُّمَرِ»: بفتح الميم مع ضم الزاي، هذا لفظ الآية: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر: ٧١]، وزمر: جمع زمرة، وهي: الجماعة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: ٢٤]، فسره مجاهد بأنه «يُجَرُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي النَّارِ»، وهو قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فُصّلت: ٤٠].

○ قوله: «﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٩]»، فسره المؤلف فقال: «صَالِحًا»، وهذا فيه: بيان الشرك والتوحيد، وهو: مثل ضربه الله لآلهتهم الباطلة والإله الحق، فمثل المشرك الذي يعبد مع الله غيره كالعبد الذي يملكه عدد من الأسياد متشاكسون، فما يدري يرضي أيهم! إن أرضى هذا أغضب ذاك وإن أرضى ذاك أغضب هذا، ومثل الموحد: كالعبد الذي له سيد واحد، فهو يعرف ما يرضي سيده، وكذلك سيده يعتني به، فهو مرتاح من تشاحن الشركاء، وهذا معنى قوله:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ يعني: صالحًا لشخص واحد، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٩].

○ قوله: «﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزُّمَر: ٢٩]»، فسره بقوله: «**الرجل الشَّكِسُ العَسِرُ لَا يَرْضَىٰ بِالإِنْصَافِ**».

○ قوله: «﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾» يعني: في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمَر: ٢٣] فسره المؤلف بقوله: «**لَيْسَ مِنَ الاشْتِبَاهِ ولكن يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي التَّصْدِيقِ**»، وذلك لأن المتشابه له معنيان:

أحدهما: من التشابه، وهو: التوافق وتصديق بعضه بعضًا، كما في هذه الآية، يعني: متوافقًا يشبه بعضه بعضًا في التصديق.

الثاني: متشابهًا من الاشتباه وهو: خفاء المعنى وعدم الإيضاح، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عِمرَان: ٧]. وهذا المتشابه - الذي هو: خفاء المعنى - نوعان أيضًا:

أحدهما: عام وهو المتشابه على كل أحد، وهذا يرد إلى المحكم فيتضح معناه، مثال ذلك: إذا اشتبه على النصراني تعدد الآلهة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجر: ٩] فقال: نحن للجماعة نقول: هذا يرد إلى المحكم وهو قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٣].

الثاني: متشابه إضافي نسبي، يعني: على بعض الناس دون بعض، فهذا يكشف بالبحث والسؤال.

○ قوله: «﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٨]»، يعني: غير ذي لبس.

○ قوله: «﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾ [الزُّمَر: ٤٩]»، يعني: «**أعطيناه**».

○ قوله: «﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمَر: ٢٩]»، قال: «**سَالِمًا صَالِحًا**»، فأعادها مرتين.

○ قوله: «﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ [الزُّمَر: ٤٥]»، يعني: «**نَفَرَتْ**».

❍ قوله: «﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزُّمَر: ٦١]»، يعني: «مِنَ الفَوْزِ».

❍ قوله: «﴿حَآفِّينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]»، يعني: «أَطَافُوا بِهِ مُطِيفِينَ بِحِفَافَيْهِ بِجَوَانِبِهِ».

زاد في بعض النسخ: «﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: القرآن، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزُّمَر: ٣٣]: المُؤْمِنُ يَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ هٰذا الذِي أَعْطَيْتَنِي عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ»، وجاء في تفسير آخر: أن الذي ﴿جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ هو الرسول ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أبو بكر رضي الله عنه.

❍ وقوله: «﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]»، يعني: «بِالأَوْثَانِ».

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ الآية [الزمر: ٥٣]

{٤٨١٠} حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ يَعْلَىٰ إِنَّ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ أَخْبَرَهُ عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً. فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨] وَنَزَلَ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

الشَّرْح

المؤلف ترجم على هذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣]، وهذه الآية فيها بشارة لكل مؤمن بأن الله تعالى يغفر الذنوب للتائب، وأجمع العلماء على أن هذه الآية نزلت في كل من تاب؛ لأن الله عمم وأطلق بخلاف آية النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، فهذه في غير التائبين؛ لأن الله خص وعلق، حيث خص الشرك بأنه لا يغفر، وعلق ما دونه بالمشيئة؛ فدل على أنه في غير التائبين، وأما في هذه الآية فإنه عمم وأطلق فدل على أنه في التائبين.

{٤٨١٠} قوله: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً. فَنَزَلَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ [الفُرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣]» أجمع العلماء على أن هذه الآية في التائبين.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما - في المشهور عنه - أن القاتل لا توبة له استدلالاً بآية النساء، وروي عنه أيضًا: أن القاتل له توبة، وهذا هو الصواب الموافق للنصوص ولما عليه عامة العلماء، فإن التوبة تكون من جميع الذنوب حتى الشرك. والله أعلم.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]

{٤٨١١} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

الشَّرْح

{٤٨١١} وهذا الحديث على هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، يعني: وما عظموا الله حق تعظيمه حتى عبدوا معه غيره.

وفيه إثبات اليمين لله ﷻ وإثبات القبض بما يليق بجلال الله وعظمته.

○ قوله: «عَنْ عَبِيدَةَ»، وعَبيدة هذا هو: عَبِيْدَة بن عمرو السَّلْمَاني - بفتح العين - وليس هو ابن عبد الله بن مسعود؛ لأن ابن عبد الله بن مسعود اسمه: أبو عُبيدة، بالكنية وبضم العين.

○ قوله: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ» يقال: حِبر وحَبر لغتان.

○ قوله: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]» وهذا الحديث فيه: إثبات الأصابع لله كما يليق بجلاله

وعظمته ولا تشابه أصابع المخلوقين، وأنها خمسة أصابع لربنا ﷻ، يضع السموات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فهي خمسة أصابع.

والإصبع فيه عشر لغات: بتثليث الهمزة فيقال: إِصبع وأَصبع وأُصبع، والباء كذلك مثلثة: أصبُع وأصبَع وأصبِع، فإذا ضربت ثلاثة في ثلاثة صار المجموع تسعة، والعاشرة أصبوع فصار المجموع عشر لغات.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال ابن التين: تكلف الخطابي في تأويل الأصبع وبالغ حتى جعل ضحكه تعجبًا وإنكارًا لما قال الحبر» فالبعض تأوله أنه ينكر الأصبع لله فيقول: ضحك الرسول ﷺ إنكارًا على الأعرابي، وهذا باطل، والصواب: أنه ضحك تصديقًا لقوله كما جاء صريحا من قول ابن مسعود: قاله: «فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ»، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال النووي: ظاهر السياق أنه ضحك تصديقًا له؛ بدليل قراءته للآية» اهـ.

بَابٌ قوله:

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ **الآية** [الزمر: ٦٧]

{٤٨١٢} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ مُسَافِرٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟».

الشَّرح

{٤٨١٢} هذا الحديث على هذه الآية: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزُّمَر: ٦٧]. وفيه: إثبات القبض لله، وفيه: إثبات اليمين لله، فهو سبحانه يطوي السموات بيمينه - على ما يليق بجلاله وعظمته -.

وفيه: إثبات اسم الملك وأنه من أسماء الله ﷻ.

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٨]

{٤٨١٣} حَدَّثَنِي الحَسَنُ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ خَلِيلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ، عَنْ زَكَرِيَّاءَ بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الآخِرَةِ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى مُتَعَلِّقٌ بِالْعَرْشِ فَلَاأَدْرِي أَكَذَلِكَ كَانَ أَمْ بَعْدَ النَّفْخَةِ؟».

{٤٨١٤} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا صَالِحٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ.

الشَّرح

{٤٨١٣}، {٤٨١٤} هذان الحديثان على هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨] فالآية فيها: أنهما نفختان، ويؤيد هذا حديث أبي هريرة الأول والثاني، والحديث الأول أصرح.

○ قوله ﷺ: «إِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الآخِرَةِ» فالنفخة الآخرة تقابل النفخة الأولى، والآخِر لا يأتي بالكسر إلا إذا كان يقابل الأول وبمعنى الثاني وليس هناك ثالث، أما إذا كان هناك ثالث ورابع فأكثر فيقال: الآخَر، والحديث يدل على ما دلت عليه الآية، أن النفخ نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث.

فقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، هذه نفخة الصعق والموت، وقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، هذه نفخة البعث.

وفيه: الرد على من زعم أن النفخات ثلاث أو أربع، وأما النفخة التي في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمل: ٨٧] فهذه أول ما ينفخ إسرافيل في آخر الدنيا فيفزع الناس فيصغي أحدهم فيميل بصفحة عنقه يمينًا أو شمالًا ويتسمع، فلا يزال الصوت يقوى ويقوى حتى يموت الناس، فإسرافيل ينفخ في الصور والناس مشغولون بدنياهم، وأول ما يبدأ إسرافيل في النفخ تكون النفخة غير قوية، حتى إن الرجل معه الفسيلة يريد أن يغرسها وإسرافيل ينفخ في الصور، فلا يستطيع غرسها حتى يقوى الصوت ويصعق، والرجل معه اللقمة فلا يرفعها إلى فيه حتى يقوى الصوت ويصعق، والرجلان يتبايعان الثوب والقماش فلا يستطيع أن يبايعه.

وقال بعض العلماء: إنها ثلاث نفخات: نفخة فزع، ونفخة صعق، ونفخة موت، وجاء هذا في حديث في سنده إسماعيل بن رافع وهو ضعيف، والصواب: أنهما نفختان كما دلت عليه آية الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزُّمَر: ٦٨].

قوله ﷺ: «**فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى مُتَعَلِّقٌ بِالْعَرْشِ فَلَاأَدْرِي أَكَذَلِكَ كَانَ أَمْ بَعْدَ النَّفْخَةِ؟**» هذه منقبة لموسى عليه السلام سواء صعق ثم أفاق قبل النبي ﷺ، أو أنه لم يصعق اكتفاء بصعقته التي حصلت له في الدنيا عند جبل الطور، وفي الحديث الآخر يقول النبي ﷺ: «**الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟**»(١) يعني: لا يدري النبي ﷺ أفاق موسى قبله أم أنه من الأصل لم يصعق اكتفاء بالصعقة التي حصلت له في دار الدنيا؟ وفي كلتا الحالتين فهذه منقبة لموسى، لكن المنقبة الخاصة لا تقضي على الفضائل العامة فنبينا ﷺ أفضل.

قوله ﷺ: «**بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» هكذا العدد بلا تمييز.

○ قوله: «**قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ**» يعني: ما عندي دليل.

---

(١) أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاري (٣٣٩٨)، ومسلم بنحوه (٢٣٧٣).

○ قوله: «قَالَوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ» يعني: ما أدري، ما عندي دليل.

○ قوله: «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ» والعجب - بفتح العين وإسكان الجيم - هو عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع.

وجاء في حديث أنه: «**بين النفختين أربعون سنة**»[(١)] لكنه ضعيف، لا يثبت.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ»، وفي رواية مسلم: «**ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا**»[(٢)] الحديث؛ وأفرد هذا القدر من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة بلفظ: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب**»[(٣)]، وله من طريق همام عن أبي هريرة قال: «**إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا فيه يركب يوم القيامة**» قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: «**عجب الذنب**»[(٤)]، وفي حديث أبي سعيد عند الحاكم وأبي يعلى قيل: يا رسول الله، ما عجب الذنب؟ قال: «**مثل حبة خردل**»[(٥)]، والعَجْب بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة، ويقال له: عجم بالميم أيضًا عوض الباء، وهو عظم لطيف في أصل الصلب وهو رأس العصعص وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع، وفي حديث أبي سعيد الخدري عند ابن أبي الدنيا وابن أبي داود، والحاكم مرفوعًا: «**إنه مثل حبة الخردل**»[(٦)]. قال ابن الجوزي: قال ابن عقيل: لله في هذا سر لا يعلمه إلا الله؛ لأن من يظهر الوجود من العدم لا يحتاج إلى شيء يبني عليه، ويحتمل أن يكون ذلك جعل علامة للملائكة على إحياء كل إنسان بجوهره، ولا يحصل العلم للملائكة بذلك إلا بإبقاء عظم كل شخص ليعلم أنه

---

(١) ابن أبي داود في «البعث» (ص٨٠).
(٢) أحمد (٢/ ٣١٥)، والبخاري (٤٩٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٩٥٥).
(٣) مسلم (٢٩٥٥).
(٤) مسلم (٢٩٥٥).
(٥) الحاكم (٤/ ٦٥١)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٣).
(٦) ابن أبي داود في «البعث» (ص٤٨)، والحاكم (٤/ ٦٥١).

إنما أراد بذلك إعادة الأرواح إلى تلك الأعيان التي هي جزء منها، ولولا إبقاء شيء منها لجوزت الملائكة أن الإعادة إلى أمثال الأجساد لا إلى نفس الأجساد، وقوله في الحديث: «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ»، يحتمل أن يريد به: يفنى، أي: تعدم أجزاؤه بالكلية، ويحتمل أن يراد به: يستحيل فتزول صورته المعهودة فيصير على صفة جسم التراب ثم يعاد إذا ركبت إلى ما عهد».

والقول الأول: - وهو: أنه يفنى وتعدم أجزاؤه بالكلية - قول باطل، والصواب القول الثاني، وهو أنه يستحيل فتزول صورته المعهودة فيصير إلى تراب ثم يعيده الله خلقًا جديدًا، والقول الأول هو قول الجهم وهو الذي قال: إن الإنسان يبلى ولا يعاد، والذي يعاد شخص آخر؛ وعلى ذلك: فيكون الله تعالى إذا أعاد الكافر أعاد شخصًا آخر فيكون ظالمًا - والعياذ بالله - ولما قال الجهم بن صفوان هذا الكلام فتح الباب لابن سينا - وهو من الملاحدة - فقال: ليس هناك بعث للأجساد، إنما البعث للأرواح. فأنكر البعث، وله رسالة تسمى «الرسالة الأضحوية» أنكر فيها البعث، ومن أنكر بعث الأجساد فهو كافر بإجماع المسلمين وبنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧].

ثم قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وزعم بعض الشراح أن المراد: أنه لا يبلى، أي: يطول بقاؤه لا أنه لا يفنى أصلًا، والحكمة فيه: أنه قاعدة بدء الإنسان وأسه الذي يبنى عليه فهو أصلب من الجميع كقاعدة الجدار، وإذا كان أصلب كان أدوم بقاءً، وهذا مردود؛ لأنه خلاف الظاهر بغير دليل، وقال العلماء: هذا عام يخص منه الأنبياء؛ لأن الأرض لا تأكل أجسادهم، وألحق ابن عبد البر بهم: الشهداء، والقرطبي: المؤذن المحتسب».

قول العلماء: هذا عام يخص منه الأنبياء؛ حق؛ لأن الأرض لا تأكل أجسادهم؛ لما ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ﷻ حرم على الأرض أجساد الأنبياء**»[(١)]، فالأنبياء أجسامهم طرية ما تأكلها الأرض، وأما الشهداء فوجد بعض الشهداء من يبقى جسده مدة على حاله، فيحتمل أنه يفنى بعد مدة،

(١) أحمد (٤/٨)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤).

وإلحاق ابن عبد البر بهم الشهداء، وإلحاق القرطبي المؤذن المحتسب وأن الأرض لا تأكل أجسادهم، ليس عليه دليل قوي نستند إليه.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال عياض: فتأويل الخبر: - وهو: «**كل ابن آدم يأكله التراب**» - أي: كل ابن آدم مما يأكله التراب وإن كان التراب لا يأكل أجسادًا كثيرة كالأنبياء. قوله: «**إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ**»، أخذ بظاهره الجمهور فقالوا: لا يبلى عجب الذنب ولا يأكله التراب. وخالف المزني فقال: «إلا» هنا بمعنى الواو، أي: وعجب الذنب أيضًا يبلى. وقد أثبت هذا المعنى الفراء والأخفش فقالوا: ترد «إلا» بمعنى الواو، ويرد ما انفرد به المزني التصريح بأن الأرض لا تأكله أبدًا كما ذكرته من رواية همام. وقوله في رواية الأعرج: «**منه خلق**»[١] يقتضي أنه: أول كل شيء يخلق من الآدمي، ولا يعارضه حديث سلمان: أن أول ما خلق من آدم: رأسه؛ لأنه يجمع بينهما، بأن هذا في حق آدم وذاك في حق بنيه، أو المراد بقول سلمان: نفخ الروح في آدم لا خلق جسده» وحيث إن حديث سلمان لم يصح ففيه انقطاع كما قال ابن العراقي في طرح التثريب[٢]، وعليه فلا معارض كما في صحيح مسلم.

(١) مسلم (٢٩٥٥).
(٢) «طرح التثريب» (٣/ ٣٠٩).

٤٠- ومن سورة المُؤْمِنُ ﴿حمٓ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: مَجَازُهَا مَجَازُ أَوَائِلِ السُّوَرِ. وَيُقَالُ: بَلْ هُوَ ٱسْمٌ لِقَوْلِ شُرَيْحِ ابْنِ أَبِي أَوْفَى العَبْسِيِّ:

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ ... فَهَلَّا تَلَاحَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

الطَّوْلُ التَّفَضُّلُ ﴿دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠]: خَاضِعِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾: الإِيمَانِ ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ يَعْنِي: الوَثَنَ ﴿يُسْجَرُونَ﴾: تُوقَدُ بِهِمِ النَّارُ. ﴿تَمْرَحُونَ﴾: تَبْطَرُونَ. وَكَانَ العَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ يُذَكِّرُ النَّارَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لِمَ تُقَنِّطُ النَّاسَ؟ قَالَ: وَأَنَا أَقْدِرُ أَنْ أُقَنِّطَ النَّاسَ والله ﷻ يَقُولُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وَيَقُولُ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: وَلَكِنَّكُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تُبَشَّرُوا بِالْجَنَّةِ عَلَىٰ مَسَاوِئِ أَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمُنْذِرًا بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ.

{٤٨١٥} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَوَىٰ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

الشرح

○ قوله: «سورة المُؤْمِنُ» ويطلق عليها أيضًا: سورة غافر؛ لقوله تعالى:

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [غَافر: ٣]، ويطلق عليها: سورة المؤمن لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ﴾ [غَافر: ٢٨].

○ قوله: «مَجَازُهَا مَجَازُ أَوَائِلِ السُّوَرِ»، المعنى: أن تأويل ﴿حمٓ ۝١﴾ [غَافر: ١] تأويل أوائل السور، وهذا الكلام لأبي عبيدة في «مجاز القرآن»، وهو يطلق المجاز ويريد به التأويل، وليس المراد بالمجاز الذي هو ضد الحقيقة، يعني مثلما أولت أوائل السور: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓرۚ﴾، ﴿طسٓمٓ ۝١﴾، ﴿حمٓ ۝١﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، ﴿نٓۚ﴾، ﴿قٓۚ﴾، ﴿صٓۚ﴾، فما أولت به الحروف المقطعة من سورة البقرة تؤول به ﴿حمٓ ۝١﴾ هنا.

والحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، وقال بعضهم: إن كل حرف يشير إلى اسم من أسماء الله.

○ قوله: «وَيُقَالُ» هذا قول آخر.

○ قوله: «هُوَ ٱسْمٌ»، يعني: لفظ ﴿حمٓ ۝١﴾ اسم من أسماء القرآن، واستدل هذا القائل بقول شريح بن أوفى العبسي:

«يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ   فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ»

ووجه الدلالة: أنه أعرب ﴿حمٓ ۝١﴾ إعراب الاسم، فنصب الميم من ﴿حمٓ ۝١﴾ الأولى على أنها مفعول ثانٍ، والثانية على أنها مفعول به، فدل على أنه أجراها مجرى الاسم. وعلى هذا فتكون ﴿حمٓ ۝١﴾ فيها قولان:

القول الأول: أن مجازها مجاز أوائل السور، أي: تؤول كما تؤول أوائل السور.

القول الثاني: أنها اسم، بدليل أنها أعربت إعراب الاسم.

○ قوله: «﴿ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غَافر: ٣]» يعني: «التَّفَضُّلُ».

○ قوله: «﴿دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غَافر: ٦٠]» يعني: «خَاضِعِينَ».

○ قوله: «وَكَانَ العَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ يُذَكِّرُ النَّارَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لِمَ تُقَنِّطُ النَّاسَ؟ قَالَ: وَأَنَا أَقْدِرُ أَنْ أُقَنِّطَ النَّاسَ والله ﷻ يَقُولُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ

لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣]، ويقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر: ٤٣]، وَلَكِنَّكُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تُبَشَّرُوا بِالْجَنَّةِ عَلَىٰ مَسَاوِئِ أَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمُنْذِرًا بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ» صدق العلاء رَحِمَهُ اللهُ؛ فإن الله بعث نبيه مبشرًا ونذيرًا، فلابد من الرجاء والخوف.

○ قوله: «الإِيمَانِ» الذي هو سبب النجاة «﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ [غافر: ٤٣]»، يعني: «الوَثَنَ» ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

○ قوله: «﴿يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٧٢]» يعني: «تُوقَدُ بِهِمِ النَّارُ».

○ قوله: «﴿تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥]» يعني: «تَبْطَرُونَ».

{٤٨١٥} قوله: «أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَوَىٰ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا» ولما أُسر سبعون من المشركين في بدر كان منهم هذا الخبيث عقبة بن أبي معيط الذي لوى عنق النبي ﷺ والنضر بن الحارث، فأمر النبي ﷺ بقتلهما صبرًا؛ لشدة عداوتهما وإيذائهما لرسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ما قال له شيئًا وما فعل له شيئًا من باب التأليف على الإسلام، والصبر والاحتساب في ذات الله.

○ قوله: «فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾ [غافر: ٢٨]» وهذا هو الشاهد للترجمة.

٤١- ومن سورة حم السَّجْدَةِ [فُصلت]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ طَاوُسٌ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا﴾ أَعْطِيَا. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أَعْطَيْنَا. وَقَالَ المِنْهَالُ: عَنْ سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي أَجِدُ فِي القُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ قَالَ: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧)﴾. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فَقَدْ كَتَمُوا فِي هٰذِهِ الآيَةِ، وَقَالَ ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إِلَىٰ قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إِلَىٰ ﴿طَائِعِينَ﴾ فَذَكَرَ فِي هٰذِهِ خَلْقَ الأَرْضِ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَقَالَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ عَزِيزًا حَكِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا، فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَىٰ. فَقَالَ ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي النَّفْخَةِ الأُولَىٰ ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الآخِرَةِ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، وَأَمَّا قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ﴾ فَإِنَّ الله يَغْفِرُ لأَهْلِ الإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ وَقَالَ المُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولُ: لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ. فَخَتَمَ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ الله لَايُكْتَمُ حَدِيثًا وَعِنْدَهُ ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآيَةَ، وَخَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ، فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَا الأَرْضَ، وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا المَاءَ وَالْمَرْعَىٰ، وَخَلَقَ الجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وَقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَجُعِلَتِ الأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ سَمَّىٰ نَفْسَهُ ذَلِكَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أي لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الله لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الذِي أَرَادَ، فَلَايَخْتَلِفْ عَلَيْكَ القُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللهِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ حَدَّثَنِي يُوسُفُ بْنُ عَدِيٍّ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ عَنِ المِنْهَالِ بهٰذَا.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَمْنُونٍ﴾ مَحْسُوبٍ. ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ أَرْزَاقَهَا. ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ مِمَّا أَمَرَ بِهِ. ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مَشَائِيمَ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ قَرَنَّاهُمْ بِهِمْ. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عِنْدَ المَوْتِ. ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ بِالنَّبَاتِ. ﴿وَرَبَتْ﴾ ٱرْتَفَعَتْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ حِينَ تَطْلُعُ. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي: بِعَمَلِي أَنَا مَحْقُوقٌ بِهٰذا. ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قَدَّرَهَا سَوَاءً. ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ دَلَلْنَاهُمْ عَلَى الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ وَكَقوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ وَالْهُدى الذِي هُوَ الإِرْشَادُ بِمَنْزِلَةِ أَصْعَدْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾. ﴿يُوزَعُونَ﴾ يُكَفُّونَ. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ قِشْرُ الكُفُرَّىٰ هِيَ الكُمُّ. ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ القَرِيبُ. ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ حَاصَ حَادَ. ﴿مِرْيَةٍ﴾ وَمُرْيَةٍ وَاحِدٌ أَي ٱمْتِرَاءٌ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ الوَعِيدُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الصَّبْرُ عِنْدَ الغَضَبِ وَالْعَفْوُ عِنْدَ الإِسَاءَةِ فَإِذَا فَعَلُوهُ عَصَمَهُمُ اللهُ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ.

الشَّرح

○ قوله: «سورة حم السَّجْدَةِ»، سميت السورة بهذا الاسم لأن فيها سجدة من بين الحواميم، وتسمى أيضًا سورة فصلت لقول الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فُصّلَت: ١-٣].

وذكر المؤلف تفسير الكلمات المشكلة، والجمع بين الآيات التي قد تشكل على بعض الناس.

○ قوله: وقال طاوس عن ابن عباس: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فُصّلَت: ١١]، يعني: أعطيا لأنفسكما الطاعة، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصّلَت: ١١] يعني: أعطينا الطاعة.

○ قوله: «قَالَ رَجُلٌ لابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي أَجِدُ فِي القُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ»، يعني: يشكل عليه معنى بعض الآيات فلا يدري ما الجمع بينها، منها قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصَّافات: ٢٧]، يعني: الظاهر أن بينهما تعارضًا، فالآية الأولى فيها نفي السؤال ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، والآية الثانية: فيها إثبات السؤال ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصَّافات: ٢٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعَام: ٢٣]، ففي الآية الأولى ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ﴾، وفي الآية الأخرى يكتمون وينكرون.

○ قوله: «فَقَالَ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي النَّفْخَةِ الأُولَىٰ ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» فذلك في النفخة الأولى وهي نفخة الصعق، ثم النفخة الثانية فيها تساؤل ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصَّافات: ٢٧] كذا جمع ابن عباس بينهما، وهذا الجمع بينهما لكون يوم القيامة له مشاهد:

المشهد الأول: عند نفخة الصعق فليس هناك تساؤل.

المشهد الثاني: بعد النفخة الثانية يقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

○ قوله: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعَام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٤٢] فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ لأَهْلِ الإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ» ممن كان يعبد الله حقًّا ويؤمن به دون أهل النفاق الذي يعبدون الله نفاقًا للمؤمنين وخشية أن يفتضح أمرهم.

○ قوله: «وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولُ: لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ»، فينكرون.

○ قوله: «فَخَتَمَ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا وَعِنْدَهُ ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية»، يعني: قوله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٤٢] فإذا غفر الله لأهل الإخلاص أنكر المشركون شركهم رجاء أن يغفر لهم، ثم بعد ذلك يختم على أفواههم، فعند ذلك يعرفون أن الله لا يُكتم حديثًا، كذا جمع بينهما ابن عباس مما يدل على عمق فهمه وفقهه، وكيف لا وقد دعا له رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»(١).

كذلك أيضًا مما أشكل على هذا الرجل الذي سأل ابن عباس الجمع بين الآيات في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ

(١) أحمد (١/٢٦٦).

لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النَّازعَات: ٢٧-٣١]، ففي هذه الآيات أن السماء خلقت أولًا والأرض خلقت بعد ذلك، وفي آية فصلت بالعكس فقال: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصِّلَت: ٩-١١] فذكر خلق الأرض قبل خلق السماء، فبين له ابن عباس الفرق في المعنى وذكر الجمع بينهما.

○ قوله: «**وَخَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ ٱسْتَوىٰ إِلَى السَّمَاءِ، فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَا الأَرْضَ، وَدَحْوُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا المَاءَ وَالْمَرْعىٰ، وَخَلَقَ الجِبَالَ وَالْجِمَالَ وَالآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَٰلِكَ قَوْلُهُ**: ﴿دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النَّازعَات: ٣٠]، **وَقَوْلُهُ**: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصِّلَت: ٩]، **فَجُعِلَتِ الأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيء فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ**» كذا جمع ابن عباس بينهما وخلاصته: أن الأرض خلقت أولًا، ثم خلقت السماء بعدها، ثم دحيت الأرض، فالذي ذكر في سورة النازعات إنما هو الدحو، وإلا فالأرض خلقت أولًا، ثم خلقت السماء، ثم دحيت الأرض بعد ذلك.

كذلك أيضًا مما أشكل على هذا الرجل الذي سأل ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [الفَتْح: ١٤] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾﴾ [الفَتْح: ١٩] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾﴾ [النِّسَاء: ١٣٤] يقول هذا الرجل: «**فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَىٰ**»، يعني: كان فيما مضى، أما الآن فهل هو متصف بهذه الصفات؟ فأجاب ابن عباس عن هذا: بأنه ﷻ كان ولم يزل غفورًا رحيمًا، كان ولم يزل سميعًا بصيرًا، وكان ولم يزل عزيزًا حكيمًا؛ ولذا قال: «**سَمَّىٰ نَفْسَهُ ذَلِكَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَي لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الذِي أَرَادَ، فَلَايَخْتَلِفْ عَلَيْكَ القُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ**».

○ قوله: «**قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ البُخَارِيُّ: حَدَّثَنِي يُوسُفُ بْنُ عَدِيٍّ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ عَنِ المِنْهَالِ بِهٰذا**»، يعني: عن المنهال عن

طاووس عن ابن عباس، كذا ذكر المؤلف سنده لهذا الحديث الموقوف على ابن عباس.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فُصِّلَت: ٨]: مَحْسُوبٍ»، والمعروف أن ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ بمعنى: غير مقطوع، فهذا قول آخر.

○ قوله: «﴿نَّحِسَاتٍ﴾ [فُصِّلَت: ١٦]»: الأيام المشائيم التي أهلكت فيها عاد.

○ قوله: «﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ قَرَنَّاهُمْ بِهِمْ» والمراد بذلك؛ قرناهم بالشياطين، كما جاء عن مجاهد[1].

○ قوله: «﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩]»، يعني: اهتزت الأرض بالنبات.

○ قوله: «﴿وَرَبَتْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩]»، يعني: «ٱرْتَفَعَتْ».

○ قوله: «﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فُصِّلَت: ٤٧]»، يعني: «حِينَ تَطْلُعُ».

○ قوله: «﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ [فُصِّلَت: ١٠]»، يعني: «قَدَّرَهَا سَوَاءً».

○ قوله: «﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فُصِّلَت: ١٧]»، يعني: «دَلَلْنَاهُمْ عَلَى الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَقَوْلِه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: ١٠]، وكقوله: ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا﴾ [الإنسَان: ٣]» والمراد بالهداية هداية الدلالة والإرشاد، وأما «وَالْهُدى الذِي هُوَ الإِرْشَادُ بِمَنْزِلَةِ أَصْعَدْنَاهُ»، أي: السعادة، وهي التسديد والتوفيق، ففي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعَام: ٩٠]، يعني: وفقهم وسددهم، كذا لأبي ذر والأصيلي: «أسعدناه»، ولغيرهما: «أصعدناه».

فالحاصل: أن الهدى نوعان: هدى بمعنى الإرشاد والدلالة، مثل: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ و﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ وهدى بمعنى التوفيق والسداد، وهذا هو الذي بمعنى السعادة، ومن ذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾.

○ قوله: «﴿يُوزَعُونَ ۝١٩﴾ [فُصِّلَت: ١٩]» يعني: «يُكَفُّونَ».

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٥٩).

○ قوله: «﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فُصِّلَت: ٤٧]»، فسرها بقوله: «قِشْرُ الكُفُرَّىٰ» - وهو الذي يسمى عندنا باللهجة العامية الكافور - وعاء الطلع، وتسمى: الكم.

○ قوله: «﴿مِّن مَّحِيصٍ ⁽٤٨⁾﴾ [فُصِّلَت: ٤٨]»: حاص عنه أي: «حَادَ عَنْهُ».

○ قوله: «﴿مِرْيَةٍ﴾ [فُصِّلَت: ٥٤]»: والمُرية بمعنى: الامتراء.

○ قوله: «﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فُصِّلَت: ٤٠]». هذا من باب الوعيد، فهو أمر المراد به التهديد والوعيد وليس للإباحة.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤] الصَّبْرُ عِنْدَ الغَضَبِ وَالْعَفْوُ عِنْدَ الإِسَاءَةِ فَإِذَا فَعَلُوهُ عَصَمَهُمُ اللهُ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ»، يعني: إذا صبر عند الغضب، وعفا عند الإساءة انقلبت عداوة بغيضه فصار صديقًا.

○ قوله: «﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ⁽٣٤⁾﴾ [فُصِّلَت: ٣٤]» يعني: «القَرِيبُ».

○ قوله: «﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ [فُصِّلَت: ١٠]» يعني: أرزاقها.

○ قوله: «﴿فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فُصِّلَت: ١٢]» يعني: مما أمر به.

○ قوله: «﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]» يعني: «عِنْدَ المَوْتِ».

○ قوله: «﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾»، أي: «بِعَمَلِي أَنَا مَحْقُوقٌ بِهٰذَا»، فهذا الإنسان الذي أنكر نعمة الله في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فُصِّلَت: ٥٠]

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٢]

{٤٨١٦} حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، عَنْ رَوْحِ بْنِ القَاسِمِ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عبد الله بن سخبرة، عَنِ ابن مَسْعُودٍ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ الآيَةَ [فصلت: ٢٢] كَانَ رَجُلاَنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ ثَقِيفَ- أَوْ رَجُلاَنِ مِنْ ثَقِيفَ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ- فِي بَيْتٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَسْمَعُ بَعْضَهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَئِنْ كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ. فَأُنْزِلَتْ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَارُكُمْ﴾ الآيَةَ [فصلت: ٢٢] ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ الآيَةَ [فصلت: ٢٣].

الشَّرْح

{٤٨١٦} قوله: «كَانَ رَجُلاَنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ ثَقِيفَ» الختن: هو الصهر، فأقارب المرأة يقال لهم: أختان.

- قوله: «أَوْ رَجُلاَنِ مِنْ ثَقِيفَ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ»، شك من الراوي.
- قوله: «فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟» هذا شك في علم الله، يبين مدى غلظ الحجاب الذي على قلوبهم؛ بسبب الشرك والكفر.

فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فُصّلت: ٢٢-٢٣]. وفي هذه الآية: بيان أن الإنسان تشهد عليه الجوارح يوم القيامة مثل السمع والبصر والجلد، فينبغي على الإنسان أن يحذر؛ لأن جوارحه هي الشهود.

وفيه: الحذر من الظن السيئ بالله ﷻ، وأنه سبب الهلاك، فهؤلاء ظنوا أن الله لا يسمع كلامهم، وأنه لا يعلم سرهم؛ فلذلك تمادوا في الكفر والعناد، وصاروا لا يبالون بالكفر والمعاصي، ومثل هذا الظن ظن المنافقين في قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢]، حيث إنهم ظنوا أن الله لن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن الله سيديل الكفر والباطل على الإسلام إدالة مستمرة، وأنه سيُقضى على الإسلام وأهله، وأنه لن تقوم للإسلام قائمة، ولن ينصر الله حزبه ورسوله!

فالواجب على كل إنسان: أن يحسن الظن بربه، فمن حسن ظنه حسنت أعماله، ومن ساء ظنه ساءت أعماله.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٣]

{٤٨١٧} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ: عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ ٱجْتَمَعَ عِنْدَ البَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ- أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ- كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا، وَلَايَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا. وَقَالَ الآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا؛ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآيَةَ [فصلت: ٢٢]. وَكَانَ سُفْيَانُ يُحَدِّثُنَا بِهٰذا فَيَقُولُ: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ أَوِ ابن أَبِي نَجِيحٍ أَوْ حُمَيْدٌ- أَحَدُهُمْ أَوِ ٱثْنَانِ مِنْهُمْ- ثُمَّ ثَبَتَ عَلَىٰ مَنْصُورٍ، وَتَرَكَ ذٰلِكَ مِرارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ.

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْصُورٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بِنَحْوِهِ.

الشَّرْح

{٤٨١٧} المقصود من هذا الحديث: أن سوء الظن بالله يحمل صاحبه على فعل المحرمات وترك الواجبات، فمن ساء ظنه ساءت عاقبته، يقول الله ﷻ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٢٣]، ومن حسن ظنه بالله، وأيقن أن الله مطلع عليه ويعلم حاله حمله ذلك على فعل الواجبات وترك المحرمات فكان من الفائزين.

○ قوله: «كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ»، يعني: ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم، وليس لهم رغبة في الآخرة؛ فأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ولم يتجاوزوها؛ ولذلك كثر شحم بطونهم وقل فقه قلوبهم؛ فقال الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [مُحَمَّد: ١٢].

وفي حديث خيرية القرون، يقول النبي ﷺ: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» قال عمران: فلا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة، ثم قال ﷺ: «**إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يَفُون، ويظهر فيهم السمن**»[(١)] يعني: تركبهم الشحوم؛ بسبب إقبالهم على الدنيا وشهواتها وملذاتها، وإعراضهم عن الآخرة، وهذا غير الذي يصيبه السمن خلقة، فهذا لا يتناوله الذم، فقد كان في الصحابة من هو ضخم، مثل: عتبان بن مالك وغيره.

والحديث فيه: إشارة إلى أن الفطنة قلما تكون مع البطنة، وفي ذلك يقول الشافعي: «ما رأيت سمينًا عاقلًا إلا محمد بن الحسن» وهذا الوصف الأغلب، وإلا فقد يكون السمين عاقلًا وذكيًّا.

---

(١) البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

٤٢- ومن سورة حم عسق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيُذْكَرُ عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﴿عَقِيمًا﴾ لَا تَلِدُ. ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ القُرْآنُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ نَسْلٌ بَعْدَ نَسْلٍ ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا﴾ لَا خُصُومَةَ. ﴿طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ذَلِيلٍ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ يَتَحَرَّكْنَ وَلَا يَجْرِينَ فِي البَحْرِ. ﴿شَرَعُوا﴾ ٱبْتَدَعُوا.

الشَّرح

هذه هي سورة الشورى، كما يقال لها: سورة حم عسق.

○ قوله: «﴿عَقِيمًا﴾»، أي: المرأة التي «لَا تَلِدُ»، والرجل الذي لا يُولد له.

○ قوله: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾»، هو «القُرْآنُ»، يقال له: الروح؛ لأن به حياة القلوب، كما أن الروح فيها حياة الأجساد.

○ قوله تعالى: «﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾» فسره مجاهد فقال: «نَسْلٌ بَعْدَ نَسْلٍ».

○ قوله تعالى: «﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾»، فسره البخاري فقال: «لَا خُصُومَةَ» بيننا وبينكم.

○ قوله: «﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾» فسره البخاري بقوله: «ذَلِيلٍ».

○ قوله: «﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾» يعني: السفن على ظهر البحر، «يَتَحَرَّكْنَ وَلَا يَجْرِينَ فِي البَحْرِ».

بَابُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]

{٤٨١٨} حَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَيْسَرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ طَاوُسًا عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﷺ. أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ عَجِلْتَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ فَقَالَ: «إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ القَرَابَةِ».

الشَّرْح

{٤٨١٨} ذكر في هذه الترجمة حديث ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية: «فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ عَجِلْتَ» يعني: تعجلت الإجابة، وهي ليست كما تظن.

○ قوله: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ» يعني: أن كل بطون قريش فيهم قرابة للنبي ﷺ، فيهم من يجتمع معه في الجد الأول: عبد المطلب، وفيهم من يجتمع معه في الجد الثاني: هاشم، أو في الجد الثالث: عبد مناف، أو في الجد الرابع أو ما قبله كقصي أو كلاب، فالخطاب لقريش خاصة؛ لأنهم هم الذين منعوه من تبليغ رسالة ربه وآذوه.

فالنبي ﷺ يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، والمعنى: لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئًا إلا أن تودوني لقرابتي، فكأنه قال: احفظوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة.

○ قوله: «فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ القَرَابَةِ» هذا تفسير ابن عباس والمعنى: إن لم تستجيبوا لي فلا أقل من أن تراعوا حق القرابة بيني وبينكم، فتخلوا سبيلي وتكفوا عني حتى أبلغ رسالة ربي، وإلا فكل الأنبياء لا يسألون أجرًا على تبليغ رسالة الله، كما أمر الله كل رسول أن يقول لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢].

٤٣- ومن سورة حم الزُّخْرُفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: عَلَىٰ إِمَامٍ. (وَقِيلَهُ يَا رَبِّ): تَفْسِيرُهُ: أَيَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَلَا نَسْمَعُ قِيلَهُمْ؟ وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: لَوْلَا أَنْ جَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ كُفَّارًا لَجَعَلْتُ لِبُيُوتِ الكُفَّارِ (سَقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ) مِنْ فِضَّةٍ -وَهْيَ: دَرَجٌ- وَسُرُرُ فِضَّةٍ. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: مُطِيقِينَ ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أَسْخَطُونَا. ﴿يَعْشُ﴾: يَعْمَىٰ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أَيْ: تُكَذِّبُونَ بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ لَا تُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: سُنَّةُ الأَوَّلِينَ. ﴿مُقْرِنِينَ﴾ يَعْنِي: الإِبِلَ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ. (يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ): الجَوَارِي. جَعَلْتُمُوهُنَّ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا فَكَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾: يَعْنُونَ الأَوْثَانَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾: الأَوْثَانُ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾: وَلَدِهِ. (مُقْتَرِنِينَ): يَمْشُونَ مَعًا. ﴿سَلَفًا﴾: قَوْمُ فِرْعَوْنَ سَلَفًا لِكُفَّارِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. ﴿وَمَثَلًا﴾: عِبْرَةً. ﴿يَصِدُّونَ﴾: يَضِجُّونَ. ﴿مُبْرِمُونَ﴾: مُجْمِعُونَ. ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾: العَرَبُ تَقُولُ: نَحْنُ مِنْكَ البَرَاءُ وَالْخَلَاءُ وَالْوَاحِدُ وَالاِثْنَانِ وَالْجَمِيعُ مِنَ المُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ يُقَالُ فِيهِ: بَرَاءٌ؛ لأَنَّهُ مَصْدَرٌ وَلَوْ قَالَ: بَرِيءٌ. لَقِيلَ فِي الاثْنَيْنِ: بَرِيئَانِ. وَفِي الجَمِيعِ: بَرِيئُونَ. وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ إِنَّنِي بَرِي بِالْيَاءِ، وَالزُّخْرُفُ: الذَّهَبُ. مَلَائِكَةً يَخْلُفُونَ: يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

الشَّرْح

أورد المؤلف رحمه الله تفسير الكلمات التي تحتاج إلى بيان في سورة حم الزخرف.

○ قوله: «﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]» فسر مجاهد أمة بأنها «إِمَامٍ»، وروي عن مجاهد أيضًا أنه قال: على ملة، وروي عن ابن عباس: على دين.

○ قوله: «﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ [الزُّخرُف: ٨٨]» فسر مجاهد هذه الآية بقوله: «أَيَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَلَا نَسْمَعُ قِيلَهُمْ؟».

نقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن التين قوله: «هذا التفسير أنكره بعضهم، وإنما يصح لو كانت التلاوة: وقيلهم»؛ لأنه قال: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالإفراد، فكيف يفسر بـ: أيحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم؟!

و«قيله» في موضع الفعل، أي: ويقول، وهذا التفسير محمول على أنه أراد تفسير المعنى، والتقدير: ونسمع قيله، ولكن مجاهدًا فسرها بمعنى قولهم.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الزُّخرُف: ٣٣] لَوْلَا أَنْ جَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ كُفَّارًا لَجَعَلْتُ لِبُيُوتِ الكُفَّارِ ﴿سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٣] مِنْ فِضَّةٍ»، يعني: لولا أن يهلك الناس فيكفرون كلهم لجعل الله لبيوت الكفار سقفًا من فضة وسررًا من فضة.

○ قوله: «﴿مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزّخرُف: ١٣]»، فسره المؤلف فقال: «مُطِيقِينَ».

○ قوله: «﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزّخرُف: ٥٥]»، فسره بقوله: «أَسْخَطُونَا»، وفيه: إثبات الأسف - الذي بمعنى الغضب - لله عَزَّ وَجَلَّ.

○ قوله: «﴿يَعۡشُ﴾ [الزّخرُف: ٣٦]»، فسره بقوله: «يَعْمَىٰ».

○ قوله: «﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ [الزّخرُف: ٥]»، فسره مجاهد بقوله: «تُكَذِّبُونَ بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ لَا تُعَاقَبُونَ».

○ قوله: «﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ [الزّخرُف: ٨]»، فسره بقوله: «سُنَّةُ الأَوَّلِينَ».

○ قوله: «﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [الزّخرُف: ١٣]»، يعني: المراد بالضمير في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ [الزخرف: ١٣]: «الإِبِلَ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ»، وعن قتادة «﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾»، يعني: لا في الأيدي ولا في القوة.

○ قوله: «﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ [الزّخرُف: ١٨]» يعني: «الجَوَارِي»، يقول: «جَعَلْتُمُوهُنَّ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا فَكَيْفَ تَحْكُمُونَ؟» والمعنى: أن البنات تنشأ في الحلية

وتربى في الزينة، فكيف تجعلونها بنات الله وهي ضعيفة؟ وذلك مثل الآية الأخرى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزُّمَر: ٤]، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ [النّجم: ٢١] وقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [الإسراء: ٤٠].

○ قوله: «﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزّخرف: ٢٠]»، فسره بقوله: «يَعْنُونَ الأَوْثَانَ».

○ قوله: «﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزّخرُف: ٢٠]»، فسره بقوله: «الأَوْثَانُ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

○ قوله: «﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزّخرُف: ٢٨]»، فسره بقوله: «وَلَدِهِ».

○ قوله: «﴿مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزّخرف: ٥٣]»، فسره بقوله: «يَمْشُونَ مَعًا».

○ قوله: «﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ [الزّخرُف: ٥٦]»، فسره بقوله: جعلنا «قَوْمُ فِرْعَوْنَ سَلَفًا لِكُفَّارِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»، فالكفار سلف للكفار، والمؤمنون سلف للمؤمنين، فآل فرعون سلف لأهل الباطل وآل إبراهيم سلف لأهل الحق.

○ قوله: «﴿وَمَثَلًا﴾ [الزّخرُف: ٥٦]»، فسره بقوله: «عِبْرَةً».

○ قوله: «﴿يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾ [الزّخرُف: ٥٧]» فسره بقوله: «يَضِجُّونَ»؛ لأنه عند وجود الضجة يحصل الصدود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فُصّلَت: ٢٦]، فإذا لغوا فيه حصل الإعراض عن القرآن.

○ قوله: «﴿مُبْرِمُونَ ۝٧٩﴾ [الزّخرُف: ٧٩]» فسره بقوله: «مُجْمِعُونَ».

○ قوله: «﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١﴾ [الزّخرُف: ٨١]» فسره بقوله: «أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ».

○ قوله: «وقال غيره: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾ [الزّخرُف: ٢٦]. العَرَبُ تَقُولُ: نَحْنُ مِنْكَ البَرَاءُ وَالْخَلَاءُ وَالْوَاحِدُ وَالاِثْنَانِ وَالْجَمِيعُ مِنَ المُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ يُقَالُ فِيهِ: بَرَاءٌ؛ لأَنَّهُ مَصْدَرٌ»، يعني: كلمة براء تصلح للواحد وللاثنين وللجميع وللمذكر وللمؤنث، فيقال: رجل براء، وامرأة براء، ونسوة براء، فكلمة براء تصلح للكل؛ لأنها مصدر.

❍ قوله: «**وَلَوْ قَالَ: بَرِيءٌ. لَقِيلَ فِي الاثْنَيْنِ: بَرِيئَانِ. وَفِي الجَمِيعِ: بَرِيئُونَ**»؛ لأن «**بَرِيءٌ**» اسم ففيها التثنية والجمع فيقال: بريء للمفرد، وبريئان للمثنى، وبريئون للجمع.

❍ قوله: «**وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ: ﴿إِنَّنِي «بَرِيءٌ»﴾ بِالْيَاءِ**»، أي: بدون همز، وهي قراء شاذة[1].

❍ قوله: «**وَالزُّخْرُفُ: الذَّهَبُ**»، كذا فسرها.

❍ قوله: «﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٠]» فسره بقوله: «**يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**».

(١) «الميسر في القراءات الأربع عشرة» (ص ٤٩١).

بَابٌ قوله: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]

{٤٨١٩} حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَىٰ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى المِنْبَرِ ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

وَقَالَ قَتَادَةُ (مَثَلًا لِلآخِرِينَ): عِظَةً. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]: **ضَابِطِينَ، يُقَالُ: فُلَانٌ مُقْرِنٌ لِفُلَانٍ: ضَابِطٌ لَهُ. وَالأَكْوَابُ: الأَبَارِيقُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا.** ﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] **أَيْ: مَا كَانَ فَأَنَا أَوَّلُ الآنِفِينَ وَهُمَا لُغَتَانِ رَجُلٌ عَابِدٌ وَعَبِدٌ. وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ:** ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠] **وَيُقَالُ: أَوَّلُ العَابِدِينَ: الجَاحِدِينَ مِنْ عَبِدَ يَعْبَدُ. وَقَالَ قَتَادَةُ** ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الزخرف: ٤]: **جُمْلَةِ الكِتَابِ، أَصْلِ الكِتَابِ.**

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف: ٥]

: مُشْرِكِينَ. واللهِ لَوْ أَنَّ هٰذَا القُرْآنَ رُفِعَ حَيْثُ رَدَّهُ أَوَائِلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ لَهَلَكُوا. ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف: ٨]: **عُقُوبَةُ الأَوَّلِينَ (جُزْءًا)** [الزخرف: ١٥]: **عِدْلًا.**

الشَّرح

{٤٨١٩} هذا الحديث على هذه الآية: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

○ قوله: «**سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى المِنْبَرِ:** ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾» المقصود: أن النبي ﷺ كان يقرؤها على المنبر للتذكير والوعظ، كما كان يقرأ غيرها، وكما كان يقرأ سورة ﴿قٓ﴾ على المنبر(١).

(١) أحمد (٦/ ٤٣٥)، ومسلم (٨٧٢).

ثم فسر الكلمات بعد ذلك فقال: «**وَقَالَ قَتَادَةُ:** ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ٥٦﴾ [الزّخرُف: ٥٦]: **عِظَةً**» لمن بعدهم.

○ قوله: «**وَقَالَ غَيْرُهُ:** ﴿مُقْرِنِينَ ١٣﴾ [الزّخرُف: ١٣] **ضَابِطِينَ**»، يعني: قال غير قتادة، وهذا قريب من معنى مطيقين، «**يُقَالُ: فُلَانٌ مُقْرِنٌ لِفُلَانٍ: ضَابِطٌ لَهُ**».

○ قوله: «**وَالأَكْوَابُ: الأَبَارِيقُ التِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا**»، يعني: التي ليس لها عروة، وسبق أن الأباريق هي التي لها عروة، والكأس هو الذي لا عروة له.

قوله تعالى: «﴿فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزّخرُف: ٤]» فسرها قتادة فقال: «**جُمْلَةِ الكِتَابِ، أَصْلِ الكِتَابِ**»، والمراد به هنا: اللوح المحفوظ.

❖ ❖ ❖

○ قوله: «﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٥﴾ [الزّخرُف: ٥]» فسر الآية بقوله: «**مُشْرِكِينَ**»، وهذا قول قتادة، أخذه البخاري وذكره في معنى الآية.

○ وقوله: «﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٥﴾»، أي: أفنرفع عنكم القرآن لأجل كونكم مشركين.

○ قوله: «**واللهِ لَوْ أَنَّ هٰذَا القُرْآنَ رُفِعَ حَيْثُ رَدَّهُ أَوَائِلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ لَهَلَكُوا**»، يعني: قريشًا.

○ قوله: «﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨﴾ [الزّخرُف: ٨]»، يعني: «**عُقُوبَةُ الأَوَّلِينَ**».

○ قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزّخرُف: ١٥] قال البخاري: «**عِدْلًا**»، وأما أبو عبيد فقال: ﴿جُزْءًا﴾، أي: نصيبًا.

○ قوله: «﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ٨١﴾ [الزّخرُف: ٨١]» «**أَيْ: مَا كَانَ فَأَنَا أَوَّلُ الآنِفِينَ وَهُمَا لُغَتَانِ**»، يقال: «**رَجُلٌ عَابِدٌ وَعَبِدٌ**».

○ قوله: «**وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ:** ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقان: ٣٠] **وَيُقَالُ:** ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ٨١﴾ [الزّخرُف: ٨١] **الجَاحِدِينَ مِنْ عَبِدَ يَعْبَدُ**».

وحاصل ما نقله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ من كلام العلماء على هذه الآية قولان:

أحدهما: أن «إِنْ» شرطية، والمعنى: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين له بذلك.

ثانيهما: تكون «إِنْ» نافية، والمعنى: ما كان للرحمن ولد وأنا أول العابدين، فتكون الفاء بمعنى: الواو، والأرجح: الأول، وأنها الشرطية.

٤٤- ومن سورة الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَهْوًا﴾: طَرِيقًا يَابِسًا. (عَلَى العَالَمِينَ): عَلَىٰ مَنْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: ٱدْفَعُوهُ. ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ﴾: أَنْكَحْنَاهُمْ حُورًا عِينًا يَحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ. ﴿تَرْجُمُونِ﴾: القَتْلُ. وَرَهْوًا: سَاكِنًا. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: أَسْوَدُ كَمُهْلِ الزَّيْتِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تُبَّعٍ﴾: مُلُوكُ اليَمَنِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَمَّىٰ تُبَّعًا؛ لأَنَّهُ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ، وَالظِّلُّ يُسَمَّىٰ تُبَّعًا لأَنَّهُ يَتْبَعُ الشَّمْسَ.

الشَّرح

فسر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الكلمات التي تحتاج إلى تفسير في سورة حم الدخان.

○ قوله: «﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾» فسرها بقوله: «طَرِيقًا يَابِسًا»، ويقال: «رهوًا»: «سَاكِنًا».

○ قوله: «﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ [الدّخان: ٣٢]»، يعني: بني إسرائيل، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدّخان: ٣٢]، يعني: «عَلَىٰ مَنْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ»، وفي اللفظ الآخر في التفسير: يعني على عالم زمانهم؛ لأن بني إسرائيل أفضل عالم زمانهم، وليسوا أفضل من هذه الأمة.

○ قوله: «﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدّخان: ٥٤]» يعني: «أَنْكَحْنَاهُمْ حُورًا عِينًا»، وسميت كذلك لأنه «يَحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ»، و«عين» يعني: واسعة العين.

○ قوله: «﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ [الدّخان: ٤٥]» فسرها ابن عباس بقوله: «أَسْوَدُ كَمُهْلِ الزَّيْتِ» يعني: الكفار يسقون ماءً كعكر الزيت إذا قربه إليه سقطت فروة وجهه.

○ قوله: «﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدّخان: ٣٧] مُلُوكُ اليَمَنِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَمَّىٰ تُبَّعًا؛ لأَنَّهُ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ، وَالظِّلُّ يُسَمَّىٰ تُبَّعًا لأَنَّهُ يَتْبَعُ الشَّمْسَ»، قال أبو عبيدة: موضع تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام، وهم ملوك العرب الأعاظم.

○ قوله: «﴿خُذُوهُ﴾ [الدّخان: ٤٧]»، يعني: الكافر، وقوله: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدّخان: ٤٧]، يعني: «ادفعوه».

○ قوله: «﴿أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠﴾ [الدّخان: ٢٠]»: هو «القَتْلُ».

بَابُ قوله:
﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾

[الدخان: ١٠]

قَالَ قَتَادَةُ: فَارْتَقِبْ: فَانْتَظِرْ.

{٤٨٢٠} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: مَضَىٰ خَمْسٌ: الدُّخَانُ، وَالرُّومُ، وَالْقَمَرُ، وَالْبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ.

الشَّرْح

○ قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ يعني: انتظر.

{٤٨٢٠} قوله: «مَضَىٰ خَمْسٌ: الدُّخَانُ، وَالرُّومُ، وَالْقَمَرُ، وَالْبَطْشَةُ، وَاللِّزَامُ» كذا قال عبد الله بن مسعود ﵁ أن الدخان قد مضى، وهو ما أصاب قريشًا من الجوع الشديد، حتى إن الواحد منهم ليرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من شدة الجوع؛ حتى أكلوا العظام والميتة، والروم: غلبة الروم للفرس وهذا مضى أيضًا، والقمر: يعني انشقاق القمر، والبطشة: ما أصاب المشركين يوم بدر من بطش المؤمنين بهم وقتلهم، واللزام: لزوم العذاب لهم يوم بدر.

وسبق أن الدخان دخانان: أحدهما: مضى، وهو: ما عناه ابن مسعود ﵁، ودخان يأتي في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة الكبرى، وهو دخان يصيب المؤمن كهيئة زكام، أما الكافر فيصيبه منه شدة، حيث يدخل في منخريه وأنفه وفمه ويكون له عذابًا.

بَابٌ قوله:
﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١١]

{٤٨٢١} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّمَا كَانَ هٰذا؛ لأَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا ٱسْتَعْصَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ، حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيرَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الجَهْدِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠، ١١] قَالَ: فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ٱسْتَسْقِ اللهَ لِمُضَرَ، فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ. قَالَ: «لِمُضَرَ؟! إِنَّكَ لَجَرِيءٌ». فَاسْتَسْقَىٰ فَسُقُوا. فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ عَادُوا إِلَىٰ حَالِهِمْ حِينَ أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٦] قَالَ: يَعْنِي: يَوْمَ بَدْرٍ.

الشَّرح

{٤٨٢١} هذا الحديث فيه: تفسير عبد الله بن مسعود رضي الله عنه للدخان المذكور في سورة الدخان، أنه الذي أصاب قريشًا من شدة الجوع، وخفي عليه الدخان الذي جاء في الأحاديث أنه يكون في آخر الزمان، وهو دخان يملأ ما بين السماء والأرض، يصيب المؤمن كهيئة زكام، ويصيب الكافر منه شدة عظيمة.

○ قوله: «إِنَّمَا كَانَ هٰذا لأَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا ٱسْتَعْصَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ»، يعني: أصابهم الجوع والشدة.

○ قوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدّخان: ١٦]»، أي: انتقم الله منهم يوم بدر، فقُتل منهم سبعون وأُسر سبعون.

بَابٌ

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الدخان: ١٢]

{٤٨٢٢} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ: إِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ تَقُولَ لِمَا لَا تَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ، إِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦] إِنَّ قُرَيْشًا لَمَّا غَلَبُوا النَّبِيَّ ﷺ وَاسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ». فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ أَكَلُوا فِيهَا العِظَامَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الجَهْدِ، حَتَّىٰ جَعَلَ أَحَدُهُمْ يَرَىٰ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الجُوعِ. قَالُوا ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الدخان: ١١] فَقِيلَ لَهُ: إِنْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَادُوا. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَعَادُوا، فَانْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَذَلِكَ قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١١] إِلَىٰ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

الشَّرح

{٤٨٢٢} أعاد المؤلف رحمه الله هذا الحديث على هذه الآية: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الدّخان: ١٢] وقد ذكره فيما مضى عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في كِنْدَة فقال: يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام، قال: ففزعنا، فأتيتُ ابن مسعود - وكان متكئًا - فغضب فجلس فقال: من علم فليقل، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم[(١)]، وسبق أن ابن مسعود رضي الله عنه أنكر هذا الدخان؛ لأنه لم يبلغه، وإلا فقد جاءت الأحاديث بأن هناك دخانًا في آخر الزمان، وفسر ابن مسعود هذه الآية بالدخان الذي أصاب قريشًا من شدة الجوع، فسألوا النبي ﷺ أن يدعو الله فدعا لهم فرجعوا إلى غيهم، فانتقم الله منهم يوم بدر بالقتل والأسر.

(١) أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨).

وفي هذا الحديث من الفوائد: أن من العلم أن يقول الإنسان لما لا يعلم: الله أعلم؛ لأن العلم نوعان: علم يعلمه الإنسان، وعلم لا يعلمه؛ ولهذا يقال: قول: (لا أدري)، أو: (لا أعلم) يعدل نصف العلم.

بَابٌ

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [الدخان: ١٣]

الذِّكْرُ وَالذِّكْرَىٰ وَاحِدٌ.

{٤٨٢٣} حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دَعَا قُرَيْشًا كَذَّبُوهُ وَاسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ». فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ -يَعْنِي- كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ كَانُوا يَأْكُلُونَ المَيْتَةَ فَكَانَ يَقُومُ أَحَدُهُمْ فَكَانَ يَرَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ مِثْلَ الدُّخَانِ مِنَ الجَهْدِ وَالْجُوعِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠، ١١] حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥] قَالَ عَبْدُ اللهِ: أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: وَالْبَطْشَةُ الكُبْرَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ.

الشَّرْح

{٤٨٢٣} قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [الدخان: ١٣] الاستفهام للاستبعاد، يعني: كيف يتذكرون وجاءهم رسول مبين وهو محمد ﷺ؟

كرر المؤلف رحمه الله هذا الحديث أيضًا، ومن الفوائد من تكرار الحديث: الزيادات التي تكون في المتن، ومنها: تقوية الإسناد.

فالحديث الأول: حدثنا يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم.

والحديث الثاني: قال: حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله.

وفي هذا الحديث: «حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنِ الأَعْمَشِ»، وهذا كله مما يتقوى به الإسناد.

○ قوله: «﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدّخان: ١٥]. قَالَ عَبْدُ اللهِ: أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!» استدل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بكشف

العذاب عنهم على أن الدخان لا يكون يوم القيامة؛ لأن العذاب يوم القيامة لا يكشف؛ فدل على أن العذاب: الجوع الذي أصابهم، فكشف عنهم وجاءتهم الرفاهية، فعادوا فانتقم الله منهم.

❍ قوله: «قَالَ: وَالْبَطْشَةُ الكُبْرىٰ يَوْمَ بَدْرٍ»، حيث هزموا وقتل منهم سبعون وأسر سبعون.

بَابٌ
﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤﴾ [الدخان: ١٤]

{٤٨٢٤} حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ وَمَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص: ٨٦] فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا رَأَىٰ قُرَيْشًا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ». فَأَخَذَتْهُمُ السَّنَةُ حَتَّىٰ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَكَلُوا العِظَامَ وَالْجُلُودَ -فَقَالَ أَحَدُهُمْ حَتَّىٰ أَكَلُوا الجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ- وَجَعَلَ يَخْرُجُ مِنَ الأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَيْ مُحَمَّدُ، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ فَدَعَا ثُمَّ قَالَ: «تَعُودُوا بَعْدَ هٰذا». فِي حَدِيثِ مَنْصُورٍ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ [الدخان: ١٠] إِلَىٰ: ﴿عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] أَيُكْشَفُ عَذَابُ الآخِرَةِ؟ فَقَدْ مَضَى الدُّخَانُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ وَقَالَ أَحَدُهُمْ: القَمَرُ. وَقَالَ الآخَرُ: الرُّومُ.

بَابٌ
﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان: ١٦]

{٤٨٢٥} حدثنا يحيىٰ، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد الله قال: خمس قد مضين: اللِّزَامُ، والروم، والبطشة، والقمر، والدُّخان.

الشَّرح

{٤٨٢٤} كرر المؤلف رحمه الله هذا الحديث في التراجم المتعددة لثلاثة أمور:

الأول: تفسير كل آية من الآيات.

الثاني: لأجل اختلاف الأسانيد، فيستفاد قوة في الحديث بالطرق المتعددة.

الثالث: الزيادة في بعض الطرق في متن الحديث، وتسمية من لم يسمَّ، كأبي سفيان هنا، حيث قال: «فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَيْ مُحَمَّدُ».

❍ قوله: «**يعودوا**» حذف نون الفعل بدون ناصب ولا جازم على لغة قليلة الاستخدام.

❖ ❖ ❖

{٤٨٢٥} قوله: «**عن عبد الله قال: خمس قد مضيت**»:

«**اللزام**»، يعني: لزوم العذاب لهم.

❍ قوله: «**والروم**»، يعني: غلبتهم للفرس.

❍ قوله: «**والبطشة**»، يعني: ما أصاب المشركين من بطش بتسليط المؤمنين عليهم.

❍ قوله: «**والقمر**»، يعني: انشقاق القمر.

❍ قوله: «**والدخان**»، يعني: الجوع الذي أصابهم.

٤٥- ومن سورة الجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]: مُسْتَوْفِزِينَ عَلَى الرُّكَبِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ [الجاثية: ٢٩]: نَكْتُبُ. ﴿نَنسَاكُمْ﴾ [الجاثية: ٣٤]: نَتْرُكُكُمْ.

الشَّرح

○ قوله: «﴿جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]: **مستوفزين على الركب**»؛ المستوفز: هو الذي يجلس على رجليه ويرفع أليتيه، وهذه إحدى جلسات النبي ﷺ فقد ورد أنه: «أكل تمرًا مقعيًا»(١)، أي: مستوفزًا.

ولعله لما فعل ذلك كان متعجلًا.

وهناك أنواع من الجلسات كان يجلسها النبي ﷺ، كالجلسة بين السجدتين في الصلاة بأن يجعل الأليتين على العقبين ويعتمد على الركبتين(٢)، وقد ورد أن النبي ﷺ كان يفعلها في بعض الأحيان، ولكنه في الغالب كان يجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى بين السجدتين(٣).

وجاء أنه جلس على عقبيه مستوفزاً، بأن اعتمد على ركبتيه وجعل أليتيه على عقبيه، وهذا يسمى: الإقعاء، والإقعاء نوعان:

الأول: فالإقعاء الجائز: هو أن يكون مستوفزًا على الركب بأن يجعل أليتيه على عقبيه ويعتمد على ركبتيه، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ فعله(٤).

الثاني: الإقعاء الممنوع: هو إقعاء الكلب، بأن يجلس على أليتيه مفضياً بهما إلى الأرض وينصب ساقيه ويعتمد على يديه ويجعلها من الخلف، وهو منهي

---

(١) أحمد (٣/ ١٨٠)، ومسلم (٢٠٤٤).
(٢) أحمد (١/ ٣١٣)، ومسلم (٥٣٦).
(٣) أحمد (٦/ ٣١)، والبخاري (٨٢٨)، ومسلم (٤٩٨).
(٤) أحمد (١/ ٣١٣)، ومسلم (٥٣٦).

عنه في الحديث[١].

○ قوله: ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ [الجاثية: ٢٩]، فسرها بقوله: «**نَكْتُبُ**».

○ قوله: ﴿نَنسَىٰكُمْ﴾ [الجاثية: ٣٤]، المراد: نترككم ونعاملكم معاملة المنسي.

(١) أحمد (٢/ ٣١١).

بَابٌ قوله:
﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآيَةَ [الجاثية: ٢٤]

{٤٨٢٦} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنا الزُّهْرِيُّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابن آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

الشَّرْح

{٤٨٢٦} قوله: «قَالَ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابن آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ» فهذا حديث قدسي؛ حيث أضافه النبي ﷺ إلى الله ﷻ، فيكون من كلام الله لفظًا ومعنى، أما الحديث النبوي: فهو من الله معنى ومن الرسول ﷺ لفظًا، مثل: «**إنما الأعمال بالنية**»[(١)] فهذا من الله معنى ومن الرسول ﷺ لفظًا؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتي بشيء من عنده قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: ٣-٤] فالسنة وحي ثان قال ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**»[(٢)] فالحديث القدسي تكلم الله به لفظًا ومعنى مثل القرآن، إلا أن له أحكامًا تختلف عن القرآن؛ فالقرآن: يتعبد بتلاوته، والحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، والقرآن لا يمسه إلا المتوضئ، والحديث القدسي: قد يمسه غير المتوضئ، والقرآن معجز والحديث القدسي: ليس بمعجز.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أن سب الدهر فيه أذية لله، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] ولكن لا يلزم من هذه الأذية الضرر، فإن الله سبحانه لا يضره أحد من خلقه، وفي الحديث القدسي: يقول الله ﷻ: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**

(١) أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود (٤٦٠٤).

ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[(١)] فالله سبحانه لا يناله نفع من أحد ولا يناله الضر من أحد بل هو النافع والضار ﷻ.

○ قوله: «**بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» هذا تفسير فصل، يعني: أنا خالق الدهر أقلب الدهر وأصرف الدهر. وفيه: الرد على ابن حزم - مع ذكائه واطلاعه وحفظه للأحاديث - القائل أن الدهر من أسماء الله، وقد غلطه العلماء في هذا، ولو كان الدهر من أسماء الله لكان الدهريون مصيبون في قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجَاثيَة: ٢٤] والدهرية ملاحدة منكرون للرب والمعاد فهم يقولون: ليس هناك رب ولا معاد، فهي بطون تدفع بالولادة، وقبور تبلع بالموت، ولا رب ولا معاد، وما يهلكنا إلا مرور الليل والنهار.

والحديث فيه: ما يدل على أن معنى الدهر هو الليل والنهار، وذلك في قوله: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

٤٦- ومن سورة الأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تُفِيضُونَ﴾: تَقُولُونَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَثَرَةٍ وَأُثْرَةٍ وَأَثَارَةٍ: بَقِيَّةُ عِلْمٍ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾: لَسْتُ بِأَوَّلِ الرُّسُلِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ هٰذِهِ الأَلِفُ إِنَّمَا هِيَ تَوَعُّدٌ إِنْ صَحَّ مَا تَدَّعُونَ لَايَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: بِرُؤْيَةِ العَيْنِ؛ إِنَّمَا هُوَ أَتَعْلَمُونَ أَبَلَغَكُمْ أَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ خَلَقُوا شَيْئًا.

الشَّرْح

○ قوله: « ﴿تُفِيضُونَ﴾: تَقُولُونَ» قال ابن جرير: المراد أن الله أعلم بما تقولون بينكم في هذا القرآن[1].

○ قوله: «﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]»، يعني: لست بأول الرسل.

(١) «تفسير ابن جرير» (٢٢/ ٦٧).

بَابٌ قوله:
﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية [الأحقاف: ١٧]

{٤٨٢٧} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ قَالَ: كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الحِجَازِ ٱسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ، فَخَطَبَ فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ؛ لِكَيْ يُبَايِعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ. فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هٰذَا الذِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ [الأحقاف: ١٧]. فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ القُرْآنِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي.

الشَّرح

{٤٨٢٧} قوله: «عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ»: «ماهك» كلمة فارسية كما في «التقريب»، ومعناها: قمير، تصغير قمر، وهو بفتح الهاء وكسرها.

○ قوله: «كَانَ مَرْوَانُ»- أي: مروان بن الحكم - «عَلَى الحِجَازِ»، يعني: أميرًا على الحجاز.

○ قوله: «ٱسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ»، أي: معاوية بن أبي سفيان وهو الخليفة بالشام في ذلك الوقت.

○ قوله: «فَخَطَبَ فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ؛ لِكَيْ يُبَايِعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ» أي: أن معاوية أراد أن يأخذ البيعة لولده يزيد من بعده فخطب مروان الناس وقال: إن الخليفة يريد أن يبايع الناس لولده من بعده فاعترض عليه عبد الرحمن بن أبي بكر أخو عائشة، وجاء في اللفظ الآخر أنه قال: «هذه هرقلية»[(١)]، نسبة لهرقل، أي: هذه سنة هرقل.

(١) البغوي في «معجم الصحابة» (٤/ ٤١٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ٣٥).

وعبد الرحمن قال هذا من باب النصح، وأنه ينبغي للولاة أن ينظروا في مصلحة المسلمين ولا يجعلوها في أبنائهم، ومعاوية اجتهد ورأى أن ابنه يزيد أهلًا لها ﭫ أجمعين.

○ قوله: «**فَقَالَ: خُذُوهُ**»، أي: أمر مروان حرسه أن يقبضوا عليه ليعاقبوه.

○ قوله: «**فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ**» أي: فهرب عبد الرحمن بن أبي بكر واختبأ في بيت عائشة، فلم يقدروا عليه تقديرًا لعائشة أم المؤمنين ﭭ.

○ قوله: «**فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هٰذا الذِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾** [الأحقاف: ١٧]» قال مروان هذا الكلام ليبين أنه عاق لوالديه لكي لا يسمع له أحد.

○ قوله: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا شَيْئًا**»، يعني: نحن ما أنزل الله فينا آل أبي بكر أي شيء من القرآن.

○ قوله: «**إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي**» يعني: في القرآن، وهو تبرئتها مما رماها به أهل الإفك.

وذكر الحافظ ابن حجر ﬿ أن في رواية الإسماعيلي قالت عائشة ﭭ: «كذب والله ما نزلت فيه»، وفي رواية له: «والله ما أنزلت إلا في فلان بن فلان الفلاني» وفي رواية: «كذب والله ما هو به ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه»[1].

---

(١) النسائي في «الكبرى» (٦/٤٥٨).

بَابُ قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٤]

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: العارض: السَّحَابُ.

{٤٨٢٨} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ، حَدَّثَنَا ابن وَهْبٍ، أَخْبَرَنَا عَمْرٌو أَنَّ أَبَا النَّضْرِ حَدَّثَهُ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ- قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَاحِكًا حَتَّىٰ أَرىٰ مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ.

{٤٨٢٩} قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأىٰ غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الغَيْمَ فَرِحُوا، رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةُ. فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأىٰ قَوْمٌ العَذَابَ فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]».

الشَّرح

هذه الآية المترجم بها في قصة عاد قوم هود قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤].

○ قوله: «العارض» فسرها المؤلف بقول ابن عباس: «السَّحَابُ»، وذلك أنه جاءتهم سحابة وكان فيها هلاكهم، فقد قال الله ﷻ: ﴿... رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥]، يعني: تدمر كل شيء يصلح للتدمير؛ لأنها لم تدمر السموات والأرض والمساكن.

{٤٨٢٨}، {٤٨٢٩} في هذا الحديث: أن النبي ﷺ كان لا يستجمع ضاحكًا حتى ترى منه نواجذه إنما كان يتبسم، وإذا رأى الغيم عرف في وجهه الكراهية، وفي لفظ آخر: «أنه كان يدخل ويخرج»(١). والناس يفرحون إذا رأوا

(١) أحمد (٦/١٦٧)، والبخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩).

الغيم وهو ﷺ يعرف في وجهه الكراهية، فإذا أمطر سري عنه فتقول له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الناس يفرحون إذا رأوا الغيم وجاء المطر، وأنت يعرف في وجهك الكراهية! فيقول لها ﷺ: «مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ» هذا من خوفه من ربه عَزَّ وَجَلَّ، فرغم استقامته على طاعة الله - وهو رسول الله ﷺ - فإنه إذا رأى غيمًا خاف وجعل يدخل ويخرج، ونحن مع عصياننا لا نخاف! ولكن من كان بالله أعرف كان منه أخوف.

▪ مسألة: كيف الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]؟

• الجواب: لعل هذا كان أولا قبل نزول الآية، والله أعلم.

٤٧- ومن سورة مُحَمَّدٍ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَوْزَارَهَا﴾: آثَامَهَا، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ إِلَّا مُسْلِمٌ. (عَرَّفَهَا): بَيَّنَهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: وَلِيُّهُمْ. ﴿عَزَمَ الْأَمْرُ﴾: جَدَّ الأَمْرُ. ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾: لَا تَضْعُفُوا. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾: حَسَدَهُمْ. ﴿ءَاسِنٍ﴾: مُتَغَيِّرٍ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]» فسرها بأنها «آثَامَهَا، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ إِلَّا مُسْلِمٌ»، وقيل: حتى ينزل عيسى بن مريم، ويحتمل كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «حتى تضع أهل الآثام فلا يبقى مشرك» ويحتمل أن الضمير يعود على الحرب، ويكون المراد هنا بالأوزار: السلاح، والمعروف أن الأوزار هي: الآثام.

○ قوله: «﴿عَرَّفَهَا﴾ [محمد: ٦]»، يعني: «بَيَّنَهَا».

○ قوله: «﴿عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]»، يعني: «جَدَّ الأَمْرُ».

○ قوله: «﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ [محمد: ٣٥]»، يعني: «لَا تَضْعُفُوا».

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿أَضْغَانَهُمْ ۝٢٩﴾ [محمد: ٢٩]: حَسَدَهُمْ»، يعني: ما في قلوبهم من الخبث والحسد.

بَابُ ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾

{٤٨٣٠} حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ قَالَ: حَدَّثَنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي مُزَرِّدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ فَقَالَ لَهَا: مَهْ. قَالَتْ: هٰذا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ. قَالَ: أَلَاتَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ. قَالَتْ: بَلَىٰ يَا رَبِّ. قَالَ: فَذَاكِ لَكِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ٱقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾.

{٤٨٣١} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ، حَدَّثَنَا حَاتِمٌ، عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي أَبُو الحُبَابِ سَعِيدُ بْنُ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهٰذا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ [محمد: ٢٢]».

{٤٨٣٢} حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي المُزَرِّدِ بِهٰذا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ [محمد: ٢٢]».

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾ [محمَّد: ٢٢-٢٣]. فيه: الوعيد الشديد على قطيعة الرحم، وأنها من كبائر الذنوب ومن الفساد في الأرض، ومن أسباب اللعنة.

{٤٨٣٠}، {٤٨٣١}، {٤٨٣٢} قوله: «مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي مُزَرِّدٍ» جاء في «التقريب»: «معاوية ابن أبي مزرد بضم الميم وفتح الزاي وتثقيل الراء المكسورة؛ عبد الرحمن بن يسار مولى بني هاشم المدني ليس به بأس من السادسة خ م س»[(١)]؛ ومُزَرِّد آخره دال مهملة.

(١) انظر: «تقريب التهذيب» (ص٩٥٦).

○ قوله: «**فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ**»، يعني: «**بحقو الرحمن**»[١] كما جاء في اللفظ الآخر.

وفيه: إثبات الحقو لله وسائر الصفات نثبتها للرب كما يليق بجلاله، ولا تشبه صفاته صفات المخلوقين، خلافًا لقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة».

وفيه: عظم شأن صلة الرحم وعظم جُرم القطيعة.

○ قوله: «**قَالَتْ: هٰذا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ**» العائذ: يعني المستعيذ، وهو المعتصم بالشيء المستجير به.

○ قوله: «**قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ**» كذا أعطاها الله ما أرادت وهذا نؤمن به بلا تكييف.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محَمَّد: ٢٢] الأكثر في تفسير لفظ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ على أنها من الولاية، أي: ولاية الحكم، والمعنى: إن حكمتم ستفسدون في الأرض، وقيل: من الإعراض، أي: أعرضتم.

وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ حديث عبد الله بن مغفل قال: «**هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس أن لا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم**»[٢].

(١) أحمد (٢/ ٣٣٠)، والبخاري (٤٨٣٢).
(٢) الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩/ ٣٥).

٤٨- ومن سورة الفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾: السَّحْنَةُ. وَقَالَ مَنْصُورٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ: التَّوَاضُعُ. ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾: فِرَاخُهُ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾: غَلُظَ. ﴿سُوقِهِۦ﴾: السَّاقُ حَامِلَةُ الشَّجَرَةِ. وَيُقَالُ: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ كَقَوْلِكَ: رَجُلُ السَّوْءِ. وَدَائِرَةُ السَّوْءِ: العَذَابُ. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: تَنْصُرُوهُ. ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾: شَطْءُ السُّنْبُلِ، تُنْبِتُ الحَبَّةُ عَشْرًا أَوْ ثَمَانِيًا وَسَبْعًا، فَيَقْوَىٰ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فَذَاكَ قوله تعالىٰ: (فَآزَرَهُ): قَوَّاهُ، وَلَوْ كَانَتْ وَاحِدَةً لَمْ تَقُمْ عَلَىٰ سَاقٍ، وَهُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذْ خَرَجَ وَحْدَهُ، ثُمَّ قَوَّاهُ بِأَصْحَابِهِ، كَمَا قوى الحَبَّةَ بِمَا يَنْبُتُ مِنْهَا.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفَتْح: ٢٩]»، قال مجاهد: «السَّحْنَةُ»، يعني: علامة توجد في وجوههم.

○ قوله: «وَقَالَ مَنْصُورٌ، عَنْ مُجَاهِدٍ: التَّوَاضُعُ»، يعني: سيماهم التواضع.

○ قوله: «﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ [الفتْح: ٢٩]»، يعني: «غَلُظَ».

○ قوله: «﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ [الفتْح: ٢٩]» قال: «فِرَاخَهُ».

○ قوله: «﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتْح: ٢٩]» يعني: «السَّاقُ حَامِلَةُ الشَّجَرَةِ».

○ قوله: «﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتْح: ٦] كَقَوْلِكَ: رَجُلُ السَّوْءِ. وَدَائِرَةُ السَّوْءِ: العَذَابُ».

○ قوله: «﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتْح: ٩]»، يعني: «تَنْصُرُوهُ».

○ قوله: «﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ [الفتْح: ٢٩]»، فسر الشطء أيضًا بقوله: «شَطْءُ السُّنْبُلِ، تُنْبِتُ الحَبَّةُ عَشْرًا أَوْ ثَمَانِيًا وَسَبْعًا، فَيَقْوَىٰ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ» وكذلك الرسول ﷺ تقوى بأصحابه.

○ قوله: «**فذلك قوله:** ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ [الفَتْح: ٢٩]: **قَوَّاهُ، وَلَوْ كَانَتْ وَاحِدَةً لَمْ تَقُمْ عَلَىٰ سَاقٍ**»، يعني: السنبل، «**وَهُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذْ خَرَجَ وَحْدَهُ، ثُمَّ قَوَّاهُ بِأَصْحَابِهِ، كَمَا قَوى الحَبَّةَ بِمَا يَنْبُتُ مِنْهَا**».

بَابٌ قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]

{٤٨٣٣} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: ثَكِلَتْ أُمُّ عُمَرَ، نَزَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ. قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ النَّاسِ، وَخَشِيتُ أَنْ يُنْزَلَ فِي القُرْآنُ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ. فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١].

{٤٨٣٤} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ سَمِعْتُ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١] قَالَ: الحُدَيْبِيَةُ.

{٤٨٣٥} حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ: قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ سُورَةَ الفَتْحِ فَرَجَّعَ فِيهَا. قَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَحْكِيَ لَكُمْ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ لَفَعَلْتُ.

الشَّرْح

{٤٨٣٣} هذه القصة فيها بيان سبب نزول آية الفتح، فقد ذكر عمر أنه كان يسير مع النبي ﷺ فسأله عن شيء ثلاث مرات ولم يجبه رسول الله ﷺ؛ لأنه مشغول بشيء أهم، إما بالوحي أو بغيره، فتأثر عمر بما فعل وقال: «ثَكِلَتْ أُمُّ عُمَرَ، نَزَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ» وكأنه رأى أن هذا فيه إساءة أدب، والنزر: هو الصوت المرتفع.

○ قوله ﷺ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» المراد بما طلعت عليه الشمس الدنيا كلها.

○ قوله: «ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفَتْح: ١]» أي: النبي ﷺ، وكان ذلك في صلح الحديبية، وسماه الله فتحًا لما أعقب صلح الحديبية من النصر؛ لأن الناس أَمِنُوا بهذا الصلح حيث وضعت الحرب أوزارها، واختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا القرآن فأسلم جم غفير بسبب هذه الهدنة، وتفرغ النبي ﷺ لفتح خيبر والكتابة لرؤساء القبائل والعشائر؛ فكان فتحًا عظيمًا، ثم نقضت قريش الصلح فغزاهم النبي ﷺ وفتح مكة بعد سنتين.

وهذا الحديث لم يبين لنا وقت نزول هذه الآية وأن نزولها كان في بعض الأسفار من غير تحديد، ولكن الأحاديث الأخرى بينت أنها نزلت في الحديبية.

❖ ❖ ❖

{٤٨٣٤} قوله: «﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفَتْح: ١]، قَالَ: الحُدَيْبِيَةُ» سميت الحديبية فتحًا؛ لأنها مقدمة للفتح ومن أسبابه؛ لأن الناس أَمِنُوا فيه وتمكنوا من سماع القرآن والنظر في الإسلام، واختلطوا بالمسلمين وذهبوا إليهم في المدينة فدخلوا في الإسلام.

❖ ❖ ❖

{٤٨٣٥} هذا حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه في وصف قراءة النبي ﷺ لسورة الفتح يوم فتح مكة.

○ قوله: «فَرَجَّعَ فِيهَا» الترجيع: هو ترديد الصوت بالقراءة تخشعًا وتدبرًا.

وجاء هذا الحديث من طريق أخرى في «كتاب التوحيد» بلفظ: «كيف ترجيعه؟ قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفَتْح: ١]، قال: آ آ آ ثلاث مرات»(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال القرطبي: هو محمول على إشباع المد في موضعه».

(١) البخاري (٧٥٤١)، ومسلم (٧٩٤).

وقيل: كان ذلك بسبب كونه راكبًا فحصل الترجيع من تحريك الناقة، وهذا فيه نظر؛ لأن في رواية علي بن الجعد عن شعبة عند الإسماعيلي: وهو يقرأ قراءة لينة فقال: «لولا أن يجتمع الناس علينا لقرأت ذلك اللحن»[(١)].

(١) هو عند الإمام أحمد (٥/ ٥٥)، والطحاوي في «شرح المشكل» (١٤/ ٤٧٦) من طرق أخرى عن شعبة.

بَابُ قوله:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآية [الفتح: ٢]

{٤٨٣٦} حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الفَضْلِ، أَخْبَرَنَا ابن عُيَيْنَةَ، حَدَّثَنَا زِيَادٌ أَنَّهُ سَمِعَ المُغِيرَةَ يَقُولُ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! قَالَ: «أَفَلَاأَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»؟

{٤٨٣٧} حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَىٰ، أَخْبَرَنَا حَيْوَةُ، عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ سَمِعَ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هٰذا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟». فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّىٰ جَالِسًا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ، فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ.

الشَّرْح

{٤٨٣٦} هذا الحديث فيه بيان أن الرسول ﷺ كان يقوم الليل، وكان يتجشم المشقة ﷺ «حَتَّىٰ تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ» وفي الحديث التالي: «حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ»، يعني: تشققت، فالنبي ﷺ يعمل بما لا يتحمله ويحمل نفسه عليه شكرًا لربه ﷻ وتعبدًا وتذللًا.

وأما سائر الأمة فإنه أمرهم بالاقتصاد في العبادة وأن يكلفوا من العمل ما يطيقون فقال ﷺ: «**عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا**»[١].

وفيه: أن العبد إذا عظمت عليه النعمة وكثرت وتمت كان الواجب عليه أعظم، وهكذا الأخيار والأكياس إذا كثرت النعم زادوا في العبادة.

❖ ❖ ❖

(١) أحمد (٦/ ١٢٢)، والبخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٢).

{٤٨٣٧} قوله: «لِمَ تَصْنَعُ هٰذا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟»»، يعني: ألا أشكر الله على هذه النعم؟ فقد أُنعم عليه ما لم يُنْعَم على غيره، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١١٣] فقابل ﷺ ذلك بالشكر.

○ قوله: «فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّىٰ جَالِسًا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ، فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ» جاء عنه ﷺ في قيام الليل ثلاث حالات:

الأولى: أنه يصلي قائمًا، كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، قال: فافتتح البقرة فقرأ حتى بلغ رأس المائة، فقلت: يركع ثم مضى حتى بلغ المائتين فقلت: يركع ثم مضى حتى ختمها، قال: فقلت: يركع قال: ثم افتتح سورة النساء حتى ختمها، قال: فقلت: يركع، قال: ثم افتتح سورة النساء فقرأها، قال: ثم ركع، قال: فقال في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**»، قال: وكان ركوعه بمنزلة قيامه ثم سجد فكان سجوده مثل ركوعه وقال في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى**»، قال: وكان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية فيها عذاب تعوذ، وإذا مر بآية فيها تنزيه لله ﷻ سبح[١].

الثانية: أن يصلي قاعدًا إذا مرض أو كسل.

الثالثة: أنه يصلي قاعدًا فإذا بقي عليه قدر ثلاثين آية أو أربعين آية قام فقرأها ثم ركع.

---

(١) أحمد (٥/ ٣٨٤)، ومسلم (٧٧٢).

بَابٌ قوله:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفتح: ٨]

{٤٨٣٨} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ هِلاَلِ بْنِ أَبِي هِلاَلٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما أَنَّ هٰذِهِ الآيَةَ التِي فِي القُرْآنِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ [الفتح: ٨] قَالَ: فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَاغَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ولكن يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ. فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا.

الشَّرْح

هذه الترجمة فيها بيان مهمة الرسول ﷺ والحكمة من إرساله، وأن الله تعالى لم يرسله ليجمع الناس على أمر الدنيا ولم يرسله ليجمع المال أو ليجمع قصص التاريخ أو غير ذلك، وإنما مهمته: البشارة والإنذار، فأرسله الله بشيرًا وأرسله الله بالحق والهدى وبالقرآن والحكمة، فيبشر بالجنة والكرامة من أطاع الله ورسوله ووحد الله وأخلص له العبادة، وينذر من عصاه وخالف أمره بالنار، وهذه مهمة جميع الرسل.

{٤٨٣٨} ذكر المؤلف رحمه الله على هذه الترجمة - وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨﴾ [الفَتْح: ٨] - حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وأن هذه الآية التي في القرآن موجودة في التوراة بلفظها ومعناها، وذلك أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد حصل على زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم تبوك.

○ قوله: «قَالَ: فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا» هذه الألفاظ التي وردت في التوراة، وفيها صفة النبي ﷺ واضحة بنفس الألفاظ التي

جاءت في القرآن.

○ قوله: «وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ»، الأميون هم: العرب، سموا أميين لأنهم في الغالب لا يقرءون ولا يكتبون نسبة إلى الأم، كأنهم على الحالة التي ولدتهم أمهاتهم عليها.

○ قوله: «أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ولكن يَعْفُو وَيَصْفَحُ» هذا وصفه ﷺ كما قال الله سبحانه في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] ولهذا اختبره اليهود، وذلك في قصة اليهودي الذي كان له دين على النبي ﷺ ثم طالبه قبل وقت وفائه وأغلظ له لينظر أخلاقه، ثم أسلم بعد ذلك.

○ قوله: «وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّىٰ يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ» فسر الملة العوجاء بالتوحيد، فالمراد: المعنى والعمل وليس المراد اللفظ فقط؛ لأن إقامة الملة العوجاء هي الفعل، والقول هو: لا إله إلا الله، ولابد أن يتطابق القول مع الفعل.

○ قوله: «فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا»، يعني: عميت عن الحق وإن كانت تبصر في الدنيا.

○ قوله: «وَآذَانًا صُمًّا»، يعني: لا تسمع الحق، وإن كانت تسمع أمور دنياها.

○ قوله: «وَقُلُوبًا غُلْفًا» أي: عليها غلاف معنوي وهو غلاف الكفر، وإن كانت قلوبهم تفهم أمور الدنيا.

والملة العوجاء لها معنيان:

الأول: ما ذكره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو: أن الملة العوجاء ملة الكفر، والمعنى: حتى ينفي الشرك ويثبت التوحيد.

الثاني: أن الملة العوجاء هي التوحيد، وسميت عوجاء لأنها مائلة عن

الشرك، كالحنيفية من الحنف، وهو: الميل، والحنيف، هو: المائل عن الشرك إلى التوحيد، ومنه وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البَقَرَة: ١٣٥]، فيكون المعنى: حتى يجعل الدين قائمًا به ومستقيمًا، ومنه قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٦١﴾ [الأنعَام: ١٦١]. ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التّوبَة: ٣٦] فالقيم يعني: القائم والمستقيم، وهذا فيه بيان كمال الشريعة، وأن النبي ﷺ لم يمت حتى أكمل الله به الدين وأتم عليه النعمة؛ ولهذا نزل في حجة الوداع يوم عرفة قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣].

بَابُ قوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ [الفتح: ٤]

{٤٨٣٩} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ ﵁ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَأُ، وَفَرَسٌ لَهُ مَرْبُوطٌ فِي الدَّارِ، فَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، وَجَعَلَ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ».

الشَّرح

○ قوله: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]» قيل: المراد بالسكينة: الطمأنينة، وقيل: السكينة طائفة من الملائكة.

{٤٨٣٩} قوله: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ» فيه: فضل القرآن، والبركة التي تحصل بقراءته من نزول السكينة والطمأنينة وحف الملائكة للقارئين، كما في الحديث: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**»(١).

(١) أحمد (٢/٢٥٢)، ومسلم (٢٦٩٩)

بَابٌ قوله:

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾

[الفتح: ٨]

{٤٨٤٠} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ.

{٤٨٤١} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا شَبَابَةُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ صُهْبَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ المُزَنِيِّ: إِنِّي مِمَّنْ شَهِدَ الشَّجَرَةَ، نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الخَذْفِ.

{٤٨٤٢} وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ صُهْبَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ المُغَفَّلِ المُزَنِيِّ فِي البَوْلِ فِي المُغْتَسَلِ.

{٤٨٤٣} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ ﷺ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ.

{٤٨٤٤} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ السُّلَمِيُّ، حَدَّثَنَا يَعْلَىٰ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ سِيَاهٍ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا وَائِلٍ أَسْأَلُهُ فَقَالَ: كُنَّا بِصِفِّينَ فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ. فَقَالَ عَلِيٌّ: نَعَمْ. فَقَالَ سَهْلُ ابْنُ حُنَيْفٍ: ٱتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ -يَعْنِي الصُّلْحَ الذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ- وَلَوْ نَرَىٰ قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ؟! قَالَ: «بَلَىٰ». قَالَ: فَفِيمَ أُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُم اللهُ بَيْنَنَا. فَقَالَ: «يَا ابن الخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا». فَرَجَعَ مُتَغَيِّظًا، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّىٰ جَاءَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: يَا ابن الخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا. فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ.

الشَّرْح

هذه الترجمة على لفظ الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفَتْح: ١٨] وهذه في قصة الذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة في الحديبية، وهو مكان على حدود الحرم من جهة جدة، يسمى الآن: الشميسي، وتسمى: بيعة الرضوان، وذلك لما كان النبي ﷺ وأصحابه محرمين يريدون العمرة فمنعهم المشركون وصدوهم عن البيت الحرام.

{٤٨٤٠} قوله: «كُنَّا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ» كذا جاء في حديث جابر، والشاهد: أن هؤلاء هم الذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة.

❖ ❖ ❖

{٤٨٤١} قوله: «عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ المُزَنِيِّ: إِنِّي مِمَّنْ شَهِدَ الشَّجَرَةَ» الشاهد: أن عبد الله بن مغفل المزني ممن شهد بيعة الشجرة، وفي الحديث: نهي النبي ﷺ عن الخذف.

❖ ❖ ❖

{٤٨٤٢} قوله: «البَوْلِ فِي المُغْتَسَلِ» جاء في رواية الأصيلي وأبي ذر زيادة: «يأخذ منه الوسواس» ففيه: ذكر عبدالله بن مغفل المزني نهي النبي ﷺ عن البول في المغتسل، وأن الوسواس يأتي من هذا، والشاهد: أن عبد الله بن المغفل ممن شهد الحديبية.

❖ ❖ ❖

{٤٨٤٣} قوله: «عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ ﷺ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ» هذا هو الشاهد، فهو من أصحاب الشجرة عندما بايع الصحابة النبي ﷺ على الموت؛ وذلك لما أرسل النبي ﷺ عثمان وحبسه المشركون فسمع بذلك المشركون فخافوا وأطلقوه.

❖ ❖ ❖

{٤٨٤٤} قوله: «كُنَّا بِصِفِّينَ» صِفِّيْن هذه معركة عظيمة وحرب ضروس بين: معاوية ومعه أهل الشام وعلي ومعه أهل العراق، فرأى بعض جيش معاوية أن يوقفوا القتال ورفعوا المصاحف وقالوا: نتحاكم إلى كتاب الله، فانقسم جيش علي رضي الله عنه إلى قسمين قال بعضهم: نعم نتحاكم إلى كتاب الله وبعضهم قال: لا.

○ قوله: «فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ»، يعني: في قصة التحكيم يدعون إلى كتاب الله ويمتنعون.

○ قوله: «فَقَالَ عَلِيٌّ: نَعَمْ» يعني: تصديقًا لكلامه.

○ قوله: «فَقَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ: ٱتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ»، وفي لفظ آخر: «اتهموا الرأي»[(١)]، يعني: لا تثقوا في الرأي فإنه يخطئ ويصيب، والعبرة بالنصوص الواردة عن الله ورسوله التي يعتمد عليها.

○ قوله: «فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ - يَعْنِي الصُّلْحَ الذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ- وَلَوْ نَرىٰ قِتالًا لَقَاتَلْنَا»، يعني: لو نستطيع أن نخالف أمر النبي ﷺ لخالفناه؛ لأن النبي ﷺ قَبِلَ الشروط التي فيها غضاضة على المسلمين، حيث تعنت المشركون وقالوا له: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم، واكتب: باسمك اللهم، وقالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، ثم لما كتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: لا تكتب رسول الله لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، ثم أيضًا قالوا: من جاء منا إليكم تردونه علينا ومن جاءنا منكم لا نرده عليكم فشق ذلك على الصحابة وقالوا: كيف نرد من يأتي منهم ولا يردون علينا من يأتيهم؟! وكذلك أيضًا: لما جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده طلبه النبي ﷺ وقال: «**فأجزه لي**»[(٢)]، قال:

(١) أحمد (٣/ ٤٨٥)، والبخاري (٤١٨٩).
(٢) أحمد (٤/ ٣٢٨- ٣٣٠)، والبخاري (٢٧٣٤).

لا، فشق هذا على المسلمين وقالوا: لو استطعنا أن نخالف أمر الرسول لخالفناه وقاتلنا وما نقبل هذه الشروط.

وبعد ذلك تبين لهم أن الخير في اتباع ما جاء عن الله وما جاء عن الرسول ﷺ، وتبين بعد ذلك عاقبة هذا الصلح الحميدة، وأن الحرب تضع أوزارها عشر سنين، وأن المشركين اختلطوا بالمسلمين، ودخل جم غفير من الناس في الإسلام، وتفرغ النبي ﷺ لفتح خيبر والكتابة لرؤساء القبائل والعشائر، حتى خافت اليهود أن يتقوى ﷺ، ثم بعد ذلك نقضوا العهد فغزاهم بعد سنتين في عقر دارهم إلى غير ذلك من المصالح.

○ قوله: «فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟! قَالَ: «بَلَىٰ». قَالَ: فَفِيمَ أُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا؟!» أي: من شدة وقسوة هذه الشروط على الصحابة ما صبر عمر! فقال: إذا كان قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار إذن نقاتل ولا نقبل الشروط التي فيها غضاضة علينا، فأجابه النبي ﷺ بقوله: «يَا ابن الخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا»، يعني: الذي أعمله هذا بأمر الله.

○ قوله: «فَرَجَعَ مُتَغَيِّظًا، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّىٰ جَاءَ أَبَا بَكْرٍ»، وقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، على الرغم من أن أبا بكر ما كان حاضرًا عند النبي ﷺ إلا أن مقالة أبي بكر وافقت مقالة النبي ﷺ، وذلك في قوله: «قَالَ: يَا ابن الخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا»، وزاد في اللفظ الآخر: «**فاستمسك بغرزه**»[(١)]. ولما تبين لعمر في المستقبل قال: «فعملت لذلك أعمالًا»[(٢)]، يعني: اعتبر هذا ذنبًا، فعمل أعمالًا صالحة من صدقة وصيام وصلة وعتق تكفر اعتراضه على النبي ﷺ، وهذه القصة الشاهد منها: بيعة الشجرة.

---

(١) البخاري (٢٧٣٤).
(٢) أحمد (٤/٣٢٨)، والبخاري (٢٥٨١).

(٤٩) ومن سُورَة الحُجُرَاتِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾: لَا تَفْتَاتُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ. ﴿ٱمْتَحَنَ﴾: أَخْلَصَ. ﴿تَنَابَزُوا﴾: يُدْعَىٰ بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ. ﴿يَلِتْكُم﴾: يَنْقُصْكُمْ، أَلَتْنَا نَقَصْنَا.

الشَّرْح

قوله تعالى: «﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجرَات: ١]»، فسرها مجاهد بقوله: «لَا تَفْتَاتُوا - في الكلام والفعل - عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ».

- قوله: «﴿لَا يَلِتْكُم﴾ [الحُجرَات: ١٤]» يعني: «لا يَنْقُصْكُمْ».
- قوله: «﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ﴾ [الحُجرَات: ٣]»، فسرها بقوله: «أَخْلَصَ الله»، وجاء عن قتادة: أخلص الله قلوبهم فيما أحب.
- قوله: «﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ [الحُجرَات: ١١]»، فسرها المؤلف فقال: «يُدْعَىٰ بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ»، وذلك أن يقول لأخيه: يا فاسق أو: يا منافق، أو يناديه بلقب يكرهه، مثل: يا أعرج يا أعمى، إلا إذا كان للتعريف وكان لا يُعرف إلا به.

بَابٌ قوله:
﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآيَةَ

﴿تَشْعُرُونَ﴾: تَعْلَمُونَ، وَمِنْهُ الشَّاعِرُ.

{٤٨٤٥} حَدَّثَنَا يَسَرَةُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ جَمِيلٍ اللَّخْمِيُّ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عُمَرَ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا- أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ -قَالَ نَافِعٌ: لَاأَحْفَظُ ٱسْمَهُ- فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي. قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ. فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآيَةَ. قَالَ ابن الزُّبَيْرِ فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هٰذِهِ الآيَةِ حَتَّىٰ يَسْتَفْهِمَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ، يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ.

{٤٨٤٦} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا أَزْهَرُ بْنُ سَعْدٍ، أَخْبَرَنَا ابن عَوْنٍ قَالَ: أَنْبَأَنِي مُوسَىٰ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ٱفْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ. فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ. كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهْوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ مُوسَىٰ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ المَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ».

الشَّرْح

هذه الآية التي في سورة الحجرات فيها أدب من الآداب التي أدب الله بها المؤمنين مع نبيهم ﷺ، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحُجرَات: ٢] والنهي فيها للتحريم، فيحرم على المؤمن رفع صوته على صوت النبي ﷺ، وأن من فعل هذا يخشى عليه من حبوط العمل، وكذلك الآية التي قبلها

وهي قوله ﷻ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحُجرَات: ١]. وهذه السورة - سورة الحجرات - تسمى: سورة الآداب، وهذا النهي يكون في حياة النبي ﷺ حيث نهى الله المؤمنين أن يفتاتوا عليه، وإذا كان هذا في التقدم وفي الكلام فكيف بمن قدم شيئًا من الدنيا على سنته؟! فهذا أعظم وأشد، وكذلك إذا كان من يرفع الصوت عند النبي ﷺ يخشى عليه من حبوط العمل فكيف بالذي يضرب بسنته عرض الحائط ويقدم عليها آراء الرجال؟!

{٤٨٤٥} قوله: «كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا - أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ» هذا الحديث يحكي قصة الشيخين حين قدم على النبي ﷺ وفد بني تميم فأشار أبو بكر قال: أَمِّر القعقاع يا رسول الله، وعمر أمِّر الأقرع بن حابس، فحصل بينهما خلاف حتى ارتفعت أصواتهما، كما يحصل بين البشر؛ مع علو قدرهما، ومع سلامة صدر كل منهما، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحُجرَات: ٢].

○ قوله: «فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هٰذِه الآيَةِ حَتَّىٰ يَسْتَفْهِمَهُ»، أي: كان عمر بعدما نزلت هذه الآية يخفض صوته، حتى إن النبي ﷺ ما كان يسمعه حتى يستفهمه، وفي رواية: «**حدثه كأخي السرار**»(١).

{٤٨٤٦} هذا الحديث فيه: قصة ثابت بن قيس لما نزلت هذه الآية حيث جلس في بيته؛ لأنه كان يرفع صوته على النبي ﷺ.

○ قوله: «فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهْوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» لأنه كان خطيبًا للنبي ﷺ أمام الوفود والخطيب يحتاج إلى رفع الصوت، فخاف لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحُجرَات: ٢] وجلس في بيته يبكي، ففقده النبي ﷺ فسأل عنه وأرسل إليه من يأتي بخبره.

○ قوله: «إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» هذه بشارة لثابت بن قيس رضي الله عنه وشهادة من النبي ﷺ له أنه من أهل الجنة.

(١) أحمد (٤/٦)، والبخاري (٧٣٠٢).

بَابٌ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ الآية

{٤٨٤٧} حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمِّرِ القَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدٍ. وَقَالَ عُمَرُ: بَلْ أَمِّرِ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتَ إِلَىٰ -أَوْ: إِلَّا- خِلَافِي. فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ. فَتَمَارَيَا حَتَّى ٱرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حَتَّى ٱنْقَضَتِ الآيَةُ.

الشَّرْح

{٤٨٤٧} في هذا الحديث: إشارة إلى قصة وفد بني تميم، وذلك أن بني تميم لما قدموا وجاءوا إلى النبي ﷺ في وقت الظهيرة وهو في بيته جعلوا ينادون: يا محمد اخرج إلينا، وهذا فيه إساءة أدب، فأدبهم الله ﷻ وأنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحُجرَات: ٤-٥]، ثم بعد ذلك أراد النبي ﷺ أن يؤمر واحدًا منهم فاختلف الشيخان، فقال أبو بكر ﵁: أَمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما؛ فنزلت هذه الآيات في هذه القصة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحُجرَات: ١-٢].

بَابٌ قوله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحُجرَات: ٥]

الشَّرْح

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «باب قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحُجرَات: ٥] هكذا في جميع الروايات: الترجمة بغير حديث، وقد أخرج الطبري والبغوي وابن أبي عاصم في كتبهم في الصحابة من طريق موسى بن عقبة، عن أبي سلمة، قال: حدثني الأقرع بن حابس التميمي أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اخرج إلينا، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحُجرَات: ٤][1] الحديث، وسياقه لابن جرير، قال ابن منده: الصحيح عن أبي سلمة أن الأقرع مرسل، وكذا أخرجه أحمد على الوجهين[2]، وقد ساق محمد بن إسحاق قصة وفد بني تميم في ذلك مطولة بانقطاع[3]، وأخرجها ابن منده في ترجمة ثابت بن قيس في «المعرفة» من طريق أخرى موصولة» اهـ.

---

(١) الطبري في «تفسيره» (٢٦/ ١٢٢)، والبغوي في «معجم الصحابة» (١/ ١٩٣- ١٩٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢/ ٣٦٠).

(٢) أحمد (٣/ ٤٨٨)، (٦/ ٣٩٤).

(٣) «السيرة» لابن هشام (٤/ ٢٧٥- ٢٧٦).

٥٠- ومن سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾: رَدٌّ. ﴿فُرُوجٍ﴾: فُتُوقٍ، وَاحِدُهَا: فَرْجٌ، وَرِيدٌ فِي حَلْقِهِ، الحَبْلُ: حَبْلُ العَاتِقِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾: مِنْ عِظَامِهِمْ. ﴿تَبْصِرَةً﴾: بَصِيرَةً ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾: الحِنْطَةُ. ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: الطِّوَالُ ﴿أَفَعَيِينَا﴾: أَفَأَعْيَا عَلَيْنَا. ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾: الشَّيْطَانُ الذِي قُيِّضَ لَهُ. ﴿فَنَقَّبُواْ﴾: ضَرَبُوا. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾: لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِغَيْرِهِ حِينَ أَنْشَأَكُمْ وَأَنْشَأَ خَلْقَكُمْ. ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: رَصَدٌ. ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾: المَلَكَانِ كَاتِبٌ وَشَهِيدٌ. ﴿شَهِيدٌ﴾: شَاهِدٌ بِالْقَلْبِ. ﴿لُّغُوبٍ﴾: النَّصَبُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿نَّضِيدٌ﴾: الكُفُرَّىٰ مَا دَامَ فِي أَكْمَامِهِ، وَمَعْنَاهُ: مَنْضُودٌ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ أَكْمَامِهِ فَلَيْسَ بِنَضِيدٍ. فِي أَدْبَارِ النُّجُومِ وَأَدْبَارِ السُّجُودِ، كَانَ عَاصِمٌ يَفْتَحُ التِي فِي ق وَيَكْسِرُ التِي فِي الطُّورِ، وَيُكْسَرَانِ جَمِيعًا وَيُنْصَبَانِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: يَوْمَ الخُرُوجِ يَخْرُجُونَ مِنَ القُبُورِ.

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ [قٓ: ٤] مِنْ عِظَامِهِمْ» هذا تفسير مجاهد، وهذا ليس خاصًّا بالعظام؛ لأن الجسد كله يبلى وتأكله الأرض والله تعالى عالم بما تأكله الأرض.

○ قوله: «﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ [قٓ: ١٠]» يعني: «الطِّوَالُ».

○ قوله: «﴿فَنَقَّبُواْ﴾ [قٓ: ٣٦]» فسرها بأنهم «ضَرَبُوا»، والسفر يسمى ضربًا في الأرض، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المُزّمل: ٢٠] يعني: يسافرون.

○ قوله: «﴿رَجْعُۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [قٓ: ٣]»، فسرها بقوله: «رَدٌّ»، يعني: الكفار الذين أنكروا الله وأنكروا البعث، قالوا: ردنا إلى الدنيا بعيد، فأنكر الله عليهم فقال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [قٓ: ١٥] يعني: فالذي قدر على الخلق قادر

على الإعادة، والمعنى: كيف ينكرون البعث ولا ينظرون إلى الخلق الأول؟!

○ قوله: «﴿فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]» يعني: «**فُتُوقٍ، وَاحِدُهَا: فَرْجٌ**».

○ قوله: «﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦]» فسرها بقوله: «**وَرِيدٌ فِي حَلْقِهِ**»، فالإنسان له وريدان، والدابة في حلقها وريدان، وكذلك قصبتان؛ واحدة للتنفس وواحدة للأكل والشرب، وفي تذكية الذبيحة لابد من قطع الأربع: الوريدين المحيطين بالحلق، والحلقوم مجرى النفس، وكذلك أيضًا: المريء مجرى الطعام والشراب، والمراد بالحبل: حبل العاتق، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦] فيها خلاف فقيل: ونحن بملائكتنا أقرب إليه من حبل الوريد، كما قال شيخ الإسلام بدليل أنه قيده بالظرف فقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧]، يعني: نحن أقرب إليه وقت تلقي المتلقيين، ولو كان المراد قرب الله لم يقيده بوقت تلقي المتلقيين، وقال آخرون من أهل العلم: الضمير يعود إلى الله والمعنى: ونحن أقرب إليه بالعلم من حبل الوريد، وقال بعضهم: بالقدرة والرؤية.

○ قوله: «﴿تَبْصِرَةً﴾ [ق: ٨]» يقول: «**بَصِيرَةً**».

○ قوله: «﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: ٩] **الحِنْطَةُ**»، وهذا مما امتن الله به على عباده، حيث أنزل المطر وأنبت حب الحصيد.

○ قوله: «**حِينَ أَنْشَأَكُمْ وَأَنْشَأَ خَلْقَكُمْ**» أشار الحافظ إلىٰ أنها بقية تفسير قوله: «أفعيينا» قال: وحقه أن يكتب عندها.

○ قوله: «﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]: **رَصَدٌ**»، والرصد هو الشخص الذي ينصب للإنسان ليرصده ويراقبه.

○ قوله: «﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق: ٢١] **المَلَكَانِ: كَاتِبٌ وَشَهِيدٌ**»، والشهيد قال المؤلف في تفسيره: «**شَاهِدٌ بِالْقَلْبِ**»، وفي رواية: «**بالغيب**»، والأظهر بالغيب؛ لمناسبة الشهادة، ولأن الملك يطلع على ما في القلب من نية وإخلاص وصدق وتوكل ورجاء وغير ذلك، حيث إن الله مكنه منه وأطلعه عليه.

○ قوله: «﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ [ق: ٢٣]»، فسره بـ «**الشَّيْطَانُ الذِي قُيِّضَ لَهُ**».

○ قوله: «﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧]»، يعني: منتبه، «**لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِغَيْرِهِ**».

○ قوله: «حِينَ أَنْشَأَكُمْ وَأَنْشَأَ خَلْقَكُمْ» أشار الحافظ إلىٰ أنها بقية تفسير قوله: (أفعيينا) قال: وحقه أن يكتب عندها.

○ قوله: «﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [قٓ: ٣٨]»، يعني: «النَّصَبُ».

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿نَّضِيدٌ﴾: الكُفُرىٰ مَا دَامَ فِي أَكْمَامِهِ»، كذا فسرها، يعني: الكافور.

○ قوله: «وَمَعْنَاهُ: مَنْضُودٌ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ أَكْمَامِهِ فَلَيْسَ بِنَضِيدٍ» والأقرب: أنه يسمى نضيدًا، حتى بعد أن يخرج من أكمامه؛ لأنه يبرز للناس.

○ قوله: «أَدْبَارِ النُّجُوم وَأَدْبَارِ السُّجُودِ، كَانَ عَاصِمٌ يَفْتَحُ التِي فِي ق وَيَكْسِرُ التِي فِي الطُّورِ» يعني: التي في سورة ق ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [قٓ: ٤٠]. كان عاصم يفتحها، والتي في سورة الطور ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطُّور: ٤٩]، هي التي كان عاصم يكسرها، ويكسران جميعا وينصبان، ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وحمزة ﴿وَإِدْبَٰرَ﴾ -بكسر الهمزة- وقرأ الباقون ﴿وَأَدْبَٰرَ﴾[1] أما آية الطور فجميع القراء وافقوا عاصمًا على كسرها. وأما قراءتها بالفتح (وأدبار النجوم)[2] فهي قراءة شاذة.

○ قوله: «وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [قٓ: ٤٢]: يَوْمَ الخُرُوجِ يَخْرُجُونَ مِنَ القُبُورِ»، يعني: خرجوا بأجسامهم من القبور إلى الحساب.

---

(١) انظر: «الهادي شرح طيبة النشر» (٣/ ٢٤٣).
(٢) انظر: «المحتسب»، لابن جني (٢/ ٣٤٢).

بَابُ قوله:

﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠]

{٤٨٤٨} حَدَّثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا حَرَمِيٌّ، حَدَّثنا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُلْقَىٰ فِي النَّارِ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطِ قَطِ».

{٤٨٤٩} حَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى القَطَّانُ، حَدَّثَنَا أَبُو سُفْيَانَ الحِمْيَرِيُّ سَعِيدُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ -وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُوقِفُهُ أَبُو سُفْيَانَ- «يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ ٱمْتَلأْتِ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتَقُولُ: قَطِ قَطِ».

{٤٨٥٠} حَدَّثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟! قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطٍ قَطٍ قَطٍ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ عز وجل مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ عز وجل يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

الشرح

في هذه الآية: إثبات الحساب في يوم القيامة وإثبات الجنة والنار والرد على من أنكرهما فمن أنكر الجنة والنار فهو كافر؛ لأنه مكذب باليوم الآخر، والجنة والنار موجودتان الآن، خلافًا للمعتزلة القائلين بأنهما تنشئان يوم القيامة، ويقولون: إن وجودهما الآن - ولا جزاء - عبث، والعبث محال على الله، فهذه شبهتهم الفاسدة، ويرد عليهم بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣]

وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٤] بأنه يوجد جزاء: فالجنة فيها أرواح المؤمنين وفيها الحور العين، والنار فيها أرواح الكفار، والمؤمن تفتح له أبواب إلى الجنة، والكافر تفتح له أبواب إلى النار، إلى غير ذلك.

{٤٨٤٨} قوله: «يُلْقَىٰ فِي النَّارِ ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [قَ: ٣٠] حَتَّىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ» يعني: الرب.

وفيه: إثبات القدم لله ﷻ.

❖ ❖ ❖

{٤٨٤٩} هذا الحديث أيضًا فيه: إثبات صفة القدم، وذلك على ما يليق بالله وعظمته.

❖ ❖ ❖

{٤٨٥٠} قوله: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ» فيه: إثبات المحاجة بين الجنة والنار، والله جعل فيهما تمييزًا حتى تتحاجا.

○ قوله: «فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ» فيه: أن الكبر والتجبر من أسباب دخول النار.

○ قوله: «وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ»، يعني: في الغالب، وقد يدخلها الأغنياء، فأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير كانوا من الأغنياء، وقد قال النبي ﷺ: «**نعم المال الصالح للمرء الصالح**»(١) لكن الضعفاء - في الغالب - ليس عندهم ما يمنعهم من الإيمان، وأما الكبراء والأشراف والرؤساء - في الغالب - يمنعهم ما هم فيه من الرياسة والمال من قبول الحق والإيمان.

○ قوله: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي» يعني: الجنة رحمة مخلوقة، وهذه غير الرحمة التي هي صفة من صفات الله ﷻ.

---

(١) أحمد (٤/١٩٧)، وابن حبان (٨/٦).

○ قوله: «وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ»، يعني: الرب ﷻ يضع رجله في النار.

وفيه: إثبات الرجل لله ﷻ وإثبات القدم، والله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه.

قال الحافظ ابن حجر ؒ: «واختلف في المراد بالقدم، فطريق السلف في هذا وغيره مشهورة وهو: أن تمر كما جاءت، ولا يتعرض لتأويله، بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله، وخاض كثير من أهل العلم في تأويل ذلك فقال: المراد إذلال جهنم».

طريق السلف في مثل هذه النصوص: إمرارها كما جاءت مع إثبات المعنى واعتقاد أن المعنى صحيح، ولا يتعرض لتأويل الكيفية.

ثم قال الحافظ ابن حجر ؒ: «فإنها إذا بالغت في الطغيان وطلب المزيد أذلها الله فوضعها تحت القدم، وليس المراد حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء في ضرب الأمثال ولا تريد أعيانها، كقولهم: رغم أنفه وسقط في يده، وقيل: المراد بالقدم: الفَرَط السابق أي: يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب، قال الإسماعيلي: القدم قد يكون اسمًا لما قدم، كما يسمى ما خبط من ورق خبطًا، فالمعنى: ما قدموا من عمل وقيل: المراد بالقدم قدم بعض المخلوقين، فالضمير للمخلوق معلوم، أو يكون هناك مخلوق اسمه قدم، أو المراد بالقدم الأخير؛ لأن القدم آخر الأعضاء، فيكون المعنى: حتى يضع الله في النار آخر أهلها فيها، ويكون الضمير للمزيد، وقال ابن حبان في «صحيحه» بعد إخراجه: هذا من الأخبار التي أطلقت بتمثيل المجاورة، وذلك أن يوم القيامة يلقى في النار من الأمم والأمكنة التي عصي الله فيها، فلا تزال تستزيد حتى يضع الرب فيها موضعًا من الأمكنة المذكورة فتمتلئ؛ لأن العرب تطلق القدم على الموضع قال الله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢] يريد: موضع صدق، وقال الداودي: المراد بالقدم: قدم صدق، وهو: محمد والإشارة بذلك إلى شفاعته

وهو المقام المحمود، فيخرج من النار من كان في قلبه شيء من الإيمان، وتعقب: بأن هذا منابذ لنص الحديث؛ لأن فيه: يضع قدمه بعد أن قالت: هل من مزيد، والذي قاله مقتضاه أنه ينقص منها، وصريح الخبر: أنها تنزوي بما يجعل فيها لا بما يخرج منها، قلت: ويحتمل أن يوجه: بأن من يخرج منها يبدل عوضهم من أهل الكفر، كما حملوا عليه حديث أبي موسى في «صحيح مسلم»: «**إذا كان يوم القيامة دفع الله ﷻ إلى كل مسلم يهوديًّا أو نصرانيًّا فيقول: هذا فكاكك من النار**»[(١)] فإن بعض العلماء قال: المراد بذلك: أنه يقع عند إخراجه الموحدين وأنه يجعل مكان كل واحد منهم واحدًا من الكفار بأن يعظم حتى يسد مكانه ومكان الذي خرج، وحينئذ فالقدم سبب للعظم المذكور، فإذا وقع العظم حصل الملء الذي تطلبه، والتأويل البعيد قول من قال: المراد بالقدم قدم إبليس وأخذه من قوله: حتى يضع الجبار فيها قدمه وإبليس أول من تكبر فاستحق أن يسمى متجبرًا وجبارًا، وظهور بعد هذا يغني عن تكلف الرد عليه، وزعم ابن الجوزي أن الرواية التي جاءت بلفظ: «الرجل» تحريف من بعض الرواة لظنه أن المراد بالقدم الجارحة فرواها بالمعنى فأخطأ ثم قال: ويحتمل أن يكون المراد بالرجل إن كانت محفوظة: الجماعة كما تقول: رجل من جراد، فالتقدير: يضع فيها جماعة، وأضافهم إليه إضافة اختصاص، وبالغ ابن فورك فجزم بأن الرواية بلفظ: «الرجل» غير ثابتة عند أهل النقل، وهو مردود لثبوتها في «الصحيحين»، وقد أولها غيره بنحو ما تقدم في القدم فقيل: رجل بعض المخلوقين، وقيل: إنها اسم مخلوق من المخلوقين، وقيل: إن الرجل تستعمل في الزجر كما تقول: وضعته تحت رجلي، وقيل: إن الرجل تستعمل في طلب الشيء على سبيل الجد كما تقول: قام في هذا الأمر على رجل، وقال أبو الوفاء بن عقيل: تعالى الله عن أنه لا يعمل أمره في النار حتى يستعين عليها بشيء من ذاته أو صفاته وهو القائل للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩] فمن يأمر نارًا أججها غيره أن تنقلب عن طبعها وهو الإحراق فتنقلب كيف يحتاج في نار يؤججها هو إلى استعانة!».

---

(١) مسلم (٢٧٦٧).

هذا الكلام تخبط في تأويل الصفات، وهذا يدل على أن التحقيق عزيز، ولاسيما في الاعتقاد، وأن الحق قد لا يوفق له العالم الكبير ويوفق له من هو دونه، فإذا كان ابن الجوزي وابن عقيل وابن فورك مع سعة علمهم تخبطوا وأولوا الصفات وأخطئوا فغيرهم ممن دونهم في العلم يخطئ من باب أولى، وهذا يوجب للعالم الحذر والخشية من الغلط وطلب التحقيق من كلام الله وكلام رسوله وأقوال السلف وأئمة الدين، وأن على طالب العلم أن يَعَضَّ على مذهب أهل السنة بالنواجذ، ويحمد الله أن وفقه لمن نَشَّأَهُ على معتقد أهل السنة والجماعة، فهؤلاء علماء كبار إذا قاس الإنسان نفسه بهم في العلم ما يساوي معشارهم في العلم والفهم والتحقيق في مسائل الفروع، ومع ذلك غلطوا وزلت بهم القدم في المعتقد، ومن هذا: التخبط في تأويل القدم فالذي يقول: رجل جراد، والذي يقول: الرجل، وكل هذا تحريف؛ من أجل أنهم ظنوا أن هذا فيه تشبيه الخالق بالمخلوق، فظنوا أن إثبات القدم لله والرجل فيه مشابهة للمخلوق، وأين المشابهة في ذلك؟! فالله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الله له صفات تخصه والمخلوق له صفات تخصه، فهو أعلم بنفسه سبحانه، وقد أثبتها لنفسه كما يليق بجلاله وعظمته.

بَابُ قوله:

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]

{٤٨٥١} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ جَرِيرٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هٰذا، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا». ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

{٤٨٥٢} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ، عَنِ ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ ابن عَبَّاسٍ: أَمَرَهُ أَنْ يُسَبِّحَ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا، يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

الشَّرْح

○ قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق: ٣٩] يشمل صلاة الفجر وصلاة العصر.

وفيه: دليل أيضًا على أذكار الصباح وأذكار المساء، فأذكار الصباح تكون قبل طلوع الشمس، يعني: بعد الفجر، وأذكار المساء قبل غروب الشمس، يعني: بعد العصر.

{٤٨٥١} قوله: «أَمَرَهُ أَنْ يُسَبِّحَ» يعني: أمر الله نبيه ﷺ.

○ قوله: «فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا، يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾»، يعني: بعد الصلاة.

❖ ❖ ❖

{٤٨٥٢} قوله: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هٰذا، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ»

وفيه: إثبات رؤية الله ﷻ يوم القيامة، وقد دل القرآن الكريم على ذلك في آيات،

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القِيَامَة: ٢٢-٢٣] والسنة متواترة على إثبات الرؤية؛ ولهذا قال أئمة السنة: من أنكر رؤية الله فهو كافر على العموم.

وفيه: رؤية المؤمنين ربهم رؤية واضحة كرؤية القمر، وهذا تشبيه الرؤية بالرؤية، وليس تشبيه المرئي بالمرئي.

وفيه: دليل على أن مجالس النبي ﷺ كلها علم وفائدة، حيث نظر الصحابة إلى القمر فأعطاهم هذه الفائدة.

وفيه: دليل على أن المحافظة على صلاة الفجر وصلاة العصر والعناية بهما لها مزية في إثابة العبد برؤية الرب ﷻ والنظر إلى وجهه الكريم، ومعلوم أن كل مؤمن له نصيب من هذا النعيم - يعني: النظر إلى وجه الله الكريم - لكن المعتني بهاتين الصلاتين الكريمتين والمحافظ عليهما يكون له النصيب الأكبر والحظ الأوفر من هذا النعيم.

وفيه: فضل التسبيح والذكر في أدبار الصلوات وفي أول الليل وأول النهار، فالذكر له شأن في جميع الأوقات.

٥١- ومن سورة وَالذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: الرِّيَاحُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: تَذْرُوهُ: تُفَرِّقُهُ. ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾: تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ فِي مَدْخَلٍ وَاحِدٍ وَيَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعَيْنِ. ﴿فَرَاغَ﴾: فَرَجَعَ ﴿فَصَكَّتْ﴾: فَجَمَعَتْ أَصَابِعَهَا فَضَرَبَتْ جَبْهَتَهَا. وَالرَّمِيمُ: نَبَاتُ الأَرْضِ إِذَا يَبِسَ وَدِيسَ. ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أَيْ: لَذُو سَعَةٍ، وَكَذَلِكَ ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ يَعْنِي: القَوِيَّ ﴿زَوْجَيْنِ﴾: الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، وَاخْتِلَافُ الأَلْوَانِ حُلْوٌ وَحَامِضٌ فَهُمَا زَوْجَانِ. ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾: مِنَ اللهِ إِلَيْهِ. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: مَا خَلَقْتُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الفَرِيقَيْنِ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَلَقَهُمْ لِيَفْعَلُوا، فَفَعَلَ بَعْضٌ وَتَرَكَ بَعْضٌ، وَلَيْسَ فِيهِ حُجَّةٌ لأَهْلِ القَدَرِ، وَالذَّنُوبُ الدَّلْوُ العَظِيمُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صَرَّةٍ﴾: صَيْحَةٍ ﴿ذَنُوبًا﴾: سَبِيلًا. العَقِيمُ التِي لَاتَلِدُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: وَالْحُبُكُ اسْتِوَاؤُهَا وَحُسْنُهَا. ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾: فِي ضَلَالَتِهِمْ يَتَمَادَوْنَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: تَوَاصَوْا: تَوَاطَئُوا. وَقَالَ ﴿مُسَوَّمَةً﴾: مُعَلَّمَةً مِنَ السِّيمَا.

الشَّرح

○ قوله: «﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ [الذاريات: ١]»، يعني: «**الرِّيَاحُ**».

○ قوله: «﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١]: **تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ فِي مَدْخَلٍ وَاحِدٍ وَيَخْرُجُ مِنْ مَوْضِعَيْنِ**» أي: هذا من العبر، وهناك عبر أخرى كثيرة لا تحصى مثل السمع والبصر والكلام، فإذا تعطل العضو تعطلت الوظيفة، فهذا الإنسان أعجوبة العجائب في تركيبه وفي خلقه ففيه الدورة الدموية والأمعاء والدماغ والتفكير واليدين والرجلين وما يؤديه الإنسان من الأكل والشرب والبول والغائط، والحب والبغض والكره والنوم واليقظة، وأحوال الإنسان وتقلباته بين الإيمان وبين الكفر، والإقدام والجبن والشجاعة إلى غير ذلك من الصفات والأخلاق التي في هذا الإنسان، كل هذا دليل على بديع صنع الله.

○ قوله: «﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ [الذاريات: ٢٦] **فَرَجَعَ**» كأن سياق الكلام يقتضي أنه ذهب بسرعة.

○ قوله: «**وَالرَّمِيمُ: نَبَاتُ الأَرْضِ إِذَا يَبِسَ وَدِيسَ**» وهو العصف المأكول كما في قصة الذين غزوا مكة قال الله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ [الفيل: ٣-٥].

○ قوله: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَلَقَهُمْ لِيَفْعَلُوا، فَفَعَلَ بَعْضٌ وَتَرَكَ بَعْضٌ**» هذا هو المعتمد في تفسير قوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] وهو أنه خلقهم ليفعلوا، وليست هذه هي الحكمة وحدها، بل هناك حكم أخرى لخلق الخلق، منها أن يبلو العباد أيهم أحسن عملًا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢] ومنها أن يعرف بأسمائه وصفاته، وليعلم العباد أن الله على كل شيء قدير، وأن الله محيط علمه بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

○ قوله: «**وَلَيْسَ فِيهِ حُجَّةٌ لأَهْلِ القَدَرِ**»، يعني: ليس فيه حجة للنفاة، وهم المعتزلة القائلون بأن العباد خالقون لأفعالهم، ولا لأهل القدر المثبتة القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله من الأشعرية والجبرية.

○ قوله: «**وَالذَّنُوبُ الدَّلْوُ العَظِيمُ**»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩﴾ [الذاريات: ٥٩]، والمراد هنا الذنوب المعنوي، يعني: المقدار من الجزاء، وظاهر الآية أن الذنوب معناه الإثم؛ ولهذا قال المؤلف كما جاء في بعض النسخ: «**سجلًا من العذاب**»، يعني: مقدارًا من العذاب.

٥٢- ومن سورة الطُّورِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَّسْطُورٍ﴾: مَكْتُوبٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الطُّورُ الجَبَلُ بِالسُّرْيَانِيَّةِ. ﴿رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾: صَحِيفَةٍ. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾: سَمَاءٌ. ﴿الْمَسْجُورِ﴾: المُوقَدِ. وَقَالَ الحَسَنُ: تُسْجَرُ حَتَّى يَذْهَبَ مَاؤُهَا فَلَا يَبْقَى فِيهَا قَطْرَةٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَلَتْنَاهُم﴾: نَقَصْنَا. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تَمُورُ﴾: تَدُورُ. ﴿أَحْلَامُهُم﴾: العُقُولُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿الْبَرُّ﴾: اللَّطِيفُ. ﴿كِسَفًا﴾: قِطْعًا. المَنُونُ: المَوْتُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾: يَتَعَاطَوْنَ.

بَابٌ

{٤٨٥٣} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَوْفَلٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ زَيْنَبَ ابنةِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: شَكَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ، وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ». فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ البَيْتِ يَقْرَأُ بِالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ.

{٤٨٥٤} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثُونِي، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. قَالَ سُفْيَانُ: فَأَمَّا أَنَا فَإِنَّمَا سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ: يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ. لَمْ أَسْمَعْهُ زَادَ الذِي قَالُوا لِي.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ [الطُّور: ١]» فسره مجاهد بقوله: «الجَبَلُ بِالسُّرْيَانِيَّةِ».

قوله تعالى: «﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطُّور: ٦]»، أي: «المُوقَدِ».

○ قوله: «وَقَالَ الحَسَنُ: تُسْجَرُ حَتَّىٰ يَذْهَبَ مَاؤُهَا فَلَايَبْقَىٰ فِيهَا قَطْرَةٌ» ولا منافاة بين القولين، فإن البحار تسجر أولًا حتى يذهب ماؤها، ثم توقد بالنار، وهذا في يوم القيامة، فتضاف إلى النار فيزاد فيها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧]. وكذلك الجنة يزاد فيها، فإن الله لا يزال يحدث لأهل الجنة نعيماً بعد نعيم.

❖ ❖ ❖

{٤٨٥٣} قوله: «شَكَوْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ، وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ». فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَىٰ جَنْبِ البَيْتِ يَقْرَأُ بِـ ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطُّور: ١-٢]» كان هذا الطواف طواف الوداع في حجة الوداع في صبح اليوم الرابع عشر من ذي الحجة؛ حيث كانت أم سلمة مريضة، أما طواف الإفاضة فإن أزواج النبي ﷺ أفضن يوم النحر.

وفيه: دليل على أن طواف الوداع لا يسقط عن المريض، وأنه إذا عجز يطاف به محمولًا، كما فعلت أم سلمة رضي الله عنها حيث طافت من وراء الناس وهي راكبة.

وفيه: دليل على أن من طاف للوداع ثم صلى بعد الطواف الفريضة فإنه لا يعيد الوداع؛ فالنبي ﷺ طاف للوداع ثم أدركته صلاة الفجر فصلى بالناس ثم قفل راجعًا إلى المدينة، فكانت صلاة الفجر بعد طواف الوداع وقرأ في صلاة الفجر بالطور.

وفيه: دليل على أن الطواف لا يجب أن يكون ملاصقًا بالبيت، فهذه أم سلمة طافت راكبة على البعير من وراء الناس وهم يصلون حول الكعبة؛ فدل على أنه إذا طاف من بعيد فلا حرج ما دام أنه في المسجد.

❖ ❖ ❖

{٤٨٥٤} في هذا الحديث - حديث جبير رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قرأ في المغرب بالطور، وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها الذي قبله قرأ في الفجر بالطور؛

فدل على أن النبي ﷺ قد يقرأ في المغرب بما يقرأ به في الفجر، خلافًا لما اعتاده كثير من الأئمة من ملازمة قصار السور في المغرب.

وقيل: إن مروان الحمار أول من سن ملازمة قصار السور في المغرب، فأما سنة الرسول ﷺ فهي أحيانًا، وأحيانًا.

هذه القصة في الحديث حدثت لجبير قبل أن يسلم حيث سمع النبي ﷺ لما قدم إلى المدينة -وهذا في الهدنة التي كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين- يقرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطُّور: ٣٥-٣٧]، وقوله: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»، يعني: تأثرًا بقراءة النبي ﷺ، فلا يمكن أن يكون الإنسان خالقًا لنفسه؛ لأنه كان قبل ذلك عدمًا، والعدم لا يوجد نفسه، وكذلك أيضًا لا يمكن أن يكون الوجود بدون خالق؛ لأن المخلوق لابد له من خالق، فإذا لم يكونوا أوجدوا أنفسهم ولم يكونوا وجدوا من غير شيء تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفي هذا الرد على الملحدين الذين ينكرون وجود الله، وهو تعالى واجب الوجود لذاته، وهو الأحد ﷻ المتوحد والصمد الذي تصمد إليه الخلائق لحوائجها، فليس له فرع ولا أصل، وليس له ولد ولا والد، من أجل ذلك تأثر جبير قبل أن يسلم ومال إلى الإسلام ثم هداه الله للإسلام بعد ذلك.

٥٣- ومن سورة وَالنَّجْمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذُو قُوَّةٍ. ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ حَيْثُ الوَتَرُ مِنَ القَوْسِ. ﴿ضِيزَىٰٓ﴾: عَوْجَاءُ. ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾: قَطَعَ عَطَاءَهُ (رَبُّ الشِّعْرى): هُوَ مِرْزَمُ الجَوْزَاءِ (الَّذِي وَفَّى): وَفَّىٰ مَا فُرِضَ عَلَيْهِ ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧﴾: ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴿سَٰمِدُونَ﴾ البَرْطَمَةُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَتَغَنَّوْنَ بِالْحِمْيَرِيَّةِ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أَفَتُجَادِلُونَهُ، وَمَنْ قَرَأَ: (أَفَتَمْرُونَهُ) يَعْنِي أَفَتَجْحَدُونَهُ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ بَصَرُ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: وَلَا جَاوَزَ مَا رَأَىٰ. ﴿فَتَمَارَوْا۟﴾: كَذَّبُوا. وَقَالَ الحَسَنُ: (إِذَا هَوى): غَابَ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَغْنَى وَأَقْنَى﴾: أَعْطَىٰ فَأَرْضَىٰ.

بَابٌ

{٤٨٥٥} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا أُمَّتَاهْ، هَلْ رَأَىٰ مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ؟! مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ. ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾ [لقمان: ٣٤] وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ الآيَةَ [المائدة: ٦٧] وَلَكِنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ.

الشَّرح

○ قوله تعالى: «﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النَّجْم: ٦]» وصف لجبريل بالقوة، و﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النَّجْم: ٩] يعني: كان قريبًا من النبي ﷺ قرب الوتر من القوس.

○ قوله: «﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾ [النَّجم: ٢٢]» فسرها بأنها «عَوْجَاءُ»، والظاهر أن المراد بالقسمة الضيزى الجائرة، حيث يجعلون لله الأنثى ويجعلون لأنفسهم الذكر.

○ قوله: «﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ٤٩﴾ [النَّجم: ٤٩]» الشعرى نجم، و«هُوَ مِرْزَمُ الجَوْزَاءِ».

○ قوله: «﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ٦١﴾ [النَّجم: ٦١]» فسر السامدون بالبرطمة، وهي لغة غير عربية.

○ قوله: «وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَتَغَنَّوْنَ بِالْحِمْيَرِيَّةِ»، فالسمود هو اللهو، والغناء من اللهو.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ [النَّجم: ١٢] «أَفَتَمْرُونَهُ» بألف وبدون ألف فقال: في معنى ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أفتجادلونه، وقال في معنى: «أَفَتَمْرُونَهُ» أفتجدونه والاولى قراءة ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم[١].

○ قوله: «﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النَّجم: ١٧]: بَصَرُ مُحَمَّدٍ ﷺ»، يعني: في ليلة المعراج.

○ قوله: «﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ٤٨﴾ [النَّجم: ٤٨] أَعْطَىٰ فَأَرْضَىٰ» وهذا أحد قولين، وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن ﴿وَأَقْنَىٰ ٤٨﴾ من القنية، أي: أصول مال، وقيل: جعل له قنية من الرضا.

{٤٨٥٥} قوله: «هَلْ رَأَىٰ مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ؟! مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ. ثُمَّ قَرَأَتْ»، أي: استدلت بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يعني: لا تنظر إليه إلا يوم القيامة، فلا يمكن أن تراه الأبصار في الدنيا، واستدلت أيضا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشّورىٰ: ٥١]. فالرسول ﷺ كلمه الله من

(١) انظر: «الهادي شرح طيبة النشر» (٣/ ٢٥١).

وراء حجاب، ولم ير ربه وهو محجوب عن الرؤية، وما قالته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هو المعتمد والذي عليه الجماهير من أهل العلم، فالنبي ﷺ لم ير ربه في الدنيا، وفي ليلة المعراج لم يره بعين رأسه بل رآه بعين قلبه.

وذهب بعض العلماء منهم النووي والقرطبي وأبو الحسن الأشعري إلى أنه رأى ربه ليلة المعراج، وتوقف آخرون من أهل العلم، فقالوا: لا نقول: رآه، ولا نقول: لم يره؛ لأن النصوص متعارضة.

والصواب أنه لم يره، ففي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: هل رأيت ربك قال: «**نور أنى أراه؟**»[(١)]، وفي حديث أبي موسى: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[(٢)] فهو محتجب عن خلقه بالنور.

ويجمع بين الآثار التي وردت في هذا: أن ما جاء من الآثار في أن محمدًا رأى ربه محمول على رؤية القلب، وما جاء من الآثار على نفي الرؤية محمول على رؤية البصر، وبهذا تجتمع الآثار ولا تختلف، وهذا ما استدلت به عائشة، فالآية التي تنفي الرؤية بمعنى: لا تراه الأبصار في الدنيا، والمعنى الثاني: أن الآية تنفي الإدراك لا الرؤية، وهو قدر زائد على الرؤية، فالإدراك أخص من الرؤية.

والمعنى: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ولا يحيطون به رؤية لكمال عظمته.

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [النّجم: ١٢]: الرؤية هي رؤية جبريل، كما قالت عائشة؛ «وَلَكِنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ»، يعني: إن النبي ﷺ رآه مرتين على صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، رآه مرة في ليلة المعراج في السماء، ومرة في الأرض حين البعثة، ورآه في صور متعددة، فكان يأتي على صورة إنسان كما جاء على صورة دحية الكلبي.

---

(١) مسلم (١٧٨).

(٢) أحمد (٤/ ٤٠٥)، ومسلم (١٧٩).

بَابُ قوله:

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٩]

حَيْثُ الوَتَرُ من القَوْسِ.

{٤٨٥٦} حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ، حَدَّثَنَا الشَّيْبَانِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ زِرًّا، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٩، ١٠] قَالَ: حَدَّثَنَا ابن مَسْعُودٍ أَنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ.

الشَّرْح

{٤٨٥٦} قوله: «﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النّجْم: ٩-١٠]»، قاب قوسين يعني: مسافة الوتر من القوس، إشارة إلى القرب، ثم ذكر قول ابن مسعود: «أَنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ»، يعني: في الصورة التي خلق عليها، فرآه ليلة المعراج ولم ير ربه؛ لأنه محجوب.

والقاب يكون ما بين القبضة والسية من القوس، والمراد القوس التي يرمى بها.

وقال آخرون من أهل العلم: المراد بها الذراع؛ لأنه يقاس بها الشيء.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠]

{٤٨٥٧} حَدَّثَنَا طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ، حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٩، ١٠] قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ: أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ.

الشَّرْح

{٤٨٥٧} قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحاصل: أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يذهب إلى أن الذي رآه هو جبريل، كما ذهبت عائشة، والتقدير: فأوحى أي: جبريل إلى عبده أي عبد الله محمد ... وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله أوحى إلى عبده محمد ومنهم من قال: إلى جبريل» اهـ.

بَابُ قوله:

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١٨]

{٤٨٥٨} حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١٨] قَالَ: رَأَىٰ رَفْرَفًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الأُفُقَ.

الشَّرْح

{٤٨٥٨} قوله: «رَفْرَفًا أَخْضَرَ» هو جبريل عليه السلام.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «أبصر نبي الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض، فيجتمع من الحديثين أن الموصوف جبريل والصفة التي كان عليها» اهـ.

بَابٌ قوله:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١٩]

{٤٨٥٩} حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الأَشْهَبِ، حَدَّثَنَا أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ.

{٤٨٦٠} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزىٰ. فَلْيَقُلْ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ. وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ. فَلْيَتَصَدَّقْ».

الشَّرح

{٤٨٥٩} قوله: «كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الحَاجِّ» يعني: كان رجلًا صالحًا فلما مات غلوا في قبره لصلاحه فعبدوه فصار وثنًا لأهل الجاهلية، حتى صار من الأصنام الكبيرة، وهي اللات والعزى ومناة، وقد ذكرها الله في القرآن الكريم لإبطالها، وأنها لا تستحق شيئًا من العبادة.

واللاتَ بالتشديد وبالتخفيف، وقيل: اللات اسم للصخرة التي يلت عليها السويق، والسويق هو الحب المحموس يبل بالسمن والماء.

❖ ❖ ❖

{٤٨٦٠} في هذا الحديث إرشاد إلى أن من حلف، فقال: واللات والعزى أن يقول: لا إله إلا الله؛ لأنها توحيد ويمينه شرك، والتوحيد يكفر الشرك.

○ قوله: «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ. فَلْيَتَصَدَّقْ»، لأن طلب القمار معصية، والصدقة طاعة؛ فتكون الصدقة تكفر طلب القمار.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الخطابي: اليمين إنما تكون بالمعبود المعظم، فإذا حلف باللات ونحوها فقد ضاهى الكفار، فأمر أن يتداركه بكلمة التوحيد. وقال ابن العربي: من حلف بها جادًّا فهو كافر، ومن قالها جاهلًا أو ذاهلًا يقول: لا إله إلا الله يكفِّر الله عنه، ويرد قلبه عن السهو إلى الذكر، ولسانه إلى الحق وينفي عنه ما جرى به من اللغو».

وقول الخطابي: «من حلف بها جادًّا فهو كافر» ليس بجيد، بل إذا حلف جادًّا يظن أن لا بأس بذلك، أو قالها تساهلًا فلا يكفر، وإنما يكفر إذا حلف بها معظمًا لها، والجد لا يستلزم التعظيم.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ. فَلْيَتَصَدَّقْ» قال الخطابي: أي بالمال الذي كان يريد أن يقامر به، وقيل: بصدقة ما، لتكفر عنه القول الذي جرى على لسانه» اهـ. وهذا هو الصواب فالتكفير عن هذه يكون بأي بمال في وجوه الخير.

بَابٌ قوله:

﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ٢٠]

{٤٨٦١} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ سَمِعْتُ عُرْوَةَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّمَا كَانَ مَنْ أَهَلَّ بِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ التِي بِالْمُشَلَّلِ لَا يَطُوفُونَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فَطَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ. قَالَ سُفْيَانُ: مَنَاةُ بِالْمُشَلَّلِ مِنْ قُدَيْدٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدٍ: عَنِ ابن شِهَابٍ، قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: نَزَلَتْ فِي الأَنْصَارِ كَانُوا هُمْ وَغَسَّانُ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ. مِثْلَهُ. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: كَانَ رِجَالٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ كَانَ يُهِلُّ لِمَنَاةَ -وَمَنَاةُ صَنَمٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ- قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، كُنَّا لَا نَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ تَعْظِيمًا لِمَنَاةَ. نَحْوَهُ.

الشَّرْح

{٤٨٦١} قوله: «إِنَّمَا كَانَ مَنْ أَهَلَّ بِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ التِي بِالْمُشَلَّلِ لَا يَطُوفُونَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ»، وذلك تحرجًا؛ لأنهم كانوا في الأول يهلون لمناة - يعني: يذبحون لها - ثم يطوفون بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام تحرجوا وقالوا: كيف نطوف بها وكنا في الجاهلية نطوف بها؟!

○ قوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]»، أي: فلا جناح عليه أن يطوف.

○ قوله: «فَطَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ»، أي: كون المشركين يطوفون بهما بعد أن يهلوا لمناة لا يمنع من أن يطوف المسلمون بهما في الحج والعمرة.

○ قول عائشة: «يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ» مناة صنم بين مكة والمدينة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «بقيته عند الطبري: فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فقال النبي ﷺ: «**لا حرج**»[1].

(١) الطبري (٢/ ٤٨).

بَابٌ قوله:

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٦٢]

{٤٨٦٢} حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ. تَابَعَهُ ابن طَهْمَانَ، عَنْ أَيُّوبَ. وَلَمْ يَذْكُرِ ابن عُلَيَّةَ ابن عَبَّاسٍ.

{٤٨٦٣} حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ أَخْبَرَنِي أَبُو أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ [النجم: ١]. قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهْوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ.

الشَّرْح

هذه الآية وهي قول الله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّجم: ٦٢] فيها دليل على ثبوت السجدة في سورة النجم، والرد على من قال: إن المفصل ليس فيه سجدات.

{٤٨٦٢} قوله: «سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ» وكذلك السجدة في سورتي الانشقاق واقرأ.

❖ ❖ ❖

{٤٨٦٣} قوله: «أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ [النَّجم: ١]» فيه: دليل على أن فيها سجدة ثابتة.

○ قوله: «فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهْوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ» المراد أنه تَكَبَّرَ أن يسجد على الأرض فأخذ ترابًا ووضعه على جبهته.

وقال بعضهم: إن الذي لم يسجد هو الوليد ين المغيرة، وقيل: سعيد بن العاص بن أمية، لكن ما في الصحيح مقدَّم.

٥٤- سورة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾: ذَاهِبٌ ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾: مُتَنَاهٍ. ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾: فَاسْتُطِيرَ جُنُونًا ﴿وَدُسُرٖ﴾: أَضْلاَعُ السَّفِينَةِ، ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ يَقُولُ: كُفِرَ لَهُ جَزَاءً مِنَ اللهِ. ﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾: يَحْضُرُونَ المَاءَ. وَقَالَ ابن جُبَيْرٍ: ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ النَّسَلاَنُ، الخَبَبُ السِّرَاعُ. وَقَالَ غَيْرُهُ (فَتَعَاطَى) فَعَاطَهَا بِيَدِهِ فَعَقَرَهَا. ﴿ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ كَحِظَارٍ مِنَ الشَّجَرِ مُحْتَرِقٍ. ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ افْتُعِلَ مِنْ زَجَرْتُ. ﴿كَفَرَ﴾ فَعَلْنَا بِهِ وَبِهِمْ مَا فَعَلْنَا جَزَاءً لِمَا صُنِعَ بِنُوحٍ وَأَصْحَابِهِ. ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ عَذَابٌ حَقٌّ، يُقَالُ: الأَشَرُ: المَرَحُ وَالتَّجَبُّرُ.

الشَّرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تفسير معاني الكلمات التي قد يشكل معناها في سورة: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القَمَر: ١]، والساعة اسم من أسماء يوم القيامة، ولها كذلك أسماء متعددة، منها: الغاشية، والصاخة، والطامة الكبرى.

○ قوله: «﴿مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾ [القَمَر: ٢] ذَاهِبٌ» ومعنى ذاهب: باطل، والمراد: أن الكفار إذا رأوا آيات النبي ﷺ قالوا: هذا سحر سيذهب ويبطل، وهذا من كفرهم وعنادهم.

○ قوله: «﴿مُزۡدَجَرٌ ۝٤﴾ [القَمَر: ٤]: مُتَنَاهٍ» أي: القرآن غاية في الزجر

○ قوله: «﴿وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾ [القَمَر: ٩]: فَاسْتُطِيرَ جُنُونًا» يعني: أن قوم نوح لما ردوا دعوته قالوا عن نبي الله: مزدجر، ورموه بضعف العقل والجنون.

○ قوله: «﴿وَدُسُرٖ ۝١٣﴾ [القَمَر: ١٣]: أَضْلاَعُ السَّفِينَةِ»، والمشهور أن الدسر المسامير، وهذه رواية عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القَمَر: ٢٩] يعني: «فَعَاطَهَا بِيَدِهِ فَعَقَرَهَا»

وقتلها، وهو قدار بن ثابت كما سيأتي وأقره الباقون على ذلك، فأهلكهم الله فكانوا كالشجر المحترق.

○ قوله: «﴿مُّهْطِعِينَ﴾ [القَمَر: ٨] النَّسَلاَنُ، الخَبَبُ السِّرَاعُ» يعني: مسرعين، والخبب نوع من المشي السريع.

○ قوله: «﴿كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القَمَر: ١٤]، فَعَلْنَا بِهِ وَبِهِمْ مَا فَعَلْنَا جَزَاءً لِمَا صُنِعَ بِنُوحٍ وَأَصْحَابِهِ» والمعنى: أن الذي وقع بهم من الغرق، كان جزاء لنوح وهو الذي كُفِر - يعني: جُحد وكُذب - فجوزي بذلك لصبره عليهم.

○ قوله: «﴿مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القَمَر: ٢٨] يَحْضُرُونَ المَاءَ» أي: في قصة قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بَابُ قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ [القمر: ١-٢]

{٤٨٦٤} حَدَّثنا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنا يَحيَىٰ، عَنْ شُعْبَةَ وَسُفيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنِ ابن مَسْعُودٍ قَالَ: ٱنْشَقَّ القَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ وَفِرْقَةً دُونَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اشْهَدُوا».

{٤٨٦٥} حَدَّثنا عَلِيٌّ، حَدَّثَنا سُفيَانُ، أَخْبَرَنَا ابن أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ ٱنْشَقَّ القَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ، فَقَالَ لَنَا: «اشْهَدُوا، ٱشْهَدُوا».

{٤٨٦٦} حَدَّثَنَا يَحيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي بَكْرٌ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ عِرَاكِ ابْنِ مَالِكٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: ٱنْشَقَّ القَمَرُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ.

{٤٨٦٧} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ ٱنْشِقَاقَ القَمَرِ.

{٤٨٦٨} حَدَّثنا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنا يَحيَىٰ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: ٱنْشَقَّ القَمَرُ فِرْقَتَيْنِ.

الشَّرح

{٤٨٦٤}، {٤٨٦٥}، {٤٨٦٦}، {٤٨٦٧}، {٤٨٦٨} هذه الأحاديث والنصوص فيها إثبات انشقاق القمر، وهي من معجزات النبي ﷺ ومن علامات نبوته وآية من آيات الله، قال ابن عباس: «ٱنْشَقَّ القَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ وَفِرْقَةً دُونَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اشْهَدُوا»»؛ وفي حديث أنس: «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ ٱنْشِقَاقَ القَمَرِ»، لكنهم تكبروا وأعرضوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾

[القَمَر: ٢]، يعني أنهم قالوا: محمد سحر أبصارنا، وسنسأل المسافرين الذين يأتون من بعيد، فسألوا كل من يأتي من المسافرين فأخبروهم أنهم رأوا انشقاق القمر، ومع ذلك لم ينتفعوا بهذه المعجزة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المَائدة: ٤١].

بَابٌ قوله: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾ [القمر: ١٤-١٥].

قَالَ قَتَادَةُ: أَبْقَىٰ اللهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّىٰ أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ.

{٤٨٦٩} حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧].

الشَّرْح

فسَّر قتادة قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ [القَمَر: ١٥] بأنها سفينة نوح أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وروي عن قتادة أنه زاد: على الجودي، والجودي جبل بالموصل في العراق، وروي عن قتادة أنه قال: أبقى الله السفينة في أرض الجزيرة عبرة وعظة حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة.

{٤٨٦٩} قوله: «﴿مُّدَّكِرٖ ١٥﴾ [القَمَر: ١٥]» بالدال، وأصلها مذتكر فأدغمت التاء في الذال فأبدلت دالا.

بَابٌ قوله:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ **الآية** [القمر: ١٧]

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَسَّرْنَا﴾ [القَمَر: ١٧]: هَوَّنَّا قِرَاءَتَهُ.

{٤٨٧٠} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

الشَّرْح

قوله: «قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَسَّرْنَا﴾ [القَمَر: ١٧] هَوَّنَّا قِرَاءَتَهُ» أي: سهلنا تلاوته، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراد»(١).

{٤٨٧٠} وسيأتي خبر ابن مسعود رضي الله عنه لما قرأها بالذال فقال النبي ﷺ: ﴿مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾ [القَمَر: ١٥]

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٧٨).

بَاب

﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مِن مُّدَّكِرٖ﴾

{٤٨٧١} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا سَأَلَ الأَسْوَدَ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أَوْ (مُذَّكِرٍ) فَقَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ يَقْرَؤُهَا: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ٢٢] قَالَ: وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَؤُهَا: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ٢٢] دَالًا.

الشَّرْح

{٤٨٧١} قوله: «سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ يَقْرَؤُهَا: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ٢٢]» جاء في رواية الكشميهني هنا زيادة: (دالا) فعلى هذا تكون قراءة ابن مسعود رضي الله عنه بالدال وإنما قرأها بالذال أوّلًا فقرأها النبي ﷺ عليه بالدال.

بَابٌ ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: ٣١، ٣٢]

متدكر.

{٤٨٧٢} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٢] الآيَةَ.

الشَّرْح

{٤٨٧٢} وهذا أيضا فيه أن ابن مسعود ﷺ روى عن النبي ﷺ أنه قرأها في هذا الموضوع بالدال أيضا.

بَابٌ

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ إلىٰ قوله: ﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾

{٤٨٧٣} حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٤٠].

الشَّرْح

{٤٨٧٣} وهذا أيضا فيه أن ابن مسعود رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قرأها في هذا الموضوع بالدال أيضا.

بَابٌ

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ [القمر: ٥١]

{٤٨٧٤} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١].

الشَّرح

{٤٨٧٤} في هذا أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ بالدال فقرأ النبي ﷺ عليه الآية بالدال: ﴿مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾ [القَمَر: ٥١].

بَابٌ

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]

{٤٨٧٥} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوْشَبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ. وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ وُهَيْبٍ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَهْوَ فِي قُبَّةٍ يَوْمَ بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَلْحَحْتَ عَلَىٰ رَبِّكَ. وَهْوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهْوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

الشَّرح

{٤٨٧٥} هذا من علامات النبوة، حيث أخبر رسول الله ﷺ بهزيمتهم، ووقعت الهزيمة، وقول أبي بكر: «حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ» يعني: يكفيك.

بَابٌ

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦]

يَعْنِي: مِنَ المَرَارَةِ.

{٤٨٧٦} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ: أَخْبَرَنِي يُوسُفُ بْنُ مَاهَكَ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ قَالَتْ: لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَكَّةَ، وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦].

{٤٨٧٧} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ: «أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ أَبَدًا». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَىٰ رَبِّكَ. وَهُوَ فِي الدِّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: «﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾» [القمر: ٤٥، ٤٦].

الشَّرْح

○ قوله: «﴿وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦]» من المرارة، يعني: أمر الساعة أدهى وأشد مرارة.

{٤٨٧٦} قولها: «لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَكَّةَ» تعني: إنها مكية.
وفي هذا الحديث الوعيد والتهديد للكفار حيث لم يؤمنوا بالنبي ﷺ.

❖ ❖ ❖

{٤٨٧٧} في الحديث فوائد، منها: أنه ينبغي للإنسان أن يلح على ربه في الدعاء ولو كان مقامه عاليًا، فالنبي ﷺ مع علو مقامه ألح على ربه وأكثر إلحاحه.

وفيه: أن الله يحب الإلحاح في الدعاء ويحب سؤاله ﷻ بخلاف الآدمي فإنه لا يحب أن يلح عليه بالدعاء؛ ولهذا قال الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

فالله تعالى يحب الملحين في الدعاء، وأحبهم إليه أكثرهم إلحاحًا، وأما بنو آدم فإنهم لا يحبون من يسألهم، فضلًا عمن يلح، فيكرهونه كراهة شديدة.

٥٥- سورة الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ﴾ يُرِيدُ لِسَانَ المِيزَانِ، وَالْعَصْفُ: بَقْلُ الزَّرْعِ إِذَا قُطِعَ مِنْهُ شيء قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ فَذَلِكَ العَصْفُ. ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ رِزْقُهُ. ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ الذِي يُؤْكَلُ مِنْهُ، وَالرَّيْحَانُ فِي كَلَامِ العَرَبِ: الرِّزْقُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَالْعَصْفُ يُرِيدُ المَأْكُولَ مِنَ الحَبِّ، وَالرَّيْحَانُ النَّضِيجُ الذِي لَمْ يُؤْكَلْ. وَقَالَ غَيْرُهُ العَصْفُ وَرَقُ الحِنْطَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: العَصْفُ التِّبْنُ. وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ: العَصْفُ أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ تُسَمِّيهِ النَّبَطُ هَبُورًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: العَصْفُ وَرَقُ الحِنْطَةِ. وَالرَّيْحَانُ الرِّزْقُ، وَالْمَارِجُ: اللَّهَبُ الأَصْفَرُ وَالأَخْضَرُ الذِي يَعْلُو النَّارَ إِذَا أُوقِدَتْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ لِلشَّمْسِ فِي الشِّتَاءِ مَشْرِقٌ، وَمَشْرِقٌ فِي الصَّيْفِ. ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مَغْرِبُهَا فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لَا يَخْتَلِطَانِ ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ مَا رُفِعَ قِلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ، فَأَمَّا مَا لَمْ يُرْفَعْ قَلْعُهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ الصُّفْرُ يُصَبُّ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ، يُعَذَّبُونَ بِهِ. ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ يَهُمُّ بِالْمَعْصِيَةِ فَيَذْكُرُ اللهَ ﷿ فَيَتْرُكُهَا، الشُّوَاظُ لَهَبٌ مِنْ نَارٍ. ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ سَوْدَاوَانِ مِنَ الرِّيِّ. ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ طِينٌ خُلِطَ بِرَمْلٍ، فَصَلْصَلَ كَمَا يُصَلْصِلُ الفَخَّارُ. وَيُقَالُ: مُنْتِنٌ، يُرِيدُونَ بِهِ: صَلَّ، يُقَالُ: صَلْصَالٌ، كَمَا يُقَالُ: صَرَّ البَابُ عِنْدَ الإِغْلَاقِ، وَصَرْصَرَ مِثْلُ كَبْكَبْتُهُ يَعْنِي كَبَبْتُهُ. ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ الرُّمَّانُ وَالنَّخْلُ بِالْفَاكِهَةِ، وَأَمَّا العَرَبُ فَإِنَّهَا تَعُدُّهَا فَاكِهَةً كَقَوْلِهِ ﷿: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فَأَمَرَهُمْ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ كُلِّ الصَّلَوَاتِ، ثُمَّ أَعَادَ العَصْرَ تَشْدِيدًا لَهَا، كَمَا أُعِيدَ النَّخْلُ وَالرُّمَّانُ، وَمِثْلُهَا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] وَقَدْ ذَكَرَهُمْ فِي أَوَّلِ قَوْلِهِ: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿أَفْنَانٍ﴾: أَغْصَانٍ. ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: مَا يُجْتَنَىٰ قَرِيبٌ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ﴾: نِعَمِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿رَبِّكُمَا﴾ يَعْنِي الجِنَّ وَالإِنْسَ. وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿بَرۡزَخٞ﴾ حَاجِزٌ، الأَنَامُ: الخَلْقُ ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾: فَيَّاضَتَانِ ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ﴾: ذُو العَظَمَةِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: مَارِجٌ خَالِصٌ مِنَ النَّارِ، يُقَالُ: مَرَجَ الأَمِيرُ رَعِيَّتَهُ إِذَا خَلَّاهُمْ يَعْدُو بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ. مَرَجَ أَمْرُ النَّاسِ ﴿مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]: مُلْتَبِسٌ ﴿مَرَجَ﴾ ٱخْتَلَطَ البَحْرَانِ، مِنْ مَرَجْتَ دَابَّتَكَ تَرَكْتَهَا. ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾: سَنُحَاسِبُكُمْ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ وَهْوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ العَرَبِ يُقَالُ: لَأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ وَمَا بِهِ شُغْلٌ، يَقُولُ: لَآخُذَنَّكَ عَلَىٰ غِرَّتِكَ.

الشَّرح

جاء في بعض نسخ البخاري: قوله: «﴿بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرَّحمٰن: ٥] كحسبان الرحى»، يعني: في الدوران، فالشمس تجري ويتبعها القمر وهكذا، والليل يجري ويتبعه النهار وهكذا، كما قال الله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

○ قوله: «لِسَانَ المِيزَانِ»: روي عن ابن عباس، وذلك أنه لما رأى رجلًا يزن قال له: أقم اللسان. كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرَّحمٰن: ٩]. والقسط هو العدل.

○ قوله: «و﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾ [الرَّحمٰن: ١٢]: بَقْلُ الزَّرْعِ إِذَا قُطِعَ مِنْهُ شيء قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ» وقيل: هو التبن إذا داسته الدواب. ثم ذكر ذلك البخاري أقوالا في تفسير ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾، منها أنه «المَأْكُول مِنَ الحَبِّ» أو «وَرَقُ الحِنْطَةِ».

○ قوله: «وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ: ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾ [الرَّحمٰن: ١٢]، أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ تُسَمِّيهِ النَّبَطُ هَبُورًا» النبط أهل الفلاحة من الأعاجم، وكانت أماكنهم بسواد العراق.

○ قوله تعالى: «﴿كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الرَّحمٰن: ١٤]»، وهو الطين إذا طبخ ويبس يقال له: الفخار؛ لأنه يصلصل، أي: يصوت، ويقال الصلصال: هو المنتن، وآدم خلق من طين كالفخار، أما إبليس فقد خلق من الشواظ، أي لهب من نار.

○ وقوله: «﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾» ومن المعلوم أنه يوجد مشرق واحد ومغرب واحد، لكن الله ﷻ ثنَّى فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: ١٧] يعني: «لِلشَّمْسِ فِي الشِّتَاءِ مَشْرِقٌ، وَمَشْرِقٌ فِي الصَّيْفِ»، وكذلك «مَغْرِبُهَا فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ».

○ قوله تعالى: «﴿لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٢٠]»، يعني: المالح والحلو «لَا يَخْتَلِطَانِ»، وهذا من حكمة الله.

○ قوله تعالى: «﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٤]»، فسرها المؤلف بـ «مَا رُفِعَ قِلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ» - و«قِلْعُهُ» بكسر القاف وتفتح - أي المنشأة.

○ قوله: «﴿جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦]» أي: جنتان في الجنة.

○ قوله: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ الرُّمَّانُ وَالنَّخْلُ بِالْفَاكِهَةِ»؛ لأنه قال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ [الرَّحمٰن: ٦٨] ثم عطف عليه النخل والرمان، فدل على أن النخل شيء، والفاكهة شيء والرمان شيء، «وَأَمَّا العَرَبُ فَإِنَّهَا تَعُدُّهَا فَاكِهَةً»، وهذا هو الصواب، ويكون عطف النخل والرمان على الفاكهة من عطف الخاص على العام وذكر لهذا أمثلة: مثل قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨] حيث عطف ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ على ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ ولهذا قال: «فَأَمَرَهُمْ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ كُلِّ الصَّلَوَاتِ، ثُمَّ أَعَادَ العَصْرَ تَشْدِيدًا لَهَا، كَمَا أُعِيدَ النَّخْلُ وَالرُّمَّانُ، وَمِثْلُهَا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحَجّ: ١٨]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحَجّ: ١٨]، وَقَدْ ذَكَرَهُمُ الله ﷻ فِي أَوَّلِ قَوْلِهِ: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾».

○ قوله: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾» أي: بأي نعم ﴿رَبِّكُمَا﴾ أيها الجن والإنس ﴿تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرَّحمٰن: ١٣].

○ قوله ﷻ: «﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٢٩]» يعني: «يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ»، ويسعد قومًا ويشقي آخرين، ويذل قومًا ويعجز آخرين، فهو يتصرف في ملكه وفق مشيئته وحكمته، فله الحكمة البالغة ﷻ.

○ قوله تعالى: «﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [الرَّحمٰن: ١٥]»، أي: «خَالِصٌ مِنَ النَّارِ»، ويقال في اللغة: «مَرَجَ الأَمِيرُ رَعِيَّتَهُ إِذَا خَلَّاهُمْ يَعْدُو بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ»، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [قٓ: ٥]، أي: ملتبس.

○ وقوله تعالى: «﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ [الرَّحمٰن: ٣١]»، هذا تهديد، والمراد «سَنُحَاسِبُكُمْ»، وليس المراد أن الله مشغول؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ، وَهْوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ العَرَبِ»، في لغة العرب يقول الشخص لمن يتهدده: «لأَتَفَرَّغَنَّ لَكَ»، يعني: سوف أعاقبك، يقول ذلك وليس بمشغول، لكن المراد التهديد يقول: «لآخُذَنَّكَ عَلَىٰ غِرَّتِكَ»، والقرآن نزل بلغة العرب.

○ قوله: «﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ [الرَّحمٰن: ٦٤]» أي: «سَوْدَاوَانِ مِنَ كثرة الرِّيِّ»، يعني: من الخضرة للسواد.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ [الرحمن: ٦٢]

{٤٨٧٨} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ العَمِّيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

الشَّرْح

{٤٨٧٨} هذا الحديث فيه: إثبات صفة الجنة، وأن من أنكر الجنة والنار فهو كافر؛ لأنه لم يؤمن بيوم الحساب.

وفيه: أن الجة جنادٌ كثيرة.

وفيه: إثبات الوجه لله ﷻ وهو صفة من صفاته.

وفيه: إثبات رداء الكبر لله، وهو صفة من صفاته التي تدل على عظمته، وأنه احتجب به عن خلقه.

وفي الحديث الآخر يقول الرب ﷻ: **«العز إزاره، والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته»**[1]، فالعظمة والكبر كلاهما صفة من صفات الله، ورداء الكبر على وجهه صفة من صفاته ﷻ احتجب به عن خلقه.

(١) مسلم (٢٦٢٠)..

بَابٌ قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن: ٧٢]

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿حُورٌ﴾: [الرحمن: ٧٢] سُودُ الحَدَقِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾ [الرحمن: ٧٢]: مَحْبُوسَاتٌ، قُصِرَ طَرْفُهُنَّ وَأَنْفُسُهُنَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ، قَاصِرَاتٌ لَايَبْغِينَ غَيْرَ أَزْوَاجِهِنَّ.

{٤٨٧٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّىٰ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الجَوْنِيُّ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُونَ».

{٤٨٨٠} «وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ».

الشَّرح

الحور: نساء أهل الجنة، وقوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: الحوراء سُودُ الحَدَقِ»، أي: سواد مع بياض.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾ [الرَّحمٰن: ٧٢] مَحْبُوسَاتٌ، قُصِرَ طَرْفُهُنَّ وَأَنْفُسُهُنَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ»، يعني: لا يبغين غيرهم.

{٤٨٧٩}، {٤٨٨٠} قوله: «لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ» يعني: واسعة الجوف من لؤلؤ الجنة.

○ قوله: «عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا» الميل يعادل كيلوين إلا ربعًا تقريبًا، أي: تقارب مائة كيلو، «فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ» للمؤمن لا يرون الآخرين «يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُونَ»، ثم يكشف الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - الحجاب فيراه المؤمنون، وأعظم نعيم يعطاه أهل الجنة رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا كشف الحجاب نظروا إليه فنسوا ما هم فيه من النعيم.

٥٦- سورة الوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رُجَّتِ﴾: زُلْزِلَتْ ﴿وَبُسَّتِ﴾: فُتَّتْ لُتَّتْ كَمَا يُلَتُّ السَّوِيقُ، المَخْضُودُ: المُوقَرُ حَمْلًا، وَيُقَالُ أَيْضًا: لَا شَوْكَ لَهُ. ﴿مَّنضُودٍ﴾: المَوْزُ، وَالْعُرُبُ: المُحَبَّبَاتُ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ثُلَّةٌ﴾: أُمَّةٌ ﴿يَحْمُومٍ﴾: دُخَانٌ أَسْوَدُ ﴿يُصِرُّونَ﴾: يُدِيمُونَ. الهِيمُ: الإِبِلُ الظِّمَاءُ ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾: لَمُلْزَمُونَ ﴿فَرَوْحٌ﴾: جَنَّةٌ وَرَخَاءٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: الرِّزْقُ ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾: فِي أَيِّ خَلْقٍ نَشَاءُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تَعْجَبُونَ ﴿عُرُبًا﴾: مُثَقَّلَةً وَاحِدُهَا عَرُوبٌ مِثْلُ صَبُورٍ وَصُبُرٍ، يُسَمِّيهَا أَهْلُ مَكَّةَ العَرِبَةَ، وَأَهْلُ المَدِينَةِ الغَنِجَةَ، وَأَهْلُ العِرَاقِ الشَّكِلَةَ. وَقَالَ فِي ﴿خَافِضَةٌ﴾: لِقَوْمٍ إِلَى النَّارِ، وَ ﴿رَّافِعَةٌ﴾: إِلَى الجَنَّةِ ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾: مَنْسُوجَةٍ، وَمِنْهُ: وَضِينُ النَّاقَةِ، وَالْكُوبُ: لَا آذَانَ لَهُ وَلَا عُرْوَةَ، وَالأَبَارِيقُ: ذَوَاتُ الآذَانِ وَالْعُرَىٰ. ﴿مَّسْكُوبٍ﴾: جَارٍ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴿مُتْرَفِينَ﴾: مُتَمَتِّعِينَ ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: هِيَ النُّطْفَةُ فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ. (لِلْمُقْوِينَ): لِلْمُسَافِرِينَ، وَالْقِيُّ: القَفْرُ. ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾: بِمُحْكَمِ القُرْآنِ، وَيُقَالُ: بِمَسْقِطِ النُّجُومِ إِذَا سَقَطْنَ، وَمَوَاقِعُ وَمَوْقِعٌ وَاحِدٌ. ﴿مُّدْهِنُونَ﴾: مُكَذِّبُونَ مِثْلُ ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]. ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ أَيْ: مُسَلَّمٌ لَكَ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ، وَأُلْغِيَتْ إِنَّ وَهْوَ مَعْنَاهَا كَمَا تَقُولُ: أَنْتَ مُصَدَّقٌ مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، إِذَا كَانَ قَدْ قَالَ: إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ. وَقَدْ يَكُونُ كَالدُّعَاءِ لَهُ كَقَوْلِكَ: فَسَقْيًا مِنَ الرِّجَالِ. إِنْ رَفَعْتَ السَّلَامَ فَهْوَ مِنَ الدُّعَاءِ ﴿تُورُونَ﴾: تَسْتَخْرِجُونَ. أَوْرَيْتُ: أَوْقَدْتُ. ﴿لَغْوًا﴾: بَاطِلًا. ﴿تَأْثِيمًا﴾: كَذِبًا.

الشَّرْح

الواقعة من أسماء يوم القيامة، ويوم القيامة له أسماء عديدة، منها: القارعة، والصاخة، والزلزلة، وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فيها ما يزيد على ثلاثين اسمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: ١-٣]، أي: إذا جاءت القيامة لا أحد يمنعها، وهي حق ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾: تخفض أقوامًا وترفع أقوامًا، فالمؤمنون يرفعهم الله، والكفار يخفضهم الله.

○ قوله: «﴿رُجَّتِ﴾ [الواقعة: ٤]: **زُلْزِلَتْ**»، المعنى: أن يوم القيامة ترج فيه الأرض وتزلزل، فإذا أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور رجت الجبال وزلزلت، كما في الآية الكريمة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١].

○ قوله: «﴿وَبُسَّتِ﴾ [الواقعة: ٥]»، أي: «**فُتَّتْ**» الجبال المكونة من الصخور الصماء «**لُتَّتْ كَمَا يُلَتُّ السَّوِيقُ**»، وفي الآية الأخرى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]، يعني: كالصوف المندوف.

○ قوله: «**المَخْضُودُ: لَا شَوْكَ لَهُ**» وقيل: الموقر حملًا، ففي قصص المؤمنين: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨]: والسدر معروف، وهو نوع من الفاكهة.

وقوله تعالى: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾ [الواقعة: ٣٥]، يعني: النساء في الجنة، ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦﴾ [الواقعة: ٣٦] أي: يخلقن خلقًا جديدًا، ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة: ٣٧]، يعني: متحببات لأزواجهن.

○ قوله: «﴿ثُلَّةٌ﴾ [الواقعة: ٣٩]: **أُمَّةٌ**» قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقال أبو عبيدة: الثلة الجماعة، والثلة البقية»، هذا هو الأقرب.

○ قوله: «﴿يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾ [الواقعة: ٤٣]: **دُخَانٌ أَسْوَدُ**» هذا جزاؤهم على أعمالهم الخبيثة؛ لأنهم يكذبون بيوم الدين، و﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ [الواقعة: ٤٦]، يعني: «**يُدِيمُونَ**» على الإثم العظيم.

○ قوله: «﴿عُرُبًا﴾ [الواقعة: ٣٧] **مُثَقَّلَةً، وَاحِدُهَا: عَرُوبٌ، مِثْلُ: صَبُورٍ وَصُبُرٍ، يُسَمِّيهَا أَهْلُ مَكَّةَ: العَرِبَةَ، وَأَهْلُ المَدِينَةِ: الغَنِجَةَ، وَأَهْلُ العِرَاقِ: الشَّكِلَةَ**» فالمؤلف رحمه الله حريص على إفادة طالب العلم وتصريف الكلمة.

رجع المؤلف إلى أول السورة فلم يرتب، وكان الأولى الترتيب.

○ قوله: «﴿خَافِضَةٌ﴾ [الواقِعَة: ٣]»، يعني: أن الواقعة - القيامة - «﴿خَافِضَةٌ﴾ لِقَوْمٍ إِلَى النَّارِ»، و«﴿رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقِعَة: ٣]» للمؤمنين «إِلَى الجَنَّةِ».

○ وقوله: «﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ [الواقِعَة: ١٥]»، أي: «مَنْسُوجَةٍ، وَمِنْهُ: وَضِينُ النَّاقَةِ» أفاده في نسخة.

قوله تعالى: «﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ [الواقِعَة: ١٨]». فرَّق المؤلف في بعض النسخ بين الأكواب والأباريق، فالأكواب: لا آذان لها ولا عروة، والأباريق لها آذان وعروة يمسك منها.

قوله تعالى: «﴿مَدِينِينَ ۝٨٦﴾ [الواقِعَة: ٨٦]»، يعني: أهل النار؛ لأنهم كانوا قبل ذلك متمتعين يأكلون كما تأكل الأنعام.

○ قوله: «﴿بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقِعَة: ٧٥] بِمُحْكَمِ القُرْآنِ»؛ لأنه كان ينزل على النبي ﷺ منجمًا على حسب الحوادث، وقيل: المراد بالنجوم: النجوم التي في السماء بمساقطها.

قوله تعالى: «﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ [الواقِعَة: ٨١]»، يعني: القرآن، وهو إنكار عليهم، والمعنى: أفأنتم تكذبون بالقرآن؟، قوله: «مِثْلُ: ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القَلَم: ٩]»، معنى ذلك: لو تكفر فيكفرون.

قوله تعالى: «﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ [الواقِعَة: ٩١] مُسَلَّمٌ لَكَ»، يعني: مسلم لك على تقدير «إِنَّكَ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾»، وحذفت «إِنْ» وهي منوية في المعنى، ومثال ذلك كما تقول العرب: «أَنْتَ مُصَدَّقٌ مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، إِذَا كَانَ قَدْ قَالَ: إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ. وَقَدْ يَكُونُ كَالدُّعَاءِ لَهُ»: يعني إذا قال: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ [الواقِعَة: ٩١] كأنه يدعو له بالسلامة، كقولك: «فَسَقْيًا مِنَ الرِّجَالِ».

بَابٌ

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة: ٣٠]

{٤٨٨١} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة: ٣٠]».

الشَّرْح

{٤٨٨١} قوله: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»، هذا يدل على عظمة سعة الجنة، فشجرة واحدة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، وليس المراد بالظل الذي يكون من الشمس؛ لأن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر، بل فيها نور مطرد، فليس فيها ليل ولا نهار، قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ [الإنسان: ١٣].

٥٧- سورة الحَدِيدُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾: مُعَمَّرِينَ فِيهِ. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الهُدَىٰ. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جُنَّةٌ وَسِلَاحٌ. ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: أَوْلَىٰ بِكُمْ. ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ. يُقَالُ: الظَّاهِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَالْبَاطِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا. ﴿أَنظِرُونَا﴾: ٱنْتَظِرُونَا.

الشَّرح

قال الحافظ ابن كثير: ﴿مِّمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم.

أشار في بعض النسخ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، أي: أنفقوا من المال الذي جعلكم مستخلفين فيه، أي: «مُعَمَّرِينَ» ومملكين «فِيهِ»، وهذا الأقرب، فيكون المعنى: استخلفكم الله وأعطاكم هذا المال فهو عارية بين أيديكم، فأنفقوا من هذا المال الذي أعطاكم الله في سبل الخيرات، والاستخلاف هو أن يوكل المالك شخصًا يقوم مقامه وينفذ ما أمره به، فالله تعالى استخلف الناس فأعطاهم المال وشرع لهم الشرائع في كتبه وعلى ألسنة رسله ليعملوا في هذا المال وفق شرعه.

○ قوله: «﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] جُنَّةٌ وَسِلَاحٌ»، هذا من باب المثال، والمعنى: الحديد فيه قوة وصلابة ومنافع أخرى للناس، والآن صار للحديد في آخر الزمان منافع لا حصر لها مثل: صناعة السيارات، والطائرات، والسفن، والمراكب، والأسلحة، والصواريخ، والقنابل، والأمتعة، والقدور وغيرها.

قوله تعالى: «﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ» و«لا»

لزيادة التأكيد، والتقدير: ليعلم أهل الكتاب. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال الفراء: العرب تجعل «لا» صلة في الكلام».

○ قوله تعالى: «﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ١٥]» يعني: «أَوْلَىٰ بِكُمْ».

○ قوله: «الظَّاهِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَالْبَاطِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا»، يعني: لا يخفى عليه شيء، والظاهر والباطن من أسماء الله عز وجل.

وتفسير المصنف للظاهر والباطن مرجوح، والصواب ما فسره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر**»(١) فمعنى الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وهو فوق المخلوقات سبحانه وتعالى وفوق العرش، والباطن الذي لا يحجبه شيء من خلقه.

---

(١) أحمد (٢/ ٣٨١)، ومسلم (٢٧١).

٥٨- سورة المُجَادَلَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُحَآدُّونَ﴾: يُشَاقُّونَ اللهَ. ﴿كُبِتُوا﴾: أُخْزِيُوا، مِنَ الخِزْىِٰ.
﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾: غَلَبَ.

الشَّرح

سورة «المُجَادَلَةُ»، ويقال: المجادِلة أي المرأة التي جادلت النبي ﷺ في زوجها ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]. ولم يذكر المؤلف هنا حديثًا، ولكن يناسبه حديث المرأة التي ظاهر منها زوجها.

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «أخرجه النسائي والبخاري ذكر طرفًا منه في كتاب التوحيد».

- وقوله: «﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٥]»، يعني: «يُشَاقُّونَ».
- قوله تعالى: «﴿كُبِتُوا﴾ [المجادلة: ٥]»، أي: «أحزنوا» وفي نسخة: «أُخْزِيُوا، مِنَ الخِزىٰ».
- قوله: «﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ [المجادلة: ١٩]» يعني: «غَلَبَ».

٥٩- سورة الحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْجَلَآءَ﴾: الإِخْرَاجُ مِنْ أَرْضٍ إِلَىٰ أَرْضٍ.

{٤٨٨٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ؟ قَالَ: التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّىٰ ظَنُّوا أَنَّهَا لَمْ تُبْقِ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا. قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الأَنْفَالِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ. قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الحَشْرِ. قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ.

{٤٨٨٣} حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ مُدْرِكٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ حَمَّادٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدٍ قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: سُورَةُ الحَشْرِ؟ قَالَ: قُلْ سُورَةُ النَّضِيرِ.

الشَّرح

○ قوله: «﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ [الحشر: ٣]: الإِخْرَاجُ مِنْ أَرْضٍ إِلَىٰ أَرْضٍ»، يعني: اليهود؛ لأن النبي ﷺ أجلاهم من بلاد الحجاز إلى الشام.

{٤٨٨٢} قوله: «التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ» تسمى الفاضحة لأنها ما زالت تنزل في وصف المنافقين «حَتَّىٰ ظَنُّوا أَنَّهَا لَمْ تُبْقِ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا».

والشاهد من الحديث أن سورة الحشر «نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ»؛ ولذلك تسمى سورة بني النضير.

❖ ❖ ❖

{٤٨٨٣} قوله: «قُلْ سُورَةَ النَّضِيرِ» كأنه كره تسميتها بالحشر؛ لئلا يظن أن المراد يوم القيامة، والمراد بالحشر هنا: إخراج بني النضير، فهو حشر خاص.

بَابٌ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: ٥].

نَخْلَةٍ مَا لَمْ تَكُنْ عَجْوَةً أَوْ بَرْنِيَّةً.

{٤٨٨٤} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ البُوَيْرَةُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾.

الشَّرح

○ قوله: «باب قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: ٥]» بيان ذلك أنه لما حاصر المسلمون بني النضير صار بعضهم يقطع النخيل، وبعضهم لا يقطع، وكل له وجه، فمن قطع النخيل فهذا إغاظة للكفار فلا بأس، ومن تركها رأى أنه مال يؤول للمسلمين وينتفعون به؛ فلهذا أقرهم الله ﷻ بقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] فالله أذن لهؤلاء ولهؤلاء، وهذا إذن شرعي.

○ قوله: «مَا لَمْ تَكُنْ عَجْوَةً أَوْ بَرْنِيَّةً» هذا اصطلاح، والأصل أن اللينة هي النخلة.

{٤٨٨٤} هذا الحديث في سبب نزول هذه الآية التي ترجم عليها البخاري رحمه الله.

وفيه: إقرار الله ﷻ للمؤمنين الذين اجتهدوا فقطعوا شجر اليهود ونخيلهم إغاظة لهم، وإقرار لمن استبقوها لأنها ستؤول للمسلمين.

واللينة هي النخلة، «وهي من الألوان» كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله، وأصلها ليونة، فسكنت الواو وكسر ما قبلها فقلبت الواو ياء؛ فصارت لينة.

بَابُ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشر: ٦]

{٤٨٨٥} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ- غَيْرَ مَرَّةٍ- عَنْ عَمْرٍو، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الحَدَثَانِ، عَنْ عُمَرَ ﵁ قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِفِ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً، يُنْفِقُ عَلَىٰ أَهْلِهِ مِنْهَا نَفَقَةَ سَنَتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ، عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ.

الشَّرْح

{٤٨٨٥} قوله: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ»، لأن أموال بني النضير أخذها النبي ﷺ بدون قتال، وما كان بدون قتال فإنها تكون له ﷺ خاصة؛ وذلك قوله: «مِمَّا لَمْ يُوجِفِ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ».

وفرق بين الفيء والغنيمة، فالفيء: ما أخذ من أموال المشركين بدون قتال، وهذا يكون للنبي ﷺ، والغنيمة: ما أخذ من أموالهم بعد القتال، ويكون للنبي ﷺ منها الخمس، ويوزع أربعة أخماسها على الغانمين.

وفي الحديث: دليل على أنه لا بأس بكون الإنسان يدخر نفقة سنة، وأن هذا لا ينافي التوكل على الله؛ فالنبي ﷺ كان ينفق على أهله نفقة سنة، ولكن تأتي عليه النفقات فينتهي عنده قبل سنة، حيث يأتي عليه الضيوف والمحتاجون بل كان يستدين ﷺ، وقد مات ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير[(١)].

(١) البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

بَابٌ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]

{٤٨٨٦} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ ٱمْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قَالَتْ: بَلَىٰ. قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَىٰ عَنْهُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَىٰ أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ. قَالَ: فَاذْهَبِي فَانْظُرِي. فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُنَا.

{٤٨٨٧} حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُفْيَانَ قَالَ ذَكَرْتُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَابِسٍ حَدِيثَ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الوَاصِلَةَ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنِ ٱمْرَأَةٍ يُقَالُ: لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ.. عَنْ عَبْدِ اللهِ مِثْلَ حَدِيثِ مَنْصُورٍ.

الشَّرْح

{٤٨٨٦} هذا الحديث فيه: أن الوشم والنمص من الكبائر؛ لأن اللعن لا يكون إلا على كبيرة، وكذلك المتفلجات للحسن.

والواشمة: هي التي تفعل الوشم، معناه: أن تغرز إبرة في الجلد حتى يخرج الدم ويصل إلى الجلد، ثم بعد ذلك يصب فيه شيء من الكحل، فيبقى ولا يزول، وقد يجعله البعض على صورة طير أو صورة صقر، والتوبة توجب إزالته، إلا إذا كان يضر فاعله إزالته ولا يستطيع فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

والمتفلجات للحسن: هي التي تفلج أسنانها حتى تكون فيه فتحات صغيرة لأجل الجمال، وهذا منهي عنه؛ لأن هذا فيه تغيير لخلق الله، أما التي تزيل عيبًا في الأسنان فهذا لا بأس به.

وكذلك الواصلات، فقد جاء في الحديث الآخر: «**لَعن الله الواصلة**»، والواصلة: هي التي تصل الشعر، والموصولة: هي التي يفعل بها ذلك؛ لما فيه من التزوير.

وفي الحديث: من الفوائد أن اتباع أمر رسول الله ﷺ هو اتِّباع لأمر الله؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، والمعنى: أن الله تعالى أمر في كتابه الأخذ بما جاء به الرسول ﷺ، والرسول ﷺ لعن الواصلة والمستوصلة.

○ قوله: «**لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعَتْنَا**»، في نسخة: «**ما جامَعْتُها**» يعني: المراد بالجماع الوطء، ويحتمل «**ما جامعتها**» أي: ما أبقيتها عندي، وما اجتمعت معي في العصمة وطلقتها، وهذا هو الأقرب، قال الحافظ ابن حجر ﵀: «ويؤيده قوله في رواية الكشميهني: «**ما جامعتنا**» والإسماعيلي: «**ما جامعتني**»».

وفي الحديث: دليل على جواز اللعن من فعل المعاصي على العموم.

❖ ❖ ❖

{٤٨٨٧} هذا الحديث هو الحديث السابق، جاء به المؤلف ﵀ لفائدة حديثية، وهي تنويع السند لتقوية الحديث وبيان تعدد طرقه.

بَابٌ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحشر: ٩]

{٤٨٨٨} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ عَمْرِو ابْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﷺ: أُوصِي الخَلِيفَةَ بِالْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأُوصِي الخَلِيفَةَ بِالأَنْصَارِ الذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَعْفُوَ عَنْ مُسِيئِهِمْ.

الشَّرْح

{٤٨٨٨} الشاهد من الحديث قوله: «وَأُوصِي الخَلِيفَةَ بِالأَنْصَارِ الذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ» فبعد أن ذكر الله ﷻ في سورة الحشر المهاجرين الذين استوطنوا المدينة، ذكر بعدهم الأنصار فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحَشر: ٩].

بَابُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]

فاقة. ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]: الفَائِزُونَ بِالْخُلُودِ، والْفَلاَحُ: البَقَاءُ، حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ: عَجِّلْ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿حَاجَةً﴾ [الحشر: ٩]: حَسَدًا.

{٤٨٨٩} حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا فُضَيْلُ بْنُ غَزْوَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ الأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَىٰ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَابَنِي الجَهْدُ. فَأَرْسَلَ إِلَىٰ نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللهُ؟». فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. فَذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا. قَالَتْ: واللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَي فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ. فَفَعَلَتْ ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ ﷻ -أَوْ ضَحِكَ- مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ». فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

الشرح

○ قوله: «باب ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]» فيه فضل الأنصار؛ فالأنصار يؤثرون غيرهم عليهم ولو كان بهم حاجة ومجاعة.

○ قوله: «﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩]: الفَائِزُونَ بِالْخُلُودِ، والْفَلاَحُ: البَقَاءُ»، هو بمعنى إدراك الطلب.

○ قوله: «حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ: عَجِّلْ» قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وقال ابن التين: معناه هلم وأقبل».

○ قوله: «وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿حَاجَةً﴾ [الحشر: ٩]: حَسَدًا» يشير إلى تفسير

الحاجة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: ٩]، والمعنى: أنهم إذا أعطوا أحدًا لا يكون في أنفسهم حسد ولا يكون لهم تعلق.

{٤٨٨٩} في الحديث: فضل الأنصاري الذي آثر الضيف على نفسه وأهله وصبيانه.

○ قوله: «وَتَعَالَي فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ»: ليس صريحًا في أن المرأة كانت تأكل معهم، وإن كانت تأكل معهم فإما أن هذا كان قبل نزول الحجاب، أو كان بعد الحجاب وهو معها محرم، لكن الأقرب - والله أعلم - الأول.

○ وقوله: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ ﷻ - أَوْ ضَحِكَ» فيه: إثبات العجب والضحك لله ﷻ وهو من الصفات الفعلية على ما يليق بجلال الله ﷻ وعظمته.

وما نقله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ عن الخطابي من قوله: «إطلاق العجب على الله ﷻ محال، ومعناه الرضا» نرد عليه: بأن تأويل العجب أو الضحك بالرضا تأويل لا وجه له.

والصواب: إثبات الضحك والعجب لله ﷻ على ما يليق بجلال الله ﷻ وعظمته؛ فالرسول ﷺ وصف ربه بذلك وهو أعلم الخلق بربه.

٦٠- سورة المُمْتَحَنَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾: لَاتُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ فَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ هٰؤلاء عَلَى الحَقِّ مَا أَصَابَهُمْ هٰذا ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أُمِرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ بِفِرَاقِ نِسَائِهِمْ، كُنَّ كَوَافِرَ بِمَكَّةَ.

الشَّرْح

«سورة المُمْتَحَنَةِ» - بالفتح - مشهورة بهذه التسمية، وقد تكسر، وعلى الأول فهي صفة المرأة التي نزلت السورة بسببها، وقيل: إنها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وقيل: سعيدة بنت الحارث، وقيل: أميمة بنت بشر، والممتحنة - بالكسر - صفة للسورة، كما قيل لبراءة: الفاضحة.

○ قوله: «﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [المُمتَحنَة: ١٠]»؛ هذا أمر لأصحاب النبي ﷺ وللمؤمنين أن يفارقوا النساء الكافرات بمكة وأن يخلوا سبيلهن.

والعِصَم: جمع عصمة، و﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾ جمع كافرة.

بَابٌ

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]

{٤٨٩٠} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ: حَدَّثَنِي الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ كَاتِبَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه يَقُولُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّىٰ تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا». فَذَهَبْنَا تَعَادىٰ بِنَا خَيْلُنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ. فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ. فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَىٰ أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِمَّنْ بِمَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا هٰذَا يَا حَاطِبُ؟». قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مِنْ قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِمَكَّةَ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَصْطَنِعَ إِلَيْهِمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ». فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَقَالَ: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ ﷻ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». قَالَ عَمْرٌو وَنَزَلَتْ فِيهِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] قَالَ: لَا أَدْرِي الآيَةَ فِي الحَدِيثِ أَوْ قَوْلُ عَمْرٍو.

حدثنا علي قال: قيل لسفيان في هذا، فنزلت ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. قال سفيان: هذا في حديث الناس، حفظته من عمرو ما تركت منه حرفًا، وما أرى أحدًا حفظه غيري.

الشَّرح

{٤٨٩٠} هذه الآية نزلت في قصة حاطب، وفي الحديث: أن حاطبًا كتب

كتابًا يخبر قريشًا بمسير النبي ﷺ إليهم، وتحكي السير أنه كتب إليهم: «**أن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، فخذوا حذركم**»[(١)] فجاء الوحي من السماء إلى النبي ﷺ بأن حاطبًا كتب كتابًا وأعطاه الظعينة - والظعينة: المرأة التي على الناقة، وأصل الظعينة: الناقة أو البعير ثم أطلق على المرأة - فبعث النبي ﷺ ثلاثة وهم: علي، والزبير، والمقداد؛ وكلهم شباب أقوياء تتعادى بهم الخيل، فقال: «**انْطَلِقُوا حَتَّىٰ تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا**» قال: «**فَذَهَبْنَا تَعَادىٰ بِنَا خَيْلُنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ**» فلحقوها فقالوا لها: «**أَخْرِجِي الكِتَابَ**»، فأنكرت وقالت: «**مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ**»، فقالوا لها: «**لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ**»، أي: نجردك من الثياب، وفي اللفظ الآخر أنه قال: «ما كذبنا ولا كُذبنا»[(٢)] أي: ما كذبنا عليك، ولا كذب علينا رسول الله ﷺ، فإما أن تخرجي الكتاب وإلا نفتشك تفتيشًا دقيقًا ولو جردناك من الثياب.

وفيه: دليل على أنه إذا اجتمعت مفسدتان فإنه ترتكب المفسدة الصغرى لدفع الكبرى، فتجريدها من الثياب مفسدة، ولا يجوز تجريد المرأة من الثياب وهي أجنبية؛ لأن هذا فيه كشف للعورة، والمفسدة الثانية إبلاغ المشركين حتى يتأهبوا للمسلمين ويعدوا العدة، وهذا أمر أشد، ومفسدته أكبر، فترتكب المفسدة الصغرى وهي كشف المرأة؛ لأنه ضرورة، فلما رأت المرأة الجد أخرجته من عقاصها، فأتي به النبي ﷺ، وأنكر على حاطب قائلًا: «**مَا هٰذا يَا حَاطِبُ؟!**» فاعتذر حاطب، وقال: يارسول الله لم أفعل هذا كفرًا ولا ارتدادًا، ولكن لي قرابات، ولي أموال بمكة، وليس هناك أحد يحميها، وأنا لست من قريش ولا من أنفسهم ولكني امرءًا ملصق فيهم، فلما فاتني هذا النسب أردت أن أتخذ يدًا عندهم يحمون بها قرابتي، وصدَّقه النبي ﷺ وقال: «**إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**» وفعل حاطب هذا من موالاة المشركين؛ ولهذا أنزل الله فيه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المُمتَحنَة: ١].

(١) «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ١٥٠).
(٢) الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣٤٣).

وما فعله حاطب هو من التجسس على المسلمين، ومسألة التجسس فيها خلاف بين أهل العلم، حيث ذهب بعض الأئمة إلى أنه لا يقتل، لكن الصحيح أنه يقتل، لكن منع حاطبًا من القتل أمران:

أحدهما: التأويل الذي ذكره، وصدَّقه فيه النبي ﷺ.

الثاني: كونه ممن شهد بدرًا، ومن فعل ذلك بعد حاطب فإنه لا يقبل منه ولا يصدَّق، ويكون عمله موالاة للمشركين وتجسسًا على المسلمين فيقتل، ولا يمكن أن يتحقق فيه الأمران اللذان منعا حاطبًا من القتل.

○ قوله: «**فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ**»، وفي اللفظ الآخر عند البخاري أنه قال: «**فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين**»(١) وفي رواية في الصحيحين: «**يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق**»(٢) فيه: أن من رمى شخصًا بالنفاق عن اجتهاد لا للهوى فلا يشمله الوعيد.

وأما حديث: «**من قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما**»(٣) فيستثنى منه ما إذا قال شخص لآخر يا كافر متأولًا لأنه فعل شيئًا من الكفر، أو قال: يا منافق لأنه فعل شيئًا من النفاق؛ غيرة لله، ومن ذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة - في قصة الإفك: كذبت، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت عائشة ﵂: وكان قبل ذلك صالحًا ولكن احتملته الحمية، ولم ينكر النبي ﷺ على أسيد قوله من أجل ما قاله سعد.

○ قوله: «**إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ ﷻ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» المراد: أن أهل بدر لا يصرون على المعاصي والذنوب بل يسددون ويوفقون للتوبة، أو لما يمحو الله به المعصية التي تصدر منهم إما بحسنات ماحية أو بالمصائب أو بشفاعة النبي ﷺ.

وفيه: دليل على أن أهل بدر ليسوا معصومين، ولو كان أهل بدر من المعصومين لما خاف عمر من النفاق وسأل حذيفة: هل عده الرسول ﷺ من

(١) أحمد (١/ ١٠٥)، والبخاري (٣٩٨٣).
(٢) البخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤).
(٣) أحمد (٢/ ١٨)، والبخاري (٦١٠٣)، ومسلم (٦٠).

المنافقين؟ وبدليل أنهم وقعت منهم المعاصي، كما كان من حسان بن ثابت وهو ممن شهد بدرًا، وكذلك مسطح بن أثاثة فقد وقعوا في الإفك وجلدوا، فكان الجلد طهارة لهم.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قوله: «**حدثنا علي**»، هو ابن المديني «**قال: قيل لسفيان في هذا، فنزلت:** ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المُمتحنَة: ١] **الآية قال سفيان: هذا في حديث الناس**»، يعني: هذه الزيادة، يريد الجزم برفع هذا القدر، قوله: «**حفظته من عمرو ما تركت منه حرفًا، وما أرى أحدًا حفظه غيري**» وهذا يدل على أن هذه الزيادة لم يكن سفيان يجزم برفعها وقد أدرجها عنه ابن أبي عمر؛ أخرجه الإسماعيلي من طريقه فقال في آخر الحديث: قال: وفيه نزلت هذه الآية، وكذا أخرجه مسلم عن ابن أبي عمر وعمرو الناقد، وكذا أخرجه الطبري عن عبيد بن إسماعيل والفضل بن الصباح، والنسائي عن محمد بن منصور، كلهم عن سفيان.

واستدل باستئذان عمر على قتل حاطب لمشروعية قتل الجاسوس ولو كان مسلمًا. وهو قول مالك ومن وافقه؛ ووجه الدلالة: أنه ﷺ أقر عمر على إرادة القتل لولا المانع، وبيَّن المانع هو كون حاطب شهد بدرًا، وهذا منتف في غير حاطب، فلو كان الإسلام مانعًا من قتله لما علل بأخص منه» ومعنى ذلك أن العلة الخاصة تقضي على العلة العامة، فالخاصة كونه شهد بدرًا، والعامة كونه مسلمًا.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وقد بيَّن سياق علي أن هذه الزيادة مدرجة، وأخرجه مسلم أيضًا عن إسحاق بن راهويه عن سفيان، وبيَّن أن تلاوة الآية من قول سفيان. ووقع عند الطبري من طريق أخرى عن علي الجزم بذلك لكنه من أحد رواة الحديث: حبيب بن أبي ثابت الكوفي».

بَابٌ ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]

{٤٨٩١} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابن أَخِي ابن شِهَابٍ، عَنْ عَمِّهِ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ -زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ- أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الآيَةِ، بِقَوْلِ اللهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ بَايَعْتُكِ». كَلَامًا، وَلَا واللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: «قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكَ». تَابَعَهُ يُونُسُ وَمَعْمَرٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ وَعَمْرَةَ.

الشَّرْح

{٤٨٩١} في الحديث: دليل على أن النبي ﷺ بايع الرجال وبايع النساء، فالرجال يبايعهم بالمصافحة باليد، والنساء يبايعهن بالكلام دون المصافحة، ويدل على ذلك قوله: ««قَدْ بَايَعْتُكِ». كَلَامًا»، قالت: «وَلَا واللهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ: قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكَ» ولما مدت إليه امرأة يدها قال ﷺ: «**إني لا أصافح النساء**»(١) وعلى هذا فلا يجوز للإنسان أن يصافح المرأة الأجنبية وإن كانت من أقاربه وليس محرمًا لها، ولا يكون معها في خلوة، بل يكون معهم ثالث، كبنت العم وبنت الخال وزوجة الأخ وزوجة العم وزوجة الخال، بل يسلم عليها بالكلام من بعيد، فيقول كيف حالك يا فلانة؟ كيف حال أولادك؟

---

(١) أحمد (٦/ ٣٥٧)، والنسائي (٤١٨١).

بَابٌ

﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢]

{٤٨٩٢} حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثنَا عَبْدُ الوَارِثِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ، عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها قَالَتْ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْنَا ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢] وَنَهَانَا عَنِ النِّيَاحَةِ، فَقَبَضَتِ ٱمْرَأَةٌ يَدَهَا فَقَالَتْ: أَسْعَدَتْنِي فُلانَةُ أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا. فَمَا قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَانْطَلَقَتْ وَرَجَعَتْ فَبَايَعَهَا.

{٤٨٩٣} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: سَمِعْتُ الزُّبَيْرَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] قَالَ: إِنَّمَا هُوَ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللهُ لِلنِّسَاءِ.

{٤٨٩٤} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: حَدَّثَنَاهُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو إِدْرِيسَ سَمِعَ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَتُبَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرِقُوا». وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ -وَأَكْثَرُ لَفْظِ سُفْيَانَ قَرَأَ الآيَةَ- «فَمَنْ وَفَىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللهُ فَهْوَ إِلَىٰ اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ». تَابَعَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ فِي الآيَةِ.

{٤٨٩٥} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ وَأَخْبَرَنِي ابن جُرَيْجٍ أَنَّ الحَسَنَ بْنَ مُسْلِمٍ أَخْبَرَهُ عَنْ طَاوُسٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: شَهِدْتُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الفِطْرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكُلُّهُمْ يُصَلِّيهَا قَبْلَ الخُطْبَةِ ثُمَّ يَخْطُبُ بَعْدُ، فَنَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يُجَلِّسُ الرِّجَالَ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَشُقُّهُمْ حَتَّىٰ أَتَى النِّسَاءَ مَعَ بِلَالٍ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ

وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] حَتَّىٰ فَرَغَ مِنَ الآيَةِ كُلِّهَا، ثُمَّ قَالَ حِينَ فَرَغَ: «أَنْتُنَّ عَلَىٰ ذَلِكَ». وَقَالَتِ ٱمْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ لَمْ يُجِبْهُ غَيْرُهَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا يَدْرِي الحَسَنُ مَنْ هِيَ. قَالَ: «فَتَصَدَّقْنَ» وَبَسَطَ بِلَالٌ ثَوْبَهُ فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ الفَتَخَ وَالْخَوَاتِيمَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ.

الشَّرْح

{٤٨٩٢} في الحديث: دليل على أن النبي ﷺ بايع النساء على ما بايع عليه الرجال.

○ قولها: «وَنَهَانَا عَنِ النِّيَاحَةِ»، أي: النساء؛ لأن النياحة تكثر في النساء، وهي البكاء على الميت برفع الصوت وعد المحاسن.

○ قولها: «فَقَبَضَتِ ٱمْرَأَةٌ يَدَهَا» ظاهره أنه صافح باليد، وقد سبق أنه ﷺ لم يصافح باليد.

○ قولها: «أَسْعَدَتْنِي فُلَانَةُ، أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا» الإسعاد هي المقاصة والمكافأة بالبكاء معها على ميتها كما بكت هي على ميتها،، كأنها قالت: انتظر علي، أريد أن أبكي مع فلانة على ميتها مقاصة لها؛ لأنها بكت على ميتي، وكانت المرأة إذا مات لها ميت تأتي النساء من الجيران والأقارب وحتى غير الجيران لتبكي معها، ويسمى هذا أنها تسعدها، فإذا مات للثانية أخرى قضته وقاصتها، وكانت النياحة أولًا مباحة ثم حرِّمت.

○ قولها: «فَانْطَلَقَتْ وَرَجَعَتْ فَبَايَعَهَا»، أي: فذهبت بكت معها ثم رجعت فبايعها النبي ﷺ، وتركها ﷺ حتى يتألف قلبها على الإسلام.

❖ ❖ ❖

{٤٨٩٣} قوله: «إِنَّمَا هُوَ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللهُ لِلنِّسَاءِ» هذا قول ابن عباس، وقد يقال: يحمل هذا على ما كان خاصًّا بهن، وإلا فالرجال ليس لهم أن يعصوا النبي ﷺ.

❖ ❖ ❖

{٤٨٩٤} هذا الحديث حديث عبادة وفيه: أن الرسول ﷺ بايع الرجال على ما بايع عليه النساء؛ ولهذا قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَتُبَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرِقُوا». وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ»، ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن آية النساء هي آية بيعة النساء وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المُمتَحنَة: ١٢].

○ قوله: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» فيه: دليل على أن الحدود والتعزيرات مكفرات للذنوب.

○ قوله: «وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَىٰ اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»، يعني: إن الرسول ﷺ بايعهم على هذا، فمن وفى فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فزنى أو سرق فهو بين أحد أمرين إن عوقب وأقيم عليه الحد فهو كفارة له، وإن ستره الله فلم يعاقب ولم يقم عليه الحد صار تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

❖ ❖ ❖

{٤٨٩٥} قوله: «عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: شَهِدْتُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الفِطْرِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكُلُّهُمْ يُصَلِّيهَا قَبْلَ الخُطْبَةِ» فيه: أن صلاة العيد قبل الخطبة.

○ وقوله: «فَنَزَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يُجَلِّسُ الرِّجَالَ بِيَدِهِ» فيه: أنه يجلس الرجال عند الحاجة إلى ذلك، ولعل الرسول ﷺ أجلسهم ليسمعوا موعظته للنساء، فكأنهم لما قاموا ليشقوا الصفوف أشار النبي ﷺ لهم بيديه أن اجلسوا.

○ قوله: «ثُمَّ أَقْبَلَ يَشُقُّهُمْ حَتَّىٰ أَتَى النِّسَاءَ مَعَ بِلَالٍ» فيه: دليل على مشروعية تخصيص النساء يوم العيد بموعظة وحدهن؛ لأن النبي ﷺ لما فرغ من خطبة الرجال أقبل يشق الصفوف حتى أتى النساء مع بلال فخصهن بموعظة خاصة.

وفيه: أن النبي ﷺ بايع النساء على هذه الأمور التي جاءت في الآية الكريمة امتثالًا لأمر الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [المُمتَحنَة: ١٢] فبايعهن بالكلام ﷺ.

○ قوله: «ثُمَّ قَالَ حِينَ فَرَغَ: أَنْتُنَّ عَلَىٰ ذَلِكَ» استفهام.

○ قوله: «وَقَالَتِ ٱمْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ لَمْ يُجِبْهُ غَيْرُهَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا يَدْرِي الحَسَنُ مَنْ هِيَ» هو الحسن بن مسلم.

○ قوله: «فَتَصَدَّقْنَ. وَبَسَطَ بِلاَلٌ ثَوْبَهُ فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ الفَتَخَ وَالْخَوَاتِيمَ فِي ثَوْبِ بِلاَلٍ» فيه: دليل على جواز صدقة المرأة وعطيتها من مالها ولو لم يأذن لها زوجها، فالنساء لم يستأذنّ أزواجهن لما حثهن النبي ﷺ على الصدقة، فهذه تلقي خاتمًا وهذه تلقي فتخًا؛ فدل هذا على أن المرأة إذا كانت رشيدة فلا بأس أن تتصدق من مالها ولا يجب استئذان زوجها، ويؤيد هذا أدلة كثيرة، ومن ذلك ما ثبت في «الصحيحين» من قصة ميمونة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: أشعرت أني أعتقت وليدتي؟ - تعني: أمةً لي - فقال النبي ﷺ: «**أما إنك لو أعطيتها أخوالك لكان أعظم لأجرك**»[1] فأخبر ﷺ أن إعطاءها لأخوالها أعظم لأجرها ولم ينكر عليها أنها لم تستأذنه في عتقها؛ فدل على أنه لا بأس أن تتصدق المرأة من مالها ولا تستأذن زوجها، لكن إذا استأذنت زوجها من باب تطييب الخاطر فهو حسن.

وفي حديث ميمونة أن الصدقة أو الهدية لذوي الرحم المحتاج أفضل من العتق؛ ولهذا قال: «**لو أعطيتها أخوالك لكان أعظم لأجرك**»[2] يعني: لو أعطتهم الوليدة أو باعتها وأعطتهم ثمنها كان أعظم أجرًا من عتقها.

وأما حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها**»[3] فهو شاذ في متنه ومداره على عمرو بن شعيب عن

(١) أحمد (٦/ ٣٣٢)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).
(٢) أحمد (٦/ ٣٣٢)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).
(٣) أحمد مطولًا، وأبو داود (٣٥٤٧)، والنسائي (٢٥٤٠).

أبيه عن جده وهو مختلف في سماعه منه، ولو صح سماعه منه لكان الحديث ضعيفًا أيضًا؛ لأن متنه شاذ لأنه مخالف للأحاديث الصحيحة الدالة على جواز تصرف المرأة الرشيدة في مالها بغير إذن زوجها كهذا الحديث، أو أنه يحمل على أنه ليس للمرأة عطية إلا بإذن زوجها إذا كان ذلك من مال زوجها.

٦١- سورة الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَىٰ اللهِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ مُلْصَقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَقَالَ غَيْرُهُ بِالرَّصَاصِ.

الشَّرْح

○ قوله: «سورة الصَّفِّ» تسمى أيضًا سورة الحواريين.

○ قوله: «﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصَّف: ١٤]: مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَىٰ اللهِ» فسر مجاهد الأنصار في هذه الآية بالأتباع، فالناصر هو التابع.

○ قوله: «﴿مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصَّف: ٤]: مُلْصَقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ»، أي: مثبت لا يزول، والمقصود أن الله ﷻ يحب المتراصين في الصفوف في القتال في سبيل الله ﷻ بأن تكون الصفوف متراصة منتظمة ليس بينهما خلل، وكذلك في الصلاة يشرع أن تكون الصفوف متراصة ليس فيها خلل.

بَابٌ قَوْلُهُ:
﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]

{٤٨٩٦} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ».

الشَّرْح

{٤٨٩٦} قوله: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي» هذه أسماؤه ﷺ، فله أسماء كثيرة: فهو محمد؛ حيث ألهم الله أهله فسموه محمدًا، وهو أحمد في التوراة والإنجيل، ومن أسمائه الماحي، وفسره النبي ﷺ بقوله: «الذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ»، يعني: محا الله به الكفر وأنقذ الله به الكثير من الخلق ممن هداهم الله ﷻ على يديه فدخلوا في الإسلام.

○ قوله: «وَأَنَا الحَاشِرُ الذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدَمِي»، لأنه ﷺ نبي الساعة؛ فإنه يحشر الناس بعده.

○ قوله: «وَأَنَا العَاقِبُ» يعني: من أسمائه العاقب، أي الذي ليس بعده نبي، فهو آخر الأنبياء ﷺ، وله أسماء أخرى كثيرة غير هذه الأسماء وتعدد الأسماء للشيء تدل على عظمته!!.

والله تعالى له أسماء كثيرة ومنها تسعة وتسعون اسمًا من أحصاها دخل الجنة.

والقرآن له أسماء كثيرة كالفرقان والشفاء والهدى.

وبعض المخلوقات لها أسماء كثيرة، فالأسد له أسماء كثيرة بلغت خمسمائة اسم منها: الضرغام والقسورة والليث.

والسيف كذلك له ثلاثمائة اسم منها الصقيل والمهند، وغير ذلك مما يذكره أهل اللغة.

٦٢- سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بَابُ

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]

وَقَرَأَ عُمَرُ: فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ.

{٤٨٩٧} حَدَّثَنِي عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ ثَوْرٍ، عَنْ أَبِي الغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الجُمُعَةِ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ، وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ -أَوْ رَجُلٌ- مِنْ هَؤُلَاءِ».

{٤٨٩٨} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ أَخْبَرَنِي ثَوْرٌ، عَنْ أَبِي الغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ».

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَرَأَ عُمَرُ: فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ»، يعني: لما قرأ عمر رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ٩] قال: «فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ»، إما على أنها قراءة، وقد نسبت إليه وإلى علي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم، وهي قراءة شاذة[١] أو أن ذلك تفسير لبيان أن معنى السعي المضي والمشي وليس معناه العدو والإسراع؛ لأنه منهي عنه في الذهاب إلى الصلاة.

{٤٨٩٧}، {٤٨٩٨} هذان الحديثان في تفسير النبي ﷺ لهذه الآية: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجُمُعَة: ٣].

(١) «المتحتسب»، لابن جني (٢/ ٣٧٥).

○ قوله: «وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَىٰ سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ -أَوْ رَجُلٌ- مِنْ هٰؤلاء» يعني: أنهم من فارس، وقد دخل في الإسلام من فارس جم غفير، وكانت عندهم رغبة شديدة في الإسلام منهم سلمان رضي الله عنه فهذه منقبة لمن منَّ الله عليهم بالإيمان من فارس، وأهل فارس قيل: إنهم من ولد يافث بن نوح وقيل: من ولد لاوي بن نوح.

وهذه من الآيات التي فسرها النبي ﷺ، وكان يفسر بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فسر الظلم بأنه الشرك.

بَابٌ

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ الآية [الجمعة: ١١]

{٤٨٩٩} حَدَّثَنِي حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا حُصَيْنٌ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ وَعَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: أَقْبَلَتْ عِيرٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَثَارَ النَّاسُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١].

الشَّرْح

{٤٨٩٩} هذا الحديث فيه أن النبي ﷺ كان يخطب الجمعة فجاءت عير فانفض الناس إليها ولم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجُمُعَة: ١١].

○ قوله: «فَثَارَ النَّاسُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا»، وفي رواية أخرى: «إلا اثني عشر رجلًا» هذا هو الموافق لقواعد اللغة العربية، وقد جاءت على لغة من لغات العرب، وهي ملازمة المثنى للألف في جميع الحالات في الرفع والنصب والجر. وفي بعض الأقوال أنه بقي ثمانية وقيل: أحد عشر.

وكان خروجهم وانفضاضهم بسبب حاجتهم إلى الطعام لما أصابهم من شدة، أو لأن هذا كان في أول الإسلام ولم يأتهم ما يدل على أنه يجب عليهم البقاء، وقيل: إن هذا كان قبل أن تكون الخطبة قبل الصلاة، وقيل غير ذلك؛ فلهذا خرجوا ولم يبق إلا اثنا عشر رجلًا.

وأخذ البعض من هذا الحديث أن الجمعة لا تنعقد بأقل من اثني عشر رجلًا، وهذا ليس بصحيح؛ لأن هذه واقعة عين.

وذهب الحنابلة(١) وجماعة إلى أن الجمعة لا تنعقد بأقل من أربعين رجلًا

(١) انظر: «شرح المنتهى» (١/ ٣١٢).

واستدلوا بحديث ضعيف لا يستدل به.

والصواب: أن الجمعة تنعقد بثلاثة أحدهم الخطيب إذا كانوا مستوطنين في بناء، أما البوادي وأهل الخيام فلا جمعة عليهم، وأما الجماعة فتصح باثنين.

٦٣- سُورَةُ المُنافِقين

بَابُ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ **الآية** [المنافقون: ١]

{٤٩٠٠} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَوْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي البَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَىٰ أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَقَتَكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ».

الشَّرح

{٤٩٠٠} هذا الحديث يبين خبث المنافقين وما في قلوبهم من الضغينة والحقد وهذا يتبين عند الشدائد، فإذا حصلت للمسلمين شدة ومشقة ظهر النفاق.

وفي هذا الحديث لم يقبل النبي ﷺ خبر زيد بن أرقم في أول الأمر حتى نزل القرآن؛ لأن الحكم سيكون بالكفر والنفاق وهذا أمر عظيم، وإلا فخبر الواحد مقبول في الأخبار والرواية والشهادة ويعمل بخبر الواحد إذا كان عدلًا في الأحكام والعقائد كما دلت النصوص في الكتاب والسنة، وقد بوب البخاري رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيح»: «**كتاب أخبار الآحاد**»، وذكر نصوصًا وأخبارًا عن النبي ﷺ حينما أرسل رسله لرؤساء القبائل والعشائر فقبلوا كتبه، وكذلك أهل قباء قبلوا خبر الواحد واستداروا وهم في الصلاة[١].

---

(١) البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦).

ولم يعاقب النبي ﷺ عبد الله بن أبي تأليفًا له ولأصحابه ولئلا يقول الناس: إن محمدًا يقتل أصحابه؛ لأن سبب القتل خفيٌّ؛ لأنه يدعي الإسلام ويدعي أنه من أصحاب النبي ﷺ فلو قُتل صار في ذلك تأثير على الإسلام، وصار من يسمع بقصة قتله يقول: إن محمدًا يقتل أصحابه فيكون فيه تنفير من الإسلام؛ ولهذا كان النبي ﷺ يترك المنافقين، أما بعد وفاة النبي ﷺ فلولي الأمر أن يقتل من ثبت عليه النفاق.

بَابٌ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ [المنافقون: ٢]

يَجْتَنُّونَ بِهَا

{٤٩٠١} حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ يَقُولُ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا. وَقَالَ أَيْضًا: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٧] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨] فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ».

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣]

{٤٩٠٢} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الحَكَمِ، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ القُرَظِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ لَمَّا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ. وَقَالَ أَيْضًا لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ. أَخْبَرْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَلَامَنِي الأَنْصَارُ، وَحَلَفَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ مَا قَالَ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ إِلَى المَنْزِلِ فَنِمْتُ فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ». وَنَزَلَ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ﴾ الآيَةَ [المنافقون: ٧]. وَقَالَ ابن أَبِي زَائِدَةَ: عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ ابن أَبِي لَيْلَىٰ، عَنْ زَيْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

الشَّرْح

{٤٩٠١} هذا الحديث دليل على أن المنافقين لا يبالون بالأيمان والعياذ بالله؛ لكفرهم ونفاقهم، فليس عندهم تعظيم لله وليس عندهم هيبة للأيمان،

والواجب على المسلم أن يعظم الله ﷻ ولا يكثر من الأيمان قال الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المَائدة: ٨٩] ومن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله رجل ينفّق سلعته بالحلف الكاذب(١)، وكذلك رجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه(٢)، فهذا والعياذ بالله كما قال الله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ يعني: ستارة لهم؛ حيث كانوا يتخلفون عن الجهاد وإذا جاءوا إلى النبي ﷺ حلفوا أنهم معذورون، والنبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾ [المنَافِقون: ٢].

وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز تبليغ ولاة الأمور ما يخشى منه الضرر من الأخبار التي تصدر من الأشرار والذين يخشى من شرهم على المسلمين وعلى الدولة، ولا يعد هذا نميمة بل هو نصيحة.

{٤٩٠٢} قال العيني رحمه الله: "قوله: «ذلك» أشار ما وصف من حال المنافقين في النفاق والكذب بالإيمان، أي ذلك كله بسبب أنهم آمنوا أي نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من دخل في الإسلام، ثم كفروا، ثم ظهر كفرهم بعد ذلك، فطبع علىٰ قلوبهم حتىٰ لا يدخلهم الإيمان جزاء علىٰ نفاقهم فهم لا يفقهون صحة الإيمان وإعجاز القرآن كما يفهمه المؤمنون".

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "أي: إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلىٰ الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدىٰ(٣)".

---

(١) أحمد (٥/ ١٤٨)، ومسلم (١٠٦).

(٢) الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٣٦٨).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ١٢٥).

بَابٌ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ الآية [المنافقون: ٤]

{٤٩٠٣} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ لأَصْحَابِهِ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ. وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ مَا فَعَلَ، قَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوا شِدَّةٌ، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ تَصْدِيقِي فِي ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فَدَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٣] قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ.

الشَّرح

{٤٩٠٣} هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنَافِقون: ٤] فكانوا يتمتعون بجمال الهيئة وقوة الأجسام وحلاوة المنطق.

وهذا الحديث فيه بيان سبب هذه المقالة التي قالها المنافقون وأنه أصابهم شدة، فقال عبد الله هذه المقالة، وهذا دليل على أن المنافقين لا يصبرون على الشدائد، ففي أوقات الفتن وأوقات الشدائد ينجم النفاق ويظهر المنافقون مثل ما حصل حديثًا من الصحفيين الذين تكلموا بالكلام الباطل وطعنوا في المؤسسات الخيرية ومدارس تحفيظ القرآن وقالوا: إنه تطرف وإرهاب.

بَابُ
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ الآية [المنافقون: ٥]

حَرَّكُوا ٱسْتَهْزَءُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ وَيُقْرَأُ بِالتَّخْفِيفِ مِنْ لَوَيْتُ.

{٤٩٠٤} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، وَكَذَّبَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَصَدَّقَهُمْ، فَأَصَابَنِي غَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي وَقَالَ عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَىٰ أَنْ كَذَّبَكَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَقَتَكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] وَأَرْسَلَ إِلَى النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَهَا وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ».

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنَافِقون: ٥] أي: حركوها استهزاء بالنبي ﷺ وسخرية، وهذا من كفرهم.

○ قوله: «ويقرأ بالتخفيف» هي قراءة نافع، وأما الباقون فبالتشديد(١).

{٤٩٠٤} كرر المؤلف ﷺ هذا الحديث خمس مرات في خمس تراجم، على كل آية يعيد الحديث، والمقصود من ذلك ما يلي:

أولًا: تقوية الحديث؛ فالحديث يتقوى بكثرة طرقه.

(١) انظر: «الهادي شرح طيبة والنشر» (٣/ ٢٨٥).

ثانيًا: الاستدلال على تراجمه، فالآية تكون مناسبة للترجمة التي يسوقها، والحديث في معنى الآية.

ثالثًا: إثبات زيادات في المتن مثل ما سبق في الحديث السابق قال: «**أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ**» ففيه: بيان سبب هذه المقالة.

رابعًا: لتفسير بعض الكلمات.

بَابٌ

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ﴾ الآية [المنافقون: ٦]

{٤٩٠٥} حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ عَمْرٌو سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﵄ قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ -قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فِي: جَيْشٍ- فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوىٰ جَاهِلِيَّةٍ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ فَعَلُوهَا، أَمَا واللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هٰذا المُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» وَكَانَتِ الأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنَ المُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا المَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ المُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ. قَالَ سُفْيَانُ: فَحَفِظْتُهُ مِنْ عَمْرٍو: قَالَ عَمْرٌو سَمِعْتُ جَابِرًا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ.

الشَّرْح

{٤٩٠٥} هذا الحديث فيه: بيان سبب هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أبي، وذلك أن النبي ﷺ ومن كان معه من أصحابه كانوا في غزاة «فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ»، يعني: بعض الشباب من المهاجرين ضرب دبر رجل من الأنصار بيده أو برجله فشق ذلك عليه، وهذا الفعل شديد عند أهل اليمن، والأنصار أصلهم من اليمن «فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوىٰ جَاهِلِيَّةٍ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» في ذلك تحريم التعزي بعزاء الجاهلية وتحريم الدعوى بدعوى الجاهلية.

وفيه: التنفير الشديد من ذلك؛ لقوله ﷺ: «**دعوها؛ فإنها منتنة**» وفيه: مضرة التحزبات والانقسامات، وإذا كان الانتساب والاعتزاء إلى المهاجرين وإلى الأنصار والتعصب لها وهي مسميات إسلامية سماها النبي ﷺ - من دعوى الجاهلية لما في ذلك من التحزب والانقسام، فكيف بمن دعا بدعوى غير إسلامية كدعوى القومية أو العربية أو الاشتراكية، أو دعا إلى حزب معين كحزب البعث مثلًا؟! لا شك في منع ذلك وتحريمه بل هو أشد، فالواجب الانتساب إلى الإسلام الذي يجمع المسلمين جميعًا.

ومن ذلك التحزبات الموجودة الآن التي بين الشباب، فهذا يسمى تبليغيًّا وهذا يسمى سروريًّا، وهذا إخوانيّ، وهذا جاميّ، وغير ذلك من التحزبات التي صارت يوالون من أجلها ويعادون من أجلها فينبغي طرح هذه التحزبات، وعلى الشباب أن يقبلوا على طلب العلم ويكونوا حزبًا واحدًا وهو حزب الله وحزب أهل السنة والجماعة - وهم الصحابة والتابعون والأئمة من بعدهم - فإذا سئل الشاب: أنت تبليغي؟ أو أنت سروري؟ أو أنت إخواني؟ أو أنت كذا؟ يقول: أنا من أهل السنة والجماعة، إذا قيل له: ما تقول في الأحزاب الأخرى؟ يقول: ما أقول فيها شيئًا، أنا أطلب العلم فاسألوا أهل العلم، فهذه التحزبات شر وبلاء؛ فإنها فرقت الشباب وأضاعت أوقاتهم وأوجدت بينهم العداوة والبغضاء والسب والشتائم والغيبة والنميمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

○ قوله: «**فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ فَعَلُوهَا، أَمَا واللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هٰذَا المُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**» فيه: بيان المنع من قتل عبد الله بن أبي، وذلك أن سبب القتل خفي، فلو قتله وهو يظهر الإسلام لقال الناس: إنه يقتل أصحابه.

وفيه: أن الإمام له أن يترك قتل من يستحق القتل إذا كان سيترتب على قتله مفسدة تضر الإسلام والمسلمين - وذلك إذا لم يكن سبب قتله ظاهرًا لارتكابه ما يوجب حدًّا أو قصاصًا - فإن عبد الله بن أبي كان له أنصار وأتباع يؤيدونه،

وكادوا أن يتوجوه ملكًا على المدينة قبل هجرة النبي ﷺ، فلما هاجر النبي ﷺ شرق بالإسلام وأخفى نفاقه حتى مات على النفاق. فكانت المصلحة تركه وعدم قتله لإظهار الإسلام.

بَابُ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ وَيَتَفَرَّقُوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]

{٤٩٠٦} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ الفَضْلِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: حَزِنْتُ عَلَىٰ مَنْ أُصِيبَ بِالْحَرَّةِ فَكَتَبَ إِلَىٰ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزْنِي يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَلأَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» -وَشَكَّ ابن الفَضْلِ فِي أَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ- فَسَأَلَ أَنَسًا بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَقَالَ هُوَ الذِي يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هٰذا الذِي أَوْفَىٰ اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ».

الشَّرح

{٤٩٠٦} قوله: «حَزِنْتُ عَلَىٰ مَنْ أُصِيبَ بِالْحَرَّةِ» يعني: تلك المقتلة العظيمة التي كانت لأهل المدينة سنة ثلاث وستين من الهجرة، وكان فيهم كثير من الصحابة بسبب خلع أهل المدينة بيعة يزيد بن معاوية وقتالهم له بسبب فسقه، فأمرَّ الأنصار عليهم عبد الله بن حنظلة وأمرَّ المهاجرون عبد الله بن مطيع، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وأرسل إليهم يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري في جيش كثير، فهزمهم واستباحوا المدينة وقتلوا ابن حنظلة وقتل من الأنصار شيء كثير جدًّا، وكان أنس يومئذ بالبصرة فبلغه ذلك فحزن على من أصيب من الأنصار، فكتب إليه زيد بن أرقم وكان يومئذ بالكوفة يسليه، ومحصل ذلك أن الذي يصير إلى مغفرة الله لا يشتد الحزن عليه، فكان ذلك تعزية لأنس فيهم».

ولا شك أن ما فعله أهل المدينة خطأ فلا يجوز نقض البيعة إذا تبين من الأمير فسق، بل يناصح ويصبر على ظلمه وجوره، وهذا الذي حصل من القتل والفساد في المدينة بشؤم هذه المعصية وهي الخروج على ولاة الأمور.

وفي الحديث: الرد على من قال: إن هذه القصة غير صحيحة وغير ثابتة، فبعض الإخوان قال في قصة الحرة: أرجو ألَّا تكون ثابتة؛ لأنها كانت في القرن الأول فلا يحصل هذا القتل وهذا الفساد! وهذا عدم اطلاع، فالقصة ثابتة في «الصحيحين» كما في هذا الحديث وفي غيره.

ثم لما توفي يزيد سنة ثلاث وستين دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة فبايعه أهل الحجاز - مكة والمدينة والطائف - وبايعه أهل الحل والعقد فصارت ولايته ولاية شرعية لم يخرج على ذلك أحد، فتم الأمر لعبد الله بن الزبير بالخلافة في الحجاز وحتى في الشام وما بقي إلا بلدة واحدة دعا فيها لنفسه مروان بن الحكم ثم ما لبث أن توفي ثم قام من بعده ابنه عبد الملك بن مروان ودعا لنفسه، فأخذ يقاتل ابن الزبير حتى أخذ المدن التي خضعت لعبد الله بن الزبير شيئًا بعد شيء حتى أخذ العراق وجعل أميرها الحجاج بن يوسف، ووكل المهمة إلى الحجاج في قتال عبد الله بن الزبير، فأرسل الجيوش إلى مكة وقتل عبد الله بن الزبير وصلبه على خشبة.

أما الحسين بن علي رضي الله عنه فإنه اجتهد وغرَّه أهل العراق وخانوه، ولما أراد الرجوع أبوا عليه حتى قُتِل رضي الله عنه.

وهذا فيه: بيان أنه لا يجوز الخروج على ولاة الأمور، ولا يجوز تغيير المنكر إذا كان يترتب عليه منكر أكبر، فإذا كان بعض ولاة الأمور في بعض الأزمنة وفي بعض الأمكنة عندهم جور أو ظلم أو فسق وعندهم عصيان فلا يجوز الخروج عليهم، وإنما يناصحون من قبل أهل الحل والعقد، فإن قبلوا فالحمد لله وإن لم يقبلوا أدى الناس ما عليهم، كما أن الخروج على ولاة الأمور ليس من عقيدة أهل السنة والجماعة ولا من طريقتهم، إنما هذه طريقة الخوارج والمعتزلة والرافضة وأهل البدع، فهم الذين يخرجون على حكامهم بالذنوب والمعاصي فالخوارج يقولون: إذا فعل ولي الأمر معصية كفر ويجب خلعه وقتله، والمعتزلة كذلك من أصولهم أن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخروج على ولي الأمر إذا عصى، والروافض كذلك لا يرون الإمامة إلا للمعصوم، ويرون أن غيره يجب قتله وإزالته، أما أهل السنة والجماعة فيرون أن الإمامة تجوز للبر وللفاجر،

والحج ماض مع ولاة الأمور أبرارًا كانوا أو فجارًا إلى يوم القيامة، والجهاد ماض مع كل إمام لا يبطله جور جائر حتى يقاتل آخر هذه الأمة الدجال.

تنبيه:

قيل: بلغ أهل المدينة لبيعة يزيد بن معاوية من الدعاة الذين بثهم عبد الله بن مطيع داعية عبد الله بن الزبير، وهذه الدعايات كانت مغرضة لأجل المزاحمة على الملك كما صارحهم بذلك عبد الله بن عمرو ومحمد بن علي بن أبي طالب وزين العابدين علي بن الحسين ونصحوهم بالكف عن ذلك لما يترتب عليه من سوء العواقب وأن هذا مخالف لآداب الإسلام وسنته.

وهذا فيه نظر؛ لأن عبد الله بن الزبير إنما دعا لنفسه بعد موت يزيد في وقت ليس فيه إمام.

○ قوله: «وَشَكَّ ابن الفَضْلِ فِي: أَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ»، يعني: شك ابن الفضل هل دعا رسول الله ﷺ لأبناء أبناء الأنصار بالمغفرة أم للأنصار ولأبنائهم فقط، وأشار الحافظ في الفتح إلى رواية مسلم له من غير شك!.

○ قوله: «هٰذا الذِي أَوْفَىٰ اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ» يعني: أن الله صدقه فيما سمع بأذنه.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قوله: «أَوْفَىٰ اللهُ لَهُ بِأُذُنِهِ»، أي: بسمعه؛ وهو بضم الهمزة والذال المعجمة ويجوز فتحهما أي أظهر صدقه فيما أعلم به، والمعنى، أوفى: صدقه. وقد تقدم في الكلام على حديث جابر أن في مرسل الحسن أن النبي ﷺ أخذ بأذنه فقال: «**وفت أذنك يا غلام**»[(١)] كأنه جعل أذنه ضامنة بتصديق ما ذكرت أنها سمعت، فلما نزل القرآن بتصديقه صارت كأنها وافية بضمانها.

تكميل: وقع في رواية الإسماعيلي في آخر هذا الحديث من رواية محمد بن فليح عن موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: سمع زيد بن أرقم رجلًا من المنافقين

(١) «تفسير الطبري» (٢٨/ ١١٤).

يقول والنبي ﷺ يخطب: لئن كان هذا صادقًا لنحن شر من الحمير، فقال زيد: قد والله صدق ولأنت شر من الحمار، ورفع ذلك إلى النبي ﷺ فجحده القائل، فأنزل الله على رسوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤] الآية، فكان مما أنزل الله في هذه الآية تصديقًا لزيد. انتهى. وهذا مرسل جيد، كأن البخاري حذفه لكونه على غير شرطه ولا مانع من نزول الآيتين في القصتين في تصديق زيد».

بَابُ

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية [المنافقون: ٨]

{٤٩٠٧} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ حَفِظْنَاهُ مِنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يَقُولُ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمَّعَهَا اللهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ: «مَا هٰذا؟». فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَالَلْمُهَاجِرِينَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ المُهَاجِرُونَ بَعْدُ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا، والله لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضىٰ الله عنه: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هٰذا المُنَافِقِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ لَايَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ».

الشَّرْح

{٤٩٠٧} هذا الحديث فيه: أنه لا يجوز الاعتزاء والدعاء والانتساب والتعصب إلى ما يدعو إلى التحزب والانقسام ولو كانت مسميات إسلامية فلا يقول: «يَا لَلأَنْصَارِ» والآخر يقول: «يَا لَلْمُهَاجِرِينَ»؛ لأنها تدعو إلى الانقسام والتفرق؛ ولهذا سماها النبي ﷺ من دعوى الجاهلية ونفّر منها بقوله: «فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»، بل يقول: يا أيها المسلمون يا إخواني؛ لأن هذا النداء يجمع المسلمين فينصرونه.

وإذا كان هذا في المسميات الإسلامية فكيف بالمسميات الجاهلية والكفرية كالشيوعية والاشتراكية والقومية والحرية والبعثية وغيرها؟! فهي من باب أولى.

ويدخل في ذلك التحزبات التي بين الشباب الآن فهذا تبليغي، وهذا سروري، وهذا تكفيري، وهذا جامي؛ كل هذه تحزبات تدعو إلى التفرق والانقسام.

وفي الحديث: أنه ينبغي مراعاة مصلحة الإسلام من قبل ولاة الأمور، وأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة فالنبي ﷺ ترك قتل عبد الله ابن أبي؛ مراعاة للمصلحة العامة؛ ففي إبقائه مصلحة للمسلمين وفي قتله ضرر عليهم.

٦٤- سورة التَّغابُنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وقال مجاهد: ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩] غبن أهل الجنة أهل النار.

وَقَالَ عَلْقَمَةُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ هُوَ الذِي إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ رَضِيَ، وَعَرَفَ أَنَّهَا مِنَ اللهِ.

٦٥- سورةُ الطَّلاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا يَحِضْنَ أَوْ لَا يَحِضْنَ، وَاللَّائِي قَعَدْنَ عَنِ الحَيْضِ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ بعدُ، فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ. ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ جَزَاءَ أَمْرِهَا.

بَابٌ

{٤٩٠٨} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابن شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِمٌ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّهُ طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ وَهْيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّىٰ تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَتِلْكَ العِدَّةُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ».

الشَّرْح

○ قوله: «وقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩] غبن أهل الجنة أهل النار»
هذا هو الغبن العظيم حيث يغبن أهل الجنة أهل النار، حيث يذهب بالإنسان الشريف الكبير الوسيم الذي قد يكون أميرًا أو وزيرًا أو وجيهًا أو غير ذلك إلى النار، ويذهب بخادمه أو بالذي يعمل عنده إلى الجنة، فيفوز أهل الجنة بالنعيم ويبوء أهل النار بالخزي والخسران والبوار والعذاب.

○ قوله: «وَقَالَ عَلْقَمَةُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ»، أي: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

○ قوله: «هُوَ الذِي إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ رَضِيَ، وَعَرَفَ أَنَّهَا مِنَ اللهِ» هذه العبارة نقلها الإمام محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» عن علقمة بلفظ: قال علقمة عن عبد الله: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[(١)].

❖ ❖ ❖

ثم شرع المؤلف رحمه الله في تفسير سورة الطلاق، وتسمى سورة النساء القصرى، وسورة البقرة هي سورة النساء الطولى، وتسمى سورة الطلاق؛ لأن فيها أحكام الطلاق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطَّلَاق: ٤]. فسرها مجاهد فقال: «إِنْ لَمْ تَعْلَمُوا يَحِضْنَ أَوْ لَايَحِضْنَ، وَاللَّائِي قَعَدْنَ عَنِ الحَيْضِ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ بعدُ، فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ» فالمطلقة إن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيضات وإن كانت لا تحيض - لكبرها وتسمى الآيسة أو لصغرها لكونها لم تحض - فعدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملًا فعدتها أن تضع الحمل.

❖ ❖ ❖

{٤٩٠٨} في هذا الحديث عن سالم: «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّهُ طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ وَهْيَ حَائِضٌ» أي: وهي في الحيض، «فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَتَغَيَّظَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم» يعني: تغيظ النبي صلى الله عليه وسلم وغضب مما فعله عبد الله، فدل ذلك على تحريم الطلاق في الحيض.

○ قوله: «ثُمَّ قَالَ»، أي: النبي صلى الله عليه وسلم «لِيُرَاجِعْهَا»، وفي لفظ آخر: «**مره ليراجعها**»[(٢)]، «ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّىٰ تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فَتِلْكَ العِدَّةُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى» وفي لفظ آخر:

---

(١) «كتاب التوحيد» (ص٩٦).
(٢) أحمد (١/ ٤٣)، والبخاري (٥٢٥٢)، ومسلم (١٤٧١).

«**فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء**»[١] فالسنة طلاق المرأة في طهر لم يمسها فيه طلقة واحدة، أما الطلاق في الحيض فهذا طلاق بدعي، وكذلك الطلاق في الطهر الذي مسها فيه طلاق بدعي، وكذلك الطلاق بالثلاث فأكثر طلاق بدعي من جهة العدد.

وإذا طلقها في الحيض أو في طهر قد مسها فيه فهل يقع الطلاق أو لا يقع؟ اختلف العلماء في ذلك على قولين: فذهب جمهور العلماء إلى أنه يقع مع الإثم، وقد جزم بهذا البخاري في «صحيحه» واستدلوا بقوله في الحديث: «**لِيُرَاجِعْهَا**» فالأمر بالرجعة دليل على وقوع الطلاق، واستدلوا أيضًا بأن ابن عمر عدها طلقة، واستدلوا أيضًا بما ورد في بعض حديث ابن عمر: «فحسبت من طلاقها»[٢] واستدلوا أيضًا بأن عمر كان يفتي بوقوع الطلاق، واستدلوا أيضًا بالعمومات مثل قول النبي ﷺ: «**ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة**»[٣] وحديث ابن عباس عند مسلم: «**كان الطلاق طلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرًا من خلافة عمر كان طلاق الثلاث بواحدة**»[٤] فأطلق ولم يحدد وقتًا ولم يستثن وقت الحيض فدل على أنه يقع.

وذهبت طائفة قليلة من أهل العلم إلى أن الطلاق في الحيض لا يقع، وهو قول خلاس بن عمرو الحجري، وقول طاوس بن كيسان اليماني، ومحمد بن عبد الله الخشني؛ واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]، واختاره شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، والشيخ محمد بن العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا. وقال بعض العلماء: إن هذا القول هو قول الروافض والخوارج خاصة. وهذا ليس بصحيح، واستدل القائلون بأن الطلاق لا يقع بأن الطلاق في الحيض ليس عليه أمر الله ورسوله ﷺ وقد قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا**

---

(١) أحمد (٢/ ٦٣)، والبخاري (٥٢٥٢)، ومسلم (١٤٧١).
(٢) أحمد (٢/ ١٣٠)، ومسلم (١٤٧١).
(٣) أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وابن ماجه (٢٠٢٩).
(٤) مسلم (١٤٧٢).
(٥) انظر: «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٢٦٤).

فهو رد»[(١)] وأجابوا عن قوله في حديث ابن عمر: «**لِيُرَاجِعْهَا**» قالوا: معناه ليردها وليس المراد به الرجعة بعد وقوع الطلاق، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٨٣]، أي: ردك؛ إذ لو كان المراد ذلك لكان قوله: «**فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا**» أمر بتكرير الطلاق والرسول ﷺ لا يأمر بتكرير الطلاق.

وأجابوا عن كون ابن عمر عدها طلقة أن هذا كان باجتهاد منه لا بأمر الرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ لم يقل: حسبت عليك طلقة لكن هو حسبها واحدة باجتهاده ويدل عليه قول ابن عمر: «أو قد عجزت واستحمقت»[(٢)].

وأجابوا عن أن عمر كان يفتي بذلك بأن هذا كان باجتهاد منه أيضًا.

ومحل الخلاف بين العلماء إذا علم أنه طلقها في الحيض، أما إذا لم يعلم فإن الطلاق يقع ولا يقبل فيه قول الزوجة؛ لأنها متهمة في خبرها.

ومثل هذا الخلاف يجري في طلاق النفساء، وفي الطهر الذي جامعها فيه، فالحكم واحد.

---

(١) مسلم (١٧١٨).

(٢) أحمد (٢/ ٤٣)، والبخاري (٤٩٥٨)، ومسلم (١٤٧١) بلفظ: «أرأيت أين عجز واستحق».

بَابٌ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ وَاحِدُهَا: ذَاتُ حَمْلٍ.

{٤٩٠٩} حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَىٰ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابن عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ جَالِسٌ عِنْدَهُ فَقَالَ: أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: آخِرُ الأَجَلَيْنِ. قُلْتُ أَنَا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤] قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابن أَخِي -يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ- فَأَرْسَلَ ابن عَبَّاسٍ غُلامَهُ كُرَيْبًا إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا فَقَالَتْ: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَىٰ، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَخُطِبَتْ فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيمَنْ خَطَبَهَا.

{٤٩١٠} وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ وَأَبُو النُّعْمَانِ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ: كُنْتُ فِي حَلْقَةٍ فِيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَىٰ وَكَانَ أَصْحَابُهُ يُعَظِّمُونَهُ، فَذَكَرَ آخِرَ الأَجَلَيْنِ فَحَدَّثْتُ بِحَدِيثِ سُبَيْعَةَ بِنْتِ الحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: فَضَمَّزَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ. قَالَ مُحَمَّدٌ: فَفَطِنْتُ لَهُ فَقُلْتُ: إِنِّي إِذًا لَجَرِيءٌ إِنْ كَذَبْتُ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ وَهُوَ فِي نَاحِيَةِ الكُوفَةِ. فَاسْتَحْيَا وَقَالَ: لَكِنَّ عَمَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَاكَ. فَلَقِيتُ أَبَا عَطِيَّةَ مَالِكَ بْنَ عَامِرٍ فَسَأَلْتُهُ فَذَهَبَ يُحَدِّثُنِي حَدِيثَ سُبَيْعَةَ فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَ عَنْ عَبْدِ اللهِ فِيهَا شَيْئًا فَقَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ: أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ وَلَا تَجْعَلُونَ عَلَيْهَا الرُّخْصَةَ؟ لَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ القُصْرَىٰ بَعْدَ الطُّولَىٰ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤].

الشَّرْح

{٤٩٠٩} هذا الحديث فيه: بيان أن الحامل عدتها بوضع الحمل، وهذا هو الصواب؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطّلاق: ٤].

وهذا عام في جميع الزوجات، فالحامل عدتها وضع الحمل سواء كانت رجعية أو مبتوتة أو متوفى عنها زوجها.

○ قوله: «أَفْتِنِي فِي ٱمْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: آخِرُ الأَجَلَيْنِ» أي: تكمل أربعة أشهر وعشرة أيام.

○ قوله: «قُلْتُ أَنَا» يعني: قال أبو سلمة.

○ قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطّلَاق: ٤] الآية استدل بها أبو سلمة على ابن عباس.

○ قوله: «قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابن أَخِي» يعني: أنا أؤيد قول أبي سلمة أنها تخرج من العدة بوضع الحمل.

○ قوله: «فَأَرْسَلَ ابن عَبَّاسٍ غُلَامَهُ كُرَيْبًا إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ» فيه: الرجوع إلى أهل العلم كما قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النّحل: ٤٣]. فإنه لما اختلف ابن عباس رضي الله عنهما وأبو هريرة رضي الله عنه أرسل ابن عباس إلى أم سلمة رضي الله عنها يسألها فأفتته بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، فيجب رد النزاع إلى الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

○ قوله: «فَقَالَتْ: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وَهْيَ حُبْلَىٰ، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَخُطِبَتْ فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم»، أي: لم تعتد أربعة أشهر وعشرًا، فدل على أن الحامل عدتها وضع الحمل ولو كانت متوفى عنها.

○ قوله: «فَذَكَرَ آخِرَ الأَجَلَيْنِ»، يعني: للحامل إذا طلقت، قوله: «فَحَدَّثْتُ بِحَدِيثِ سُبَيْعَةَ بِنْتِ الحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: فَضَمَّزَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ» يعني: عض شفتيه، والمعنى أشار إليه أن اسكت.

❖ ❖ ❖

{٤٩١٠} قوله: «عَمَّهُ»: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

○ قوله: «أَتَجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظَ وَلَا تَجْعَلُونَ عَلَيْهَا الرُّخْصَةَ؟»، يعني: هل تجعلون على الحامل التغليظ فتعتد بأطول الأجلين ولا تخرج من العدة بوضع

الحمل.

❍ قوله: «لَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ القُصْرىٰ بَعْدَ الطُّولَىٰ» سورة النساء القصرى هي سورة الطلاق، وسورة النساء الطولى هي سورة البقرة، فسورة الطلاق جاء فيها: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطَّلَاق: ٤]، يعني: الحامل عدتها وضع الحمل، وسورة البقرة جاء فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٤].

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: سورة الطلاق هي الآخر نزولًا فالمعول عليه هو قول الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطَّلَاق: ٤].

وكأن ابن مسعود رضي الله عنه أراد أن يقول: إن آية البقرة نُسخت بآية الطلاق.

والتحقيق أنه لا نسخ، فالعموم في آية البقرة مخصص بآية الطلاق، فالمعنى المتوفي عنها تتربص أربعة أشهر وعشرًا إلا إن كانت حاملًا ووضعت حملها قبل العدة، فإنها تنتهي بوضع الحمل.

وهذا الخلاف في عدة الحامل كان بين السلف في العهد الأول ثم استقر الأمر على أن الحامل تعتد بوضع الحمل مطلقًا، وهو كالإجماع بين السلف والعلماء.

٦٦- سُورةُ التَّحريم

بَابٌ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: ١]

{٤٩١١} حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ فَضَالَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنِ ابن حَكِيمٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ فِي الحَرَامِ: يُكَفِّرُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

{٤٩١٢} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ ابنةِ جَحْشٍ وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا، فَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَنْ أَيَّتُنَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ، إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ. قَالَ: «لَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ ابنةِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ لَا تُخْبِرِي بِذَلِكِ أَحَدًا».

الشَّرْح

هذه سورة التحريم، وسميت سورة التحريم؛ لأن في أولها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التَّحْريم: ١].

{٤٩١١} قوله: «أَنَّ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ فِي الحَرَامِ: يُكَفِّرُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ «**إسوة**» حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]»، المعنى أن ابن عباس يرى أنه إذا حرم الإنسان شيئًا حلالًا فإنه يكفر كفارة يمين، واستدل ابن عباس بأن هذا فعل النبي ﷺ، والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ «**إسوة**» حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وروي عن ابن عباس في هذا روايتان إحداهما أنه يكفر كما في هذا الأثر، فإذا قال: هذا الطعام علي حرام فإنه يكفر كفارة يمين، فيطعم عشرة مساكين أو يكسوهم أو يعتق رقبة فإن لم يستطع صام ثلاثة أيام، والرواية

الثانية أن الحرام ليس عليه شيء، ولكن هذه الرواية مطلقة فينبغي أن تقيد بالرواية الأولى، وهي أنه يكفر كفارة يمين؛ لأن المطلق يحمل على المقيد.

❖ ❖ ❖

{٤٩١٢} قولها: «أَكَلْتَ مَغَافِيرَ» المغافير: نوع من الشجر له رائحة كريهة، فإذا رعته النحل وأخذت منه عسلًا صار العسل له رائحة كريهة.

وقال العيني: «"مَغَافِيرَ" بفتح الميم بعدها غين معجمة جمع مغفور ... والمغفور صمغ حلو كالناطف وله رائحة كريهة ينضجه شجر يسمى العرفط: بعين مهملة مضمومة وفاء مضمومة، نبات مر له ورقة عريضة تنفرش على الأرض، وله شوكة وثمرة بيضاء كالقطن مثل زر قميص، خبيث الرائحة».

وهذا الحديث فيه: تواطؤ حفصة وعائشة حتى لا يمكث النبي ﷺ عند زينب، فكل واحدة إذا دخل عليها النبي ﷺ تقول: «أَكَلْتَ مَغَافِيرَ، إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ»؛ لأن النبي ﷺ يكره الروائح الكريهة؛ ولذلك قال: «كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ ابنةِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ» وفي بعض الروايات أن حفصة قالت: «حرمناه من أكل العسل، فقالت لها: اسكتي» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [التّحْريم: ٤].

والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ حرم العسل فقال: «فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ لَا تُخْبِرِي بِذَلِكِ أَحَدًا»، فجعل الله في ذلك كفارة يمين.

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله ما أخرجه الضياء في «المختارة»[١] أن النبي ﷺ حرم مارية سريته أم إبراهيم، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التّحْريم: ١-٢]..

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فيحتمل أن الآية نزلت في السببين معًا»، أي: تحريم العسل وتحريم سريته مارية؛ وعلى هذا إذا حرم الإنسان على نفسه شيئًا من طعام أو شراب أو عسل أو حرم جاريته فإنه يكفر كفارة يمين؛ لهذه

(١) الأحاديث المختارة (٥/ ٧٠).

الآيــة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التّحْريم: ١-٢].

أما تحريم الزوجة فيختلف فلو قال: حرمت زوجتي، أو قال: هي علي حرام هذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلم. روي عن ابن عباس أنه يكفر كفارة يمين وهو قول طائفة من العلماء، وقال آخرون من أهل العلم: إنه يكون ظهارًا فيكون فيه كفارة ظهار، وهذا هو الراجح فيعتق رقبة فإن لم يجد صام شهرين متتابعين، فإن لم يجد أطعم ستين مسكينًا، فتحريم الزوجة يكون ظهارًا، وتحريم غيرها كالجارية أو العسل أو غيره يكون يمينًا مكفرة.

أما إذا قال لزوجته: هي كظهر أمه فإنه يكون ظهارًا ولا يكون يمينًا مكفرة بالاتفاق.

بَابٌ
﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢]

{٤٩١٣} حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ حُنَيْنٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يُحَدِّثُ أَنَّهُ قَالَ: مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ؛ هَيْبَةً لَهُ، حَتَّىٰ خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ فَلَمَّا رَجَعْتُ وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ إِلَى الأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ -قَالَ- فَوَقَفْتُ لَهُ حَتَّىٰ فَرَغَ، ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَنِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ؟ فَقَالَ: تِلْكَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ. قَالَ: فَقُلْتُ: والله إِنْ كُنْتُ لأُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هٰذا مُنْذُ سَنَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ؛ هَيْبَةً لَكَ. قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، مَا ظَنَنْتَ أَنَّ عِنْدِي مِنْ عِلْمٍ فَاسْأَلْنِي، فَإِنْ كَانَ لِي عِلْمٌ خَبَّرْتُكَ بِهِ قَالَ: ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: والله إِنْ كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْرًا، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَالَكِ وَلِمَا هَا هُنَا فِيمَا تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ؟ فَقَالَتْ لِي: عَجَبًا لَكَ يَا ابن الخَطَّابِ، مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، وَإِنَّ ابنتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ. فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ حَفْصَةَ فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ، إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟ فَقَالَتْ حَفْصَةُ: والله إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ. فَقُلْتُ: تَعْلَمِينَ أَنِّي أُحَذِّرُكِ عُقُوبَةَ اللهِ وَغَضَبَ رَسُولِهِ ﷺ، يَا بُنَيَّةُ لَا يَغُرَّنَّكِ هٰذِه التِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا- يُرِيدُ عَائِشَةَ- قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّىٰ دَخَلْتُ عَلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ لِقَرَابَتِي مِنْهَا فَكَلَّمْتُهَا. فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: عَجَبًا لَكَ يَا ابن الخَطَّابِ دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ تَبْتَغِي أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ. فَأَخَذَتْنِي والله أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ، فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهَا، وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ، وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ

غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ ٱمْتَلأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ البَابَ فَقَالَ: ٱفْتَحِ ٱفْتَحْ. فَقُلْتُ: جَاءَ الغَسَّانِيُّ؟ فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، ٱعْتَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ. فَقُلْتُ: رَغِمَ أَنْفُ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ، فَأَخَذْتُ ثَوْبِيَ فَأَخْرُجُ حَتَّىٰ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ يَرْقَىٰ عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ، وَغُلَامٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَسْوَدُ عَلَىٰ رَأْسِ الدَّرَجَةِ فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ: هٰذا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ. فَأَذِنَ لِي -قَالَ عُمَرُ:-، فَقَصَصْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ هٰذا الحَدِيثَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ كِسْرىٰ وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ. فَقَالَ: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟».

الشَّرْح

{٤٩١٣} قوله: «مَكَثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ» فيه: أنه ينبغي لطالب العلم أن يطلب العلم من الكبار والرؤساء ولا ينبغي أن يحجم عن طلبه من الرئيس أو الكبير هيبة له.

وفيه: أن الإنسان إن كان عنده علم فإنه يخبر به، وإن لم يكن عنده علم فإنه يتوقف ويقول: لا أدري أو لا أعلم، كما قال ابن مسعود: من كان عنده علم فليخبر به ومن لم يكن عنده علم فليقل: الله أعلم فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦].

○ قولها: «مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، وَإِنَّ ابنتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ» فيه: دليل على أن عمر لم يعلم أن ابنته تهجر النبي ﷺ.

○ قوله: «فَأَخَذَ رِدَاءَهُ» فيه: دليل على أنهم كانوا يلبسون الأزر والأردية وقد يلبسون القمص.

وفيه: دليل على أن الإنسان إن كان في بيته فله أن يتخفف من بعض الثياب، فإذا أراد أن يخرج لبس ثياب الخروج؛ ولهذا أخذ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رداءه وهو خارج.

○ قوله: «لَا يَغُرَّنَّكِ هٰذِه التِي أَعْجَبَهَا حُسْنُهَا حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِيَّاهَا» «حُبُّ» مرفوع؛ لأنه بدل اشتمال من قوله: «حُسْنُهَا»، نقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن التين: «حُسْنُهَا» بالضم لأنه فاعل، و«حُبَّ» منصوب لأنه مفعول لأجله، أي أعجبها حسنها من أجل حب رسول الله ﷺ إياها، وفي رواية لمسلم: «**التي أعجبها حسنها وحب رسول الله إياها**»(١)، بالواو. قال الكرماني: «وهذا هو المناسب للروايات الأخر» أفاده العيني.

قوله في ذكر كلام أم سلمة: «دَخَلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ تَبْتَغِي أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ. فَأَخَذَتْنِي واللهِ أَخْذًا كَسَرَتْنِي عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُ أَجِدُ»، يعني: كلمته كلمةً ثنته عن الشيء الذي يريده، فقد كان يريد أن يتكلم بكلام كثير، لكن لما قالت له هذا الكلام اقتصد.

○ قوله: «وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ، وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ» فيه: استحباب حضور مجالس العلم واستحباب التناوب في طلب العلم إذا لم يتيسر لكل واحد الحضور بنفسه؛ فكان عمر وزميله الأنصاري يتناوبا، وفي الحديث الآخر: «فينزل يومًا وأنزل يومًا» كأنهم كانوا ساكنين بعيدًا عن مسجد النبي ﷺ. فكان عمر ينزل يومًا يسمع العلم ويأتي بالخبر للأنصاري، واليوم الثاني ينزل الأنصاري ويسمع العلم ويأتي بالفائدة لعمر، وهكذا.

○ قوله: «وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا، فَقَدِ ٱمْتَلَأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ، فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ البَابَ فَقَالَ: ٱفْتَحِ ٱفْتَحْ. فَقُلْتُ: جَاءَ الغَسَّانِيُّ؟ فَقَالَ: بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، ٱعْتَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ»، أي: كان ملك من ملوك غسان يريد أن يسير إليهم فيغزوهم فامتلأت صدورهم خوفًا منه، وكان في ذلك الزمان قوتان عظيمتان، الروم، والفرس، مثل

(١) مسلم (١٤٧٩).

أمريكا وروسيا في هذا الزمان. وكانت غسان تابعة للروم، فلما جاء الأنصاري وضرب باب عمر ضربًا شديدًا ظن عمر أنه جاء الغساني؟ قال: بل أشد، اعتزل رسول الله ﷺ نساءه، وهذا دليل على اهتمام الصحابة ﵃ بأحوال رسول الله ﷺ والتأثر والانزعاج لما يقلقه أو يغضبه.

○ قوله: «رَغَمَ»: بكسر الغين وفتحها، فيقال رغَم ورغِم، والمصدر رَغْم ورِغم ورُغم بتثليث الراء ورَغِم، أي: لصق بالرغام وهو التراب.

○ قوله: «فَأَخَذْتُ ثَوْبِيَ» أي: الثوب وضبطه بعضهم: «ثوبيَّ» بالتثنية أي: الثوب، العمامة، وفيه: استحباب التجمل بالثوب والعمامة عند لقاء الأئمة والكبار احترامًا لهم.

○ قوله: «فِي مَشْرُبَةٍ لَهُ»، المشربة: الغرفة المشرفة.

○ قوله: «يَرْقَىٰ عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ» «يُرقى» على صيغة البناء للمجهول أي يُصعد عليها، والعجلة: الدرجة، فالرسول ﷺ اعتزل نساءه في غرفة مرتفعة شهرًا وهجرهن لما اجتمعن في طلب النفقة.

○ قوله: «فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»، يعني: لما قال له: إني جئت أم سلمة وأنها قالت: يا ابن الخطاب تريد أن تدخل بين رسول الله وبين أزواجه، تبسم النبي ﷺ، وعمر ﵁ يريد أن يضحك النبي ﷺ ويسليه ويزيل الهم عنه.

○ قوله: «وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ حَصِيرٍ»: الحصير معروف وهو بساط مصنوع من سعف النخل يتميز باليبس والقوة.

○ قوله: «مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ»، أي: ليس عليه فراش؛ وفيه: تواضع الرسول ﷺ؛ فالرسول ﷺ وهو أشرف الخلق نائم على حصير يابس، وليس عنده ما عندنا الآن من الأرائك والفرش اللينة وغير ذلك.

○ قوله: «وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ»، أي: من جلد «حَشْوُهَا لِيفٌ».

○ قوله: «وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قرظًا مصبورًا»: القرظ: ورق الشجر الذي يصبغ

به، و«مصبور» أي: مجموع من الصبرة. وجاء في رواية عند الإسماعيلي: «مصبوبة»، يعني: مسكوبة عند رجليه.

○ قوله: «وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ»: «أهب» - بفتح الهمزة وضمها: جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ.

○ قوله: «فَبَكَيْتُ»، أي: بكى عمر لما رأى ما فيه رسول الله ﷺ من شدة العيش حتى إن الحصير أثر في جسده ﷺ.

○ قوله: «إِنَّ كِسْرىٰ وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ»، أي: من الأبهة والترف وهم على الكفر وأنت رسول الله ﷺ.

○ قوله: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟» هذا مثل ما جاء في الحديث الآخر: «**لا تشربوا في آنية الفضة والذهب، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**»(١) يعني: هذه الآنية للكفرة في الدنيا أما المسلم فيتسلى على ما يصيبه ويحصل له من قلة ذات اليد أو من المصائب والنكبات بما يرجوه ويؤمله من فضل الله وبما يعد الله للمؤمنين الصابرين الصادقين في الآخرة من الجنة والكرامة.

(١) أحمد (٥/٣٩٧)، والبخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).

بَابٌ

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ **الآية** [التحريم: ٣]

فِيهِ: عَائِشَةُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

{٤٩١٤} حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ حُنَيْنٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنِ الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَمَا أَتْمَمْتُ كَلاَمِي حَتَّىٰ قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ.

الشَّرح

{٤٩١٤} هذا الحديث تفسير لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ [التّحْريم: ٤]، وفيه: بيان أن المتظاهرتين عائشة وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بَابٌ

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]

صَغَوْتُ وَأَصْغَيْتُ: مِلْتُ، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ [الأنعام: ١١٣]: لِتَمِيلَ. ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]: عَوْنٌ. ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾: تَعَاوَنُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ [التحريم: ٦]: أَوْصُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَأَدِّبُوهُمْ.

{٤٩١٥} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ حُنَيْنٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابن عَبَّاسٍ يَقُولُ: أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ المَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَكُثْتُ سَنَةً فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَوْضِعًا، حَتَّىٰ خَرَجْتُ مَعَهُ حَاجًّا، فَلَمَّا كُنَّا بِظَهْرَانَ ذَهَبَ عُمَرُ لِحَاجَتِهِ فَقَالَ: أَدْرِكْنِي بِالْوَضُوءِ فَأَدْرَكْتُهُ بِالإِدَاوَةِ، فَجَعَلْتُ أَسْكُبُ عَلَيْهِ وَرَأَيْتُ مَوْضِعًا فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، مَنِ المَرْأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا؟ قَالَ ابن عَبَّاسٍ: فَمَا أَتْمَمْتُ كَلَامِي حَتَّىٰ قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ.

الشَّرْح

في بعض النسخ فسرالمؤلف ﵀ قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، يعني: مالت، قال: «صَغَوْتُ وَأَصْغَيْتُ»، أي: «مِلْتُ»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ [الأنعام: ١١٣]، أي «لِتَمِيلَ».

وفسر المؤلف قوله تعالى: ﴿ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: ٤] بأن الظهير: العون، و﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] يعني: «تَعَاوَنُونَ».

{٤٩١٥} قوله: «فَجَعَلْتُ أَسْكُبُ عَلَيْهِ الماء» فيه: جواز الإعانة في الوضوء، وقد جاء أن النبي ﷺ كان ربما صب عليه الوضوء أحد الصحابة، كما فعل المغيرة بن شعبة في قصة صلاة عبد الرحمن بن عوف بالناس[(١)].

(١) البخاري (٥٧٩٩)، ومسلم (٢٧٤)، وقصة صلاة عبدالرحمن بن عوف في مسلم فقط.

بَابُ

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآية [التحريم: ٥]

{٤٩١٦} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﵁: اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ. فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ.

الشَّرْح

{٤٩١٦} هذا الحديث من المواضع التي وافق فيها عمر ﵁ القرآن، فقد قال لزوجات النبي ﷺ: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت الآية.

ومما وافق فيه عمر القرآن أنه قال: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥].

وكذلك قال: يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب[(١)].

---

(١) أحمد (١/ ٣٦)، والبخاري (٤٢١٣)، ومسلم (٢٣٩٩) مختصرًا.

٦٧- سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التَّفَاوُتُ: الاخْتِلافُ، وَالتَّفَاوُتُ وَالتَّفَوُّتُ وَاحِدٌ. ﴿تَمَيَّزُ﴾: تَقَطَّعُ، ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: جَوَانِبِهَا. ﴿تَدَّعُونَ﴾: وَتَدْعُونَ مِثْلُ تَذَّكَّرُونَ وَتَذْكُرُونَ. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: يَضْرِبْنَ بِأَجْنِحَتِهِنَّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ بَسْطُ أَجْنِحَتِهِنَّ، ﴿وَنُفُورٍ﴾ الكُفُورُ.

الشَّرح

هذه الترجمة عقدها المؤلف رحمه الله لتفسير بعض الكلمات في «سورة الملك»، ولم يذكر فيها حديثًا؛ لأنه لم يجد حديثًا على شرطه.

قول الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: ١]. تبارك وصف الله عز وجل لا يوصف بها غيره، فهو سبحانه المتبارك وعبده المبارك. وما يقوله بعض الناس إذا زارهم شخص: تباركت علينا، هذا غلط ولا ينبغي أن يقال، ولكن يقال: تحصل البركة بزيارتك، أو يقال: أنت رجل مبارك، أو هذا من البركة التي جعلها الله فيك أو ما شابه ذلك.

○ قوله: «التَّفَاوُتُ: الاخْتِلافُ»، يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [المُلك: ٣]، أي: ليس في خلق الله من اختلاف.

○ قوله: «﴿تَمَيَّزُ﴾ تَقَطَّعُ» فسر المؤلف قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [المُلك: ٨]، أي: تكاد النار تَقَطّع من الغيظ على الكفار.

○ قوله: «﴿مَنَاكِبِهَا﴾ جَوَانِبِهَا» فسر المؤلف رحمه الله قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: ١٥] أي: فامشوا في جوانبها، أي: الأرض، والمراد العمل والسعي طلبًا للرزق.

○ قوله: «﴿تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾ [المُلك: ٢٧] وَتَدْعُونَ مِثْلُ تَذَّكَّرُونَ وَتَذْكُرُونَ»، أي: بالتشديد والتخفيف واحد في المعنى.

قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [المُلك: ١٩]. قال مجاهد: «بَسْطُ أَجْنِحَتِهِنَّ»، كذا في نسخة.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ [المُلك: ١٩]: «يَضْرِبْنَ بِأَجْنِحَتِهِنَّ».

○ قوله: «﴿وَنُفُورٍ﴾ الكُفُورُ» فسر النفور في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝٢١﴾ [المُلك: ٢١] بالكفور، وذلك على إرادة المعنى، أي أنه نفر من شدة كفره.

٦٨- سورة نون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿حَرْدٍ﴾ جِدٍّ فِي أَنْفُسِهِمْ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَضَالُّونَ﴾ أَضْلَلْنَا مَكَانَ جَنَّتِنَا. وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كَالصُّبْحِ ٱنْصَرَمَ مِنَ اللَّيْلِ، وَاللَّيْلِ ٱنْصَرَمَ مِنَ النَّهَارِ، وَهْوَ أَيْضًا كُلُّ رَمْلَةٍ ٱنْصَرَمَتْ مِنْ مُعْظَمِ الرَّمْلِ، وَالصَّرِيمُ أَيْضًا المَصْرُومُ، مِثْلُ قَتِيلٍ وَمَقْتُولٍ.

الشَّرْح

فسر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الكلمات في سورة القلم على عادته في تفسير الكلمات التي قد يشكل معناها من أجل أن يفيد طالب العلم، فيكون «الجامع الصحيح» بذلك مشتملًا على التفسير وعلى الحديث وعلى الفقه وعلى اللغة ويكون قد ضرب في كل علم بسهم.

○ قوله: «**وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾** [القَلَم: ٢٥]: **على جِدٍّ فِي أَنْفُسِهِمْ**» كلمة حرد ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ لها أربعة معان: المنع والقصد والغضب والحقد، أي غدوا على منع المساكين أو على قصد منعهم أو على غضب أو على حقد على المساكين.

فأصحاب الجنة أرادوا أن يصرموا الثمر بالليل حتى لا يعطوا المساكين منها شيئًا فمشوا إليها سرًّا يتخافتون، وتواصوا فيما بينهم ألا يدخل البستان عليكم مسكين، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عاقبهم فأُحرقت هذه الجنة ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القَلَم: ٢٠]، يعني: سوداء حتى إنهم فيما بينهم ذهلوا، فقالوا: هل أضللنا جنتنا؟ هل هذا هو مكان البستان؟ فإعطاء المساكين والعطف عليهم والرحمة بهم فيه خير عظيم، يقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**»(١)

(١) أحمد (١/ ١٧٣)، والبخاري (٢٨٩٦).

فهؤلاء ظنوا أن الصدقة تنقص المال، ولم يعلموا أنه «**ما نقص مال عبد من صدقة**»[(١)] بل الصدقة تزيده ويبارك الله فيه ويخلف على صاحبه، مع الأجر والثواب العظيم، وما يحصل من العطف والترابط بين الفقراء والأغنياء كل هذه المصالح فاتت على هؤلاء، كما أن للمساكين حقًّا في أموال الأغنياء؛ ولهذا عاجلهم الله بهذه العقوبة العاجلة في الدنيا.

جاء في بعض النسخ زيادة هنا: «**وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾** [القَلَم: ٢٣] **ينتجون السرار والكلام الخفي**» يعني: أنهم ذهبوا وهم يتكلمون سرًّا فيما بينهم ويتناجون في التواصي بالكتمان وعدم إظهار الصرام حتى لا يأتي المساكين.

○ قوله: «**قال ابن عباس: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾** [القَلَم: ٢٦]: **أضللنا مكان جنتنا**»، يعني: لما جاءوا فوجدوها قد أحرقت دهشوا وذهلوا وقالوا: لقد ضللنا الطريق فليس هذا مكانها.

○ قوله: «**﴿كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾** [القَلَم: ٢٠]: **كَالصُّبْحِ ٱنْصَرَمَ مِنَ اللَّيْلِ، وَاللَّيْلِ ٱنْصَرَمَ مِنَ النَّهَارِ**» «**انصرم**»، أي: ذهب، يعني أصبحت جنتهم كالشيء الذاهب، أي: ذهب ثمرها ولم يبق منه شيء.

○ قوله: «**وَالصَّرِيمُ أَيْضًا المَصْرُومُ، مِثْلُ قَتِيلٍ وَمَقْتُولٍ**»، أي: أنه فعيل بمعنى مفعول.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقال الفراء: الصريم الليل المسود**»، وهذا هو الأقرب.

ووقع هنا في رواية النسفي «**﴿تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ ترخص فيرخصون**»، أي: أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القَلَم: ٩]، أي: «**ترخص فيرخصون**»، وجاء من طريق عكرمة قال: ودوا لو تكفر فيكفرون.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾** [القَلَم: ١]، **بسم الله الرحمن الرحيم**» سقطت «**سورة**» والبسملة لغير أبي ذر، والمشهور في ﴿نٓ﴾ أن

(١) أحمد (١/ ١٩٣)، ومسلم (٢٥٨٨).

حكمها حكم أوائل السور في الحروف المقطعة، وبه جزم الفراء وقيل: بل المراد بها الحوت، وجاء ذلك في حديث ابن عباس أخرجه الطبراني مرفوعًا قال: «**أول ما خلق الله القلم والحوت، قال: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: كل شيء كائن إلى يوم القيامة ثم قرأ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ فالنون الحوت والقلم القلم**»[(١)]».

والأقرب أنها من الحروف المقطعة التي ابتدأ الله بها أوائل السور مثل: ﴿قٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿أَلَمْ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿الٓمٓر﴾، ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾، ﴿حمٓ ۝١﴾، ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قوله: «**وَقَالَ قَتَادَةُ: حَرْدٍ: جِدٌّ فِي أَنْفُسِهِمْ**» هو بكسر الجيم وتشديد الدال: الاجتهاد والمبالغة في الأمر، وقال ابن التين: وضبط في بعض الأصول بفتح الجيم قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: كانت الجنة لشيخ وكان يمسك قوته سنة ويتصدق بالفضل وكان بنوه ينهونه عن الصدقة فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا: لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝٢٥﴾ [القَلَم: ٢٥] يقول: على جد من أمرهم. قال معمر: وقال الحسن: على فاقة، وأخرج سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن عكرمة قال: هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة فذكر نحوه إلى أن قال: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝٢٥﴾، قال: أمر مجتمع، وقد قيل في حرد: إنها اسم الجنة وقيل: اسم قريتهم وحكى أبو عبيدة فيه أقوالًا أخرى: القصد والمنع والغضب والحقد».

والصواب أنه يمكن أن تفسر لفظة الحرد على هذه المعاني الأربعة: على منع المساكين، وعلى قصدهم لذلك المنع، وعلى الغضب على المساكين، وعلى الحقد عليهم.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قوله: «**وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾: كَالصُّبْحِ ٱنْصَرَمَ مِنَ اللَّيْلِ، وَاللَّيْلِ ٱنْصَرَمَ مِنَ النَّهَارِ**» قال أبو عبيدة: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القَلَم: ٢٠]: النهار انصرم من الليل والليل انصرم من النهار. وقال

(١) الطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٣٣).

الفراء: الصريم: الليل المسود قوله: «**وهو أيضا كل رملة انصرمت من معظم الرمل**»، هو قول أبي عبيدة أيضًا، قال: وكذلك الرملة تنصرم من معظم الرمل فيقال: صريمة، وصريمة أمرك: قطعه قوله؛ «**وَالصَّرِيمُ أَيْضًا المَصْرُومُ، مِثْلُ قَتِيلٍ وَمَقْتُولٍ**» هو محصل ما أخرجه ابن المنذر من طريق شيبان عن قتادة في قوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القَلَم: ٢٠]: كأنها قد صرمت، والحاصل أن الصريم مقول بالاشتراك على معان يرجع جميعها إلى انفصال شيء عن شيء. ويطلق أيضًا على الفعل فيقال: صريم بمعنى مصروم».

بَابٌ

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٣]

{٤٩١٧} حَدَّثَنَا مَحْمُودٌ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٣] قَالَ: رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ.

{٤٩١٨} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَعْبَدِ بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الخُزَاعِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ».

الشَّرْح

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «**باب** ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٣]» اختلف في الذي نزلت فيه فقيل: هو الوليد بن المغيرة، وذكره يحيى بن سلام في «تفسيره» وقيل: الأسود بن عبد يغوث، ذكره سنيد بن داود في «تفسيره» وقيل: الأخنس بن شريق. وذكره السهيلي عن القتيبي. وحكى هذين القولين الطبري، فقال: يقال: هو الأخنس وزعم قوم أنه الأسود، وليس به، وأبعد من قال: إنه عبد الرحمن بن الأسود، فإنه يصغر عن ذلك. وقد أسلم وذكر في الصحابة».

وعلى كل حال، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن كان هو الوليد بن المغيرة - أو كان غيره - فالآية تشمله وتشمل كل من اتصف بهذا الوصف.

{٤٩١٧} هذا الحديث في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١٠-١٣].

○ قوله: ﴿عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القَلَم: ١٣]؛ الزنيم فسره ابن عباس في الحديث بأنه: «رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ» زاد أبو نعيم في «مستخرجه» في آخره: «**يعرف بها**» وفي رواية سعيد بن جبير المذكورة: يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. وللطبري من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: نعت فلم يعرف حتى قيل: زنيم فعرف، وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها. وقال أبو عبيدة: الزنيم المعلق في القوم ليس منهم قال الشاعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه

وقال حسان:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم

قال: ويقال للتيس: زنيم له زنمتان».

○ وقوله: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القَلَم: ١٠]، الحلاف: كثير الحلف، والمهين: الحقير.

○ قوله: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ [القَلَم: ١١]، الهماز: كثير الهمز. والمشاء بنميم: الذي يمشي بالنميمة في الناس.

○ قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القَلَم: ١٢]: كثير منع الخير.

○ قوله: ﴿مُعْتَدٍ﴾ [القَلَم: ١٢] وصف بالعدوان، يعني يعتدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، أو يعتدي على محارم الله.

○ قوله: ﴿أَثِيمٍ ۝١٢﴾ [القَلَم: ١٢] يعني كثير الإثم.

❖ ❖ ❖

{٤٩١٨} قوله: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ» المراد أن هذا وصف للأغلب وليس المراد أن أهل الجنة كلهم هكذا، بل يدخل الجنة من الأغنياء الكثير مثل أغنياء الصحابة: كأبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان،

وعبد الرحمن بن عوف، والزبير؛ فهؤلاء مشهود لهم بالجنة؛ فليس المراد من الحديث الحصر، ولكن المراد أن هؤلاء أغلب أهل الجنة؛ لأن الأغنياء والكبراء والأشراف في الغالب يردون الحق ولا يقبلونه لما عندهم من كبر؛ لأن الحق يمنعهم من الاستمرار في شهواتهم ويمنعهم من العظمة والكبرياء بخلاف الضعفاء. فالغالب أنهم ليس عندهم مانع من اتباع الحق؛ ولهذا كانوا هم أتباع الرسل؛ ولهذا قال قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ له: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١١١]، يعني: الضعفاء، ولما سأل هرقل أبا سفيان قبل أن يسلم عن أتباع النبي ﷺ قال: أيتبعه ضعفاء الناس أم شرفاؤهم؟ قال: ضعفاؤهم؛ يعني في الغالب وإلا فقد تبعه أبو بكر وهو من الأشراف.

○ قوله: «مُتَضَعِّفٍ»، بفتح العين؛ وفي لفظ آخر بكسرها، والكسر أفصح، يعني: متصف بالضعف، وفي لفظ آخر: «**مدفوع بالأبواب**»[(١)] وفي الحديث الآخر: «**إن شفع لم يشفع وإذا استأذن لم يؤذن له**»[(٢)] أي: إذا استأذن على الكبراء لم يؤذن له؛ لأنه ليس له مكانة بين الناس.

○ قوله: «لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ» يعني: هذا الضعيف من أهل التقوى والصلاح له مكانة عند الله ﷻ وإن لم تكن له منزلة عند الناس فلو أقسم على الله لأبر قسمه.

○ قوله: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» أي: هذه أوصاف غالب أهل النار وهناك من أهل النار من لم يتصف بهذه الأوصاف لكنه اتصف بالكفر، فبعض الكفار يدخل النار بسبب الكبر فغمط الحق ولم يقبله - مثل اليهود منعهم كبرهم من اتباع النبي ﷺ - وبعض الكفار يدخل النار بإشراكه مع الله ﷻ غيره فعَبَدَ الله وعبد معه غيره.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ» بكسر العين وبفتحها، وهو أضعف. وفي رواية الإسماعيلي:

(١) مسلم (٢٦٢٢).
(٢) البخاري (٢٨٨٧).

«**مستضعف**»[١] وفي حديث عبد الله بن عمرو عند الحاكم: «**الضعفاء المغلوبون**»[٢]. وله من حديث سراقة بن مالك «**الضعفاء المغلوبون**»[٣]. ولأحمد من حديث حذيفة: «**الضعيف المستضعف ذو الطمرين لا يؤبه له**»[٤]. والمراد بالضعيف من نفسه ضعيفة لتواضعه وضعف حاله في الدنيا والمستضعف المحتقر لخموله في الدنيا».

فالمراد بالضعيف الضعيف في نفسه، والضعيف بتواضعه لضعف حاله، وهو مستضعف ومحتقر لخموله في الدنيا فليس بمعروف وليست له مكانة بين الناس ولكن له مكانة عند الله، وهذا يوجد كثيرًا، فلو فتشت في الناس لوجدت بعض الأتقياء ليس معروفًا، فقد يكون فلاحًا، وقد يكون تاجرًا، وقد يكون عاملًا، أو حدادًا، أو خرازًا، أو سباكًا، والناس لا يرون له وزنًا، ولكنه تقي صادق ومخلص ورع متواضع ومؤمن ناصح.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قوله: «**عُتُلٍّ**» بضم المهملة والمثناة بعدها لام ثقيلة، قال الفراء: الشديد الخصومة، وقيل: الجافي عن الموعظة، وقال أبو عبيدة: العتل الفظ الشديد من كل شيء وهو هنا الكافر، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن العتل الفاحش الآثم. وقال الخطابي: العتل الغليظ العنيف، وقال الداودي: السمين العظيم العنق والبطن، وقال الهروي: الجموع المنوع، وقيل: القصير البطن، قلت: وجاء فيه حديث عند أحمد من طريق عبد الرحمن بن غنم - وهو مختلف في صحته - قال: سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم قال: «**هو الشديد الخلق، المصحح، الأكول، الشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، الرحيب الجوف**»[٥].

○ قوله: «**جَوَّاظٍ**»: بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره معجمة: الكثير اللحم

(١) ابن ماجه (٤١١٥).
(٢) الحاكم (٢/ ٥٤١)، وأحمد (٢/ ٢١٤).
(٣) الحاكم (١/ ١٢٩).
(٤) أحمد (٥/ ٤٠٧).
(٥) أحمد (٤/ ٢٢٧).

المختال في مشيه، حكاه الخطابي، وقال ابن فارس: قيل: هو الأكول، وقيل: الفاجر، وأخرج هذا الحديث أبو داود عن عثمان بن أبي شيبة عن وكيع عن الثوري بهذا الإسناد مختصرًا: «**لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري**»[(١)] قال: و«**الجواظ**»: الفظ الغليظ انتهى. وتفسير «**الجواظ**» لعله من سفيان و«**الجعظري**» بفتح الجيم والظاء المعجمة بينهما عين مهملة وآخره راء مكسورة ثم تحتانية ثقيلة. قيل: هو الفظ الغليظ. وقيل: الذي لا يمرض، وقيل: الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده، وأخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو أنه تلا قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ إلى ﴿زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القَلَم: ١٢- ١٣] فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر**»[(٢)].

ولا شك أن بعض هذه الأقوال ليست بشيء كقوله: القصير البطن، وكذلك قوله: السمين العظيم العنق والبطن، فالمراد الأفعال والأخلاق السيئة من الغلظة والجفاء والعنف والشدة، أما السمن وعظم العنق فهذا قد يكون وقد لا يكون؛ فقد يحصل السمن بسبب تنعمه في دنياه وعدم اهتمامه بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محَمَّد: ١٢]، وكما في الحديث: «**ويظهر فيهم السمن**»[(٣)] وقد يكون السمن خلقة وهو مؤمن مستقيم كما وجد في بعض الصحابة، فعتبان بن مالك رضي الله عنه كان رجلًا ضخمًا.

---

(١) أبو داود (٤٨٠١).

(٢) الحاكم (٢/ ٥٤١).

(٣) أحمد (٤/ ٤٢٧)، والبخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

بَابُ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]

{٤٩١٩} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا».

الشَّرْح

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قوله: «**باب** ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القَلَم: ٤٢]» أخرج أبو يعلى بسند فيه ضعف عن أبي موسى مرفوعًا في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن نور عظيم فيخرون له سجدًا. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، قال: عن شدة أمر. وعند الحاكم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: هو يوم كرب وشدة».

نقول: لا منافاة بين إثبات الساق لله ﷻ وبين رؤية النور العظيم على هذا الحديث، ولا بينه وبين ما يكون في يوم القيامة من شدة وكرب فهو يوم عظيم، وليس هناك يوم أشد من يوم القيامة حتى إن الناس يعرقون من شدة الكرب والأهوال منهم من يبلغ به العرق إلى حقويه ومنهم إلى ركبتيه ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا(١) ومنهم من يخوض في عرقه كالسيل وهذا لا ينافي إثبات الساق لله ﷻ فالأمر شديد يوم القيامة والوصف ثابت لله ﷻ.

{٤٩١٩} الاستدلال بهذا الحديث على الترجمة فيه إشارة من البخاري ﷺ إلى أن الآية المراد بها الوصف فيكون في الحديث وفي الآية إثبات صفة الساق لله ﷻ على رغم أنوف الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، كما تثبت اليد والأصابع لله ﷻ كما يليق به ﷻ، وعند أهل السنة تمر الصفات كما جاءت ولا يتعرض لها بتأويل ولا تكييف ولا تحريف ولا تمثيل مع الإيمان بألفاظها وإثبات معانيها.

---

(١) أحمد (٦/٣)، ومسلم (٢٨٦٤).

○ قوله: «يكشف ربنا عن ساقه» صريح في إثبات الساق لله ﷻ، والضمير يعود إلى الله، والآية وإن كانت ليس فيها إضافة لله ﷻ لكن السياق يدل على أن المراد الوصف.

والكشف عن الساق علامة بين الله وبين المؤمنين يعرفون بها ربهم، فإذا كشف عن ساقه خروا له سجدًا. جاء هذا في حديث عن أبي سعيد رضي الله عنه[(١)] ذكر هذا القول الحكيم الترمذي ونقل هذا الحديث العيني في هذا الموضع.

وتأول بعضهم قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القَلَم: ٤٢] بشدة الأمر كما يقال: كشفت الحرب عن ساقها؛ وهذا ليس بشيء، والصواب إثبات الساق لله ﷻ على ما يليق به سبحانه وتعالى. والحديث فسر الآية فالسنة تفسر القرآن وتوضحه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قال الخطابي: فيكون المعنى يكشف عن قدرته التي تنكشف عن الشدة والكرب، وذكر غير ذلك من التأويلات، كما سيأتي بيانه عند حديث الشفاعة مستوفى في كتاب الرقاق - إن شاء الله تعالى - ووقع في هذا الموضع «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ»، وهو من رواية «سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلاَلٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ» فأخرجها الإسماعيلي كذلك ثم قال في قوله: «عَنْ سَاقِهِ» نكرة. ثم أخرجه من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم بلفظ: «**يكشف عن ساق**»[(٢)]. قال الإسماعيلي: هذه أصح لموافقتها لفظ القرآن في الجملة، لا يظن أن الله ذو أعضاء وجوارح لما في ذلك من مشابهة المخلوقين تعالى الله عن ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورىٰ: ١١]».

فالخطابي تأول الصفة بكشف القدرة التي تنكشف عن الشدة والكرب، وكذلك الإسماعيلي أحد رواة البخاري لا يظن أن الله ذو أعضاء وجوارح لما في ذلك من مشابهة المخلوقين، فماذا يضيره لو أثبت الصفة وسكت؟! فهؤلاء العلماء الكبار الخطابي والإسماعيلي والنووي والحافظ ابن حجر رحمهم الله الذين لا يصل الإنسان إلى عشر معشارهم من العلم يغلطون ويخطئون؛ لأنهم

---

(١) أحمد (٣/ ١٦)، والبخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٨٣).
(٢) أبو عوانة في «مسنده» (١/ ١٤٦).

قد قلدوا علماء كبارًا وأخذوا عنهم، فتقليد الأكابر والشيوخ له تأثير عظيم، والواجب اتباع ما عليه السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة الأربعة ومن وافقهم كسفيان الثوري والليث بن سعد وغيرهم فإنهم أثبتوا الصفات لله ﷻ قبل مجيء هؤلاء، والواجب اتباع الحق والأخذ به ولو خالف هؤلاء الأكابر من المتأخرين؛ ولهذا قال عبد الله بن مسعود لعمرو بن ميمون الأودي ما معناه: الزم الحق ولو خالفك الناس كلهم، وقيل: إذا كنت على الحق فأنت الجماعة ولو كنت وحدك، هذا نقله ابن عساكر أنه ثابت عن عبد الله بن مسعود، فينبغي لطالب العلم أن يحذر تأويلات هؤلاء الشراح فإنهم على الرغم من سعة علمهم في الفقه والحديث وفي اللغة وفي الرجال لكنهم غلطوا في هذه المسائل العظيمة في العقيدة والتوحيد والصفات، نسأل الله أن يعفو عنا وعنهم، وأن يغفر لنا ولهم، ونسأل الله أن يثبتنا على دينه القويم على عقيدة أهل السنة والجماعة وعلى ما دل عليه كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

○ قوله: «فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» هؤلاء هم المنافقون؛ لأنهم يسجدون رياءً.

٦٩- سورة الحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ يُرِيدُ فِيهَا الرِّضَا ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾ المَوْتَةَ الأُولَى التِي مُتُّهَا ثُمَّ أُحْيَا بَعْدَهَا ﴿مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أَحَدٌ يَكُونُ لِلْجَمْعِ وَلِلْوَاحِدِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ نِيَاطُ القَلْبِ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ ﴿طَغَى﴾ كَثُرَ، وَيُقَالُ: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بِطُغْيَانِهِمْ، وَيُقَالُ: طَغَتْ عَلَى الخَزَّانِ. كَمَا طَغَى المَاءُ عَلَىٰ قَوْمِ نُوحٍ. ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾: أُصُولُهَا ﴿بَاقِيَةٍ﴾ بَقِيَّةٍ.

الشَّرْح

هذه الترجمة تفسير لبعض الكلمات في «سورة الحَاقَّةِ»، لم يذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديثًا في هذا لأنه لم يجد على شرطه حديثًا.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ [الحَاقَّة: ١]: الحاقة اسم من أسماء يوم القيامة.

○ قوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحَاقَّة: ٢]: استفهام للتعظيم.

○ قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحَاقَّة: ٣]: تفخيم من الله لشأنها وعظمها.

○ قوله: «و﴿ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾: المَوْتَةَ الأُولَى التِي مُتُّهَا ثُمَّ أُحْيَا بَعْدَهَا»، أي: فسر قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ [الحَاقَّة: ٢٧]، يعني يقول: يا ليتني مت ولم أحي بعدها.

○ قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾ [الحَاقَّة: ٤٤]، يعني: لو كذب الرسول ﷺ على الله لعاجله الله بالعقوبة ولا أحد يمنعه من الله، وهو معصوم ﷺ وجميع الأنبياء من الكذب، لكن الشرط هنا تقديري كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزُّمَر: ٦٥]، وهو معصوم من الشرك ﷺ.

○ قوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحَاقَّة: ٤٧]، يعني: لا أحد يمنعه من الله جَلَّ وَعَلَا.

○ قوله: «﴿ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾: نِيَاطُ القَلْبِ» فسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحَاقَّة: ٤٦] بأن الوتين نياط القلب، وهو عرق في القلب إذا قطع مات الإنسان من ساعته.

○ قوله: «﴿طَغَا﴾ كَثُرَ» أي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحَاقَّة: ١١]. والجارية: السفينة.

○ قوله: «﴿بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحَاقَّة: ٥] بِطُغْيَانِهِمْ، وَيُقَالُ: طَغَتْ عَلَى الخَزَّانِ. كَمَا طَغَى المَاءُ عَلَىٰ قَوْمِ نُوحٍ» هذا ذكره المؤلف رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحَاقَّة: ٥].

فسر في بعض النسخ بعض الآيات منها قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحَاقَّة: ٨]، أي: من «بَقِيَّةٍ».

قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحَاقَّة: ٣٦]، الغسلين: طعام أهل النار، وهو «ما يسيل من صديد أهل النار»، ويقال: «كل شيء غسلته فخرج منه شيء فهو غسلين»، وغسلين على وزن «فعلين».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «لم يذكر في تفسير الحاقة حديثًا مرفوعًا ويدخل فيه حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**»[(١)] أخرجه أبو داود وابن أبي حاتم من رواية إبراهيم بن طهمان عن محمد بن المنكدر وإسناده على شرط الصحيح».

---

(١) أبو داود (٤٧٢٧)، وابن أبي حاتم في تفسير سورة الحاقة (١٠/ ٣٣٧٠).

٧٠- سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْفَصِيلَةُ أَصْغَرُ آبَائِهِ، الْقُرْبَىٰ إِلَيْهِ يَنْتَمِي مَنِ ٱنْتَمَىٰ. ﴿لِلشَّوى﴾ الْيَدَانِ وَالرِّجْلاَنِ وَالأَطْرَافُ وَجِلْدَةُ الرَّأْسِ يُقَالُ لَهَا: شَوَاةٌ، وَمَا كَانَ غَيْرَ مَقْتَلٍ فَهُوَ شَوىً، وَالْعِزُونَ: الجَمَاعَاتُ، وَوَاحِدُهَا عِزَةٌ.

الشَّرح

هذه الكلمات في تفسير سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعَارج: ١] وهي سورة المعارج.

○ قوله: «الْفَصِيلَةُ أَصْغَرُ آبَائِهِ، الْقُرْبَىٰ إِلَيْهِ يَنْتَمِي» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ۝١٣﴾ [المعَارج: ١٣]، والمراد أن في يوم القيامة يود الإنسان لو يفتدي من العذاب بآبائه وأقاربه ويسلم من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿لَظَىٰ ۝١٥﴾ [المعَارج: ١٥]: اسم من أسماء النار.

○ قوله: «﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ [المعَارج: ١٦]. الْيَدَانِ وَالرِّجْلاَنِ وَالأَطْرَافُ وَجِلْدَةُ الرَّأْسِ يُقَالُ لَهَا: شَوَاةٌ، وَمَا كَانَ غَيْرَ مَقْتَلٍ فَهُوَ شَوىً» المعنى أنهم يعذبون في النار فتشوي أطرافهم وجلود رأسهم.

○ قوله: «﴿عِزِينَ ۝٣٧﴾: حلق وجماعات واحدها عزة» هذا تفسير قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾ [المعَارج: ٣٧].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ [المعَارج: ٤٣]، أي: من قبورهم.

قوله تعالى: ﴿سِرَاعًا﴾ [المعَارج: ٤٣]، أي: شديدي السرعة.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعَارج: ٤٣]. النصب: الشيء المنصوب، وفي بعض النسخ: «الإيفاض: الإسراع»، فهم يسرعون في خروجهم

من قبورهم يوم القيامة، وفي إجابة الداعي كأنهم في شدة سرعتهم يتسابقون إلى شيء منصوب.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾** [المعَارج: ١]» سقطت البسملة للجميع. قوله: «**الْفَصِيلَةُ أَصْغَرُ آبَائِهِ، الْقُرْبَىٰ إِلَيْهِ يَنْتَمِي**» هو قول الفراء، وقال أبو عبيدة: الفصيلة دون القبيلة، ثم الفصيلة فخذه التي تؤويه، وقال عبد الرزاق عن معمر: بلغني أن فصيلته أمه التي أرضعته، وأغرب الداودي فحكى أن الفصيلة من أسماء النار. قوله: «﴿لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾ [المعَارج: ١٦]: **الْيَدَانِ وَالرِّجْلاَنِ وَالأَطْرَافُ وَجِلْدَةُ الرَّأْسِ يُقَالُ لَهَا: شَوَاةٌ، وَمَا كَانَ غَيْرَ مَقْتَلٍ فَهُوَ شَوىٰ**» هو كلام الفراء بلفظه أيضًا وقال أبو عبيدة: الشوى واحدتها شواة، وهي: اليدان والرجلان والرأس من الآدميين. قال: وسمعت رجلًا من أهل المدينة يقول: اقشعرت شواتي، قلت له: ما معناه؟ قال: جلدة رأسي والشوى: قوائم الفرس، يقال: عبل الشوى ولا يراد في هذا الرأس لأنهم وصفوا الخيل بأسالة الخدين ورقة الوجه».

٧١- سورة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَطْوَارًا﴾ طَوْرًا كَذَا وَطَوْرًا كَذَا، يُقَالُ: عَدَا طَوْرَهُ. أَيْ قَدْرَهُ، وَالْكُبَّارُ أَشَدُّ مِنَ الكُبَارِ، وَكَذَلِكَ جُمَّالٌ وَجَمِيلٌ، لأَنَّهَا أَشَدُّ مُبَالَغَةً، وَكُبَّارٌ الكَبِيرُ، وَكُبَارًا أَيْضًا بِالتَّخْفِيفِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: رَجُلٌ حُسَّانٌ وَجُمَّالٌ وَحُسَانٌ مُخَفَّفٌ وَجُمَالٌ مُخَفَّفٌ. ﴿دَيَّارًا﴾ مِنْ دَوْرٍ وَلَكِنَّهُ فَيْعَالٌ مِنَ الدَّوَرَانِ كَمَا قَرَأَ عُمَرُ: (الْحَيُّ القَيَّامُ). وَهْيَ مِنْ قُمْتُ. وَقَالَ غَيْرُهُ دَيَّارًا أَحَدًا. ﴿تَبَارًا﴾ هَلاَكًا. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿مِّدْرَارًا﴾ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا. ﴿وَقَارًا﴾ عَظَمَةً.

الشَّرح

○ قوله: «﴿أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نُوح: ١٤]: طَوْرًا كَذَا وَطَوْرًا كَذَا، يُقَالُ: عَدَا طَوْرَهُ. أَيْ قَدْرَهُ»، يعني: أن الإنسان خلق طورًا بعد طور: نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم يكمل خلقه بعد ذلك، فإذا خرج للحياة يكون طفلًا ثم صبيًّا ثم شابًّا ثم كهلًا ثم شيخًا.

○ قوله: «وَالْكُبَّارُ أَشَدُّ مِنَ الكُبَارِ، وَكَذَلِكَ جُمَّالٌ وَجَمِيلٌ، لأَنَّهَا أَشَدُّ مُبَالَغَةً»، يعني: الكبَّار بالتشديد أشد من الكُبَار بالتخفيف؛ لأنه مضعف، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

قوله: «وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نُوح: ١٣]: عَظَمَةً»: أي فسر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نُوح: ١٣]، يعني: ما لكم لا تعظمون الله وتوقرونه.

○ قوله: «وقال غيره: وَكُبَّارٌ الكَبِيرُ، وَكُبَارٌ أَيْضًا بِالتَّخْفِيفِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: رَجُلٌ حُسَّانٌ وَجُمَّالٌ وَحُسَانٌ مُخَفَّفٌ وَجُمَالٌ مُخَفَّفٌ»، يعني: العرب تقول هذه الألفاظ بالتخفيف والتشديد، والمضعّف أبلغ؛ لأن التضعيف زيادة في المبنى فيدل على زيادة المعنى.

○ قوله: «﴿دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]: مِنْ دَوْرٍ وَلَكِنَّهُ فَيْعَالٌ مِنَ الدَّوَرَانِ» المعنى: لا تترك منهم أحدًا يدور ويمشي، وذلك بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم أخبره الله ﷻ بأنه لن يؤمن أحد منهم في المستقبل كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فدعا عليهم بالهلاك، فاستجاب الله له وأمره أن يصنع السفينة وأن يركب فيها هو ومن آمن، وأغرق الله أهل الأرض.

○ قوله: «كَمَا قَرَأَ عُمَرُ ﷺ: (الْحَيُّ القَيَّامُ). وَهْيَ مِنْ قُمْتُ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران: ٢].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أخرج أبو عبيدة في «فضائل القرآن» من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه عن عمر أنه صلى العشاء الآخرة فاستفتح آل عمران فقرأ: «**الله لا إله إلا هو الحي القيام**»» وهي قراءة شاذة قرأ بها عمر بن الخطاب وابن مسعود وغيرهما[(١)].

○ قوله: «﴿إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨]: هَلَاكًا»، لأنهم لم يقبلوا الحق.

○ قوله: «﴿مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١١]: يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا» فسرها ابن عباس بأن الله ﷻ يرسل عليهم مطرًا كثيرًا يتبع بعضه بعضًا.

(١) انظر: «المحتسب»، لابن جني (١/ ٢٤٦).

بَابُ

﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ [نوح: ٢٣]

{٤٩٢٠} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ وَقَالَ: عَطَاءٌ عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﵄ صَارَتِ الأَوْثَانُ التِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وُدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَا، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ، لآلِ ذِي الكَلَاعِ. أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ التِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ.

الشَّرح

{٤٩٢٠} قوله: «صَارَتِ الأَوْثَانُ التِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ»، يعني: هذه الأصنام نفسها التي كانت في قوم نوح انتقلت إلى العرب في الجاهلية قبل بعثة النبي ﷺ، وهي: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر.

ولكن كيف عادت هذه الأصنام إلى العرب وهي منذ قوم نوح؟!

قيل: إن هذه الأصنام سفت عليها الريح وصارت تحت الأرض ثم سعى الشيطان وجنوده من الكهان على استخراجها لما انتشر الشرك بين العرب في الجاهلية.

وقيل: إن هذه الأصنام ليست هي أصنام قوم نوح نفسها ولكن العرب نصبوا أصنامًا وسموها بأسمائهم فوافقتها في الاسم.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قوله: «صَارَتِ الأَوْثَانُ التِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ» في رواية عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: كانت آلهة تعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد، وقال أبو عبيدة: وزعموا أنهم كانوا مجوسًا وأنها غرقت في الطوفان، فلما نضب الماء عنها أخرجها إبليس فبثها في الأرض.

انتهى. وقوله: كانوا مجوسًا غلط، فإن المجوسية كلمة حدثت بعد ذلك بدهر طويل، وإن كان الفرس يدعون خلاف ذلك، وذكر السهيلي في التعريف أن يغوث هو ابن شيث بن آدم فيما قيل، وكذلك سواع وما بعده، وكانوا يتبركون بدعائهم، فكلما مات منهم أحد مثلوا صورته وتمسحوا بها إلى زمن مهلائيل فعبدوها بتدريج الشيطان لهم، ثم صارت سنة في العرب في الجاهلية، ولا أدري من أين سرت لهم تلك الأسماء من قبل الهند؟ فقد قيل: إنهم كانوا المبدأ في عبادة الأصنام بعد نوح، أم الشيطان ألهم العرب ذلك؟ انتهى. وما ذكره مما نقله تلقاه من «تفسير بقي بن مخلد» فإنه ذكر فيه نحو ذلك على ما نبه عليه ابن عساكر في «ذيله».

وفيه: أن تلك الأسماء وقعت إلى الهند فسموا بها أصنامهم، ثم أدخلها إلى أرض العرب عمرو بن لحي، وعن عروة بن الزبير أنهم كانوا أولاد آدم لصلبه، وكان ودّ أكبرهم وأبرهم به، وهكذا أخرجه عمر بن شبة في «كتاب مكة» من طريق محمد بن كعب القرظي قال: كان لآدم خمسة بنين فسماهم قال: وكانوا عبادًا فمات رجل منهم فحزنوا عليه فجاء الشيطان فصوره لهم ثم قال للآخر... إلى آخر القصة، وفيها: فعبدوها حتى بعث الله نوحًا ومن طريق أخرى أن الذي صوره لهم رجل من ولد قابيل بن آدم، وقد أخرج الفاكهي من طريق ابن الكلبي قال: كان لعمرو بن ربيعة رئي من الجن فأتاه فقال: أجب أبا ثمامة وادخل بلا ملامة، ثم ائت سيف جده تجد بها أصنامًا معده ثم أوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب، قال: فأتى عمرو ساحل جدة فوجد بها ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا وهي الأصنام التي عبدت على عهد نوح وإدريس ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفى عليها الرمل فاستثارها عمرو وخرج بها إلى تهامة وحضر الموسم فدعا إلى عبادتها فأجيب. وعمرو بن ربيعة هو عمرو بن لحي كما تقدم».

○ قوله: «**أَمَّا وُدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَا، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ**

لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ، لآلِ ذِي الكَلاَعِ» فيه: دليل على حرص الشيطان وسعيه هو وجنوده من الكهان إلى إعادة هذه الأوثان.

○ قوله: «أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ»، يعني: أصل هذه الأصنام رجال صالحون من قوم نوح: رجل اسمه ود ورجل اسمه سواع ورجل اسمه يغوث ورجل اسمه يعوق ورجل اسمه نسر.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «أَمَّا وُدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ» قال ابن إسحاق: وكان لكلب بن وبرة بن قضاعة، قلت: وبرة هو ابن تغلب بن عمران بن الحاف بن قضاعة ودومة بضم الدال والجندل بفتح الجيم وسكون النون مدينة من الشام مما يلي العراق».

ودومة الجندل الآن هي مدينة معروفة في الجوف تابعة للمملكة.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «و«وُدٌّ» بفتح الواو، وقرأها نافع وحده بضمها. «وأما سواع فكانت لهذيل» زاد أبو عبيدة: ابن مدركة بن إلياس بن مضر، وكانوا بقرب مكة. وقال ابن إسحاق: كان سواع بمكان لهم يقال له: رهاط بضم الراء وتخفيف الهاء من أرض الحجاز من جهة الساحل.

○ قوله: «وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ» في مرسل قتادة فكانت لبني غطيف بن مراد، وهو غطيف بن عبد الله بن ناجية بن مراد، وروى الفاكهي من طريق ابن إسحاق قال: كانت أنعم من طيئ وجرش بن مذحج اتخذوا يغوث لجرش.

○ قوله: «بِالْجُرُفِ» في رواية أبي ذر عن غير الكشميهني بفتح الحاء وسكون الواو، وله عن الكشميهني الجرف بضم الجيم والراء، وكذا في مرسل قتادة، وللنسفي بالجون بجيم ثم واو ثم نون، زاد غير أبي ذر: عند سبأ.

○ قوله: «وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ» قال أبو عبيدة: لهذا الحي من همدان ولمراد بن مذحج، وروى الفاكهي من طريق ابن إسحاق قال: كانت خيوان بطن من همدان اتخذوا يعوق بأرضهم.

○ قوله: «وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ، لآلِ ذِي الكَلاَعِ»، في مرسل قتادة لذي الكلاع من حمير، زاد الفاكهي من طريق أبي إسحاق اتخذوه بأرض حمير.

○ قوله: «ونسر أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ»، كذا لهم، وسقط لفظ «ونسر» لغير أبي ذر، وهو أولى. وزعم بعض الشراح أن قوله: «ونسر» غلط، وكذا قرأت بخط الصدفي في هامش نسخته، ثم قال هذا الشارح: والصواب وهي، قلت: ووقع في رواية محمد بن ثور بعد قوله: وأما نسر فكانت لآل ذي الكلاع، قال: ويقال: هذه أسماء قوم صالحين، وهذا أوجه الكلام وصوابه، وقال بعض الشراح: محصل ما قيل في هذه الأصنام قولان: أحدهما: أنها كانت في قوم نوح، والثاني: أنها كانت أسماء رجال صالحين إلى آخر القصة، قلت: بل مرجع ذلك إلى قول واحد قصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك».

○ قوله: «فَلَمَّا هَلَكُوا» جاء في اللفظ الآخر: «أنهم هلكوا في عام واحد وفي وقت متقارب فحزن الناس عليهم».

○ قوله: «أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ أَنِ ٱنْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ التِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ» يعني: حتى تتذكروا عبادتهم.

○ قوله: «فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ» يعني: هلك الجيل الذي صنع تلك الأصنام وهو لا يعتقد عبادتها بل فعلوا ذلك للتذكرة فقط، وجاء جيل آخر لا يعلم شيئًا فأوقعهم الشيطان في الشرك.

○ قوله: «وَتَنَسَّخَ العِلْمُ»، يعني: زال العلم من قوله: نسخت الشمس الظل يعني أزالته، وفي لفظ آخر: «ونسي العلم».

○ قوله: «عُبِدَتْ» في لفظ آخر: أن الشيطان أوحى إليهم: صوروا صورهم، فقال بعضهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة فصوروهم فلما مات هؤلاء وجاء من بعدَهم دب إليهم الشيطان وقال: إنما صور آباؤكم هؤلاء؛ لأنهم يستسقون بهم المطر فعبدوهم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «﴿فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ أُولَٰٓئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ﴾»، كذا لهم ولأبي ذر والكشميهني: «**ونسخ العلم**»، أي: علم تلك الصور بخصوصها. وأخرج الفاكهي من طريق عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: أول ما حدثت الأصنام على عهد نوحٍ، وكانت الأبناء تبر الآباء، فمات رجل منهم فجزع عليه، فجعل لا يصبر عنه فاتخذ مثالًا على صورته، فكلما اشتاق إليه نظره ثم مات، ففعل به كما فعل حتى تتابعوا على ذلك، فمات الآباء، فقال الأبناء: ما اتخذ آباؤنا هذه إلا أنها كانت آلهتهم فعبدوها، وحكى الواقدي قال: كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة طائر؛ وهذا شاذ، والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار في سبب عبادتها، والله أعلم».

والصواب: أنه كانت على صورة البشر، وهو ظاهر ما في «الصحيح» من أن صورهم كانت على صور الصالحين الذين ماتوا، والواقدي ضعيف، وأخباره لا يعتمد عليها.

وهذا الحديث يفيد المسلم الحذر من الصور، فتصوير ذوات الأرواح محرم؛ لأن النبي ﷺ لعن المصورين(١) وقال: «**كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسًا يعذب بها في جهنم**»(٢)، وقال ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»(٣)، وقال ﷺ: «**من صور صورة كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**»(٤)، وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأبي الهياج الأسدي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «**ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**»(٥) فالتصوير محرم وهو من كبائر الذنوب؛ لأنه وسيلة من وسائل الشرك ولا سيما صور الرؤساء والعلماء، وصور النساء من أسباب الشر

---

(١) أحمد (٤/ ٣٠٨)، والبخاري (٥٣٤٧).
(٢) أحمد (١/ ٣٠٨)، ومسلم (٢١١٠).
(٣) أحمد (١/ ٣٧٥)، والبخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).
(٤) أحمد (١/ ٢٤١)، والبخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).
(٥) مسلم (٩٦٩).

والفواحش، وفي التصوير مضاهاة لخلق الله. فالعلة من التحريم متعددة؛ فلا يجوز للإنسان أن يصور ذوات الأرواح من الآدميين والحيوانات والطيور والحيتان إلا ما دعت الضرورة إليه فهو مستثنى مثل: الصور التي تكون في الأوراق النقدية؛ لأن هذا مما تميز به أنواع الدراهم، والصور في بطاقة الأحوال وجواز السفر والشهادات وصور المجرمين.

٧٢- سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ ابن عَبَّاسٍ ﴿لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]: أَعْوَانًا.

{٤٩٢١} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هٰذَا الأَمْرُ الذِي حَدَثَ. فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، يَنْظُرُونَ مَا هٰذَا الأَمْرُ الذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهْوَ عَامِدٌ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ، وَهْوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: هٰذَا الذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١-٢]. وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ.

الشرح

○ قوله: «سورة ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجنّ: ١]» تسمى سورة الجن، فلها اسمان مثل سورة غافر تسمى سورة المؤمن، وهكذا سورة الصف تسمى سورة الحواريين - كما سبق - فبعض السور له اسمان وبعضها قد يكون له ثلاثة أسماء.

جرى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذه السورة على عادته في «كتاب التفسير»، حيث يفسر الكلمات التي تحتاج إلى تفسير في كل سورة؛ ليفيد طالب العلم، ثم يذكر

ما ورد في هذه السورة على شرطه من الأحاديث، وإن لم يكن هناك حديث على شرطه اكتفى بتفسير الكلمات.

○ قوله: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن: ١٩]: أَعْوَانًا» هذا التفسير عن ابن عباس وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وعلي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، فهو منقطع.

واللبد: هو الكثير المجتمع، والمعنى: أن الجن اجتمعوا وتزاحموا لما استمعوا قراءة النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن: ١٩]: أَعْوَانًا» هو عند الترمذي في آخر حديث ابن عباس المذكور في هذا الباب، ووصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هكذا، وقراءة الجمهور بكسر اللام وفتح الباء، وهشام وحده بضم اللام وفتح الموحدة، فالأولى جمع لِبْدة بكسر ثم سكون نحو قِرْبة وقرِبَ. واللِّبْدة واللِّبَد الشيء الملبد، أي المتراكب بعضه على بعض، وبه سمي اللبد المعروف، والمعنى كادت الجن يكونون عليه جماعات متراكبة مزدحمين عليه كاللِّبْدة، وأما التي بضم اللام فهي جمع لُبْدة بضم ثم سكون مثل غُرْفة وغُرَف، والمعنى أنهم كانوا جمعًا كثيرًا كقوله تعالى ﴿مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: ٦]، أي كثيرًا. وروي عن أبي عمرو أيضًا بضمتين فقيل هي جمع لبود»، أي: «لُبُدًا» «مثل صُبُر وصَبُور، وهو بناء مبالغة وقرأ ابن محيصن بضم ثم سكون»، يعني: «لُبْدًا» قراءة ثالثة «وقرأ الجحدري بضمة ثم فتحة مشددة جمع لابد كسُجَّد وسَاجِد» هذه قراءة رابعة «لُبَّدًا»: جمع لابد كسُجَّد وسَاجِد فتكون فيها أربع قراءات: قراءتان متواترتان، قراءة الجمهور بكسر اللام وفتح الباء وهشام وحده بضم اللام وفتح الباء وقراءتان شاذتان: بضم اللام والباء، وبضم اللام وفتح الباء مشددة.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه القراءات كلها راجعة إلى معنى واحد، وهو أن الجن تزاحموا على النبي ﷺ لما استمعوا القرآن وهو المعتمد، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: لما قام رسول الله ﷺ تلبدت الإنس

والجن وحرصوا على أن يطفئوا هذا النور الذي أنزله الله تعالى».

{٤٩٢١} ذكر المؤلف ﷺ على هذه الترجمة حديث ابن عباس في قصة ما حصل للشياطين لما أوحي إلى النبي ﷺ.

○ قوله: «**وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالَ:**» يعني: إما قال كبيرهم أو قال بعضهم، والأقرب والله أعلم أنه شدد عليهم في الوحي في استراق السمع، وكانوا قبل بعثة النبي ﷺ يستمعون الوحي كثيرًا، وقد كثرت الكهان قبيل بعثة النبي ﷺ حتى صار لكل قبيلة كاهن وله رئي من الجن، وهذا الجني يأتيه بخبر السماء ويكذب معها كذبات، فلما بعث النبي ﷺ شددت حراسة السماء كما قال الله عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجنّ: ٨] فلا يستمعون شيئًا وإن استمعوا إلى شيء قليل تأتي الشهب لتلاحقهم وتحرقهم كما جاء في الحديث الصحيح: «**إذا تكلم الله بالأمر أخذت السموات منه رجفة شديدة فإذا سمع الملائكة كلام الله صعقوا وخروا لله سجدًا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيتكلم بالوحي فيقول له أهل السماء: ماذا قال ربنا؟ فيقول جبريل: قال الحق**»[(١)] ثم ينزل الخبر إلى أهل السماء السادسة والخامسة والرابعة حتى ينزل إلى أهلِ السماء الدنيا والجن يركب بعضهم بعضًا كما ثبت في الحديث المعروف، حديث أبي هريرة[(٢)] ﷺ، والذي ساقه الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ في «كتاب التوحيد» ووصف سفيان تراكب الشياطين هكذا فرفع يده وحركها وبدد بين أصابعه، يعني يركب بعضهم بعضًا جعلهما حرفًا لكن غير متلاصقين في الهواء حتى يصلون إلى السماء أو إلى عنان السحب، فالملائكة تتكلم بالخبر بكلام الله ﷻ من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، وقد يتكلمون في السحاب فيكون الشيطان الفوقاني يسمع الكلمة التي تكلم بها الملائكة من السماء أو من

---

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٥١١-٥١٢).
(٢) البخاري (٤٨٠٠).

السحاب، ثم يلقيها إلى من تحته والآخر إلى من تحته والآخر إلى من تحته حتى تصل إلى الكاهن فيقرها في أذنه كقر الدجاجة، فإذا وصلت إليه خلط معها مائة كذبة فيحدث الناس بهذا الكذب الكثير، وتسمع كلمة واحدة من السماء فيصدق الناس الكاهن في هذا الكذب الكثير من أجل واحدة سمعت من السماء، وهذا فيه قبول الناس للشر كيف يعتبرون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟! وفي الحديث: «**والشهب تلاحقهم وتحرقهم**»[(١)] فربما أحرق الشهاب الشيطان الأسفل قبل أن يلقي الكلمة في أذن الكاهن، وربما ألقاها قبل أن يحرقه الشهاب؛ ولهذا قال في الحديث: «**فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه**»[(٢)] وهذا يدل على كثرة توالد الشياطين، لأن الشهب تحرقهم ومع ذلك كل واحد معه قرين كما في الحديث: «**ما منكم من أحد إلا أوكل به قرينه من الجن**» قالوا: وأنت يا رسول الله قال: «**وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم**»[(٣)] قيل: يعني دخل في الإسلام فصار شيطانه مؤمنًا لا يوسوس له، وقيل: يعني أسلم من شره وإن كان لم يؤمن.

○ قوله: «**مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هٰذا الأَمْرُ الذِي حَدَثَ. فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، يَنْظُرُونَ مَا هٰذا الأَمْرُ الذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ**» لما شددت الحراسة وأحرقوا بالشهب استنكروا هذا الأمر فضربوا مشارق الأرض ومغاربها؛ وذلك لأن الجن والشياطين أرواح، والأرواح خفيفة تطير في الهواء فضربوا مشارق الأرض ومغاربها بسرعة بخلاف الأجسام الثقيلة، وكذلك الملائكة أرواح خفيفة ينزلون بسرعة ويطيرون في الجو كما كان ينزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما ابن آدم فإنه جسم ثقيل لا يستطيع الطيران ولهذا فإن أرواح المؤمنين تصعد إلى الجنة والأرواح تصعد وترجع إلى الجسد، ولهذا تجد الإنسان إذا نام خرجت روحه ولها صلة بالجسد فإذا ضربت رجله رجعت الروح بسرعة قد تكون

---

(١) أحمد (١/ ٢٥٢)، والبخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).
(٢) البخاري (٤٧٠١).
(٣) أحمد (١/ ٢٥٧)، ومسلم (٢٨١٤).

في مكان بعيد، والمؤمن إذا مات وصلت روحه إلى الجنة ولها صلة بالجسد كما ثبت في الحديث الصحيح: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم معاده**»(١) يعني روحه، وأرواح الشهداء كما ثبت في الحديث: «**إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة ترد أنهارها وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش**»(٢) لأن الشهداء لما بذلوا أجسادهم لله وأتلفوها لله عوض الله أرواحهم أجسادًا تتنعم بواسطتها، أما المؤمن غير الشهيد فإن روحه تتنعم وحدها.

○ قوله: «**فَانْطَلَقَ الذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ، وَهْوَ عَامِدٌ إِلَىٰ سُوقِ عُكَاظٍ**» تهامة ومكة وما كان جهة اليمن كلها تسمى تهامة، لأنها منخفضة.

○ قوله: «**وَهْوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا: هٰذَا الذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ**»، يعني: نزول الوحي على النبي ﷺ.

واستُنبط من حديث ابن عباس هذا أحكام كما ذكر الشارح، من هذه الأحكام:

أولًا: إثبات وجود الجن ومن أنكر الجن فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ﷻ إلا أن يكون لم يعلم بالقرآن ولم تقم عليه الحجة فيبين له أن الله ﷻ قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الرَّحمٰن: ٣٣] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريَات: ٥٦]، وغير ذلك من الآيات الدالة على وجود الجن.

ولا يدخل في هذا من ينكر -وله شبهة- دخول الجن جسم الإنسان، كإنكار المعتزلة والعقلانيين، وهذا من جهلهم، فمعروف أن المعتزلة كانوا يعتمدون على العقول، قالوا: لا يمكن أن يدخل جسم في جسم، والرد عليهم يكون من وجهين:

(١) أحمد (٣/ ٤٥٥)، والنسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١).
(٢) أحمد (٦/ ٣٨٦)، ومسلم (١٨٨٧).

الوجه الأول: من النصوص الواضحة والآيات الصريحة في هذا، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥] وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [النَّاس: ٤-٦]. والأدلة من السنة كثيرة.

الوجه الثاني: أنه يمكن الرد على الشبهة العقلية بأن يقال: الجسم الثقيل هو الذي لا يمكن أن يدخل في الجسم الثقيل، أما الجسم الخفيف فلا مانع من دخوله، فالنار تسري في الفحم والماء يسري في العود، جسم في جسم. والدم أيضًا جسم في ابن آدم والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم لأنه روح خفيفة، هذا الرد عليهم من جهة العقل، وكذلك الحس والواقع.

والجن فيهم المؤمن والكافر مثل الإنس، والجن طبقات كما قال الله في نفس السورة عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجنّ: ١١] فهم أقسام مثل الإنس منهم الكافر ومنهم المؤمن ومنهم اليهودي ومنهم النصراني ومنهم المجوسي ومنهم الوثني ومنهم الرافضي ومنهم المبتدع ومنهم السني مثل الإنس، جميع الطبقات الموجودة في الإنس موجودة في الجن؛ وبعض الجن إذا تكلم عندما يقرأ على من تلبس به يقول: إنه يهودي وبعضهم يقول: إنه نصراني وبعضهم يقول: إنه مجوسي وبعضهم يتكلم بلغة غير اللغة العربية على لسان المصروع، والكافر من الجن يسمى شيطانًا ومن أسلم لا يسمى شيطانًا.

ثانيًا: أن الصلاة في الجماعة شرعت قبل الهجرة؛ ولهذا قال: «**يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ**» وفيه مشروعية صلاة الجماعة في السفر ومشروعية الجهر بالقراءة في صلاة الصبح؛ لأن النبي ﷺ صلى بهم صلاة الصبح وجهر بالقراءة وجعلوا يتسمعون والصلاة شرعت قبل الهجرة، لكن قيل: إنها أول ما شرعت كانت صلاتين، في أول النهار وفي آخره ولكن شرعية صلاة الجماعة والأذان هذا إنما كان في مكة.

ثالثًا: أن هؤلاء الشياطين الذين تسمعوا إلى النبي ﷺ أسلموا، ولهذا قال: «فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١-٢]».

رابعًا: أن الله أعطى الشياطين قوة التشكل والتصور بالصور المختلفة، وكذلك الملائكة؛ فجبريل عليه السلام رآه النبي ﷺ في الصورة التي خلق عليها مرتين له ستمائة جناح[(١)]، كل جناح يملأ ما بين السماء والأرض[(٢)]. رآه مرة في الأرض عند البعثة، ومرة في السماء ليلة المعراج، ورآه مرات في صور متعددة، وكان يأتي كثيرًا في صورة دحية الكلبي، وكان رجلًا جميلًا، تقول عائشة: إنه يكلم النبي ﷺ تقول: والله ما أظن إلا أنه دحية الكلبي، وهو جبريل. وكذلك لما جاء ورآه الصحابة في صورة رجل أعرابي، رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يعرفه أحد، فالأسفار عندهم ليست كالأسفار عندنا، فالعادة أن الذي يأتي من السفر تكون ثيابه متسخة ويكون شعره منتفشًا، وهذا كأنه خرج من الحمام، فمن أين جاء؟ جاء وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام ثم قال أخبرني عن الإيمان وكلما سأله قال: صدقت؛ فعجب الصحابة يسأله ويصدقه هذا سؤال العارف! حتى قال النبي ﷺ: «**ردوه علي**»[(٣)]، فلم يروا شيئًا. وفي رواية أخرى قال: لبثنا مليًا فقال: «**يا عمر أتدري من السائل؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[(٤)]. فهذا جبريل يأتي في صور وكذلك الجن فقد يتصور الجني في صورة حيوان أو في صورة قط أو في صورة إنسان، أعطاهم الله قوة التشكل والله أعلم كيف يكون ذلك.

خامسًا: فيه دليل على أن الاعتبار بحسن الخاتمة وأن الإنسان قد يكون على الشر وعلى الكفر ثم يمن الله عليه بالهداية والإسلام. وقد يكفر بعض الناس

---

(١) أحمد (١/ ٣٩٨)، والبخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).
(٢) أحمد (١/ ٣٩٥)، والترمذي (٣٠٦٨).
(٣) أحمد (٢/ ٤٢٦)، ومسلم (١٠).
(٤) أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (٨).

ويرتد عن دينه؛ لأن هؤلاء الذين تسمعوا آمنوا وسمعوا للنبي ﷺ، وكانوا عند الشيطان إبليس الذي قال لهم: انظروا ماذا حدث، فالذين ذهبوا إلى تهامة تسمعوا وآمنوا والذين ذهبوا إلى الجهة الأخرى ما آمنوا، ومثل ذلك ما حصل من سحرة فرعون، كانوا في أول النهار يقسمون يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٤]، وفي آخر النهار قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٣] ففي أول النهار كما يقول العلماء: كفرة فجرة وفي آخر النهار مؤمنون بررة، فالعبرة بالخواتيم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ»، بضمتين، جمع شهاب. وظاهر هذا أن الحيلولة وإرسال الشهب وقع في هذا الزمان المقدم ذكره، والذي تضافرت به الأخبار أن ذلك وقع لهم من أول البعثة النبوية، وهذا مما يؤيد تغاير زمن القصتين، وأن مجيء الجن لاستماع القرآن كان قبل خروجه ﷺ إلى الطائف بسنتين، ولا يعكر على ذلك إلا قوله في هذا الخبر: إنهم رأوه «يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الفَجْرِ»، لأنه يحتمل أن يكون ذلك قبل فرض الصلوات ليلة الإسراء فإنه ﷺ كان قبل الإسراء يصلي قطعًا، وكذلك أصحابه، ولكن اختلف هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟ فيصح على هذا قول من قال: إن الفرض أولًا كان صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، والحجة فيه قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ﴾ [طه: ١٣٠]، ونحوها من الآيات؛ فيكون إطلاق صلاة الفجر في حديث الباب باعتبار الزمان لا لكونها إحدى الخمس المفترضة ليلة الإسراء، فتكون قصة الجن متقدمة من أول المبعث وهذا الموضع مما لم ينبه عليه أحد ممن وقفت على كلامهم في شرح هذا الحديث».

والصحيح أن هذا في أول البعثة قبل أن تفرض الصلوات الخمس.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أخرج الترمذي والطبري حديث الباب بسياق سالم من الإشكال الذي ذكرته من طريق أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت الجن تصعد إلى السماء الدنيا يستمعون الوحي،

فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها أضعافًا، فالكلمة تكون حقًّا وأما ما زادوا فيه فيكون باطلًا، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، وأخرجه الطبري أيضًا وابن مردويه وغيرهما من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير مطولًا، وأوله: «**كان للجن مقاعد في السماء يستمعون الوحي ...**» الحديث. فبينما هم كذلك إذ بعث النبي ﷺ فدحرت الشياطين من السماء ورموا بالكواكب فجعل لا يصعد أحد منهم إلا احترق، وفزع أهل الأرض لما رأوا من الكواكب ولم تكن قبل ذلك فقالوا: هلك أهل السماء وكان أهل الطائف أول من تفطن لذلك فعمدوا إلى أموالهم فسيبوها وإلى عبيدهم فعتقوها فقال لهم رجل: ويلكم لا تهلكوا أموالكم فإن معالمكم من الكواكب التي تهتدون بها لم يسقط منها شيء فأقلعوا، وقال إبليس: حدث في الأرض حدث فأتي من كل أرض بتربة فشمها فقال لتربة تهامة: ها هنا حدث الحدث».

أعطى الله الشياطين القدرة على ذلك، يعني عندهم خفة في الطيران، فيأتون من كل أرض بشيء فيشمها، وكذلك أعطاهم الله قوة الشم.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﵀: «فصرف إليه نفرًا من الجن فهم الذين استمعوا القرآن، وعند أبي داود في «كتاب البعث» من طريق الشعبي أن الذي قال لأهل الطائف ما قال هو عبد ياليل بن عمرو وكان قد عمي فقال لهم: لا تعجلوا وانظروا فإن كانت النجوم التي يرمى بها هي التي تعرف فهو عند فناء الناس وإن كانت لا تعرف فهو من حدث، فنظروا فإذا هي نجوم لا تعرف فلم يلبثوا أن سمعوا بمبعث النبي ﷺ، وقد أخرجه الطبري من طريق السدي مطولًا. وذكر ابن إسحاق نحوه مطولًا بغير إسناد في «مختصر ابن هشام»».

ثم قال الحافظ ابن حجر ﵀: «فهذه الأخبار تدل على أن القصة وقعت أول البعثة، وهو المعتمد، وقد استشكل عياض وتبعه القرطبي والنووي وغيرهما من حديث الباب موضعًا آخر، ولم يتعرضوا لما ذكرته، فقال عياض: ظاهر الحديث أن الرمي بالشهب لم يكن قبل مبعث النبي ﷺ لإنكار الشياطين له وطلبهم بسببه ولهذا كانت الكهانة فاشية في العرب ومرجوعًا إليها في حكمهم

حتى قطع سببها بأن حيل بين الشياطين وبين استراق السمع كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨-٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٢]. وقد جاءت أشعار العرب باستغراب رميها وإنكاره إذ لم يعهدوه قبل المبعث، وكان ذلك أحد دلائل نبوته ﷺ ويؤيده ما ذكره في الحديث من إنكار الشياطين قال: وقال بعضهم: لم تزل الشهب يرمى بها مذ كانت الدنيا، واحتجوا بما جاء في أشعار العرب من ذلك. قال: وهذا مروي عن ابن عباس والزهري ورفع فيه ابن عباس حديثًا عن النبي ﷺ. وقال الزهري لمن اعترض عليه بقوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩] قال: غلظ أمرها وشدد. انتهى، وهذا الحديث الذي أشار إليه أخرجه مسلم من طريق الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس عن رجال من الأنصار قالوا: كنا عند النبي ﷺ إذ رمي بنجم فاستنار فقال: «**ما كنتم تقولون لهذا إذا رمي به في الجاهلية؟**»[(١)] الحديث، وأخرج عبد الرزاق عن معمر قال: سئل الزهري عن النجوم أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكنه إذ جاء الإسلام غلظ وشدد؛ وهذا جمع حسن».

هذا هو الظاهر أن الجن أولًا كانت تأتيهم الشهب، ولكن إحراق الشهب ليس كإحراقها بعد بعثة النبي ﷺ.

❁ **تنبيه**: ولا أعلم ذكرًا أو دعاء يقال عند رمي الشهب، وما تقوله العوام في ذلك لا دليل عليه.

❁ ❁ ❁

---

(١) مسلم (٢٢٢٩).

٧٣- سورة المُزَّمِّلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أَخْلِصْ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿أَنكَالًا﴾ قُيُودًا. ﴿مُنفَطِرٌ بِهِۦ﴾ مُثْقَلَةٌ بِهِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، الرَّمْلُ السَّائِلُ. ﴿وَبِيلًا﴾ شَدِيدًا.

الشَّرْح

فسر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الكلمات التي تحتاج إلى بيان معنى، والمزمل والمدثر بمعنى واحد، المزمل: هو الذي تزمل بالثياب، والمدثر: هو الذي تدثر، يعني: تغطى وتغشى بالثياب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المُزّمل: ١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثِّر: ١]: والخطاب للنبي ﷺ.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ [المُزّمل: ٨]: أَخْلِصْ»، لأن المراد من العمل ما كان خالصًا لله، وقد يأتي التبتل بمعنى الاستمرار في العبادة والانقطاع لها.

○ قوله: «وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿أَنكَالًا﴾: قُيُودًا»، أي: لأهل النار، قال الله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ [المُزّمل: ١٢-١٣]، أي: عذابًا للكافرين.

○ قوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المُزّمل: ١٤]: الرَّمْلُ السَّائِلُ»، أي: يكون ذلك يوم القيامة من شدة الهول.

○ قوله: «﴿مُنفَطِرٌ بِهِۦ﴾ [المُزّمل: ١٨]: مُثْقَلَةٌ بِهِ»، الضمير يعود إلى يوم القيامة.

ولم يذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب حديثًا لأنه لم يجد حديثًا على شرطه فاكتفى بتفسير الكلمات، وذكر الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ حديثًا مناسبًا أخرجه مسلم من حديث

عائشة رضي الله عنها فيما يتعلق بقيام الليل، فقد ذكر في آخر هذه السورة أن النبي ﷺ كان يقوم الليل قالت: فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضته[(١)]. فهذا الحديث ليس على شرط البخاري لأن شرط مسلم يكتفي بالمعاصرة بين الراويين إذا كانا في عصر واحد ولم يكن مدلسًا فهو مقبول عنده، أما البخاري فاشترط المقابلة والالتقاء ولو مرة واحدة؛ فكان شرطه أقوى، وكذلك أيضًا ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله: أنه يمكن أن يدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٠] حديث النبي ﷺ أنه قال: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**»، قالوا: يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «**فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر**»[(٢)]، وهذا قد خرجه الإمام البخاري رحمه الله لكن لم يذكره هنا.

---

(١) مسلم (٧٤٦).

(٢) أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦٤٤٢).

٧٤- سورة المُدَّثِّرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَابٌ

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿عَسِيرٌ﴾ شَدِيدٌ. ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: رِكْزُ النَّاسِ وَأَصْوَاتُهُمْ. وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: الأَسَدُ وَكُلُّ شَدِيدٍ قَسْوَرَةٌ، ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ نَافِرَةٌ مَذْعُورَةٌ.

{٤٩٢٢} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ المُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ، قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١] قُلْتُ: يَقُولُونَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١] فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الذِي قُلْتَ، فَقَالَ جَابِرٌ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا -قَالَ:- فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا قَالَ فَنَزَلَتْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ١-٣]».

الشَّرْحُ

المدثر: هو المتغطي والمتلفف؛ وذلك لأن النبي ﷺ قبيل البعثة لما بلغ الأربعين حبب إليه الخلاء عليه الصلاة والسلام، فكان يتعبد في غار حراء ويصلي ويذكر الله، وظاهره أنه يتعبد على ما توارثه الناس من دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما كان الناس يحجون في الجاهلية على ما توارثوه عن دين إبراهيم، ثم غيروا من دين إبراهيم، من ذلك: أنهم كانوا لا يطوفون إلا بثوب يأخذونه من أهل مكة لأنهم الحمس، فإن لم يجد الواحد منهم ثوبا طاف عريانًا،

يقول: ما أطوف بثوب عصيت الله فيه، حتى المرأة تطوف عارية وتضع يدها على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

وهذا هو الجهل العظيم الذي وصل بهم إلى هذا الحد، ومما غيروه أيضًا ما كانت تفعله قريش في الحج حيث صاروا لا يقفون بعرفة، فالحجاج الآفاقيون يقفون بعرفة وهم يقفون بمزدلفة ويقولون: نحن أهل الحرم فلا نتجاوز حدود الحرم، لكن هناك أشياء بقيت على دين إبراهيم مثل: الطواف بالبيت، ومثل: السعي بين الصفا والمروة.

فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يتعبد قبيل البعثة وقبل أن يوحى إليه على ما توارثه من دين إبراهيم، والله أعلم بكيفية العبادة التي يتعبد بها، كان يتزود من أهله ما يكفيه من الطعام والشراب في اليومين والثلاثة، ثم إذا انتهى ذهب إلى أهله وأخذ مثله حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، جاءه جبريل ورآه على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح، جالس على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق، وهذه خلقة عظيمة، وقال له: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»، فأخذه وغطه حتى بلغ منه الجهد فقال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»[(١)] وهذا ليس امتناعًا من النبي ﷺ لكنه نفي، يقول: أنا ما تعلمت القراءة أنا أمي لا أقرأ ولا أكتب كيف أقرأ وأنا لا أعرف؟ قال: اقرأ، وغطه ثلاث مرات، قال العلماء: الحكمة من هذا حتى يتهيأ لتحمل أعباء الرسالة.

ثم بعد ذلك حصل له خوف عظيم ورعب شديد، وذهب إلى أهله، وقال: «**زملوني زملوني**»، فدثروه، ثم جاءه الوحي بعد ذلك[(٢)]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدَّثِّر: ١-٢] نبئ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العَلق: ١] عليه الصلاة والسلام، وأرسل بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾. فأنزل الله عليه الوحي، وأرسله إلى الناس. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن

(١) أحمد (٦/ ٢٣٢)، والبخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).
(٢) أحمد (٣/ ٣٧٧)، والبخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ [المدَّثر: ١-٨].

○ قوله: «﴿قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدَّثر: ٥١]»، فسرها المؤلف، قال: «**رِكْزُ النَّاسِ وَأَصْوَاتُهُمْ وكل شديد قسورة وقسورا**».

○ قوله: «﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾﴾ [المدَّثر: ٥٠]: **نَافِرَةٌ مَذْعُورَةٌ**»، أي: أن الحمار إذا جاءه الأسد يهرب وينفر، وهؤلاء الكفار في نفورهم عن الحق وعدم قبولهم للوحي والإيمان بالنبي ﷺ نفروا نفورًا شديدًا كنفور الحمر التي تفر من الأسد إذا رأته.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قوله: «﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾: **نَافِرَةٌ مَذْعُورَةٌ**» قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾﴾ [المدَّثر: ٥٠]: أي: مذعورة، ومستنفرة نافرة، يريد أن لها معنيين وهما على القراءتين فقد قرأها الجمهور بفتح الفاء وقرأها عاصم والأعمش بكسرها».

ففيها قراءتان: الأولى: «**مستنفَرة**» **والثانية**: ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾». وكل قراءة لها معنى. «مستنفَرة» بفتح الفاء يعني مذعورة و﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ بكسر الفاء نافرة.

○ قوله: «**وقال أبو هريرة: القسورة قسور الأسد**» يعني: أن الله تعالى شبه الكفار في نفورهم وإعراضهم عن قبول الحق وعن الموعظة بالذين يفرون من الأسد.

وذكر الشارح حديث أبي هريرة أنه كان إذا قرأ: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدَّثر: ٥٠-٥١] قال: الأسد، قال الشارح: «وهذا منقطع».

○ قوله: «**وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ**: ﴿عَسِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [المدَّثر: ٩]: **شَدِيدٌ**»، يعني: يوم القيامة يوم عسير، ولكن الله يسهله على المؤمنين.

○ قوله: «**الركز: الصوت**» قال الله ﷻ: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مَريَم: ٩٨] فسر المؤلف ﵀ الركز بالصوت.

{٤٩٢٢} هذا الحديث فيه: بيان سبب نزول هذه السورة، وهو أن النبي ﷺ لما نزل عليه الوحي أولًا نزل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العَلَق: ١] فصار

بذلك نبيًّا ثم لبث الوحي فترة، ثم بعد ذلك نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدَّثِّر: ١-٢] فصار بذلك رسولاً؛ فلهذا يقول العلماء: إن الرسول نبئ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأرسل بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ كما قاله الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الأصول الثلاثة»[1].

(١) «الأصول الثلاثة وأدلتها» (ص٢٠).

بَابُ قَوْلُهُ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ٢]

{٤٩٢٣} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ قَالاَ: حَدَّثَنَا حَرْبُ بْنُ شَدَّادٍ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ». مِثْلَ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ المُبَارَكِ.

الشَّرْح

{٤٩٢٣} قوله: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ»؛ حراء: جبل حراء معروف، كان يتعبد قربه النبي ﷺ؛ بعض الخرافيون الآن يأتي إلى الجبل فيتمسح به ويأخذ منه التراب والحصباء، وبعضهم يتجشم المشاق ويصعد الجبل وهو متعب، خصوصًا بعض الأعاجم الذين يأتون بكثرة، خاصة في وقت الحج وفي وقت العمرة، بعضهم يصعد ويجلس مدة طويلة، وبعضهم يتعلم صعود الجبل، وهذا من جهلهم، وهو باطل لا أصل له، فلا يشرع صعود الجبل، ولا يشرع المجيء إليه، ولكن لو جاء الإنسان من باب الاطلاع فلا بأس.

○ قوله: «مِثْلَ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ المُبَارَكِ»، يعني: مثل الحديث السابق.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ٣]

{٤٩٢٤} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا حَرْبٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ: أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١] فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ: أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١] فَقُلْتُ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فَقَالَ: لَا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي، هَبَطْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ الوَادِيَ فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ [المدثر: ١-٣]».

الشَّرْح

{٤٩٢٤} هذا الحديث فيه أن أبا سلمة قال: «سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ: أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلُ؟ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثِّر: ١]» المراد بالأولية هنا أولية مخصوصة، يعني بعد فترة الوحي أي أن أول ما أنزل إليه بعد فترة الوحي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثِّر: ١] جمعا بين الأدلة، وإلا فإن أول ما أنزل إليه ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العَلَق: ١] قطعًا، فيحمل قول جابر على أن المقصود أولية مخصوصة، وليس المراد الأولية المطلقة كما بين الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا كلامًا جيدًا، فقال: «وتقدم هناك أن رواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر تدل على أن المراد بالأولية في قوله: أول ما نزل سورة المدثر أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لا أن المراد أنها أولية مطلقة، فكأن من قال: أول ما نزل: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أراد أولية مطلقة ومن قال: أنها المدثر أراد بقيد التصريح بالإرسال، قال الكرماني:

استخرج جابر أول ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١﴾ [المدَّثِّر: ١] باجتهاد وليس هو من روايته، والصحيح ما وقع في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويحتمل أن يكون قوله في هذه الرواية: «**فرأيت شيئًا**»[(١)] أي جبريل بحراء «**فقال لي: اقرأ، فخفت فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي**» فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١﴾ [المدَّثِّر: ١]، قلت: ويحتمل أن تكون الأولية في نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١﴾ بقيد السبب، أي: هي أول ما نزل من القرآن بسبب متقدم وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأما: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العَلق: ١] فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم ولا يخفى بعد هذا الاحتمال».

---

(١) البخاري (٤٩٢٢).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: ٤]

{٤٩٢٥} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا المَلَكُ الذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إِلَىٰ ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر: ١-٥] -قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ- وَهِيَ الأَوْثَانُ».

الشَّرح

{٤٩٢٥} قوله: «وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا المَلَكُ الذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ» جاءه الملك أولًا فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، ثم جاءه ثانيًا فأنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثِّر: ١]. فهذا الحديث صريح في أن أول ما أنزل إليه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ثم أنزل إليه بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ ويحمل قول جابر في الحديث السابق على ما بعد فترة الوحي.

○ قوله: «فَجَئِثْتُ» هكذا بالهمزة بعد الجيم، وفي بعض النسخ: «فجثثت» بالمثلثتين.

وجاء أيضاً: «فَجُئِثْتُ»[(١)] على صيغة المجهول من الجأث، بالجيم والهمزة

---

(١) أحمد (٣/٣٠٦)، والبخاري (٣٢٣٨)، ومسلم (١٦١).

والثاء المثلثة، وكلها ترجع إلى أصل واحد وهو الجث بقال: مجثوث ومجؤوث، وهو الفزع والرعب والخوف، يعني: رعبت وفزعت.

○ قوله: «**فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ **إلى** ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدَّثر: ١- ٥] **قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلاَةُ**»، يعني: أنزلت هذه السورة قبل أن تفرض الصلاة؛ لأن الصلاة ما فرضت إلا متأخرًا.

○ قوله: «**وَهْيَ الأَوْثَانُ**»، أي: الرجز، والمعنى: فاهجر الأوثان.

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿والرِّجْزَ فاهجر﴾ [المدثر: ٥]

يُقَالُ: الرِّجْزُ والرِّجْسُ: العَذابُ.

{٤٩٢٦} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، قَالَ ابن شِهَابٍ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا المَلَكُ الذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي. زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١-٥] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَٱهْجُرْ﴾» -قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَالرِّجْزَ: الأَوْثَانَ- «ثُمَّ حَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ».

الشَّرْح

○ قوله: «يُقَالُ: الرِّجْزُ والرِّجْسُ: العَذابُ»، فسر هنا الرجز بالعذاب، ثم ذكر عن أبي سلمة أنه قال: «الأَوْثَانَ»، والجمع بينهما أن عبادة الأوثان سبب في العذاب، فمن مات على عبادة الأوثان فهو كافر يعذب في النار ويخلد فيها.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «ويروى عن مجاهد والحسن بالضم: اسم الصنم، وبالكسر: اسم العذاب»، يعني: هذا على أنهما قراءتان، فعلى قراءة ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ يكون المعنى الأوثان، وعلى قراءة «والرِّجز» يكون المعنى العذاب.

{٤٩٢٦} قوله: «يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا المَلَكُ الذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، يعني: على صورته التي خلق عليها، جاءه في الأول فأنزل الله عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العَلَق: ١]، ثم فتر الوحي، ثم بعد فترة الوحي جاءه الملك وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثِّر: ١].

○ قوله: «قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: الأَوْثَانَ- ثُمَّ حَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ»، يعني: تتابع الوحي بعد ذلك، وفسر أبو سلمة الرجز بالأوثان.

٧٥- سُورَةُ القِيَامةِ

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿سُدى﴾ [القيامة: ٣٦] هَمَلًا ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥] سَوْفَ أَتُوبُ، سَوْفَ أَعْمَلُ ﴿لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١]: لَا حِصْنَ.

بَابٌ وقَوْلُهُ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القيامة: ١٦]

{٤٩٢٧} حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ أَبِي عَائِشَةَ -وَكَانَ ثِقَةً-، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ حَرَّكَ بِهِ لِسَانَهُ -وَوَصَفَ سُفْيَانُ- يُرِيدُ أَنْ يَحْفَظَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القيامة: ١٦].

الشَّرْح

«القِيَامةِ»: الاسم المشهور والمعروف من أسماء الآخرة، سمي يوم القيامة لأن الناس يبعثون من قبورهم فيقومون بين يدي الله للحساب.

○ قوله: «قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القِيَامَة: ١٦]»، أي: باب قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾.

○ قوله: «﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾ [القِيَامَة: ٥]: سَوْفَ أَتُوبُ، سَوْفَ أَعْمَلُ» المعنى: يفعل الفجور والمعاصي، ويقول: أريد أن أتوب.

○ قوله: ﴿لَا وَزَرَ ١١﴾ [القِيَامَة: ١١] فسرها بقوله: «لَا حِصْنَ»، أي: لا ملجأ من الله عز وجل.

{٤٩٢٧} هذا الحديث يفسر سبب نزول هذه الآية التي ترجم عليها البخاري رحمه الله، والمعنى أن النبي ﷺ كان في أول الأمر إذا قرأ جبريل عليه القرآن يحرك لسانه؛ حتى لا ينسى منه شيئًا، فوعده الله عز وجل بأن يجمعه في صدره فلا ينساه، قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القِيَامَة: ١٦]، يعني:

بالقرآن ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ١٧]، يعني: في صدرك. ﴿وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القِيَامَة: ١٧] يعني: تقرؤه بعد ذلك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ [القِيَامَة: ١٨] يعني: قرأه جبريل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القِيَامَة: ١٨]، يعني: استمع، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القِيَامَة: ١٩]، فكان النبي ﷺ بعد ذلك ينصت ويسكت فإذا انطلق جبريل قرأه ولم ينس منه شيئًا.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وقوله: «﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القِيَامَة: ١٦]» لم يختلف السلف أن المخاطب بذلك النبي ﷺ في شأن نزول الوحي كما دل عليه حديث الباب، وحكى الفخر الرازي أن القفال جوز أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القِيَامَة: ١٣] قال: يعرض عليه كتابه فيقال: اقرأ كتابك فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفًا فأسرع في القراءة، فيقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القِيَامَة: ١٦-١٧]، أي: أن يجمع عملك وأن يقرأ عليك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ [القِيَامَة: ١٨] عليك، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القِيَامَة: ١٨] بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته، قال: وهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه، وإن كانت الآثار غير واردة فيه، والحامل على ذلك عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السورة شيء وهي من جملة دعاويهم الباطلة»، وقول الرازي هذا ليس بشيء لأنه مخالف للنص، والرازي على طريقة الأشاعرة، والصواب أن المخاطب النبي ﷺ وهذا هو قول السلف قاطبة، وإن زعم الرافضة أنه سقط من السورة شيء فهم ليسوا بأهل لأن يؤخذ بأقوالهم، فهم زنادقة؛ ولهذا ذهب شيخ الإسلام(١) إلى أن الرافضة تكثر فيهم الزندقة، فهم يعبدون آل البيت ويكفرون الصحابة.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وقد ذكر الأئمة لها مناسبات، منها: أنه ﷻ لما ذكر القيامة وكان من شأن من يقصر عن العمل لها حب العاجلة وكان من أصل الدين أن المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة، فنبه على أنه قد يعترض على هذا المطلوب ما هو أجل منه وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهم ما يرد منه

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٠٢).

والتشاغل بالحفظ قد يصد عن ذلك، فأمر ألا يبادر إلى التحفظ؛ لأن تحفيظه مضمون على ربه وليصغ إلى ما يرد عليه إلى أن ينقضي فيتبع ما اشتمل عليه»، وهذا واضح ليس فيه إشكال، وسياق الآية يدل عليه، وأيضًا حديث ابن عباس كاف يفسر الآية. فالسنة تفسر القرآن وتوضحه؛ ولذلك أجمع السلف أن المخاطب هو الرسول ﷺ.

بَابُ قوله:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٧]

{٤٩٢٨} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَبِي عَائِشَةَ أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦] قَالَ: وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: كَانَ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦]- يَخْشَىٰ أَنْ يَنْفَلِتَ مِنْهُ- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٧]: أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]: أَنْ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ [القيامة: ١٨] يَقُولُ: أُنْزِلَ عَلَيْهِ [القيامة: ١٨-١٩]: أَنْ نُبَيِّنَهُ عَلَىٰ لِسَانِكَ.

الشَّرح

{٤٩٢٨} هذا من آيات الله وفضله، فمع كون النبي ﷺ أميًّا إلا أنه يحفظ هذا القرآن العظيم، مع كثرته في ألفاظه ومعانيه، فمن فضل الله عليه أن الله جمعه في صدره، يسمعه من جبريل ثم يحفظه؛ لأن الله تكفل بحفظه وجمعه في صدره، لكن الإنسان الذي يحفظ القرآن يحتاج إلى مدة وإلى وقت يعيد فيه ويكرر، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان إذا سمعه من جبريل عليه السلام حفظه بقدرة الله عز وجل.

وابن عباس فسر الآية - وهو ممن أعطاه الله الحكمة والتأويل ودعا له النبي ﷺ قال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[(١)] - وهذا يُرد به على الرازي في الحديث السابق؛ لأن قول الرازي معارض لهذا الحديث، ومثله ابن بطال كذلك من أهل الكلام يعتمدون على عقولهم وآرائهم ويتركون النصوص.

(١) أحمد (١/٢٦٦) واللفظ له، والبخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧).

بَابٌ قَوْلِهِ:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨]

حلاله وحرامه، ﴿جَمْعَهُ﴾: تأليفه

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿قَرَأْنَٰهُ﴾ [القيامة: ١٨]: بَيَّنَّاهُ ﴿فَاتَّبِعْ﴾ [القيامة: ١٨]: اعْمَلْ بِهِ.

{٤٩٢٩} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦] قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ الَّتِي فِي ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٧] قَالَ: عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٩] عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ -قَالَ:- فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ، فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ. ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [القيامة: ٣٤]: تَوَعُّدٌ.

الشَّرْح

○ قوله: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾: بَيَّنَّاهُ، ﴿فَٱتَّبِعْ﴾»، يعني: «اعْمَلْ بِهِ» هذا أحد التفسيرات، وهناك تفسيرات أخرى، منها: ﴿قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾، يعني: قرأه جبريل، فيكون معنى قول ابن عباس: «بَيَّنَّاهُ» يعني: بعد قراءة جبريل له تعمل به، وسبق أن: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القِيَامَة: ١٨]، يعني: فاتبعه واقرأه. وتفسير ابن عباس بالعمل بعد القراءة؛ فلهذا فسره بالنتيجة، نتيجة القراءة البيان، ونتيجة القراءة الاتباع والعمل.

{٤٩٢٩} قوله: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ»، أي: كان هذا في أول الأمر.

○ قوله: «وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ»، أي: يعرف أنه يشتد عليه من حرصه على ألا ينسى.

○ قوله: «فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ التِي فِي ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١]: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، قَالَ: عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾، فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٩] عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ» هذا تفسير ابن عباس للآيات.

○ قوله: «فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ»، يعني: أنصت.

○ قوله: «فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ ﷻ» هذا من قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾، يعني: قرأه عليك الملك جبريل، وهذا تأويل آخر لابن عباس: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة: ١٨]: «فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ»؛ قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٩]: عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ»، في رواية إسرائيل: «**على لسانك**»، وفي رواية أبي عوانة: «**أن تقرأه**»، وهي بمثناة فوقانية، واستدل به على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب كما هو مذهب الجمهور من أهل السنة، ونص عليه الشافعي لما تقتضيه ﴿ثُمَّ﴾ من التراخي، وأول من استدل لذلك بهذه الآية القاضي أبو بكر بن الطيب وتبعوه، وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له وظهوره على لسانه فلا، قال الآمدي: يجوز أن يراد بالبيان الإظهار، لا بيان المجمل».

٧٦- سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُقَالُ مَعْنَاهُ أَتَىٰ عَلَى الإِنْسَانِ، وَ﴿هَلۡ﴾ تَكُونُ جَحْدًا وَتَكُونُ خَبَرًا، وهٰذا مِنَ الخَبَرِ، يَقُولُ كَانَ شَيْئًا فَلَمْ يَكُنْ مَذْكُورًا، وَذَلِكَ مِنْ حِينِ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ إِلَىٰ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، ﴿أَمۡشَاجٍ﴾ الأَخْلَاطُ مَاءُ المَرْأَةِ، وَمَاءُ الرَّجُلِ الدَّمُ وَالْعَلَقَةُ. وَيُقَالُ: إِذَا خُلِطَ مَشِيجٌ كَقَوْلِكَ: خَلِيطٌ. وَمَمْشُوجٌ مِثْلُ: مَخْلُوطٍ، وَيُقَالُ ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا﴾ وَلَمْ يُجْرِ بَعْضُهُمْ ﴿مُسۡتَطِيرًا﴾ مُمْتَدًّا، البَلَاءُ وَالْقَمْطَرِيرُ الشَّدِيدُ، يُقَالَ: يَوْمٌ قَمْطَرِيرٌ وَيَوْمٌ قُمَاطِرٌ، وَالْعَبُوسُ وَالْقَمْطَرِيرُ وَالْقُمَاطِرُ وَالْعَصِيبُ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الأَيَّامِ فِي البَلَاءِ. وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿أَسۡرَهُمۡۖ﴾ شِدَّةُ الخَلْقِ، وَكُلُّ شَيْءٍ شَدَدْتَهُ مِنْ قَتَبٍ فَهُوَ مَأْسُورٌ.

الشَّرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الكلمات التي تحتاج إلى تفسير في ظنه في رأيه ففسرها رَحِمَهُ اللَّهُ في سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١].

○ قوله: «يُقَالُ مَعْنَاهُ أَتَىٰ عَلَى الإِنْسَانِ، وَ﴿هَلۡ﴾ تَكُونُ جَحْدًا»: يعني: أن «هل» تكون للإنكار، كقولك إذا أردت أن تستنكر على شخص: هل يكون هذا؟!

○ قوله: «وَتَكُونُ خَبَرًا»، أي: تكون للتقرير كقولك: هل وعظتك؟ هل أعطيتك؟

ومعنى ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]، أي: أتى على الإنسان، فمقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنها هنا خبر؛ ولهذا قال المؤلف: «وهٰذا مِنَ الخَبَرِ».

○ قوله: «﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا﴾ [الإنسان: ٤]، وَلَمْ يُجْرِ بَعْضُهُمْ»، يعني: بعضهم صرفها «سلاسلًا»، أي: قرأها بالتنوين، وبعضهم لم يصرفها فمنعها من الصرف فهي بالفتحة بدون تنوين وهي قراءة حفص، وهذا اصطلاح قديم للاسم

المصروف: مجرى.

○ قوله: «﴿مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]: مُمْتَدًّا، البَلاَءُ»، هو وصف لهول يوم القيامة.

وقال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسَان: ١] يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَذَلِكَ مِنْ حِينِ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ إِلَىٰ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ»، يعني: ليس له وجود، وهل المعدوم شيء أو ليس بشيء؟ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا حجة فيه للمعتزلة في دعواهم أن المعدوم شيء»، لأن المعدوم شيء في الذهن وليس شيئًا في الوجود؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسَان: ١]. فلما نفخ الله فيه الروح صار شيئًا مذكورًا.

○ قوله: «وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسَان: ٢٨]: شِدَّةُ الخَلْقِ، وَكُلُّ شَيْءٍ شَدَدْتَهُ مِنْ قَتَبٍ فَهْوَ مَأْسُورٌ» فسر الغبيط فقال: «والغبيط شيء يركبه النساء يشبه المحفة».

○ قوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسَان: ٢]، فسرها المؤلف فقال: «الأخلاط ماء الرجل» إذا اختلط ماء الرجل وماء المرأ ة يُخلق منه الإنسان بإذن الله كما قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطّارق: ٥-٧]، أي: صلب الرجل ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾، أي: ترائب المرأة، وهي عظام الصدر.

○ قوله: «ماء المرأة الدم والعلقة»، أي: بمعنى أنه يكون أولًا ماء ثم يتحول إلى دم ثم يتحول إلى علقة ثم مضغة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحَجّ: ٥].

○ قوله: «وَيُقَالُ: إِذَا خُلِطَ مَشِيجٌ كَقَوْلِكَ: خَلِيطٌ. وَمَمْشُوجٌ مِثْلُ: مَخْلُوطٍ» فسر المؤلف الكلمة من جهة اللغة.

○ قوله: «وَالْقَمْطَرِيرُ الشَّدِيدُ، يُقَالُ: يَوْمٌ قَمْطَرِيرٌ وَيَوْمٌ قُمَاطِرٌ»، يعني: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ [الإنسَان: ١٠].

○ قوله: «وَالْعَبُوسُ وَالْقَمْطَرِيرُ وَالْقُمَاطِرُ وَالْعَصِيبُ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الأَيَّامِ فِي البَلاَءِ» المراد: الشدة التي تكون يوم القيامة، وينجي الله المؤمنين من هذا البلاء والشدة، كما قال سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسَان: ١١] وقوله: ﴿نَضْرَةً﴾ بالفتح حسنًا في وجوههم ﴿وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ في قلوبهم، ولهذا قال المؤلف كما في بعض النسخ: «**وقال الحسن: النضرة في الوجه والسرور في القلب**» هذا للمؤمنين الأبرار.

وقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الإنسَان: ١٣]، أي: أهل الجنة الأبرار. قال المؤلف كما في بعض النسخ: «**وقال ابن عباس: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السرر**»، وقال مقاتل: السرر الحجاب من الدر والياقوت.

وقوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسَان: ١٤] قال البراء كما في بعض النسخ «الصحيح»: «**يقطفون كيف شاءوا**»، والمعنى أن قطوف أشجار الجنة مذللة لأهل الجنة يقطفون كيف شاؤوا إن شاؤوا قائمين أو قاعدين أو ماشين أو مضطجعين يقرب إليهم الغصن ويذلل لهم.

ولم يذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا في الباب متعلقًا بسورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسَان: ١]؛ لأنه لم يجد على شرطه حديثًا.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويدخل فيه حديث ابن عباس في قراءتها في صلاة الصبح يوم الجمعة»، أي قراءة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسَان: ١].

٧٧- سورة وَالْمُرْسَلاَتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿جِمَالَاتٌ﴾: حِبَالٌ. ﴿ٱرْكَعُواْ﴾: صَلُّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾: لَا يُصَلُّونَ. وَسُئِلَ ابن عَبَّاسٍ ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ﴾ فَقَالَ: إِنَّهُ ذُو أَلْوَانٍ مَرَّةً يَنْطِقُونَ، وَمَرَّةً يُخْتَمُ عَلَيْهِمْ.

بَابٌ

{٤٩٣٠} حَدَّثَنِي مَحْمُودٌ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١٠]، وَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، فَخَرَجَتْ حَيَّةٌ، فَابْتَدَرْنَاهَا، فَسَبَقَتْنَا فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ، كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا».

{٤٩٣١} حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ بْنُ آدَمَ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ مَنْصُورٍ بِهٰذَا. وَعَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ مِثْلَهُ. وَتَابَعَهُ أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، عَنْ إِسْرَائِيلَ. وَقَالَ حَفْصٌ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ وَسُلَيْمَانُ بْنُ قَرْمٍ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الأَسْوَدِ.

قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ حَمَّادٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. وَقَالَ ابن إِسْحَاقَ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الأَسْوَدِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ.

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الأَسْوَدِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَارٍ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١] فَتَلَقَّيْنَاهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا، إِذْ خَرَجَتْ حَيَّةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُمُ اقْتُلُوهَا». قَالَ فَابْتَدَرْنَاهَا فَسَبَقَتْنَا، قَالَ: فَقَالَ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ، كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا».

الشَّرْح

○ قوله: «﴿جِمَالَاتٌ﴾: حِبَالٌ» يعني: في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣﴾ [المُرسَلات: ٣٣] وهذا في وصف شرر النار قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢﴾ [المُرسَلات: ٣٢]. وقال مجاهد: و«جُمالات» بضم الجيم، هي الحبال التي تشد بها السفن، وبكسر الجيم جمع جمالة وهي جمع الجمل وهو زوج الناقة. ولهذا نقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن التين: ينبغي أن يقرأ في الأصل بالضم لأنه فسرها بالحبال.

○ قوله: «وقال مجاهد: ﴿ٱرْكَعُواْ﴾ صَلُّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾ [المُرسَلات: ٤٨]: لَا يُصَلُّونَ» عبر عن الصلاة بالركوع من باب ذكر البعض وإرادة الكل.

○ قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾ [المُرسَلات: ٣٥]، يعني: لا يتكلمون وفي آية أخرى ذكر الله أنهم تكلموا وأنكروا وقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعَام: ٢٣] وفي آية أخرى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] والجمع بين هذه الآيات كما قال ابن عباس: «إنه ذو ألوان: مرة ينطقون، ومرة يختم عليهم»، والمعنى أن مشاهد القيامة متعددة، ففي بعض المشاهد والأوقات والحالات لا ينطقون ويختم على أفواههم، وفي البعض الآخر ينطقون وينكرون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾ [الأنعَام: ٢٣] رجاء المغفرة، فإذا رأوا المغفرة لأهل التوحيد رجوا ذلك فقالوا هذا، لكن لا حيلة لمن مات على الشرك.

{٤٩٣٠} قوله: «عَنْ عَبْدِ اللهِ» هو عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

○ قوله: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المُرسَلات: ١] وَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ، فَخَرَجَتْ حَيَّةٌ، فَابْتَدَرْنَاهَا، فَسَبَقَتْنَا فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ، كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا»» أي: وقيت هي شركم فلم تقتلوها كما وقيتم شرها فلم تلدغ أحدًا منكم.

والشاهد من الحديث: أن هذه القصة حصلت حين نزلت سورة المرسلات.

○ قوله: «وَسُلَيْمَانُ بْنُ قَرْمٍ»: بفتح القاف وسكون الراء، وهو ضعيف،

لكن المؤلف روى له هنا في المتابعات.

❖ ❖ ❖

{٤٩٣١} هذه الرواية فيها زيادة على الحديث الأول وهي أن النبي ﷺ قال: «**عَلَيْكُمُ اقْتُلُوهَا**»، فكأن الحديث الأول فيه اختصار.

بَابٌ

قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المرسلات: ٣٢]

{٤٩٣٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَابِسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابن عَبَّاسٍ ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المرسلات: ٣٢] قَالَ: كُنَّا نَرْفَعُ الخَشَبَ بِقَصَرٍ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ أَوْ أَقَلَّ، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ فَنُسَمِّيهِ القَصَرَ.

الشَّرح

○ قوله: «باب قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ ﴿٣٢﴾﴾» أي: قدر القصر.

{٤٩٣٢} قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «كُنَّا نَرْفَعُ الخَشَبَ بِقَصَرٍ»: بكسر الموحدة والقاف وفتح الصاد المهملة وتنوين الراء، وبالإضافة أيضًا، وهو بمعنى الغاية والقدر، تقول: قصرك وقصاراك من كذا ما اقتصرت عليه.

○ قوله: «ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ أَوْ أَقَلَّ»؛ في الرواية التي بعد هذه: أو فوق ذلك، وهي رواية المستملي وحده.

○ قوله: «فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ فَنُسَمِّيهِ القَصَرَ» بسكون الصاد وبفتحها وهو على الثاني جمع قصرة، أي: كأعناق الإبل، ويؤيده قراءة بن عباس «كَالْقَصَرِ» بفتحتين وقيل: هو أصول الشجر وقيل أعناق النخل، وقال ابن قتيبة: القصر البيت، ومن فتح أراد أصول النخل المقطوعة، شبهها بقصر الناس، أي أعناقهم، فكأن ابن عباس فسر قراءته بالفتح بما ذكر. وأخرج أبو عبيد من طريق هارون الأعرج عن حسين المعلم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: «﴿بِشَرَرٍ﴾ كَالْقَصَرِ» بفتحتين. قال هارون: وأنبأنا أبو عمرو أن سعيدًا وابن عباس قرءا كذلك، وأسنده أبو عبيد عن ابن مسعود أيضًا بفتحتين، وأخرج ابن مردويه من طريق قيس بن الربيع عن عبد الرحمن بن عابس، سمعت ابن عباس: كانت العرب تقول في الجاهلية: أقصروا لنا الحطب، فيقطع على قدر الذراع

والذراعين؛ وقد أخرج الطبراني في «الأوسط» من حديث ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المُرسَلات: ٣٢] قال: ليست كالشجر والجبال ولكنها مثل المدائن والحصون»، والمراد به معنى الغاية والقدر.

بَابٌ

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾ [المرسلات: ٣٣]

{٤٩٣٣} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَابِسٍ سَمِعْتُ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ [المرسلات: ٣٢] كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الخَشَبَةِ ثَلاثَةَ أَذْرُعٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ فَنُسَمِّيهِ القَصَرَ. ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣﴾ [المرسلات: ٣٣]: حِبَالُ السُّفْنِ تُجْمَعُ حَتَّى تَكُونَ كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ.

الشَّرْح

○ قوله: «﴿كَأَنَّهُۥ «جمالات» صُفْرٌ ٣٣﴾ [المُرسَلات: ٣٣]». هذه قراءة، وقراءة حفص: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ [المرسلات: ٣٣].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «"والجمالات" حبال الجسور»، ثم قال: «ووقع عند ابن التين قول مجاهد: "جمالات" جمال، يريد: بكسر الجيم وقيل: بضمها، إبل سود واحدها جمالة، وجمالة جمع جمل مثل حجارة وحجر، ومن قرأ: "جمالات" ذهب إلى أنها الحبال الغلاظ، وقد قال مجاهد في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] هو حبل السفينة» ففيه خلاف، هل هو حبل السفينة حتى يدخل في ثقب الإبرة أو الجمل الذي هو زوج الناقة؟

{٤٩٣٣} قوله: «كُنَّا نَعْمِدُ إِلَى الخَشَبَةِ ثَلاثَةَ أَذْرُعٍ وَفَوْقَ ذَلِكَ، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ»، يعني: كأنه يعد للشتاء.

○ قوله: «فَنُسَمِّيهِ القَصَرَ ﴿كَأَنَّهُۥ «جمالات» صُفْرٌ ٣٣﴾ [المُرسَلات: ٣٣] حِبَالُ السُّفْنِ تُجْمَعُ»، يعني: يضم بعضها إلى بعض لتقوى.

○ قوله: «كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ» يعني: كعرض وسط الرجل.

بَابٌ

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المرسلات: ٣٥]

{٤٩٣٤} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ، عَنِ الأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١]، فَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا، إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْتُلُوهَا». فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وُقِيَتْ شَرَّكُمْ، كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا».

قَالَ عُمَرُ حَفِظْتُهُ مِنْ أَبِي: فِي غَارٍ بِمِنًى.

الشَّرح

{٤٩٣٤} في هذا الحديث الأمر بقتل الحية، يقول النبي ﷺ: «**اقتلوها**»؛ وذلك لأنها من ذوات السموم، وجاء في الحديث الآخر «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الفأرة والعقرب والحية والحدأة والكلب العقور**»(١)، وسميت الفواسق لفسقها ولكونها خارجة عن طبيعة غيرها بالإيذاء لأنها مؤذية، فالفأرة مؤذية لأنها تدور في البيت وتؤذي وتقطع الأشياء وتخرب، والعقرب والحية من ذوات السموم يلدغان، والكلب العقور يعض الناس ويروعهم، والغراب يأكل سنبل الزرع وينقض الجرح الذي في الإبل إذا كاد أن يبرأ، وذلك من فسقه، فلما خرجت عن غيرها بالأذى أمر بقتلها، والفسق معناه الخروج، ومنه سمي العاصي فاسقًا لخروجه عن الطاعة إلى المعصية.

وهذا الحديث هو الحديث السابق، لكن فيه زيادة المكان وأنه «**فِي غَارٍ بِمِنًى**»، فالمؤلف ﷺ يعيد الحديث ويكرره من أجل حصول الفوائد، منها الزيادة في ألفاظ المتن، وكذلك السند فيه اختلاف فيتقوى.

(١) أحمد (٦/ ٩٧)، والبخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨) واللفظ له.

٧٨- سورة عَمَّ يَتَسَاءَلُون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لَا يَخَافُونَهُ. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لَا يُكَلِّمُونَهُ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَهَّاجًا﴾ مُضِيئًا. ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ جَزَاءً كَافِيًا، أَعْطَانِي مَا أَحْسَبَنِي، أَيْ: كَفَانِي.

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ: ١] عن: حرف جر والميم اسم استفهام، والمعنى: عن أي شيء يتساءلون؟ وهذه السورة تسمى سورة عمَّ وتسمى سورة النبأ. وروي عن ابن كثير بهاء السكت، ثم جاء الجواب بقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ٢].

○ قوله: «قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾ [النبأ: ٢٧]: لَا يَخَافُونَهُ»، أي: لا يخافون الحساب.

○ قوله: «﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾ [النبأ: ٣٧] لَا يُكَلِّمُونَهُ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ»، أي: يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بإذن.

«وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿وَهَّاجًا ۝١٣﴾ [النبأ: ١٣]: مُضِيئًا»، يعني: الشمس.

○ قوله: «وقال غيره: ﴿وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾: غسقت عينه»، ثم قال: «ويغسق الجرح يسيل كأن الغساق والغسيق واحد» يعني: قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ [النبأ: ٢٥] يعني ماء منتنًا مثل ماء الجروح من الصديد وهو عرق أهل النار وصديدهم.

○ قوله: «أَعْطَانِي مَا أَحْسَبَنِي، أَيْ: كَفَانِي» العطاء هو الجزاء، والحساب: الكافي.

باب ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ١٨﴾ [النبأ: ١٨]

: زُمَرًا. أي: زمرًا زمرًا.

{٤٩٣٥} حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً. فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ».

الشَّرح

{٤٩٣٥} قوله: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»، فيه: إثبات النفختين:

الأولى: نفخة الصعق، وبها يموت الخلائق.

الثانية: نفخة البعث، وبها يحيي الله الخلائق.

قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ وهذه نفخة الصعق والموت، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ [الزُّمَر: ٦٨] هذه نفخة البعث، وجاء في حديث الصور أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث، لكنه حديث ضعيف في سنده إسماعيل بن رافع وهو ضعيف، والصواب أن نفخة الصعق ونفخة الفزع هي نفخة واحدة أولها فزع وآخرها صعق وموت؛ وذلك أن إسرافيل حينما ينفخ أولًا يمد بها صوته فيفزع الناس، ثم لا يزال الصوت يقوى حتى يموت الناس؛ ولهذا جاء في الحديث: «**لا يسمع أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا**»[1] والليت: صفحة العنق يعني يلتفت يمينًا وشمالًا.

(١) مسلم (٢٩٤٠).

○ قوله: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»، سئل أبو هريرة قيل له: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ» يعني: ما عندي خبر فلا أعلم، «قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ» يعني: ليس عنده علم هل هي أربعون سنة أو أربعون شهرًا أو أربعون يومًا وجاء في حديث ضعيف: «**أربعون خريفًا**»[(١)]، لكن هذا الحديث الصحيح ليس فيه بيان تمييز الأربعين هل هي شهر أو سنة أو يوم.

وجاء في الحديث أن الله تعالى بعد نفخة الصعق يُنزل مطرًا تنبت منه أجساد الناس، وأن الله تعالى ينشئ الخلق تنشئة قوية، وهي أن يعيد الله الذرات التي استحالت خلقًا جديدًا، ثم إذا تكامل خلقهم أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة البعث فتعود الأرواح إلى أجسادها، فالأرواح لا تموت فهي باقية إما في نعيم وإما في عذاب، فروح المؤمن تنقل إلى الجنة ولها صلة بالجسد إذا مات، وروح الكافر تنقل إلى النار ولها صلة بالجسد، فإذا بعث الله الأجساد يوم القيامة وأنبتها وأعادها خلقًا جديدًا وتم الخلق وأنزل المطر أذن الله لإسرافيل بأن ينفخ في الصور فإذا نفخ في الصور تطايرت الأرواح إلى أجسادها ودخلت كل روح إلى جسدها فيحيا الناس فيقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم.

○ قوله: «لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَىٰ إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهْوَ عَجْبُ الذَّنَبِ» «عَجْبُ» بإسكان الجيم عظم صغير، وهو آخر العمود الفقري في الصلب ويقال له: العصعص، هذا يبقى لا يبلى، وأما باقي الجسد فيبلى إلا أجساد الأنبياء؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[(٢)].

وفي هذا الحديث الشريف: رد على ما يدرس لبعض الطلاب في مادة الفيزياء وهو قولهم: المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، وهذا مذهب المعتزلة وأهل الكلام الذين يقولون: إن الأجسام مكونة من الجواهر المفردة والجواهر المفردة أجزاء صغيرة حتى تجزئها فتكون كرأس الإبرة حتى تجزئها إلى ما لا نهاية فلابد أن تبقى ولا تفنى.

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٥٥٢).
(٢) أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥).

وكذا قال أنصارهم المتأخرون قالوا: المادة لا تفنى ولا تستحدث، وهذا باطل ففي الحديث قال ﷺ: «**كل شيء يفنى إلا عجب الذنب؛ لأن منه خلق ابن آدم وفيه يركب**»(١).

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢) إلى أن إثبات الجواهر المفردة فيه نزاع والصواب أنه لا توجد الجواهر المفردة، وكونها لا تفنى أيضًا هذا باطل، وظاهر الكلام أنهم بنوا دينهم في الإيمان بالله والبعث على الجواهر المفردة.

وقولهم: ولا تستحدث: معناه أن هذه المادة قديمة، وأن هناك شيئًا باق ولا يستحدث وهذا يوافق قول الفلاسفة الذين يقولون: إن العالم قديم وهذا باطل أيضًا، وهذا الكلام خطير على دين من يعتقد هذا؛ إذ معناه أنه ما أثبت أن الله هو الأول بل جعل المادة قديمة وأن هناك شيئًا مع الله، والله تعالى هو واجب الوجود لذاته، وكل المخلوقات مخلوقة، فكل المخلوقات خلقها الله بعد أن لم تكن. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرّعد: ١٦]، فليس هناك مادة لا تستحدث، فكل شيء خلقه الله وأوجده.

---

(١) أحمد (٢/ ٣٢٢)، والبخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٣).

٧٩- سورة وَالنَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ [النَّازعَات: ٢٠] عَصَاهُ وَيَدُهُ، يُقَالُ: النَّاخِرَةُ وَالنَّخِرَةُ، سَوَاءٌ مِثْلُ الطَّامِعِ وَالطَّمِعِ وَالْبَاخِلِ وَالْبَخِيلِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: النَّخِرَةُ البَالِيَةُ، وَالنَّاخِرَةُ العَظْمُ المُجَوَّفُ الذِي تَمُرُّ فِيهِ الرِّيحُ فَيَنْخَرُ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾ التِي أَمْرُنَا الأَوَّلُ إِلَى الحَيَاةِ. وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ مَتَىٰ مُنْتَهَاهَا، وَمُرْسَى السَّفِينَةِ حَيْثُ تَنْتَهِي.

بَابٌ

{٤٩٣٦} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ المِقْدَامِ، حَدَّثَنَا الفُضَيْلُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ، حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ﵁ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِإِصْبَعَيْهِ هَكَذَا بِالْوُسْطَىٰ، وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ: «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: تَطمُّ علىٰ كل شيء.

الشَّرْح

فسر المؤلف الكلمات التي تحتاج إلى معنى في سورة النازعات.

○ وقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النَّازعَات: ١]، أي: الملائكة تنزع روح الكفار بقوة وشدة.

○ وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ [النَّازعَات: ٢]، أي: الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق كحل العقال من يد البعير.

○ وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾ [النَّازعَات: ٣]، أي: الملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين قبضًا هينًا كالذي يسبح في البحر.

○ وقوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ [النَّازعَات: ٤]، أي: الملائكة تسبق إلى الأمر.

○ وقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النَّازعَات: ٥]، أي: الملائكة تدبر الأمر من أمر الله ﷻ.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النَّازعَات: ١-٥] كله وصف الملائكة.

○ قوله: «**وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ [النَّازعَات: ٢٠] عَصَاهُ وَيَدُهُ**» كأن مجاهدًا رحمه الله فسرها بالآيتين وجعل العصا واليد الآية الكبرى، وظاهر الآية أن العصا هي الآية الكبرى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ [النَّازعَات: ٢٠] الآية في قصة فرعون يعني: موسى أرى فرعون الآية الكبرى.

○ قوله: «**النَّاخِرَةُ وَالنَّخِرَةُ، سَوَاءٌ مِثْلُ الطَّامِعِ وَالطَّمِعِ وَالْبَاخِلِ وَالْبَخِيلِ**»، أي: بمعنى واحد.

○ قوله: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ: النَّخِرَةُ البَالِيَةُ، وَالنَّاخِرَةُ العَظْمُ المُجَوَّفُ الذِي تَمُرُّ فِيهِ الرِّيحُ فَيَنْخَرُ**» هذا في إنكار الكفار للبعث يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ [النَّازعَات: ١١-١٢]، يعني: كيف نبعث مرة أخرى بعد أن نكون عظامًا بالية متفتتة؟ كيف تعود لنا الحياة مرة أخرى؟!

○ قوله: «**وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ التِي أَمْرُنَا الأَوَّلُ إِلَى الحَيَاةِ**»، يعني: تفسير قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ [النَّازعَات: ١٠]، أي: أئنا لمردودون إلى أمرنا الأول إلى الحياة بعد أن نكون عظامًا نخرة؟ فكفار قريش استبعدوا البعث، وقالوا: إذا كانت أجسامنا عظامًا نخرة بالية كيف تعود الحياة إلى العظام البالية اليابسة والحياة حارة رطبة؟ فلا يجتمعان فكيف تعود إلى حالتها الأولى؟ من أجل ذلك أنكروا البعث.

وقد ذكر الله ﷻ في آخر سورة يس شبهة الكفار في البعث فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨]، وليس هذا بأعجز من الأمر الأول فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ

تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]. فالذي يخرج من الشجر الأخضر نارًا وهذا أخضر رطب أخرج الله منه النار والنار حارة يابسة - يخرج الشيء من ضده فالله تعالى يعيد الأرواح ويعيد الحياة إلى الأجساد لأن الله على كل شيء قدير.

{٤٩٣٦} قوله: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِإِصْبَعَيْهِ هَكَذَا بِالْوُسْطَىٰ، وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ: بُعِثْتُ وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»، أي: الوسطى والسبابة؛ وذلك لأنه نبي الساعة ﷺ فليس بينه وبين الساعة نبي أو أمة من الأمم غير أمته والساعة تكون في آخر أمته، ويجوز في «**الساعة**» الرفع والنصب.

○ قوله: «**﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: تَطمُّ علىٰ كل شيء**»، أي: في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النَّازعَات: ٣٤]، والطامة اسم من أسماء يوم القيامة، وكذلك الصاخة.

٨٠- سورة عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿عَبَسَ﴾: كَلَحَ وَأَعْرَضَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: لَا يَمَسُّهَا إِلَّا المُطَهَّرُونَ، وَهُمُ المَلائِكَةُ، وهٰذا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ جَعَلَ المَلائِكَةَ وَالصُّحُفَ مُطَهَّرَةً؛ لأَنَّ الصُّحُفَ يَقَعُ عَلَيْهَا التَّطْهِيرُ، فَجُعِلَ التَّطْهِيرُ لِمَنْ حَمَلَهَا أَيْضًا. ﴿سَفَرَةٍ﴾: المَلائِكَةُ وَاحِدُهُمْ سَافِرٌ، سَفَرْتُ أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ، وَجُعِلَتِ المَلائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللهِ وَتَأْدِيَتِهِ كَالسَّفِيرِ الذِي يُصْلِحُ بَيْنَ القَوْمِ. وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿تَصَدَّى﴾: تَغَافَلَ عَنْهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾: لَايَقْضِي أَحَدٌ مَا أُمِرَ بِهِ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿تَرْهَقُهَا﴾: تَغْشَاهَا شِدَّةٌ. ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: مُشْرِقَةٌ. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: كَتَبَةٍ. ﴿أَسْفَارًا﴾ كُتُبًا. ﴿تَلَهَّى﴾ تَشَاغَلَ، يُقَالُ: وَاحِدُ الأَسْفَارِ سِفْرٌ.

بَابٌ

{٤٩٣٧} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، قَالَ: سَمِعْتُ زُرَارَةَ بْنَ أَوْفَىٰ يُحَدِّثُ عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَهْوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ، وَمَثَلُ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَهْوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهْوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ».

الشَّرح

○ قوله: «﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾» يعني: «كَلَحَ وَأَعْرَضَ» هذا فيه: أن النبي ﷺ أمين على الوحي لم يكتم شيئًا منه، وكذلك الآية التي في سورة الأحزاب: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وسبب نزول هذه السورة:

أن النبي ﷺ لما جاءه عبد الله بن أم مكتوم يسأله - وكان مشغولًا مع كبراء قريش رجاء أن يسلموا، أعرض عنه النبي ﷺ، فالله ﷻ عاتب

نبيه ﷺ فأنزل هذه السورة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾ [عَبَسَ: ١]، يعني: عبس بوجهه وأعرض.

قوله تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ②﴾ [عَبَسَ: ٢]، وهو عبد الله بن أم مكتوم، فقال الله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾ [عَبَسَ: ٣] وما يعلمك لعل هذا الأعمى جاء ليتزكى، أي يتطهر من المعاصي بالتوبة والعمل الصالح ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ④﴾ [عَبَسَ: ٤]، أو يتذكر فيكون عنده موعظة ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ⑤﴾ [عَبَسَ: ٥]: وهم كبراء قريش، ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥﴾ [عَبَسَ: ٦] تقبل عليه، ولكن ليس عليك تزكيتهم وإيمانهم كما في الآية الأخرى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، وكذلك آية: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ㉕ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ㉖﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦] وهذا فيه: عتاب من الله لنبيه؛ لعلو مقامه ﷺ؛ لأنه فعل خلاف الأولى، والنبي ﷺ اجتهد فيما فعل.

○ قوله: «﴿مُّطَهَّرَةِۭ ⑭﴾ [عَبَسَ: ١٤]: **لَا يَمَسُّهَا إِلَّا المُطَهَّرُونَ، وَهُمُ المَلَائِكَةُ**».

○ وقوله: «﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ⑤﴾ [النازعات: ٥] **جَعَلَ المَلَائِكَةَ وَالصُّحُفَ مُطَهَّرَةً؛ لِأَنَّ الصُّحُفَ يَقَعُ عَلَيْهَا التَّطْهِيرُ، فَجُعِلَ التَّطْهِيرُ لِمَنْ حَمَلَهَا أَيْضًا**» فتكون الصحف مطهرة والملائكة مطهرة.

○ قوله: «﴿سَفَرَةٖ ⑮﴾ [عَبَسَ: ١٥] **المَلَائِكَةُ وَاحِدُهُمْ سَافِرٌ، سَفَرْتُ أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ، وَجُعِلَتِ المَلَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللهِ وَتَأْدِيَتِهِ كَالسَّفِيرِ الذِي يُصْلِحُ بَيْنَ القَوْمِ**» فهم سفرة وسفراء، أي: لكونهم يسافرون وينتقلون.

○ قوله: «**وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ**: ﴿تَرۡهَقُهَا﴾ [عَبَسَ: ٤١]: **تَغْشَاهَا شِدَّةٌ**»، يعني: في النار.

○ قوله: «﴿مُّسۡفِرَةٞ ㊳﴾ [عَبَسَ: ٣٨]: **مُشْرِقَةٌ**»، وهم المؤمنون الفائزون.

○ قوله «**وَقَالَ مُجَاهِدٌ**: ﴿لَمَّا يَقۡضِ﴾ [عَبَسَ: ٢٣]: **لَا يَقْضِي أَحَدٌ مَا أُمِرَ بِهِ**».

{٤٩٣٧} قوله: «**مَثَلُ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ، وَمَثَلُ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ، فَلَهُ أَجْرَانِ**»؛ هذا الحديث

في «صحيح مسلم» بلفظ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»[١] ظاهر الحديث أن الثاني له أجران: أجر القراءة وأجر المشقة، والذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد له أجران كذلك: أجر القراءة وأجر المشقة والمعاهدة، لكن الأول أعظم منه؛ لأنه مع السفرة الكرام البررة، وهم الملائكة؛ لأنه عالج واعتنى أولًا ثم تجاوز ذلك فصار حافظا له ماهرًا فيه فكان أجره أعظم من الأول.

(١) مسلم (٧٩٨).

٨١- سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: ٱنْتَثَرَتْ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿سُجِّرَتۡ﴾: ذَهَبَ مَاؤُهَا فَلَا يَبْقَىٰ قَطْرَةٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: المَسْجُورُ المَمْلُوءُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: سُجِرَتْ أَفْضَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا، وَالْخُنَّسُ تَخْنِسُ فِي مُجْرَاهَا تَرْجِعُ، وَتَكْنِسُ: تَسْتَتِرُ، كَمَا تَكْنِسُ الظِّبَاءُ. ﴿تَنَفَّسَ﴾: ٱرْتَفَعَ النَّهَارُ. وَالظَّنِينُ المُتَّهَمُ وَالضَّنِينُ يَضَنُّ بِهِ. وَقَالَ عُمَرُ ﴿ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ يُزَوَّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾. ﴿عَسۡعَسَ﴾ أَدْبَرَ.

الشَّرْح

○ قوله: «سورة: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التّكوير: ١]» يقال لها: سورة التكوير، يعني كتكوير العمامة، وهذا في يوم القيامة حيث تكور كما تكور العمامة ثم تلقى هي والقمر في النار، هما ومن عبدهما، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التّكوير: ٢]، يعني: تغيرت، وفي سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ [الانفِطار: ٢]، يعني: انتثرت فهي تنكدر بمعنى تتغير ثم تنتثر: فوصفت في سورة التكوير بالانكدار، وفي سورة الانفطار بالانتثار.

○ قوله «وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التّكوير: ٦] ذَهَبَ مَاؤُهَا فَلَا يَبْقَىٰ قَطْرَةٌ».

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ [الطُّور: ٦] المَمْلُوءُ».

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التّكوير: ٦] أَفْضَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا» وفي سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ [الانفِطار: ٣]: فتتفجر البحار وتكون بحرًا واحدًا، وتسجر فلا يبقى منها قطرة، ثم بعد ذلك تكون جزءًا من النار.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ [التّكوير: ١٥] لا مزيدة للتأكيد، والمعنى: أقسم بالخنس وهي النجوم تخنس في مجراها، والجواري: السيارة، والكنس: التي تكنس؛ أي: تستتر في بيوتها كما تكنس الظباء، وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التّكوير: ١٧]: أدبر، وبمعنى: أقبل، وقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التّكوير: ١٨]، يعني إذا ارتفع النهار، وقوله ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤﴾ [التّكوير: ٢٤] يعني: الرسول ﷺ، والظنين بالظاء بمعنى: المتهم، يعني: ليس بمتهم على الوحي ﷺ، والضنين بالضاد بمعنى: البخيل - فهما قراءتان - أي: ليس ببخيل يضن به، وهو لا يبخل به؛ لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ [التّكوير: ٧] يعني: قرنت بما يشاكلها؛ ولهذا قال يزوج نظيره من أهل الجنة والنار، والمعنى: يقرن الأخيار بالأخيار والأشرار بالأشرار.

○ قوله: «**وَقَالَ عُمَرُ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ [التّكوير: ٧]: يُزَوَّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصَّافات: ٢٢]**» قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ولم يورد المؤلف رحمه الله حديثًا مرفوعًا؛ لأنه لم يجد على شرطه حديثًا».

ثم قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفيها حديث جيد أخرجه أحمد، والترمذي(١)، والطبراني، وصححه الحاكم من حديث ابن عمر رفعه: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التّكوير: ١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: ١]».

(١) أحمد (٢/ ٢٧)، والحاكم (٤/ ٦٢٠)، والترمذي (٣٣٣٣).

٨٢- سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: ﴿فُجِّرَتْ﴾ فَاضَتْ. وَقَرَأَ الأَعْمَشُ وَعَاصِمٌ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ، وَقَرَأَهُ أَهْلُ الحِجَازِ بِالتَّشْدِيدِ، وَأَرَادَ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ وَمَنْ خَفَّفَ، يَعْنِي فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَ؛ إِمَّا حَسَنٌ وَإِمَّا قَبِيحٌ وَطَوِيلٌ وَقَصِيرٌ.

الشَّرح

هذه السورة يقال لها: سورة الانفطار، ويقال: سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١] يعني: انشقت.

○ قوله: «وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: ﴿فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣]: فَاضَتْ»، يعني: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣].

○ قوله: «وَقَرَأَ الأَعْمَشُ وَعَاصِمٌ: ﴿فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٧] بِالتَّخْفِيفِ، وَقَرَأَهُ أَهْلُ الحِجَازِ بِالتَّشْدِيدِ، وَأَرَادَ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ وَمَنْ خَفَّفَ، يَعْنِي: ﴿فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ﴾ [الانفطار: ٨] شَاءَ؛ إِمَّا حَسَنٌ وَإِمَّا قَبِيحٌ وَطَوِيلٌ وَقَصِيرٌ»، يعني: يركب في أي صورة شاءها سبحانه وتعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٦-٨].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «وَأَرَادَ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ وَمَنْ خَفَّفَ، يَعْنِي: ﴿فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ﴾ [الانفطار: ٨] شَاءَ؛ إِمَّا حَسَنٌ وَإِمَّا قَبِيحٌ وَطَوِيلٌ وَقَصِيرٌ» هو قول الفراء بلفظه إلى قوله: «بِالتَّشْدِيدِ»، ثم قال: فمن قرأ بالتخفيف فهو - والله أعلم - يصرفك في أي صورة شاء إما حسن إلخ، ومن شدد فإنه أراد - والله أعلم - جعلك معتدلًا معتدل الخلق، قال: وهو أجود القراءتين في العربية وأحبهما إلي، وحاصل القراءتين أن التي بالتثقيل من التعديل والمراد التناسب، وبالتخفيف من العدل وهو الصرف إلى أي صفة أراد»، والمعنى: صرفك إلى أي صفة أراد طويلًا أو قصيرًا حسنًا أو قبيحًا.

٨٣- سورة وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَانَ﴾: ثَبْتُ الخَطَايَا. ﴿ثُوِّبَ﴾ جُوزِيَ، وَقَالَ غَيْرُهُ: المُطَفِّفُ لَا يُوَفِّي غَيْرَهُ.

بَابٌ

{٤٩٣٨} حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ المُنْذِرِ، حَدَّثَنَا مَعْنٌ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦] حَتَّىٰ يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَىٰ أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ».

الشَّرح

هذه السورة يقال لها: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطفّفين: ١].

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بَلْ رَانَ﴾ [المطفّفين: ١٤]: ثَبْتُ الخَطَايَا» يجوز تسكين الباء، والأرجح فتحها.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ««ثَبَتُ الخَطَايَا» بفتح المثلثة والموحدة ثبت بعدها تاء فعل ماض، ويجوز تسكين ثانيها فيكون مصدرًا، يعني ثبت الخطايا على قلوبهم».

قوله تعالى: «﴿ثُوِّبَ﴾ [المطفّفين: ٣٦]» بمعنى: «جُوزِيَ».

○ قوله: «وَقَالَ غَيْرُهُ: المُطَفِّفُ لَا يُوَفِّي غَيْرَهُ»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، يعني: الذي ينقص غيره من حقه.

وقال ابن عباس: «**لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك**»[(١)].

(١) ابن ماجه (٢٢٢٣).

{٤٩٣٨} قوله: «﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: ٦] حَتَّىٰ يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَىٰ أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»، بفتح الشين يعني عرقه؛ وذلك أن الشمس تدنو من الرؤوس ويزاد في حرارتها، وقوله: «إِلَىٰ أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» هو من إضافة الجمع إلى المثنى؛ لأن الأذنين مثنى، والمعنى: لأن لكل واحد أذنين، وقد روى مسلم من حديث المقداد بن الأسود عن النبي ﷺ قال: «**تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، ومنهم من يخوض في عرقه**»[(١)].

○ وقوله: «**كمقدار ميل**» ذكر في القاموس في تقدير الميل أقوالا منها: أن قدر الميل مد البصر، وقيل: أربعة آلاف أصبع، والميل ثلث فرسخ؛ لأن الفرسخ ثلاثة أميال، والميل يقارب كيلوين، وقيل: إنها مقدار ميل؛ ذكر بعض الشراح قال: «ما أدري هل مقدار الميل المساحة من الأرض، أو الميل ميل المكحلة، كما قال الله ﷻ: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدَّثِّر: ٩-١٠]».

(١) مسلم (٢٨٦٤).

٨٤- سُورةُ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]: يَأْخُذُ كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ﴿وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]: جَمَعَ مِنْ دَابَّةٍ. ﴿ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤]: لَا يَرْجِعَ إِلَيْنَا.

الشَّرح

هذه السورة يقال لها: ﴿ ۞ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]، ويقال لها: سورة الإنشقاق، وسورة الشقق، وهذا من بعض أهوال يوم القيامة أن تنشق السماء وتنفطر وتنكدر النجوم.

○ قوله: «قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحَاقَّة: ٢٥]، يَأْخُذُ كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ»، يعني: يأخذه بشماله ومن وراء ظهره.

في آية الانشقاق هنا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠﴾ [الانشقاق: ١٠]. وفي آية الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحَاقَّة: ٢٥]. والجمع بينهما أنه يأخذ كتابه بشماله ملوية وراء ظهره.

○ وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾ [الانشقاق: ١٦]، يعني: أقسم به، وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ [الانشقاق: ١٧] يعني: ما جمع من دابة وغيرها.

○ قوله: «﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: ١٤]»، ظن أن «لَا يَرْجِعَ إِلَيْنَا»، يعني: ظن الكافر أنه لن يبعث، وأصل يحور الحور بالفتح وهو: الرجوع يعني: ظن أنه لا يرجع إلى الله فيبعثه، وحاورت فلانًا، أي: راجعته، ويطلق على التردد في الأمر.

بَابٌ

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧﴾ [الانشقاق: ٨]

{٤٩٣٩} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: سَمِعْتُ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ.

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِي يُونُسَ حَاتِمِ بْنِ أَبِي صَغِيرَةَ، عَنِ ابن أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ القَاسِمِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ ﷻ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧﴾؟ [الانشقاق: ٧-٨]. قَالَ: «ذَاكَ العَرْضُ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ».

الشَّرح

○ قوله: «باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧﴾ [الانشقاق: ٨]» هذه الآية من الآيات التي فسرها النبي ﷺ وبين أن المراد بالحساب اليسير العرض، وهناك آيات كثيرة أخرى فسرها النبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]. فسر النبي ﷺ الظلم بالشرك لما أشكل على الصحابة معناها، قال لهم: «**إنه ليس الذي تعنون؛ ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]»[(١)].

{٤٩٣٩} فسر النبي ﷺ الحساب اليسير بالعرض، وذلك في قوله الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧-٨] فقد أخبر الله أن المؤمن يحاسب حسابًا يسيرًا، وفي الحديث: يقول النبي ﷺ:

(١) أحمد (١/٣٧٨) واللفظ له، والبخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤).

«لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ»، وفي لفظ: «**من نوقش الحساب عذب**»[(١)] فأشكل على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الجمع بين الآية والحديث، فجمع لها النبي ﷺ بينهما وبين لها أن المراد بالحساب في الآية العرض، والمراد بالحساب في الحديث المناقشة؛ وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا هي أفقه النساء، وكانت حريصة على العلم والفهم فقالت: «يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، قَالَ: «ذَاكَ العَرْضُ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ»، فبين لها النبي ﷺ ما أشكل عليها ونقلته لنا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

❁ ❁ ❁

(١) أحمد (٦/ ٤٧)، والبخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

بَابٌ

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩]

{٤٩٤٠} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ النَّضْرِ، أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ جَعْفَرُ بْنُ إِيَاسٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩]: حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هٰذا نَبِيُّكُمْ ﷺ.

الشَّرْح

○ قوله: «**باب قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩]**» قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٦-١٩]، وهذا قسم من الله، أقسم بالشفق والليل والقمر، وله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته مثل الليل والنهار والنجم، لما في ذلك من بديع ما خلق سبحانه ومن الدلالة على قدرته ووحدانيته واستحقاقه للعبادة؛ فيقسم بما شاء؛ قال سبحانه: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر: ٧٢]. أقسم هنا بحياة النبي ﷺ، فالله سبحانه يقسم بما شاء من خلقه ولا أحد يحجر عليه، أما الإنسان فليس له أن يقسم إلا بالله وبأسمائه وصفاته، فإذا أقسم الإنسان بغير الله فقد أشرك؛ قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[1].

{٤٩٤٠} هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما يفسر قوله تعالى: «﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩]»، قال: «**حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هٰذا نَبِيُّكُمْ ﷺ**»، يعني: ابن عباس قال: إن الخطاب للنبي ﷺ وهذا على قراءة الفتح: «**لتركَبَنَّ**»، وهي قراءة ابن كثير والأعمش، وأما على القراءة المشهورة وهي بضم الباء الموحدة: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ فالخطاب للأمة.

وعلى القول الأول: «**لتركَبَنَّ**» إذا كان الخطاب للنبي ﷺ يكون المراد به

---

(١) أحمد (٢/ ٦٩)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥).

حالا بعد حال، أي: الحالات التي مر بها النبي ﷺ في دعوته وجهاده، فكان في بدء الدعوة يدعو الناس سرًا، ثم بعد ذلك جهرًا، ثم اشتد الأذى عليه وعلى أصحابه، ثم هاجر، ثم أذن له بالجهاد، ثم مكن الله له.

وعلى القول الثاني: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ فيكون الخطاب للأمة ويكون المراد به الحالات التي مرت بها الأمة من كون الإنسان يكون جنينًا في بطن أمه ثم إذا ولد صبيًا ثم غلامًا ثم شابًا ثم كهلًا ثم شيخًا، وهذان المعنيان متلازمان؛ لأن ما مر به ﷺ مر به أصحابه وما مر بأمته مر به.

○ وقوله: «حَالًا بَعْدَ حَالٍ» قيل: المراد اختلاف الأحوال، وقيل: المراد ما يقع من الشدائد يوم القيامة، أي الحال المطابقة للتي قبلها في الشدة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩]»، قال: «حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هٰذا نَبِيُّكُمْ ﷺ»، أي: الخطاب له وهو على قراءة فتح الموحدة وبها قرأ ابن كثير والأعمش والأخوان، وقد أخرج الطبري الحديث المذكور عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم بلفظ: أن ابن عباس كان يقرأ: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ»، يعني: نبيكم «حَالًا بَعْدَ حَالٍ»؛ وأخرجه أبو عبيد في كتاب «القراءات» عن هشيم وزاد يعني بفتح الباء، قال الطبري: قرأها ابن مسعود وابن عباس وعامة قراء أهل مكة والكوفة بالفتح والباقون بالضم على أنه خطاب للأمة، ورجحها أبو عبيدة لسياق ما قبلها وما بعدها، ثم أخرج عن الحسن وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم قالوا: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩]، يعني «حَالًا بَعْدَ حَالٍ»، ومن طريق الحسن أيضًا وأبي العالية ومسروق قال: السموات، وأخرج الطبري أيضًا والحاكم من حديث ابن مسعود إلى قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩] قال: السماء، وفي لفظ للطبري عن ابن مسعود قال: المراد أن السماء تصير مرة كالدهان، ومرة تشقق، ثم تحمر، ثم تنفطر؛ ورجح الطبري الأول، وأصل الطبق: الشدة، والمراد بها هنا: ما يقع من الشدائد يوم القيامة؛ والطبق: ما طابق غيره، يقال: ما هذا بطبق كذا أي: لا يطابقه.

ومعنى قوله: «حَالًا بَعْدَ حَالٍ» أي: حال مطابقة للتي قبلها في الشدة، أو هو جمع طبقة، وهي المرتبة، أي هي طبقات بعضها أشد من بعض، وقيل: المراد اختلاف أحوال المولود منذ يكون جنينا إلى أن يصير إلى أقصى العمر، فهو قبل أن يولد جنين، ثم إذا ولد صبي، فإذا فطم غلام، فإذا بلغ سبعًا يافع، فإذا بلغ عشرًا حزور» وهذه أسماء للأطوار التي يمر بها الإنسان في مراحله المختلفة.

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا بلغ خمس عشرة قمد، فإذا بلغ خمسًا وعشرين عنطنط، فإذا بلغ ثلاثين صمل، فإذا بلغ أربعين كهل، فإذا بلغ خمسين شيخ، فإذا بلغ ثمانين هم، فإذا بلغ تسعين فان» وهذه المسميات فيها نظر.

٨٥- سورة البُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ [البُرُوج: ٤]: شَقٌّ فِي الأَرْضِ. ﴿فَتَنُوا۟﴾ [البُرُوج: ١٠] عَذَّبُوا. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ الحَبِيبُ. ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ الكَرِيمُ.

٨٦- سورة الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾: سَحَابٌ يَرْجِعُ بِالْمَطَرِ. ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾: تَتَصَدَّعُ بِالنَّبَاتِ.

الشَّرح

○ قوله: «سورة البُرُوجِ وَالطَّارِقِ» قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البُرُوج: ١]، البروج هي النجوم، أقسم الله بالسماء وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وفي هذه السورة لعن الله تعالى أصحاب الأخدود الذين حفروا في الأرض وأضرموها نارًا وفتنوا المؤمنين، فمن لم يرجع عن دينه ألقاه فيها أصحاب الأخدود، وقيل: إنه في نجران، وقيل: في قصة الراهب الذي عند الملك، الذي قال: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، تأخذ سهم من كنانتي وتضعه في صدري وتقول: باسم الله رب الغلام. ففعل ذلك فآمن الناس، قالوا: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: إن الذي كنت تحذر قد وقع، هذا الغلام ضحى بنفسه فداء للأمة، فأراد أن يقتله الملك حتى يؤمن الناس، فآمن الناس، فأمر الملك بأن تحفر حفر في الأرض وتضرم نارًا، فمن لم يرجع عن دينه ألقي فيها، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ [البُرُوج: ١-٤] والأخدود: هو الشق في الأرض.

○ وقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ [البُرُوج: ٥]، أي: التي أضرموها في الأخاديد.

○ وقوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البُرُوج: ٦-٨]، يعني: حنقوا عليهم لأنهم آمنوا بالله فلذلك ألقوهم في النار.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «**وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾** [البُرُوج: ٤]: **شَقٌّ فِي الأَرْضِ**»، وصله الفريابي بلفظ: شق بنجران كانوا يعذبون الناس فيه؛ وأخرج مسلم والترمذي(١) وغيرهما من حديث صهيب قصة أصحاب الأخدود مطولة.

وفيه: قصة الغلام الذي كان يتعلم من الساحر فمر بالراهب فتابعه على دينه فأراد الملك قتل الغلام لمخالفته دينه فقال: إنك لن تقدر على قتلي حتى تقول إذا رميتني: باسم الله رب الغلام، ففعل فقال الناس: آمنا برب الغلام، فخد لهم الملك الأخاديد في السكك وأضرم فيها النيران ليرجعوا إلى دينه.

وفيه: قصة الصبي الذي قال لأمة: اصبري فإنك على الحق، صرح برفع القصة بطولها حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب، ومن طريقه أخرجه مسلم والنسائي وأحمد ووقفها معمر عن ثابت ومن طريقه أخرجها الترمذي وعنده في آخره يقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ إلى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البُرُوج: ٨]، قوله: «﴿**فَتَنُوا۟**﴾ [البُرُوج: ١٠] **عَذَّبُوا**»، وصله الفريابي من طريقه، وهذا أحد معاني الفتنة ومثله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ [الذّاريَات: ١٣]، أي: يعذبون» ولم يجد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أحاديث على شرطه لهذا اكتفى بتفسير بعض الكلمات.

قوله: «سحاب يرجع المطر» قال الحافظ: «ولأبي ذر ترجع بالفوقية بدل التحتية وعلى هذا يجوز أن يراد بالسماء السحاب».

(١) مسلم (٣٠٠٥)، والترمذي (٣٣٤٠).

٨٧- سورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قَدَّرَ فَهَدى﴾: قَدَّرَ الشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ، وَهَدى الأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا.

بَابٌ

{٤٩٤١} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ ﷺ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَجَعَلَا يُقْرِئَانِنَا القُرْآنَ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَسَعْدٌ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ الوَلَائِدَ وَالصِّبْيَانَ يَقُولُونَ: هٰذَا رَسُولُ اللهِ قَدْ جَاءَ. فَمَا جَاءَ حَتَّىٰ قَرَأْتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا]..

الشَّرْح

○ قوله: «سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]»، ﴿سَبِّحِ﴾ بمعنى نزه ربك، والأعلى اسم من أسماء الله ﷻ.

○ قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٣]. قال مجاهد: يعني قدر الشقاوة والسعادة، بمعنى أن الله ﷻ كتب مقادير الخلائق كما ورد في الحديث الآخر: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»[1]، وكما في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد: ٢٢] فقدر للإنسان السعادة والشقاوة، وقوله: ﴿فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٣]، أي: هدى الأنعام لمراتعها، وهدى الطيور لأوكارها،

(١) أحمد (٢/ ١٦٩)، ومسلم (٢٦٥٣).

وهدى الطفل لثدي أمه، وهذه الهداية عامة بمعنى الإلهام؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ [القَصَص: ٧]، يعني: ألهمها الله ﷻ الوحي.

وهناك هداية عامة لبني آدم من المؤمنين والكفار وهي الهداية ببيان طريق الخير وطريق الشر كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصّلَت: ١٧]، أي: دللناهم، وكقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾ [البَلَد: ١٠].

وهناك هداية خاصة بالمؤمنين وهي هداية التوفيق والسداد والتسديد فيجعلهم يقبلون الحق ويرضون به.

وهناط هداية المؤمنين إلى مساكنهم في الجنة وهداية الكفار إلى مساكنهم في النار يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصَّافات: ٢٣]، أي: الكفار.

وفسر البخاري ﷺ في كتاب بدء الخلق قوله تعالى: ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ ٥﴾ [الأعلى: ٥]، أي: هشيمًا متغيرًا.

{٤٩٤١} قوله: «أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ»، يعني: مهاجرًا إلى المدينة.

○ قوله: «مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَجَعَلَا يُقْرِئَانِنَا القُرْآنَ»، يعني: أن مصعب بن عمير وابن أم مكتوم هاجرا من مكة إلى المدينة قبل النبي ﷺ، وجعلا يحفظان الناس القرآن.

○ قوله: «ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَسَعْدٌ»، أي: هاجر بعد ذلك عمار بن ياسر وبلال بن رباح وسعد بن أبي وقاص فجعلوا يحفظون أهل المدينة القرآن.

○ قوله: «ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ»، يعني: لما أسلم عمر رضي الله عنه هاجر إلى المدينة ومعه عشرون شخصًا.

○ قوله: «ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ»، أي: مهاجرًا ومعه أبو بكر رضي الله عنه.

○ قوله: «فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ» أي: بقدوم النبي ﷺ.

○ قوله: «حَتَّىٰ رَأَيْتُ الوَلاَئِدَ وَالصِّبْيَانَ» الولائد: البنات الصغار.

○ قوله: «يَقُولُونَ: هٰذا رَسُولُ اللهِ قَدْ جَاءَ»، فياله من يوم عظيم وخير جسيم ساقه الله إلى أهل المدينة وللمسلمين جميعًا.

قال أنس ﵁: اليوم الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ ما رأيت مثله في النور والضياء والفرح والسرور، واليوم الذي توفي فيه النبي ﷺ ما رأيت مثله في الغم والهم والكدر الذي أصاب الناس.

○ قوله: «فَمَا جَاءَ حَتَّىٰ قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا» يقول: ما جاء النبي ﷺ حتى حفظت عدة سور منها سورة سبح وسور مثلها، وكان حفظها من الصحابة الذين كانوا يحفظونهم قبل هجرة النبي ﷺ، وهذا هو الشاهد للترجمة.

٨٨- سورة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: النَّصَارَىٰ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾: بَلَغَ إِنَاهَا وَحَانَ شُرْبُهَا. ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾: بَلَغَ إِنَاهُ. ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾: شَتْمًا. الضَّرِيعُ: نَبْتٌ يُقَالُ لَهُ: الشِّبْرِقُ، يُسَمِّيهِ أَهْلُ الحِجَازِ الضَّرِيعَ إِذَا يَبِسَ، وَهْوَ سَمٌّ. ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: بِمُسَلَّطٍ، وَيُقْرَأُ بِالصَّادِ وَالسِّينِ.

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿إِيَابَهُمْ﴾ مَرْجِعَهُمْ.

الشَّرح

○ قوله: «سورة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١]» تسمى سورة الغاشية، والغاشية من أسماء يوم القيامة، وسميت الغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها.

○ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغَاشِيَة: ١]: هل هنا للتقرير بمعنى قد - فهل قد تكون للإنكار، وقد تكون للتقرير بمعنى الخبر - والمعنى: قد أتاك حديث الغاشية.

○ قوله تعالى: «﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغَاشِيَة: ٣]»، أي: متعبة من كثرة العمل، وقوله: «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: النَّصَارَىٰ»، مقصود ابن عباس المثال وليس الحصر يعني: مثل النصارى؛ لأن اليهود والوثنيين وغيرهم كفار أيضًا.

○ قوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغَاشِيَة: ٤]؛ لأن عملها ليس على التوحيد والإيمان.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغَاشِيَة: ٥] بَلَغَ إِنَاهَا وَحَانَ شُرْبُهَا» وظاهر السياق أن معنى آنية: حارة شديدة الحرارة.

○ قوله: «**الضَّرِيعُ: نَبْتٌ يُقَالَ لَهُ: الشِّبْرِقُ، يُسَمِّيهِ أَهْلُ الحِجَازِ الضَّرِيعَ إِذَا يَبِسَ، وَهْوَ سَمٌّ**» يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغَاشِيَة: ٦]، وروي عن ابن عباس ﵄ أن الضريع شجر من نار، وقيل: الحجارة، وقيل: مشتق من الضارع وهو الذليل، وقيل: هو شوك النخل.

○ قوله: «﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾ [الغَاشِيَة: ١١]: **شتمًا**»، يعني: لا تسمع فيها سبابًا ولا كلامًا لا يليق، فالجنة ليس فيها إلا الكلام الطيب.

○ قوله: «﴿بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغَاشِيَة: ٢٢] **بِمُسَلَّطٍ، وَيُقْرَأُ بِالصَّادِ وَالسِّينِ**»: أي تقرأ: بمسيطر وبمصيطر.

وقال الحافظ ابن حجر ﵀: «يدخل فيه حديث جابر: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ثم قرأ:** ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغَاشِيَة: ٢١-٢٢]»، أخرجه الترمذي والنسائي[(١)].

○ قوله: «**وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾: مَرْجِعَهُمْ**»، يعني: فسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغَاشِيَة: ٢٥]، أي: مردهم ومرجعهم إلى الله ﷻ.

(١) الترمذي (٣٣٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥١٤)، وأخرجه مسلم بلفظه (٢١).

٨٩- سورة الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الوَتْرُ اللهُ. ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ القَدِيمَةِ وَالْعِمَادُ: أَهْلُ عَمُودٍ لَا يُقِيمُونَ. ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ الذِي عُذِّبُوا بِهِ. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾: السَّفُّ. وَ﴿جَمًّا﴾: الكَثِيرُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ فَهْوَ شَفْعٌ، السَّمَاءُ شَفْعٌ وَالْوَتْرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. وَقَالَ غَيْرُهُ ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا العَرَبُ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ العَذَابِ يَدْخُلُ فِيهِ السَّوْطُ. ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: إِلَيْهِ المَصِيرُ. ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾: تُحَافِظُونَ، وَيَحُضُّونَ يَأْمُرُونَ بِإِطْعَامِهِ. ﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: المُصَدِّقَةُ بِالثَّوَابِ. وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ إِذَا أَرَادَ اللهُ ﷻ قَبْضَهَا ٱطْمَأَنَّتْ إِلَىٰ اللهِ، وَاطْمَأَنَّ اللهُ إِلَيْهَا، وَرَضِيَتْ عَنِ اللهِ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَأَمَرَ بِقَبْضِ رُوحِهَا، وَأَدْخَلَهَا اللهُ الجَنَّةَ، وَجَعَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿جَابُواْ﴾ نَقَبُوا مِنْ جِيبَ القَمِيصُ: قُطِعَ لَهُ جَيْبٌ. يَجُوبُ الفَلَاةَ: يَقْطَعُهَا ﴿لَمًّا﴾ لَمَمْتُهُ أَجْمَعَ أَتَيْتُ عَلَىٰ آخِرِهِ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ [الفَجر: ١]، الفجر: هو أول النهار، وقد أقسم الله ﷻ بالفجر، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

○ قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفَجر: ٢]، قيل: هي عشر ذي الحجة.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ» أي: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفَجر: ٣]: «كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ فَهْوَ شَفْعٌ، السَّمَاءُ شَفْعٌ وَالْوَتْرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»؛ لأن الله تعالى ليس له أحد يشفعه هو واحد سبحانه وتعالى.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفَجر: ٧]»، يعني «القَدِيمَةِ وَالْعِمَادُ: أَهْلُ عَمُودٍ لَا يُقِيمُونَ» إرم: اسم قبيلة، وهي عاد الأولى؛ فهناك عاد الأولى وعاد الثانية، ذات العماد: أي أهل خيام لايستقرون في موطن.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: إرم قبيلة من عاد والعماد كانوا أهل عمود أي خيام، انتهى. وإرم وهو ابن سام بن نوح وعاد هو ابن عوص بن إرم، وقيل: إرم اسم المدينة، وقيل أيضا: إن المراد بالعماد شدة أبدانهم وإفراط طولهم» فيقال: إنهم كانوا طوالًا؛ ولهذا قال الله تعالى عنهم: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحَاقَّة: ٧]، أي: لما أهلكهم الله بالريح كانت الريح ترفع الواحد منهم وتوصله إلى السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتدق عنقه فيبين رأسه من جسده، فصارت أجسامهم كأنها أصول نخل قطعت رؤوسها.

○ قوله: «**وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿جَابُوا﴾** [الفَجر: ٩]: **نقبوا جيب القميص قطع له جيب، يجوب الفلاة يقطعها**» أي: قطعوا الصخر، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحِجر: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفَجر: ١٣]ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية قولين:

القول الأول: «﴿سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾: الذين عذبوا به» وهو قول مجاهد.

القول الثاني: «**وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾: كَلِمَةٌ تَقُولُهَا العَرَبُ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ العَذَابِ يَدْخُلُ فِيهِ السَّوْطُ**».

○ قوله: «**﴿تَحَاضُّونَ﴾**»: «**تُحَافِظُونَ، وَيَحُضُّونَ يَأْمُرُونَ بِإِطْعَامِهِ**» أي: فسر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفَجر: ١٨] يعني: تأمرون بإطعامهم وتحافظون عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩﴾ [الفَجر: ١٩] ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تفسير كلمة ﴿لَمًّا ۝١٩﴾ في موضعين:

الموضع الأول: قوله: «**﴿أَكْلًا لَمًّا ۝١٩﴾ السَّفُّ**» فتسفه سفًا أي: تأخذ الشيء فتدخله فمك.

الموضع الثاني: قوله: «**﴿لَمًّا ۝١٩﴾ لَمَمْتُهُ أَجْمَعَ أَتَيْتُ عَلَىٰ آخِرِهِ**».

○ قوله: «و﴿جَمًّا ٢٠﴾: الكَثِيرُ»، أي: فسر قول الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]، يعني: حبًّا كثيرًا شديدًا.

وذكر المؤلف رحمه الله تفسيرين لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾:

الأول: قوله: «﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾ المُصَدِّقَةُ بِالثَّوَابِ».

الثاني: قوله: «وَقَالَ الحَسَنُ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾ [الفجر: ٢٧]: إِذَا أَرَادَ اللهُ ﷻ قَبْضَهَا ٱطْمَأَنَّتْ إِلَىٰ اللهِ، وَاطْمَأَنَّ اللهُ إِلَيْهَا، وَرَضِيَتْ عَنِ اللهِ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَأَمَرَ بِقَبْضِ رُوحِهَا، وَأَدْخَلَهَا اللهُ الجَنَّةَ، وَجَعَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وإسناد الاطمئنان إلى الله من مجاز المشاكلة والمراد به لازمه من إيصال الخير ونحو ذلك، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن قال: المطمئنة إلى ما قال الله والمصدقة بما قال الله تعالى» والصواب أنه لو ثبت كلام الحسن فإنه لا يكون مجازًا بل يكون حقيقة، وذلك مثل قوله ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**»(١) فهذه محبة حقيقية.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وأما قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧﴾، فقد فسره مجاهد بأنها صفة القبيلة فإنهم كانوا أهل عمود أي خيام، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك قال: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ القوة، ومن طريق ثور بن زيد قال: قرأت كتابًا قديمًا: أنا شداد بن عاد أنا الذي رفعت ذات العماد أنا الذي شددت بذراعي بطن واد. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة قصة مطولة جدًّا، أنه خرج في طلب إبل له وأنه وقع في صحاري عدن، وأنه وقع على مدينة في تلك الفلوات، فذكر عجائب ما رأى فيها، وأن معاوية لما بلغه خبره أحضره إلى دمشق، وسأل كعبًا عن ذلك فأخبره بقصة المدينة ومن بناها وكيفية ذلك مطولًا جدًّا، وفيها ألفاظ منكرة وراويها عبد الله بن قلابة لا يعرف، وفي إسناده عبد الله بن لهيعة».

(١) أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يذكر في الفجر حديثًا مرفوعًا، يدخل فيه حديث ابن مسعود رفعه في قوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفَجر: ٢٣] قال: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[(١)]. أخرجه مسلم والترمذي» ولم يخرجه البخاري؛ لأنه ليس على شرطه.

---

(١) مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي (٢٨٤٢).

٩٠- سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ مَكَّةَ لَيْسَ عَلَيْكَ مَا عَلَى النَّاسِ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ. ﴿وَوَالِدٖ﴾ آدَمَ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾. ﴿لُّبَدًا﴾ كَثِيرًا. وَ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾: الخَيْرُ وَالشَّرُّ. ﴿مَسۡغَبَةٖ﴾: مَجَاعَةٍ ﴿مَتۡرَبَةٖ﴾: السَّاقِطُ فِي التُّرَابِ. يُقَالُ: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١﴾ فَلَمْ يَقْتَحِمِ العَقَبَةَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ فَسَّرَ العَقَبَةَ فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾

الشَّرح

هذه الترجمة في تفسير بعض الكلمات في سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ [البَلَد: ١] ويقال لها: سورة البلد والمراد بها مكة - شرفها الله - بالاتفاق.

○ قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ [البَلَد: ١] لا للتأكيد، والمعنى: أقسم بهذا البلد.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾ [البَلَد: ٢] مَكَّةَ لَيْسَ عَلَيْكَ مَا عَلَى النَّاسِ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ» قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وصله الفريابي من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: يقول: لا تؤاخذ بما عملت فيه وليس عليك فيه ما على الناس. وقد أخرجه الحاكم من طريق منصور عن مجاهد فزاد فيه عن ابن عباس بلفظ: أحل الله له أن يصنع فيه ما شاء، ولابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس: يحل لك تقاتل فيه» والمتبادر في معنى الآية: أن الله سيحل لك القتال في مكة يوم الفتح، وليس عليك ما على الناس فيه من الإثم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن مكة حرمها الله ولم يحلها لأحد من الناس، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**»[(١)].

---

(١) أحمد (٤/ ٣١)، والبخاري (١٨٣٢)، ومسلم (١٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البَلَد: ٣]، فسرها مجاهد بأن الله ﷻ أقسم بآدم وما ولد.

○ وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البَلَد: ٤]، يعني: أقسم الله أن الإنسان خلق في شدة.

○ وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: ١٠]، أي: هديناه طريق الخير والشر.

○ قوله: «﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البَلَد: ١١]: **فَلَمْ يَقْتَحِمِ العَقَبَةَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ فَسَّرَ العَقَبَةَ فَقَالَ**: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾ [البَلَد: ١٢-١٥]» العقبة: النار، والمسغبة: المجاعة، يعني: الذي يقتحم النار هو الذي يتصف بهذه الصفات: يعتق الرقبة أو يطعم في يوم المجاعة يتيمًا قريبًا.

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ [البَلَد: ١٦]، سمي ذا متربة؛ لأنه ساقط في التراب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البَلَد: ١٧]. هذا شرط، فلابد أن يكون مؤمنًا حتى يقبل منه عمل الخير، فلو أعتق رقبة أو أطعم وهو كافر لم ينفعه.

قوله تعالى: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ [البَلَد: ٢٠]، أي: مطبقة مغلقة.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «لم يذكر في سورة البلد حديثًا مرفوعًا، ويدخل فيه حديث البراء قال: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله، علمني عملًا يدخلني الجنة، قال: «**لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة أو فك الرقبة**» قال: أو ليستا بواحدة؟ قال: «**لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها**»(١) أخرجه أحمد وابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن عوسجة عنه، وصححه ابن حبان».

---

(١) أحمد (٤/ ٢٩٩)، وابن حبان (٢/ ٩٨).

٩١- سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ضُحَىٰهَا﴾: ضَوؤُها. ﴿طَحَىٰهَا﴾: دَحَاهَا.

﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾: بِمَعَاصِيهَا. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾: عُقْبَى أَحَدٍ.

بَابٌ

{٤٩٤٢} حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ زَمْعَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾ [الشمس: ١٢] ٱنْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ». وَذَكَرَ النِّسَاءَ فَقَالَ: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ يَجْلِدُ ٱمْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ، فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ». ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ وَقَالَ: «لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟». وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَمْعَةَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ عَمِّ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ».

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشّمس: ١]: ضحاها: ضوؤها، والواو واو القسم، فهذا قسم من الله ﷻ بالشمس وضحاها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشّمس: ٢] يعني تبعها؛ لأنه إذا جاء القمر في الليل والشمس في النهار فالقمر يتلو الشمس؛ لأن الليل يتلو النهار.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦﴾ [الشّمس: ٦] أقسم الله تعالى بالأرض وما طحاها، يعني دحاها.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾ [الشّمس: ٩]، يعني: قد فاز من زكى نفسه وطهرها من المعاصي بالتوحيد والطاعة.

○ قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠]، خاب: خسر، ودساها: أغواها.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ [الشمس: ٨]، أي: عرفها.

قوله تعالى: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨]، أي: الشقاء والسعادة.

○ قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ [الشمس: ١٤]؛ الدمدمة: الهلاك، أي: فأهلكهم الله.

○ قوله: «عُقْبَىٰ أَحَدٍ»، أي فسر مجاهد قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ١٤-١٥] بأن الله أهلك ثمود بالصيحة ولا يخاف عقبى أحد، والمراد أن الله لا يخاف أن يرجع بعد إهلاكها، والضمير في ﴿عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ يعود للدمدمة أو لثمود أو للنفس.

{٤٩٤٢} قوله: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ وَذَكَرَ النَّاقَةَ» يعني: ناقة صالح عليه السلام.

○ قوله ﷺ: «﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾ [الشمس: ١٢]، ٱنْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ» يعني: انبعث لها رجل قوي منيع في قومه عنده من يساعده ويحميه مثل أبي زمعة، وهذا الرجل الذي تولى قتل الناقة هو قدار بن سالف - وقدار على وزن غراب - والباقون تواطؤوا معه فهلكوا جميعًا.

○ قوله: «وَذَكَرَ النِّسَاءَ» يعني: في آخر الحديث.

○ قوله: «فَقَالَ: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ يَجْلِدُ ٱمْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ، فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ» يعني: كيف يجلدها جلد العبد وهو محتاج إليها؟! فليس هذا من مكارم الأخلاق، بل يكون الضرب آخر شيء، فإذا لم ينفع الوعظ والهجر يكون الضرب الخفيف.

وفيه: أن العبد يحتاج من الضرب ومن التأديب ما يجعله يستقيم.

وفيه: الأمر بالإحسان إلى النساء والرفق بهن.

○ قوله: «ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ وَقَالَ: لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟» وفيه: أنه ينبغي للإنسان ألا يضحك من الضرطة وأن يتغاضى ويتغافل عنها كأنه لم يسمع شيئًا؛ لأنه قد لا يتعمد ذلك بل قد يبتلى الإنسان بذلك عند التحرك بدون اختياره.

٩٢- سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: بِالْخَلَفِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ مَاتَ. وَ﴿تَلَظَّىٰ﴾ تَوَهَّجُ وَقَرَأَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ تَتَلَظَّى].

الشَّرح

فسر المؤلف ﵀ بعض الكلمات في سورة الليل، ويقال: سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل: ١] وهذا قسم من الله، حيث أقسم بالليل، وله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل: ٤]، أي: عملكم أيها الناس متفاوت، فمنكم من يعمل الخير ومنكم من يعمل الشر.

○ وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩﴾ [الليل: ٩]، فسرها بقوله: «بِالْخَلَفِ»، يعني: كذب أن الله يخلف عليه إذا أعطى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبإ: ٣٩]. وفسر بعضهم الحسنى: بشهادة أن لا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد.

○ قوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [الليل: ١٤]، يعني: «تَوَهَّجُ»، وقرئت بتاءين: «تتلظى»، قرأها عبيد بن عمير.

○ قوله: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: ١١]. «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ مَاتَ»، يعني: لا ينفعه ماله إذا مات.

بَابٌ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ٢]

{٤٩٤٣} حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: دَخَلْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ الشَّأْمَ فَسَمِعَ بِنَا أَبُو الدَّرْدَاءِ فَأَتَانَا فَقَالَ: أَفِيكُمْ مَنْ يَقْرَأُ؟ فَقُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: فَأَيُّكُمْ أَقْرَأُ؟ فَأَشَارُوا إِلَيَّ فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقَرَأْتُ (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ) [الليل: ١-٣]. قَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَهَا مِنْ فِي صَاحِبِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنَا سَمِعْتُهَا مِنْ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وهٰؤلاء يَأْبَوْنَ عَلَيْنَا.

الشَّرْح

{٤٩٤٣} قوله: «عَلْقَمَةَ» هو أحد أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

○ قوله: «دَخَلْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللهِ»، يعني: من أصحاب عبد الله بن مسعود، فلما دخلوا الشام سمع بهم أبو الدرداء فقال: أفيكم من يقرأ؟ فأشاروا إلى علقمة.

○ قوله: «فَقَرَأْتُ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١-٢] والذكر والأنثى» هذه قراءة ابن مسعود.

○ قوله: «أَنْتَ سَمِعْتَهَا مِنْ فِي صَاحِبِكَ؟» يعني: عبد الله بن مسعود.

بَابٌ قوله:

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ [الليل: ٣]

{٤٩٤٤} حَدَّثَنَا عُمَرُ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: قَدِمَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ عَلَىٰ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَطَلَبَهُمْ فَوَجَدَهُمْ فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَقْرَأُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ؟ قَالَ: كُلُّنَا. قَالَ: فَأَيُّكُمْ يَحْفَظُ؟ وَأَشَارُوا إِلَىٰ عَلْقَمَةَ. قَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل: ١]. قَالَ عَلْقَمَةُ: (وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ) [الليل: ٣]. قَالَ: أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَكَذَا، وهٰؤلاء يُرِيدُونِي عَلَىٰ أَنْ أَقْرَأَ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ [الليل: ٣] والله لَا أُتَابِعُهُمْ.

الشَّرح

{٤٩٤٤} قوله: «قَالَ عَلْقَمَةُ: وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ»، هذه قراءة منسوخة وهي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقد نسخت تلاوة ولم يبلغ النسخ أبا الدرداء، وقد حمل هذه القراءة الكوفيون عن علقمة عن ابن مسعود ولم يقرأ بها أحد منهم، وحملها أهل الشام عن أبي الدرداء ولم يقرأ بها أحد منهم، وهذا يقوي أن التلاوة بها نسخت ولم يبلغه النسخ.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل: ٥]

{٤٩٤٥} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثنا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ ﵁ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

الشَّرْح

{٤٩٤٥} قوله: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ»، أي: هذا الذي قدر وكتب في اللوح المحفوظ.

○ قوله: «فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟»، يعني: أفلا نتكل على الكتاب ونترك العمل، فيكفينا أن كلاً منا سيصير إلى ما كتب له، وهذا فيه دليل على أن هذا الإشكال قديم من عهد الصحابة.

○ قوله: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»، يعني: لما خلق له، وفي اللفظ الآخر: «**أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فسييسرون لعمل أهل الشقاوة**»(١).

ثم قرأ الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠]. فالإنسان يعمل، ولا يتكل على الكتاب، فهو ما يدري عن الكتاب شيء، وهذا من شئون الله ﷻ.

---

(١) أحمد (١/ ٢٩)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

بَابٌ قوله:

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٦]

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ الحَدِيثَ.

الشَّـرْح

قوله: «**فَذَكَرَ الحَدِيثَ**» يعني: الحديث السابق، وقد كرره المؤلف رحمه الله لفائدتين:

الأولى: أنه استدل به على الآية التي ترجم عليها، فالحديث قد يستدل به البخاري في أكثر من ترجمة.

الثانية: أنه ذكر إسنادًا مختلفًا، وهذا يقوي الحديث.

بَابُ

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٧]

{٤٩٤٦} حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ عُودًا يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ الآيَةَ [الليل: ٥-٦]. قَالَ شُعْبَةُ: وَحَدَّثَنِي بِهِ مَنْصُورٌ فَلَمْ أُنْكِرْهُ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ.

الشَّرْح

{٤٩٤٦} قوله: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ»، يعني: كتب في اللوح المحفوظ.

○ قوله: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟»، يعني: أفلا نتكل على الكتاب ونترك العمل، وهذه المسألة فيها إشكال قديم من عهد الصحابة.

○ قوله: «اعْمَلُوا»، أي: اعملوا الصالحات وافعلوا الخيرات «فكل ميسر»، يعني: لما خلق له، وفي اللفظ الآخر: **«أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة»**[١].

وفي الحديث من الفوائد: أن على الإنسان أن يعمل ما يستطيع من الخير، وأن يجتهد في طاعة الله ﷻ، فمن شب على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، ومن مات على الطاعة كان من الفائزين.

(١) أحمد (١/ ٢٩)، والبخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الليل: ٨]

{٤٩٤٧} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

الشَّرح

{٤٩٤٧} هذا الحديث سبق شرحه في الأبواب السابقة.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل: ٩]

{٤٩٤٨} حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً». قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَانَتَّكِلُ، عَلَىٰ كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ. قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ الآيَةَ [الليل: ٥-٦].

الشَّرح

{٤٩٤٨} قوله: «وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ»، يعني: مخلوقة.

وفي هذا الحديث: وجوب العمل كما في الأحاديث السابقة.

بَابٌ

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ١٠]

{٤٩٤٩} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الأَعْمَشِ، قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ عُبَيْدَةَ يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ عَلَىٰ كِتَابِنَا؟ وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾﴾ الآيَةَ [الليل: ٥-٦].

الشَّرح

{٤٩٤٩} كرر المؤلف رحمه الله هذا الحديث في هذه التراجم الست من طرق، لكن هذه الطرق كلها مدارها على سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه، وكان الأصل أن يسوق هذه الطرق بدون تراجم ولكنه قصد أن ينبه على كل جملة من هذه الآيات بخصوصها وأنها موجودة في الحديث.

○ قوله: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ عَلَىٰ كِتَابِنَا؟» يعني: بالكتاب: ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من المقادير.

○ قوله: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» فيه: أنه ينبغي للإنسان أن يعمل ولا يتكل على القدر، فالآية لا يحتج بها على القدر؛ لأن القدر أمره إلى الله عز وجل، والإنسان مأمور ومكلف بأن يعمل ولا ينظر إلى القدر؛ لأنه لا يعلم ما كتب له.

٩٣- سورة وَالضُّحَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِذَا سَجَى﴾ ٱسْتَوىٰ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَظْلَمَ وَسَكَنَ. ﴿عَائِلًا﴾ ذُو عِيَالٍ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ [الضّحىٰ: ١] هذا قسم من الله ﷻ، والله ﷻ يقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لما في ذلك من بديع مخلوقاته، ولما في ذلك من الدلالة على قدرته ووحدانيته، وأنه مستحق للعبادة، فأقسم بالضحى وبالليل وبالسماء وبالطارق وبالعصر وبالنازعات وبالمرسلات وبالذاريات وبالطور.

أما المخلوق فلا يجوز أن يحلف إلا بالله وأسمائه وصفاته، وإذا حلف المخلوق بغير الله فهذا شرك؛ قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[(١)].

○ وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضّحىٰ: ٢] هذا وصف لليل.

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾: ٱسْتَوىٰ. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ أَظْلَمَ وَسَكَنَ» والأقرب أن سجى: استوى، والمراد بقولهم: سكن، أي سكن بالخلق، والليل والنهار آيتان من آيات الله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فُصّلَت: ٣٧]، فأقسم الله ﷻ بهما لما فيهما من الدلالة على قدرته ووحدانيته.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضّحىٰ: ٣] يعني: ما تركك ربك وما أبغضك.

○ وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾ [الضّحىٰ: ٨] فسره المؤلف ﵀ بقوله: «ذُو عِيَالٍ» وقيل: فقيرًا.

---

(١) أحمد (٢/ ٦٩)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥).

بَابُ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۝٣﴾ [الضحى: ٣]

{٤٩٥٠} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا الأَسْوَدُ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: ٱشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، فَجَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ فَقَالَتْ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا. فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣].

الشَّرْح

{٤٩٥٠} قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣] ذكر المؤلف رحمه الله سبب نزول هذه الآيات بقول جندب: «ٱشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَجَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ فَقَالَتْ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا» وهذا من جهل هذه المرأة لكفرها وضلالها، وقيل: إنها أم جميل امرأة أبي لهب، وقيل غير ذلك، والله أعلم بالصواب.

بَابُ قَوْلُهُ:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣]

تُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ.

{٤٩٥١} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جعْفرٍ غُنْدَرٌ، حَدَّثنا شُعْبَةُ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا البَجَلِيَّ: قَالَتِ ٱمْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أُرىٰ صَاحِبَكَ إِلَّا أَبْطَأَكَ. فَنَزَلَتْ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣].

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ [الضحى: ٣] قال المؤلف: «تُقْرَأُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ» يعني: ما ودَعك، وما ودّعك، «بِمَعْنًى وَاحِدٍ، مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ»، «وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: مَا تَرَكَكَ وَمَا أَبْغَضَكَ»، وهناك أقوال أخرى للمفسرين فيها.

{٤٩٥١} قوله: «قَالَتِ ٱمْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أُرىٰ صَاحِبَكَ إِلَّا أَبْطَأَكَ» جاء في اللفظ الآخر الذي قبله: «فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك»؛ ولهذا قيل: إن المرأة في الحديث الثاني هي خديجة، والمرأة في الحديث الأول هي أم جميل امرأة أبي لهب، كما ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «إنه روى عن هشام عن أبيه قالت خديجة: لما ترى من جزعه».

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالذي يظهر أن كلا من أم جميل وخديجة قالت ذلك، لكن أم جميل عبرت لكونها كافرة بلفظ شيطانك، وخديجة عبرت لكونها مؤمنة بلفظ ربك أو صاحبك، وقالت أم جميل شماتة وخديجة توجعًا».

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا السياق يصلح أن يكون خطاب خديجة دون الخطاب الأول، فإنه يصلح أن يكون خطاب حمالة الحطب لتعبيرها

بالشيطان والترك ومخاطبتها بمحمد بخلاف هذه فقالت: صاحبك، وقالت: أبطأ، وقالت: يا رسول الله، وجوز الكرماني أن يكون من تصرف الرواة، وهو موجه؛ لأن مخرج الطريقين واحد، وقوله: «أَبْطَأَكَ»، أي: صيرك بطيئًا في القراءة.

٩٤- سورة ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وِزۡرَكَ﴾ فِي الجَاهِلِيَّةِ. ﴿أَنقَضَ﴾: أَثْقَلَ. ﴿مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: أَيْ مَعَ ذَلِكَ العُسْرِ يُسْرًا آخَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾، وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَٱنصَبۡ﴾ فِي حَاجَتِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ. وَيُذْكَرُ عَنِ ابن عَبَّاسٍ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾: شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ.

الشَّرح

فسر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض معاني الكلمات في سورة ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾ [الشَّرح: ١]، وتسمى سورة الشرح، وقد يسميها البعض بالانشراح.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الشَّرح: ١]: استفهام أتى للتقرير، فيبين امتنان الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيه ﷺ.

- وقوله: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾ [الشَّرح: ٢]. قال مجاهد: «فِي الجَاهِلِيَّةِ».
- وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [الشَّرح: ٣]، أي: الذي أثقل ظهرك.
- وقوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشَّرح: ٤]. هذا من فضله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نبيه ﷺ أن شرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره.

ويذكر عن ابن عباس أنه فسر السورة قال: شرح الله صدره للإسلام، ووضع وزره، فغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﷺ، ورفع ذكره بأن قرن اسمه باسمه في الأذان، وفي الإقامة، وفي الخطب، وفي كلمة التوحيد، والدخول في الإسلام، وهذه منزلة عظيمة.

فكلمة التوحيد لا تصح إلا بشهادة أن محمدًا رسول الله، فمن شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد أن محمدًا رسول الله لا تصح منه، ومن شهد أن محمدًا رسول الله ولم يشهد أن لا إله إلا الله لم تصح منه، ولا يصح الأذان إلا بأن

تقرن شهادة أن لا إله إلا الله بشهادة أن محمدًا رسول الله، وكذلك الإقامة وخطبة الجمعة والمواعظ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشَّرح: ٧] قال مجاهد: «فِي حَاجَتِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ» والنصب معناه التعب، يعني: اتعب في العبادة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ [الشَّرح: ٥] قال قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: أَيْ مَعَ ذَلِكَ العُسْرِ يُسْرًا آخَرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التّوبَة: ٥٢]» وهذا مصير من ابن عيينة إلى اتباع النحاة في قولهم: إن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى، وموقع التشبيه أنه كما ثبت للمؤمنين تعدد الحسنى كذا ثبت لهم تعدد اليسر».

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أو أنه ذهب إلى أن المراد بأحد اليسرين الظفر وبالآخر الثواب، فلابد للمؤمن من أحدهما، قوله: «وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» روي هذا مرفوعًا موصولًا ومرسلًا، وروي أيضًا موقوفًا؛ أما المرفوع فأخرجه ابن مردويه من حديث جابر بإسناد ضعيف، ولفظه: «**أوحي إلي أن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا ولن يغلب عسر يسرين**»، وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه ولن يغلب عسر يسرين، ثم قال: إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا**»[١] وإسناده ضعيف؛ وأخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق الحسن عن النبي ﷺ، وأخرجه عبد بن حميد عن ابن مسعود بإسناد جيد من طريق قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية فقال: «**لن يغلب عسر يسرين إن شاء الله**»[٢]، وأما الموقوف فأخرجه مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أنه كتب إلى أبي عبيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: مهما ينزل بامرئ من شدة يجعل الله له بعدها فرجًا وإنه لن يغلب عسر يسرين، وقال الحاكم: صح ذلك عن عمر وعلي، وهو في «الموطأ»[٣] عن عمر، لكن من

(١) الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٧٠).
(٢) «تفسير الطبري» (٣٠/ ٢٣٦).

طريق منقطع؛ وأخرجه عبد بن حميد عن ابن مسعود بإسناد جيد».

ومعنى منقطع: أن أسلم لم يدرك عمر، لكن أسلم مولى عمر عاش معه، إلا إن أراد طريقًا أخرى، فكيف يكون منقطعًا.

وقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى» يعني: إذا أعيدت النكرة نكرة أخرى كانت غير الأولى، وإذا أعيدت المعرفة معرفة كانت هي الأولى كما في الآية: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشَّرح: ٥-٦] فقوله: ﴿يُسْرًا﴾ أعيدت نكرة مرة أخرى فهي غير الأولى، فكان اليسر الأول غير اليسر الثاني، والعسر أعيد معرفة فكان هو العسر الأول؛ فصح أن يقال: لن يغلب عسر يسرين في الآية.

وكذلك إذا أعيدت المعرفة نكرة كانت غير الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [المُزّمل: ١٥]، فرسولًا أعيدت نكرة فكانت غير الأولى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾، فهذا محمد ﷺ، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥﴾، هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا واضح، أما إذا أعيدت النكرة معرفة فإنها تكون هي الأولى.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويدخل فيها حديث أخرجه الطبري وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد رفعه: «**أتاني جبريل فقال: يقول ربك: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم قال: إذا ذكرت ذكرت معي**»(٤).

---

(٣) «موطأ مالك» (٢/ ٤٤٦).

(٤) ابن جرير (٣٠/ ٢٣٥)، وابن حبان (٨/ ١٧٥).

٩٥- سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ التِّينُ وَالزَّيْتُونُ الذِي يَأْكُلُ النَّاسُ. يُقَالُ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾: فَمَا الذِي يُكَذِّبُكَ بِأَنَّ النَّاسَ يُدَانُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ تَكْذِيبِكَ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

بَابٌ

{٤٩٥٢} حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَدِيٌّ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي سَفَرٍ فَقَرَأَ فِي الْعِشَاءِ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. ﴿تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]: الخَلْقِ.

الشرح

○ قوله: «سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التِّين: ١]» الواو للقسم، فأقسم الله عز وجل بأربعة أشياء: بالتين والزيتون والطور ومكة. قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ التِّينُ وَالزَّيْتُونُ الذِي يَأْكُلُ النَّاسُ»، وروي عن مجاهد أنه قال: الفاكهة التي تأكل الناس.

قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التِّين: ٢]، الطور: الجبل الذي كلم الله عز وجل عليه موسى، وسينين: المباركة، وقد يقال: سينين لغة في سيناء، لكن الحافظ ابن حجر رحمه الله على أنه المبارك.

○ وقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التِّين: ٣]: مكة.

○ وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التِّين: ٤]. قال: التقويم: الخلق، والآية هي المقسم به.

وأورد الحافظ ابن حجر رحمه الله عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ

أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٥-٦]، استثناهم الله ﷻ، قال: الذين قرءوا القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ [التين: ٧] فسره المؤلف قال: «فَمَا الذِي يُكَذِّبُكَ بِأَنَّ النَّاسَ يُدَانُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ تَكْذِيبِكَ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ»، ويدانون بضم الياء والنون، من الدين وهو: الجزاء والحساب، ومنه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]، ومعنى: «يُدَانُونَ بِأَعْمَالِهِمْ»، أي: يحاسبون بأعمالهم، وعلى هذا يكون المخاطب به الرسول ﷺ، وقيل: المراد به الإنسان المذكور.

وروي عن مجاهد: ما الذي جعلك كاذبا؟ لأنك إذا كذبت بالجزاء صرت كاذبًا؛ لأن كل مكذب بالحق فهو كاذب، وهذا ليس بوجيه، والصواب التفسير الأول.

{٤٩٥٢} قوله: «فَقَرَأَ فِي العِشَاءِ فِي إِحْدى الرَّكْعَتَيْنِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ» هذا هو الشاهد أنه قرأ بهذه السورة، وفي لفظ أنه قال: «**فما سمعت صوتًا أحسن منه**»(١).

❁ ❁ ❁

(١) أحمد (٤/ ٢٩٨)، والبخاري (٧٦٩)، ومسلم (٤٦٤).

٩٦- سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ قُتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ عَتِيقٍ، عَنِ الحَسَنِ قَالَ: ٱكْتُبْ فِي المُصْحَفِ فِي أَوَّلِ الإِمَامِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾، وَاجْعَلْ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ خَطًّا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: ١٧]: عَشِيرَتَهُ. ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]: المَلَائِكَةَ. وَقَالَ مَعْمَرٌ: ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]: المَرْجِعُ. ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ [العلق: ١٥] قَالَ: لَنَأْخُذَنْ و﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ [العلق: ١٥] بِالنُّونِ وَهِيَ الخَفِيفَةُ، سَفَعْتُ بِيَدِهِ أَخَذْتُ.

بَابٌ

{٤٩٥٣} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مَرْوَانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ أَبِي رِزْمَةَ، أَخْبَرَنَا أَبُو صَالِحٍ سَلْمَوَيْهِ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابن شِهَابٍ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ -زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ- قَالَتْ كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: ٱقْرَأْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجُهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ: ٱقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجُهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ: ٱقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾ [العلق: ١-٤]». الآيَاتِ إِلَىٰ

قَوْلِهِ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي». فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي». فَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ. قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابن عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ ٱمْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابن عَمِّ، ٱسْمَعْ مِنِ ابن أَخِيكَ. قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابن أَخِي، مَاذَا تَرىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأىٰ. فَقَالَ وَرَقَةُ: هٰذا النَّامُوسُ الذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا -ذَكَرَ حَرْفًا- قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟». قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ، فَتْرَةً حَتَّىٰ حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

{٤٩٥٤} قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ، أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيَّ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْىٰ، قَالَ فِي حَدِيثِهِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي». فَدَثَّرُوهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١-٥]. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَهِيَ الأَوْثَانُ التِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحْيُ.

الشَّرح

○ قوله: «ٱكْتُبْ فِي الْمُصْحَفِ فِي أَوَّلِ الإِمَامِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾»، والإمام يعني: المصحف الذي جمعه عثمان رضي الله عنه، وسماه الإمام لما جمع القرآن، وقال بعضهم: المراد بالإمام أم الكتاب.

○ قوله: «وَاجْعَلْ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ خَطًّا» قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قال صاحب «الكشاف»: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنها أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب؛ كذا قال، والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول، وأما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول».

هذا هو المعتمد أن أول ما نزل سورة اقرأ، كما هو ثابت في الصحيح، وقول صاحب الكشاف ضعيف.

ثم قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «قوله: «قَالَ قُتَيْبَةُ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ عَتِيقٍ، عَنِ الحَسَنِ قَالَ: اكْتُبْ فِي المُصْحَفِ فِي أَوَّلِ الإِمَامِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: ١]، وَاجْعَلْ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ خَطًّا» في رواية أبي ذر عن غير الكشميهني: «حدثنا قتيبة» وقد أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن... وقوله: «فِي أَوَّلِ الإِمَامِ»، أي: أم الكتاب، وقوله: «خَطًّا»، قال الداودي: إن أراد خطًّا فقط بغير بسملة فليس بصواب؛ لاتفاق الصحابة على كتابة البسملة بين كل سورتين إلا براءة، وإن أراد بالإمام أمام كل سورة فيجعل الخط مع البسملة فحسن، فكان ينبغي أن يستثني براءة، وقال الكرماني: معناه اجعل البسملة في أوله فقط واجعل بين كل سورتين علامة للفاصلة وهو مذهب حمزة من القراء السبعة، قلت: المنقول ذلك عن حمزة في القراءة لا في الكتابة، قال: وكأن البخاري أشار إلى أن هذه السورة لما كان أولها مبتدأ بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] أراد أن يبين أنه لا تجب البسملة في أول كل سورة، بل من قرأ البسملة في أول القرآن كفاه في امتثال هذا الأمر، نعم استنبط السهيلي من هذا الأمر ثبوت البسملة في أول الفاتحة؛ لأن هذا الأمر هو أول شيء نزل من القرآن فأولى مواضع امتثاله أول القرآن».

والصواب أن البسملة سنة في أول كل سورة، آية من أول كل سورة، فإذا أراد الإنسان أن يقرأ من أول السورة لابد أن يبسمل، أما إذا قرأ من وسط السورة فإنه يتعوذ، وكذلك في الصلاة يتعوذ ويبسمل في الركعة الأولى، ثم الركعة الثانية يبسمل بدون تعوذ.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧﴾ [العَلق: ١٧]، فسرها مجاهد فقال: «عَشِيرَتَهُ».

○ وقوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾ [العَلق: ١٨]، أي: «المَلائِكَةَ».

○ وقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ٨﴾ [العَلق: ٨]، يعني: المرجع إلى الله ليحاسب الخلائق.

○ قوله: «﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العَلق: ١٥] قَالَ: لَنَأْخُذَنْ و﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العلق: ١٥] بِالنُّونِ وَهْيَ الخَفِيفَةُ، سَفَعْتُ بِيَدِهِ أَخَذْتُ» هذا وعيد له بأنه سيؤخذ ويلقى في النار.

قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥﴾ [العَلق: ١٥]، أي: بناصية أبي جهل.

وهذه الآيات نزلت في أبي جهل في قول جمع من أهل العلم؛ لأنه هو الذي كان ينهى النبي ﷺ.

{٤٩٥٣} قوله: «سَلْمَوَيْهِ»، بفتح الميم ويصح أن تكون مضمومة.

وهذا الحديث فيه أن النبي ﷺ كان أول ما بدئ به الرؤيا الصادقة في النوم، والرؤيا الصادقة نوع من الوحي، وقيل: إن مدتها ستة أشهر من ربيع إلى رمضان، فما كان ﷺ يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح؛ ولهذا ففي الحديث: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[(١)] وفي رواية أخرى: «**من سبعين**»[(٢)] وفي رواية أخرى: «**من خمس وأربعين**»[(٣)] وذلك أن مدة الرسالة ثلاث وعشرون سنة، ومدة الوحي ستة أشهر من أولها، فإذا نسبت ستة أشهر إلى ثلاث وعشرين سنة تكون جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، وهذا تفسير للحديث عند البعض.

ورؤيا الأنبياء وحي؛ قال الله تعالى عن الخليل إبراهيم: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصَّافات: ١٠٢]. ثم قال بعد ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصَّافات: ١٠٥].

---

(١) أحمد (٥/٣١٦)، والبخاري (٦٩٨٩)، ومسلم (٢٢٦٣).
(٢) مسلم (٢٢٦٥).
(٣) مسلم (٢٢٦٣).

○ قولها: «ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ»، والأقرب أنه كان يتعبد على ما توارثه الناس عن دين إبراهيم عليه السلام، كما كان العرب في الجاهلية في مناسك الحج يتعبدون على ما توارثه الناس من دين إبراهيم، وقال بعضهم: على ما توارثه الناس من دين نوح، وقيل غير ذلك، لكن الأقرب الأول.

○ قولها: «وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ»، يعني: يأخذ ما يحتاجه من الطعام والشراب، فإذا انتهت رجع إلى أهله وأخذ مثلها.

○ قولها: «حَتَّىٰ فَجِئَهُ الحَقُّ وَهْوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ»، يعني: جاءه فجأة فنزل عليه جبريل بالوحي وهو في غار حراء.

○ قوله: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، ليس امتناعًا ولا إباءً عن القراءة، ولكنه إخبار بأنه لا يقرأ؛ لأنه أمي ﷺ.

○ قوله: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجُهْدُ» فعل هذا ثلاث مرات، وهذا لأجل أن يستعد ويتحمل أعباء الرسالة من أذى الناس؛ لأنه سيواجه الناس وسيواجه الكفار وأنهم سيواجهونه بما يكره.

وفيه: أن الرسل تبتلى في أول الأمر ويحصل لها الشدائد - كما قال هرقل لأبي سفيان - ليكون ذلك توطئة لما سيتحملونه من القيام به من أعباء الرسالة ومواجهة الناس وتحمل الأذى منهم.

○ قوله: «ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العَلَق: ١]» فيه: تصريح بأن أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾. وفيه: الرد على صاحب «الكشاف» الزمخشري في قوله: إن أول ما نزل الفاتحة.

والزمخشري رئيس فرقة يقال لها: الزمخشرية من المعتزلة، وكتابه «الكشاف» يقول عنه البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش. يعني أشياء خفية، منها أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥]: أيّ فوز أعظم من الجنة؟! وقصده من ذلك إنكار رؤية الله سبحانه في الآخرة؛ لأن الرؤية أعظم نعيم يعطاه أهل الجنة، لكنه اعتزال خفي.

○ قولها: «ترجف بوادره»: هو لحم بارز في الكتف قريب من العنق، ترجف من شدة الخوف؛ وذلك أنه رأى أمرًا عظيمًا، رأى جبريل في الصورة التي خلق عليها، له ستمائة جناح، كل جناح يملأ ما بين السماء والأرض، وقد سدت الأفق، وملأ مد البصر، وهو على كرسي جالس بين السماء والأرض.

وهذه الصورة المرعبة العظيمة لا يتحملها الإنسان؛ ولهذا لما اقترح المشركون وقالوا: لماذا يرسل إلى بشر مثلنا؟ لم لم يرسل إلينا ملائكة؟ فرد عليهم الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعَام: ٩]. فلو كان الرسول من الملائكة لصار رجلًا حتى يمكن للناس أن يخاطبوه وينتفعوا منه، أما على الصورة التي خلق بها فلا يستطيعون أن يخاطبوه ولا أن يقربوه، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعَام: ٨]، يعني: لو كان الرسل من الملائكة لهلك الناس من هول المنظر.

○ قوله ﷺ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، أي: غطوني، «فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ».

○ قولها: «كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لَايُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ» وتَكسب: بفتح التاء أفصح، لما رأى النبي ﷺ الملك على هذه الصورة فزع فزعًا شديدًا، وخاف أن يعرض له عارض سوء، حكى لزوجه خديجة فبينت له خديجة أن الذي يتصف بهذه الصفات لا يمكن أن يخزى ولا يمكن أن يعرض له عارض سوء؛ لأنه يتصف بالمروءة ومكارم الأخلاق.

وهذا فيه: الرد على الأشاعرة الذين يقولون: إن دلائل النبوة خاصة بالمعجزات الحسية.

والصواب أن دلائل النبوة كثيرة؛ منها هذه الأدلة التي استدلت بها خديجة، ومنها الأدلة التي استدل بها هرقل لما سأل أبا سفيان عشرة أسئلة، واستدل بها على أنه نبي وقال: إن كنت صادقًا فهو نبي وسيملك موضع قدمي هاتين.

○ قوله: «ذَكَرَ حَرْفًا»، يعني: قال: ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك.

وهذا فيه: دليل على أن ورقة آمن بالنبي ﷺ وهو صحابي، ويروى أن النبي ﷺ رآه في المنام في الجنة وعليه ثياب خضر[(١)]، وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله ما يدل على هذا.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وتمسك ابن القيم الحنبلي بقوله في الرواية التي في بدء الوحي: «ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ» يرد ما وقع في «السيرة النبوية» لابن إسحاق: أن ورقة كان يمر ببلال والمشركون يعذبونه وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد والله يا بلال، لئن قتلوك لاتخذت قبرك حنانًا، هذا - والله أعلم - وهم؛ لأن ورقة قال: وإن أدركني يومك حيًّا لأنصرنك نصرًا مؤزرًا. فلو كان حيًّا عند ابتداء الدعوة لكان أول من استجاب وقام بنصر النبي ﷺ كقيام عمر وحمزة. قلت: وهذا اعتراض ساقط؛ فإن ورقة إنما أراد بقوله: «وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ»، اليوم الذي يخرجوك فيه؛ لأنه قال ذلك عنه عند قوله: أومخرجي هم؟ وتعذيب بلال كان بعد انتشار الدعوة وبين ذلك وبين إخراج المسلمين من مكة للحبشة ثم للمدينة مدة متطاولة».

وهذا رد قوي من الحافظ ابن حجر رحمه الله، والأقرب قول ابن القيم رحمه الله أنه ما عاش إلى وقت بلال؛ لأن ظاهر الحديث: «ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ»، فقد توفي قريبًا وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فالأقرب أنه لم يدرك بلالًا، وأنه توفي قبل ذلك.

❖ ❖ ❖

{٤٩٥٤} قوله ﷺ: «فَفَرِقْتُ مِنْهُ»، يعني: فخفت.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدَّثر: ٥]، الرجز: هي الأوثان التي كانت تعبد في الجاهلية، أي: اتركها.

وهذا فيه: دليل على أن سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدَّثر: ١] نزلت بعد سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وبعد فترة الوحي.

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/ ٣٣٠).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ٢]

{٤٩٥٥} حَدَّثَنَا ابن بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١-٣].

الشَّرح

{٤٩٥٥} قولها: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ» فيه: دليل على أن أول ما بدئ به الرؤيا الصادقة، وكانت مدتها ستة أشهر من ربيع إلى رمضان.

وفيه: دليل على أن الرؤيا الصادقة من الوحي.

والوحي أنواع:

منها: الرؤيا الصادقة.

ومنها: مجيء الملك يكلمه في صورة إنسان.

ومنها: أنه ينفث جبريل في روعه.

ومنها: أن يكلمه الله ﷻ كما كلم موسى ﵇ والنبي ﷺ من وراء حجاب بدون واسطة، كما حدث في ليلة المعراج.

○ قولها: «فَجَاءَهُ المَلَكُ»، يعني: ملك الوحي جبريل، وكان ذلك في رمضان.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣]

{٤٩٥٦} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ح وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ قَالَ مُحَمَّدٌ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ١-٤].

الشَّرح

{٤٩٥٦} قوله: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ» فيه: دليل على أن أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصادقة.

○ قوله: «جَاءَهُ المَلَكُ»، يعني: جبريل عليه السلام.

بَابٌ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٤]

{٤٩٥٧} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عُرْوَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي». فَذَكَرَ الحَدِيثَ.

الشَّرح

{٤٩٥٧} قوله: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، أي: غطوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

بَابٌ
﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾

[العلق: ١٥-١٦]

{٤٩٥٨} حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ الكَرِيمِ الجَزَرِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ ابن عَبَّاسٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عَلَىٰ عُنُقِهِ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ المَلائِكَةُ».

تَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ عَبْدِ الكَرِيمِ.

الشَّرْح

{٤٩٥٨} هذا الحديث فيه: دليل على أن هذه الآية نزلت في أبي جهل.

○ قوله: «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عَلَىٰ عُنُقِهِ»، فنزلت هذه الآية ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العَلق: ١٥-١٦] فقال النبي ﷺ: «لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ المَلائِكَةُ»، وفي لفظ آخر: «**لأخذته الملائكة عضوًا عضوًا**»(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «هذا مما أرسله ابن عباس؛ لأنه لم يدرك زمن قول أبي جهل ذلك؛ لأن مولده قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين»، لكنه مرسل صحابي.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقد أخرج ابن مردويه بإسناد ضعيف عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت يومًا في المسجد فأقبل أبو جهل فقال: إن لله علي إن رأيت محمدًا ساجدًا... فذكر الحديث، قوله: «لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ المَلائِكَةُ» وقع عند البلاذري: «نزل اثنا عشر

(١) أحمد (٢/ ٣٧٠)، ومسلم (٢٧٩٧).

ملكًا من الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض»، وزاد الإسماعيلي في آخره من طريق معمر عن عبد الكريم الجزري قال ابن عباس: «لو تمنى اليهود الموت لماتوا، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا»، وأخرج النسائي من طريق أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه نحو حديث ابن عباس، وزاد في آخره: «فلم يفجأهم منه إلا وهو - أي أبو جهل - ينكص على عقبيه ويتقي بيده فقيل له: فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة، فقال النبي ﷺ: «**لو دنا لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»[(١)] وإنما شدد الأمر في حق أبي جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبي معيط حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلي كما تقدم شرحه في الطهارة؛ لأنهما وإن اشتركا في مطلق الأذية حالة صلاته لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوى أهل طاعته وبإرادة وطء العنق الشريف، وفي ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل العقوبة لو فعل ذلك؛ ولأن سلى الجزور لم يتحقق نجاستها».

وعلى أية حال فمسألة النجاسة هذه متأخرة.

---

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥١٨)، وهو في «صحيح مسلم» (٢٧٩٧) من هذا الوجه بمثله.

٩٧- [سورة] ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُقَالُ: المَطْلَعُ هُوَ الطُّلُوعُ، وَالْمَطْلِعُ المَوْضِعُ الذِي يُطْلَعُ مِنْهُ. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ الهَاءُ كِنَايَةٌ عَنِ القُرْآنِ أَنْزَلْنَاهُ مَخْرَجَ الجَمِيعِ، وَالْمُنْزِلُ هُوَ اللهُ، وَالْعَرَبُ تُوَكِّدُ فِعْلَ الوَاحِدِ فَتَجْعَلُهُ بِلَفْظِ الجَمِيعِ، لِيَكُونَ أَثْبَتَ وَأَوْكَدَ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [القدر: ١]، قال: «الهَاءُ كِنَايَةٌ عَنِ القُرْآنِ»، يعني: الضمير يعود إلى القرآن، والمعنى: ابتدأ نزوله في رمضان في ليلة القدر.

○ وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [القدر: ١]، قال: «مَخْرَجَ الجَمِيعِ»، يعني: للتعظيم، ولم يقل: إني أنزلته.

○ قوله: «وَالْمُنْزِلُ هُوَ اللهُ»، والله أولى من غيره بالتعظيم؛ لأن كل شيء بيده، والملائكة جنوده وهم لا يعصون الله ما أمرهم.

○ قوله: «وَالْعَرَبُ تُوَكِّدُ فِعْلَ الوَاحِدِ فَتَجْعَلُهُ بِلَفْظِ الجَمِيعِ، لِيَكُونَ أَثْبَتَ وَأَوْكَدَ»، يعني: يجوز للإنسان أن يخبر عن نفسه بصيغة الجمع، أو يأمر بصيغة الجمع إذا لم يكن على وجه الفخر والخيلاء والتعاظم والإعجاب بالنفس، فيقول: نفعل كذا، وكما نجد في المراسيم الملكية والرئاسية مثل: نحن كذا وكذا، فلان بن فلان - بصيغة التعظيم - أمرنا بما هو آت، هو أسلوب عربي معروف.

○ قوله: «المَطْلَعُ هُوَ الطُّلُوعُ، وَالْمَطْلِعُ المَوْضِعُ الذِي يُطْلَعُ مِنْهُ»، يشير إلى قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾ [القدر: ٥].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويدخل فيه حديث: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا**»[(١)] وقد تقدم في الصيام».

(١) أحمد (٢/ ٢٤١)، والبخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).

وقد ورد أن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة، ثم أنزل منجمًا على حسب الحوادث، وهذا ثابت عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وليس فيه حجة للأشاعرة الذين يقولون: إن الله لم يتكلم بحرف وصوت وإنما أخذه جبريل.

٩٨- [سورة] ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مُنفَكِّينَ﴾ زَائِلِينَ. ﴿قَيِّمَةٌ﴾ القَائِمَةُ دِينُ القَيِّمَةِ، أَضَافَ الدِّينَ إِلَى المُؤَنَّثِ.

بَابٌ

{٤٩٥٩} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ سَمِعْتُ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة: ١]». قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَبَكَىٰ.

بَابٌ

{٤٩٦٠} حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ حَسَّانَ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القُرْآنَ». قَالَ أُبَيٌّ: آللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «اللهُ سَمَّاكَ لِي». فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي. قَالَ قَتَادَةُ: فَأُنْبِئْتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البينة: ١].

بَابٌ

{٤٩٦١} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَاوُدَ أَبُو جَعْفَرٍ المُنَادِي، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ القُرْآنَ». قَالَ: آللَّهُ سَمَّانِي لَكَ! قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَقَدْ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ.

الشَّرح

هذه السورة لها ثلاثة أسماء هي: سورة ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ [البَيِّنَة: ١]، ويقال: سورة القيمة، ويقال: سورة البينة.

○ قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ١]. فسر المؤلف ﴿مُنفَكِّينَ﴾ قال: «زَائِلِينَ».

○ قوله: «﴿قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البَيِّنَة: ٣]: القَائِمَةُ».

قوله تعالى: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البَيِّنَة: ٥]، قال: «أَضَافَ الدِّينَ إِلَى المُؤَنَّثِ»، يعني: دين القيمة على تقدير المحذوف، وتقديره: دين الملة القيمة.

{٤٩٥٩} قوله: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البَيِّنَة: ١]»، أي: خصص السورة التي سيقرؤها عليه.

فإنه لما كان أبي أقرأ الصحابة - كما في الحديث الذي رواه النسائي والترمذي وابن ماجه: «**وأقرؤهم أبي بن كعب**»[1] - أمر الله نبيه أن يقرأ عليه القرآن؛ ليكون قدوة لغيره في العناية بالقرآن.

○ قوله: «فَبَكَىٰ» تعظيمًا لله وخشية وخضوعًا ومحبة له.

❖ ❖ ❖

{٤٩٦٠} قوله: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ القُرْآنَ» المراد جنس القرآن، وليس المراد جميعه، وفي الحديث: الأول خصص وقال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾».

❖ ❖ ❖

{٤٩٦١} قوله: «قَالَ: آللَّهُ؟»، يستفهم من النبي ﷺ حتى يتأكد ويتبين هذا الأمر، وهذه منقبة لأبي بن كعب رضي الله عنه أن الله سمَّاه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه القرآن، فيا له من خير عظيم! ساقه الله إلى هذا الصحابي الجليل!

---

(١) أحمد (٣/ ٢٨١)، والترمذي (٣٧٩٠)، وابن ماجه (١٥٥)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٦٧).

٩٩- [سورة] ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُقَالُ: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]: أَوْحَىٰ إِلَيْهَا، وَوَحَىٰ لَهَا وَوَحَىٰ إِلَيْهَا وَاحِدٌ.

بَابُ قَوْلِهِ:
﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧]

{٤٩٦٢} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَىٰ رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الذِي لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ فِي المَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنِوَاءً، فَهِيَ عَلَىٰ ذَلِكَ وِزْرٌ». فَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الحُمُرِ. قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَٰذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

الشَّرح

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: تزلزل وترج من شدة الهول، و﴿زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١] مصدر للتأكيد، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ٢]، أي: ما في بطنها من أموات وكنوز، ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ [الزلزلة: ٣]: أي شيء حصل لها؟! ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٤-٥]: أوحى إليها، وأوحى لها، ووحى لها، ووحى إليها، كلها بمعنى واحد.

{٤٩٦٢} الشاهد قوله: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هٰذِهِ الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزَّلزلة: ٧-٨]» هذا هو شاهد الترجمة.

وهذا الحديث فيه: أن الخيل بالنسبة للناس الذين يستعملونها ويقتنونها ثلاثة أقسام:

الأول: «رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ»، أي: أوقفها للجهاد في سبيل الله، «فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ فِي المَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٍ»؛ طيلها المراد: الحبل الذي يطول للدابة، ويشد به أحد الطرفين في الوتد، فما أصابت في ذلك المرج والروضة وهي مربوطة تأكل أو تشرب كانت له بذلك حسنات، قوله: «وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ»، أي: ألحت في العدو والجري؛ والشرف: أي الشوط، وسمي به لأن العادي به يشرف على ما يتوجه إليه، والآن الذين يلعبون الكرة يسمونها أشواطًا، فلو فعلت ذلك: «كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ» أي: كانت خطواتها وما تخرجه من روث في ميزانه، «ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له»، أي: كيفما تصرفت تكتب له حسنات؛ لأنه ربطها في سبيل الله، والله ﷻ أكرم الأكرمين.

الثاني: «وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا»، أي: استغناء عن الناس، أو يستغني بنتاجها تعففًا عن السؤال؛ حتى لا يسأل الناس، قوله: «وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ» والمراد من عدم نسيان حق الله في رقابها قيل: إنه يؤدي زكاتها، وبه يحتج الإمام أبو حنيفة(١) على زكاة الخيل، ولكن ليس هذا الاستدلال بواضح؛ لاحتمال أن يكون الحق الذي في رقابها شيء آخر غير الزكاة وغير الحمل عليها، وقوله: «وَلَا ظُهُورِهَا»، قيل: بالحمل عليها في سبيل الله، وقيل غير ذلك.

---

(١) انظر: «تبيين الحقائق» (١/ ٢٦٥).

الثالث: «وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِئَاءً وَنِوَاءً»، أي: ربطها من باب الفخر والرياء، ونواءً أي: معاداة لأهل الإسلام؛ «فَهِيَ عَلَىٰ ذَلِكَ وِزْرٌ».

○ قوله: «فَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الحُمُرِ»، جمع حمار، فقال: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هٰذِه الآيَةَ الفَاذَّةَ الجَامِعَةَ» الفاذة: بتشديد الذال أي: المفردة التي لا نظير لها، والجامعة؛ لأنها جامعة لكل أحكام الخير والشر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، أي: فمن يعمل مثقال ذرة من الخير يجد ثوابه، ومن يعمل مثقال ذرة من الشر يجده أمامه يوم القيامة.

وأي شيء يستعمله الإنسان في الخير ينفعه، فالحمار إذا استعمله في الخير وفي الحمل والإحسان إلى الناس نفعه، وإذا استعمله في الشر ضره، وكذلك السيارة يستعملها في الخير وفي الدعوة إلى الله وفي حمل الأمتعة وحمل النفقات للمحتاجين صار ذلك خيرًا، وإذا استعملها في الشر وفي الإيذاء صار ذلك إثمًا عليه.

بَابُ قوله:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

[الزلزلة: ٨]

{٤٩٦٣} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي ابن وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الحُمُرِ فَقَالَ: «لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هٰذِه الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]».

الشَّرح

{٤٩٦٣} قوله: «لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هٰذِه الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ» الفاذة: بتشديد الذال، أي: المفردة التي لا نظير ولا مثيل لها، والجامعة؛ لأنها جامعة لكل أحكام الخير والشر، وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٨]، أي: أن الحساب دقيق، وأن الميزان يوم القيامة يزن كل شيء، فمن يعمل مثقال ذرة من الخير يجد ثوابه، ومن يعمل مثقال ذرة من الشر يجده أمامه يوم القيامة.

١٠٠- [سورة] ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الكَنُودُ: الكَفُورُ، يُقَالُ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾: رَفَعْنَ بِهِ غُبَارًا. ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾: مِنْ أَجْلِ حُبِّ الخَيْرِ. ﴿لَشَدِيدٌ﴾: لَبَخِيلٌ وَيُقَالُ: لِلْبَخِيلِ: شَدِيدٌ ﴿وَحُصِّلَ﴾: مُيِّزَ.

(١٠١) [سورة] ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ كَغَوْغَاءِ الجَرَادِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَذَلِكَ النَّاسُ يَجُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ. ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ كَأَلْوَانِ العِهْنِ. وَقَرَأَ عَبْدُ اللهِ (كَالصُّوفِ).

الشرح

سورة العاديات والقارعة هذه ذكرها بعد تلك، وفي بعض النسخ يقول: والعاديات والقارعة.

والمراد بالعاديات الخيل، وسميت بالعاديات؛ لأنها تعدو، وقد أقسم الله بها فقال: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ [العَاديَات: ١-٥]: فكل هذه من أوصاف الخيل، فالموريات إذا مشت ضربت بأرجلها الحجارة، والمغيرات: أي تغير على العدو صباحًا، فيثرن الغبار بالغارة، فتصبح القوم جميعا، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العَاديَات: ٦]. هذا هو المقسم به، «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الكَنُودُ: الكَفُورُ»، يعني: جنس الإنسان، ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العَاديَات: ٧-٨]، إلا من هداه الله فيخرج عن هذا الوصف.

○ قوله: «﴿لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العَاديَات: ٨] لَبَخِيلٌ وَيُقَالُ: لِلْبَخِيلِ: شَدِيدٌ»، أي: أن حب الإنسان للخير جعله بخيلًا.

والقارعة: من أسماء يوم القيامة، فخم الله شأنها، وسميت القارعة؛ لأنها تقرع القلوب بأهوالها.

○ قوله: «﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤]: **كَغَوْغَاءِ الجَرَادِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَذَلِكَ النَّاسُ يَجُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ**»، كما قال الله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧﴾ [القمر: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]، أي: كالصوف المنتوف من شدة الهول.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أبو عبيدة: الفراش طير لا ذباب ولا بعوض، والمبثوث المتفرق، وحمل الفراش على حقيقته أولى، والعرب تشبه بالفراش كثيرًا كقول جرير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه ... مثل الفراش غشين نار المصطلي

وصفهم بالحرص والتهافت، وفي تشبيه الناس يوم البعث بالفراش مناسبات كثيرة بليغة كالطيش والانتشار والكثرة والضعف والذلة والمجيء بغير رجوع والقصد إلى الداعي والإسراع وركوب بعضهم بعضًا والتطاير إلى النار» اهـ.

١٠٢- [سورة] ﴿أَلْهَاكُمُ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿التَّكَاثُرُ﴾ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ].

الشَّرْح

سورة ألهاكم وتسمى سورة التكاثر، وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن أبي حاتم قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمونها المقبرة.

فقوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر: ١]، أي: شغلكم الأموال والأولاد والمباهاة، بالعمارات والسيارات والمؤسسات، قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر: ٢]، أي: حتى متم ودفنتم في المقابر، قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ٣-٨]. فيه: دليل على أن إقامة الإنسان في القبر مؤقتة وليس هو المثوى الأخير كما يقول بعض الناس: ذهب إلى مثواه الأخير، وهذا خطأ، وقد يكون ظاهره الكفر، فالله سماه زيارة، والزائر يرحل لا يبقى، فهي زيارة مؤقتة إلى يوم الحساب، ثم يبعث الناس ويقومون بين يدي الله، والمثوى الأخير إما في الجنة أو في النار، ولو صدرت هذه الكلمة من أحد يعتقد معناها كفر؛ لأنه أنكر البعث وأنكر الجزاء والحساب وأنكر الجنة والنار، لكن من يقولها عن جهل وهو لا ينكر البعث يبين له.

١٠٣- [سورة] ﴿وَٱلْعَصۡرِ ۝١﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ يَحْيَى: العَصْرُ: الدَّهْرُ أَقْسَمَ بِهِ].

الشَّرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «العَصْرُ: الدَّهْرُ أَقْسَمَ بِهِ»، والمعنى: أن العصر هو الزمان، وهذا هو الأرجح من أقوال أهل العلم، أقسم الله به؛ لأنه محل الأعمال، فالإنسان حين يعمل أعمالًا صالحة أو طالحة، يكون الزمان ظرفًا لها.

والله تعالى له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله وأسمائه وصفاته.

والمقسم به قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العَصر: ٢]، والمراد بالإنسان الجنس، والمعنى: أن جنس الإنسان في خسارة وهلاك، ثم استثنى الله الرابحين الذين اتصفوا بالصفات الأربعة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العَصر: ٣]. فالذين آمنوا يعني: الذين آمنوا عن علم وبصيرة؛ لأن الإيمان مبني على العلم، فوحدوا الله وأخلصوا له العبادة، ثم عملوا الصالحات؛ وهي: أداء الواجبات وترك المحارم، ثم دعوا إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وإلى العمل الصالح الذي وفقوا له، ثم تواصوا بالصبر.

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فالداعية يصبر على طاعة الله، ويصبر عن معاصي الله؛ حتى لا يفعل ما يغضب الله، ويصبر على ما يصيبه من الأذى مما قدره الله.

ولم يذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديثًا في هذه السورة، وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يدخل فيه حديث ابن عمر: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**»[1]،

---

(١) أحمد (٢/٨)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).

وكذلك أيضًا فات على الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ حديث بريدة بن الحصيب: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»[١] والحديثان على شرطه؛ فهما في البخاري.

(١) أحمد (٢/ ٢٧)، والبخاري (٥٥٣).

١٠٤- [سورة] ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحُطَمَةُ﴾: ٱسْمُ النَّارِ، مِثْلُ سَقَرَ وَلَظَىٰ.

١٠٥- سورة ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَبَابِيلَ﴾: مُتَتَابِعَةً مُجْتَمِعَةً. وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ هِيَ سَنْكِ وَكِلْ.

الشَّرْح

سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهُمَزة: ١] تسمى سورة الحطمة، ويقال لها أيضًا سورة الهمزة، والويل: هو شدة العذاب والهلاك، والهمزة: كثير الهمز، واللمزة: كثير اللمز.

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله حديث ابن عباس أنه سئل عن الهمزة فقال: المشاء بالنميمة، الذي يفرِّق بين الإخوان.

والظاهر أن الهمزة اللمزة يحتمل أنه الكافر الذي جمع مالًا وعدده ولم يؤمن بالله، فهو مخلد في النار وإن كان عاصيًا فهو متوعد بالنار، وليطرحن فيها.

قال أبو عبيدة: يقال للرجل الأكول: حطمة، أي: كثير الحطم.

وسورة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ويقال لها: سورة الفيل، «**وقال مجاهد: ألم تر: ألم تعلم**»، أي: أن المراد بالرؤية العلم، والرؤية تأتي بمعنى العلم، وتأتي بمعنى الرؤية البصرية، وتأتي بمعنى الحلم؛ فمجيئها بمعنى رؤية البصر كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ومجيئها بمعنى العلم كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ①﴾ [الفيل: ١]، يعني: ألم تعلم، وأصحاب الفيل هم الذين غزوا الكعبة بقيادة أبرهة ملك الحبشة - وكان

معهم فيل عظيم - لهدمها فأهلكهم الله، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: ٣]، أي: متتابعة مجتمعة.

○ قوله: «**وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ [الفيل: ٤]: هِيَ سَنْكِ وَكِلْ**» المراد ترجمتها إلى العربية، وترجمتها: طين وحجارة، قال ابن عباس: ترميهم بحجارة معها نار، فإذا أصابت أحدهم خرج به الجدري.

وجاء عن بعضهم في تفسير كيفية إهلاكهم أنهم أهلكوا بحجارة صغيرة مطبوخة بالنار، وأن هذا الطير تأخذ الحجر فترمي الواحد منهم فيدخل في وسط رأسه حتى يخرج من دبره فيتفتت جسمه ويتمزق - والعياذ بالله - فيصير كعصف - أي كالتبن أو الحشيش - مأكول؛ أي الذي أكلته الدواب وداسته - نسأل الله السلامة - وهذا الحجر لا يخطئ واحدًا منهم.

والأبابيل ليس له واحد من لفظه كما قال الفراء، وقيل: واحدها أبالة بالتخفيف، وقيل: أبّالة، وقيل: أبول وأبابيل كعجول وعجاجيل.

١٠٦- [سورة] ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ أَلِفُوا ذَلِكَ، فَلَايَشُقُّ عَلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. ﴿وَءَامَنَهُم﴾ مِنْ كُلِّ عَدُوِّهِمْ فِي حَرَمِهِمْ. قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ لِنِعْمَتِي عَلَىٰ قُرَيْشٍ.

الشَّرح

هذه سورة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قُريش: ١]. واللام متعلقة بالقصة التي في السورة قبلها، والمعنى: أهلك الله أصحاب الفيل لإيلاف قريش، ويؤيد ذلك أنهما في مصحف أبي بن كعب سورة واحدة، وقيل: متعلقة بشيء مقدر، أي: أعجب أو أعجب لنعمتي على قريش، فيكون المعنى كما قال: مجاهد وابن عيينة.

قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم﴾ [قُرَيش: ٤] أي: أن الله تعالى امتن على قريش بذلك وأمرهم بعبادة الخالق فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ [قُرَيش: ٣]: والمراد بالبيت: الكعبة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما سورة الهمزة ففي «صحيح ابن حبان» من حديث جابر أن النبي ﷺ قرأ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهُمَزة: ٣]، يعني: بفتح السين، وأما سورة الفيل ففيها من حديث المسور الطويل في صلح الحديبية قوله: «**حبسها حابس الفيل**»[(١)]. وقد تقدم شرحه مستوفىً في الشروط، وفيها حديث ابن عباس مرفوعًا: «**إن الله حبس عن مكة الفيل ...**»[(٢)] الحديث؛ وأما هذه السورة فلم أر فيها حديثًا مرفوعًا صحيحًا».

---

(١) أحمد (٤/ ٣٢٣)، والبخاري (٢٧٣٤).
(٢) أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥).

❍ قوله: «قَالَ ابن عُيَيْنَةَ: ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ [قُرَيش: ١]: لِنِعْمَتِي عَلَىٰ قُرَيْشٍ» فالله تعالى امتن عليهم وأنعم عليهم، ويحتمل أن المراد بنعمتي نعمتيَّ بالتثنية؛ النعمة الأولى بإهلاك أصحاب الفيل، والنعمة الثانية رحلة الشتاء والصيف، وهو محتمل وليس ببعيد.

١٠٧- [سورة]
﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: (يَدُعُّ): يَدْفَعُ عَنْ حَقِّهِ، يُقَالُ: هُوَ مِنْ دَعَعْتُ. (يُدَعُّون): يُدْفَعُونَ. ﴿سَاهُونَ﴾: لَاهُونَ. وَ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: الـمَعْرُوف كُلُّهُ. وَقَالَ بَعْضُ العَرَبِ: المَاعُونُ: المَاءُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ أَعْلاَهَا الزَّكَاةُ المَفْرُوضَةُ، وَأَدْنَاهَا عَارِيَّةُ المَتَاعِ.

الشَّرْح

○ قوله: «سورة: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ [المَاعون: ١]»، ويقال لها: وسورة الماعون أيضًا، وقرأ ابن مسعود: (أرأيتك الذي يكذب)، بزيادة كاف، فتكون الكاف صلة مؤكدة، قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [المَاعون: ١]: الهمزة للاستفهام.

فالله تعالى يخبر نبيه ﷺ عن حالة هذا الإنسان الذي يكذب بالدين وهو كافر، ومن أوصافه أنه يدع اليتيم، ولا يحض نفسه ولا غيره على طعام المسكين.

وفيه: التحذير من هذا الوصف، فالواجب الرحمة باليتيم وإعطاؤه حقه، والواجب الحض على طعام المسكين والحث في العطف على المساكين والأرامل.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [المَاعون: ٤]، والويل: شدة العذاب والهلاك، ثم وصف المصلين قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [المَاعون: ٥]: فليس الويل لكل مصل، بل المصلي الموصوف بهذا الوصف، والمراد بالسهو هنا أنهم يسهون عنها فيؤخرونها عن وقتها أو يتركون بعض واجباتها، ومن أوصافهم أيضًا أنهم يراؤون الناس بأعمالهم ويمنعون الماعون.

❍ قوله: «وَ﴿ٱلۡمَاعُونَ﴾: **المَعْرُوفَ كُلُّهُ**» وقيل: الماعون: الماء خاصة، والصواب أن الماعون المعروف كله، فيشمل مثلًا إعارة الدلو، وإعارة السكين، وإعارة الإناء، وإعارة الفأس، وإعارة الكتاب إذا لم يكن يخشى عليه الضياع وكان الإنسان ثقة، فإذا طلب من أحد شيئًا يستطيعه ولا يضره أن يعيره فمنعه كان هذا من منع الماعون.

١٠٨- [سورة]
﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: ﴿شَانِئَكَ﴾: عَدُوَّك.

بَابٌ

{٤٩٦٤} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: «أَتَيْتُ عَلَىٰ نَهرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا فَقُلْتُ: مَا هٰذا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هٰذا الكَوْثَرُ».

{٤٩٦٥} حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ الكَاهِلِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَ: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] قَالَتْ: نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ. رَوَاهُ زَكَرِيَّاءُ وَأَبُو الأَحْوصِ وَمُطَرِّفٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ.

{٤٩٦٦} حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ فِي الكَوْثَرِ: هُوَ الخَيْرُ الذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. قَالَ أَبُو بِشْرٍ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الجَنَّةِ. فَقَالَ سَعِيدٌ: النَّهَرُ الذِي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخَيْرِ الذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكَوثَر: ١]. هذا من امتنان الله على نبيه ﷺ، فامتن الله على نبيه بأن أعطاه الكوثر، والكوثر نهر في الجنة، على وزن فوعل من الكثرة، ويقال بأنه الخير الكثير، ولا منافاة، فالخير الكثير أعم ويشمل النهر وغيره، وسمي به النهر الذي في الجنة لكثرة مائه وعظم قدره وخيره، وجاء

وصفه في الأحاديث، فحوض النبي ﷺ الذي يصب فيه من نهر الكوثر له ميزابان طوله مسافة شهر، وعرضه مسافة شهر، وآنيته عدد نجوم السماء، وماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج وأطيب ريحا من المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا(١).

وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: «إنا أنطيناك» بدل العين نون، وهذا معروف في اللغة، ففي شمال المملكة يقولون: أنطه كذا، أي: أعطه كذا.

{٤٩٦٤} قوله: «أَتَيْتُ عَلَىٰ نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا فَقُلْتُ: مَا هٰذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هٰذَا الكَوْثَرُ» فهذا الكوثر لنبينا ﷺ في الجنة، وكذلك الحوض، ويصب من هذا الكوثر ميزابان على الحوض الذي في موقف القيامة؛ ولذلك يطلق على الحوض الذي في موقف القيامة الكوثر.

❖ ❖ ❖

{٤٩٦٥} قوله: «خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ الكَاهِلِيُّ» من شيوخ البخاري القدامى، قال فيه في التقريب: صدوق. ولكن الأظهر أن حالته أرفع من كونه صدوقًا، بل هو ثقة؛ لأنه قال فيه في التهذيب: وثَّقه ابن معين. فالذي ينبغي أن يقال في مثل هذا: ثقة؛ لأن مراتب التعديل ثقة ثقة، أو ثقة ثبت، ثم ثقة، ثم صدوق، ثم لا بأس به، ثم صدوق له أوهام.

قولها: «نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ» أطلقت الكوثر على الحوض.

❖ ❖ ❖

{٤٩٦٦} قوله: «فَقَالَ سَعِيدٌ: النَّهَرُ الذِي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخَيْرِ الذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ» هذا الذي قاله سعيد صحيح؛ فإنه تفقه حسن، ويحتمل أنه سمعه من ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) أحمد (٣/ ٣٨٤)، ومسلم (٢٣٠٠).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحاصل ما قاله سعيد بن جبير أن قول ابن عباس: «إنه الخير الكثير» لا يخالف قول غيره: إن المراد به نهر في الجنة؛ لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير، ولعل سعيدًا أومأ إلى أن تأويل ابن عباس أولى لعمومه، لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ فلا معدل عنه، وقد نقل المفسرون في الكوثر أقوالًا أخرى غير هذين تزيد على العشرة؛ منها: قول عكرمة: الكوثر النبوة، وقول الحسن: الكوثر القرآن، وقيل: تفسيره، وقيل: الإسلام، وقيل: إنه التوحيد، وقيل: كثرة الأتباع، وقيل: الإيثار، وقيل: رفعة الذكر، وقيل: نور القلب، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات، وقيل: إجابة الدعاء، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الصلوات الخمس».

والصواب ما ورد بالنص: أن الكوثر هو النهر الذي أعطيه نبينا ﷺ، والقول بأنه الخير الكثير لا يمنع؛ لأن الخير الكثير أعم.

١٠٩- سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُقَالُ: ﴿لكُم دِينُكم﴾: الكُفْرُ. ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ الإِسْلاَمُ وَلَمْ يَقُلْ: دِينِي، لأَنَّ الآيَاتِ بِالنُّونِ فَحُذِفَتِ اليَاءُ كَمَا قَالَ: ﴿يَهْدِينِ﴾ وَ﴿يَشْفِينِ﴾. وَقَالَ غَيْرُهُ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾. الآنَ، وَلاَأُجِيبُكُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي. ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③﴾. وَهُمُ الذِينَ قَالَ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

الشَّرح

سورة الكافرون، ويقال لها أيضًا: المقشقشة؛ لأنها مبرئة من النفاق؛ لأنها فيها إخلاص التوحيد لله؛ ولهذا تسمى هذه السورة مع سورة الصمد سورتا الإخلاص؛ لأن هذه أخلصت التوحيد لله، والصمد أخلصت الصفات لله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ [الكافِرون: ١]، أي: قل يامحمد، والكافرون يشمل كل كافر، وإن كان المخاطب كفار قريش، فيشمل اليهود والنصارى والوثنيين، قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ [الكافِرون: ٢]، أي: لا أعبد ما تعبدون الآن، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③﴾ [الكافِرون: ٣]، يعني: ولا أجيبكم فيما بقي من عمري.

○ قوله: «وَلَمْ يَقُلْ: دِينِي، لأَنَّ الآيَاتِ بِالنُّونِ فَحُذِفَتِ اليَاءُ كَمَا قَالَ: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ⑦⑧﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٨] و﴿يَشْفِينِ ⑧⓪﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠]»، ولم يذكر الياء مراعاة لفواصل الآيات.

وجاء في سبب نزول هذه الآيات أن المشركين قالوا: كف عن آلهتنا فلا تمسها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، ويكون هذا صلح بيننا وبينك؛ فنزلت هذه السورة(١).

(١) الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣١).

ولم يذكر المؤلف حديثًا، ويدخل فيه حديث مسلم عن جابر أن النبي ﷺ كان يقرأ في ركعتي الطواف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: ١] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١][1].

(١) مسلم (١٢١٨).

١١٠- [سورة]
﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بَابٌ

{٤٩٦٧} حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَصِ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلاَةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي».

بَابٌ

{٤٩٦٨} حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي». يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ.

الشَّرْح

{٤٩٦٧}، {٤٩٦٨} هذا الحديث رواه المؤلف عن عائشة من طريقين، الطريق الأولى قال فيها: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ»، وفي الطريق الثانية كان يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ»، وفي هذا الحديث مشروعية هذا الذكر في الركوع والسجود.

وفيه: أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من هذا الذكر إذا تقدمت به السن؛ لأن هذا الذكر فضله عظيم ومؤنته قليلة، فينبغي الإكثار منه في كل وقت ولا سيما في آخر عمر الإنسان؛ لأن الله تعالى أمر النبي ﷺ أن يأتي بهذا الذكر في آخر حياته حينما فتحت مكة.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النّصر: ١]، أي: فتح مكة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النّصر: ٢]، أي: جماعات جماعات، فأكْثِر من التسبيح والذكر، واستعد للقائنا، فإن مهمتك قد انتهت من الدنيا.

وقول عائشة ﵂: «**يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ**»، أي: يفسِّر القرآن ويعمل به، لما قال الله له: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النّصر: ٣]. فتأويل فسبح: العمل به، وتأويل الأمر الامتثال للأمر، وتأويل الخبر: وقوع الخبر؛ لقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٥٣﴾ [الأعراف: ٥٣] وتأويله: وقوعه يوم القيامة، كما قال الله ﷻ عن يوسف لما رأى الرؤيا: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يُوسُف: ٤]، ولما وقع تأويل الرؤيا بعد ثلاثين سنة أو أربعين سنة عندما سجد له أبواه وإخوته قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يُوسُف: ١٠٠]. وتأويلها: وقوعها، فقول عائشة في الحديث من التأويل بمعنى الحقيقة، وإلا فالتأويل له ثلاثة معان كما هو معلوم:

الأول: التأويل بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام.

الثاني: التأويل بمعنى التفسير.

الثالث: التأويل بمعنى صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح بدليل يقترن به.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وقال ابن القيم في «الهدي»: كأنه أخذه من قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النّصر: ٣]؛ لأنه كان يجعل الاستغفار في خواتم الأمور؛ فيقول إذا سلم من الصلاة: «**أستغفر الله، ثلاثًا**»[(١)]، وإذا خرج من الخلاء قال: «**غفرانك**»[(٢)]، وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ

(١) أحمد (٥/ ٢٧٩)، ومسلم (٥٩١).
(٢) أحمد (٦/ ١٥٥)، وأبو داود (٣٠)، الترمذي (٧)، وابن ماجه (٣٠٠).

حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٩] الآية. قلت: ويؤخذ أيضًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النّصر: ٣]. فقد كان يقول عند انقضاء الوضوء: «**اللهم اجعلني من التوابين**»[١].

(١) الترمذي (٥٥).

بَابٌ

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ٢]

{٤٩٦٩} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ، أَنَّ عُمَرَ ﵁ سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] قَالُوا: فَتْحُ المَدَائِنِ وَالْقُصُورِ. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا ابن عَبَّاسٍ؟ قَالَ: أَجَلٌ، أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ.

الشَّرْح

{٤٩٦٩} قوله: «مَا تَقُولُ يَا ابن عَبَّاسٍ؟ قَالَ: أَجَلٌ، أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ» هذا من التأويل الذي علمه الله تعالى لابن عباس تحقيقًا لدعوة نبيه ﷺ: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»(١)، فإنه لما حصل عند بعض الصحابة شيء في نفوسهم من دخول ابن عباس معهم وهو لا يزال في سن مبكرة، أراد عمر أن يبين لهم أن ابن عباس ﵄ وإن كان صغيرًا إلا أن الله أعطاه الفهم فسألهم عمر فلم يعرف الكبار من الصحابة وعرف ابن عباس.

وقد ذكر الشارح من فضيلة ابن عباس ﵄ فقال: «فيه فضيلة ظاهرة لابن عباس، وتأثير إجابة في دعوة النبي ﷺ أن يعلمه التأويل ويفقهه في الدين.

وفيه: جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا لإظهار نعمة الله عليه وإعلام من لا يعرف قدره. وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم؛ ولهذا قال علي ﵁: أو فهمًا يؤتيه الله رجلًا في القرآن».

(١) أحمد (١/ ٢٦٦)، وهو عند البخاري (١٤٣)، ومسلم (٨٦٩) بشطره الأول.

بَابٌ

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾

[النصر: ٣]

تَوَّابٌ عَلَى العِبَادِ، وَالتَّوَّابُ مِنَ النَّاسِ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ.

{٤٩٧٠} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هٰذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ. فَدَعَا ذَاتَ يَوْمٍ -فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ- فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ. قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ [النصر: ١] فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابن عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]. فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ.

الشَّرْح

○ قوله: «تَوَّابٌ عَلَى العِبَادِ، وَالتَّوَّابُ مِنَ النَّاسِ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ» مقصود المؤلف أن كلمة: «تَوَّابٌ» مشتركة، فهي تطلق على الله بمعنى التواب على العباد، وتطلق على العبد بمعنى كثير التوبة من الذنب.

{٤٩٧٠} قوله: «فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا» ما قاله هؤلاء الأشياخ من الحمد والاستغفار عند النصر والفتح صحيح، لكن ما قاله ابن عباس وعمر من أنها علامة أجل النبي ﷺ فهم خاص، وهو من الفهم الذي يعطيه الله ﷻ من يشاء في القرآن، وفي هذه القصة فضل عمر رضي الله عنه

وتواضعه في جمعه الصحابة ﵃ ومشاورتهم وعدم استبداده بالرأي دونهم، فكان ﵁ إذا حصلت له مسألة يجمع أهل بدر ويتوقف ولا يقدم، وقد نجد الآن كثيرًا من الشباب الصغار يسأل عن المسألة التي لو عرضت على عمر لجمع لها أشياخ بدر، ثم يجيب في الحال كما يقول العلماء: يقدها ولا يبالي، وهذا يدل على ضعف الإيمان وقلة الديانة، وضعف العلم والبصيرة، فيجب على الإنسان ألا يقدم على الفتوى إلا بعد تروٍّ وبصيرة، ويتوقف ويمهل ويحيل على غيره.

١١١- [سورة] ﴿تَبَّتْ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَتَبَّ تَبَابٌ خُسْرَانٌ. تَتْبِيبٌ تَدْمِيرٌ.

بَابٌ

{٤٩٧١} حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ». فَقَالُوا: مَنْ هٰذا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ. فَقَالَ: «أَرَأَيْتُم إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هٰذا الجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟». قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهٰذا؟! ثُمَّ قَامَ. فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١] وَقَدْ تَبَّ، هَكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ.

الشَّرْح

○ قوله: «تَبَابٌ: خُسْرَانٌ، تَتْبِيبٌ: تَدْمِيرٌ»؛ كما قال الله تعالى في سورة هود، وقرأ الأعمش: «تبت يدا أبي لهب وتب، وقد تب».

{٤٩٧١} قوله: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ»، هذه قراءة كانت في نسخة، وقيل: إنها قراءة شاذة، والأقربين، أي: المخلصين.

وأبو لهب هو ابن عبد المطلب، واسمه عبد العزى كما ذكر الحافظ ابن حجر ﵀، وأمه خزاعية، وكني بأبي لهب إما بابنه؛ لأنه أبو لهب، وإما لشدة حمرة وجنتيه، كما ذكر الفاكهي، قال: إنما سمي أبا لهب لأن وجهه كان يتلهب من حسنه وجماله، ووافق ذلك ما آل إليه أمره من كونه يدخل نارًا ذات

لهب، وذكر في القرآن بكنيته دون اسمه؛ فلم يقل: تبت يدا عبد العزى؛ لأمرين:

الأمرالأول: لكونه اشتهر بهذه الكنية.

الأمرالثاني: لأن في اسمه إضافة إلى الصنم.

وأبو لهب من أعمام النبي ﷺ وهو ممن اشتدت عداوته للنبي ﷺ، وقد ذكر الواقدي أنه أظهر العداوة من قديم؛ لأنه كان حصل بينه وبين أخيه أبي طالب شيء فقعد على صدره فأزاله النبي ﷺ فقال: أنا عمك وهذا عمك، فحصل في نفسه شيء، والواقدي ضعيف في أخباره.

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المَسَد: ١-٢]

{٤٩٧٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلاَمٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى البَطْحَاءِ فَصَعِدَ إِلَى الجَبَلِ فَنَادىٰ: «يَا صَبَاحَاهْ». فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ أَوْ مُمَسِّيكُمْ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا تَبًّا لَكَ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] إِلَىٰ آخِرِهَا.

الشَّرْح

{٤٩٧٢} هذا الحديث فيه: ابتلاء النبي ﷺ بأبي لهب، وهو من أقرب الناس إليه، وهذا من الابتلاء والامتحان، ولا شك أن هذا مصيبة على الداعية أن يكون أحد أقاربه عدوًا له ينفر الناس عنه.

وفيه: تحقيق لقول النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه**»[(١)] وهذا الحديث يدل على أن المجتمع سيئ؛ حيث يقول هذا الفاسق مثل هذا الكلام ولم ينقل أن أحدًا أنكر عليه أو ردَّ عليه، رغم أنهم قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، وكانوا يصدقونه، مما يدل على عظم الأمر وتمكن الجهل والكفر والظلم.

(١) أحمد (١/ ١٧٢)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣).

بَابُ قَوْلِهِ:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: ٣]

{٤٩٧٣} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].

الشَّرح

{٤٩٧٣} قوله: «تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟!»، التب يعني: الخسارة.

بَابُ
﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ٤]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]: تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ. ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ [المسد: ٥] يُقَالُ: مِنْ مَسَدٍ لِيفِ المُقْلِ، وَهْيَ السِّلْسِلَةُ التِي فِي النَّارِ].

الشَّرْح

○ قوله: «وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ [المَسَد: ٤]: تَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» هو أحد القولين، وهو معنًى بعيد، والأقرب القول الآخر: وهو أنها كانت تحمل الشوك والحطب وتضعه في طريق النبي ﷺ، كما ذكر ابن جرير في تفسيره على هذه الآية آثارًا في ذلك.

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: عنقها، ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ [المَسَد: ٥]: فسرها المؤلف قال: «يُقَالُ: مِنْ مَسَدٍ لِيفِ المُقْلِ» والمقل بضم الميم وسكون القاف: شجر يشبه النخل، وهو المسمى بالدوم، قال: «وَهْيَ السِّلْسِلَةُ التِي فِي النَّارِ»، وهو أحد قولين.

○ قوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ [المَسَد: ٤]، بالنصب ذمٌ لها، واسم امرأة أبي لهب - كما ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ - العوراء، وتكنى أم جميل وهي بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان والد معاوية، وقيل: اسمها أروى والعوراء لقب، ويقال: لم تكن عوراء، وإنما قيل ذلك لجمالها.

وذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا يناسب هذا الباب رواه البزار عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾[المَسَد: ١] جاءت امرأة أبي لهب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: لو تنحيت، قال: «**إنه سيحال بيني وبينها**»، فقالت: يا أبا بكر هجاني صاحبك: قال: لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر

ولا يفوه به، قالت: إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر: ما رأتك، قال: «**ما زال ملك يسترني حتى ولت**»[١].

وجاء في بعض الروايات أنها أخذت حجرًا لترمي به النبي ﷺ فأعماها الله فلم تر النبي ﷺ» وذكر أبو عبيدة قال: في عنقها حبل من نار، والمسد عند العرب حبال من ضروب؛ أي أنواع.

(١) «مسند البزار» (١/ ٦٨).

١١٢- سُورةُ الإخلاص

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يُقَالُ: لَايُنَوَّنُ أَحَدٌ، أَيْ: وَاحِدٌ.

الشَّرْح

○ قوله: «سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]» ويقال لها أيضًا: سورة الإخلاص؛ لأنها تخلصت لصفات الله ﷻ، كما أن سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافِرون: ١] تسمى سورة الإخلاص؛ لأنها أخلصت التوحيد لله ﷻ، فيقال للسورتين: سورتا الإخلاص، وكان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وفي ركعتي الطواف وفي ركعتي المغرب وفي الوتر.

وجاء في سبب نزولها أن المشركين قالوا: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة، وفي آخره قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا يورث، وربنا سبحانه لا يموت ولا يورث.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، أي: لا شبه ولا عدل.

والأحد من أسماء الله، فيقال عبد الأحد، وهو بمعنى الواحد.

بَابٌ

{٤٩٧٤} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، حَدَّثَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ كَذَّبَنِي ابن آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: ٱتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْأً أَحَدٌ».

بَابٌ قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]

وَالْعَرَبُ تُسَمِّي أَشْرَافَهَا الصَّمَدَ. قَالَ أَبُو وَائِلٍ: هُوَ السَّيِّدُ الذِي ٱنْتَهَىٰ سُودَدُهُ.

{٤٩٧٥} حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابن آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: ٱتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ». ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤]: كُفُؤًا وَكَفِيئًا وَكِفَاءً وَاحِدٌ.

الشَّرح

الصمد من أسماء الله، وهذا الاسم من خصائص الله، وإن كانت العرب في الجاهلية تطلقه على أشرافها.

والصمد يطلق على الذي ليس له جوف، ولا يأكل ولا يشرب، ويطلق أيضا على القائم بنفسه المقيم لغيره، فالله صمد لأنه قائم بنفسه ولا يحتاج لأحد، وهو صمد تصمد إليه الخلائق في حوائجها؛ ولهذا قيل للملائكة: صُمْدٌ؛ لأنه لا يحتاج أحدهم لا إلى طعام ولا إلى شراب.

○ قوله: «**قال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده**»، والله تعالى أولى باسم الصمد من غيره، وهي كلمة مشتركة بالنظر إلى المعنى، والله تعالى هو الذي انتهى سؤدده وكمل، أما غيره فإن سؤدده ناقص.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]: كفوًا وكفيئا وكفاء بمعنى واحد؛ أي ليس له مثيل.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كان الرب سبحانه واجب الوجود لذاته قديمًا موجودًا قبل وجود الأشياء، وكان كل مولود محدثًا، انتفت عنه الوالدية، ولما كان لا يشبهه أحد من خلقه ولا يجانسه حتى يكون له من جنسه صاحبة فتتوالد انتفت عنه الولدية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ [الأنعام: ١٠١]».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويؤخذ منه أن من نسب غيره إلى أمر لا يليق به يطلق عليه أنه شتمه».

أي أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ واجب الوجود لذاته، فليس له ولد ولا والد، وليس له فرع ولا أصل، وهو الصمد القائم بنفسه، المقيم لغيره، الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، وليس له مثيل من خلقه.

وهذه سورة عظيمة قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عنها: «**تعدل ثلث القرآن**»[(١)]؛ لأنها خبر عن الله وعن صفاته، والقرآن إما خبر أو توحيد أو أوامر.

{٤٩٧٤} ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة، وهو حديث قدسي، والحديث القدسي من كلام الله لفظًا ومعنى، قال الله تعالى: «**كَذَّبَنِي ابن آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ: ٱتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْأً أَحَدٌ**» فقولهم: اتخذ الله ولدًا، هذا تنقص لله وعيب وذم له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) البخاري (٦٦٤٣)، ومسلم (٨١١).

وفيه: أن الذم والعيب والتنقص يسمى شتمًا، ولو لم يتلفظ بالشتم واللعن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠] أي: المذمومة، وهي شجرة الزقوم، فالمراد بالشتم هنا الذم.

❖ ❖ ❖

{٤٩٧٥} قوله: «وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ» فيه أن قولهم: اتخذ الله ولدًا، هذا تنقص لله وعيب وذم له جلَّ وعلا، وأنه يسمى شتمًا، ولو لم يتلفظ به كما سبق.

١١٣- سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿غَاسِقٍ﴾: اللَّيْلُ. ﴿إِذَا وَقَبَ﴾: غُرُوبُ الشَّمْسِ، ويُقَالُ: هو أَبْيَنُ مِنْ فَرَقِ وَفَلَقِ الصُّبْحِ. ﴿وَقَبَ﴾ إِذَا دَخَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَأَظْلَمَ.

بَابٌ

{٤٩٧٦} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَاصِمٍ وَعَبْدَةَ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَقَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «قِيلَ لِي فَقُلْتُ:» فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الشَّرح

هذه سورة الفلق، وتسمى هي والسورة التي بعدها بالمعوذتين، وقد فسَّر مجاهد الفلق بالصبح، والغاسق بالليل، والوقب دخول الظلام أي: إذا غربت الشمس، واستعيذ منه؛ لأن أهل الشر يعملون شرورهم في الظلام.

{٤٩٧٦} قال العيني رحمه الله: «قوله: «قِيلَ لِي»، أي: إنهما من القرآن، وهذا كان مما اختلف فيه الصحابة ثم ارتفع الخلاف ووقع الإجماع عليه فلو أنكر اليوم أحد قرآنيتهما كفر، وقال بعضهم: ما كانت المسألة في قرآنيتهما بل في صفة من صفاتهما وخاصة من خاصتهما، ولا شك أن هذه الرواية تحتملهما فالحمل عليها أولى. والله أعلم.

فإن قلت: قد أخرج أحمد وابن حبان من رواية حماد بن سلمة عن عاصم بلفظ: أن ابن مسعود رضي الله عنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، وأخرج عبد الله ابن أحمد في زيادات «المسند» والطبراني وابن مردويه من طريق الأعمش عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد النخعي قال: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول: إنهما ليستا من القرآن أو من كتاب الله

تعالى. قلت: قال البزار: لم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأها في الصلاة وهو في «صحيح مسلم»[١] عن عقبة بن عامر وزاد فيه ابن حبان[٢] من وجه آخر عن عقبة بن عامر: «**فإن استطعت أن لا تفوتك قراءتهما في صلاة فافعل**»».

(١) مسلم (٨١٤).
(٢) ابن حبان (٥/ ١٥٠).

١١٤- سورة ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيُذْكَرُ عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾ إِذَا وُلِدَ خَنَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَإِذَا ذُكِرَ اللهُ ذَهَبَ، وَإِذَا لَمْ يُذْكَرِ اللهُ ثَبَتَ عَلَىٰ قَلْبِهِ.

بَابٌ

{٤٩٧٧} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ، عَنْ زِرٍّ قَالَ سَأَلْتُ أُبَىَّ بْنَ كَعْبٍ قُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّ أَخَاكَ ابن مَسْعُودٍ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ أُبَيٌّ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «قِيلَ لِي فَقُلْتُ»، قَالَ: فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١]، استعاذ هنا بربوبية الله، وقوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٢] الملك وصف، وقوله: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٣] أي: المعبود، وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٤]: الوسواس الشيطان، والإنسان إذا ولد خنسه الشيطان فإذا ذكر الله ﷻ ذهب، وإذا زال ذكر الله ثبت على القلب، وسمي الخناس؛ لأنه يخنس - أي يذهب - عند ذكر الله، وقوله: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٥]؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٦]. فالوسواس نوعان: نوع من الجنة ونوع من الناس، فالإنسي يوسوس بالكلام مثل الشبه والأباطيل، والجن يوسوس بالوساوس التي تكون في الصدور.

{٤٩٧٧} قوله: «وَحَدَّثَنَا عَاصِمٌ» هو عاصم بن أبي النجود صاحب القراءة، وله كتاب معروف في القراءات، لكنه في الرواية أقل.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «يقول كذا وكذا» هكذا وقع هذا اللفظ

مبهمًا، وكأن بعض الرواة أبهمه استعظامًا له، وأظن ذلك من سفيان؛ فإن الإسماعيلي أخرجه من طريق عبد الجبار بن العلاء، عن سفيان كذلك على الإبهام، وكنت أظن أولًا أن الذي أبهمه البخاري؛ لأنني رأيت التصريح به في رواية أحمد عن سفيان، ولفظه: قلت لأبي: إن أخاك يحكها من المصحف، وكذا أخرجه الحميدي عن سفيان، ومن طريقه أبو نعيم في «المستخرج»، وكأن سفيان كان تارة يصرح بذلك وتارة يبهمه، وقد أخرجه أحمد أيضًا وابن حبان من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بلفظ: أن عبد الله بن مسعود ﷺ كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه. وأخرج أحمد عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بلفظ: أن عبد الله يقول في المعوذتين. وهذا أيضًا فيه إبهام، وقد أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات «المسند»، والطبراني وابن مردويه من طريق الأعمش، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن يزيد النخعي، قال: كان عبد الله بن مسعود ﷺ يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله. قال الأعمش: وقد حدثنا عاصم عن زر عن أبي بن كعب، فذكر نحو حديث قتيبة الذي في الباب الماضي، وقد أخرجه البزار وفي آخره يقول: إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما[(١)]. قال البزار: ولم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأهما في الصلاة. قلت هو في «صحيح مسلم»[(٢)] عن عقبة بن عامر، وزاد فيه ابن حبان[(٣)] من وجه آخر عن عقبة بن عامر: «**فإن استطعت أن لا تفوتك قراءتهما في صلاة فافعل**» وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء بن الشخير، عن رجل من الصحابة أن النبي ﷺ أقرأه المعوذتين، وقال له: «**إذا أنت صليت فأقرأ بهما**»[(٤)]. وإسناده صحيح، ولسعيد بن منصور من حديث معاذ بن جبل ﷺ، أن النبي ﷺ صلى الصبح فقرأ فيهما بالمعوذتين، وقد تأول القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب «الانتصار»، وتبعه عياض وغيره ما حكي عن ابن مسعود فقال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنما أنكر

(١) البزار (٥/ ٥٩).
(٢) مسلم (٨١٤).
(٣) ابن حبان (٥/ ١٥٠).
(٤) أحمد (٥/ ٢٤).

إثباتهما في المصحف؛ فإنه كان يرى أن لا يكتب في المصحف شيئًا إلا إن كان النبي ﷺ أذن في كتابته فيه، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك. قال: فهذا تأويل منه، وليس جحدًا لكونهما قرآنًا. وهو تأويل حسن إلا أن الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك حيث جاء فيها: «ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله»، نعم يمكن حمل لفظ كتاب الله على المصحف فيتمشى التأويل المذكور، وقال غير القاضي: لم يكن اختلاف ابن مسعود مع غيره في قرآنيتهما، وإنما كان في صفة من صفاتهما. وغاية ما في هذا أنه أبهم ما بينه القاضي، ومن تأمل سياق الطرق التي أوردتها للحديث استبعد هذا الجمع، وأما قول النووي في «شرح المهذب»: أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد منهما شيئا كفر، وما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه باطل ليس بصحيح؛ ففيه نظر، وقد سبقه لنحو ذلك أبو محمد بن حزم فقال في أوائل «المحلى»: ما نقل عن ابن مسعود من إنكار قرآنية المعوذتين فهو كذب باطل، وكذا قال الفخر الرازي في أوائل «تفسيره»: الأغلب على الظن أن هذا النقل عن ابن مسعود كذب باطل. والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل، بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل، والإجماع الذي نقله إن أراد شموله لكل عصر فهو مخدوش، وإن أراد استقراره فهو مقبول، وقد قال ابن الصباغ في الكلام على مانعي الزكاة: وإنما قاتلهم أبو بكر على منع الزكاة، ولم يقل: إنهم كفروا بذلك؛ وإنما لم يكفروا؛ لأن الإجماع لم يكن استقر، قال: ونحن الآن نكفر من جحدها، قال: وكذلك ما نقل عن ابن مسعود في المعوذتين يعني: أنه لم يثبت عنده القطع بذلك، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك، وقد استشكل هذا الموضع الفخر الرازي فقال: إن قلنا إن كونهما من القرآن كان متواترًا في عصر ابن مسعود لزم تكفير من أنكرهما، وإن قلنا إن كونهما من القرآن كان لم يتواتر في عصر ابن مسعود لزم أن بعض القرآن لم يتواتر، قال: وهذه عقدة صعبة، وأجيب باحتمال أنه كان متواترًا في عصر ابن مسعود، لكن لم يتواتر عند ابن مسعود، فانحلت العقدة بعون الله تعالى».

والخلاصة أن ابن مسعود رضي الله عنه معذور في هذا؛ فإنه لم يتكلم إلا بما بلغه.

(٦٦)
كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ

بَابٌ كَيْفَ نُزُولُ الوَحْيِ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ

قَالَ ابن عَبَّاسٍ: المُهَيْمِنُ: الأَمِينُ، القُرْآنُ أَمِينٌ عَلَىٰ كُلِّ كِتَابٍ كان قَبْلَهُ.

{٤٩٧٨}، {٤٩٧٩} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ شَيْبَانَ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَا: لَبِثَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ القُرْآنُ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا.

{٤٩٨٠} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: أُنْبِئْتُ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ: «مَنْ هٰذا؟». أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَتْ: هٰذا دِحْيَةُ. فَلَمَّا قَامَ قَالَتْ: واللهِ مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ، حَتَّىٰ سَمِعْتُ خُطْبَةَ النَّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ. أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَ أَبِي: قُلْتُ لِأَبِي عُثْمَانَ: مِمَّنْ سَمِعْتَ هٰذا؟ قَالَ: مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ.

{٤٩٨١} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ المَقْبُرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ».

{٤٩٨٢} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ تَابَعَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الوَحْيُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدُ.

{٤٩٨٣} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا يَقُولُ: ٱشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَأَتَتْهُ ٱمْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، مَا أُرَىٰ شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحىٰ: ١-٣].

الشَّرح

بعد أن ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب التفسير من أول القرآن إلى آخره انتقل إلى كتاب فضائل القرآن.

والفضائل جمع فضيلة أي: الأجر والمزية التي تحصل لقارئ القرآن والعامل بالقرآن، وبيان مكانة القرآن وفضله.

وهذا الباب عقده البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ، وبيان أول ما نزل عليه.

وأول ما نزل من القرآن سورة اقرأ، ثم المدثر، وأما كيفية نزول الوحي فقد ذكرالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث أم سلمة **أن جبريل أتى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي**(١) وهذا أحد أنواع الوحي؛ حيث يتمثل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي ﷺ في صورة رجل فيكلمه، وكان يأتيه في صورة دحية الكلبي؛ لأنه كان رجلًا جميلًا.

النوع الثاني من أنواع الوحي: أن يأتيه مثل صلصلة الجرس؛ قال النبي ﷺ: «**وهو أشده علي، فينفصم عني وقد وعيت ما قال**»(٢).

النوع الثالث: أنه أحيانًا يُلقى الوحي في روعه؛ أي في قلبه ﷺ، كما في الحديث: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها**»(٣).

النوع الرابع: أن يكلِّمه الله من وراء حجاب كما كلَّم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من وراء حجاب، ومثاله عندما كلَّم الله تعالى نبينا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج من

---

(١) البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١).
(٢) أحمد (٦/١٥٨)، والبخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).
(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/٧٩).

وراء حجاب، وقد قال الله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ۝٥١﴾ [الشورىٰ: ٥١]، فذكر الله في هذه الآية ثلاثة أنواع من الوحي.

النوع الخامس: الرؤيا الصادقة، فرؤيا الأنبياء وحي، والنبي ﷺ أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا وقعت مثل فلق الصبح[١]، وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر من ربيع إلى رمضان، ثم فجأه الحق وجاءه الملك في رمضان؛ ولذا قال النبي ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»[٢] فإذا نَسَبْنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين سنة - وهي مدة الرسالة والنبوة- صارت الرؤيا نصيبها جزء من ستة وأربعين جزءًا.

○ قوله: «**قَالَ ابن عَبَّاسٍ: المُهَيْمِنُ: الأَمِينُ، القُرْآنُ أَمِينٌ عَلَىٰ كُلِّ كِتَابٍ كان قَبْلَهُ**»، يشير إلى قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: مصدقًا لما سبقه من الكتب المنزلة، وحاكمًا عليها، وقاضيًا عليها، يحق الحق، ويرد التحريف الذي حرفت به الكتب السابقة.

{٤٩٧٨}، {٤٩٧٩} ثم ذكر البخاري حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «**لَبِثَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ القُرْآنُ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا**»، قد لبث النبي ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، لكن قيل هنا: «**عَشْرَ**» على عادة العرب في حذف الكسر، فمن عادتهم حذف الكسر وجبره، وإلا فالنبي ﷺ لبث في مكة ثلاث عشرة سنة، وفي المدينة عشر سنين، ومدة الرسالة ثلاث وعشرون سنة.

❖ ❖ ❖

{٤٩٨٠} ثم ذكر الحديث الثاني عن أبي عثمان قال: «**أُنْبِئْتُ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُمِّ سَلَمَةَ: «مَنْ هٰذا؟». أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَتْ: هٰذا دِحْيَةُ. فَلَمَّا قَامَ قَالَتْ: والله مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ،**

(١) أحمد (٦/ ١٥٣)، والبخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).
(٢) أحمد (٣/ ١٠٦)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٣).

حَتَّىٰ سَمِعْتُ خُطْبَةَ النَّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ. أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَ أَبِي: قُلْتُ لأَبِي عُثْمَانَ: مِمَّنْ سَمِعْتَ هٰذا؟ قَالَ: مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ».

فيه: أن جبريل عليه السلام أتى في صورة رجل من الصحابة وهو دحية الكلبي رضي الله عنه يتحدث إلى النبي ﷺ ولم تظنه أم سلمة رضي الله عنها إلا أنه دحية، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ يخبر عن مجيء جبريل له، وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر حيث رآه الصحابة، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وسأله عن الإسلام، ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، ثم سأله عن الساعة، ثم سأله عن أماراتها، ثم قال النبي ﷺ: «**أتدرون من السائل؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»(١) فسمى هذه الثلاثة - الإسلام والإيمان والإحسان - دينًا، وقد دلَّ على أن الدين ثلاث مراتب: الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان.

وفيه: دليل على أن السائل يسأل للاستفادة والعلم، وقد يسأل ليفيد غيره، مثلما فعل جبريل عليه السلام، أما السؤال عن الفرضيات التي لم تقع أو الأسئلة التي يقصد منها الرياء والسمعة لإظهار السائل نفسه، أو يقصد منها إعنات المسئول وإيقاعه في الحرج والغلط؛ فهذا منهي عنه وداخل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة: ١٠١].

❖ ❖ ❖

{٤٩٨١} هذا الحديث فيه: بيان أن الأنبياء أعطوا آيات كافية لإيمان البشر، والمراد بالآيات المعجزات؛ ولهذا كان السلف يسمونها الآيات كالإمام أحمد وغيره، والمتأخرون يسمونها المعجزات الحسية، وكل نبي أعطاه الله من المعجزات من جنس ما برع به قومه، فلما كان قوم موسى - القبط - قد برعوا في السحر وبلغوا شأوًا عظيمًا فيه أعطى الله موسى العصا واليد فعلموا أن هذا ليس من جنس فعل البشر السحرة، ولما واعدهم يومًا واجتمع الناس وحصل

(١) أحمد (١/ ٢٧)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

بينهم مقابلة ومناظرة حلفوا بعزة فرعون وأتوا بالعصي والحبال وجعلوا فيها الزئبق فجعلت تتلوى، وامتلأ الوادي حيات وعقارب، حتى إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وجد في نفسه خيفة؛ قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: ٦٧-٦٨] فألقى موسى العصا فصارت حية فالتقمت جميع ما في الوادي ولحقتهم، فعرف السحرة أن هذا ليس من صنيع البشر، وأن هذا من عند الله؛ فآمنوا في الحال وخروا لله سجدًا، ولما توعدهم فرعون أن يقطع أيديهم وأرجلهم قالوا: اصنع ما بدا لك، فمهما تصنع لن نبالي بالعذاب فقد رأينا الحق.

وفيه: دليل على أن الأعمال بالخواتيم - نسأل الله حسن الخاتمة -.

ولما برع بنو إسرائيل في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الطب وبلغوا شأوًا عظيمًا فيه أعطى الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الآيات ما يفوق ما برعوا فيه؛ فأعطاه الله من الآيات أنه يبرئ الأكمه والأبرص - والأكمه: الذي ولد ولم يشق له عين، فأعطى عيسى أن يشق له عينًا ويبصر - ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين كهيئة الطير فيصير طيرًا، فعلم بنو إسرائيل أن هذه آيات عظيمة من عند الله.

ولما برع العرب في زمن النبي ﷺ في الفصاحة والبلاغة، ووصلوا في الفصاحة والبلاغة شأوًا بعيدًا، وكانت لهم أسواق يعرضون فيها ما عندهم من البلاغة والشعر كسوق ذي المجاز والمجنة، أعطى الله نبينا محمدًا ﷺ القرآن العظيم، تلك المعجزة الخالدة التي تحدى بها البشر أن يأتوا بمثلها فعجزوا، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فهو المعجزة الخالدة الباقية.

ومعجزات سائر الأنبياء حسية وقتية؛ بمعنى أنها تنتهي في وقتها، أما معجزة نبينا ﷺ فهي معجزة باقية إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**» وهذا الرجاء تحقق؛ فالنبي ﷺ أكثر الأنبياء تابعًا؛ ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال يوما لأصحابه: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قال: فكبرنا، ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قال:**

فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»[(١)]. وجاء في غير الصحيح أن هذه الأمة ثلثا أهل الجنة[(٢)]، وأن أهل الجنة مائة وعشرون صفا، وهذه الأمة ثمانون صفًا؛ فتحقق هذا الرجاء.

وليس المراد من الحديث أن النبي ﷺ ما أوتي إلا القرآن فقط، ولكن المراد أن أعظم وأهم ما أوتيه ﷺ هو الوحي، أو المراد الآية المستمرة، وإلا فقد أوتي آيات أخرى، كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ[(٣)]، وتكثير الطعام[(٤)]، وانشقاق القمر[(٥)]، وغير ذلك مما ذكره العلماء في دلائل النبوة من الآيات والمعجزات؛ ولهذا ألف العلماء في بيان الآيات التي كانت للنبي ﷺ، مثل «دلائل النبوة» للبيهقي وغيره.

❖ ❖ ❖

{٤٩٨٢} قوله: «**أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ تَابَعَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الوَحْيُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدُ**»، لا شك أن متابعة الوحي رفعة لدرجات النبي ﷺ وزيادة في حسناته.

وفي الحديث: أنه ينبغي الإكثار من العمل الصالح في آخر العمر؛ لأن الله تعالى تابع الوحي على نبيه ﷺ ثم توفي، فاختار الله له كثرة العمل الصالح في آخر عمره بمتابعة الوحي ومدارسة جبريل له ومعارضته القرآن في رمضان في السنة الأخيرة مرتين، ويؤيد هذا ما سبق من أن النبي ﷺ لما نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾ [النّصر: ١-٣]، أنه ما كان يصلي صلاة إلا يقول فيها: «**سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»[(٦)].

---

(١) أحمد (١/ ٣٨٦)، والبخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١) واللفظ له.
(٢) الحميدي (٢/ ٣٦٧)، وبمعناه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٥٥)، وهو في الترمذي - على الشك - (٣١٦٨).
(٣) أحمد (٣/ ١٣٢)، والبخاري (١٦٩)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٤) أحمد (٣/ ٣٧٧)، والبخاري (٤١٠١)، ومسلم (٢٠٣٩).
(٥) أحمد (١/ ٣٧٧)، والبخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠١).
(٦) أحمد (٦/ ٢٣٠)، والبخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).

{٤٩٨٣} هذا الحديث سبق في تفسير سورة الضحى، وأن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب، وقيل: غيرها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣]؛ أي: ما تركك ربك، وما أبغضك.

وفيه: بيان فضل القرآن، وأن الله تعالى أنزل الوحي على نبيه، وأنه ما ترك نبيه، ولكنه تأخر لحكمة، ولما تأخر جبريل عليه السلام مرة على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ تأخرت علينا قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريم: ٦٤].

بَابٌ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥].

{٤٩٨٤} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، حَدَّثَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ: وَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: فَأَمَرَ عُثْمَانُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنْ يَنْسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ، وَقَالَ لَهُمْ: إِذَا ٱخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي عَرَبِيَّةٍ مِنْ عَرَبِيَّةِ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهَا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا.

{٤٩٨٥} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا عَطَاءٌ.

وَقَالَ مُسَدَّدٌ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنِ ابن جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ قَالَ: أَخْبَرَنِي صَفْوَانُ بْنُ يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ، أَنَّ يَعْلَىٰ كَانَ يَقُولُ: لَيْتَنِي أَرىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ. فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ قَدْ أَظَلَّ عَلَيْهِ وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مُتَضَمِّخٌ بِطِيبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرىٰ فِي رَجُلٍ أَحْرَمَ فِي جُبَّةٍ بَعْدَ مَا تَضَمَّخَ بِطِيبٍ؟ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ سَاعَةً، فَجَاءَهُ الوَحْيُ، فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَىٰ يَعْلَىٰ أَنْ تَعَالَ، فَجَاءَ يَعْلَىٰ فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ، فَإِذَا هُوَ مُحْمَرُّ الوَجْهِ يَغِطُّ كَذَلِكَ سَاعَةً، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ: «أَيْنَ الذِي يَسْأَلُنِي عَنِ العُمْرَةِ آنِفًا؟». فَالْتُمِسَ الرَّجُلُ فَجِيءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَمَّا الطِّيبُ الذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَمَّا الجُبَّةُ فَانْزِعْهَا، ثُمَّ ٱصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ».

الشَّرْح

هذا الباب عقده المؤلف لبيان أن القرآن نزل بلسان قريش والعرب، واستدل بالآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢﴾ [يُوسُف: ٢]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٣-١٩٥]، وهذا صريح بأن القرآن نزل بلغة العرب، ولغة العرب أشرف اللغات،

فهي اللغة التي يتخاطب بها في الجنة، وأنزل الله بها أشرف وأعظم كتاب وهو القرآن بخلاف الكتب الأخرى؛ فإن التوراة بالعبرانية بلسان بني إسرائيل، والإنجيل باللغة السريانية، والزبور بالداودية لغة داود عليه السلام؛ ولهذا ينبغي العناية باللغة العربية من النحو واللغة والتاريخ والأدب؛ لأنها من علوم الآلة المكملة التي يتوقف عليها فهم القرآن، ولا ينبغي أن تزاحمها اللغات الأجنبية، فاللغة العربية هي المقدَّمة وهي الأصل، أما اللغات الأجنبية فالأصل ألا يتعلمها إلا من احتاج إليها للدعوة وما شابه ذلك، فلا حاجة أن يتعلمها كل أحد.

{٤٩٨٤} ذكر المؤلف رحمه الله قول أنس رضي الله عنه حينما أمر عثمان رضي الله عنه بجمع القرآن، يقول أنس: «**فَأَمَرَ عُثْمَانُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ اللهِ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ أَنْ يَنْسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ**»، وهذا الجمع هو الثاني، والجمع الأول كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه؛ حيث إنه لم يكن مجموعًا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في مكان واحد بل كان متفرقًا في اللخاف والحجارة وغيرها؛ لأن الوحي كان ينزل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعلم متى ينتهي نزول القرآن، فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم انقطع الوحي واحتاج الناس إلى جمع القرآن خاصة لما قتل جمع غفير من القراء في وقعة اليمامة، فرأى عمر رضي الله عنه أن يُجمع القرآن، فأحجم في أول الأمر وقال: كيف نفعل شيئًا لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم شرح الله صدره، واستدعى أبو بكر زيدًا وأمره أن يجمع القرآن، فأحجم زيد وقال: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما زال يراجعه حتى شرح الله صدره، وقال زيد: لو كلفوني بنقل جبل ما كان أثقل علي مما أمرت به.

والجمع الأول جمع عام بالحروف السبعة كلها، وبقيت المصاحف عند أبي بكر ثم عند عمر ثم ابنته حفصة، والجمع الثاني في زمن عثمان رضي الله عنه؛ وذلك لما اختلف الناس في القراءة، وكان ذلك بإشارة من حذيفة بن اليمان رضي الله عنه؛ حيث كان يغازي أرمينية وأذربيجان، ورأى شدة اختلاف الناس؛ حيث كان يقول بعضهم لبعض: قراءتي أحسن من قراءتك، فأسرع إلى عثمان وقال: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كما اختلف اليهود

والنصارى، فاستدعى زيدًا وأمره أن يجمع المصحف مرة أخرى، وهذا الجمع غير الجمع الأول؛ فالجمع الثاني على حرف واحد، وهو الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة الذي دارس فيها جبريل النبي ﷺ، وهي لغة قريش، وألغى بقية الحروف الستة، وهذا الحرف السابع تدخل فيه القراءات السبع والعشر، فنسخ به عدة مصاحف، وأرسل إلى كل مصر من الأمصار مصحفًا، وتمسك عبد الله بن مسعود بمصحفه - وهو مخالف - وقال: «يا أهل الكوفة، غلوه؛ فإنه من يغلل يأتِ يوم القيامة بما غلَّ».

❖ ❖ ❖

{٤٩٨٥} هذه القصة فيها أن صفوان بن يعلى بن أمية أخبر عطاء أن يعلى بن أمية كان يقول: «**لَيْتَنِي أَرىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ. فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ**»، وهذا في السنة الثامنة من الهجرة، والنبي ﷺ اعتمر من الجعرانة، فهو ﷺ اعتمر أربع عمر: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرانة، والعمرة التي مع حجته.

○ قوله: «**فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ قَدْ أَظَلَّ عَلَيْهِ**»، فالنبي ﷺ كانت تصيبه شدة ومشقة من الوحي؛ لأن الوحي؛ ثقيل قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المُزّمل: ٥].

○ قوله: «**وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مُتَضَمِّخٌ بِطِيبٍ**» يعني: وهو محرم بالعمرة، ومعلوم أن المحرم لا يتطيب.

○ قوله: «**فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرىٰ فِي رَجُلٍ أَحْرَمَ فِي جُبَّةٍ بَعْدَ مَا تَضَمَّخَ بِطِيبٍ؟**»، فهذا الرجل فعل محظورين في الإحرام؛ وهما: لبس الجبة، والتضمخ بالطيب.

○ قوله: «**فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ سَاعَةً، فَجَاءَهُ الوَحْيُ**»، فالنبي ﷺ ما أجابه حتى نزل عليه الوحي.

وفيه: دليل على أن الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه فلا يجيب إلا بعلم، وإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، ولا تتكلف، وليس هذا عيبًا؛

فالإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ إمام دار الهجرة سأله سائل عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين مسألة: لا أدري، ولم يجب إلا عن أربع مسائل، فانزعج السائل وقال: سبحان الله! مالك إمام دار الهجرة تضرب إليك أكباد الإبل تجيب في أربع مسائل، وفي ست وثلاثين مسألة تقول: لا أدري؛ كيف أقول للناس؟! فقال: قل للناس: يقول مالك: لا أدري. واعتبر هذا من فضائله.

○ قوله: «فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَىٰ يَعْلَىٰ أَنْ تَعَالَ»، أي حرف نداء، فيعلى لما تمنى أن يرى النبي ﷺ وهو ينزل عليه الوحي، ناداه عمر أن تعال. قوله: «فَجَاءَ يَعْلَىٰ فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ» يعني: في الخيمة أو في الثوب الذي ظلل به على النبي ﷺ. قوله: «فَإِذَا هُوَ» يعني: النبي ﷺ. قوله: «مُحْمَرُّ الوَجْهِ يَغِطُّ كَذَلِكَ سَاعَةً» يغط من الغطيط، وذلك من شدة الوحي، «ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ: «أَيْنَ الذِي يَسْأَلُنِي عَنِ العُمْرَةِ آنِفًا؟»». فَالْتُمِسَ الرَّجُلُ فَجِيءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَمَّا الطِّيبُ الذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَمَّا الجُبَّةُ فَانْزِعْهَا، ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ»».

فيه أن المحرم إذا أصابه شيء من الطيب يغسله أو يغيره.

وفيه: دليل على أن المحرم إذا لبس المخيط ينزعه إذا كان ناسيا أو جاهلًا.

وفيه: دليل على أن من تطيب محرمًا جاهلًا أو ناسيًا أو لبس المخيط جاهلًا أو ناسيًا فلا شيء عليه؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: عليك الفدية.

وفيه: أن العمرة يصنع فيها ما يصنع في الحج، من الطواف والسعي والتقصير ثم التحلل، واستدل به بعض العلماء على أن العمرة لها طواف وداع، كما أن الحج فيه طواف للوداع، وهذا مذهب بعض أهل العلم، واختار هذا فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، أما جمهور العلماء فذهبوا إلى أن طواف الوداع للعمرة سنة، وليس بواجب، واستدلوا بأن النبي ﷺ إنما أمر بالوداع للحجاج لما كان الناس ينفرون من كل فوج في حجة الوداع، فقال ﷺ: «**لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت**»(١).

(١) أحمد (١/ ٢٢٢)، ومسلم (١٣٢٧).

أما قوله: «ٱصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ» فهذا مجمل، يعني: في الطواف وفي السعي وفي اجتناب المحظورات، وليس في ذلك دليل واضح على أن طواف الوداع واجب للعمرة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد خفي وجه دخوله في هذا الباب على كثير من الأئمة، حتى قال ابن كثير في تفسيره: ذكر هذا الحديث في الترجمة التي قبل هذه أظهر وأبين؛ فلعل ذلك وقع من بعض النساخ، وقيل: بل أشار المصنف بذلك إلى أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] لا يستلزم أن يكون النبي ﷺ أرسل بلسان قريش فقط لكونهم قومه، بل أرسل بلسان جميع العرب؛ لأنه أرسل إليهم كلهم؛ بدليل أنه خاطب الأعرابي الذي سأله بما يفهمه بعد أن نزل الوحي عليه بجواب مسألته، فدل على أن الوحي كان ينزل عليه بما يفهمه السائل من العرب قرشيًّا كان أو غير قرشي، والوحي أعم من أن يكون قرآنًا يتلى أو لا يتلى. قال ابن بطال: مناسبة الحديث للترجمة أن الوحي كله متلوًّا كان أو غير متلو إنما نزل بلسان العرب. ولا يرد على هذا كونه ﷺ بعث إلى الناس كافة عربًا وعجمًا وغيرهم؛ لأن اللسان الذي نزل عليه به الوحي عربي، وهو يبلغه إلى طوائف العرب، وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم؛ ولذا قال ابن المنير: كان إدخال هذا الحديث في الباب الذي قبله أليق، لكن لعله قصد التنبيه على أن الوحي بالقرآن والسنة كان على صفة واحدة ولسان واحد».

وليس هذا ببعيد؛ لأن البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تراجمه دقيقة يتعجب منها طالب العلم، ولا يعرف مراده إلا بعد جهد وتأمل، وأحيانًا يورد في بعض طرق الحديث ما يدل على المناسبة.

بَابُ جَمْعِ القُرْآنِ

{٤٩٨٦} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنا ابن شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ السَّبَّاقِ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ، فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عِنْدَهُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدِ ٱسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِقُرَّاءِ القُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ، وَإِنِّي أَرىٰ أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ القُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! قَالَ عُمَرُ: هٰذا واللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الذِي رَأَىٰ عُمَرُ. قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! قَالَ: هُوَ واللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّىٰ وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرَهُ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حَتَّىٰ خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رضي الله عنه.

{٤٩٨٧} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ، حَدَّثَنَا ابن شِهَابٍ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ، أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ قَدِمَ عَلَىٰ عُثْمَانَ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ العِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ ٱخْتِلَافُهُمْ فِي القِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هٰذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ ٱخْتِلَافَ اليَهُودِ وَالنَّصَارىٰ. فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَىٰ حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَىٰ عُثْمَانَ، فَأَمَرَ

زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا ٱخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَىٰ حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ.

{٤٩٨٨} قَالَ ابن شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، سَمِعَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: فَقَدْتُ آيَةً مِنَ الأَحْزَابِ حِينَ نَسَخْنَا المُصْحَفَ قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا، فَالْتَمَسْنَاهَا فَوَجَدْنَاهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيِّ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فَأَلْحَقْنَاهَا فِي سُورَتِهَا فِي المُصْحَفِ.

الشَّرح

{٤٩٨٦} الجمع الأول للمصحف في زمن أبي بكر جمع عام؛ حيث لم يكن المصحف مجموعًا في مكان واحد؛ لأن الوحي ينزل فلا يعلمون متى ينتهي، فلما توفي النبي ﷺ انقطع الوحي فجمع في مكان واحد وفي مصحف واحد، وكان السبب قتل كثير من القراء في معركة اليمامة في قتال الصحابة لبني حنيفة، فإنه لما ادعى مسيلمة الكذاب النبوة أرسل أبو بكر جيشًا عظيمًا لقتال مسيلمة وبني حنيفة في نجد، وكانوا أقوياء معروفين بالشجاعة، ولهم تعلق كبير بمسيلمة ويفدونه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، فقاتلوا قتالًا شديدًا حتى قتل الكثير من القراء، فخاف الصحابة أن يضيع القرآن، وهذا من حفظ الله للقرآن، فالله تعالى قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩]، فرأى عمر رضي الله عنه أن يجمع القرآن وأتى أبا بكر، وقال: اجمع القرآن، فهاب أبو بكر، وقال: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟! فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك، ورأى أن هذا خير، فأرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت؛ لأنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ وقال له: اجمع القرآن، فقال مثلما قاله أبو بكر، فقال أبو بكر: هو والله خير، فما زال أبو بكر يراجع زيدًا حتى شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.

○ قوله: «إِنَّ القَتْلَ قَدِ ٱسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِقُرَّاءِ القُرْآنِ»، أي: كثر القتل في القراء الذين يحفظون القرآن يوم اليمامة.

○ قوله: «وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ»، يعني: في مواطن الجهاد والقتال.

○ قوله: «فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ، وَإِنِّي أَرىٰ أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ القُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! قَالَ عُمَرُ: هٰذا واللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الذِي رَأَىٰ عُمَرُ. قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ» فأبوبكر رضي الله عنه اختار زيدًا وبين الصفات التي تؤهله لجمع القرآن: أنه أولًا: شاب وقوي، بخلاف الشيخ الكبير فقد يكون عنده ضعف، وثانيًا: أنه عاقل، وثالثًا: أنه لا يتهم، ورابعًا: أنه كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ؛ وشعر زيد بالمسؤولية ورأى أنها مسؤولية عظيمة وليست بالأمر الهين، يجمع كتاب الله! من أين يجمعه؟! كتاب الله متفرق، والصحابة كثيرون، فهذا عنده آية وهذا عنده آية وهذا عنده آية، والآية التي عند هذا مكتوبة في اللخاف وعند هذا مكتوبة في العسب، فهو أمر ثقيل حتى شعر زيد بالمسئولية وقال: «فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! قَالَ: هُوَ واللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ»، والعسب: جمع عسيب، وهو عسيب النخل، واللخاف: حجارة بيض عريضة، وكان زيد لا يكتب آية حتى يجتمع فيها أمران:

الأمر الأول: أن يجدها مكتوبة.

الأمر الثاني: أن يجدها محفوظة في الصدور.

فإذا اتفق فيها الأمران كتبها.

○ قوله: «حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم

أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة براءة [التّوبَة: ١٢٨- ١٢٩]».

قال العلماء: هذا الجمع وإن لم يجمع على عهد النبي ﷺ إلا أنه من المصالح المرسلة، فالمصلحة واضحة في كونه يجمع في موضع واحد؛ لأنه إذا ترك تعذر على الناس قراءة القرآن.

○ قوله: «فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رضي الله عنه»، ثم بعد ذلك لما جاء الجمع الثاني طلبها عثمان من حفصة.

❖ ❖ ❖

{٤٩٨٧} الأثر الثاني فيه جمع القرآن في المرة الثانية، وذلك أن أنس بن مالك حدث ابن شهاب في بيان سبب جمع أمير المؤمنين عثمان للقرآن: «أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ قَدِمَ عَلَىٰ عُثْمَانَ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ العِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ ٱخْتِلَافُهُمْ فِي القِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هٰذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ ٱخْتِلَافَ اليَهُودِ وَالنَّصَارىٰ»، رحم الله حذيفة وعثمان وبقية الصحابة رضي الله عنهم، فإن الصحابة في زمن النبي ﷺ إذا اختلفوا في القرآن رجعوا إليه فعلمهم وطمأنهم، بخلاف اختلافهم بعده؛ لأنه سبب للتفرق والاختلاف، فعند ذلك أخذ عثمان بمشورة حذيفة فأمر بالجمع الثاني للقرآن.

والفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما: أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء لذهاب حملة القرآن، فجمعه في موضع واحد شاملًا للأحرف السبعة؛ لأنه لم يكن مجموعًا في موضع واحد، وأما جمع عثمان فإنه كان لما كثر الاختلاف في وجوه القرآن حين قرءوه بلغاتهم - على اتساعها - فجمعه على حرف واحد، وهو لغة قريش، وهو الذي نزل به جبريل أولًا، فاقتصر على لغة واحدة خشية تفاقم الأمر، ورأى أن الحاجة إلى غيره من الأحرف انتهت.

○ قوله: «فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَىٰ حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَىٰ عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ»، وآخر ثلاثة منهم كلهم من قريش، وعبد الرحمن هذا صحابي صغير وعمه أبو جهل.

○ قوله: «إِذَا ٱخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَىٰ حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ»، وفي رواية: «أَنْ يُحَرَّقَ»، وهذا فيه دليل على أن المصحف إذا تمزق فإنه يحرق أو يدفن في أرض طاهرة أو يمحى بالماء أو يطمس حتى يزول ما فيه؛ لأنه إذا أحرق حفظ عن الامتهان.

❖ ❖ ❖

{٤٩٨٨} قوله: «قَالَ ابن شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، سَمِعَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: فَقَدْتُ آيَةً مِنَ الأَحْزَابِ حِينَ نَسَخْنَا المُصْحَفَ قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا، فَالْتَمَسْنَاهَا فَوَجَدْنَاهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيِّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فَأَلْحَقْنَاهَا فِي سُورَتِهَا فِي المُصْحَفِ»، وهذه الآية قبلها زيد رضي الله عنه، وإن لم تكن عند غير خزيمة بن ثابت؛ لأن النبي ﷺ خصه بأن جعل شهادته تعدل شهادة رجلين؛ لتصديقه في خبر الفرس عندما جحد الأعرابي البيع[1].

---

(١) أحمد (٥/ ٢١٥)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧).

بَابُ ذِكْرِ كَاتِبِ النَّبِيِّ ﷺ

{٤٩٨٩} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابن شِهَابٍ، أَنَّ ابن السَّبَّاقِ قَالَ: إِنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ ﷺ قَالَ: إِنَّكَ كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاتَّبِعِ القُرْآنَ. فَتَتَبَّعْتُ حَتَّىٰ وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرَهُ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إِلَىٰ آخِرِهِ.

{٤٩٩٠} حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ لَا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ادْعُ لِي زَيْدًا وَلْيَجِئْ بِاللَّوْحِ وَالدَّوَاةِ وَالْكَتِفِ» أَوِ «الْكَتِفِ وَالدَّوَاةِ»- ثُمَّ قَالَ: «اكْتُبْ: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥]» وَخَلْفَ ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ عَمْرُو بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَىٰ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَأْمُرُنِي؟ فَإِنِّي رَجُلٌ ضَرِيرُ البَصَرِ. فَنَزَلَتْ مَكَانَهَا ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] فِي سَبِيلِ اللهِ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

الشَّرْح

○ قوله: «كَاتِبِ النَّبِيِّ ﷺ»، وروي: «**باب كتاب النبي ﷺ**»، حتى قال ابن كثير كما نقل الحافظ: «ترجم: «كتاب النبي ﷺ»، قال: ولم يذكر سوى حديث زيد بن ثابت، وهذا عجيب! فكأنه لم يقع له على شرطه غير هذا».

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «لم أقف في شيء من النسخ إلا بلفظ: كاتب، بالإفراد» والنبي ﷺ له عدد من الكتاب؛ منهم: زيد بن ثابت، ومنهم غيره.

{٤٩٨٩} هذا الحديث في كتابة القرآن، وهو الذي أرسل فيه أبو بكر إلى زيد فجمعه، وهو الجمع الأول الذي شمل الأحرف السبعة.

❖ ❖ ❖

{٤٩٩٠} هذا الحديث فيه: أن النبي ﷺ كان يأمر بكتابة الوحي حين نزوله.

وفيه: أنه كان ينزل عليه الوحي في الحال ويكون له سبب، فلما نزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النِّسَاء: ٩٥]، ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ٩٥]، بيَّن الله أنه لا يستوي المجاهد والقاعد، وفرَّق بين المجاهد والقاعد، مع أن كلًّا منهما مؤمن وله الجنة، لكن المجاهد له عند الله درجات عالية في الجنة كما جاء في الحديث: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض**»(١).

فلما نزلت هذه الآية اشتاق عبد الله بن أم مكتوم إلى هذا الخير، وتمنى أن يكون مشاركًا للمجاهدين؛ فقال: يا رسول الله، لا أستطيع فأنا ضرير، فلما قال ذلك أنزل الله في الحال: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النِّسَاء: ٩٥]، فأمر الكاتب فكتبها، وقد ذكر الحافظ من جملة الكتبة الذين كتبوا بمكة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه، وممن كتب له الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسدي، ومعيقيب بن أبي فاطمة، وعبد الله بن الأرقم الزهري، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن رواحة، وآخرون؛ فكل هؤلاء كانوا من كتاب الوحي، فكان إذا نزل عليه الوحي يدعو ﷺ بعض من يكتب عنده ويقول: «**ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا في مكان كذا**»(٢). أما ترتيب السور ففيه خلاف بين العلماء؛ فمنهم من قال: إن ترتيب السور بالنص، ومنهم من قال: بالاجتهاد.

(١) أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاري (٧٤٢٣) واللفظ لهما، ومسلم (١٨٨٤).
(٢) أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦).

بَابٌ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ

{٤٩٩١} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَىٰ إِلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

{٤٩٩٢} حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدٍ الْقَارِيَّ حَدَّثَاهُ أَنَّهُمَا سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَىٰ حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّىٰ سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هٰذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَىٰ غَيْرِ مَا قَرَأْتَ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هٰذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَىٰ حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ». فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ». ثُمَّ قَالَ: «اقْرَأْ يَا عُمَرُ». فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

الشَّرْح

{٤٩٩١} هذا الحديث فيه: أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وهذه الأحرف اختلف العلماء فيها كما سيأتي.

❖ ❖ ❖

{٤٩٩٢} هذا الحديث والذي قبله فيهما أن القرآن أنزل على سبعة أحرف،

وفي هذا الحديث أن عمر رضي الله عنه سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ فقال: «فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَىٰ حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ» أي: أن عمر كان يقرأ على حرف، وهشام كان يقرأ على حرف آخر، فقال عمر: «فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ» يعني: يريد أن يأخذه وهو في الصلاة من شدة غيظه وغضبه عليه.

○ قوله: «فَتَصَبَّرْتُ حَتَّىٰ سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ»، أي: صار يجره بردائه.

○ قوله: «مَنْ أَقْرَأَكَ هٰذِهِ السُّورَةَ التِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَىٰ غَيْرِ مَا قَرَأْتَ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هٰذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الفُرْقَانِ عَلَىٰ حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرْسِلْهُ»، أي: اتركه.

○ قوله: «اقْرَأْ يَا هِشَامُ». فَقَرَأَ عَلَيْهِ القِرَاءَةَ التِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ». ثُمَّ قَالَ: «اقْرَأْ يَا عُمَرُ». فَقَرَأْتُ القِرَاءَةَ التِي أَقْرَأَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هٰذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»، يعني: فاقرؤوا ما تيسر من القرآن المنزل.

وفيه: إشارة إلى الحكمة في التعدد المذكور، وأن الحكمة التيسير على القارئ، يقول الحافظ رحمه الله: «وهذه الحكمة تشير إلى تقوية قول من قال المراد بالأحرف تأدية المعنى باللفظ المرادف، ولو كان من لغة واحدة؛ لأن لغة هشام بلسان قريش وكذلك عمر، ومع ذلك اختلفت قراءتهم».

وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة:

فقيل: إن المراد بها سبعة أوجه متفقة في المعاني مختلفة في الألفاظ.

وقيل: المراد بالسبعة أحرف السبع لغات.

وقيل: المراد تأدية المعنى باللفظ المرادف.

وقيل: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، بل المراد التسهيل والتيسير.

والأرجح أن المراد بالأحرف السبعة أنها متقاربة في المعنى مختلفة

في اللفظ؛ أي حروف متقاربة في المعنى مختلفة في اللفظ، ويجوز القراءة بكل واحد منها تيسيرًا من الله ﷻ؛ لأن العرب لغاتهم واسعة منتشرة، حتى إن النبي ﷺ كان يخاطب العرب بلغاتهم؛ ففي لغة اليمن يبدلون (ال) بـ (ام) فخاطبهم بلغاتهم فقال: «**ليس من امبر امصيام في امسفر**»[(١)].

والله تعالى أنزل القرآن بلغات العرب كلها، فالجمع الأول كان شاملًا للأحرف السبعة، ثم لما رأى حذيفة وعثمان اختلاف الناس جمعهم على حرف واحد وألغى ستة أحرف.

(١) أحمد (٢٣١٦٧)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ١٧٢).

بَابُ تَأْلِيفِ القُرْآنِ

{٤٩٩٣} حَدَّثنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَّ ابن جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ: وَأَخْبَرَنِي يُوسُفُ بْنُ مَاهَك قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ ﵂ إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ، وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ. قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ. قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ، إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلَامِ نَزَلَ الحَلَالُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الخَمْرَ. لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا. وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا. لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا. لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ [القمر: ٤٦]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ. قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ المُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّورَةِ.

{٤٩٩٤} حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَزِيدَ، سَمِعْتُ ابن مَسْعُودٍ يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطَه وَالأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي.

{٤٩٩٥} حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَنْبَأَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، سَمِعَ البَرَاءَ ﵁ قَالَ: تَعَلَّمْتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلىٰ: ١] قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ النَّبِيُّ ﷺ.

{٤٩٩٦} حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: قَدْ عَلِمْتُ النَّظَائِرَ التِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَؤُهُنَّ ٱثْنَيْنِ ٱثْنَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. فَقَامَ عَبْدُ اللهِ وَدَخَلَ مَعَهُ عَلْقَمَةُ، وَخَرَجَ عَلْقَمَةُ فَسَأَلْنَاهُ فَقَالَ: عِشْرُونَ سُورَةً مِنْ أَوَّلِ المُفَصَّلِ عَلَىٰ تَأْلِيفِ ابن مَسْعُودٍ آخِرُهُنَّ الحَوَامِيمُ ﴿حمٓ ۝١﴾ [الدخان: ١] الدُّخَانُ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ: ١].

الشَّرح

هذا الباب في تأليف القرآن، ومعنى تأليف القرآن: جمع سور القرآن مرتبة في المصحف، أو جمع آيات السورة الواحدة مرتبة.

{٤٩٩٣} ذكر المؤلف قول يوسف بن ماهك عندما أخبر ابن جريج أنه عند عائشة أم المؤمنين إذ جاءها عراقي فقال: «أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ، وَمَا يَضُرُّكَ؟» فهذا سؤال تعنت من رجل من أهل العراق، وهم معروفون من قديم بالتعنت في الأسئلة، ولقد قال ابن عمر رضي الله عنه: إن أهل العراق يسألون عن دم البعوض: هل هو طاهر أم نجس؟ ولا يسألون عن قتلهم ابن بنت رسول الله ﷺ[1]. وهو من أعظم الجرائم، فلما سأل هذا العراقي عن الكفن أجابته: بأي شيء يضرك إن كفنت بأي كفن؟!

○ قوله: «قَالَ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ. قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ» يعني: أريد أن أرتب مصحفي على ترتيب مصحفك، «فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ. قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ»، ولعل هذا كان قبل جمع عثمان رضي الله عنه الجمع الثاني للقرآن.

قالت: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ»، وسبق أن أول ما نزل: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١][2]، ويحتمل أن السورة التي فيها ذكر الجنة والنار هي المدثر؛ حيث نزلت بعد ذلك، أو غيرها من السور.

قالت: «حَتَّىٰ إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلَامِ»، يعني: اجتمعوا على الإسلام، «نَزَلَ الحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الخَمْرَ. لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا. وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا. لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا»، والمعنى: أن القرآن نزل بالتدريج كما في تحريم الخمر؛ فلقد نزل أولًا قول الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾

(١) أحمد (٢/ ٨٥)، والبخاري (٣٧٥٣).
(٢) أحمد (٦/ ١٥٣)، والبخاري (٤)، ومسلم (١٦٠) في قصة بدء الوحي.

[البَقَرَة: ٢١٩]، وكان بعض العقلاء يتركون الخمر، ثم نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النِّسَاء: ٤٣]، فصاروا يشربونها في الأوقات الطويلة ولا يشربونها في الأوقات القصيرة، ثم نزلت آية الخمر المحرمة البتة في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المَائدة: ٩٠].

قالت: «لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القَمَر: ٤٦]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ. قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ المُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّورَةِ»، يعني: على ترتيب مصحفها.

❖ ❖ ❖

{٤٩٩٤} كان ابن مسعود رضي الله عنه من الحفاظ للقرآن، وهو من الذين أوصى النبي ﷺ بأخذ القرآن عنهم[(١)].

○ قوله: «فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطَه وَالأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ»، والعتاق: واحدها عتيق؛ أي: القديم، والمعنى: إني حفظتها قديمًا، وقوله: «وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي» التلاد: المال القديم - والمال الجديد يسمى طريف- والمعنى: إن هذه السور حفظتها قديمًا.

❖ ❖ ❖

{٤٩٩٥} قوله: «تَعَلَّمْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ النَّبِيُّ ﷺ» أي: قبل أن يقدم المدينة مهاجرًا.

❖ ❖ ❖

{٤٩٩٦} قوله: «قَالَ عَبْدُ اللهِ»، هو عبد الله بن مسعود، قوله: «قَدْ عَلِمْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَؤُهُنَّ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. فَقَامَ عَبْدُ اللهِ وَدَخَلَ

(١) أحمد (٢/ ١٦٣)، والبخاري (٣٧٥٨)، ومسلم (٢٤٦٤).

مَعَهُ عَلْقَمَةُ، وَخَرَجَ عَلْقَمَةُ فَسَأَلْنَاهُ فَقَالَ: عِشْرُونَ سُورَةً مِنْ أَوَّلِ الْمُفَصَّلِ عَلَىٰ تَأْلِيفِ ابن مَسْعُودٍ»، يعني: على ترتيب مصحفه، قوله: «آخِرُهُنَّ الحَوَامِيمُ ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ [الدخان: ١] الدُّخَانُ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾ [النبأ: ١]»، فيه: دليل على جواز جمع السور في الركعة الواحدة.

وترتيب آيات القرآن هكذا بالنص كما رتبها النبي ﷺ، فكان إذا نزلت الآية يقول النبي ﷺ: «**ضعوها في السورة التي تذكر فيها كذا بعد آية كذا وقبل آية كذا**»(١).

أما ترتيب السور ففيه خلاف؛ فجمهور العلماء على أنه اجتهاد من الصحابة، وقال آخرون من أهل العلم: إن ترتيب السور بالنص على ما هو عليه في المصحف؛ ولهذا يستحب ترتيب السور في الصلاة، مثال ذلك: إذا قرأ في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، يقرأ في الثانية بـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ [الغاشية: ١].

---

(١) أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦).

بَابُ كَانَ جِبْرِيلُ يَعْرِضُ القُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

وَقَالَ مَسْرُوقٌ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ فَاطِمَةَ رضي الله عنها أَسَرَّ إِلَى النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّ جِبْرِيلَ [كَانَ] يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ، وَأَنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي».

{٤٩٩٧} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ قَزَعَةَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ لأَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ.

{٤٩٩٨} حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ يَعْرِضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ القُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي العَامِ الذِي قُبِضَ، وَكَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ عَامٍ عَشْرًا، فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِي العَامِ الذِي قُبِضَ.

الشَّرْح

هذا باب في عرض جبريل القرآن على النبي ﷺ، وقوله: «كَانَ جِبْرِيلُ يَعْرِضُ» من العرض - وهو بفتح العين وسكون الراء - أي: يقرأ، والمراد يستعرضه ما يقرئه إياه.

وفي الحديث: مشروعية مدارسة القرآن، ولاسيما في رمضان، فكان جبريل عليه السلام يعارض النبي ﷺ بالقرآن ويدارسه إياه ويستعرضه ما أقرأه إياه في كل سنة مرة، وفي العام الأخير عارضه مرتين، قوله: «وَلَا أُرَاهُ» يعني: ولا أظنه، قوله: «إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي»، فيه: أنه ينبغي الإكثار من العمل الصالح في آخر العمر، وعند تقدم السن؛ ليكون خاتمة العمل؛ ولهذا فإن جبريل عارضه في السنة الأخيرة مرتين، وفي الأعوام التي قبله في كل عام مرة.

{٤٩٩٧} في هذا الحديث أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من الأعمال الصالحة في رمضان.

وفيه: تأثير الجليس على جليسه؛ فالجليس الصالح يؤثر على جليسه، والجليس السوء يؤثر على جليسه.

وعرض جبريل القرآن على النبي ﷺ فيه فوائد:

منها: تأكيد الحرف الأخير من الحروف السبعة الذي اعتنى به عثمان رضي الله عنه فيما بعد وجمع القرآن عليه.

ومنها: تثبيت معاني القرآن في فؤاد النبي ﷺ وقلبه.

❖ ❖ ❖

{٤٩٩٨} قوله: «فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي العَامِ الذِي قُبِضَ»، فيه: استحباب الزيادة من الخير في آخر العمر؛ فالنبي ﷺ ازداد من الخير في العام الذي قبض فيه فعرض القرآن مرتين، وفي الاعتكاف زاد على السنوات التي قبلها فاعتكف عشرين يومًا، كما سبق في نزول قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فكان الرسول ﷺ يقول بعد نزولها في ركوعه وسجوده: «**سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**»، يتأول القرآن[(١)].

ومن فوائد العرضة الأخيرة لجبريل: تثبيت الحرف الأخير؛ ولهذا قال عطاء وابن سيرين: قراءتنا أحدث القراءات عهدًا بالعرضة الأخيرة.

(١) أحمد (٦/ ٤٣)، والبخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

بَابُ القُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ

{٤٩٩٩} حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مَسْرُوقٍ: ذَكَرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَا أَزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ، وَمُعَاذٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ».

{٥٠٠٠} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا شَقِيقُ بْنُ سَلَمَةَ قَالَ: خَطَبَنَا عَبْدُ اللهِ فَقَالَ: واللهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، واللهِ لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ. قَالَ شَقِيقٌ: فَجَلَسْتُ فِي الحِلَقِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، فَمَا سَمِعْتُ رَادًّا يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ.

{٥٠٠١} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: كُنَّا بِحِمْصَ فَقَرَأَ ابن مَسْعُودٍ سُورَةَ يُوسُفَ، فَقَالَ: رَجُلٌ مَا هَكَذَا أُنْزِلَتْ: قَالَ: قَرَأْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنْتَ». وَوَجَدَ مِنْهُ رِيحَ الخَمْرِ فَقَالَ: أَتَجْمَعُ أَنْ تُكَذِّبَ بِكِتَابِ اللهِ وَتَشْرَبَ الخَمْرَ؟!. فَضَرَبَهُ الحَدَّ.

{٥٠٠٢} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ رضي الله عنه: واللهِ الذِي لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ.

{٥٠٠٣} حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه: مَنْ جَمَعَ القُرْآنَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ. تَابَعَهُ الفَضْلُ، عَنْ حُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ، عَنْ ثُمَامَةَ، عَنْ أَنَسٍ.

{٥٠٠٤} حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ المُثَنَّىٰ قَالَ: حَدَّثَنِي

ثَابِتٌ البُنَانِيُّ وَثُمَامَةُ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ القُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ. قَالَ: وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ.

{٥٠٠٥} حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الفَضْلِ، أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: أُبَيٌّ أَقْرَؤُنَا، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ لَحَنِ أُبَيٍّ، وَأُبَيٌّ يَقُولُ: أَخَذْتُهُ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا أَتْرُكُهُ لِشَيْءٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) [البقرة: ١٠٦].

الشَّرْح

{٤٩٩٩} قوله: «عَنْ عَمْرٍو» هو عمرو بن مرة، وهذه منقبة لهؤلاء القراء الأربعة رضي الله عنهم.

❖ ❖ ❖

{٥٠٠٠} قول ابن مسعود: «وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ» يدل على أمرين: أحدهما: تواضعه رضي الله عنه؛ لأن الخلفاء الراشدين أفضل منه.

والثاني: أنه لا ملازمة بين العلم والخيرية، فقد يكون عالمًا ويوجد من هو أخير منه وأفضل وهو قليل العلم.

❖ ❖ ❖

{٥٠٠١} هذا الأثر عن علقمة قال: «كُنَّا بِحِمْصَ فَقَرَأَ ابن مَسْعُودٍ سُورَةَ يُوسُفَ، فَقَالَ: رَجُلٌ مَا هَكَذَا أُنْزِلَتْ: قَالَ: قَرَأْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنْتَ». وَوَجَدَ مِنْهُ رِيحَ الخَمْرِ فَقَالَ: أَتَجْمَعُ أَنْ تُكَذِّبَ بِكِتَابِ اللهِ وَتَشْرَبَ الخَمْرَ؟! فَضَرَبَهُ الحَدَّ».

فيه: أن الحد يقام بالرائحة التي تظهر للخمر، فإذا تقيأ الخمر أو وجد منه ريح الخمر أقيم عليه الحد؛ لأن هذه الرائحة ما خرجت منه إلا بشربه الخمر، وهذا الرجل بسبب قلة ديانته وضعف إيمانه قال: «مَا هَكَذَا أُنْزِلَتْ» وهو يشرب الخمر؛ ولهذا ضربه عبد الله الحد.

وقد يقال: كيف أقام عليه الحد وهو ليس بأمير؟ ويجاب عن ذلك: باحتمال أنه أقامه نيابة عن الوالي، أو أن الوالي أقره على ذلك، أما غير الصحابي فلا يتجرأ أحد على هذا، فلو وجد أحد - ولو كان من العلماء - ريح الخمر من رجل الآن فلا يقيم الحد عليه؛ فإنه لو أقامه انقلبت الأمور.

❖ ❖ ❖

{٥٠٠٢} قول ابن مسعود: «الذِي لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».

فيه: أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون ذا همة عالية، فإذا سمع أن أحدًا أعلم منه أو من شيخه ذهب إليه وأخذ عنه واستفاد منه.

ولم يقل ابن مسعود: لو أعلم أن أحدًا وراء البحار لركبت البحر إليه، إما لأنهم لا يركبون البحر، وإما لأنه ظن أنه ليس هناك وراء البحر من يحفظ القرآن.

وفيه: جواز ذكر الإنسان نفسه بما فيه من الفضيلة بقدر الحاجة، إذا تجنب الفخر والإعجاب.

❖ ❖ ❖

{٥٠٠٣} جمع القرآن من هؤلاء الصحابة منقبة لهم، والمراد أنهم حفظوه، وليس المراد أنهم جمعوه في مصحف، فإن الجمع كان في عهد أبي بكر.

ومن المعلوم أنه حفظ القرآن أكثر من أربعة، وقد ذكر العلماء أقوالًا في الجواب عن قول أنس:

الجواب الأول: أن مراده من الأوس.

الجواب الثاني: أن المراد من حفظه مع كتابته.

الجواب الثالث: أنه قال هذا بحسب علمه؛ وهذا هو الراجح، ويؤيده أنه ذكر واحدًا آخر في الحديث الذي بعده، وهو أبو الدرداء.

{٥٠٠٤} هذا الحديث فيه حصر من أنس للذين جمعوا القرآن في أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

○ قوله: «وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ» يعني: عنه.

❖ ❖ ❖

{٥٠٠٥} بيَّن عمر ﵁ سبب كونهم يدعون من لحن أبي مع أنه أقرؤهم، وهو أن القرآن ينسخ بعضه، فيتمسك أبي بالمنسوخ فلا يدعه؛ ولهذا ترك من قراءة أبي.

○ قوله: «مِنْ لَحَنِ أُبَيٍّ» يعني: من قراءته، ولحن القول: فحواه، والمراد هنا القول، وذلك أن أُبَيًّا ﵁ كان لا يرجع عما حفظه من القرآن، ولو أخبره غيره أن قراءته نسخت فإنه لا يرجع؛ لأنه إذا سمع ذلك من رسول الله ﷺ حصل عنده قطع فلا يزول عنده بإخبار غيره أن التلاوة نسخت؛ فلهذا استدل عمر بالآية الدالة على النسخ.

بَابٌ فَضْلِ فَاتِحَةِ الكِتَابِ

{٥٠٠٦} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: حَدَّثَنِي خُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ المُعَلَّىٰ قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَدَعَانِي النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. قَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؟ [الأنفال: ٢٤]» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ؟». فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ قُلْتَ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ». قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢] هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالْقُرْآنُ العَظِيمُ الذِي أُوتِيتُهُ».

{٥٠٠٧} حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا وَهْبٌ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ مَعْبَدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غُيَبٌ فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ: لَا، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الكِتَابِ. قُلْنَا: لَا تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّىٰ نَأْتِيَ -أَوْ نَسْأَلَ- النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟! ٱقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ».

وَقَالَ أَبُو مَعْمَرٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، حَدَّثَنِي مَعْبَدُ بْنُ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ بِهٰذَا.

الشَّرح

{٥٠٠٦} هذا الحديث فيه كثير من الفوائد:

منها: أن إجابة المصلي للنبي ﷺ عمدًا لا يبطل الصلاة؛ لهذا الحديث، ولقول الله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومنها: فضل فاتحة الكتاب، وأنها سبع آيات، وأن البسملة ليست آية من الفاتحة؛ ولهذا قال: «أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟». فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ قُلْتَ: «لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ». قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]»، ولم يقل: بسم الله الرحمن الرحيم؛ فدل على أن البسملة ليست آية من الفاتحة.

ومنها: أن الفاتحة هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه نبينا ﷺ.

❖ ❖ ❖

{٥٠٠٧} قوله: «فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الحَيِّ سَلِيمٌ» يعني: لدغته العقرب، وسمي اللديغ سليمًا؛ تفاؤلًا بالسلامة على عادة العرب، كما يسمون الصحراء مفازة - وهي مهلكة - تفاؤلًا بالفوز والسلامة.

وقولها: «وَإِنَّ نَفَرَنَا غُيَبٌ» جمع غائب، يعني: غائبون، وقولها: «فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟» اسم فاعل من رقى يرقي، من باب ضرب يضرب، أما رقيت من الصعود، من رقي يرقى إذا صعد.

○ وقوله: «مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ» نأبنه أي: ما كنا نعلمه أنه يرقي، من أبن الرجل إذا رماه بخلة السوء، والأبن - بفتح الهمزة وسكون الباء - التهمة.

وفي هذا الحديث عدة فوائد:

منها: أن الفاتحة تسمى أم الكتاب.

ومنها: مشروعية الرقية بالفاتحة؛ لقول النبي ﷺ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!».

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالفاتحة وغيرها من القرآن؛ لقول النبي ﷺ: «ٱقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»؛ تطييبًا لنفوسهم.

بَابُ فَضْلِ البَقَرَةِ

{٥٠٠٨} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ».

{٥٠٠٩} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ».

{٥٠١٠} وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ الهَيْثَمِ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَصَّ الحَدِيثَ، فَقَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ».

الشَّرْح

{٥٠٠٨}، {٥٠٠٩} قوله: «مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ».

قيل: معناه كفتاه من قيام الليل؛ وهو مرجوح، وقيل: كفتاه من كل سوء؛ وهذا أقرب، وهناك أقوال أخرى ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله منها: أجزأتاه من قراءة القرآن مطلقًا، سواء كان داخل الصلاة أو خارجها، وقيل: أجزأتاه فيما يتعلق بالاعتقاد لما اشتملتا عليه من الإيمان والأعمال، وقيل: كفتاه شر الشيطان، وقيل: دفعتا عنه شر الإنس والجن، وقيل: كفتاه ما حصل له بسببها من الثواب.

وأولى هذه الأقوال القول الأول، والأرجح الثاني أن المعنى: كفتاه من كل سوء.

❖ ❖ ❖

{٥٠١٠} قوله: «عُثْمَانُ بْنُ الهَيْثَمِ»، هو من شيوخ البخاري، روى عنه مذاكرة، وتارة يروي عنه بواسطة، وتارة بدون واسطة، فلو قال: «وقال لي عثمان»، فهذا متصل، والمذاكرة سماع، ولكن صيغة التحديث في المذاكرة قد لا يقول فيها: حدثنا أو أخبرنا؛ احتياطًا ودقة، ويقول: «قال لي»، فلما سمع منه مذاكرة قال: «وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ الهَيْثَمِ»، وهو شيخه، ولكن ليس في مجلس التحديث.

وهذا حديث طويل سبق أن ذكره في الوكالة(١)، واختصره المؤلف وأتى بموضع الشاهد في قوله: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ».

وفيه: فضل آية الكرسي وأن من قرأها عند النوم فهو محفوظ من الشيطان.

وفيه: أن الكذوب قد يصدق أحيانًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «صَدَقَكَ وَهْوَ كَذُوبٌ»، وفي المثل يقولون: قد يصدق الكذوب.

وفيه: أن الحق يقبل ممن جاء به ولو كان كافرًا؛ فالشيطان كافر ومع ذلك جاء بالحق فقبل منه، ومن ذلك أن النبي ﷺ قبل الحق من اليهود؛ فمن ذلك أنه لما جاء حبر من الأحبار إليه وقال: «**يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه**»(٢)؛ تصديقًا لقول الحبر؛ فالحق يقبل ممن جاء به.

وإمساك أبي هريرة ﵁ لهذا الشيطان ليس فيه منافاة ولا معارضة لما جاء في القرآن على لسان سليمان ﵇: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]؛ لأنه ما سخر له وإنما أمسكه وتركه، مثل العفريت الذي جاء للنبي ﷺ فأخذه وهم أن يربطه في سارية من سواري المسجد(٣)، فهذا شيء قليل ولا يعتبر تسخيرًا ولا مشاركة لسليمان ﵇ في ملكه.

(١) البخاري في الوكالة، باب إذا وكل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل.
(٢) أحمد (١/ ٣٧٨)، والبخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).
(٣) أحمد (٢/ ٢٩٨)، والبخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

وأما قول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «يحتمل أن يكون المراد بالشيطان الذي هم النبي ﷺ أن يوثقه هو رأس الشياطين الذي يلزم من التمكن منهم فيضاهي حينئذ ما حصل لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من تسخير الشياطين»؛ فهذا ليس بظاهر، وقول الحافظ: «أو الشيطان الذي هم النبي ﷺ بربطه تبدى له في صفته التي خلق عليها، وكذلك كانوا في خدمة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ على هيئتهم، وأما الذي تبدى لأبي هريرة في حديث الباب فكان على هيئة الآدميين فلم يكن في إمساكه مضاهاة لملك سليمان» نقول: هذا ليس بجيد، والأقرب أن هذا ليس فيه موافقة لسليمان؛ لأن هذا شيء قليل.

بَابُ فَضْل سورة الكَهْفِ

{٥٠١١} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ».

الشَّرح

{٥٠١١} قوله: «كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ» يعني: بحبلين، قوله: «فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ»، فيه: أنه قرأ سورة الكهف وليس فيه دليل واضح على فضل سورة الكهف، وإنما فيه بيان فضل القرآن، فظاهر الحديث أن السكينة تتنزَّل عند قراءة القرآن.

وجاءت أحاديث في قراءة سورة الكهف يوم الجمعة لكنها ضعيفة، والصحيح ثبوت ذلك عن الصحابة ﭫ.

والسكينة فيها كلام لأهل العلم، وأرجح ما قيل فيها: إنها خلق من خلق الله، وهي طائفة من الملائكة، وذكر الحافظ ﴿رحمه الله﴾ أقوالًا في السكينة قال: «هي ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، وقيل: لها رأسان، وعن مجاهد: لها رأس كرأس الهر، وعن الربيع بن أنس: لعينها شعاع، وعن السدي: السكينة طست من ذهب من الجنة يغسل فيها قلوب الأنبياء، وعن أبي مالك قال: هي التي ألقى فيها موسى الألواح والتوراة والعصا، وعن وهب بن منبه: هي روح من الله، وعن الضحاك بن مزاحم قال: هي الرحمة، وعنه: هي سكون القلب؛ وهذا اختيار الطبري، وقيل: هي الطمأنينة، وقيل: الوقار، وقيل: الملائكة» والأقرب أنها خلق من خلق الله وهي طائفة من الملائكة، ويحتمل أنها خلق من خلق الله

مع الملائكة، كما قال الحافظ، أو كما قال النووي: «أنها شيء من المخلوقات فيها طمأنينة ورحمة ومعها الملائكة» واختيار النووي هذا قريب لحديث أبي هريرة: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**»(١).

---

(١) أحمد (٢/ ٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٩).

بَابُ فَضْلِ سُورَةِ الْفَتْحِ

{٥٠١٢} حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، نَزَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ. قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي حَتَّىٰ كُنْتُ أَمَامَ النَّاسِ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ. قَالَ: فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ. قَالَ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ». ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١].

الشَّرح

{٥٠١٢} هذا الحديث في فضل سورة الفتح، وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]، والمراد بهذا الفتح صلح الحديبية؛ سماه الله فتحًا لما يعقبه من المصالح العظيمة، وهو تمهيد لفتح مكة، والفتح الثاني: فتح مكة؛ قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]. ووجه فضل سورة الفتح أن النبي ﷺ قال: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾».

وسورة الفتح نزلت بعد رجوع النبي ﷺ من الحديبية.

وفيه: فضل عمر رضي الله عنه وخوفه - مع ما هو فيه من المنزلة - لمَّا لم يجبه النبي ﷺ ثلاثًا أن يكون قد نزل فيه قرآن.

بَابُ فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]

فِيهِ عَمْرَةُ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

{٥٠١٣} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ -وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا- فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ».

{٥٠١٤} وَزَادَ أَبُو مَعْمَرٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: أَخْبَرَنِي أَخِي قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ أَنَّ رَجُلًا قَامَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَأُ مِنَ السَّحَرِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا أَتَىٰ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ نَحْوَهُ.

{٥٠١٥} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ وَالضَّحَّاكُ المَشْرِقِيُّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ». فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «اللهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ». قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: عَنْ إِبْرَاهِيمَ مُرْسَلٌ، وَعَنِ الضَّحَّاكِ المَشْرِقِيِّ مُسْنَدٌ.

الشَّرْح

هذه الترجمة فيها فضل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وذكر المؤلف رحمه الله الأثر الذي فيه عمرة عن عائشة رضي الله عنها، وهو طرف من حديث أوله أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ فسئل عن ذلك. وفي آخره أن النبي ﷺ قال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**» فقال: إنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ:

«أخبروه أن الله يحبه»(١).

{٥٠١٣}، {٥٠١٤} هذان الحديثان فيهما دليل على أن: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن، يعني: في الأجر والفضيلة، وليس المراد أن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها ثلاث مرات كأنما قرأ القرآن، ولا تغني عن قراءة الفاتحة، فلو قرأها ثلاث مرات في صلاته ولم يقرأ الفاتحة ما صحت صلاته.

وبين العلماء كونها تعدل ثلث القرآن أن القرآن ثلاثة أقسام: الأول: خبر عن الماضي والمستقبل، والثاني: أوامر ونواه، والثالث: خبر عن الله والتوحيد، وهذا الثالث هو الذي تمحضت له وتخلصت له سورة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وخلَّصت قارئها من الشرك الاعتقادي، وتحدثت عما يتعلق بالله تعالى وإثبات وجوده وأحديته وصمديته وإثبات ربوبيته وصفاته وكماله واستحقاقه للعبادة.

❖ ❖ ❖

{٥٠١٥} قوله: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ». فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «اللهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ»»، يعني: هذا فيه مشقة، فلو قرأ في بعض الأيام ما استطاع أن يقرأ باستمرار، وجاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «**اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك**»؛ هذا في «الصحيحين»(٢)، وفي غيرهما: «**لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث**»(٣) فقراءة كل يوم عشرة أجزاء فيه مشقة؛ ولهذا قال الصحابة: أينا يستطيع ويطيق ذلك؟! فهو يحتاج إلى تجشم ومشقة.

○ قوله: «وَالضَّحَّاكُ المَشْرِقِيُّ» المشرقي بفتح الميم وسكون الشين المعجمة وكسر الراء، نسبة إلى مشرق بن زيد، بطن من همدان.

---

(١) البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).
(٢) البخاري (٥٠٥٤)، ومسلم (١١٥٩).
(٣) أحمد (٢/ ١٨٩)، وأبو داود (١٣٩٠)، والترمذي (٢٩٤٦)، وابن ماجه (١٣٤٧).

○ قوله: «**الفِربري**»، من تلاميذ البخاري، ولم يسمع هذا الكلام من البخاري فحمله عن أبي جعفر، قوله: «**سمعت أبا جعفر محمد بن أبي حاتم وراق أبي عبد الله**»، أبو عبد الله: هو البخاري، ووراق البخاري يعني: الذي ينسخ للبخاري، وكان من المكثرين والملازمين له.

○ قوله: «**عَنْ إِبْرَاهِيمَ مُرْسَلٌ، وَعَنِ الضَّحَّاكِ المَشْرِقِيِّ مُسْنَدٌ**» يعني: أن رواية إبراهيم النخعي عن أبي سعيد منقطعة، ورواية الضحاك عنه متصلة، ويفهم منه: أن البخاري يطلق على المنقطع لفظ المرسل، وعلى المتصل لفظ المسند، والمشهور في الاستعمال أن المرسل: ما يضيفه التابعي إلى النبي ﷺ، والمسند: ما يضيفه الصحابي إلى النبي ﷺ؛ بشرط أن يكون ظاهر الإسناد الاتصال، وأبو سعيد توفي عام الحرة سنة ثلاث وستين، وقيل: أربع، وقيل: خمس، وإبراهيم النخعي ولد عام ست وأربعين وتوفي بعد التسعين، فيمكن أن يكون سمع من أبي سعيد، لكن على طريقة البخاري لا بد من الالتقاء، وعلى طريقة مسلم يكفي المعاصرة، ورواية الضحاك المشرقي كأنها من طريق أخرى.

يقول ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «قال الفربري: سمعت أبا جعفر محمد بن أبي حاتم وراق أبي عبد الله يقول: قال أبو عبد الله: عن إبراهيم مرسل وعن الضحاك المشرقي مسند»، ثبت هذا عند أبي ذر عن شيوخه؛ والمراد أن رواية إبراهيم النخعي عن أبي سعيد منقطعة، ورواية الضحاك عنه متصلة، وأبو عبد الله المذكور هو البخاري المصنف؛ وكأن الفربري ما سمع هذا الكلام منه فحمله عن أبي جعفر عنه، وأبو جعفر كان يورق للبخاري؛ أي ينسخ له».

❁ ❁ ❁

بَابُ فَضْلِ الْمُعَوِّذَاتِ

{٥٠١٦} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَىٰ يَقْرَأُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجاءَ بَرَكَتِهَا.

{٥٠١٧} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا الْمُفَضَّلُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جمعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَىٰ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

الشَّرح

الحديث السابق فيه فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] وأنها تعدل ثلث القرآن، وورد أيضا في فضل سور أخرى أشار إليها الحافظ أن ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] تعدل ربع القرآن، وكذلك سورة النصر تعدل ثلث القرآن، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة: ١] تعدل ربع القرآن، وهذا الباب في فضل المعوذات، والمعوِّذات بالواو المشددة المكسورة؛ لأنها تعوِّذ المتعوِّذ بها، وهي السور الثلاث: الإخلاص والفلق والناس، وذكرت سورة الإخلاص معها تغليبًا.

{٥٠١٦} قوله: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَىٰ يَقْرَأُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجعُهُ كُنْتُ»، يعني: عائشة ﵂، قوله: «أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجاءَ بَرَكَتِهَا» فيه: مشروعية رقية الإنسان لنفسه؛ لأن الإنسان يشرع له أن يرقي نفسه، وأن رقيته لنفسه لا يخل بشرط السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فإن النبي ﷺ قال: «**هم الذين لا يسترقون**»(١)، يعني:

(١) أحمد (١/ ٢٧١)، والبخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨).

لا يطلبون أحدًا يرقيهم، فالسين والتاء للطلب، والإنسان إذا رقى نفسه لم يطلب من أحد شيئًا، فإذا كان الإنسان يرقي نفسه فهذا مشروع مستحب؛ لأن الإنسان الذي يطلب من أحد أن يرقيه فإنه تميل نفسه إلى الغير، أما الذي يرقي نفسه فإنه يتعلق قلبه بالله، فهو متوكل على الله فلا يخل بشرط السبعين ألفًا؛ والنبي ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، والنفث: هو النفخ مع الريق، ثم ذكرت عائشة رضي الله عنها أنه لما اشتد الوجع عليه ﷺ، صارت تقرأ هي في يديه المعوذات، وتمسح بيديه جسده؛ رجاء بركة يديه.

❖ ❖ ❖

{٥٠١٧} هذا الحديث فيه: مشروعية قراءة المعوذات الثلاث كل ليلة، وجمع الكفين والنفث فيهما ثم مسح الإنسان ما استطاع من جسده، فيبدأ بالمسح على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، وتكرار هذا ثلاث مرات، والنفث يكون قبل القراءة.

وظاهر الحديثين أن النبي ﷺ يفعل ذلك إذا اشتكى ومرض، ويفعله كذلك كل ليلة إذا أوى إلى فراشه عند النوم ولو لم يشتكِ.

ويباشر الإنسان رأسه ووجهه بيده، فإذا كان عليه ثياب فإنه يمسح على الثياب، وإذا استطاع أن يدخل يده داخل الثياب فليفعل، ولا بأس أن يفعل الإنسان هذا للأطفال ولمن عجز عن رقية نفسه؛ لأن عائشة رضي الله عنها كانت تفعل هذا مع النبي ﷺ.

بَابُ نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالْمَلَائِكَةِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ

{٥٠١٨} وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ الهَادِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابنهُ يَحْيَىٰ قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا ٱجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّىٰ مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا ابن حُضَيْرٍ، ٱقْرَأْ يَا ابن حُضَيْرٍ». قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَىٰ وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّىٰ لَا أَرَاهَا. قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟». قَالَ: لَا. قَالَ: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ». قَالَ ابن الهَادِ: وَحَدَّثَنِي هٰذَا الحَدِيثَ عَبْدُ اللهِ بْنُ خَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ.

الشَّرْح

هذه الترجمة في نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، وجمعه بين السكينة والملائكة يرجح اختيار النووي أن السكينة خلق من المخلوقات فيها طمأنينة ورحمة ومعها الملائكة، وكذلك عطف المؤلف الملائكة على السكينة فقال: «باب نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالْمَلَائِكَةِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ»، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «جمع بين السكينة والملائكة، ولم يقع في حديث الباب ذكر السكينة، ولا في حديث البراء الماضي في فضل سورة الكهف ذكر الملائكة، فلعل المصنف كان يرى أنهما قصة واحدة ... لكن ابن بطال جزم بأن الظلة السحابة والملائكة كانت فيها ومعها السكينة، قال ابن بطال: قضية الترجمة أن السكينة تنزل أبدًا مع الملائكة».

{٥٠١٨} فهذا الحديث فيه: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، والسكينة طائفة من الملائكة، والقول بأنها طائفة من الملائكة من عطف العام على الخاص.

وهذا الحديث معلق؛ لقوله: «وَقَالَ اللَّيْثُ»، فلم يأت بمسند، والليث من شيوخ البخاري، ووصل الحديث أبو عبيد في «فضائل القرآن»[١] كما قال الحافظ، وإنما علقه البخاري عنه لأسباب.

○ قوله: «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» هو: محمد بن إبراهيم التيمي، وهو من صغار التابعين، روى عن أسيد بن حضير، ولم يدرك أسيد بن حضير، فروايته عنه منقطعة، لكن الاعتماد في هذا الحديث ليس على رواية محمد بن إبراهيم عن أسيد، وإنما الاعتماد في وصل الحديث على الإسناد الثاني؛ وهو رواية عبد الله بن خباب عن أبي سعيد؛ فلهذا قال المؤلف في آخر الحديث: «قَالَ ابن الهَادِ: وَحَدَّثَنِي هٰذَا الحَدِيثَ عَبْدُ اللهِ بْنُ خَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ».

وجاء في هذا الحديث قصة أسيد بن حضير، وهي: «بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ» يعني: تحركت حركة قوية، قوله: «فَسَكَتَ»، يعني: عن القراءة، قوله: «فَسَكَتَتْ»، يعني: الفرس، قوله: «فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابنهُ يَحْيَىٰ قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ»، بأن ينقطع رباط الفرس فتطأ ابنه يحيى، قوله: «فَلَمَّا ٱجْتَرَّهُ»، أي: اجتر ولده من المكان حتى لا تطأه الفرس، قوله: «رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّىٰ مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا ابن حُضَيْرٍ، ٱقْرَأْ يَا ابن حُضَيْرٍ». قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَىٰ وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّىٰ لَا أَرَاهَا. قَالَ:

(١) «فضائل القرآن» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص٦٣).

«وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟». قَالَ: لَا. قَالَ: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارىٰ مِنْهُمْ»، فيه: أنه يمكن رؤية الملائكة، وقد رأى الصحابة جبريل عليه السلام حينما جاء في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر[(١)].

وفيه: فضل قراءة القرآن.

وفيه: أن الملائكة والسكينة تنزل عند قراءة القرآن.

وفيه: فضل سورة البقرة في صلاة الليل؛ لأنه كان يقرؤها، مع ما أعد الله من الثواب لقارئ القرآن، فيكون له بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لاسيما إذا كان يتدبر ويتأمل المعاني ويتحزن ويتخشع.

وفي التعليق على الحديث السابق في «باب فضل سورة الكهف»، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ««كان رجل» قيل: هو أسيد بن حضير كما سيأتي من حديثه نفسه بعد ثلاثة أبواب، لكن فيه أنه كان يقرأ سورة البقرة، وفي هذا أنه كان يقرأ سورة الكهف، وهذا ظاهره التعدد، وقد وقع قريب من القصة التي لأسيد لثابت بن قيس بن شماس لكن في سورة البقرة أيضًا» فيحتمل أنه تعددت معه القصة فقرأ مرة سورة البقرة وقرأ مرة سورة الكهف، فحصل له هذا وهذا، ويحتمل أنه غيره.

وقول النبي ﷺ: «اقْرَأْ يَا ابن حُضَيْرٍ»، يعني: استمر على قراءتك لتستمر لك البركة ونزول الملائكة واستماعها لقراءتك، وأسيد قد فهم هذا فجعل يعتذر ويقول: «فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَىٰ».

وذكر ابن حجر قول النووي: «يستفاد من هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة للملائكة» وتعقبه فقال: «الأولى أن يقيد هذا بالصالح مثلًا، والحسن الصوت».

لكن حديث جبريل ليس فيه تقييد، والحاضرون كلهم رأوه.

---

(١) أحمد (١/ ٥١)، ومسلم (٨).

واستنبط الشارح أن التشاغل في شيء من أمور الدنيا ولو كان من المباح قد يفوت الخير الكثير، فكيف إذا كان من غير المباح؟! فأسيد تشاغل بابنه يحيى وقطع القراءة ففاته هذا الخير؛ ولذا قال له النبي ﷺ: «**اقْرَأْ**»، يعني: استمر، فقال: يا رسول الله، خشيت على ابني يحيى.

بَابُ مَنْ قَالَ: لَمْ يَتْرُكِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ

{٥٠١٩} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَشَدَّادُ بْنُ مَعْقِلٍ عَلَى ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَقَالَ لَهُ شَدَّادُ بْنُ مَعْقِلٍ: أَتَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَ: مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ. قَالَ: وَدَخَلْنَا عَلَىٰ مُحَمَّدِ ابن الحَنَفِيَّةِ فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ.

الشَّرْح

{٥٠١٩} قوله: «مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ» يعني: ما ترك إلا القرآن، وترك السنة أيضًا، ولكن الغالب أن السنة بيان وإيضاح للقرآن؛ ففيها تفصيل وبيان لمجمله وتخصيص لعمومه وتقييد لمطلقه، وفي السنة بعض الأحكام القليلة التي ليست في القرآن، كتحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها.

وهذه الترجمة فيها: الرد على الرافضة الذين يزعمون أن كثيرًا من القرآن ذهب بذهاب حملته، وقالوا: إن مما ذهب النص على أن عليًّا هو الخليفة بعد رسول الله ﷺ ثم الحسن ثم الحسين، والنص على الأئمة الاثني عشر وأنهم الخلفاء.

والمؤلف أخرج عن محمد بن الحنفية - وهو محمد بن علي بن أبي طالب، وسمي بابن الحنفية؛ لأن أمه من سبايا بني حنيفة؛ تمييزًا له عن إخوته - للرد على الرافضة الذين يقولون: إن عليًّا هو الخليفة؛ فهذا ابنه محمد يقول لما سئل: «مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ»، يعني: ما ترك شيئًا مما تقوله الرافضة من أنه أوصى بالأئمة الإثني عشر، ولو كان هناك شيء يتعلق بأبيه لكان هو أحق الناس بالاطلاع عليه، وكذلك الأثر الأول الذي جاء عن ابن عباس ابن عم النبي ﷺ من آل البيت ومع ذلك قال: «مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**باب مَنْ قَالَ: لَمْ يَتْرُكِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ**»، أي: ما في المصحف، وليس المراد أنه ترك القرآن مجموعًا بين الدفتين؛ لأن ذلك يخالف ما تقدم من جمع أبي بكر ثم عثمان، وهذه الترجمة للرد على من زعم أن كثيرًا من القرآن ذهب لذهاب حملته، وهو شيء اختلقه الروافض لتصحيح دعواهم أن التنصيص على إمامة علي واستحقاقه الخلافة عند موت النبي ﷺ كان ثابتًا في القرآن، وأن الصحابة كتموه؛ وهي دعوى باطلة؛ لأنهم لم يكتموا مثل: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى**»(١) وغيرها من الظواهر التي قد يتمسك بها من يدعي إمامته، كما لم يكتموا ما يعارض ذلك أو يخصص عمومه أو يقيد مطلقه، وقد تلطف المصنف في الاستدلال على الرافضة بما أخرجه عن أحد أئمتهم الذين يدعون إمامته وهو محمد بن الحنفية - وهو ابن علي بن أبي طالب - فلو كان هناك شيء ما يتعلق بأبيه لكان هو أحق الناس بالاطلاع عليه، وكذلك ابن عباس فإنه ابن عم علي وأشد الناس له لزومًا واطلاعًا على حاله».

ثم قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**قَالَ: وَدَخَلْنَا**»، القائل هو عبد العزيز، ووقع عند الإسماعيلي: «**لم يدع إلا ما في هذا المصحف**»، أي: لم يدع من القرآن ما يتلى إلا ما هو داخل المصحف الموجود، ولا يرد على هذا ما تقدم في كتاب العلم عن علي أنه قال: «ما عندنا إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة»(٢)؛ لأن عليًّا أراد الأحكام التي كتبها عن النبي ﷺ، ولم ينف أن عنده أشياء أخر من الأحكام التي لم يكن كتبها، وأما جواب ابن عباس وابن الحنفية فإنما أرادا من القرآن الذي يتلى، أو أرادا ما يتعلق بالإمامة؛ أي لم يترك شيئًا يتعلق بأحكام الإمامة إلا ما هو بأيدي الناس، ويؤيد ذلك ما ثبت عن جماعة من الصحابة من ذكر أشياء نزلت من القرآن فنسخت تلاوتها وبقي حكمها، أو لم يبق، مثل حديث عمر: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما

(١) أحمد (١/ ١٧٩)، والبخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) البخاري (١١١).

البتة»[١]، وحديث أنس في قصة القراء الذين قتلوا في بئر معونة قال: فأنزل الله فيهم قرآنًا: «بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا»[٢]. وحديث أبي بن كعب: كانت الأحزاب قدر البقرة[٣]، وحديث حذيفة: ما يقرءون ربعها؛ يعني: براءة[٤]، وكلها أحاديث صحيحة، وقد أخرج ابن الضريس من حديث ابن عمر أنه كان يكره أن يقول الرجل: قرأت القرآن كله، ويقول: إن منه قرآنًا قد رفع. وليس في شيء من ذلك ما يعارض حديث الباب؛ لأن جميع ذلك مما نسخت تلاوته في حياة النبي ﷺ».

(١) أحمد (٥/ ١٨٣)، والنسائي في «الكبير» (٤/ ٢٧٠).
(٢) أحمد (٣/ ١٠٩)، والبخاري (٢٨٠١).
(٣) أحمد (٥/ ١٣٢).
(٤) الحاكم (٢/ ٣٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٨٥).

بَابُ فَضْلِ القُرْآنِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَلَام

{٥٠٢٠} حَدَّثنا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ أَبُو خَالِدٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثنَا قَتَادَةُ، حَدَّثنا أَنَسٌ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا».

{٥٠٢١} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ دِينَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلَا مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ كَمَثَلِ رَجُلٍ ٱسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى العَصْرِ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ العَصْرِ إِلَى المَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقَلُّ عَطَاءً، قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَاكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ شِئْتُ».

الشَّرْح

{٥٠٢٠} هذا الباب فيه: فضل القرآن على سائر الكلام، وأن قارئ القرآن له فضل حتى ولو كان من غير المؤمنين، وفي هذا الحديث ضرب الأمثال، والأمثال تقريب للمعنى، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، والنبي ﷺ ضرب أربعة أمثلة للناس في قراءة القرآن؛ مثلين للمؤمنين ومثلين للمنافقين.

المثل الأول: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب - وهذا الإيمان وريحها طيب - وهذا القرآن.

المثل الثاني: للمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب - وهذا الإيمان - ولا ريح لها؛ لأنه ليس معه القرآن.

ومثلان للمنافق أو الفاجر؛ فجاء في الحديث: «**وَمَثَلُ الفَاجِرِ**»، وفي الحديث الآخر: «**ومثل المنافق**»(١).

المثل الثالث: مثل الفاجرالذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب؛ لأن معه القرآن، وطعمها مر؛ لأن معه الكفر والنفاق.

المثل الرابع: مثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر؛ لأنه معه الكفر والنفاق، ولا ريح لها؛ لأنه ليس معه قرآن، والحنظلة معروفة ويسميها بعض الناس: الشَّرِي، وهي خضراء قريبة من التفاحة، لكن طعمها شديد المرارة.

❖ ❖ ❖

{٥٠٢١} هذا الحديث فيه: أمثال ضربها الله تعالى لهذه الأمة مع اليهود والنصارى، وقوله: «**إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِي أَجَلِ مَنْ خَلَا مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ العَصْرِ وَمَغْرِبِ الشَّمْسِ**» فيه: بيان أجل هذه الأمة في الدنيا، ونسبة بقاء هذه الأمة في الدنيا؛ فأجل هذه الأمة فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس؛ يعني: أن الأمم السابقة من آدم ﷺ إلى بعثة النبي ﷺ بين طلوع الشمس إلى أذان العصر، وهذه الأمة مدتها كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، فإذا قدرت الفترة من بعد العصر إلى المغرب فإنه يساوي أقل من الربع، فقد يساوي خمسًا أو سدسًا تقريبًا، ولكنه أيضًا وقت طويل؛ لأن الأمم السابقة كثيرة، فإذا كانت على كثرتها خمسة أسداس فرضًا، فهو بالنسبة لنا وقت طويل.

ثم ذكر النبي ﷺ ثلاثة أمثلة: مثلًا لليهود ومثلًا للنصارى ومثلًا لهذه الأمة:

المثل الأول: مثل اليهود في قوله: «**كَمَثَلِ رَجُلٍ ٱسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَىٰ نِصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ**».

---

(١) أحمد (٤/٤٠٨)، والبخاري (٥٠٥٩)، ومسلم (٧٩٧).

المثل الثاني: مثل النصارى في قوله: «**فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى العَصْرِ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَىٰ**».

المثل الثالث: مثل هذه الأمة في قوله: «**ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ العَصْرِ إِلَى المَغْرِبِ بِقِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالُوا**»، يعني: اليهود والنصارى، «**نحن أكثر عملًا وأقل عطاء**»، يعني: هؤلاء أقل عملًا - من العصر إلى المغرب - ويأخذون قيراطين، ونحن عملنا أطول - من الصباح إلى الظهر - ونأخذ قيراطًا واحدًا، فقال: «**هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَاكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ شِئْتُ**»، وفي اللفظ الآخر: «**أنه غضبت اليهود والنصارى فقالوا: ما لنا أكثر عملًا وأقل عطاء؟ قال: هل نقصتكم من حقكم؟**»[(١)]، وهذا فيه: فضل هذه الأمة.

ومناسبة الحديث للترجمة أن هذه الأمة أوتيت القرآن بخلاف الأمم السابقة التي لم تؤت القرآن، والقرآن أفضل الكتب، وضعَّف الله أجور هذه الأمة بما آتاها من القرآن، وبإرسال هذا النبي الكريم ﷺ، والمقصود من تلاوة القرآن العمل به، فالخيرية إنما تحصل للإنسان إذا قرأ القرآن وعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٢١]، وتلاوة القرآن وإن كانت عبادة، وبكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ إلا أنها وسيلة إلى التلاوة الحكمية، وهي تصديق أخباره وتنفيذ أحكامه.

(١) البخاري (٢٢٦٨).

بَابُ الوَصَاةِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ.

{٥٠٢٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ، حَدَّثَنَا طَلْحَةُ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَىٰ: أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ: لَا. فَقُلْتُ: كَيْفَ كُتِبَ عَلَى النَّاسِ الوَصِيَّةُ، أُمِرُوا بِهَا وَلَمْ يُوصِ؟ قَالَ: أَوْصَىٰ بِكِتَابِ اللهِ.

الشَّرْح

○ قوله: «بَاب الوَصَاةِ بِكِتَابِ اللهِ ﷻ»، والوَصاية والوِصاية بفتح الواو وكسرها، وفي رواية الكشميهني: «**باب الوصية بكتاب الله**».

{٥٠٢٢} ذكر حديث عبد الله بن أبي وفى لما سأله طلحة قائلًا: «آوصى النبي ﷺ؟» المد هنا للاستفهام وتقديره: أأوصى النبي ﷺ؟ فسهلت الهمزة وصارت مدًّا، قوله: «فَقَالَ: لَا»، ثم قال بعد ذلك: «أَوْصَىٰ بِكِتَابِ اللهِ»؛ والجمع بينهما: أنه ما أوصى فيما يتعلق بالإمارة والولاية، ولو أوصى لكانت الوصية لأبي بكر ؓ، ولكن أوصى بكتاب الله حسًّا ومعنى؛ وذلك بحفظه والعمل به؛ بحفظه: كأن لا يسافر به إلى أرض العدو، والعمل به: بأن تصدق أخباره، وتنفذ أحكامه، وتمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه.

بَابٌ مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

{٥٠٢٣} حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ بُكَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابن شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ». وَقَالَ صَاحِبٌ لَهُ: يُرِيدُ يَجْهَرُ بِهِ.

{٥٠٢٤} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَىء مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ». قَالَ سُفْيَانُ: تَفْسِيرُهُ: يَسْتَغْنِي بِهِ.

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «باب مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» يعني: ما حكمه؟ وفي الحديث: يقول النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1].

○ وقوله: «من لم يتغن بالقرآن» فيه: الوعيد الشديد على من لم يتغن بالقرآن؛ لقوله: «ليس منا»، وهي تدل على أن الفعل من الكبائر، كقوله: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا»[2] وذلك لأن المقصود من القرآن تحسين الصوت والتخشع والتحزن؛ حتى يحصل التدبر والفائدة والعمل، وليس المقصود مجرد التلاوة فقط.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] يعني: القرآن فيه كفاية.

والمؤلف صدَّر هذا الباب بهذه الآية كأنه يريد أن يفسر التغني بما فسر به سفيان وهو: «يَسْتَغْنِي بِهِ»، فيكون تفسير سفيان موافق للآية الكريمة.

(١) أحمد (١/ ١٧٢)، والبخاري (٧٥٢٧).
(٢) أحمد (٢/ ٤١٧)، ومسلم (١٠١)، وشطره الأول عند البخاري (٦٨٧٤).

{٥٠٢٣} ذكر حديث أبي هريرة من طريقين: الطريق الأولى: أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيء مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ» و«أذن» بمعنى: استمع.

وفيه: إثبات الاستماع لله، وهو من الصفات الفعلية، على ما يليق بجلال الله وعظمته.

○ قوله: «وَقَالَ صَاحِبٌ لَهُ: أن يُرِيدُ يَجْهَرُ بِهِ»، يعني: فسر «يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ»، أي: يجهر به.

❖ ❖ ❖

{٥٠٢٤} والطريق الثانية: نقل تفسير سفيان بن عيينة وذلك قوله: «تَفْسِيرُهُ: يَسْتَغْنِي بِهِ»، يعني: تفسير سفيان لقوله: «يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ»، هو: يستغني به، وظاهر الحديث لا يفهم منه ذلك؛ لأن معنى: «يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ» يحسن صوته به ويترنم به قراءة المتخشع المتحزن، ويؤيده قوله: «لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ»، يعني: يحسن صوته.

وتفسير سفيان يخالف حديث: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»(١) يعني: ليس منا من لم يحسن صوته بالقراءة، وحديث البراء: «أن النبي ﷺ صلى بالناس صلاة العشاء فقرأ سورة ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ [التِّين: ١] وما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه أو قراءة»(٢)، وقال لأبي موسى الأشعري: «**لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود**»(٣)، وقال له أيضًا: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة**»(٤).

وظواهر الأخبار ترجح أن المراد بالتغني تحسين الصوت بالقراءة؛ ويؤيده قوله: «يَجْهَرُ بِهِ»، ولكن تفسير سفيان بن عيينة هو الذي رجحه البخاري حينما ساق هذه الآية: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العَنكبوت: ٥١]؛

(١) أحمد (١/ ١٧٢)، والبخاري (٧٥٢٧).
(٢) أحمد (٤/ ٢٩٨)، والبخاري (٧٦٩)، ومسلم (٤٦٤).
(٣) أحمد بنحوه (٥/ ٣٥١)، والبخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).
(٤) مسلم (٧٩٣).

فلا مانع من إرادته كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «يمكن الجمع بين التأويلات بأنه يحسن صوته به - يعني بالقرآن - جاهرًا به مترنمًا على طريقة التحزن، مستغنيًا به عن غيره من الأخبار، طالبًا به غنى النفس، راجيًا به غنى اليد».

ونظم الحافظ هذه المعاني في بيتين فقال:

تغن بالقرآن حسن به الصوت حزينًا جاهرًا رنم
واستغن عن كتب الألى طالبًا غنى يد والنفس ثم الزم

وقال الحافظ أيضًا: «قوله: «**قَالَ سُفْيَانُ: تَفْسِيرُهُ: يَسْتَغْنِي بِهِ**»، كذا فسره سفيان، ويمكن أن يستأنس بما أخرجه أبو داود وابن الضريس وصححه أبو عوانة عن ابن أبي مليكة عن عبيدالله بن أبي نهيك قال: لقيني سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنا في السوق فقال: تجار كسبة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»[1] وقد ارتضى أبو عبيد تفسير يتغنى بيستغني وقال: إنه جائز في كلام العرب، وأنشد الأعشى:

وكنت امرأً زمنًا بالعراق خفيف المناخ طويل التغني

أي كثير الاستغناء، وقال المغيرة بن حبناء:

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

قال: فعلى هذا يكون المعنى: من لم يستغن بالقرآن عن الإكثار من الدنيا فليس منا، أي: على طريقتنا، واحتج أبو عبيد أيضًا بقول ابن مسعود: «من قرأ سورة آل عمران فهو غني»، ونحو ذلك، وقال ابن الجوزي: اختلفوا في معنى قوله: «يتغنى» على أربعة أقوال: أحدها: تحسين الصوت، والثاني: الاستغناء، والثالث: التحزن؛ قاله الشافعي، والرابع: التشاغل به، تقول العرب: تغنى بالمكان أقام به. قلت: وفيه قول آخر حكاه ابن الأنباري في «الزاهر» قال: المراد به التلذذ والاستحلاء له، كما يستلذ أهل الطرب بالغناء».

---

(١) أبو داود (١٤٦٩)، وأبو عوانة (٢/ ٤٧٢).

بَابُ ٱغْتِبَاطِ صَاحِبِ القُرْآنِ

{٥٠٢٥} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى ٱثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

{٥٠٢٦} حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، سَمِعْتُ ذَكْوَانَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي ٱثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ».

الشَّرح

○ قوله: «باب ٱغْتِبَاطِ صَاحِبِ القُرْآنِ» من الغبطة، والغبطة: هي أن يتمنى المرء مثل ما لغيره من الخير، والحافظ رحمه الله وجه هذه الترجمة؛ وذلك أن الإسماعيلي اعترض على هذه الترجمة قال: «"باب ٱغْتِبَاطِ صَاحِبِ القُرْآنِ" وهذا فعل صاحب القرآن، فهو الذي يغتبط، وإذا كان يغتبط بفعل نفسه كان معناه أنه يسر ويرتاح بفعل نفسه، وهذا ليس مطابقًا» والحديث فيه غبطة غيره له.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ويمكن الجواب بأن مراد البخاري: بأن الحديث لما كان دالًّا على أن غير صاحب القرآن يغتبط صاحب القرآن بما أعطيه من العمل بالقرآن، فاغتباط صاحب القرآن بفعل نفسه أولى إذا سمع هذه البشارة الواردة في حديث الصادق».

{٥٠٢٥} قوله: «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى ٱثْنَتَيْنِ» المراد بالحسد هنا: الغبطة، يعني: لا غبطة إلا في خصلتين:

الخصلة الأولى: «رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ» يعني: القرآن، «وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ»، يعني: عمل بما فيه، فنفذ أحكامه، وصدق أخباره، وامتثل أوامره، واجتنب نواهيه. وفي رواية: «**وآناء النهار**»(١).

الخصلة الثانية: «وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»؛ والمراد بالآناء هنا: ساعات الليل والنهار، فهذان مغبوطان.

والحسد نوعان:

النوع الأول: أن يتمنى زوال النعمة عن أخيه المسلم؛ وهذا هو الحسد المذموم، الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وهو الذي جاء في الاستعاذة في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفَلَق: ٥].

النوع الثاني: الغبطة، وهو أن تتمنى أن يكون لك من الخير مثل ما لأخيك، من غير أن تتمنى زواله عنه، وهذا لا بأس به، كأن ترى إنسانًا مثلًا أعطاه الله علمًا تتمنى أن تكون مثله، أو أعطاه الله مالًا فهو ينفقه في المشروعات الخيرية؛ فتتمنى أن تكون مثله.

❖ ❖ ❖

{٥٠٢٦} في هذا الحديث قال ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي ٱثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»، وفي الحديث الآخر: «**فهما في الأجر سواء**»(٢) فهذا بالعمل وهذا بالنية، وفيه: دليل على أن الإنسان يبلغ بنيته مبلغ العمل.

○ وقوله: «يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ»، يعني: القيام بالقرآن آناء الليل وآناء النهار، والتصدق بالمال آناء الليل وآناء النهار على وجه لا يخل بالمصالح الأخرى؛ جمعًا بين النصوص؛ لأن الرسول ﷺ لا يتناقض؛ فهذان مغبوطان: الرجل

---

(١) أحمد (٢/ ٣٦)، ومسلم (٨١٥).
(٢) أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨).

الأول: رجل أعطاه الله العلم والقرآن فهو يعمل بعلمه فهذا يغبط، والثاني: رجل وفقه الله لكسب المال من الوجوه المشروعة، وأنفقه في الوجوه المشروعة، والمشروعات الخيرية ووجوه البر وهذا يغبط أيضًا؛ فكلاهما مغبوط.

بَابٌ خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ

{٥٠٢٧} حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَلْقَمَةُ بْنُ مَرْثَدٍ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عُثْمَانَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». قَالَ: وَأَقْرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي إِمْرَةِ عُثْمَانَ حَتَّىٰ كَانَ الحَجَّاجُ، قَالَ: وَذَاكَ الذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هٰذا.

{٥٠٢٨} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

{٥٠٢٩} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ ٱمْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّهَا قَدْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلهِ وَلِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ». فَقَالَ رَجُلٌ: زَوِّجْنِيهَا. قَالَ: «أَعْطِهَا ثَوْبًا». قَالَ: لَا أَجِدُ. قَالَ: «أَعْطِهَا وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ». فَاعْتَلَّ لَهُ. فَقَالَ: «مَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ؟». قَالَ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ».

الشَّرْح

○ قوله: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» فترجم بلفظ الحديث لهذا الباب.

{٥٠٢٧} ذكر حديث أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن أو علمه».

○ قوله: «قَالَ: وَأَقْرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي إِمْرَةِ عُثْمَانَ حَتَّىٰ كَانَ الحَجَّاجُ»، يعني: استمر أبو عبد الرحمن السلمي يعلم الناس القرآن ويدرسهم إياه من إمارة عثمان بن عفان إلى زمن الحجاج، يعني: ما يقرب من أربعين سنة، ثم قال أبو عبد الرحمن السلمي: «وَذَاكَ الذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدِي هٰذا»، يعني: إن حديث عثمان في أفضلية من تعلم القرآن وعلمه هو الذي شجعني على أن قعدت أعلم الناس القرآن؛ لتحصيل هذه الفضيلة.

{٥٠٢٨} قوله: «إن أفضلكم من تعلم القرآن أو علمه»، فظاهر الحديثين أن المراد بتعلم القرآن وتعليمه ألفاظه، لا تعلم تفسيره ومعانيه، وإن كان تعلم معانيه مطلوبًا، لكن له فضل آخر وفوائد أخرى، فالمراد تعلم ألفاظه.

❖ ❖ ❖

{٥٠٢٩} استدل المؤلف بهذا الحديث على فضل القرآن؛ حيث إن النبي ﷺ زوج على تعليم القرآن، فهذه المرأة أتت النبي ﷺ فقالت: «إِنَّهَا قَدْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا وَلِرَسُولِ»، وهبة المرأة نفسها للنبي ﷺ من خصائصه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزَاب: ٥٠]، أما غير النبي ﷺ فلا يجوز لامرأة أن تهب نفسها له؛ لأنه لا يصح الزواج إلا بولي وشاهدي عدل ورضا الزوجة والمهر.

وورد أن بعض النساء عابت عليها؛ فقال لها بعض الصحابة: إنها خير منك؛ رغبت في النبي ﷺ. هذا وقد ذكر العلماء عددًا من الواهبات اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ.

○ قوله: «مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ». فَقَالَ رَجُلٌ: زَوِّجْنِيهَا» يحتمل أن هذه المرأة ليس لها ولي؛ والرسول ولي من لا ولي له، أو أن وليها قد وكل النبي ﷺ.

○ قوله: «قَالَ: «أَعْطِهَا ثَوْبًا». قَالَ: لَا أَجِدُ. قَالَ: «أَعْطِهَا وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ» فيه: دليل على جواز لبس خاتم الحديد.

وفيه: دليل على ضعف الحديث الذي فيه أن الحديد حلية أهل النار(١).

وفي اللفظ الآخر في حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما أن المرأة لما وهبت نفسها قال: زوجنيها، قال: «فهل عندك من شيء»، يعني: يكون مهرًا لها، فقال: لا والله يا رسول الله، فقال: «اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً» فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئا. فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتمًا من

(١) أحمد (٢/ ١٦٣)، وأبو داود (٤٢٢٣)، والترمذي (١٧٨٥)، والنسائي (٥١٩٥).

حديد» فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتمًا من حديد، ولكن هذا إزاري، وكان الرجل عليه إزار وليس عليه رداء؛ من فقره، وكان على عادة العرب أن يلبس الواحد إزاراً ورداء مثل المحرم؛ فقال النبي ﷺ: «**ما تصنع بإزارك؛ إن لبِسْتَه لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسَتْه لم يكن عليك منه شيء**» فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه ذهب، فأمر النبي ﷺ بأن يُستدعى، فلما دعاه قال: «**ماذا معك من القرآن؟**» قال: معي سورة كذا وسورة كذا. قال: «**تقرؤهن عن ظهر قلب؟**» قال: نعم. قال: «**اذهب فقد مُلِّكتها بما معك من القرآن**»(١).

وفي هذا الحديث قال: «مَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟». قَالَ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»؛ فدل على جواز كون المهر تعليم القرآن إذا كان لا يجد مالًا، مثل أن يعلمها سورة الفاتحة أو سورة البقرة أو سورة آل عمران أو من قصار السور إذا كانت لا تحفظ، ويجوز أن يكون المهر تعليمها الخياطة، أو يحفظها أبيات من الشعر.

وفيه: دليل على جواز أن يكون الصداق منفعة، ومن ذلك أن موسى عليه السلام تزوج إحدى ابنتي الرجل الصالح على منفعة، وهي أن يرعى الغنم ثماني سنين، وذلك لما قال له: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القَصَص: ٢٧]، فزوَّجَه، والمهر أن يرعى الغنم ثماني سنين، فهذا وإن كان في شرع من قبلنا لكن في شرعنا ما يدل عليه؛ فهذا الحديث دل على جواز أن يكون الصداق منفعة عند عدم المال، أما إذا وجد المال فهو الأصل؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ [النِّسَاء: ٢٤].

(١) أحمد (٥/ ٢٣٤) بنحوه، والبخاري (٥٠٣٠)، ومسلم (١٤٢٥).

بَابُ القِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ القَلْبِ

{٥٠٣٠} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ ٱمْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ لأَهَبَ لَكَ نَفْسِي، فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَتِ المَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا. فَقَالَ: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟». فَقَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «اذْهَبْ إِلَىٰ أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا». فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا. قَالَ: «انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ». فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، ولكن هٰذا إِزَارِي -قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِدَاءٌ- فَلَهَا نِصْفُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ شَيْءٌ». فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّىٰ طَالَ مَجْلِسُهُ، ثُمَّ قَامَ، فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُوَلِّيًا، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: «مَاذَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ؟». قَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا. عَدَّهَا، قَالَ: «أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ».

الشَّرْح

هذه الترجمة «باب القِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ القَلْبِ» سكت فيها المؤلف رحمه الله عن ذكر الحكم، وكأن التقدير: باب فضل القراءة عن ظهر قلب.

{٥٠٣٠} قول سهل: «أَنَّ ٱمْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ لأَهَبَ لَكَ نَفْسِي» فيه: بيان أن من خصوصيات النبي ﷺ أن المرأة تهب له نفسها، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، أما غير النبي ﷺ فلا يجوز لامرأة أن تهب نفسها له، بل لا بد من ولي وشاهدي عدل

ومهر، وفي الحديث: «**لا تزوج المرأةُ المرأةَ ولا تزوج المرأة نفسها؛ فإن الزانية هي التي تزوج نفسها**»[(١)].

○ قوله: «**فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ**» يعني: نظر إليها جيدًا، قوله: «**ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ**» يعني: كأنه لا يريدها، قوله: «**فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا**»، ثم قال في آخره: «**فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا**»، ووجه عدم ذكره للولي في الحديث يحتمل أن وليها جاء وجعل تزويجها إلى النبي ﷺ، لكن لم يذكر في الحديث، ويحتمل أن المرأة لا ولي لها، ويحتمل أن الرسول ﷺ زوجها بدون وليها؛ لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولكن الأصل أنه ﷺ مشرع، فإما أنه لا ولي لها والرسول ﷺ هو الإمام والسلطان، و«**السلطان ولي من لا ولي له**»[(٢)]، وإما أن يكون حضر وليها وجعل تزويجها إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ للرجل: «**مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ**».

○ قوله: «**هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟**». **فَقَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «اذْهَبْ إِلَىٰ أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا»**، فيه: دليل على أنه لا بد من المهر في الزواج، وقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [النِّسَاء: ٤]؛ فلو كان الزواج يجوز بدون مهر لزوجه بدون مهر، والله تعالى يقول: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ [النِّسَاء: ٢٤]. قوله: «**فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا. قَالَ: «انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ»** فيه: دليل على جواز لبس الخاتم من الحديد، وأما ما ورد في النهي عن لبس الحديد، وأنه حلية أهل النار[(٣)]، فإنه لا يصح، ولو صح فهو شاذ؛ لمخالفته الأحاديث الصحيحة.

والصحابة - رضوان الله عليهم - جالسون ينظرون هذه القصة، ولم يعطه أحد، ولعلهم لم يعطوه - والله أعلم - ليعلموا الحكم الشرعي في هذا.

---

(١) ابن ماجه (١٨٨٢)، والدارقطني (٣/ ٢٢٧).
(٢) أحمد (٦/ ١٦٥)، وأبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩).
(٣) أحمد (٢/ ١٦٣)، وأبو داود (٤٢٢٣)، والترمذي (١٧٨٥)، والنسائي (٥١٩٥).

وهذا الحديث فيه: بيان الشدة التي أصابت الصحابة - رضوان الله عليهم - في أول الهجرة؛ فهذا الرجل لم يجد شيئًا حتى إنه ليس له إلا إزار - وهو قطعة قماش يشد بها النصف الأسفل، والنصف الأعلى مكشوف - ولما لم يجد شيئًا قال: «ولكن هٰذا إِزَارِي - قَالَ سَهْلٌ: مَا لَهُ رِدَاءٌ» فجملة: «مَا لَهُ رِدَاءٌ» جملة معترضة، والتقدير: ولكن هذا إزاري فلها نصفه. فقال النبي ﷺ: «مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ؟ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ» يعني: هي «لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ»، فقد كان هناك عدد من الصحابة يسكنون في المسجد يسمون: أصحاب الصفة، ما لهم أهل ولا أموال ولا أولاد ولا مسكن، فإذا جاء النبي ﷺ شيء أو هدية دعاهم وأعطاهم، وكان الواحد منهم إذا سجد يجمع ثوبه خشية أن ترى عورته، وكان الواحد منهم قد يسقط إذا قام؛ بسبب الجوع، ثم بعد ذلك فتح الله عليهم، ولم يضرهم ذلك، وحفظوا القرآن وحفظوا السنة وجاهدوا في سبيل الله، وبلغوا دين الله، فأفلحوا ونجحوا.

○ قوله: «مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا»، فيه: جواز قول: سورة كذا وسورة كذا، وفيه: الرد على من منع من ذلك كالحجاج بن يوسف أمير العراق الذي تورع من قول: سورة كذا وخطب الناس فقال: لا تقولوا سورة كذا، وقولوا: السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وهذا التورع لا وجه له؛ لأن النبي قال: «مَلَّكْتُكَهَا» ولم ينكر على هذا الرجل قوله، وسيأتي أن النبي ﷺ قال: «**رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا وكذا**»[1]، وقال ابن مسعود: «هذا مقام الذي أُنزلت عليه سورة البقرة»؛ فلا بأس من قول: سورة كذا، ومن منع ذلك فقوله مرجوح.

وفيه: فضل القراءة عن ظهر قلب؛ لقوله ﷺ: «أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟»؛ لأنه أمكن في التعليم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «بَابُ القِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ القَلْبِ» ذكر فيه حديث سهل في الواهبة مطولًا، وهو ظاهر فيما ترجم له؛ لقوله فيه: «أَتَقْرَؤُهُنَّ

(١) أحمد (٦/ ٦٢)، والبخاري (٢٦٥٥)، ومسلم (٧٨٨).

عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟» قال: نعم. فدل على فضل القراءة عن ظهر القلب؛ لأنها أمكن في التوصل إلى التعليم، وقال ابن كثير: إن كان البخاري أراد بهذا الحديث الدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل من تلاوته نظرًا من المصحف ففيه نظر؛ لأنها قضية عين، فيحتمل أن يكون الرجل كان لا يحسن الكتابة، وعلم النبي ﷺ ذلك، فلا يدل ذلك على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل في حق من يحسن ومن لا يحسن، وأيضًا فإن سياق هذا الحديث إنما لاستثبات أنه إنما يحفظ تلك السور عن ظهر قلب؛ ليتمكن من تعليمه لزوجته، وليس المراد أن هذا أفضل من التلاوة نظرًا ولا عدمه. قلت: ولا يرد على البخاري شيئًا مما ذكر؛ لأن المراد بقوله: **«بَابُ القِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ القَلْبِ»**، مشروعيتها أو استحبابها، والحديث مطابق لما ترجم به، ولم يتعرض لكونها أفضل من القراءة نظرًا، وقد صرح كثير من العلماء بأن القراءة من المصحف نظرًا أفضل من القراءة عن ظهر قلب، وأخرج أبو عبيد في فضائل القرآن من طريق عبيدالله بن عبد الرحمن عن بعض أصحاب النبي ﷺ رفعه، قال: «**فضل قراءة القرآن نظرًا على من يقرؤه ظهرًا كفضل الفريضة على النافلة**»(١)، وإسناده ضعيف، ومن طريق ابن مسعود موقوفًا: «أديموا النظر في المصحف»(٢)، وإسناده صحيح، ومن حيث المعنى أن القراءة في المصحف أسلم من الغلط، لكن القراءة عن ظهر قلب أبعد عن الرياء وأمكن للخشوع، والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص».

وهذا هو الصواب أنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ فقد يكون عن ظهر قلب عند بعض الناس أولى، وقد يكون عند بعض الناس من المصحف أولى.

ثم قال ﵀: «وأخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح عن أبي أمامة: «اقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة؛ فإن الله لا يعذب قلبًا وعى

---

(١) «فضائل القرآن» لأبي عبيد بن سلام (ص١٠٤).
(٢) «فضائل القرآن» لأبي عبيد (ص١٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٣٩).

القرآن»[٣]، وزعم ابن بطال أن في قوله: «أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟» ردًّا لما تأوله الشافعي في إنكاح الرجل على أن صداقها أجرة تعليمها، كذا قال. ولا دلالة فيه لما ذكر، بل ظاهر سياقه أنه استثبته كما تقدم، والله أعلم».

○ قوله: «فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا»، فيه: دليل على أن الزواج يجوز بلفظ الزواج، وباللفظ الذي يدل على معناه كملكتك، وأنكحتك.

والشاهد على الترجمة قوله: «أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ؟»، هذا هو الشاهد؛ لأنه أمكن في التوصل إلى التعليم.

فائدة:

القاعدة أن المصادر كلها بالنصب فتقول: الدَّلالة والوَكالة والتَّعداد والتَّرداد؛ ويستثنى من هذه القاعدة مصدران هما: تِلقاء وتِبيان، فهما بالكسر.

---

(٣) وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ص٨٧)، والدارمي (٢/ ٥٢٤) وغيرهما من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

بَابُ اسْتِذْكَارِ القُرْآنِ وَتَعَاهُدِهِ

{٥٠٣١} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابن عُمَرَ ﵄ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ».

{٥٠٣٢} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَرْعَرَةَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِئْسَ مَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا القُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ».

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ مِثْلَهُ. تَابَعَهُ بِشْرٌ، عَنِ ابن المُبَارَكِ، عَنْ شُعْبَةَ. وَتَابَعَهُ ابن جُرَيْجٍ، عَنْ عَبْدَةَ، عَنْ شَقِيقٍ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ.

{٥٠٣٣} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ العَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَاهَدُوا القُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا».

الشَّرْح

○ قوله: «باب استذكار القرآن وتعاهده» استذكار يعني: طلب ذكره بضم الذال، أي: تذكره وتعاهده وتجديد العهد به بملازمة تلاوته.

{٥٠٣١} هذا الحديث فيه: ضرب المثل لصاحب القرآن بصاحب الإبل المعقلة، وضرب الأمثال يفيد الإنسان بأن ينتقل من الأمر الحسي إلى الأمر المعنوي، قوله: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ»، يعني: الذي معه القرآن، قوله: «كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ» التي ربطت أيديها بالعقال حينما بركت، قوله: «إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»، وكذلك صاحب القرآن؛ إن تعاهده وقرأه بقي، وإلا ذهب.

وفيه: أنه ينبغي استذكار القرآن وتعاهده؛ فالإبل المعقلة إذا كانت يدها مربوطة بالعقال فإنها تحركه ثم ينفلت هذا العقال وتذهب، وهذا إذا لم يكن عندها صاحبها، أما إذا كان عندها فإنه إذا انفلتت قام وربط العقال مرة ثانية، وإذا تحركت ثانية ربطها فبقيت، وكذلك صاحب القرآن إن عاهد عليه فصار يقرؤه بقي، وإلا ذهب، وهذه نصيحة من النبي ﷺ لأمته، والنبي ﷺ أنصح الناس للناس.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**بَابُ ٱسْتِذْكَارِ القُرْآنِ**» أي: طلب ذكره بضم الذال، «**وَتَعَاهُدِهِ**» أي: تجديد العهد به بملازمة تلاوته، وذكر في الباب ثلاثة أحاديث؛ الأول: قوله: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ**»، أي: مع القرآن، والمراد بالصاحب الذي ألفه، قال عياض: المؤالفة المصاحبة، وهو كقوله: أصحاب الجنة، وقوله: ألفه؛ أي ألف تلاوته، وهو أعم من أن يألفها نظرًا من المصحف أو عن ظهر قلب، فإن الذي يداوم على ذلك يذل له لسانه ويسهل عليه قراءته، فإذا هجره ثقلت عليه القراءة وشقت عليه، وقوله إنما يقتضي الحصر على الراجح، لكنه حصر مخصوص بالنسبة إلى الحفظ والنسيان بالتلاوة والترك، قوله: «**كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ**»، أي: مع الإبل المعقلة، والمعقلة بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد القاف؛ أي: المشدودة بالعقال، وهو الحبل الذي يشد في ركبة البعير، شبه درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذي يخشى منه الشراد، فما زال التعاهد موجودًا فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ، وخص الإبل بالذكر؛ لأنها أشد الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة.

○ قوله: «**إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا**» أي: استمر إمساكه لها، وفي رواية أيوب عن نافع عند مسلم: «**فإن عقلها حفظها**»[(١)].

○ قوله: «**وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**» أي: انفلتت. وفي رواية عبيد الله بن عمر عن

(١) أخرجه مسلم (٧٨٩)، ولم يذكر لفظه، وأحال على رواية مالك بنحوه، وأخرجه بلفظه أبو نعيم في «المستخرج على مسلم» (٢/ ٣٨٠).

نافع عند مسلم: «**إن تعاهدها صاحبها فعقلها أمسكها عليه، وإن أطلق عُقُلَها ذهبت**»[(١)]، وفي رواية موسى بن عقبة عن نافع: «**إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه**»[(٢)]».

❖ ❖ ❖

{٥٠٣٢} في هذا الحديث: المنع من قول الإنسان نسيت آية كيت وكيت؛ قال النبي ﷺ: «**بِئْسَ مَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ**»، وهذا هو الشاهد من الترجمة؛ «**فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**».

وفيه: النهي عن قول: نسيت آية كذا، وإنما يقول: نُسيت أو أسقطت آية كذا، أو أنساني الشيطان آية كذا. والنهي إما للتحريم أو للكراهة، وهذا خاص بنسيان القرآن، أما غيره فله أن يقول مثلًا: نسيت الوصية التي وصيتني، أو نسيت قول فلان؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، وقال عن فتى موسى يوشع بن نون: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف: ٦٣]. وقال ﷺ: «**إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون؛ فإذا نسيت فذكروني**»[(٣)].

وفي هذا الحديث الزجر عن تعاطي أسباب النسيان المفضية لقول هذا اللفظ.

❖ ❖ ❖

{٥٠٣٣} قوله: «**تَفَصِّيًا**»، يعني: تفلتًا وتخلصًا، قوله: «**عُقُلِهَا**» بضمتين أو بضم فسكون؛ هو الحبل الذي يربط به يد البعير.

قال الحافظ ابن حجر ﵀: «قال الطيبي: ليس بين القرآن والناقة مناسبة؛ لأنه قديم وهي حادثة، لكن وقع التشبيه في المعنى، وفي هذه الأحاديث الحض

(١) أبو نعيم في «المستخرج على صحيح مسلم» (٢/ ٣٧٩).
(٢) مسلم (٧٨٩).
(٣) أحمد (١/ ٣٧٩)، والبخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢).

على محافظة القرآن بدوام دراسته وتكرار تلاوته، وضرب الأمثال لإيضاح المقاصد، وفي الأخير القسم عند الخبر المقطوع بصدقه مبالغة في تثبيته في صدور سامعيه، وحكى ابن التين عن الداودي أن في حديث ابن مسعود حجة لمن قال فيمن ادعي عليه بمال فأنكر وحلف ثم قامت عليه البينة فقال: كنت نسيت، أو ادعى بينة أو إبراء، أو التمس يمين المدعي، أن ذلك يكون له، ويعذر في ذلك».

بَابُ القِرَاءَةِ عَلَى الدَّابَّةِ

{٥٠٣٤} حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو إِيَاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَهْوَ يَقْرَأُ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ سُورَةَ الفَتْحِ.

الشَّرْح

{٥٠٣٤} هذا الحديث في: جواز القراءة على الدابة.

وفيه: الرد على من كرهه، كما نقل ابن أبي داود أن بعض السلف كره القراءة على الدابة، فهذا القول لا وجه له بعد أن ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ على الدابة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال ابن بطال: إنما أراد بهذه الترجمة أن في القراءة على الدابة سنة موجودة، وأصل هذه السنة قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزُّخرُف: ١٣]».

وهذا كلام عليه اعتراض، فالمقصود أن القراءة على الدابة لا كراهة فيها، أما كون ذلك سنة فهذا فيه نظر، وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، هذا عام.

بَابُ تَعْلِيمِ الصِّبْيَانِ القُرْآنَ

{٥٠٣٥} حَدَّثَنِي مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: إِنَّ الذِي تَدْعُونَهُ المُفَصَّلَ هُوَ المُحْكَمُ، قَالَ: وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا ابن عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ المُحْكَمَ.

{٥٠٣٦} حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: جَمَعْتُ المُحْكَمَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا المُحْكَمُ؟ قَالَ: المُفَصَّلُ.

الشَّرح

هذه الترجمة في تعليم الصبيان القرآن، وقصد المؤلف من هذا الرد على من كرهه؛ لأنه نقل عن بعض السلف كراهة تعليم الصبيان؛ لأنه يحصل له ملل ويؤجل تعليمه إلى ما بعد، لكن هذا مرجوح، والصواب: أنه ينبغي المبادرة بتعليم الصبيان القرآن؛ لأن الحفظ في الصغر أقوى وأثبت.

{٥٠٣٥} ومما يرد على من كره تعليم الصبيان القرآن ما حدث مع ابن عباس؛ لأنه حفظ القرآن وهو صغير ولم ينكر عليه النبي ﷺ؛ فالكراهة لا وجه لها؛ ولهذ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا ابن عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ المُحْكَمَ» وهذا على حذف الكسر في العدد - كما هي عادة العرب - فقد توفي النبي ﷺ وقد ناهز الاحتلام، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، أو أربع عشرة سنة، أو خمس عشرة سنة.

❖ ❖ ❖

{٥٠٣٦} قوله: «وَمَا المُحْكَمُ؟ قَالَ: المُفَصَّلُ» فسمي المفصل محكمًا؛ لأن المفصل كله واضح المعنى ضد المتشابه، وكأنه يريد بالمفصل هنا السور التي كثرت فصولها.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «بَابُ تَعْلِيمِ الصِّبْيَانِ القُرْآنَ» كأنه أشار إلى الرد على من كره ذلك، وقد جاءت كراهية ذلك عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وأسنده ابن أبي داود عنهما، ولفظ إبراهيم: «كانوا يكرهون أن يعلموا الغلام القرآن حتى يعقل»، وكلام سعيد بن جبير يدل على أن كراهة ذلك من جهة حصول الملال له، ولفظه عند ابن أبي داود أيضا: «كانوا يحبون أن يكون يقرأ الصبي بعد حين»، وأخرج بإسناد صحيح عن الأشعث بن قيس أنه قدم غلاما صغيرًا، فعابوا عليه فقال: ما قدمته، ولكن قدمه القرآن».

بهذا تبين أن من كرهه ليس له حجة، وإنما تعليل ليس عليه دليل، وذلك قولهم: من جهة الملال، ولعله يؤخر إلى بعد حين. فهذا التعليل لا وجه له بعد إقرار النبي ﷺ لابن عباس.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحجة من أجاز ذلك أنه أدعى إلى ثبوته ورسوخه عنده، كما يقال: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، وكلام سعيد بن جبير يدل على أنه يستحب أن يترك الصبي أولًا مرفهًا، ثم يؤخذ بالجد على التدريج، والحق أن ذلك يختلف بالأشخاص، والله أعلم».

وقول الحافظ: «الحق أن ذلك يختلف بالأشخاص» ليس بوجيه، والصواب أن الصبيان كلهم ينبغي تعليمهم والعناية بهم، ولا يختلف باختلاف الأشخاص؛ لأنه إذا رفه تعود على الترفيه، ويصعب عليه الحفظ بعد ذلك.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد بالمحكم الذي ليس فيه منسوخ، ويطلق المحكم على ضد المتشابه، وهو اصطلاح أهل الأصول، والمراد بالمفصل السور التي كثرت فصولها، وهي من الحجرات إلى آخر القرآن، على الصحيح».

بَابُ نِسْيَانِ القُرْآنِ، وَهَلْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا؟

وَقَوْلِ اللهِ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى: ٦-٧]

{٥٠٣٧} حَدَّثَنَا رَبِيعُ بْنُ يَحْيَىٰ، حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي المَسْجِدِ فَقَالَ: «يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً مِنْ سُورَةِ كَذَا».

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ مَيْمُونٍ، حَدَّثَنَا عِيسَىٰ، عَنْ هِشَامٍ وَقَالَ: أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةِ كَذَا. تَابَعَهُ عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ وَعَبْدَةُ، عَنْ هِشَامٍ.

{٥٠٣٨} حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي سُورَةٍ بِاللَّيْلِ فَقَالَ: «يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا».

{٥٠٣٩} حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا لِأَحَدِهِمْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ».

الشَّرْح

هذه الترجمة: «بَابُ نِسْيَانِ القُرْآنِ»، فيها أن الإنسان قد ينسى ولا لوم عليه في النسيان؛ لأن النسيان لا حيلة فيه، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يفرط فيما وفقه الله له من الحفظ، أما ما جاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ قال: «**عرضت علي ذنوب أمتي فلم أرَ ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها**»(١)، وما جاء أيضًا: «**ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله ﷻ يوم القيامة أجذم**»(٢)؛ فهي أحاديث ضعيفة.

---

(١) أبو داود (٤٦١)، والترمذي (٢٩١٦).

(٢) أبو داود (١٤٧٤)، وأحمد (٥/ ٢٨٥)، والدارمي (٢/ ٥٢٩).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «**باب نِسْيَانِ القُرْآنِ، وَهَلْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا؟**» كأنه يريد أن النهي عن قول نسيت آية كذا وكذا ليس للزجر عن هذا اللفظ، بل للزجر عن تعاطي أسباب النسيان المقتضية لقول هذا اللفظ، ويحتمل أن ينزل المنع والإباحة على حالتين: فمن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر ديني كالجهاد لم يمتنع عليه قول ذلك؛ لأن النسيان لم ينشأ عن إهمال ديني، وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذلك عن النبي ﷺ من نسبة النسيان إلى نفسه، ومن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دنيوي - ولا سيما إن كان محظورًا - امتنع عليه؛ لتعاطيه أسباب النسيان.

○ قوله: «**وقول الله تعالى:** ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى: ٦-٧]» هو مصير منه إلى اختيار ما عليه الأكثر أن (لا) في قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ نافية، وأن الله أخبره أنه لا ينسى ما أقرأه إياه، وقد قيل: إن (لا) ناهية، وإنما وقع الإشباع في السين؛ لتناسب رؤوس الآي، والأول أكثر. واختلف في الاستثناء؛ فقال الفراء: هو للتبرك وليس هناك شيء استثني، وعن الحسن وقتادة: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي قضى أن ترفع تلاوته. وعن ابن عباس: إلا ما أراد الله أن ينسيكه لتسن، وقيل: ما جبلت عليه من الطباع البشرية».

ولتسن يعني: لتشرع.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «وقيل: المعنى: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾؛ أي: لا تترك العمل به إلا ما أراد الله أن ينسخه فتترك العمل به».

{٥٠٣٧} قوله: «**سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي المَسْجِدِ فَقَالَ: «يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً مِنْ سُورَةِ كَذَا**»، يعني: ولم يقل: لقد نسيت، وهذا دليل على الترجمة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «**سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا**»، أي: صوت رجل، وقد تقدم بيان اسمه في كتاب الشهادات.

○ قوله: «**لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً مِنْ سُورَةِ كَذَا**» لم أقف على تعيين الآيات المذكورة، وأغرب من زعم أن المراد بذلك إحدى وعشرون آية؛ لأن

ابن عبد الحكم قال فيمن أقر أن عليه كذا وكذا درهمًا: إنه يلزمه أحد وعشرون درهمًا، وقال الداودي: يكون مقرًّا بدرهمين؛ لأنه أقل ما يقع عليه ذلك. قال: فإن قال له علي كذا درهمًا، كان مقرًّا بدرهم واحد».

وعلى كل حال هذا فيه نظر.

في رواية محمد بن عبيد أنه قال: «أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةِ كَذَا» ولم يقل: نسيتها.

❖ ❖ ❖

{٥٠٣٨} وفي حديث عائشة الثاني، قال: «يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْتُ أُنْسِيتُهَا».

❖ ❖ ❖

{٥٠٣٩} قوله: «مَا لأَحَدِهِمْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ» دلت مجموع الأحاديث على أن الإنسان لا يقول: نسيت وإنما يقول: أسقطتها، نُسيتها، أو أنسيتها، أما أن يقول: نسيت؛ فهذا منهي عنه، والنهي إما للكراهة أو للتحريم.

وفيه: الزجر عن تعاطي أسباب النسيان المقتضية لقوله هذا اللفظ، ولاسيما إذا نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دنيوي وخاصة إذا كان أمرًا محظورًا، وأما قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: ٦]، هذا وعد من الله تعالى للنبي ﷺ أنه لا ينساه، وكان النبي ﷺ يحرك لسانه إذا قرأ جبريل القرآن؛ خشية أن ينسى، فوعده الله بأنه لا ينسى.

بَابُ مَنْ لَمْ يَرَ بَأْسًا أَنْ يَقُولَ: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَسُورَةُ كَذَا وَكَذَا

{٥٠٤٠} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ، عَنْ عَلْقَمَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَنْ قَرَأَ بِهِمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ».

{٥٠٤١} حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ حَدِيثِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ، أَنَّهُمَا سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَؤُهَا عَلَىٰ حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّىٰ سَلَّمَ فَلَبَبْتُهُ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هٰذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ لَهُ: كَذَبْتَ، فَوَاللهِ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَهُوَ أَقْرَأَنِي هٰذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقُودُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي سَمِعْتُ هٰذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَىٰ حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، وَإِنَّكَ أَقْرَأْتَنِي سُورَةَ الفُرْقَانِ. فَقَالَ: «يَا هِشَامُ اقْرَأْهَا». فَقَرَأَهَا القِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ». ثُمَّ قَالَ: «اقْرَأْ يَا عُمَرُ». فَقَرَأْتُهَا الَّتِي أَقْرَأَنِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

{٥٠٤٢} حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ آدَمَ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَارِئًا يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ فِي المَسْجِدِ فَقَالَ: «يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً أَسْقَطْتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا».

الشَّرح

هذه الترجمة أراد بها المؤلف الرد على من كره أن يقال: سورة كذا وكذا، وهو مروي عن بعض السلف، ومروي عن الحجاج بن يوسف الذي عرف أنه أمر

أن يقال: «السورة التي يقرأ فيها كذا وكذا» والصواب: أنه لا بأس ولا كراهة، والأحاديث واضحة في هذا.

{٥٠٤٠} قوله: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ» هذا قول النبي ﷺ حيث سمى فيه السورة.

❖ ❖ ❖

{٥٠٤١} قوله: «إِنِّي سَمِعْتُ هٰذا يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ»، وقوله: «وَإِنَّكَ أَقْرَأْتَنِي سُورَةَ الفُرْقَانِ»، فيه: جواز أن يقال: سورة كذا؛ حيث أقره النبي ﷺ على ما قاله.

وفيه: أن القرآن أنزل على سبعة أحرف[1].

❖ ❖ ❖

{٥٠٤٢} جاء في هذا الحديث قوله: «يَرْحَمُهُ اللهُ، لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً أَسْقَطْتُهَا مِنْ سُورَةِ كَذَا وَكَذَا»، فيه: دليل على جواز تسمية سور القرآن؛ فيقول الإنسان: سورة كذا وسورة كذا، وقوله: «أَسْقَطْتُهَا» ولم يقل: نسيتها؛ لأنه ورد النهي - كما سبق - عن هذا القول، وفي حديث سابق: «**بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت كيت وكيت؛ بل نُسي**»[2].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «باب مَنْ لَمْ يَرَ بَأْسًا أَنْ يَقُولَ: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَسُورَةُ كَذَا وَكَذَا»، أشار بذلك إلى الرد على من كره ذلك، وقال: لا يقال إلا السورة التي يذكر فيها كذا، وقد تقدم في الحج من طريق الأعمش أنه سمع الحجاج بن يوسف على المنبر يقول: السورة التي يذكر فيها كذا، وأنه رد عليه بحديث أبي مسعود. قال عياض: حديث أبي مسعود حجة في جواز قول سورة البقرة ونحوها، وقد اختلف في هذا؛ فأجازه بعضهم وكرهه بعضهم، وقال: تقول السورة التي تذكر فيها البقرة. قلت: وقد تقدم في أبواب الرمي من

(١) أحمد (١/ ٢٤)، والبخاري (٥٠٤١)، ومسلم (٨١٨).
(٢) أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاري (٥٠٣٢)، ومسلم (٧٩٠).

كتاب الحج أن إبراهيم النخعي أنكر قول الحجاج: لا تقولوا سورة البقرة، وفي رواية مسلم أنها سنة، وأورد حديث أبي مسعود، وأقوى من هذا في الحجة ما أورده المصنف من لفظ النبي ﷺ، وجاءت فيه أحاديث كثيرة صحيحة من لفظ النبي ﷺ.

قال النووي في الأذكار[١]: يجوز أن يقول سورة البقرة - إلى أن قال - وسورة العنكبوت وكذلك الباقي ولا كراهة في ذلك. وقال بعض السلف: يكره ذلك. والصواب الأول، وهو قول الجماهير، والأحاديث فيه عن رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصر، وكذلك عن الصحابة فمن بعدهم.

قلت: وقد جاء فيما يوافق ما ذهب إليه البعض المشار إليه حديث مرفوع، عن أنس رفعه: «**لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذلك القرآن كله**»[٢]؛ أخرجه أبو الحسين بن قانع في «فوائده»، والطبراني في «الأوسط»، وفي سنده عبيس بن ميمون العطار؛ وهو ضعيف، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات»[٣] ونقل عن أحمد أنه قال: هو حديث منكر. قلت: وقد تقدم في «**باب تأليف القرآن**» حديث يزيد الفارسي عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: «**ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا**»[٤]. قال ابن كثير في «تفسيره»: ولا شك أن ذلك أحوط، ولكن استقر الإجماع على الجواز في المصاحف والتفاسير.

قلت: وقد تمسك بالاحتياط المذكور جماعة من المفسرين؛ منهم: أبو محمد بن أبي حاتم، ومن المتقدمين: الكلبي، وعبد الرزاق، ونقله القرطبي في «تفسيره» عن الحكيم الترمذي: أن من حرمة القرآن ألا يقال. سورة كذا، كقولك. سورة البقرة وسورة البحر وسورة النساء، وإنما يقال: السورة التي يقال

---

(١) «الأذكار» (١/ ٢٥٢).
(٢) الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٤٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٥١٩).
(٣) «الموضوعات» (١/ ٢٥١).
(٤) أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦).

فيها كذا، وتعقبه القرطبي بأن حديث أبي مسعود يعارضه، ويمكن أن يقال لا معارضة مع إمكان؛ فيكون حديث أبي مسعود ومن وافقه دالًّا على الجواز، وحديث أنس - إن ثبت - محمول على أنه خلاف الأولى، والله أعلم».

والصواب: أنه لا مانع من قول سورة كذا وكذا.

بَابُ التَّرتِيلِ فِي القِرَاءَةِ

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وَمَا يُكْرَهُ أَنْ يُهَذَّ كَهَذِّ الشِّعْرِ. ﴿يُفْرَقُ﴾ [الدخان: ٤]: يُفَصَّلُ. قَالَ ابن عَبَّاسٍ ﷺ: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾: فَصَّلْنَاهُ.

{٥٠٤٣} حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ، حَدَّثَنَا وَاصِلٌ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: غَدَوْنَا عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ رَجُلٌ: قَرَأْتُ المُفَصَّلَ البَارِحَةَ. فَقَالَ: هذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا القِرَاءَةَ، وَإِنِّي لأَحْفَظُ القُرَنَاءَ التِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ النَّبِيُّ ﷺ: ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنَ المُفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حم.

{٥٠٤٤} حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابن عَبَّاسٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦] قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ، فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ التِي فِي: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ١] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٨]: فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ قَالَ: إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ. قَالَ: وَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ، فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ.

الشَّرح

هذا الباب عقده المؤلف ﷺ لبيان حكم الترتيل في القراءة، قوله: «بَابُ التَّرتِيلِ فِي القِرَاءَةِ» قد يسبق إلى الفهم أن المراد بالترتيل: التجويد؛ بل المراد هو تبيين حروف القراءة، والتأني في أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها، وبعض الناس يقرأ قراءة سريعة فيدغم بعض الحروف ولا يبينها.

أما التجويد الذي له أحكام عند القراء: كأحكام المدود، وأحكام النون الساكنة، وأحكام الميم الساكنة فهذا كله مستحب وليس بواجب، وأما قول ابن الجزري:

والأخذ بالتجويد حتم لازم ... من لم يجود القرآن آثم

فهذا فيه نظر؛ فالتجويد مستحب، وأحكام التجويد التي يقررها العلماء شيء طيب من باب تحسين القراءة، وإنما الواجب أن تكون قراءة واضحة الحروف فيها تأن، فلا يسقط بعض الحروف ولا يدغم بعضها في بعض؛ فهذا هو الواجب، وإذا حصل مع ذلك أن يلتزم بأحكام التجويد فهذا مستحب، وقول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزّمل: ٤]، فالله تعالى أمر نبيه ﷺ بترتيل القرآن؛ يعني: قراءة متأنية في أدائها تتبين فيها الحروف ولا يخفى شيء منها.

وقول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]؛ ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ يعني: فصلناه؛ قوله: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، يعني: على مهل وتأن، وهو بمعنى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾، أي: من غير سرعة.

○ وقوله: «**وَمَا يُكْرَهُ أَنْ يُهَذَّ كَهَذِّ الشِّعْرِ**» تابع للترجمة، فالترجمة معقودة للترتيل وكراهة هذ القرآن كهذ الشعر؛ لأنه إذا هذه كهذ الشعر قد يسقط بعض الحروف وقد يدغم بعضها، وكانت قراءة النبي ﷺ - كما سيأتي في الباب الذي بعده - مرتلة يقف فيها على رءوس الآيات ويمد المدود الطبيعية.

○ وقوله: «**﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾**»، يشير لآية الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدّخان: ٤]؛ يفرق بمعنى: يفصل.

○ قوله: «**قَالَ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾: فَصَّلْنَاهُ**» تفسير لقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

{٥٠٤٣} قوله: «**غَدَوْنَا عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ**»، يعني: ابن مسعود، قوله: «**فَقَالَ رَجُلٌ: قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ الْبَارِحَةَ**»، المفصل المشهور عند العلماء أنه آخر القرآن؛ يبدأ من سورة «ق» والحجرات إلى آخر القرآن، وكان الصحابة رضي الله عنهم يحزبون القرآن على سبع ليالٍ ثلاثًا وخمسًا وسبعًا وتسعًا وإحدى عشرة وثلاث عشرة،

وحزب المفصل لواحدة؛ ففي الليلة الأولى ثلاث سور هي: البقرة وآل عمران والنساء، وفي الليلة الثانية خمس سور هي: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة، وفي الليلة الثالثة سبع، وفي الليلة الرابعة تسع، وفي الليلة الخامسة إحدى عشرة، وفي الليلة السادسة ثلاث عشرة، وفي الليلة السابعة حزب المفصل؛ ويبدأ من سورة «ق» والحجرات إلى سورة الناس.

○ قوله: «هذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ»، يعني: تسرع ليس فيه ترتيل ولا تأن، قوله: «إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا القِرَاءَةَ»، ظاهرها يعني: قراءة النبي ﷺ، قوله: «وَإِنِّي لأَحْفَظُ القُرَنَاءَ التِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ النَّبِيُّ ﷺ: ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً» القرناء يعني: يقرأ بسورتين؛ فمثلًا يقرأ بالذاريات والطور أو الذاريات والنجم أو الذاريات والقمر؛ فابن مسعود أنكر على هذا الرجل الذي قرأ المفصل في ليلة؛ لأنه يسرع في القراءة ولا يعطيها حقها من التأني.

ومن هنا يتبين خطأ ما يفعله بعض الناس بكونه يسرع من أجل أن يختم القرآن؛ فالمقصود هو التدبر والتأني والتأمل؛ ولهذ قال بعض السلف ما في معناه: ولا يكون هم أحدكم آخر السورة. وسبق أيضًا في الأحاديث: «**من لم يتغن بالقرآن فليس منا**»[(١)] يعني: من لم يحسن صوته ويتخشع ويتحزن - بقدر الإمكان - ويقرأ قراءة مرتلة يبين فيها المعاني فليس منا. والله تعالى أمر بالتدبر فقال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صٓ: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محَمَّد: ٢٤]؛ فأنكر الله على من لم يتدبر.

ولهذا قال عبد الله: «إِنَّا قَدْ سَمِعْنَا القِرَاءَةَ، وَإِنِّي لأَحْفَظُ القُرَنَاءَ التِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ النَّبِيُّ ﷺ: ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنَ المُفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حم»، وآل حميم يعني: الحواميم، وهي السور التي افتتحت بـ ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾؛ مثل: سورة غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف.

(١) أحمد (١/ ١٧٢)، والبخاري (٧٥٢٧).

{٥٠٤٤} هذا حديث ابن عباس ﭭ في تفسير قول الله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القِيَامَة: ١٦]، وبيان سبب نزولها، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ» يعني: كان إذا نزل جبريل عليه بالوحي وقرأ القرآن كان النبي ﷺ يحرك شفتيه بالقراءة؛ خشية أن ينساه وألا يضبطه، قوله: «فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ»، يعني: يجد من ذلك شدة، قوله: «وَكَانَ يُعْرَفُ مِنْهُ»، يعني: من النبي ﷺ، «فَأَنْزَلَ اللهُ الآيَةَ الَّتِي فِي: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ١﴾ [القِيَامَة: ١]: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ١٧﴾ [القِيَامَة: ١٦-١٧]»، فهذا وعد من الله تعالى بأن يجمعه في صدره ويثبته فيه، وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يعني: قرأه جبريل، وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨﴾ [القِيَامَة: ١٨]، يعني: فاستمع لقراءته، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القِيَامَة: ١٩]، يعني: «إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ»؛ فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق وأنصت، فإذا ذهب جبريل قرأه كما وعده الله تعالى.

ولا بأس بقراءة الحدر؛ وهي: الإسراع قليلًا، لكن ليست السرعة الزائدة؛ بحيث لا يؤثر هذا الإسراع على الحروف، فتكون واضحة متبينة، فالقراءة نوعان: قراءة ترتيل وتأنٍ، وقراءة حدر مع بيان الحروف. وهناك القراءة بسرعة كهذ الشعر؛ وهي التي أنكرها ابن مسعود ﭬ على الرجل.

بَابُ مَدِّ القِرَاءَةِ

{٥٠٤٥} حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ الأَزْدِيُّ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: كَانَ يَمُدُّ مَدًّا.

{٥٠٤٦} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: ١] يَمُدُّ بِبِسْمِ اللهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ.

الشَّرْح

هذا الباب في مد القراءة.

{٥٠٤٥} الشاهد قوله: «كَانَ يَمُدُّ مَدًّا»، فكان النبي ﷺ يمد القراءة.

❖ ❖ ❖

{٥٠٤٦} قوله: «يَمُدُّ بِبِسْمِ اللهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ»، يعني: يمد المد الطبيعي مثل الواو والياء والألف مقدار حركتين، وكذلك المد الفرعي إذا أتى بعد حرف المد همز مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩﴾ [المُرسَلات: ٩]، فإذا كان المد والهمز في كلمة يسمى مدًّا متصلًا،، ويرونه واجبًا، مثل ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ [الذّاريَات: ٤٧]، هذا مد واجب متصل عند أهل التجويد، ولك أن تمد من خمس حركات إلى ست حركات.

وإذا كان حرف المد في كلمة والهمز في كلمة صار المد منفصلًا، وهو عندهم جائز، وذلك مثل قوله ﷻ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القَصَص: ٣٠]، لأن المد في كلمة والهمز في كلمة، وكما سبق فهذا مستحب، لكن الحروف الطبيعية لا بد من مدها؛ لأن هذا يخل بالقراءة، فقراءة النبي ﷺ كانت مدًا، وليس المراد مدًّا زائدًا عن اللزوم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**بَابُ مَدِّ القِرَاءَةِ**» المد عند القراءة على ضربين: أصلي وهو إشباع الحرف الذي بعده ألف أو واو أو ياء، وغير أصلي وهو ما إذا أعقب الحرف الذي هذه صفته همزة، وهو متصل ومنفصل؛ فالمتصل ما كان من نفس الكلمة، والمنفصل ما كان بكلمة أخرى، فالأول يؤتى فيه بالألف والواو والياء ممكنات من غير زيادة».

وممكنات من غير زيادة: هو كما قال القراء: مد حركتين.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والثاني يزاد في تمكين الألف والواو والياء زيادة على المد الذي لا يمكن النطق بها إلا به من غير إسراف، والمذهب الأعدل أن يمد كل حرف منها ضعفي ما كان يمده أولًا، وقد يزاد على ذلك قليلًا، وما أفرط فهو غير محمود».

بَابُ التَّرْجِيعِ

{٥٠٤٧} حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو إِيَاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ وَهْوَ عَلَىٰ نَاقَتِهِ -أَوْ جَمَلِهِ- وَهْيَ تَسِيرُ بِهِ وَهْوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الفَتْحِ -أَوْ مِنْ سُورَةِ الفَتْحِ- قِرَاءَةً لَيِّنَةً، يَقْرَأُ وَهْوَ يُرَجِّعُ.

الشَّرْح

○ قوله: «بَابُ: التَّرْجِيعِ»، أي: ترجيع الصوت في القراءة، والترجيع هو الترديد في القراءة بترديده في الحلق والتحزن والتخشع وتحسين الصوت؛ حتى يتفهم ويتدبر ويتعلم ويتأثر، كالترجيع في الأذان، فإنه يكرر الشهادتين بأن يأتي بهما بصوت منخفض ثم يعود فيرفع صوته بهما.

وسمي ترجيعًا؛ لأنه رجع إليه، يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله»، سرًّا، ثم يرفع صوته ويقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله» وهذا في أذان أبي محذورة.

وأذان بلال لا ترجيع فيه؛ ولهذا يزيد أذان أبي محذورة على أذان بلال أربع جمل، فأذان أبي محذورة تسع عشرة جملة، وأذان بلال خمس عشرة جملة.

{٥٠٤٧} أصل الترجيع الترديد، وهو تقارب ضروب الحركات في القراءة، والترجيع قدر زائد على الترتيل، وقد سبق أن الترتيل معناه أن القراءة بتأن وتدبر، لكن الترجيع هو الترديد في القراءة والتحزن والتخشع، وهو يحدث من إشباع المد في موضعه، كما سيأتي تفسيره في حديث عبد الله بن مغفل في كتاب التوحيد.

وذكر الحافظ أن في الحديث ملازمة النبي ﷺ للعبادة حتى في حال ركوبه للناقة، وجهره بذلك فيه إشارة إلى أن الجهر بالعبادة يكون في بعض المواضع كما إذا قصد به التعليم أو إيقاظ الغافل، وإلا فالأصل أن الإسرار أفضل، كالمسر بالصدقة، فالجاهر بالقراءة كالجاهر بالصدقة، إلا إذا وجدت المصلحة.

بَابُ حُسْنِ الصَّوْتِ بِالْقِرَآنِ

{٥٠٤٨} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفٍ أَبُو بَكْرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى الحِمَّانِيُّ، حَدَّثَنَا بُرَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ جَدِّهِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا أَبَا مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

الشَّرْح

{٥٠٤٨} قوله: «مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» المزمار: الصوت الحسن، وأصل المزمار: الآلة التي يعزف بها، وأطلق اسمها على الصوت للمشابهة، والمراد بآل داود: داود نفسه؛ لأنه لم ينقل أن أحدًا من أولاده أو أقاربه كان حسن الصوت، وأما قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]؛ فإن فرعون يدخل في ذلك دخولًا أوليًّا.

وفي هذا الحديث دليل على مشروعية تحسين الصوت بالقراءة، ويؤيده الحديث السابق: «**من لم يتغن بالقرآن فليس منا**»(١) أي: من لم يحسن صوته، ويؤيده أيضًا الحديث الآخر: أن النبي ﷺ استمع لقراءة أبي موسى الأشعري وكان حسن الصوت(٢)، وذكر الحافظ أن ابن سعد روى من حديث أنس على شرط مسلم: «أن أبا موسى قام ليلة يصلي فسمع أزواج النبي ﷺ صوته فقمن يستمعنه، فلما أصبح قيل له، فقال: لو علمت لحبرت لهن تحبيرًا»، وكذلك ما أخرجه أبو يعلى من أن النبي ﷺ وعائشة مرا بأبي موسى وهو يقرأ في بيته فقاما يستمعان لقراءته، ثم إنهما مضيا، فلما أصبح لقي أبو موسى رسول الله ﷺ فقال: «**يا أبا موسى، مررت بك**» يعني: واستمعت لقراءتك، فقال: أما إني لو أعلم بمكانك لحبرته لك تحبيرًا(٣). أي: حسنته لأجل استماعك،

(١) أحمد (١/ ١٧٢)، والبخاري (٧٥٢٧).
(٢) أحمد بنحوه (٥/ ٣٥٩)، ومسلم (٧٩٣).
(٣) أبو يعلى (١٣/ ٢١٣)، والحاكم (٣/ ٥٢٩).

وإلا فالقراءة لله. فهذه النصوص تدل على مشروعية تحسين الصوت بالقراءة.

وفي «الصحيح» من حديث البراء: أن النبي ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون، قال: فما سمعت أحسن صوتًا أو قراءة منه[(١)].

ومن غنى بالقرآن مستهزًأ به فهو مرتد؛ لأن الاستهزاء بالله أو بآياته أو بكتابه أو بسنة ثابتة عن النبي ﷺ ردة، والمرتد يقتل من قبل ولاة الأمور، والصواب: أنه لا يستتاب إذا كان كفره غليظًا؛ كالسخرية والاستهزاء وسب الله وسب الرسول ﷺ، ولا تصح توبته في أمور الدنيا، بل لابد من قتله؛ حتى لا يحث الناس على الكفر، أما بينه وبين الله - إن كان صادقًا في توبته - فالله يقبل توبة التائبين، وقال آخرون: يستتاب أيضًا في هذا.

ومعنى أنه ليس له توبة في الدنيا: أنه لابد أن يقام عليه الحد، أما في الآخرة فأمره إلى الله.

---

(١) البخاري (٧٦٩)، ومسلم (٤٦٤).

بَابٌ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ القُرْآنَ مِنْ غَيْرِهِ

{٥٠٤٩} حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنِ الأَعْمَشِ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ». قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

الشَّرْح

{٥٠٤٩} قوله: «عَنْ عَبِيدَةَ» هو عبيدة بن عمرو السلماني، من أصحاب عبد الله بن مسعود.

وقول النبي ﷺ لعبد الله: «اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ»، فقال عبد الله: «آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، قال ابن بطال: «يحتمل أن يكون أحب أن يسمعه من غيره؛ ليكون عرض القراءة سنة، ويحتمل أن يكون كي يتدبره ويتفهمه، وذلك أن المستمع أقوى على التدبر ونفسه أخلى وأنشط».

وأما قراءة النبي ﷺ على أبي بن كعب في قوله ﷺ: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن**»[(١)]، فإنما أراد بها أن يعلمه كيفية أداء القراءة ومخارج الحروف.

(١) أحمد (٣/ ١٣٠)، والبخاري (٤٩٦٠)، ومسلم (٧٩٩).

بَابُ قَوْلِ المُقْرِئِ لِلْقَارِئِ: حَسْبُكَ.

{٥٠٥٠} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «نَعَمْ». فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ أَتَيْتُ إِلَىٰ هٰذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ». فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.

الشرح

{٥٠٥٠} هذا الحديث فيه: بيان خشية النبي ﷺ وخوفه من الله ﷻ، فلما قرأ عليه ابن مسعود رضي الله عنه من أول سورة النساء حتى وصل إلى آية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] تذكر هذا الموقف ﷺ فقال: «حَسْبُكَ الآنَ» يعني: يكفي، قال عبد الله: «فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ» يعني: من الدمع.

وفي نهاية حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: «**أن النبي ﷺ كان إذا قام يصلي يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء**»(١)، والمرجل: هو القدر الذي يغلي، وهو أشرف الخلق ﷺ وقد غفر الله له ماتقدم من ذنبه!

وفي هذا الحديث: أنه لا حرج أن يقول الفاضل للمفضول: اقرأ علي القرآن.

وفيه: فضل البكاء عند سماع القرآن ودمع العين والتأثر به، ثم من لم يقدر على البكاء فليتذكر عظمة الله وليتدبر وليتأمل حتى يبكي.

وفيه: - ما ترجم له المؤلف -: من جواز قول المقرئ للقارئ: حسبك، وأن هذا لا بأس به، فليس فيه قطع القراءة، أو مل القراءة.

---

(١) أحمد (٤/ ٢٥)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤).

بَابٌ فِي كَمْ يُقْرَأُ القُرْآنُ؟

وَقَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

{٥٠٥١} حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ لِي ابن شُبْرُمَةَ: نَظَرْتُ كَمْ يَكْفِي الرَّجُلَ مِنَ القُرْآنِ، فَلَمْ أَجِدْ سُورَةً أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثِ آيَاتٍ، فَقُلْتُ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقْرَأَ أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثِ آيَاتٍ.

قَالَ سُفْيَانُ: أَخْبَرَنَا مَنْصُورٌ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، أَخْبَرَهُ عَلْقَمَةُ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ: وَلَقِيتُهُ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ: «أَنَّ مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ».

{٥٠٥٢} حَدَّثَنَا مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَنْكَحَنِي أَبِي ٱمْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ، لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُذْ أَتَيْنَاهُ. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «الْقَنِي بِهِ». فَلَقِيتُهُ بَعْدُ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟». قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: «وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟». قَالَ: كُلَّ لَيْلَةٍ. قَالَ: «صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَاقْرَأِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ». قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ». قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا». قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ، صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً». فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَذَاكَ أَنِّي كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ فَكَانَ يَقْرَأُ عَلَىٰ بَعْضِ أَهْلِهِ السُّبْعَ مِنَ القُرْآنِ بِالنَّهَارِ وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ يَعْرِضُهُ مِنَ النَّهَارِ؛ لِيَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّىٰ أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَحْصَىٰ وَصَامَ مِثْلَهُنَّ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا فَارَقَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي ثَلَاثٍ وَفِي خَمْسٍ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَىٰ سَبْعٍ.

{٥٠٥٣} حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «فِي كَمْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟».

{٥٠٥٤} حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللهِ، عَنْ شَيْبَانَ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ - مَوْلَىٰ بَنِي زُهْرَةَ - عَنْ أَبِي سَلَمَةَ - قَالَ: وَأَحْسِبُنِي قَالَ: سَمِعْتُ أَنَا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ - عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ». قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، حَتَّىٰ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ».

الشَّرْح

هذه الترجمة معقودة لبيان كم يقرأ في الليلة في التهجد، واستدل بقول الله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المُزَّمل: ٢٠] فالآية عامة، فلو قرأ بآية فقد قرأ ما تيسر.

{٥٠٥١} ذكر حديث علي بن المديني عن سفيان بن عيينة، وقوله: «قَالَ لِي ابن شُبْرُمَةَ:» هو عبد الله قاضي الكوفة، وقد قال لسفيان: «نَظَرْتُ كَمْ يَكْفِي الرَّجُلَ مِنَ الْقُرْآنِ» يعني: في الصلاة، قوله: «فَلَمْ أَجِدْ سُورَةً أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثِ آيَاتٍ»، وهي سورة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثَر: ١-٣]، وكذلك سورة العصر ثلاث آيات: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العَصر: ١-٣].

فابن شبرمة يقول لسفيان: أقل ما يكفي الرجل ثلاث آيات في القراءة؛ لأن أقل سورة في القرآن ثلاث آيات.

❖ ❖ ❖

○ قول علقمة عن أبي مسعود: «وَلَقِيتُهُ وَهْوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ: «أَنَّ مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»، مناسبة الحديث أنه يوافق آية الترجمة في الاكتفاء في القراءة في الصلاة بأقل من ثلاث آيات.

وفيه: الرد على ابن شبرمة الذي يقول: أقل شيء ثلاث آيات، وهذا الحديث فيه أنه يكتفي بالقراءة في صلاة الليل ولو بآيتين، وإلا فالصلاة تصح ولو اقتصر على الفاتحة.

والحديث فيه: الرد على ابن شبرمة؛ وهذا على أحد تأويل ما قيل في قوله: «كَفَتَاهُ»، أي: كفتاه في القيام في صلاة الليل، وقيل معناه: كفتاه من كل سوء، وقيل: كفتاه من قيام الليل، وآية: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المُزّمل: ٢٠] تصدق على آية فصاعدًا؛ فيكون كلام ابن شبرمة هذا من باب الاجتهاد، لكنه مخالف للنص.

❖ ❖ ❖

{٥٠٥٢} هذا الحديث فيه: بيان ما يقرؤه الإنسان من القرآن، وكيف يختمه.

○ قوله: «كَنَّتَهُ»، يعني: زوجة ولده.

فائدة:

أنكح عمرو بن العاص ابنه عبد الله امرأة وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان بين عبد الله بن عمرو بن العاص وبين أبيه ثلاث عشرة سنة.

○ قوله: «بَعْلِهَا» البعل هو: الزوج.

والحديث فيه أن عبد الله بن عمرو بن العاص زوجه أبوه امرأة ذات حسب، فكان يتعاهدها أبوه ويسأل عنها وعن زوجها فتقول: «نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ، لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُذْ أَتَيْنَاهُ»، يعني: منذ أتيناه وهو مشغول بالعبادة؛ يصلي الليل ويصوم النهار ويختم القرآن في كل يوم، ما ينام على فراش ولا ينظر إليها، فلما طال ذلك عليه ذكره للنبي ﷺ فقال: «الْقَنِي بِهِ»، يعني: ائتني بهز

قوله: «فَلَقِيتُهُ بَعْدُ»، يعني: عمرو بن العاص أتى النبي ﷺ بابنه عبد الله فقال له النبي ﷺ: «كَيْفَ تَصُومُ؟» أي: يا عبد الله، قوله: «قلت: كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟» يعني: القرآن، فقال: «كُلَّ لَيْلَةٍ»، فقال له النبي ﷺ: «صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً»؛ وصيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر كما جاء

في الحديث: «**من صام ثلاثة أيام من كل شهر فكأنما صام الدهر كله**»[(١)] وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها؛ قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فيصبح كل يوم بعشرة أيام.

○ قوله: «وَاقْرَإِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ» جاء في غير الصحيح أنه قال: «**اقرأه في أربعين، قال: إني أطيق، قال: اقرأه في كل شهر، فقال: عبد الله قلت: أطيق أكثر من ذلك**»[(٢)]، فهو شاب نشيط قوي.

○ قوله: «قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ»، يعني: في كل أسبوع ثلاثة أيام، وأفطر أربعة أيام، قوله: «قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا»، يعني: ثلثي الدهر، قوله: «قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ، صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ»، وفي اللفظ الآخر أنه قال: «**أطيق أفضل من ذلك، قال: لا أفضل من ذلك**»[(٣)]، وفي لفظ: «**لا صام من صام الدهر**»[(٤)]، وفي لفظ: «**لا صام ولا أفطر**»[(٥)] فصوم داود أفضل الصوم؛ يصوم يومًا ويفطر يومًا، وهذا هو الحد الأعلى؛ فليس لأحد أن يزيد عليه، وجاء في الحديث أن من صام الدهر ضيقت عليه جهنم[(٦)]، فهو مكروه أو محرم.

○ وقوله ﷺ: «أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ» هذا إذا لم يكن الصيام يضعفه عن العمل وعن كسب الرزق لأولاده، أو عن التعلم والتعليم إذا كان طالب علم، أو عن القيام بمهمات الدين ومصالح المسلمين العامة والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كان يضعفه فإنه يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، أو يصوم الإثنين والخميس.

(١) أحمد بنحوه (٢/ ١٨٨)، وأبو داود (٢٤٢٧)، والترمذي (٧٦٢)، والنسائي (٢٣٩١).
(٢) أبو داود (١٣٩٥)، والترمذي (٢٩٤٦).
(٣) أحمد (٢/ ١٨٧)، والبخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).
(٤) أحمد (٢/ ١٦٤)، والبخاري (١٩٧٩) واللفظ له.
(٥) أحمد (٤/ ٢٤)، ومسلم (١١٦٢).
(٦) أحمد (٤/ ٤١٤)، وابن حبان (٨/ ٣٤٩).

وقال في قراءة القرآن: «وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً»، يعني: اختم في كل سبع ليال ختمة، فيقول عبد الله: «فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ وَذَاكَ أَنِّي كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ» يعني: أنه كبر سنه وضعفت قوته؛ فتمنى أنه كان قبل رخصة الرسول ﷺ.

○ وقوله: «كَبِرْتُ» بكسر الباء، من كَبِرَ يكبر يعني: يتقدم في السن، ومنه قوله تعالى: ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾ [النِّسَاء: ٦]، أما كَبُرت من الكبر، ومنه قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٣]، يعني: عظم؛ فاختلف المعنى.

○ قوله: «السُّبْعَ»، يعني: يقرؤه في كل سبعة أيام على بعض أهله.

فإن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما لما لم يقبل رخصة النبي ﷺ وكبرت سنه كره أن يترك شيئًا رآه عليه النبي ﷺ، فكان يقرأ على بعض أهله السبع في النهار؛ حتى يخف عليه بالليل، والذي يقرؤه بالليل يعرضه بالنهار؛ ليكون أخف عليه، وكذلك الصيام؛ فإنه لما كبرت سنه صار يصعب عليه أن يصوم يومًا ويفطر يومًا، فصار يسرد سبعة أيام ثم يفطر سبعة أيام، يصوم يومين ثم يفطر يومين، يصوم ثلاثة أيام ثم يفطر ثلاثة أيام؛ ليتقوى، وهذا هو معنى قوله: «وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَىٰ أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَحْصَىٰ وَصَامَ مِثْلَهُنَّ»؛ كراهة أن يترك شيئًا فارقه النبي ﷺ عليه، وإلا فهو جائز.

قال أبو عبد الله البخاري: «قَالَ بَعْضُهُمْ: فِي ثَلَاثٍ»، يعني: يختم القرآن في ثلاث، «أو في سبع وَأَكْثَرُهُمْ عَلَىٰ سَبْعٍ»، وهذا على سبيل الاستحباب عند جمهور العلماء، وقال بعض الظاهرية: يحرم أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقد جاء فيه الحديث: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»[(١)] والأفضل في سبع.

---

(١) أحمد (٢/ ١٨٩)، وأبو داود (١٣٩٠).

قال بعض العلماء: يستثنى من ذلك الأوقات الفاضلة، كما روي عن الشافعي أنه كان يختم في رمضان ستين ختمة[١]، وعن عثمان أنه كان يختم القرآن في ركعة يوتر بها، وقيل: إن قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٩] نزلت في عثمان رضي الله عنه، فنقل الحافظ ابن رجب رحمه الله - في كتابه «لطائف المعارف» في فضيلة شهر رمضان - الخلاف في جواز ختم القرآن في أقل من ثلاث، وذكر الحافظ خلاف العلماء في ذلك، وفي آخر أحاديث الباب قال ﷺ: «**اقْرَإِ القُرْآنَ فِي شَهْرٍ**» قلت: إني أجد قوة، حتى قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «**باب فِي كَمْ يُقْرَأُ القُرْآنُ؟، وَقَوْلُ اللهِ** عز وجل: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المُزَّمل: ٢٠]»، كأنه أشار إلى الرد على من قال: أقل ما يجزئ من القراءة في كل يوم وليلة جزء من أربعين جزءًا من القرآن، وهو منقول عن إسحاق بن راهويه والحنابلة؛ لأن عموم قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ يشمل أقل من ذلك؛ فمن ادعى التحديد فعليه البيان، وقد أخرج أبو داود من وجه آخر عن عبد الله بن عمرو: «**في كم يقرأ القرآن، قال: في أربعين يومًا، ثم قال: في شهر**»[٢] الحديث. ولا دلالة فيه على المدعى».

ثم قال رحمه الله: «أي: اختم في كل سبع، فليتني قبلت، كذا وقع في هذه الرواية اختصارًا، وفي غيرها مراجعات كثيرة في ذلك، كما سأبينه؛ قوله: «**فَكَانَ يَقْرَأُ**»، وكان مجاهد يصف صنيع عبد الله بن عمرو لما كبر، وقد وقع مصرحًا به في رواية هشيم، قوله: «**عَلَىٰ بَعْضِ أَهْلِهِ**» أي: على من تيسر منهم، وإنما كان يصنع ذلك بالنهار ليتذكر ما يقرأ به في قيام الليل؛ خشية أن يكون خفي عليه شيء منه بالنسيان».

وقال رحمه الله: «قوله: «**قَالَ بَعْضُهُمْ: فِي ثَلَاثٍ أو في سبع**»، كذا لأبي ذر، ولغيره: «في ثلاث وفي خمس»، وسقط ذلك للنسفي، وكأن المصنف أشار

(١) انظر: «المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٠).
(٢) أبو داود (١٣٩٥).

بذلك، إلى رواية شعبة عن مغيرة بهذا الإسناد: «**فقال: اقرأ القرآن في كل شهر فقال: إني أطيق أكثر من ذلك فما زال حتى قال: في ثلاث**»[(١)] فإن الخمس تؤخذ منه بطريق التضمن، وقد تقدم للمصنف في كتاب الصيام، ثم وجدت في «مسند الدارمي» من طريق أبي فروة عن عبد الله بن عمرو قال: «**قلت: يارسول الله في كم أختم القرآن؟ قال: اختمه في شهر، قلت: إني أطيق، قال: اختمه في خمسة وعشرين، قلت: إني أطيق، قال: اختمه في عشرين، قلت: إني أطيق، قال: اختمه في خمس عشرة، قلت: إني أطيق، قال: اختمه في خمس، قال: إني أطيق، قال: لا**»[(٢)]، وأبو فروة هذا هو الجهني، واسمه عروة بن الحارث، وهو كوفي ثقة، ووقع في رواية هشيم المذكورة: «**قال: فاقرأ في كل شهر، قلت: إني أجدني أقوى من ذلك، قال: فاقرأه في كل عشرة أيام، قلت: إني أجدني أقوى من ذلك قال أحدهما - إما حصين، وإما مغيرة - قال: فاقرأه في كل ثلاث**»[(٣)] وعند أبي داود والترمذي مصححًا من طريق يزيد بن عبد الله بن الشخير عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**»[(٤)]، وشاهده عند سعيد بن منصور بإسناد صحيح من وجه آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه: «**اقرءوا القرآن في سبع ولا تقرءوه في أقل من ثلاث**»[(٥)] ولأبي عبيد من طريق الطيب بن سلمان عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان لا يختم القرآن في أقل من ثلاث»[(٦)]، وهذا اختيار أحمد وأبي داود وإسحاق بن راهويه وغيرهم، وثبت عن كثير من السلف أنهم قرءوا القرآن في دون ذلك.

قال النووي: والاختيار أن ذلك يختلف بالأشخاص؛ فمن كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر استحب له أن يختصر على القدر الذي لا يختل به المقصود

(١) أحمد (٢/ ١٩٨)، والبخاري (١٩٧٨).
(٢) الدرامي (٢/ ٥٦٢).
(٣) أحمد (٢/ ١٥٨).
(٤) أبو داود (١٣٩٠)، والترمذي (٢٩٤٩).
(٥) «سنن سعيد بن منصور» (٢/ ٤٤٢)، ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٢/ ٣٩٦).
(٦) «فضائل القرآن» لأبي عبيد (١/ ٣٤٩).

من التدبر واستخراج المعاني، وكذا من كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة يستحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يخل بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه ذلك من غير خروج إلى الملل ولا يقرءه هذرمة».

وكلام النووي كلام جيد في أن هذا يختلف باختلاف الأشخاص؛ فمن كان من أهل الفهم استحب له أن يقتصر على القدر الذي يحصل به المقصود، وكذلك من كان له شغل بالعلم أو مهمات الدروس؛ استحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يخل بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار.

وقال ﷺ: «قوله: «عَلَىٰ سَبْعٍ» كأنه يشير إلى رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو موصولًا عقب هذا؛ قال في آخره: «ولا يزيد على ذلك»، أي: لا يغير الحال المذكورة إلى حالة أخرى، فأطلق الزيادة، والمراد: النقص، والزيادة هنا بطريق التدلي، أي: لا يقرؤه في أقل من سبع، ولأبي داود والترمذي والنسائي من طريق وهب بن منبه عن عبد الله بن عمرو أنه: «**سأل رسول الله ﷺ في كم يقرأ القرآن؟ قال: في أربعين يومًا، ثم قال: في شهر، ثم قال: في عشرين، ثم قال: في خمس عشرة، ثم قال: في عشر، ثم قال: في سبع، ثم لم ينزل عن سبع**»[1] وهذا إن كان محفوظًا احتمل في الجمع بينه وبين رواية أبي فروة تعدد القصة، فلا مانع أن يتعدد قول النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو ذلك تأكيدًا، ويؤيده اختلاف الواقع في السياق، وكأن النهي عن الزيادة ليس على التحريم، كما أن الأمر في جميع ذلك ليس للوجوب، وعرف ذلك من قرائن الحال التي أرشد إليها السياق؛ وهو النظر إلى عجزه عن سوى ذلك في الحال أو في المآل، وأغرب بعض الظاهرية فقال: يحرم أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقال النووي: أكثر العلماء على أنه لا تقدير في ذلك، وإنما هو بحسب النشاط والقوة؛ فعلى هذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص».

(١) أبو داود (١٣٩٥)، والترمذي (٢٩٤٧)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٥).

وبكل حال ينبغي للإنسان أن يقرأ قراءة مرتلة، أما القراءة في ثلاث ليال فهي في الغالب تكون بسرعة مما قد يخل بما أنيط به من الواجبات.

❖ ❖ ❖

{٥٠٥٣} قوله: «عَنْ يَحْيَىٰ» هو ابن أبي كثير، قوله: «فِي كَمْ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟» قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «كذا اقتصر البخاري في إسناد العالي على بعض المتن، ثم حوله إلى الإسناد الآخر، وإسحاق شيخه فيه هو ابن منصور، وعبيد الله هو ابن موسى، وهو من شيوخ البخاري، إلا أنه ربما حدث عنه بواسطة كما هنا».

❖ ❖ ❖

{٥٠٥٤} قوله: «عَنْ أَبِي سَلَمَةَ - قَالَ: وَأَحْسِبُنِي قَالَ: سَمِعْتُ أَنَا مِنْ أَبِي سَلَمَةَ» قائل ذلك هو يحيى بن أبي كثير؛ ذكر ذلك الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ.

بَابُ البُكَاءِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ

{٥٠٥٥} حَدَّثَنَا صَدَقَةُ، أَخْبَرَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. قَالَ يَحْيَىٰ: بَعْضُ الحَدِيثِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ. حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَىٰ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. قَالَ الأَعْمَشُ: وَبَعْضُ الحَدِيثِ حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ. وَعَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. قَالَ لِي «كُفَّ» أَوْ «أَمْسِكْ». فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ.

{٥٠٥٦} حَدَّثَنَا قَيْسُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

الشَّرْح

هذه الترجمة: «بَابُ البُكَاءِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ»، ساقها المؤلف لبيان فضيلة البكاء في هذه الحال.

{٥٠٥٥} استدل المؤلف رحمه الله بهذا الحديث على مشروعية البكاء عند قراءة القرآن، وأنه يشرع للمسلم أن يتدبر ويتأمل حتى يبكي، والبكاء لا يلزم منه أن يكون له صوت، وكون العينان تذرفان من خشية الله فيه فضل عظيم، وجاء في الحديث الآخر: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»[(١)].

(١) أحمد (٤/ ١٣٤) بنحوه، والترمذي (١٦٣٩).

○ وقوله: «أَقْرَأُ عَلَيْكَ؟» هذا استفهام، والتقدير: أأقرأ عليك وعليك أنزل؟! وسبق أن ابن بطال استدل بهذا الحديث على أن عرض القرآن سنة.

❖ ❖ ❖

{٥٠٥٦} في هذا الحديث أمر النبي ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال عبد الله: «أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» وفي اللفظ الآخر: «**قال إني أشتهي أن أسمعه من غيري**»، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النِّسَاء: ٤١]، والخطاب للرسول ﷺ، فقال: «كُفَّ أَوْ أَمْسِكْ»، وفي لفظ آخر: «**قال: حسبك الآن، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان**»[١] أي: من خشية الله، وهذا هو الشاهد من الترجمة، وإنما يفعل ذلك؛ تعبدًا لله ﷻ ولتقتدي به أمته وتتأسى به ﷺ.

وفيه: مشروعية البكاء عند قراءة القرآن، وفي الحديث الآخر: أن النبي ﷺ كان إذا صلى من الليل وقرأ يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[٢]، والمرجل: هو القدر الذي يغلي بالماء.

ووصف الله تعالى المؤمنين أنهم يبكون عند تلاوة القرآن؛ فقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسرَاء: ١٠٩]، وقال أيضًا: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مَريَم: ٥٨]، فالبكاء عند تلاوة القرآن هو صفة العارفين وشعار الصالحين، كما أنه يستحب للإنسان - كما في الأحاديث السابقة - أن يتغنى بالقرآن فيحسن صوته، ويحاول أن يتخشع ويتدبر، وثبت أن النبي ﷺ رجَّع في قراءته، كما في الحديث السابق؛ حديث عبد الله بن مغفل: أن النبي ﷺ قرأ سورة الفتح وجعل يرجع[٣]، وهو ترديد الحروف في الحلق للتحزن والتخشع، فلما قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفَتْح: ١] كرر الألف ثلاث ألفات.

---

(١) البخاري (٥٠٥٠).
(٢) أحمد (٤/ ٢٥)، والنسائي (١٢١٤).
(٣) أحمد (٥/ ٥٤)، والبخاري (٤٢٨١)، ومسلم (٧٩٤).

وفي الحديث: دليل على جواز قول المعلم أو المقرئ للقارئ: أمسك أو كف أو حسبك، وأنه لا حرج في ذلك، ولا يعتبر مللًا من القرآن.

بَابٌ مَنْ رايا بِقِرَاءَةِ القُرْآنِ أَوْ تَأَكَّلَ بِهِ أَوْ فَخَرَ بِهِ

هو بالخاء المعجمة، ويروىٰ بالجيم.

{٥٠٥٧} حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ».

{٥٠٥٨} حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الحَارِثِ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي القِدْحِ فَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَىٰ شَيْئًا، وَيَتَمَارَىٰ فِي الفُوقِ».

{٥٠٥٩} حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالْمُؤْمِنُ الذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ -أَوْ خَبِيثٌ- وَرِيحُهَا مُرٌّ».

الشَّرح

هذه الترجمة في إثم من راءى بالقرآن أو تأكل به؛ يعني: جعله طريقًا للحصول على الدنيا، وهذا غير تعليم القرآن؛ فتعليم القرآن لا بأس به، وكذا

أخذ الأجرة على تعليمه؛ لقوله ﷺ: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**» رواه البخاري في «الصحيح»[(١)].

○ قوله: «**أو فجر به**»، في رواية: «**أَوْ فَخَرَ بِهِ**»، يعني: مفاخرة، ولكن «فجر به» أحسن؛ لقاعدة: التأسيس مقدَّم على التوكيد؛ لأنه إذا كان فخر به صار مثل رآى به، ورآى وافتخر بمعنى واحد.

{٥٠٥٧} يقول النبي ﷺ: «**يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ**»، وهم الخوارج، وحدثاء: جمع حديث السن، يعني: أسنانهم صغيرة، وعقولهم ضعيفة، فتجد الخوارج الذين خرجوا في زمن علي رضي الله عنه غالبهم حديثي الأسنان من عشرين إلى خمس وعشرين إلى الثلاثين، قوله: «**يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ**»، يعني: يقرءون القرآن، والقرآن هو خير الكلام؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝﴾ [النِّسَاء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝﴾ [النِّسَاء: ١٢٢]، فهو يقرأ القرآن وكلام الرسول ﷺ؛ ومع ذلك «**يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»، والرمية يعني: الصيد، فإذا رمي طائر يسمى: رمية، فالسهم يدخل فيه ويخرج بسرعة؛ فهؤلاء يخرجون من الإسلام مثلما يخرج السهم، قوله: «**لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ**»، وحناجرهم: جمع حنجرة وهي الحلقوم، وفي اللفظ الآخر: «**وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»، أي: تخرج كلمات القرآن من اللسان فقط ولا تتجاوزه، فليس لها تأثير في القلب ولا قبول عند الله.

❖ ❖ ❖

{٥٠٥٨} قوله: «**يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ**»، يعني: تحقرون أنتم صلاتكم مع صلاتهم؛ لأنهم يكثرون الصلاة فيصلون بالليل ويتأوهون ويبكون ويقرءون القرآن، فإذا نظرت لنفسك تقول: ماذا تساوي صلاتي بجنب صلاتهم؟ أنا أصلي مثلًا ركعات قليلة، أو أنام أكثر الليل، أو أوتر مثلًا بثلاث ركعات أو خمس ركعات مع الغفلة، وهؤلاء يتأوهون ويقرءون القرآن الليل كله، كما إن الواحد منهم يصوم

(١) البخاري (٥٧٣٧).

يومًا ويفطر يومًا، قوله: «وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»، فليس له تأثير في القلوب وليس له قبول عند الله، قوله: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينَ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، وفي الحديث: الأول: «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ»، والدين والإسلام بمعنى واحد.

والرمية: الصيد، وفسر مروق السهم من الرمية فقال: «يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرىٰ شَيْئًا» والنصل: حديدة السهم؛ يعني: تنظر هل فيه شيء من أثر الصيد، فلا ترى شيئًا، قوله: «وَيَنْظُرُ فِي القِدْحِ فَلَا يَرىٰ شَيْئًا» والقدح بكسر القاف: السهم قبل أن يراش ويركب بنصله، قوله: «وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرىٰ شَيْئًا، وَيَتَمَارىٰ»، يعني: ينظر إلى الرامي، قوله: «فِي الفُوقِ»؛ الفوق بضم الفاء: مدخل الوتر، يعني: هل فيه شيء من أثر الصيد، فلا يرى فيه شيئًا بسبب سرعة دخول السهم، والسهم مثل الرصاصة التي تدخل في كبد الطير وتخرج بسرعة، ولو تأنى لصار فيه علق دم وفرث؛ ولهذا في الحديث الآخر قال: «**سبق الفرث والدم**»(١)، فكذلك هؤلاء يخرجون من الدين بسرعة، فشبه خروجهم من الدين ومن الإيمان بسرعة مثل خروج السهم إذا أصاب الرمية وخرج بسرعة.

واستدل طائفة من أهل العلم بهذين الحديثين على كُفْر الخوارج، وهو رواية عن الإمام أحمد(٢)، مع قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»(٣)، وقوله ﷺ في الحديث السابق: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وهو اختيار شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ.

وذهب جمهور العلماء إلى أن الخوارج ليسوا كفارًا، وإنما هم عصاة مبتدعة؛ لأن لهم تأويلًا ولهم شبهة، والقاعدة أن المتأول لا يكون حكمه حكم الجاحد، كمن يؤول الاستواء بالاستيلاء.

---

(١) أحمد (٣/ ٥٦)، والبخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) انظر: «الإنصاف» (١٠/ ٣١٣).
(٣) أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

والخوارج عاصروا الصحابة لكن عندهم عقيدة خبيثة؛ فهم يكفرون المسلمين بالمعاصي ويأخذون الآيات التي نزلت في الكفار ويحملونها على المسلمين، فقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٨] يجعلونها في العصاة ويكفرونهم، كما أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، ويرون أنه يخلد في النار، وذلك كالزاني، وشارب الخمر، والعاق لوالديه، والمرابي، مع أن الأحاديث متواترة وصريحة، ومع ذلك أنكروها، وقاتلهم عثمان، ولا يزالون يخرجون في كثير من الأوقات والأزمنة؛ فقد خرجوا في الدولة الأموية والعباسية، وهم موجودون في هذا الزمان في أمكنة متعددة؛ منها: المغرب، وعمان؛ فيها الإباضية، وكذلك أيضًا بعض الشباب الذين اعتنقوا مذهب الخوارج فكفروا العلماء والحكام والمسلمين، واستحلوا دماء المسلمين، وقتلوا المعاهدين والمسلمين والنساء والأطفال بسبب العقيدة الخبيثة؛ كما قال النبي ﷺ: «**يقتلون أهل الإسلام ويدَعون أهل الأوثان**»(١). نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من زيغ القلوب.

وأصل الخوارج ذو الخويصرة الذي اعترض على النبي ﷺ وقال: «اعدل يا محمد فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله»، فأراد عمر رضي الله عنه أن يقتله، فقال له ﷺ: «**دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم**»(٢) لكن إمامهم رجل ما خرج إلا في زمن علي رضي الله عنه.

❖ ❖ ❖

{٥٠٥٩} هذا الحديث ضرب فيه النبي ﷺ أربعة أمثلة للذين يقرءون القرآن؛ مثلين للمؤمنين ومثلين للكفار:

المثل الأول: قال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ**»، ريحها طيب: هذا هو القرآن، وطعمها طيب أي: الإيمان.

(١) أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).
(٢) أحمد (٣/ ٦٥)، والبخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

المثل الثاني: قال ﷺ: **«وَالْمُؤْمِنُ الذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا»**.

المثل الثالث: قال ﷺ: **«وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»** والريح الطيب: هو القرآن.

المثل الرابع: قال ﷺ: **«وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ - أَوْ خَبِيثٌ - وَرِيحُهَا مُرٌّ»**؛ لأنه ليس معه قرآن، والحنظلة ثمرة معروفة شديدة المرارة، وهي تشبه البرتقالة الصغيرة، ونسميها عندنا في اللهجة العامية: الشري. نسأل الله السلامة والعافية.

وهذا فيه مثال لمن فجر بالقرآن أو تأكل به.

بَابٌ اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ

{٥٠٦٠} حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الجَوْنِيِّ، عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ».

{٥٠٦١} حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا سَلَّامُ بْنُ أَبِي مُطِيعٍ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الجَوْنِيِّ، عَنْ جُنْدَبٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ».

تَابَعَهُ الحَارِثُ بْنُ عُبَيْدٍ وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ وَلَمْ يَرْفَعْهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ وَأَبَانُ. وَقَالَ غُنْدَرٌ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ سَمِعْتُ جُنْدَبًا قَوْلَهُ. وَقَالَ ابن عَوْنٍ: عَنْ أَبِي عِمْرَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ عُمَرَ قَوْلَهُ. وَجُنْدَبٌ أَصَحُّ وَأَكْثَرُ.

{٥٠٦٢} حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنِ النَّزَّالِ بْنِ سَبْرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ آيَةً سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ خِلَافَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ فَاقْرَآ» أَكْبَرُ عِلْمِي قَالَ: «فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَأَهْلَكَهُمْ».

الشَّرح

أورد المصنف رحمه الله هذه الترجمة على لفظ الحديث: «اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ»، ومعنى ائتلفت، أي: اجتمعت.

{٥٠٦٠} ذكر حديث جندب عن النبي ﷺ قال: «اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ»، والمعنى: اقرءوا القرآن ما دمتم متحدين خاشعين، فإذا اختلفتم في معانيه فقوموا؛ لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر. وفيه حث على قراءة القرآن مع وحدة الصف.

{٥٠٦١} الطريق الثاني لحديث جندب قال: «اقْرَءُوا القُرْآنَ مَا ٱئْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا ٱخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ»، أي: فإذا اختلفتم في معانيه وتنازعتم فيها فقوموا عنه؛ لئلا يؤدي إلى الخلاف وتنافر القلوب.

ثم ذكر المتابعة فقال: «تَابَعَهُ الحَارِثُ بْنُ عُبَيْدٍ وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ وَلَمْ يَرْفَعْهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ وَأَبَانُ».

○ قوله: «وجندب أصح وأكثر»، يعني: روايته عن جندب أصح وأكثر من رواية عبد الله بن الصامت عن عمر.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث الحض على الجماعة والألفة، والتحذير من الفرقة والاختلاف، والنهي عن المراء في القرآن بغير حق، ومن شر ذلك أن تظهر دلالة الآية على شيء يخالف الرأي فيتوسل بالنظر وتدقيقه».

ومن أمثلة ذلك: أن تظهر دلالة الآية تخالف ما يراه بعض الناس، فيتعسف ويتأمل فيها فيؤولها على غير تأويلها؛ حتى توافق الرأي الذي يراه، فيقع بذلك اللجاج والخصومة، وهذا منهي عنه.

❖ ❖ ❖

{٥٠٦٢} في هذا الحديث أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ آيَةً سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ خِلَافَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ»، أي: أن هذه قراءة صحيحة وهذه قراءة صحيحة، وفي اللفظ الآخر: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف**»[(١)].

○ قوله: «فَاقْرَآ»، يعني: كل واحد منكم يقرأ القراءة التي علمها له الرسول ﷺ. قال الراوي: «أَكْبَرُ عِلْمِي قَالَ: فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ ٱخْتَلَفُوا فَأَهْلَكَهُمْ»، أي: أهلكهم الاختلاف، فلا تختلفوا في القراءة؛ لأن القراءة كلها من عند الله وكلها حق، فالاختلاف شر.

---

(١) أحمد (١/ ٢٤)، والبخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨).

○ وقوله: «أَكْبَرُ عِلْمِي» هذا الشك من شعبة.

وقد أخرج مسلم عن أبي عمران حديثًا آخر، عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: «**هجَّرتُ إلى النبي ﷺ، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**»[1] قالوا: وهذا مما يقوي أن يكون لطريق ابن عمر أصل، ويكون طريق ابن عون كأنه حديث مستقل، والثقة إذا حدث بحديث فهو مقبول، وكذلك إذ انفرد؛ ما لم يخالف من هو أوثق منه.

(١) مسلم (٢٦٦٦).

فهـــرس الموضوعات

كِتابُ تَفْسِيْرِ القُرْآن

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

كتاب فضائل القرآن